مكتبة الدراسات القرآنية

مُعْتَرَكُ الأَقْرَانْ
في
إعْجَازِ القُرْآن

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

تحقيق
علي محمد البجاوي

القسم الثالث

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



دار الثقافة العربية للطباعة ـ تليفون ٨١٦٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حرف الفاء

(فسق): أصله الخروج، وتارة يرد بمعنى الكفر، وبمعنى العِصْيان؛ وكلُّ خارج عن أمر الله فهو فاسق. يقال فسقت الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها.

(فما فَوْقَها[1]): الضمير راجع للبعوضة. ولما ذكر الله في القرآن الذباب والنمل والعنكبوت عاب الكفّارُ ذلك. فأنزل الله[1]: «إنَّ الله لا يستحْيِي أن يضربَ مَثَلًا ما بعوضةً فما فوقها».

قال قُطْرب: الحروف المقطعة والأمثال وضعها الله لإطفاء شغَف الكفار حيث قالوا[2]: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه»؛ فوضع الله هذه الحروف والأمثال يسمعونها، لأنها عربية لم يسمعوها قبل ذلك، ثم يبلغ الرسول رسالته بعد ذكرها ذلك.

(فأزَلَّهما الشيطانُ عنها[3])؛ أي عن الجنة أو عن الشجرة؛ والزلل متعد من زلل القدم. وأزالهما بالألف من الزوال، وضمير التثنية لآدم وحواء؛ وكذا[4] فأخرجهما مما كانا فيه.

والصحيح كما قدمنا أن آدمَ أكل منها نسيانا، وحلف له إبليسُ، فظنّ

---

(١) البقرة: ٢٦ (٢) فصلت: ٢٦ (٣) البقرة: ٣٦

(٤) في إعادة الضمير على آدم وحواء.

أنه لا يحلفُ أحدٌ بالله كاذبا ، فجعل الله له الأكل من الشجرة سبباً فى إخراجه من الجنة ؛ لِحِكَمٍ ؛ منها :

أنه كان فى حكمة الحكيم أن يكون خليفةً فى الأرض ، ويقوم فيها ؛ فأراد آدمُ أن يقيم فى الجنة ، فجعل الله بأكل الحنطة وتناولها سبباً لخروجه من الجنة ؛ لينفذَ ما قضى وقدّر .

وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يكونَ مقامه بمكةَ ، وكان فى حِكْمَة الحكيم أن يمكث فى المدينة مدةً ، ويعلى كلمتَهَ فيها ، فجعل جفاء المشركين سبباً لخروجه منها ؛ لِسَبْقِ مقاديره إلى مواقيتها .

كذلك العَبْدُ المخلص يريد أن يكون فى طاعة ربه ، ولا يقع فى مخالفته ؛ وكان فى حكمة الحكيم أن يكون غفوراً وغافراً وغفّاراً ؛ فجعل خذلان العاصى سبباً لخروجه عن أمره ، ثم يمنُّ عليه بالتوبة ، فيتداركه برحمته ، فيُظهر حكمته وتقديره ، ويُبدى للعالمين غفرانه .

ومنها[1] لكون الكفّار فى صلبه إذ لم تكن الجنة محلا للكافرين ؛ وكذلك المؤمن يخرجه من النار لكون المعرفة فى قلبه ؛ إذ ليست النار محلّا للعارفين .

ومثال المؤمن والكافر فى صلب آدم كتاجر أخفى المسك فى وسط البُجْدُق[2] حتى لا يحسّ به قاطعُ الطريق ، فإذا بلغ المأمَن كان المسك قد أخذ بطرف من رائحة البُجْدُق . وكذلك البُجْدُق تعلق به شىءٌ من رائحة المسك ،

---

(١) من حكم إخراج آدم من الجنة .

(٢) فى ا : الانجدالى ، والبجدق ــ كسفر : بذر قطونا . (القاموس) .

فيبسطهما على بساطٍ فتهبّ الرياح فتتلاشى الروائح المستعارة ، كلُّ رائحة تعود إلى أصلها ، فيبقى الأصلُ على ما خُلق عليه . فكذلك الكافر والمؤمن فى صُلب آدم ، فأصاب الكافر رائحةً من المؤمن ، فيعمل منها الحسنات ، وأصاب المؤمنُ رائحةً من الكافر فيعمل منها السيئات ؛ فإذا كان يوم القيامة يجمعهم اللهُ فى بساطٍ واحد ، فتهبّ رياحُ القيامة ، فترجع حسناتُ الكافر إلى المؤمن ، ويرثُ بها منزلَه فى الجنة ، وسيئات المؤمنِ إلى الكافرِ ويرث بها منزلَه فى النار [٢١٨ ا] فتتلاشى العوارى ، وتبقى الأصولُ على ما قدّر وقضى ؛ قال تعالى[1] : « ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيّبِ » . وقال[2] : « وليحملُنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » .

ومنها أنه كان فى خروجه من الجنة رحمة من الله له وإكراما بالنبوة والتكاليف . والفائدةُ فيه أنه يرحم مَنْ عصاه فى جواره ، فالأَوْلى ألّا يعاقب مَنْ عصاه فى جوار إبليس .

قيل : إنه قال : يا رب ، إنى أستحى من ولد محمد . فقال له : سأمهّد له عُذْرك ، فقال[3] : « ولم نَجِدْ له عزْما » ؛ أى لم يعتقد الذنب ، ولم يثبت عليه ؛ بل اعتذر وندم . وكذلك مهّد الله عُذْر هذه الأمة المحمدية بقوله[4] : « للذين عملوا السُّوءَ بجهالةٍ » . وقال[5] : « وخُلق الإنسان ضعيفا » . «[6] خُلق الإنسان من عَجَلٍ » . أدبك بأوامر ولم يرض أن يعاتبك غيرةً منه إليك ، فاعتذر منك إليك .

([7] فتلقّى آدمُ من ربه كلمـاتٍ) ، أى أخذ ، قيل ، على قراءة الجماعة . وقرأ ابنُ كثير بنصب آدم ورَفْع الكلمات ؛ فتلقى على هذا من اللقـاء ،

---

(١) الأنفال : ٣٧ (٢) العنكبوت : ١٣ (٣) طه : ١١٥
(٤) النحل : ١١٩ (٥) النساء : ٢٨ (٦) الأنبياء : ٣٧
(٧) البقرة : ٣٧

والكلمات هي قوله : « ربَّنا ظلَمْنا أنفُسنا » ، بدليل ورودها في الأعراف . وقيل غير ذلك .

وهذه إحدى الخصائص التي خصَّ الله آدم بها ؛ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من رُوحه ، وأسجد له ملائكته ، وأمرهم بحمْله إلى الجنة على أكتافهم ، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء ، ثم عرضهم على الملائكة ، وأدخله الجنة بغير عملٍ إلا أمْره بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلَّمه مواجهة . ولما عطس قال : الحمد لله ، فأجابه الله بقوله : يرحمك الله ؛ يا آدم لهذا خلقتُك . فهذا معنى قوله تعالى[1] : « ولولا كلمةٌ سبقَتْ مِنْ ربِّكَ » .

(فإمّا يأتينّكم مني هُدًى[2]) : إن شرطية ، وما زائدة للتأكيد . والهدى هنا يرادُ به كتابُ الله ورسالته .

(فمن تَبِع[3]) ـ شرط ، وهو جواب الشرط الأول . وقيل : « فلا خوف » جواب الشرطين .

واعلم أنَّ الكتابَ كتابان : كتاب من الله إليكَ ، وكتاب منكَ إليه بيد الحفَظة ؛ فإذا قبلتَ كتابه الذي فيه الأمْرُ والنهي ، والوَعْد والوعيد ، ونزول البلاء عليك ، ووجود الرضا منك ؛ وإن كان فيه ما يخالفُ هواكَ ؛ أفتراه لا يقبل كتابك في يوم القيامة وإن كان مملوءاً زَلّات ؛ وهي لا تضره ؟ ألا تراه يقول في إبراهيم[3] : « ولقد اصْطَفَيْناهُ في الدُّنيا وإنّه في الآخرةِ لَمِنَ الصالحين » . واصطفاك أنتَ بكتابه ، قال تعالى[4] : « ثم أوْرَثْنا الكتابَ الذين اصطَفَيْنا مِنْ عبادنا » .

---

(١) هود : ١١٠ (٢) البقرة : ٣٨ (٣) البقرة : ١٣٠

(٤) فاطر : ٣٢

والاصطفاءُ فعلُ الله ، وفعلُ الله مبنيٌّ على الابتداء ؛ قال تعالى[1] : « كما بدأكُمْ تعُودون » .

والصلاحُ فعل العبد ، وفعلُ العبد مبنيّ على الخواتم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : الأعمال بالخواتم .

واعلم أنَّ مَنْ سأل اللهَ شيئا سأل اللهُ منه ، فمن لا يقومُ لله فيما سأل منه لا يعطيه ما يسأل ، ومَنْ قام لله فيما سأل منه أعطاه بلا مؤنة ؛ ألا ترى أن الله أعطى لإبراهيم المالَ فى الدنيا والولد والمعجزات بغير سؤال ، فلما سأل إبراهيم بقوله[2] : « إنّي ذاهبٌ إلى ربّي سيَهْدِين » ـ سأل منه الـكلَّ ، فقال له : أسلم ، أى الكل إلى الكل ، إنْ أردْتَ الوصول إلى الكل . ولما سأل منه إحياء الموتى سأل الله منه إماتة الحى ؛ ألا ترى أنه قال[3] : « فلما أسْلَما » ـ يعنى وضع السكّين على حَلْقه قال : إلهى بكَ ولكَ وإليك ؛ أى بك الصبر على فراقه ، ومنكَ إعطاؤه ، ولكَ الحكم فيه ، وإليك يرجع الأمر كله .

فإن قلت : ما الحكمةُ فى جزَع إبراهيم وصَبْر إسماعيل ؟

والجواب : إسماعيل عَرف ـ برؤية المعرفة ـ أن إبراهيم إنما ابْتُلى بذبْحِه ، لأنه التفت بقلبه عن الله ، فلو أنّ الولد التفت بقلبه لابْتُلى كما ابتلى إبراهيم . وأيضا جزع إبراهيم على مفارقة حبيب لم يكن له وصلة فى ذلك الوقت إلى مَنْ هو أحبّ إليه منه . وإبراهيم لم يجزَعْ ؛ لأنه وصل إلى الحبيب المجازى .

وقيل لما وضع السكين على حَلْقه أراه اللهُ نوراً من أنواره أنساه ما يجد من الألم لوجود لذة ذلك النور ؛ كنساءِ مِصْرَ اللواتى قطّعْنَ أيديهن برؤية يوسف .

---

(١) الأعراف : ٢٩ (٢) الصافات : ٩٩ (٣) الصافات : ١٠٣

وقيل إن اللهَ قال له : يا إبراهيم ، جزعتَ على مفارقة حبيب زائل عنك ، وضاق ذَرْعك به ، فكيف بمفارقة الحبيب الباقي ؟ فكان جزعه لهذا السبب لا لِلوَلد .

(فضّلكم على العالمين[1]) ؛ أي عالمِ أهلِ زمانهم ؛ لأنه يجب الاعتقادُ بتفضيل هذه الأمةِ المحمدية لفَضل نبيهم .

قيل : أعطى اللهُ الكليمَ عشر معجزات ، وأكْرَمَ قوْمَه بعشر كرامات ، وشكى عليهم بعشر شكيات ، وعاقبهم بعشر عقوبات :

أول المعجزات[2] : « فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، والدم » ، والعصا ، واليد[3] ، والحجر ، والألواح ، والصّحف .

وأما الكرامات : وإذ أنجيناكم . وإذ فرقنا بكم البحر . ثم بعثناكم من بعد موتكم . وظلّلنا عليكم الغمامَ ، وأنزلنا عليكم المنَّ والسّلوَى ثم عفونا عنكم مِنْ بعد ذلك فتاب عليكم . يغفر لكم خطاياكم . قد علم كلُّ إناسٍ مَشْرَبهم . وإذ آتينا موسى الكتاب .

والشكيّات : ثم اتخذتم العجْل . قالوا أرِنا الله جَهْرة . فبدّل الذين ظلموا قَوْلا . ادعُ لنا ربَّك . ثم يحرّفونه . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك . فبما نَقْضِهم ميثاقَهم ، وكُفْرِهم بآيات الله ، وقَتْلِهم الأنبياءَ بغير حق[4] .

والعقوبات : ضُرِبت[5] عليهم الذّلةُ والمسكنة . والجزْية . وباءُوا[6] بغضبٍ من الله . فاقتلوا أنفسكم . يذَبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم .

---

(١) الأعراف : ١٤٠ (٢) الأعراف : ١٣٣ (٣) خرجت بيضاء من غير سوء .

(٤) هذه تسعة لا عشرة وقد سبق في صفحة ٦٢١ من الجزء الأول . وزاد هناك : لن نصبر على طعام واحد . سمعنا وعصينا . توليتم من بعد ذلك . ولم يذكر هناك : ادع لنا ربك . فبما نقضهم ميثاقهم . (٥) البقرة : ٦١ (٦) آل عمران : ١١٢

كونوا قردةً خاسئين . فأرسلنا عليهم رِجْزاً من السماء . والله مُخْرِجٌ ما كُنتُم تَكتُمون .

(فَرَقْنا بكم البَحْرَ[1]) ؛ أي جعلناه فرقا ، اثني عشر طريقاً على عدد الأسْبَاط . والبحرُ المراد به القلزم .

(فاقتلُوا أنفسكم[2]) : رُوِى أنّ من يعبد العجل قتل من عبده حتى بلغ القتل فيهم سبعين ألفا ، فعفا الله عنهم .

(فتاب عليكم[2]) : قبله محذوف لدلالة الكلام عليه ، وهو فَحْوى الخطاب ؛ أي فعلتم ما أُمرتم به من القتل فتاب عليكم .

(فانفجرَتْ[3]) : قبله محذوف تقديره : فضربه فانفجرت ، أي سالَتْ . ومنه انفجر ؛ وكان هذا الاستسقاء في فحص التِّيه ، وكان الحجر من جبَل الطور ، وهو المشهور ، لأنه أبلغ في الإعجاز ، ولهذا كانوا يحدونه في كل مَرْحلة .

ولا خلافَ أنه كان حجراً مربّعا منفصلا له أربع جهات كانت تنبع من كلّ جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى عليه السلام ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

وقيل إن هذا الحجر هو الذي وضع موسى ثوبه عليه ففرّ بثوبه ، ومرّ على مَلأ من بني إسرائيل حين رموه بالأُدْرَة[4] ، فلما وقف أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : إن الله تعالى يقول لك : ارفع هذا الحجر ، فإنّ لي فيه قدرةً ، ولك فيه معجزة ؛ فرفعه ووضعه في مِخْلَاته . وكان موسى ضربه اثنتي عشرة ضربة ،

---

(١) البقرة : ٥٠ (٢) البقرة : ٥٤ (٣) البقرة : ٦٠

(٤) الآدر والمأدور : من يصيبه فتق في إحدى خصيتيه (القاموس).

فيظهر بكل ضربة مثل ثَدْى المرأة فيرفه فتنفجر الأنهارُ منه ، ثم يسيل الماء .

فإن قلت : هل الانفجارُ والانبجاس[١] بمعنى واحـــــد ؛ لأنه اختلف التعبير بهما[٢] ؟

والجواب أنّ الانبجاس أقلُّ من الانفجار ؛ لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة ؛ والانبجاس ظهور الماء ؛ فالواقع هنا طلب موسى عليه السلام من ربه ؛ قال تعالى[٣] : « وإذ استَسْقَى موسى لقَوْمِهِ » . فطلبهم ابتداء قيل - إجابة لطلبه : فانفجرت ، مناسبة لذلك . وفى الأعراف طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام السقى ؛ قال تعالى[٤] : « وأوحينا إلى موسى إذ استَسْقاه قَوْمُه » ؛ قيل - جوابا لطلبهم : فانبجست ؛ فناسب الابتداءُ الابتداء والنهايةُ النهايةَ .

واعلم أنّ اللهَ تعالى وضع الدولة على ثلاثة أحجار ، [والقدرة فى ثلاثة أحجار][٥] ، والملك فى ثلاثة أحجار ؛ أما الدولة فوضعها فى الكعبة ، وجعلها موضعَ طواف المؤمنين . وجعل مقامَ إبراهيم قبلةً للمؤمنين . والحجر الأسود جعله بينه وبين خَلْقِهِ عهداً وشهيداً .

وأما القدرة فوضعها الله فى حجرَ موسى ، وحجر ناقة صالح ، وحجر موسى الذى برّأه اللهُ بسببه مما قالوا .

وأما الملك ففى خاتم سُليمان ، وصخرة بيت المقدس ، وحجر داود .

وبالقدرة يخرج من الحجر الماء والذهب والنار .

---

(١) فى سورة الأعراف (١٦٠) : أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا .
(٢) تفسير ابن كثير : ١ — ١٠١ ، والكشاف : ١ — ٥٧
(٣) البقرة : ٦٠ (٤) الأعراف : ١٦٠
(٥) زيادة يقتضيها الشرح الآتى .

(فَكُلُوا) : خطاب لبني إسرائيل ؛ وجاء هنا بالفاء[١] التي للترتيب ؛ لأن الأكل بعد الدخول فيها ، وجاء في الأعراف بالواو[١] بعد قوله : اسْكُنُوا ؛ لأنّ الأكلَ مقارن للسكنى .

(فَارِض[٢]) : مُسِنّة . وبِكْر : صغيرة .

(فَاقِعٌ[٣]) : شديد الصفرة .

(فَادّارَأْتُمْ فيها[٤]) ؛ أي اختلفتم ، وهو من المُدَارأة ؛ أي المدافعة .

(فذَبحوها[٥]) ، من الذبح الذي هو قَطْع الحلقوم والوَدَجين[٦] . وبهذا استدلَّ مَنْ قال بذبح البقرة ولا يجزىء غيره .

(فأَتَمَّهُنّ[٧]) ؛ يعني وَفَّى بهن . ولما ادَّعَى محبةَ الله تعالى ابتلاه بعشر : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ؛ فأتمهنّ ؛ أي وفى بهن .

وقال بعض : هو على الظاهر ، وتحت كلّ واحدة منهن إشارة .

وقيل أراد بالكلمات الدعوات ؛ وهي قوله[٨] : « رَبَّنَا [٢١٩ ا] إني أسكنت » . ولا تُخْزِني .

وقيل ابْتُلِي بالنار ، فقال : حسبي الله .

وقيل : لما وضع السكين على حَلْق إسماعيل قال : منك ما أرى ، ومتى ما ترى ؛ فأنجاه الله بهذه الكلمات .

---

(١) آية البقرة (٥٨) : وإذ قلنا ادخلوا هــذه القرية فكلوا منها حيث شئتم . وآية الأعراف (١٦١) : وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها .
(٢) البقرة : ٦٨
(٣) البقرة : ٦٩
(٤) البقرة : ٧٢
(٥) البقرة : ٧١
(٦) الودج ـ محركة : عرق في العنق .
(٧) البقرة : ٢٤
(٨) إبراهيم : ٣٧

وقيل : غير هذا .

قال بعضهم : ابتلى الله خليله بعشرة أشياء ، ثم أثنى عليه بعشرة ، ثم أعطاه عشرة .

أما الابتلاءُ فهو مناظرةُ النمْرُود ، والكوكب والقمر والشمس ، وبكسر الأصنام ، ومناظرة الأب ، وبالهجرة ، وبنار النمْرُود ، وبذبح الولد ، وبالإخلاص في قول الله له : أسلم . وبالعشر كلمات ، وبالملائكة الذين بعثهم الله إليه شبه المجوس يعرض عليهم الإيمان .

وأما الثناء عليه فسمّاهُ أُمّةً قانِتاً لله حَنيفاً ، شاكراً لأنْعُمه ، وفِيًّا صديقاً نبيًّا قيًّا ، أوّاهاً مُنيباً .

واصطفاه بالإجتباء والاهتداء ، والبركة والبِشارة بإسحاق ، والحجة على قومه ، والإمامة والمقام ، ونسبة الأمة المحمدية ، على جميعهم السلام ، والخلّة في قوله تعالى[1] : « واتّخذ الله إبراهيمَ خليلا » .

([2]فمن عُفِيَ له من أخيه شيء ...) الآية . فيها تأويلان .

أحدها أنّ المعنى مَنْ قتل فعُفِي عنه فعليه أداء الدية بإحسان ؛ وعلى أولياء المقتول اتّباعه بها بمعروف ؛ فعلى هذا « مَنْ » كناية عن القاتل ، وأخوه هو المقتول أو وَليّه . وعُفِي من العَفْو عن القصاص . وأصله أن يتعدى بعن ؛ وإنما تعدّى هنا باللام ؛ لأنه كقولك : تجاوزت لفلان عن ذنبه .

والثاني أنّ المعنى إنّ مَنْ أعطيتَه الدية فعليه اتباعٌ بمعروف ، وعلى القاتل أداء بإحسان ؛ فعلى هذا « من » كناية عن أولياء المقتول ، وأخوه هو القاتل أو عاقِلَتَه ، وعُفِي بمعنى يسر ؛ كقوله[3] : « خُذ العَفْو » ؛ أى تيَسّر .

---

(١) النساء : ١٢٥ (٢) البقرة : ١٧٨ (٣) الأعراف : ١٩٩ ، وفى القرطبي (٧ — ٣٤٦) : أى اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر .

ولا إشكال فى تعدّى عُفِى بإلى على هذا المعنى .

([1]فمن اعتدَى بعد ذلكَ فلهُ عذابٌ أليم) ؛ أى قتل قاتِلَ وليِّه بعد أخذ الدية منه فله القصاصُ منه . وقيل عذاب الآخرة .

([2]فمن تطوّع) ؛ أى صام ولم يأخذ بالفطر والكفارة . وذلك على القول بالنسخ . وقيل تطوّع بالزيادة فى مقدار الطعام ، وذلك على القول بعدم النسخ .

([3]فمن شهِد منكم الشّهرَ فليَصُمْه) ؛ أى كان حاضراً غير مسافر . والشهر منصوب على الظرفية . والمراد به شهر رمضان المتقدم .

([4]فلْيَستَجيبُوا لى) ؛ أى فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعة .

([5]فاعتَدُوا عليه) : تسمية العقوبة باسم الذنب ؛ أى قاتلوا من قاتلكم ، ولا تبالوا بحرمة صدّكم عن مكة .

([6]فما استَيْسَر مِنَ الهَدْى) : وأقلُّ ذلك شاة تذبحونها .

([7]فمَنْ كانَ مِنكُمْ مَرِيضا) : نزلَتْ فى كَعْب بن عُجْرَة لما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لعلك تؤْذيك هوَامُّ رأسك ؟ فقال : نعم . فقال له صلى الله عليه وسلم : احلق رأسك ، وصُمْ ثلاثة أيام ، أو أطْعِم ستة مساكين ، أو انسُكْ[8] بشاةٍ ؛ فمعنى الآية : إنّ مَنْ كان فى الحج واضطره مرضٌ أو قمل إلى حَلْق رأسه قبل يوم النّحْر جاز له حَلْقُه ؛ وعليه صيامٌ ، أو صدقة ، أو نسك ، حسبما فسّر فى الحديث .

---

(١) البقرة : ١٧٨ (٢) البقرة : ١٨٤ (٣) البقرة : ١٨٥
(٤) البقرة : ١٨٦ (٥) البقرة : ١٩٤ (٦) البقرة : ١٩٦
(٧) البقرة : ١٩٦ (٨) الفعل كنصر وكرم .

وقاس الفقهاء على حَلْق الرأس سائرَ الأشياء التى يمنع الحج منها ، إلا الصيد ووَطء النساء .

وقاس الظاهرية ذلك على حلق الرأس ؛ ولا بد فى الآية من مُضْمَر لا يستقلّ الكلام دونه ؛ وهو المسمى فَحْوَى الخطاب ؛ وتقديره : فمن كان منكم مريضا أو به أذى مِنْ رأسه فحَلَق رأسه فعليه فِدْية .

(فاذكرونى أذْكُرْكُمْ[١]) : قد قدمنا مراراً أنَّ منزلة العبد من الله حيث أنزله العبد ؛ ولهذا لما قال داود : يا رب ، كُنْ لسليمان كما كُنْتَ لى . فأوحى اللهُ إليه : قل له يكون لى كما كُنْتَ لى أكون له كما كنتُ لك .

وقد أمرنا الله بهذا فى آيات من كتابه ؛ قال تعالى : وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بعهدكم . فافسَحُوا يَفْسح الله لكم . إنْ تَنْصُروا الله ينصركم . يحبُّهم ويحبُّونه . هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان .

وقد اختلفت الأقاويلُ فى قوله : اذكرونى أذكركم — نحوًا من أربعين قولا ؛ فإن ذكرته بالإيمان يذكرك بالجنة ؛ لقوله : وعد الله المؤمنين . وإن ذكرته بالاسترجاع يذكرك بالرحمة . وإن ذكرته بالاستغفار يذكرك بالمغفرة . وإن ذكرته بالإنفاق يذكرك بالخَلَف . وإن ذكرته بالشكر يذكرك بالزيادة . وإن ذكرته بالصبر [٢١٩ب] يذكرك بالأجر . وإن ذكرته بالتقوى يذكرك بالفرج . وإن ذكرته بالتوكل يذكرك بالكفاية . وإن ذكرته بالتوبة يذكرك بالقبول . وإن ذكرته بالدعاء يذكرك بالإجابة . وإن ذكرته بالمجاهدة يذكرك بالهداية . وإن ذكرته بالطاعة يذكرك بالمودّة . وإن ذكرته بالسجود

---

(١) البقرة : ١٥٢

يذكرك بالقرب . وإن ذكرته بالإحسان يذكرك بالرحمة . وإن ذكرته بالاستقامة يذكرك بالأَمْن . وإن ذكرته بالقَرْض يذكرك بالتضعيف . وإن ذكرته بالفرائض يذكرك بالفلاح . وإن ذكرته بالخشية يذكرك بالفوز . وإن ذكرته بالاعتصام يذكرك بالنصر . وإن ذكرته فى نفسك ذكرك فى نفسه . وإن ذكرتَه فى مَلَأٍ ذكرك فى ملأ خير مِنْ مَلَئك . وإن ذكرته بالنوافل ذكرك بالمحبة . وإن تقرّبت إليه شبرًا تقرّب منك باعاً . وإن أتيته مَشْيا أتاك هَرْوَلة . وإن أتيتَه بقُرَاب[1] الأرض خطيئة ولم تُشْرِك به أتاك بمثلها مغفرة ؛ وهو الغفور الرحيم .

وفى التوراة : يا ابن آدم أظهرت الذنوب منى وأخفيتها عن الخلق ، وأبديت الحسنات لخَلْقى ولم تُخْلِصْها لى ، وأكلتَ رزقى ولم تشكرنى ، وبارزتَنى بالمعاصى ولم تَسْتَحِ منّى ، ولم تحذرنى ؛ أمّا ما أظهرت من الذنوب فقد غفرتُها لك ، وما أتيتَ من الحسنات بغير إخلاص فقد قبلتُها منك ، وما أكلت من رزق ولم تشكرنى فلم أحرمك الزيادة ، وما بارزتنى به ولم تستح منى فأنا أستحى أن أعذّبك بعد شهادتك لى بوَحْدَانيتى ، وأنا الغفور الرحيم .

فتأمّلْ أيها العاصى هذه الكرامات التى أكرمك بها ، دعاك أولا بنفسه بقوله : واللهُ يدعو إلى دار السلام ؛ من دارٍ أوّلُها بكاء ، وأوسطها عَناء ، وآخرها فَناء ، إلى دارٍ أولها عطاء ، وآخرها لقاء ؛ وهى أحسن البنيان المسدس ؛ فإن اللهَ خلقك مُسَدّسًا ؛ فخمسة منها يدعوك إلى خمس جهات والله سادسهم : يدعوك من تلك الجهات كلّها إليه ؛ فالأَمَلُ يدعوك من بين يديك ، والشيطان يدعوك من خَلْفك ، والهوى يدعوك عن يسارك ، والشهوة عن يمينك ، والدنيا

---

(١) قراب الشىء بالكسر ، وقرابه ، وقرابته ـ بالضم : ما قارب قدره (القاموس).

تَحْتَك ؛ والله من فوقك ؛ فذلك قوله[1] : « ولا خمسة إلا هو سادِسهم » .

فإن كانت همتك في دار الأشجار والبساتين والأنهار فقد دعاكَ لذلك بقوله : « جنات عَدْن تجرى مِنْ تحتها الأنهار » . وإن كانت همتك الطعام والشراب فقد دعاك لذلك بقوله : « كُلُوا واشربوا » . «[2] يُطَافُ عليهم بصِحَافٍ مِنْ ذَهب» . «ولَحْمِ طَيْرٍ مما يشتهون[3]» . وإن كانت همتك التمتع بالنسوان فقد دعاكَ لذلك بقوله : « وحُورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون » ، لو تفلَتْ إحداهنّ على البحر لعَذُب، ولو اطلعت إحداهن على الدنيا لأضاء ما فيها . وإن كانت همتك اللباس فقد رغّبك بقوله[4] : « يُحَلّوْنَ فيها من أساوِرَ من ذهب ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حَرِير » . وإن كانت همتكَ الغلمان والولدان فقد رَغّبك بقوله[5] : « وِلْدَان مُخَلَّدُون » . «[6] غلمان لهم كأنّهم لُؤلؤ مَكْنُون » .

وإنْ كانت في المشرب والخمور فقد ذكر لكَ أنّ فيها أنهاراً من خَمْرٍ لَذة للشاربين . وإن كانت همتك رضاه والنظر إليه فقــــد دعاك في مواضع من كتابه ، وحرّضكَ عليه ، فما ظنُّك بربّ كريم يدعوكَ للضيافة وتقبَّل دعوته؛ أتراه لا يرضيك ، وقد بعث إليكَ الملائكة تبشرك حين نَزْعك ، وأعطاك في حياتك مراكب الجمال إلى بيته ، وأعناق الرجال إلى قَبْرِك ، والبراق إلى حَشْرك ، قال تعالى[7] : « يوم نَحْشُرُ المتّقين إلى الرحمن وَفْداً » .

(فعِدّةٌ من أيام أُخَر[8]) : هذا من رحمة الله بهذه الأمة ؛ حيث أباح لها التفريقَ في قضاء رمضان ، وهو من خصائص هذه الأمة ، قال تعالى[9]: « يأيُّها

---

(١) المجادلة : ٧ (٢) الزخرف : ٧١ (٣) الواقعة : ٢١
(٤) الحج : ٢٣ (٥) الواقعة : ١٧ (٦) الطور : ٢٤
(٧) مريم : ٨٥ (٨) البقرة : ١٨٤ (٩) البقرة : ١٨٣

الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم » .

فإن قلت: قد قلتُم : إنّ هذا الصيام من خصائص هذه الأمة ، فما معنى الصيام على غيرها ؟

فالجواب أنه اختلف : فقيل ثلاثة أيام مِنْ كُلِّ شهر . وقيل : عاشوراء [١.٢٢٠] ، ففي هذه الآية الشريفة نرى عُذْرَيْن ونهيين ونسخَيْن ورحمتين وكرامتين . .

أما العُذْران فقوله : « كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلكم » . والثاني: «أيَّاما معدودات » ؛ أي قليلة تمضي سريعاً .

وأما النَّسْخَان فقوله : « وعلى الذين يُطيقُونه فِدْيَةٌ طعام مسكين » ، أي في بَدْءِ الإسلام إنّ مَنْ لم يصم ثم أطعم لم يكن له[1] بذلك .

والثاني أن المجامعة كانت حراما في ليالي رمضان ، فأباح الله لهم بسبب عُمَر[2] قوله[3] : « أُحِلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائكم » — يعني الجماع .

وأما الأمران فقوله[4] : « ولتُكْمِلُوا العِدّة » ؛ وقوله[4] : « ولتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هَدَاكُم » .

وأما النَّهْيَان ففي المؤاكلة والمجامعة بالنهار؛ وهو قوله[3] : « ثم أَتِمُّوا الصيامَ إلى الليل » .

---

(١) في ابن كثير (١ ـ ٢١٥) : كان من أراد أن يفطر افتدى حتى نزلت الآية .

(٢) في ابن كثير (١ ـ ٢١٤) : كان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى النبي فذكر له ذلك ، فأنزل الله عز وجل : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ...

(٣) البقرة : ١٨٧ (٤) البقرة : ١٨٥

وأما الرخصتان : « فمَنْ كان مِنكُم مَرِيضا أو على سفَرٍ فعدَّةٌ من أيام أخر » ، فرخَّص له فى الإفطار والقضاء بأيام أُخر .

وأما الكرامتان فقوله : « شَهْرُ رَمَضَانَ » . وليلة القَدْر التى هى خَيْرٌ من ألفِ شهر ؛ فالصيامُ أفضلُ الطاعات ؛ لأنه يصوم بأمر ، ويُفطر بأمر : كلُوا واشرَبُوا . والجوع والعطش وغير التمتع مِنْ عذابِ أهل النار ، والله لا يجمعُ على الصائم عذابَيْن ، ويعطون الغرف فى الجنة بصبرهم ؛ قال تعالى[1] : « أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بما صَبَرُوا » . وكلُّ عمل لا يخلو من وجهين : إما طاعة مع الغفلة ، أو مَعْصِية مع الشهوة ؛ فجعل الله قبول الطاعة بالصوم قوله : « فمن تمتّع بالعُمْرَةِ إلى الحج فما استَيْسَرَ من الهَدْى » ، وجعل غُفرانَ المعصية بالصوم ؛ قال تعالى : « ومَنْ قتل مؤمنا . . . فصيام شهرين . . . » .

وانتهاء المناهى أفضلُ من ائتمار الأوامر ؛ ألا ترى أنه قال : مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . قال[2] : « ونهى النَّفْسَ عن الهَوَى » . والصومُ من انتهاء المناهى ؛ والزُّهد فى الحلال أفضل من الزهد فى الحرام ، والصوم من الزُّهد فى الحلال ؛ وفى نداء عباده تعالى بالإيمان من اللطائف والفضائل ما لا يحيط بها إلا هو ، كأنه سبحانه يقول : يا مَنْ أقْرَرْتُم بوَحْدَانيتى ، وعرفْتُم دَيْمُومِيتى ، لا تَقْنَطُوا من رحمتى .

قال بعضهم : النداء على عشرين وجها :

خمس من الله فى الدنيا ، وخمس للآدميين فى الدنيا ، وخمس من الملائكة فى الدنيا ، وخمس من الملائكة فى الآخرة .

---

(١) الفرقان : ٧٥ (٢) النازعات : ٤٠

أما الذى من الله فنداء الجنس : يأيها الناس . ونداء النسبة : يا بنى آدم ، يا بنى إسرائيل . ونداء المدحة : يأيها الذين آمنوا ؛ لأنَّ الله جمع أوصافَ المؤمنين ونعُوتهم ومعانيهم فى هذا النداء ؛ لأنه لم تبقَ حسنةٌ إلا دخلت تحته ، كما أن الله عَلَمٌ على ذاته القدسية ؛ ومَنْ ذكره فكأنما ذكر جميع أسمائه التى هى ألفُ اسم : ثلاثمائة فى التوراة ، وثلاثمائة فى الإنجيل ، وثلاثمائة فى الزَّبور ، وواحـــــد فى صُحف إبراهيم ، وتسع وتسعون فى القرآن ؛ فأوَّل جميع الكتبِ اللهُ .

ونداء الذمّة : يأيها الذين كفروا لا تعتذِرُوا اليوم .

ونداء الإضافة : يا عبادىَ الذين آمَنُوا . يا عبادى الذين أسرفوا .

وأما الذى للآدميّين : نداء الشريعة ، وهو لإبراهيم حيث قال له : وأَذِّنْ فى الناس بالحجّ . ونداء العتاب ليوسف[1] : يأيها العزيزُ مَسّنَا وأهْلَنا الضرّ . ونداء الإيمان لمحمد صلى الله عليه وسلم قوله : ربّنا إننا سمِعْنا منادِياً ... الآية . ونداء الجمعة للمؤمنين : يأيُّها الذين آمنوا إذا نُودِى للصلاة مِنْ يَوْمِ الجمعة . ونداء الجماعة للمنافقين .

وأما الذى للملائكة فى الدنيا : فملك ينادى فى كل صباح : يا أبناء الثلاثين ، لا تغترُّوا بالشباب . يا أبناء الأربعين ، لا تجترئوا . يا أبناء الخمسين ، ألَا تستحيون . يا أبناء الستين ، قد دنَا حصادُكم . يا أبناء السبعين ، الرحيل الرحيلَ .

وملك ينادى بالمقابر كل يوم : يأهْلَ القبور ، من تغبطون اليوم ؟ قالوا : نغبط أهْلَ المساجد الذين يذكرون اللهَ ولا نَذْكر ، ويصلّون ولا نُصلى ،

---

(١) يوسف : ٨٨

ويصومون ولا نصوم . وملك ينادى عند رأس قبرِ النبيّ صلى الله عليه وسلم : ألا مَنْ زال عن سنّة صاحب هذا القبر فقد برىء من شفاعته . وملك ينادى فى الموقف : مَنْ حجَّ وكسْبُه حرام ردَّ اللهُ حجَّه .

وأما الذى من الملائكة فى الآخرة فأوّلُه عند البعث : أيتها العظام البالية ، والأجساد النَّخِرة ، هلمّوا إلى الحساب [٢٢٠ ب] عند ربّكم . وملك عند الحساب : أبشروا يا أمة محمد ، فإنّ رحمة الله قريبٌ منكم . وملك عند المحاسبة يقول : أينَ فلان ابن فلان ؟ هلمّ إلى العَرْض على الرحمن . وملك ينادى عند الفراغ من الحساب : ألا إنّ فلانَ ابن فلان سعِدَ سعادةً لا يشقى بعدها أبدا . وملك آخر على أهل الشقاوة ينادى : ألا إن فلان ابن فلان شقى شقاوة لا يسعَدُ بعدها أبدا . أعاذنا الله من ذلك عنه .

(فإنى قَريبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الدّاعِ[1]) : يعنى بقبولهم ورحمتهم ، لا بِقُرب المسافة .

وسببُ نزولِ هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام سُئل أين ربّنا ؟ فوقَنا أو تحتنا ، أو يمينا أو يسارنا ، أو خلفنا أو قُدّامنا ؟ فأنزل الله[1] : « وإذا سألكَ عبادِى عنّى فإنّى قَريب » . يعنى وحاجتُكم أنا ، لا المكان ؛ فإن وجدتمونى فما تصنعون بالمكان وأنا منزّهٌ عن المكان .

وفى رواية : إن اليهود سألوه عليه السلام أقريب ربّنا فنُناجيه أم بعيد فنُنَاديه ؟ فأنزل الله[2] : « ونحن أقربُ إليه مِنْ حَبْل الوَرِيد » ؛ يعنى بالعلم والقدرة والإجابة لا بالذات ، فادْعُونى سِرّا أو جَهْرا ، فإنى قريب أُجيب ؛

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) ق : ١٦

إنْ سألنى العاصى غفرتُ له ، وإن سألنى المحسنُ لعطيتُه سؤْله .

فهنيئاً لـكم أيتها الأمة المحمدية ، نسبكم إلى آدم فى قوله : يا بنى آدم . وبالشريعة إلى نوح فى قوله[1] : « شرعَ لـكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحاً » . وبالملة إلى إبراهيم . وبالأمة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالعبودية إلى نفسه ، والحـكمةُ فيه حتى يشفع آدم فيكم، فيقول : يا ربّ، هم أولادى ، ويقول نوح : أهل شريعتى . ويقول إبراهيم : أهل مِلّتى . ويقول محمد : أمّتى . ويقول الله : عبادى وخواصّى ؛ فالذى نسبكَ إليه أترى أنه يُريد مُعَاقبتك . وقد قال لنوح لمّا أراد عقوبة ولده : إنه ليس منْ أهْلِكَ . أو الرسول الذى بُعِث إليك يريد تعذيبَ أمته ، وهو لم يَنْسَهم فى الأربعة مقامات : مقام التحية لمولاه فى قوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ومقام الشكر فى قوله : والمؤمنون كلٌّ آمَنَ بالله وملائـكته . ومقام الحاجة سأل من الله عشر حاجات ، فأعطاه ما سأل قوله تعالى[2] : « غفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصِير ... » إلى آخر السورة . ومقام الشفاعة : « ولسوف يُعْطِيكَ ربُّكَ فترْضَى » .

أفترى أنه يرضى بقاء أمته فى النار وهو فى الجنة ؛ ولذلك يقول له جبريل : أنت منعَّم ، وأمّتك فى النار ، فيستأذن فى الشفاعة فيهم فى حديث طويل .

وقد عاتبه الله يوم بَدْر لما كان فى العَرِيش وأصحابه فى الشمس ، فقال : يا محمد ، أنتَ فى الظل وأصحابك فى الشمس ؛ أهكذا هى الصحبة ! فسبحان اللطيف بعباده وخصوصا بهذه الأمة .

وفى الحديث : أن جميع الأنبياء قالوا ربَّنا ، كما قال آدم : ربَّنا ظلَمْنا أنفُسنا .

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) البقرة : ٢٨٥

وإبراهيم : رَبّنا واجْعَلْنا مسلمَيْن لك . وغيرها . فلما بلغ الأمرُ إلى أمة محمد هابُوا أن يُضيفوه إلى أنفسهم ، فيقولوا : ربنا ، فسكتوا ؛ فأضاف الله نَفْسَه إليهم بقوله : وقال ربكم ادْعُونى أستَجِبْ لكم . وكان جميع الأمم لم يكن لهم جراءة على أن يدعوا ربهم ، ولكن كانوا يقولون : ادْعُ لنا ربّك . هل يستطيعُ ربُّك .

وهذه الأمةُ رفع الله الواسطةَ بينهم وبينه ، وأمرهم بالدعاء ؛ فإن لم يدعوه فهو يدعوهم ليغفر ذنوبهم .

وتأمل قوله تعالى : "فإنّى قَرِيب" ، ولم يقل هو كما قال : يسألونك ماذا ينفقون قل العَفْو . قل هو أذًى قل إصلاح لهم خير . وقال : فلْيَسْتَجِيبوا لى إذا دعوتهم إلى المغفرة ، فإن دعونى بلا غفلة أجَبْتُهم بلا مهلة ، وإن دعونى بالصفاء أجبتهم بالعطاء ، وإن دعونى بلسان الشهادة أجبْتُهم بإعطاء الولاية . وإن دعونى بالنعمة أجبتهم بالشهادة ، وإن دعونى بجميع الجوارح أجبتهم إجابةَ ناصح ، وإن دعَوْنى بالإخلاص أجبتهم بالخلاص ، وإن دعَوْنى بالفقرة أجبتهم بتبديلها بشرة ، وإن دعَوْنى بالخوف والرجاء أجبتهم بالرحمة والجزاء . وإن دعَوْنى بالاضطرار أجبتهم بالافتخار . وإن دعونى بأسمائى الحُسْنَى أجبتُهم بالعطية الكبرى .

فانظروا أيها الأمة ما أرْحَمه بنا ! وقد رأيناه أجاب الذاكرين بقوله : أذكركم [٢٢١ ا] . وأجاب المتفكرين : بل الله يَمُنُّ عليكم . وأجاب الداعين : أستَجِبْ لكم . وأجاب الخائفين : ألّا تخافوا ولا تحزنوا . وأجاب المقربين بالوصلة[1] : « فقد استَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوثقى » . وأجاب المستغفرين

---

(١) البقرة : ٢٥٦

بالمغفرة : إنه كان غفّارا . وأجاب المتضرّعين بقوله[1] : « يوم لا يُخزِى اللهُ النبيّ » .

فإن قلت : قد رأينا مَنْ يَدْعُو ولا يستجيب له .

والجواب إذا وقع الدعاءُ من المضطرّ حصل جوابه على كل حال . ومَنْ وُفق للدعاء لم يُحرم الإجابة . ومن وفّق للتوبة لم يحرم القبول . ومن وفّق للشكر لم يُحرَم المزيد . ومن وُفق للصبر لم يُحرم الجزاء . ومن وفق للتوكّل لم يحرم الكفاية . ومن وفق للعمل الصالح لم يحرم المودةَ عند الله وعند خَلْقه . ومِصداقُ هذا كله قوله تعالى[2]: «أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دَعَاه » . وهو الذى يقبلُ التوبةَ عن عباده . لئن شكرْتُم لأزيدنّكم . وجزَاهُمْ بما صَبَرُوا . ومَنْ يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه . «[3]إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيَجْعَلُ لهم الرحمنُ وُدّا » .

فإن قلت : بيّن لنا الاضطرار وشروط الدعاء .

فالجواب: إنّ الاضطرار ألّا تبقى فيك علاقة مع غيره سبحانه ، وإن أخلصت له فى الدعاء وتضرعت ، ورجوتَ وخِفتَ ، واستغثْتَ به ، فلا بد من إجابتك إمّا عاجلا فتبلغ سُؤْلك أو يكفّر لك به من ذنوبك ، أو يؤخّر لك لمصلحتك ، أو يرفع درجتك ، ولعلّه يعطيك سُؤْلك فتغفل عنه ، وهو يحبّ المُلحّين فى الدعاء . ألّا تسمعه سبحانه يقول لبعض الداعين : اعطوه سُؤْله ؛ فإنى أكره صوته ، فإجابة الدعاء فى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد ؛ ورحم الله القائل :

---

(١) التحريم : ٨ (٢) النمل : ٦٢ (٣) مريم : ٩٦

اللهُ يَغْضَبُ إن تركْتَ سُؤالَهُ

وابنُ آدمَ حين يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقد وعدنا الله تعالى بالكرامة على أنواع من الطاعات ؛ فأكرم الساجد بالقُرْبة ، ودخول البيت الحرام بالأمن . والجهاد بالجنة . والصدقة بأضعافها . والزكاة بالفَلاح . والدعاء بالإجابة ؛ لكن العلّة منّا وإلينا ، وشُؤْمُ نفوسنا عائدٌ علينا ، كما قال إبراهيم بن أدهم لما قالوا له : يا أبا إسحاق ؛ الله يقول : ادْعُونى أستَجِبْ لكم ؛ ونحن نَدْعوه ولا يَسْتَجِيبُ لنا ؟ فأطرق ساعة وقال : لأنّ قلوبَكم ماتَتْ فى عشرة أشياء ؛ فقالوا : هاتها . قال : عرفتم الله ولم تؤدّوا حقَّه ، وقرأتم كتابه ولم تعملوا به ، وعرفتم رسولَه وتركتم سُنّتَه . وقلتم الشيطان لنا عدوّ فوافقتموه ، وادعيتم حبّ الجنة ولم تعملوا لها . وقلتم نخافُ النار ووهبتم لها أبدانكم . وقلتم : الموت حقّ ولم تتهيئوا له . وانتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب إخوانكم . وأكلتم رزقَه ولم تشكروه . ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم ؛ فأنّى يُستجابُ لكم !

وفى الحديث ما يعضده قوله : مَطْعَمه حَرامٌ ، ومَلْبَسه حرام ، ويقول : يا رب ، يا رب ؛ فأنّى يُستجاب له !

وصدق الصادق المصدوق ؛ فإن الدعاء مثل الطائر ، وكيف يطير مقصوصُ الجناح .

فاجتهد فى إخلاص المطعم والملبس ، وتَخَيَّرْ أوقات الإجابة وأماكنها المفصّلة فى الحصن الحصين لابن الجزرى ؛ وخصوصاً بعد الأذان ، وقبل الإقامة ، وبعد الصلوات ، وخصوصاً صلاة الجمعة ؛ والسَّحَر أسرع إجابة لخلوته بالمحبوب .

وبعضهم ترك الدعاءَ لعلمِهِ بأن الله لا يغفُلُ عنه ، واشتغل بذكره ، للحديث القُدْسى : من شغله ذِكْرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أُعطى السائلون ، ولهذا أشار ابن عطاء الله بقوله : طَلَبُك منه اتهامٌ له ... الخ . وبعضهم لم يرفع رأسه للدعاء حياءً منه . وبعضهم قال : الدعاءُ تحكّم على الله ، وقد سبق تقديره قبل وجودى ؛ فإن سبق سعادتى فأناله ، وإن لم يسبق فكيف أطلبُ منه ما لم يُرد. وبعضهم دعاه فى الشدة ، وأعرض عنه فى الرخاء ، وهذا حالنا كما قال سبحانه[1] : « فإذا مَسّ الإنسانَ ضرٌّ دَعَانَا » . وبعضهم قال : لا أقولُ نحن ؛ لأن الملائكة قالت : نحن نسبّحُ [٢٢١ ب] بحمدك ، فلم يرضَ الله منهم ، وإبليس قال : أنا ، فلعنه الله . وفرعون قال : أليس لى مُلْكُ مصر ؛ فأغرقه الله . وقارون قال : عندى ؛ فخسف الله به الأرض .

وأعلى من هؤلاء من امتثل أمرَ ربه فى الدعاء ، ورأى نفسه عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ؛ وإنما قام بحق الربوبية ، فطلبه لحبيته فى الطلب ، وفوّضَ الأمر له ؛ كما قال بعضهم لما قيل له : سَلْ تُعْطَ ، فقال : عالم من جميع الوجوه يقول لجاهلٍ من جميع الوجوه : سَلْ تُعْطَ ، لا أعلم ما يصلح بى ؛ ولكن يختار هُوَ لى ؛ ولهذا قال ابن عطاء الله : لا يكن طلبك تسبّبا إلى العطاء منه ، فيقلّ فَهْمُك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياما بحقوق الربوبية ...

فإن قلت : إذا سبق العطاء منه فما فائدةُ الطلب ؟ وقد أعطانا بغير سؤال ؟

فالجواب إذا سبق فى أَزَلِه العطاء وفّق عَبْدَه لطلبه ، فيجيب ؛ ويفرَحُ العبد بذلك ، ولو أعطاك بغير سؤال لطمع الكافر والمؤمن .

---

(١) الزمر : ٤٩

وهذه أسباب ووسائط يوفق الله العبدَ إليها فى أىّ وقت شاء على يد من يشاء لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .

والكلامُ هنا طويل، وقد ألفت فيه تأليفاً عجيباً سميته مفاتح الطلب ، فانظره إن ظفرتَ به ، وإلا ففى هذه النبذة كفاية إن شاء الله .

(فإذَا أمِنتُمْ[1]) : الخطاب للمُحْرِمين مِنْ أهل مكة وغيرهم ، ومعناه : إذا كنتم بحال أمْنٍ ، سواء تقدّم مرضٌ أو خوف عدوّ ، أو لم يتقدم .

(فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمرةِ[1]) : والتمتع هو أنْ يعتمر الإنسان فى أشهر الحج ثم يحج من عامه ؛ فقد تمتع بإسقاط أحد السفرين للحج أو العمرة .

وقال عبد الله بن الزبير : التمتُّع هو أن يُحْصَر عن الحج بعدو حتى يفوته فيعتمر عُمْرةً يتحلل بها من إحرامه ، ثم يحج مِنْ قَابِل قضاءً لحاجته ، فهو قد تمتع بفعل الممنوعات للحج من وقت تحلله بالعمرة إلى الحجّ القابل .

وقيل : التمتع هو قِرَان الحجّ والعمرة .

(فَمَنْ لم يَجِدْ فصِيَامُ ثلاثةِ أيامٍ فى الحجّ وسبْعةٍ إذا رجعْتُم[1]) : يعنى من لم يجد الشاةَ فليصمْ ثلاثة أيام ، وقتُها من إحرامه إلى يوم عرفة ؛ فإن فاته صام أيامَ التَّشريق وسبعة إذا رجع إلى بلاده .

(فَمَنْ فَرضَ فيهنَّ الحجّ[2]...) الآية ؛ أى ألزم الحجّ نفسه فى شوال وذو القعدة وذو الحجة .

(فلا رَفَثَ[2]) ، وهو الجماع ، (ولا فُسُوقَ[2]) ، وهى المعاصى ؛

---

(١) البقرة : ١٩٦ (٢) البقرة : ١٩٧

إذْ علامةُ قبول الحج تركُ المعاصى ، ولا جزاء له إلا الجنة ، كما صح .

([1]فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً) ؛ لأن الإنسان كثيراً ما يذكر أباه . والعارفُ يذكر الله أكثر ؛ لأنه مخترعه وخالقُه كيف شاء ، ورازقُه من أين شاء ، ومُميته متى شاء ، ومحييه إذا شاء ؛ فكيف يغفل عن هذه صفته ، وقد دعا الخلق إلى نفسه ؟ فالسابق منهم همّه اسمه ، فدعاه بلفظ الرب ، وقال[2] : « وأنيبوا إلى ربكم » . «[3]ففرّوا إلى الله » .

والمقتصد منهم همّه الرزق ؛ فدعاه بقوله[4] : «والله يدعو إلى دار السلام» . وقال[5] : « يرزق من يشاء بغير حساب » .

والظالم همه غفران ذنوبه ، فدعاه بقوله[6] : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم » . فعلى كل حالٍ العبد لا يغفل عن سيده .

ولما كانت العربُ تذكر أباها كثيراً مفاخرة عند الجمرة أمر الله بذكره عوضا عن ذلك ؛ لأنه الضارُّ النافع .

(فضلًا من ربكم[7]) : التجارةُ فى أيام الحج أباحها الله لعباده ، ولا يضر نيّتها ، ولا تفسد العبادةُ بها خلافاً لبعض الصوفية .

والصحيح أنّ النيةَ الصحيحة تقلِبُ القبيحَ حسناً ، والحسنَ قبيحاً . وتشريكُ النية الصالحة جائزة ، بل مطلوبة فى الأفعال ؛ ورضى الله عن السيد الذى دق عليه ،

---

(١) البقرة : ٢٠٠ (٢) الزمر : ٥٤ (٣) الذاريات : ٥٠
(٤) يونس : ٢٥ (٥) البقرة : ٢١٢ (٦) آل عمران : ١٣٣
(٧) البقرة : ١٩٨

فقال لبعض التلامذة : قُمْ حلِّقْ له الباب . فقام ، فقال بعد رجوعه : بأى شيء قمتَ له . فقال : بنيّة فتح الباب . فقال : هلّا نويتَ قضاء حاجته إن احتاج ، والسلام عليه ومصافحته ، وصار يعدّدُ له سبعَ نيّات . هكذا كانوا رضى الله عنهم يُشرِكون أعمالهم لتضعيف حسناتهم ، ونحن بالضدّ مِنْ هذا ؛ فليس لنا نية البتّة .

فلا تتحرك أيها الأخُ حركةً إلا لله تكثّرا بنيتك ؛ كمشيك بالمسجد بنية الزيارة لله ، وانتظار الصلاة [١٢٢٢] ، وكفّك عما نهيت ، وعكوفك على الطاعة ، وسلامةِ الناسِ من شرّك ، وتعلّم وتعليم واستفادة أخٍ ، ونحوها .

وبدخولك الأسواق : ذكر الله تعالى ، والسلام على إخوانك ، وشهادة البقاع لك ، ومَنْع الشيطان وطَرْده ؛ وتغييرُ ما رأيتَ من المناكر إن قدرت صيانة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، ورؤية نعمة فراغك وتوفيقك . وقد علمت ذاكر الله فى الغافلين كالمجاهد خَلْفَ الفارّين ؛ ولا تشغلك رؤية شهوةٍ ؛ فتصدّقْ بقدميك لزيارة إخوةٍ لئلا تحوجهم لزيارتك ، وقضاء حاجتهم ؛ ورد السلام على مَنْ سلّم منهم ، وسماحا فى بَيْع ، ورؤية صالح ، ورؤية آياته تعالى : من تصرّف الخلق فى معايشهم وحركاتهم وألوانهم ، وما جبلوا عليه من حُبّ الدنيا ، واختلاف أغراضهم ، وتصرّفهم فى المآكل والملابس ، واختلاف السلع .

والكلام هنا طويل . والمقصد منه أنه يجب علم حقيقة النية ، وتخليصها من كلّ حظّ دنيوى حتما ، ومن كل حظّ أخروى نَدْبا ؛ وهى تمييز الأغراض بعضها من بعض ؛ وما يَعْقِلها إلا العالمون .

ومتى حصلت الحركةُ وعقَبها[١] باعثٌ واحد فنيّةٌ خالصة ، وإطلاقُ الراجح

(١) من باب قتل ـ كما فى المصباح .

اختيار، واقترانها بحكم قضاء وعالة، مقدار، أو عن يشيء خاص عناية، وتصميم الإرادة عزم وهم ومشيئة .

وللحنفية : إنّ المشيئة مشتق من الشيء ، وفي كتب اللغة أنها الإرادة لا فعل ؛ صح : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، ومن هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ؛ وإن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ؛ ونظره تعالى إلى القلب للنية ، والنية والعلم وغيرها مما ينسب للقلب ، وهو قائم بالنفس ، والعقل في القلب .

وتأمل قوله تعالى[1] : « لهم قلوب يعقلون بها » ، « [2] إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

فتأمل أيها الاخ صنع الله في هذا المؤمن ، حيث جعل له داخل ضميره شمساً ساكنا[3] في وسط الأحشاء أضوأ من الشمس اللامعة ، حتى جاز الهوى ، وملك طريق السماء ؛ فلم يسكن على شيء دون الرب جل جلاله ؛ فصار حاله في الضمير كعود نصب له في الأرض ، فإذا اتصـــل بالأرض نما والأرض بيه ، انبتت المعرفة به ، فصارت نزهة للعارفين ، ثم الشهادة عطاء المحبين ، ثم المحبة على السابقين .

﴿فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه[4] ﴾ : قد قدمنا أن هذه الآية لإباحة التعجل والتأخر . وقيل : إنه إخبار عن غفران الإثم ؛ وهو الذنب للحاج ، سواء تعجل أو تأخر . وعلى الأول فيكون لمن اتقى أن يأثم في التعجل .

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) ق : ٣٧ (٣) أي الضمير .

(٤) البقرة : ٢٠٣

والمتأخر لا إثم عليه . وعلى الثاني إن الغفران إنما هو لمن اتقى الله في حجه ؛ «الحديث : مَنْ حجّ هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسق خرج من ذُنوبه كيوم ولدته أمه » ، فاللام متعلقة إما بالغفران أو بالإباحة المفهومَين من الآية .

(فحسبُهُ جهنّمُ[1]) : الضمير يعود على مَنْ لا يطيع من يأمره بالتقوى تكبراً وطغياناً ، وهو الذي يُقال له : اتق الله ، فأخذته العزّةُ بالإثم . والباء يُحتمل أن تكون سببية ، أو بمعنى مع . وقال الزمخشري[2] : هي كقولك : أخذ الناس الأمير بكذا ؛ أي ألزمهم إياه . فالمعنى حملته العزةُ على الإثم .

(فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم[3]) : تهديد لمن زلّ بعد البيان . ويحتمل أن يكون الخطاب بقوله[4] : « ادخلوا في السِّلْم » — لأهل الكتاب ، على معنى الأمر لهم بالدخول في الإسلام . ولما سمع بعضُ الأعراب قارئاً يقرأ : فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم — قال له : أخطأت . فقال : من أين علمت ؟ قال : أيُغريهم على المعصية ؟

(فللوالدين والأقربين[5]) : بيان مَصْرف نفقة التطوّع . وتقدم في الترتيب الأهمّ فالأهم ، وإن أريد بالنفقة الزكاة المفروضة فذلك منسوخ .

(فاعتزلوا النساءَ في المحيض[6]) ؛ أي اجتنبوا جِماعَهن في الفرج ، لا فيما عداه من أحكامها وبين فخذيها ، والاستمتاع بينهما . وقد فسر ذلك الحديث بقوله : لتشدّ عليها إزارها وشأنك بأعلاها .

---

(١) البقرة : ٢٠٦ (٢) الكشاف : ١ — ٩٨

(٣) البقرة : ٢٠٩ (٤) البقرة : ٢٠٨ (٥) البقرة : ٢١٥

(٦) البقرة : ٢٢٢

(فاءُوا[١]) ؛ أي رجعوا إلى الوَطْء، وكفّروا عن اليمين ؛ فإن الله يغفر ما في [٢٢٢ ب] الإيلاءِ من الإضرار بالمرأة.

(فنِصفُ ما فَرَضتُم[٢]) ، يعني من الصَّداق لمن طلّق قبل الدخول ؛ فإن كان لم يفرض لها صداقاً، وذلك في نكاح التفويض، فلا شيء عليه من الصداق، ويؤمر بالمتعة ؛ لقوله[٣] : « ومَتِّعُوهن » .

(فإذا أَمِنتُم فاذكُروا الله[٤]) : قيل المعنى إذا زال الخوف فصلّوا الصلاةَ التي عُلّمتموها وهي التامة . وقيل : إذا أمِنتم فاذكروا الله كما علّمكم هذه الصلاة التي تجزيكم في حال الخوف ؛ فالذكر على القول الأول بمعنى الصلاة . وقد ذكر اللهُ الصلاة اثني عشر اسماً : القرآن[٥] : « إنَّ قرآنَ الفجرِ كان مَشْهُوداً » . والأمانة[٦] : « إنّا عرَضْنا الأمانةَ » . والحسنات[٧] : « إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات » . قال ابن عباس : إن الصلوات الخمس يكفّرْنَ الخطايا . والتوبة[٧] : « ذلكَ ذِكْرَى للذّاكِرِين » — يعني توبةً للتائبين . والبقاء[٨] : « والباقياتُ الصالحات » . والذكر[٩] : « الذين يذكرون الله » . والاستغفار[١٠] : « والمستغفرين بالأسْحار » . والتسبيح[١١] : « فَسُبْحانَ الله حين تُمْسُونَ » . والركوع[١٢] : « وارْكَعُوا مع الراكعين » ؛ أي صلُّوا مع المصلين . والسجود[١٣] .

---

(١) البقرة : ٢٢٦ (٢) البقرة : ٢٣٧ (٣) البقرة : ٢٣٦
(٤) البقرة : ٢٣٩ (٥) الإسراء : ٧٨ (٦) الأحزاب : ٧٢
(٧) هود : ١١٤ (٨) الكهف : ٤٦ (٩) آل عمران : ١٩١
(١٠) آل عمران : ١٧ (١١) الروم : ١٧ (١٢) البقرة : ٤٣
(١٣) عدد عشرة فقط إلا اذا عددنا قوله : قال ابن عباس — واحدة ، وقوله : والسجود واحدة .

وعلى القول الثاني فمعنى الذكر الشكر ، وعلى كلا القولين فالواجب على الإنسان أن يذكر الله على كل حال .

والذكر على سبعة أوجه : ذِكْرُ اللسان ، وهو الحمد لله والثناء عليه، وذكر الجنان وهو التسليم والرضا ، وذكر الأبدان وهو الجهد والعناء . وذكر العينين وهو العبرة والبكاء ، وذكر اليدين وهو السخاء والعطاء ، وذكر الرجلين وهو المشي إلى الحج ، وثبات النفس للقاء . وذكر الروح وهو الخوف والرجاء .

(فإن خرجن[1]): الضمير يعود على المعتدات اللواتي يُتَوفى[2] أزواجهن لا يخرجن من ديارهن أربعة أشهر وعشرا ، وليس لأولياء الأزواج إخراجهن ، فإذا كان الخروج من قبلهن فلا جناح على أحد فيما فعلن في أنفسهن من تزوج وزينة .

([3]فمن شرب منه فليس مني) : هذا من قول طالوت لما جاز على نهر فلسطين اختبر طاعتهم بمنعهم من الشرب .

([3]فشربوا منه إلا قليلا منهم) ، وكانوا ثمانين ألفا ، ولم يشرب منهم إلا ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أصحاب بدر ، فأما من شرب فاشتد عليه العطش ، وأما من لم يشرب فلم يعطش .

(فضلنا بعضهم على بعض[4]) : يعني أن الله فضل الأنبياء والرسل على بعض من غير تعيين الفاضل على المفضول ، لكن الإجماع على تفضيل أولى العزم منهم . واختلف فيما بينهم ، فقيل آدم لأنه أبو البشر . وقيل نوح لأنه أول

---

(١) البقرة : ٢٤٠ (٢) في ا : يتوفون (٣) البقرة : ٢٤٩
(٤) البقرة : ٢٥٣

رسول بعث فى الأرض . وقيل إبراهيم ، لأنه خليل الله . وقيل موسى ، لأنه كليمُ الله . وقيل عيسى ، لأنه روح الله .

والإجماع على أنّ نبيّنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم سيدُهم وإمامُهم ، والمبعوث إليهم ، وإلى الملائكة ، لا يختلف فى هذا القول إلا جاحدٌ ومَنْ لا خَلَاقَ لَهُ .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام : "لا تُفضّلونى على يونس بن مَتّى"؟

فالجواب أنه قال ذلك على وَجْه التواضع والانبساط ، والتنبيه للمخاطب على ألّا يتعرض لأنبياء اللهِ ورسله بالغَيْبة . أو قال ذلك قبل أن يعلم بفَضْلِه على سائر أنبيائه ورُسله .

وانظر كيف يكون حالُ مَنْ يتعرض بالنَّقْصِ لهم من هؤلاء القُصّاص والمؤرخين بنسبة الذّنب لهم ، كآدم ، وداود ، ويونس ، وغيرهم ؛ ورَضِيَ اللهُ عن الإمام عليّ حيث يقول : مَنْ حدّث بما يقول هؤلاء القُصّاص جلدْتُه حدّين لما ارتكب مِنْ صَرْف[1] ، ومن رفع الله محلّه هذا فى الجملة ، فكيف بمن تنقّصَ أو عاب سيّدهم وإمامهم ، والذى عليه مدارُ أمْرِهم . قال صلى الله عليه وسلم : "كنت نبيّاً ، وآدم بين الماء والطين" ، ويظهر لك تفضيله على أولى العزم من الرسل فى قوله تعالى[2] : « وإذ أخَذْنا من النبيّين ميثاقَهم ومِنْكَ ومِنْ نوح » ؛ فقدّمه على أولى العَزْم منهم ، تنبيهاً لكَ على أنك لا تعلم حقيقته هنا ، إنما يظهر كمالُ شرفه إذ يستشرف من شرف المحشر ، فيشرف بالشفاعة ؛ فآدم

---

(١) فى القاموس : صرف الحديث : أن يزاد فيه .

(٢) الأحزاب : ٧

وَمَنْ سِوَاه تحت لوائه ، وكلهم [يقول :][1] نفسى نفسى ، وهو صلى الله عليه وسلم نفسه لصاحب النفس ، ويقول : لا أسألكُ نفسى ولا فاطمة ابنتى ، وإنما أسألكَ أمّتى ، أمتى ، يا مَنْ لا يُخلِفُ الميعاد . وقد وعدنى ألا تُخزِينى فيهم [٢٢٣ ا] . فأقسم عليك يا سيد الأولين والآخرين بمن أعطاك هذه الكرامة والمَنزِلة الرفيعة ؛ لا تَنسَ عَبْدَكَ فى ذلك اليوم العظيم ؛ بل فى الدنيا ؛ يُنقِذنى مِنْ شرّ هَوَاى وشهوتى ، ويُقبِل بى عليه وعلى طاعته ، ويستعملنى فى خدمته ، ولست بأهلٍ لذلك ، إن لم تكن نفحةٌ من بحر جُـودك ، وإلّا فهأنا متعلق بذَيْلك ، متوسّل لك بمدحك والصلاة عليك ؛ وهى من أعظم الوسائل عندك ؛ لله دَرُّكَ من محبوب ! ما أعذَبَ ذِكْرَكَ ! كم غرّت غرتك من غرّ جاء ليغرف عند مشاهدتك . قال : ما هذا وجه كذّاب ، غاية جمال يوسف أن أفتَنَ نسوةً ، وجمالك قد أفتن الكونين ، كم عاداك من عاد إليك ، كل قلب قلاك فأقلَبه[2] القدرُ فانقلب إليك ، ما طاب عيش عباده الأنبياء حتى صليت بهم فى صوامع السموات ، ما جلا عروس رسالتك ليلةَ الإسراء على منصب قاب قوسين إلّا ليعلم عُذّال : «[3] أتجعل فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها » ما حوت صدفة آدم من يتيمة الوجود ؛ اجتمع فى مدرسة درس رئيس الملائكة ، يسأل ما الإسلام ؟ وما الإيمان ؟ وما الإحسان ؟ وِمنْ خواص الجنّ من غلبهم التعجّب ، فقالوا[4] : «إنا سمعنا قرآنا عجبًا» . ومن فضلاء الإنس من كان به الأنس[5] : كـ « ثانِيَ اثنين إذْ هما فى الغار » ، إن كانت شمسُ السماء تظهر الظاهر فشمس شَرْعك تُظهر الغيب . اتّقُوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله ؛ إذا كان فى النجوم هُدًى للسالك فى المسالك ، فكم بنجوم آياتك من مهتدٍ إلى الحق .

---

(١) زيادة يقتضيها تمام المعنى . (٢) أقلبه : قلبه وحوله عن وجهه (القاموس) .

(٣) البقرة : ٣٠ (٤) الجن : ١ (٥) التوبة : ٤٠

(فأماته اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعثه[1]) : الضمير يعود على عُزَير . وقيل على الخضر ؛ وذلك أنه مرّ على قرية ، وهى بيت المقدس لما خرّبها بُخْت نصّر ؛ وقيل قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؛ فسأل عن كيفية إحيائهم، فأراه الله ذلك عيانا فى نفسه ؛ ليزدادَ بصيرة ، وأماته مائةَ عام ثم بعثه، وذلك أنه أماته غدوة يومٍ ، ثم بعثه قبل الغروب من يومٍ آخر بعد مائة عام ؛ فظنّ أنه يومٌ واحد . ثم رأى بقيّةً من الشمس ، فخاف أن يكذب ؛ فقال : يوما أو بعض يوم .

وروى أنه قام شابًا على حالته ، فوجد أولاده وأولادهم شيوخاً .

وكذلك قصة أصحاب الكهف ، لما بعثهم قال بعضهم لبعض : كم لبِثْتُم ؟ وكذلك يسألون فى القيامة : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعضَ يوم[2] فاسألِ العادِّين »؛ كلّ ذلك دلالة على أنّ الدنيا كلها كثيرها كقليلها، ولا يلبث الإنسان فيها إلا كنَفَس واحد . وهذا مشاهد ، وليس الخبر كالعيان .

(فلما تَبيَّن له[3]) ؛ أى تبيّنَ له كيفيةُ الإحياء ، فأراه الله فى نفسه ذلك . ولذلك قال : انظر إلى طعامِكَ وشرابك لم يتَسنَّه ؛ أى يتغير . وانظر إلى حمارك كيف تركْتَه مربوطاً بحبل من ليف ، ولم يتغير . قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير — بهمزة قطع وضم الميم[4] — اعترافاً . وقرىء بألف وَصْل والجزم على الأمر ؛ أى قال له الملك ذلك .

فإن قلت : ما الحكمة فى أنّ عُزيرا سأل الإحياء ، فعاقبه ؛ وإبراهيم سأل مثل ذلك فأجابه ؟

---

(١) البقرة : ٢٥٩ (٢) المؤمنون : ١١٣ (٣) البقرة : ٢٥٩

(٤) أى فى كلمة « أعلم » من الآية .

فالجوابُ أن عُزَيرا سأل عن القدرة ، فقال : أنى يُحْيِي هذه الله بعد موتها ؟ وإبراهيم سأل عن كيفية القدرة ، فقال : كيف تحيي الموتى ؟ لأن قوله أنى بمعنى كيف ؛ إذ لا يشكُّ نبيٌّ الله فى القدرة ؛ فسؤاله إنما كان على جهة الاستخبار لا الإنكار ، كما زعمه بعضهم .

وقيل : إن إبراهيم عرف بالقلب ، فأراد أن يرى بالعَيْن ؛ وذلك أنه لما قال النُّمْرود : أنا أحيي وأميت ؛ فقتل رجلا وأحيا آخر ؛ فقال إبراهيم[1] : « ربِّ أرِنى كيف تُحْيِي الموتى » ؛ لأنى أعلم أنه ليس فعلُكَ كفعله ؛ فأراه الله ذلك فى أربعةٍ من الطير ؛ وفرّق أجزاءَها ، وجعل جزءاً من الحمام مع جزءٍ من الدِّيك ، وخلط بعضَها مع بعض ؛ ليكون أبلغ فى القدرة حيث رجع كلُّ جزء إلى صاحبه ، فاطمأنّ قلبُه كما طلب ؛ ولهذا كانت هذه الطير طير العبرة ؛ وطير المحنة الطاوس الذى كان سببَ خروج آدم من الجنة . وطير التجربة الحمار الذى كان لنوح فى السفينة حتى دخل إبليس بين قوائمه . وطير الفتنة لداود حيث تصوّرَ له فى المحراب . وطير المملكة لسليمان . وطير الحجة لعيسى حيث صوّره من طين ، ونفخ فيه ؛ فصار طائراً بإذن الله . وطير الكرامة لمحمد صلى الله عليه وسلم . وطير اللعنة [٢٢٣ ب] للنُّمرود حيث دخل فى خياشيمه وهى البعوض ، وأمهله ثلاثةَ أيام ، لعله يتوبُ . وطير المملكة للحبشة لما أرادوا هَدْم الكعبة ؛ فأرسل الله عليهم طَيْرًا أبابيل تَرْميهم بحجارة من سِجِّيل ، على كل واحد اسمُ صاحبه . وطير المعرفة للعارفين يطير حتى يتعلّق بالمولى سبحانه[2] .

(فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بحَرْبٍ من اللهِ ورَسُولِه[3]) ؛ أى إن لم تنتهوا

---

(١) البقرة : ٢٦٠ (٢) قال ابن كثير (١ ـ ٣١٥) : اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ما هى ، وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان فى ذلك مهم لنص عليه القرآن .
(٣) البقرة : ٢٧٩

عن الربا حُورِبتم . ومعنى فأذنوا : فاعلموا . وقرىء بالمد ؛ أى أَعلِموا غيركم .

(فاكْتُبُوه[1]) : ذهب قوم إلى أنّ كتابةَ الدَّيْن واجبةٌ بهذه الآية . وقال قوم : إنها منسوخةٌ بقوله : فإنْ أَمِنَ بعضُكم بعضا . وقال قوم : إنها على الندب .

(فرَجُلٌ وامرأتان[2]) : قال قوم : لا تجوز شهادةُ المرأتين إلّا مع عدم الرّجال . وقالوا : معنى الآية : إن لم يكونا ؛ أى لم يوجدا . وأجازه الجمهور ؛ لأن المعنى إن لم يُستشهد رجلان فرجل وامرأتان ؛ وارتفاع رَجُل بفعل مضمر ، تقديره فليكن رجلٌ ؛ فهو فاعل . أو تقديره فليُستشهد رجل ؛ فهو مفعول لم يسمّ فاعله ؛ أو بالابتداء ؛ تقديره : فرجل وامرأتان يشهدون .

(فإنّه فُسوقٌ بكم[3]) ؛ أى إن وقعتم فى الإضرار المتقدّم فى قوله[3] : « ولا يُضَارّ كاتِبٌ ولا شَهِيد » .

(فرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ[3]) : بهذا احتجّ الشافعىُّ على صحة الرهن . واحتج مالك بأنه شرطُ كمالٍ . وأجمع العلماء على صحة قبض المرتهن وقبض وكيله . وأجاز الجمهور وَضْعه على يد عدل .

(فإنْ أَمِنَ بعضُكم بَعْضا[3]) ؛ أى أمن صاحب الحق المِدْيان[4] لحسن ظنّه به ، فليستغْنِ عن الكتابة ، وعن الرّهن ؛ فأمر أوّلا بالكتابة ثم بالرهن ، ثم بالائتمان ؛ فالدين ثلاثة أحوال . ثم أمر المِدْيان بأداء الأمانة ؛ ليكون عند ظنّ صاحبه به .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) البقرة : ٢٨٣

(٤) رجل مديان : يقرض كثيرا ويستقرض كثيرا ، ضد (القاموس) .

(فإنّه آثِمٌ قَلْبُه[1]) : معناه قد تعلّق به الإثم اللاحق من المعصية فى كِتْمان الشهادة ؛ وارتفع آثم بأنه خَبَرُ إنّ ، وقلبه فاعل به . ويجوز أن يكون قلبه مبتدأ وآثم خبره . وإنما أسند الإثم إلى القلب وإن كانت جملة المكاتم هى الآثمة ؛ لأن الكتمان من فعل القَلْب ؛ إذ هو يضمرها ، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان .

(فيغفِر لِمَنْ يشاء ويعذِّبُ مَنْ يشاء[2]) : قرىء بالجزم فيهما عطفاً على يحاسبكم ، وبرفعهما على تقدير فهو يَغفر .

(فإنْ حاجُّوكَ[3]) ؛ أى جادَلُوك . والضمير يعود على نصارى نَجْران ، أو اليهود .

(فإنما عليكَ البَلاغُ[3]) ؛ أى إنما عليك تبليغُ رسالة ربّك ؛ فإذا بلّغتها فعلْتَ ما عليك . وقيل إنها موادعة منسوخة بالسيف .

(فتقبَّلَها رَبُّها بقَبُولٍ حَسَنٍ[4]) : الضمـــــير يعود على مريم . وفيه وجهان[5] :

أحدها ـ أن يكون مصدراً على غير الضمير[6] .

والآخر ـ أن يكون اسماً لما يقبَل به ، كالسَّعُوط اسم لما يُسْتَعط به ؛ يعنى أنّ الله رضيها المسجد مكان الذَّكَر ؛ لأنها قالت[7] : « إنى نَذَرْتُ لكَ ما فى بَطْنِي محرَّراً » ؛ يعنى لخدمته .

---

(١) البقرة : ٢٨٣ (٢) البقرة : ٢٨٤ (٣) آل عمران : ٢٠

(٤) آل عمران : ٣٧ (٥) أى القبول . (٦) هنا فى الأصلين .

وفى القرطبى : مصدر على غير المصدر ، والأصل تقبلا (٤ ـ ٦٩) ، وفى الكشاف (١ ـ ١٤٣) أن تكون مصدرا على تقه حذف مضاف بمعنى فتقبلها بذى قبول حسن ، أى بأمر ذى قبول حسن .

﴿ فأنفُخ فيه فيكون طائراً بإذنِ الله[1] ﴾ ، وقرىء طيْرا — بياء ساكنة على الجمع . قيل : هو الخفّاش ؛ لأنه أكمل الطير خَلْقا ، ولها أسنان وثَدى ، وهي تحيض .

قال وهب : كان يطير ما داموا ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ليعلم أن الكمال لله تعالى ، وأنّ فِعْلَ الخالق مخالفٌ لفعل المخلوق . وذكر : بإذن الله ، ليرفَعَ وَهْمَ من توهّم فى عيسى الربوبية . وأراد على قراءة نافع بالألف النوع[2] .

فإن قلت : ما وَجْهُ تذكير الضمير هنا وتأنيثه فى المائدة فى قوله[3] : فتنفخ فيها ؟ وهل يجوز أن يكون كلٌّ واحد منهما مكان الآخر ؟

والجواب أنه أنّث الضمير فى المائدة ؛ لأنه يعود على الهيئة ، وذَكّره هنا ؛ لأنه يعود على الطير ، أو على الكاف من « كهيئة » ، وإنما خصّه بالتذكير هنا ؛ لأنه إخبار قبل الفعل ، وفى المائدة خطاب الله له فى القيامة . قال الزمخشرى[4] : فى الأولى الضمير للكاف ؛ أى فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير ، فيكون طيراً ؛ أى فيصير طيراً كسائر الطيور . وقال فى قوله : فتنفخ فيها الضمير للكاف ؛ لأنها صفة الهيئة التى يخلقها عيسى ، وينفخُ فيها ، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها ؛ لأنها ليست [٢٢٤ ا] من خلقه ولا نَفَخِه فى شىء . قال : وكذلك الضمير فى تكون ... انتهى كلامه ، وهو فى غاية الوضوح .

(فَوْرِهم[5]) : الضمير للملائكة ؛ أى من ساعتهم . وقيل المعنى

---

(١) آل عمران : ٤٩ (٢) أى طائراً . (٣) المائدة : ١١٠

(٤) الكشاف : ١ — ٢٨٠ (٥) آل عمران : ١٢٥

من شَبْرِهم[١] . والمعنى أنّ الله أمدّ المسلمين بهذا المدد ، ليزيدهم قوة . فإن كان فى يوم بَدْر فقد قاتلت فيه الملائكة ، وإن كان فى يوم أُحُد فقد شرط أن تصبرُوا وتتقوا ، فلما خالفوا الشرط لم تنزل الملائكة .

(فما وهَنُوا[٢]) : الضمير للربِّيين على إسناد القتل للنبى ، وهو لمن بقى منهم على إسناد القتل إليهم .

(فأثابكُمْ غمّاً بِغَمّ[٣]) ، أى جازاكم غمّاً بسبب الغم الذى أدخلتموه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، إذ عصيتم وتنازَعتم . وقيل : أثابكم غمّاً متّصلا بغم ، وأحدُ الغمّين ما أصابهم من القتل والجراح ، والآخر ما أوجف من قَتْل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(فَشلْتمُ[٤]) : أى جَبُنتم .

(فزَادهم[٥]) : الفاعل ضمير القول ، وهو أنّ الناس قد جمعوا لكم .

والصحيح أن الإيمان يزيد وينقص ، فمناه هنا قوّى إيمانهم وثقتهم بالله .

(فانقلبوا[٦]) ، أى رجعوا بنعمة السلامة وفَضْل الأجْر .

(فلا تخَافُوهم وخَافُونِ[٧]) : يعنى أنّ الشيطان يخوّفُ أوليـــــاءه فيخوِّفونكم أيها المؤمنون ، فلا تخافوهم .

وقراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه[٨] . وقيل المعنى : يخوف

---

(١) الشبر ـ بالفتح : الإعطاء ، والعمر . (٢) آل عمران : ١٤٦

(٣) آل عمران : ١٥٣ (٤) آل عمران : ١٥٢ (٥) آل عمران : ١٧٣

(٦) آل عمران : ١٧٤ (٧) آل عمران : ١٧٥ (٨) فى القـــرطبى : المعنى يخوفكم أولياءه ، أى بأوليائه أو من أوليائه ، فحذف حرف الجر ، ووصل الفعـــل إلى الاسم فنصب .

المنافقين ، وهم أولياؤه من كفّار قريش ؛ فالمفعول الثاني على هذا محذوف .

(فلا تحسبنّهم[1]) : بالتاء وفتح الباء خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وبالياء وضمّ الباء ، أسند الفعل للذين يفرحون ؛ أي لا يحسبون أنفسهم .

(فإن آنستُم منهم رُشداً[2]) : الخطاب لأولياء الأيتام أن يدفعُوا إليهم أموالَهم إذا رشدوا ، وهو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله ؛ وإن لم يكن من أهل الدّين . واشترط قومٌ الدين ، واعتبر مالكٌ البلوغَ والرشد . وحينئذ يدفع المال . واعتبر أبو حنيفة البلوغ وحده ما لم يظهر سفَهٌ . وقوله مخالف للقرآن .

(فليَستَعفف[3]) : أمر الوصيّ الغــنيّ أن يستعفف عن مال اليتيم ولا يأكل منه شيئاً ، ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف من غير إسراف . وقيل : المراد أن يكون له أجرة بقَدْرِ عمله وخدمته . وقيل نسخها : « إنّ[3] الذينَ يأكُلونَ أموالَ اليتامى ظُلْماً » . قال عمر بن الخطاب : لا بأس للوصيّ الفقير أن يستسلف من مال محجورٍ له ، فإذا أيسر ردّه .

(فانكِحُوا ما طابَ لكم من النساء[4]) ؛ أي ما حلّ ؛ وإنما قال « ما » ولم يقل « من » ؛ لأنه أراد الجنس . وقال الزمخشري[5] : لأنّ الإناث من العقلاء يجرى مجرى غير العقلاء . ومنه قوله تعالى[4] : « أو ما ملكَتْ أيمانُكم » .

(فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيء منه نَفْساً فكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً[6]): إباحة للأزواج أو للأولياء على ما تقدم من الخلاف ـ أن يأخذوا ما دفعه النساء من صدقاتهن عن

---

(١) آل عمران : ١٨٨ (٢) النساء : ٦ (٣) النساء : ١٠
(٤) النساء : ٣ (٥) الكشاف : ١ — ١٨٦
(٦) النساء :

طِيبِ أنفسهن . وقد قال بعضهم: مَنْ أصابه ألمٌ فليأخذ مِنْ صَدَاق زوجه أربعةَ دراهم ، ويشترى بدرهمين عسلا وبدرهمين زيتا ويشربها بماء مطر ؛ فإن الله يشافيه ؛ لأن الله قال فى الزيت مباركا ، وفى المطر مباركا ، وفى العسل شفاء ، وفى الصداق الهناء . وإن أضاف إليها آيةً من كتاب الله فيه الشفاء أيضا .

(فإنْ كُنَّ نساء[1]) : إنما أنَّثَ ضمير الجماعة فى « كُنَّ » ، لأنه قصد الإناث . وأصله أن يعود على الأولاد ، لأنه يشمل الذكور والإناث . وقيل : يعود على المتروكات . وأجاز الزمخشرى[2] أن تكون كان تامة ، والضمير مُبْهَم ، ونساء تفسير .

(فوق اثْنَتَيْن[1]) : ظاهره أكثر من اثنتين ؛ ولذلك جمع[3] على أنَّ الثلاث فما فوقهن الثلثين ، وأما البنتان فاختلف فيهما ؛ فقال ابن عباس : لهما النصف كالبنت الواحدة . وقال الجمهور : لهما الثلثان . وتأوَّلوا فوق اثنتين فما فوقهما . وقال قوم : إن فوق زائدة كقوله[4] : « فاضْرِبُوا فوق الأعناق » . وهذا ضعيف .وقال قوم : إنما وجب لهما الثلثان بالسنّة لا بالقرآن . وقيل بالقياس على الأختين .

(فلها النصفُ[5]) : نصٌّ على أنّ للبنت النصف إذا انفردت ؛ ودليلٌ على أن للابن جميعَ المال إذا انفرد ؛ لأن للذكر مثل حظّ الانثيين .

(فلأمّه الثُّلث[5]) : لم يجعل الله للأم الثلث إلا بشرطين :

أحدها عدم الولد . والآخر إحاطة الأبوين بالميراث ؛ ولذلك دخلت الواو

---

(١) النساء : ١١ (٢) الكشاف : ١ ـ ١٩٢ (٣) فى قوله ـ فى الآية نفسها : كن نساء . (٤) الأنفال : ١٢ (٥) النساء : ١١

لِتَعَطُفَ [٢٢٤ ب] أحدَ الشرطين على الآخر . وسكت عن حظ الأب استغناء بفهمه ؛ لأنه لا يبقى بعد الثلث إلا الثلثان ولا وارث إلا الأبوان ؛ فاقتضى ذلك أنّ الأب يأخذ بقيّته وهو الثلثان .

(فإن كان له إخوة فلأُمّهِ السُّدُسُ[1]) : أجمع العلماء على أن ثلاثة من الإخوة يردُّونَ الأم إلى السُّدُس . واختلفوا فى الاثنين ؛ فمذهب الجمهور أنهما يردّانها إلى السدس . ومذهب ابن عباس أنهما لا يردانها إليه ؛ بل هما كالأخ الواحد . وحجّتُه أنّ لفظَ الإخوة لا يقعُ على الاثنين ؛ لأنه جمعٌ لا تثنية . وأقلّ الجمع ثلاثة . وقال غيره : إن لفظ الجمع قد يقَعُ على الاثنين ، كقوله[2] : « وكُنّا لِحُكْمِهِم شاهِدين » . و «[3] تسوَّرُوا المحراب » . «[4] وأطْرَافَ النهـار » .

واحتجّوا بقوله صلى الله عليه وسلم : " الاثنان فصاعدا جماعة " .

وقال مالك : مضت السنّة أن الإخوة اثنان فصاعدا . ومذهبُه أن أقلّ الجمع اثنان ؛ فعلى هذا يحجب الأخَوان فصاعدا الأم عن الثلث إلى السدس ، سواء كانا شقيقين ، أو لأب ، أو لأم ، أو مختلفين ؛ وسواء كانا ذَكَرَيْن أو انثيين، أو ذكراً وأنثى ؛ فإن كان معهما أبٌ ورث بقيّة المال ، ولم يكن للإخوة شيء عند الجمهور ، فهم يحجبون الأمّ ولا يرثون .

وقال قوم : يأخذون السدس الذى حَجَبُوا عنه الأم ، وإن لم يكن أب ورثوا .

(فهم شرَكاءُ فى الثُّلث[5]) : يعنى إن كان الإخوةُ للأم اثنين فأكثر

---

(١) النساء : ١١ (٢) الأنبياء : ٧٨ (٣) ص : ٢١
(٤) طه : ١٣٠ (٥) النساء : ١٢

فلهم الثلث بالسواء بين الذكر والأنثى ؛ لأن قوله : « شركاء » يقتضي التسوية بينهم ؛ ولا خلاف في ذلك .

ولما وقع النزاعُ بين فقيهَيْن في أقل الجمع ، هل هو اثنان أو ثلاثة ؟ رأى أحدهما رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : كلٌّ منكم مصيب ؛ فإن أقلَّ جمع التثنية اثنان . وأقل جَمْع الأفراد ثلاثة . فانظر كيف أرضاهما صلى الله عليه وسلم بقوله .

(فاستَشْهِدُوا عليهنَّ أربعةً منكم[1]) : إنما جعل شهداء الزنى أربعة تغليظا على المدّعي ، وستْرًا على عباده ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : هلّا سترتَه بردائك . وفي حديث آخر : من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستترْ عنّا بستر الله ، ومَنْ أبدى لنا صفْحتَه وجهه أقمنا عليه الحدّ . وقيل : ليكون شاهدان على كل واحد من الزانيين .

(فأمسِكُوهنَّ في البيوت[2]) : كانت عقوبةُ الزنى الإمساك في البيوت ، ثم نُسخ ذلك بالإيذاء الذكور والتوبيخ . وقيل إن الإمساك في البيوت للنساء والإيذاء للرجال ، فلا نَسْخ بينهما . ورَجّحه ابن عطية والزمخشري وابن الفرس بقوله في الإمساك : من نسائكم ، وفي الإيذاء : منكم ، ثم نسخ الإمساك والإيذاء بالرّجم للمُحْصَن ، وبالجلد لغير المُحْصَن . واستقر الأمرُ على ذلك ؛ فأما الجلد فذكور في سورة النور ، وأما الرجم فقد كان في القرآن ثم نُسخ لفظه ، وبقي حكمه . وقد رجم صلى الله عليه وسلم ماعزا الأسلمي وغيره .

(فأعرِضُوا عنهما[3]) : لما أمر بالإيذاء الزاني أمر بالإعراض عنه إذا تاب،

---

(١) النساء : ١٥ (٢) النساء : ١٥ (٣) النساء : ١٦

وهو تركُ الإيذاء ، وفيه ترجية للتائب . وقد أخبرنا الله فى أربع آيات من كتابه أنه يتوب على المؤمنين ؛ قال تعالى[1] : « لقد تاب اللهُ على النبيّ ... » الآية . «[2] ويتوبَ اللهُ على المؤمنين » . «[3] والله يُريد أن يتوبَ عليكم » . «[4] إنما التوبةُ على الله » . وأخبرنا فى ثلاث آيات أنه يقبل توبتهم ؛ قال تعالى[5] : « ألم يعلموا أنّ اللهَ هو يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده » . «[6] وهو الذى يقبل التوبةَ عن عباده » . «[7] قابِل التَّوْبِ » .

وذكر لنا أنه يغفر لهم فى ثلاث آيات ؛ قال تعالى[8] : « والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ... » الآية . و «[9] من يعمل سُوءاً أو يَظْلِم نفسه ... » الآية . «[10] قل يا عبادِي الذين أسرفوا على أنفسهم... » الآية .

وأخبرنا فى آيتين أنّا إنْ رجَعْنا إليه قَبِلنا ؛ قال تعالى[11] : « وأنِيبُوا إلى ربّكم » . وقال[12] : « فَفِرُّوا إلى اللهِ » .

وقد قدمنا أن فى هاتين الآيتين إشارةً إلى فلاح التائب ومحبته له . وقال تعالى[13] : « إنّ اللهَ يحبُّ التوّابين ويُحِبُّ المتطهرين » ؛ فقدم محبةَ التائب على المتطهر ؛ وما ذلك إلّا أنّ التائبَ تقعُ ندامته واستغفاره ، وطلب العُذْر والدعاء [٢٢٥ ا] من مولاه ؛ ولذلك كان المعصوم على الإطلاق يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم أكثر من مائة مرة .

---

(١) التوبة : ١١٢ (٢) الأحزاب : ٧٣ (٣) النساء : ٢٧
(٤) النساء : ١٧ (٥) التوبة : ١٠٤ (٦) الشورى : ٢٥
(٧) غافر : ٣ (٨) آل عمران : ١٣٥ (٩) النساء : ١١٠
(١٠) الزمر : ٥٣ (١١) الزمر : ٥٤ (١٢) الذاريات : ٥٠
(١٣) البقرة : ٢

وقال الصحابى : إنْ كُنّا لنعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد : رب اغفر لى وتُبْ علىّ - أكثر من سبعين مرة ؛ فكيف بك أيها الغَرِيقُ ! ولا يخلصك من ذلك إلا بكثرة الاستغفار ، والصلاة على النبى المختار صلى الله عليه وسلم ؛ فإنهما يمحقان الذنوب محقا . قال صلى الله عليه وسلم : "التائب من الذنب كمن لا ذَنْبَ له".

وإذا تأملتَ الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تجد فيها محبةَ الله للتائب والمستغفر ؛ ألا ترى أن الله قدّمه فى آيات من كتابه ، كقوله تعالى[1] : « التائبون العابِدُون الحامدون » . «[2] فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مُقْتَصِد » . وفى الحديث : طُوبَى لمن وجد فى صحيفته استغفاراً كثيراً.

وقد قرن اللهُ صحبةَ التائبين مع الصابرين ، والمجاهدين والمحسنين ، والمتوكلين والمُتَّقين والقاتلين فى سبيله ، والمتّبعين لنبيه ؛ فما أشرفها من خصلة إن وفّقك اللهُ إليها ! ويا لها من نعمة يجب عليك شكرُها ! وكيف لا تشكره عليها والشكرُ نعمةٌ أخرى ؟ لكنه سبحانه يُعطى الكثير ، ويَرْضى باليسير ؛ فاللسان ترجمان القلب . ولو جعل الله فى قلبك رؤية هذه النعم لحركته فيما يدفَع عنك النِّقَم ؛ أعجبتكَ نفسك ، فرضيت أفعالها ! ألم تعلم أنّ أصلَ كلِّ معصية الرضا عن النفس . سرحت لسانك فى أعراض إخوانك ، وهل خلقه لك إلا لتسبّحه ، أو تذكر نعمَه ، أو تستغفر من ذنوبك الصادرة منك ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون على مصابنا وعدم احتفالنا بما كسبته جوارِحُنا ، نسأله سبحانه السلامة والعافيةَ فى ديننا ودنيانا ، بجاه نبينا وحبيبنا .

---

(١) التوبة : ١١٢

(فاحشة ومَقْتا[1]) : قد قدمنا أن الفاحشةَ معناها الزنى ، وزاد فى هذه الآية « مَقْتا » ؛ لأنَّ تزوُّجَ الرجل زوجة أبيه أشدّ من الزنى .

(فَتَيَاتِكم المؤمنات[2]) : هنّ الإماء . ويجوز نكاحهنّ إذا لم يجد طَوْلا للمحصنات .

(فانكحوهُنّ بإذْنِ أهلهنّ[2]) ؛ أى سادانهنّ المالكين لهن .

(فإذا أُحصِنّ ...[2]) الآية . معناها إذا زنت الأَمَة بعد أن أحصنت فعليها نصفُ حدّ الحرة .

(فَتِيلا[3]) : هو الخيط الذى فى شقّ نواة التمرة . وقيل : ما يخرج بين إصبعيك وكفَّيك إذا فتلتهما ؛ وهو تمثيل وعبارة عن أقل الأشياء ؛ فيدل على الأكثر بطريق الأولى .

(فَرُدُّوه إلى الله والرسول[4]) : الردُّ إلى الله هو النظر فى كتابه . والرد إلى الرسول هو سؤالُه فى حياته ، والنظر إلى سنّته بعد وفاته .

(فمِنهُمْ مَنْ آمَنَ به ...[5]) الآية . معناها أنّ مِنَ اليهود مَنْ آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ، أو بالقرآن المذكور فى قوله[6] : « مصدقًا لما معكم » . أو بما ذكر من حديث إبراهيم . فهذه الضمائر فى « به » . وقيل منهم ؛ أى من آل إبراهيم ، ومنهم من كفر كقوله[7] : « فمنهم مُهْتَدٍ وكثير منهم فاسقون » .

---

(١) النساء : ٢٢ (٢) النساء : ٢٥ (٣) النساء : ٤٩
(٤) النساء : ٥٩ (٥) النساء : ٥٥ (٦) آية ٤٧ من السورة نفسها .
(٧) الحديد : ٢٦

(فكيف إذا أصابتهم مُصيبة بما قدّمتْ أيديهم[١] ...) الآية . معناها : كيف يكون حالُهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم ، ويقولون : لم نرد إلا موافقتك يا محمد ، مع أنهم كاذبون فى قولهم ، فانظر هذه الملاطفة الواقعة مِنْ أمْرِ الله لرسوله فى شأنهم .

(فلا وربِّكَ لا يُؤْمِنُون[٢]) : لا هنا مؤكدة للنفى الذى بعدها . ومعنى الآية أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ونزلت بسبب المنافقين الذين تخاصموا . وقيل بسبب خصام الزبير مع الأنصارىّ فى الماء الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "أن كان[٣] ابن عمتك" . وحكمها عام .

(فأولئك مع الذِينَ أنعَم اللهُ عليهم ...[٤]) الآية . أشار بها إلى أنّ مَنْ أطاع الله ورسوله يُحشر معهم . وهى مفسرة لقوله : صراط الذين أنعمت عليهم .

(فانفِرُوا ثُبَاتٍ[٥]) ؛ أى اخرجوا للجهاد جماعات متفرقين ، أو جماعات . وفيها إشارةٌ إلى السرايا ، وأنّ مَنْ خرج بها فهو كالمجاهد ، ولا يُقال إنّ المجاهد لا يكون إلّا مع الإمام ؛ وقد صحّ أنه صلى الله عليه وسلم قال : لولا أن أشقّ على أمتى ما قعدْتُ خِلَافَ[٦] سَرِيَّة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا ويحرّض عليها ؛ وقد وصف من تخلّف [٢٢٥ ب] عنها بأنه من المستهزئين .

(فبما نَقْضِهم ميثاقَهم[٧]) : ما زائدة للتأكيد ، والباء تتعلق بمحذوف

---

(١) النساء : ٦٢ (٢) النساء : ٦٥ (٣) فى القرطبى (٥ - ٢٦٦) أراك تحابى ابن عمتك . (٤) النساء : ٦٩ (٥) النساء : ٧١

(٦) خلاف سرية ، أى خلفها وبعدها (صحيح مسلم : ١٤٩٦) (٧) النساء : ١٥٥

تقديره : بسبب نقضهم فعلنا ما فعلنا ، والباء[1] تتعلق بقوله : « حرّمنا عليهم » ، ويكون « فبظلم » على هذا بدلا من قوله فبما نقضهم .

(فآمِنُوا خَيْرًا لكم[2]) : انتصب خيراً هنا ، وفي قوله[3] : « انتهوا خيراً لكم » ـ بفعل مضمر تقديره : وأتوا إيمانا خيرا لكم . هذا مذهب سيبويه ، وعلى هذا فنصبُه على النعت لمصدر محذوف . وقال بعض الكوفيين : هو خبر كان المحذوفة ، تقديره يكن الإيمان خيراً لكم .

(فمن اضطُرَّ[4]) : راجع إلى المحرمات المذكورة قَبْلَ هذا ، أباحها اللهُ عند الاضطرار .

(فاغسِلُوا وجوهَكم وأيْدِيَكُمْ إلى المرافق[5]) : ذكر الله في هذه الآية صفةَ الوضوء ، وذكر فيها أربعة أعضاء : اثنان محدودان وهما اليدان والرجلان ، واثنان غير محدودَيْن وهما الوجه والرأس . فأما المحدودان فتغسل اليدان إلى المرفقين ، والرِّجْلان إلى الكعبين وجوباً بإجماع ؛ فإنّ ذلك الحد هو الذي جعل الله لهما .

واختلف هل يجب غسل المرفقين مع اليدين وغسل الرجلين مع الكعبين أم لا ؟ وذلك مبني على معنى إلى ؟ فمن جعل إلى بمعنى مع في قوله : إلى المرافق وإلى الكعبين ـ أوجب غسلهما ، ومن جعلها بمعنى الغاية لم يُوجب غَسْلهما .

واختلف في الكعبين : هل هما اللذان عند معقد الشِّراك لذكرها بلفظ الجمع ، كما ذكر المرافق ؛ لأنه على ذلك في كل رجل كعب واحد .

---

(١) في ا : له ـ تحريف .　(٢) النساء : ١٧٠　(٣) النساء : ١٧١
(٤) المائدة : ٣　(٥) المائدة : ٦

وأما غير المحدودين فاتفق على وجوب إيعاب الوَجْه ، وَحَدُّه طولا مِنْ أول منابت الشعر إلى آخر الذقن واللحية ، وحدُّه عَرْضاً من الأُذُن إلى الأُذُن . وقيل من العِذَار إلى العِذَار .

وأما الرأسُ فذهبُ مالك وجوب إيعابه كالوجه . ومذهب كثير من العلماء جوازُ الاقتصار على بعضه ؛ لما رُوى فى الحديث أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مسح على ناصيته ؛ ولكنهم اختلفوا فى القَدْرِ الذى يجزىء على أقوال كثيرة .

وسِرُّ الأمر فى غسل هذه الأعضاء فى الوضوء أن الله أكرم هذه الأمة فى الجنة بالخواتم والخلاخل والأسورة والتِّيجان والنظر إلى الله ؛ فأمرهم بغسل هذه الأعضاء ، ليطهرهم من الذنوب الواقعة منها ، فيلقوه ولا ذَنْب عليهم ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إنى لأعرف أمتى يوم القيامة ؛ لأنهم غُرٌّ محجَّلون من آثار الوضوء ؛ فلا يحافظ عليه إلا مؤمن ؛ لأنَّ مفتاحَ الجنّة لا إله إلا الله ، ومفتاح الصلاة الوضوء : قال الله تعالى[1] : « ولكن يُرِيد ليطهِّركم ، وليُتِمَّ نِعْمَتَه عليكم » .

فانظر كيف سوّاهم مع رسول الله ؛ لقوله[2] : « إنما يريد الله ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيْت » . «[3] ويتم نعمته عليك » .

فإن قلت : لم مُنِــع المتيمم من مسح رأسه ؟

والجواب أنَّ وَضْعَ التراب على الرأس علامةُ الفراق من الحبيب ؛ والله تعالى لا يحب فراقهم ، فلم يجعل لهم ما يتفاءلون به على الفراق .

---

(١) المائدة : ٦ (٢) الأحزاب : ٣٣ (٣) يوسف : ٦

(فَاطَّهَّرُوا[1]) : هذا أمرٌ بالغُسل لمن وجب عليه ؛ وفيه إجمال ، بخلاف الوضوء ، فإنما فَصَّله لأنه من خصائص هذه الأمة ، ولم يكونوا يعرفونه ، بخلاف الغُسل ، فإنما علموه مما تقدم . وبهذا أمر الله الأمم المتقدمة ، وسِرّه ليذوق الإنسانُ وبَالَ ما أصابه من اللذة في الوقاع ، وأن الدنيا لا تَخْلو من كَدَرٍ ، وفيه معنى النظافة ؛ ولهذا لا ينبغي للانسان أن تمرّ عليه جمعة إلا ويغتسل فيها مرةً ، مع أنه يكفِّر السيئات ، ويرفع الدرجات ؛ وقد صحّ أنه يكفِّر بعدد شعر جسده من السيئات .

فإن قلت : ما معنى الحديث : هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قَبْلي لمّا غسل الأعضاء ثلاثا ؟ مع قولكم : إنه من خصائص هذه الأمة ؟

والجواب أنه كان من خصوصية الأنبياء لا أممهم ، لما قدمناه من أنّ الله أراد بذلك تطهيرهم ؛ ولهذا تقول الأنبياء والأمم يوم القيامة : كادت هذه الأمة أن تكون كلها أنبياء ؛ فما أشرفها من أمة نَبِيٍّ كريم !

(فأغرينا[2]) ؛ أي أثبتنا وألصقنا ، وهو مأخوذ من[3] الغراء .

(فَتْرةٍ[4]) : سكون وانقطاع ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بُعث بعد انقطاع الرسل ؛ لأنها كانت متواترة ، كلّما جاء أمةً رسولُها عذّبوه إلى وقت رَفْع عيسى ، فانقطعت الرسل إكراماً لهذا النبي الكريم .

(فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذُنُوبِكم[5]) : ردٌّ عليهم ؛ لأنهم قد اعترفوا [٢٢٦ ا] أنهم أبناء الله وأحبّاؤه ، فردّ الله عليهم أنه يعذبهم وينتقم منهم ، والأبُ

---

(١) المائدة : ٦ (٢) المائدة : ١٤ (٣) وهو ما يلصق الشيء بالشيء ، كالصمغ وغيره (القرطبي : ٦ ـ ١١٧) . (٤) المائدة : ١٩
(٥) المائدة : ١٨

لا يعذّب ولده ، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه ؛ ففيه تبكيتٌ لهم ، وإشارة إلى أن من [أحبَّه][1] يرفع درجته ، ولا يكون العبد محبوباً عند مولاه إلا بعد الإخلاص فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية .

وأمّا من يدّعي المحبّة وهو عريّ عنها فهو كاذبٌ فى دَعْواه ، غيرُ واصل لما يتمنّاه .

واعلم أن العَبْدَ مع الله على ثلاثة أوجه :

حال يكون للعبد عليه . وحال يكون لله على العبد . وحال يكون على رأس العبد شاء ذلك العبد أو أبى .

فأما الحالُ التى تكون للعبد على الله فهى حال الشدة والمحنة ، فللعبد على الله الأجر والعوض ؛ قال تعالى[2] : « ذلك بأنّهم لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَب » .

وأما الحال التى تكون لله على العبد فهى حالُ النعمةِ والرخاء ، ولله على العبد الشكر والنعمة ؛ قال تعالى[3] : «وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها» . وقال[4] : « ثم لتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم » .

وأما الحال التى تكون على رأس العبد فهى حال القضاء والقدر ؛ قال تعالى[5] : « قل لَنْ يُصِيبنا إلّا ما كتَبَ الله لنا » .

وإذا علمت هذا فرادُ الله منك فى حال النعمة — الشكر ، ويجازيك بالزيادة[6] : « ولَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيدَنّكم » . وفى حال النقمة الصبر ، ويجازيك

(١) مكان ما بين القوسين كلمة غير مقروءة فى الأصلين . (٢) التوبة : ١٢٠
(٣) إبراهيم : ٣٤ (٤) التكاثر : ٨ (٥) التوبة : ٥١
(٦) إبراهيم : ٧

بالثواب الجزيل «[1] وجزاهُمْ بما صَبَرُوا جَنَّةً وحريرا » . وفى حال الطاعة ـ الإخلاص ، ويجازيك بالقَبُول[2] : « فمَنْ كان يَرْجُو لقاءَ ربِّهِ فلْيَعْمَلْ عملًا صالحا ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً » . وفى حال المعصية التوبةُ والرجوعُ إليه ، ويجازيك بالمغفرة .

فمن ادَّعى محبَّته تعالى وهو غيْرُ ممتثل لأمْرِه فهو كاذب فى دعواه ، غير مدرك ما يتمنَّاه . وهذه دعوى اليهود والنصارى وهم مخالفون فى أمره ؛ فإياك والتشبّه بهم ؛ فالتشبُّهُ بأهل الخير فلاح .

وإذا كان سبحانه يسأل الصادقين عن صِدْقهم فكيف بمَنْ لم يعمل ، وقد قالوا : عمَلٌ بلا إخلاص كحقيقةٍ بلا رُوح ؛ فلا تكثروا العملَ بالبَهْرَجِ[3] ، غدير صاف أنفع من خليج كَدِر . ما أشبه حجر المَهَا[4] بالجوهر ، لكن بين الثمنين بَوْن بعيد . ربح المرائى مُنْتن بَشين القلوب الصافية .

(فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين[5]) : هو من الفرقة . وقيل من الفَصْل ؛ أى افصل بيننا وبينهم بحكم .

(فإنّها مُحَرّمةٌ عليهم أربعين سنةً[6]) : قد قدمنا أنَّ الله حرّم على بنى إسرائيل الأرضَ المقدّسة أربعين سنة ، مدة عبادتهم العِجْل ، حتى مات كلُّ مَنْ قال : إنا لَنْ نَدْخُلَها ؛ ولم يدخلها أحَد من ذلك الجيل إلا يوشع وكلاب[7] ، ومات هارون فى التيه ، ومات موسى بعده فى التِّيه أيضا . وقيل

---

(١) الإنسان : ١٢ (٢) الكهف : ١١٠ (٣) البهرج : الباطل والردىء (القاموس) .

(٤) المهاة : البلورة ، والجمع مها ومهوات (القاموس) .

(٥) المائدة : ٢٥ (٦) المائدة : ٢٦

(٧) فى القرطبى (٦ ـ ١٣٠) وكالب .

إنَّ موسى وهارون لم يكونا فى التِّيه ؛ لقوله : فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين .
وخرج يوشع ببنى إسرائيل بعد الأربعين سنة ، وقاتَلَ الجبَّارين ، وفتح المدينةَ .
والعامل فى أربعين محرَّمة ـ على الأصح ؛ فيجب وَصْله معه . وقيل العامل فيه
يتيهون ؛ فعلى هذا يجوز الوقف على قوله : «مُحرَّمة عليهم» . وهذا ضعيف ؛ لأنه
لا حامل على تقديم المعمول هنا ، مع أنَّ القولَ الأولَ أكملُ معنى ؛ لأنه بيانٌ
لمدة التحريم والتِّيه معاً .

(فلا تَأْسَ على القَوْمِ الفَاسِقِين[1]) ؛ أى لا تَحْزَنْ على مَنْ فسق منهم
يا محمد ، لإنكارهم هذه القصص فى كتابك ، مع علمهم بها فى كُتُبهم . وقيل
الخطاب لموسى .

(فكأنَّما قَتَلَ الناسَ جَمِيعاً[2]) : تمثيلُ قاتِلِ الواحدِ بقاتل الجمع يتصوَّر
من ثلاث جهات : إحداها : القِصاص فى قَتْلِ الواحد والجمع سواء . والثانى :
انتهاك الحرمة ، والإقدام على العصيان . والثالث : الإثْم والعذاب الأُخْرَوِيّ .

قال مجاهد : إنَّ الله وعد قاتل النفس بجهنَّم والخلود فيها ، والغضب واللعنة،
والعذاب العظيم . فإنْ قَتَل جميع الناس لم يزِدْ على ذلك . وهذا الوجه هو الأظهر؛
لأنَّ القصد بالآية تعظيم قَتْلِ النفس ، والتشديد فيه ؛ ليزْدَجِر الناسُ عنه .
وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع ، لتعظيم الأمْرِ والترغيب فيه .
وإحْياؤها هنا إنقاذها من الموت ، كإنقاذ الغريق وشبهه . وقيل بترك قَتْلها .
وقيل بالعفو إذا وجب القصاص .

(فمَنْ تاب مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه[3]) : توبة السارق [٢٢٦ ب] هى أن يندم
على ما مضى ، ويُقْلِعَ فيما يستقبل ، ويردّ ما سرق إلى مَنْ يستحقّه .

---

(١) المائدة : ٢٦ (٢) المائدة : ٣٢ (٣) المائدة : ٣٩

واختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم ، هل يسقط عنه القَطْعُ ؟ وهو مذهبُ الشافعى لظاهرِ الآية ، أو لا يسقط عنه ؟ وهو مذهب مالك ، لأن الحدودَ عنده لا تسقط بالتوبة ، إلا المحارب ؛ للنصّ عليه .

(فَتَرى الَّذِين فى قلوبهم مَرَضٌ[1]) : هم المنافقون ، كعبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول وأصحابه .

(فعسى اللهُ أنْ يأتِىَ بالفتح أوْ أمْرٍ مِنْ عنده[1]) : لا يكون فيه تسبُّب لمخلوق . وقيل أمْرٌ من الله لرسوله بقَتْل اليهود . والفَتْح : هو ظهور النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

(فيُصْبحُوا على ما أَسَرُّوا فى أنفسهم نادِمين[2]) : مِنْ قَصْدِهم الاستعانة باليهود على المسلمين ، وإضمار العداوة للمسلمين .

(فسوف يَأْتى اللهُ بقَوْمٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه[3]) : قرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، وقال لهم : قوم هذا ، يعني أبا موسى الأشعرى . والإشارة بذلك ـ والله أعلم ـ إلى أهل اليمن ؛ لأن الأشعريين من أهل اليمن . وقيل المراد أبو بكر الصدِّيق وأصحابه الذين قاتلوا أَهْلَ الردّة . ويُقَوِّى ذلك ما ظهر من أبى بكر الصّدّيق رضى الله عنه من الجد فى قتالهم ، والعَزْم عليه ، حتى خالف فى ذلك عزم الناس ، فاشتد عزمُه ، ووافقوه ، وأجمعوا معه حتى نصرهم الله على أهل الردّة. ويقوّى ذلك أيضا أنّ الصفات التي وُصف بها هؤلاء القوم هى فى أوصاف أبى بكر ؛ ألا ترى قوله تعالى[3] : «أذِلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين». وكان أبو بكر ضعيفاً فى نفسه قويا فى الله ؛ وكذلك قوله[3] : «يجاهدون

---

(١) المائدة : ٥٢ (٢) المائدة : ٥٢ (٣) المائدة : ٥٤

فى سبيل ولا يخافون لَوْمَةَ لائم » ؛ إشارة إلى مَنْ خالف أبا بكر ولامَهُ فى قتال أهلِ الردّة ، ولم يرجع عن عَزْمه .

فإن قيل : أين الراجع من الجزاء إلى الشرط ؟

والجواب أنه محذوف ، تقديره : مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عن دِينه فسوف يأتى اللهُ بقومٍ[1] .

(فَعَمُوا وصَمُّوا[2]) : عبارة عن تماديهم على المخالفة والعصيان .

(فاجْتَنِبوه[3]) : نصٌّ فى التحريم . والضمير يعود على الرِّجْس[4] الذى هو خبر عن جميع الأشياء المذكورة .

(فيقُول ماذَا أُجِبْتُمْ[5]) ؛ أى يقول الله للرسل يوم القيامة : ماذا أجابكم الأمم من إيمان وكُفر ، وطاعة ومعصية . والمقصودُ بهذا السؤال توبيخُ مَنْ كفَرَ من الأمم ، وإقامةُ الحجة عليهم . وانتصب ماذا بأجبتم بانتصاب مصدره . ولو أراد الجواب لقال : ماذا أجَبْتم ؟

فإن قلت : يفهم من قوله تعالى : فيقول للمرسلين ماذا أُجبتم أنه يخاطبهم هناك ، وكذا الخطاب منه سبحانه حيث وقع ؛ كقوله لعيسى[6] : « أأَنْتَ قُلْتَ للناس » ؟ وقد قلتم إنّ كلامه تعالى قديم ملازم للذّاتِ القديمة ، وقول الرسل : « لا عِلْمَ لَنَا » ما معناه ؟ لأنهم علموا بمجاوبة قولهم وإنكارهم .

والجواب أنّ الله يسمعهم خطابه حينئذ، لا أنه يُحْدِثه ؛ لأنه قديم قائم بذات،

---

(١) قوله : محذوف غير واضح لأن هذا الذى قدره هو نص الآية . وفى الكشاف (١ ـ ٢٦٢) : فسوف يأتى الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم ، أو ما أشبه ذلك .

(٢) المائدة : ٧١ (٣) المائدة : ٩٠ (٤) فى الآية نفسها .

(٥) المائدة : ١٠٩ (٦) المائدة : ١١٦

وهكذا نداؤه سبحانه الرسل والأمم يومئذ ، كقوله[1] : « ويَوْمَ يُنَادِيهم فيقولُ ماذا أَجَبْتُم المُرْسَلِين » . والرّسلُ صلوات الله وسلامه عليهم لم يذهلوا عن جوابِ قومهم لهم في الدنيا ؛ لأنهم آمِنون يومئذ ؛ وإنما تأدّبوا مع الله سبحانه ردّ العلم إليه سبحانه . قال ابنُ عباس رضي الله عنه : المعنى لا علم لنا إلا ما علّمتنا. وقيل معناه عِلْمُنا ساقطٌ في جَنْب علمك . ويقوّي هذا قولهم[2] : « إنّكَ أَنْتَ عَلّام الغُيوب » ؛ لأن من علم الخفيّات لم تَخْفَ عليه الظواهر . وسؤال الله لهم مع علمه توبيخٌ واحتجاجٌ على الخالقين .

وانظر الصحابة رضي الله عنهم كيف تأدّبوا بهذا الخُلُق العظيم في آخر حجّةِ الوداع لما قال صلى الله عليه وسلم : أيُّ يوم هذا ؟ أي شهر هذا ؟ أي مكان هذا ؟ فأجابوا بقولهم : الله ورسوله أعلم ، مع أنهم علموا الشهر واليوم والمكان ؛ لكنهم تأدّبوا معه صلى الله عليه وسلم ، وتوهموا لعله أن يريد غير هذا .

(فمَنْ يَكْفُرْ بعدُ مِنْكم فإني أعذّبُه عذابا لا أعذّبُه أحداً مِنَ العالَمِين[3]): هذه عادةُ الله سبحانه في عقاب مَنْ طلب مِنَ الرسول آيةً فكفرها ؛ وأصحابُ المائدة سألوها من عيسى ، فقال الله : إني مُنَزِّلُها عليكم ، فكفروا ، فسخهم الله قِردةً وخنازير . قال عبد الله [٢٣٧ ا] بن عمر : أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة مَنْ كفر مِنْ أصحاب المائدة ، وآل فرعون ، والمنافقون .

(فانظروا[4]) : أمَرَ الله رسولَه أن يأمر قريشا بالسير في الأرض للاعتبار بمنازل الكفار الذين كانوا قبلهم .

---

(١) القصص : ٦٥ (٢) المائدة : ١٠٩ (٣) المائدة : ١١٥
(٤) آل عمران : ١٣٧

فإن قلت : ما الفرق بين قوله[1] : فانظروا ، ثم[2] انظرُوا ؟

والجواب أنه جعل النظر مسببًا عن السير فى قوله : فانظروا ؛ فكأنه قال : سيروا لأجل النظر. وأما قوله[3]: قُلْ سيروا فى الأرض ثم انظُروا ـ فمعناه إباحةُ السير للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر فى الهالكين .

(فإنّهم لا يكذّبونك[3]) ، بتشديد الذال بمعنى لا يكذبونك معتقدين لكذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به . ومن قرأه بالتخفيف فيل معناه لا يجحدونك كاذبا . يقال : أكذبْتُ فلانا إذا وجدته كاذبا ، كما يقال أحْمدته إذا وجدته محمودا . وقيل هى بمعنى التشديد ؛ يقال أكْذَب فلانٌ فلانا ، وكَذّبه بمعنى واحد . وهو الأظهر ؛ لقوله بعد هذا : يجحدون .

ويؤيد هذا ما روى أنها نزلت فى أبى جهل ؛ فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذّبك ، ولكن نكذب ما جئتَ به ، وإنه قال للأخنس ابن شَريق : والله إن محمداً لصادق ، ولكنى أحسده على الشرف .

(فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين[4]) ؛ أى من الذين يجهلون أنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى . وقد قدمنا أن قول الله : فلا تكونَنّ ـ بالتأكيد ـ لرسوله لإفراط محبته فيه ، لأنّ العادة أن يكون الاجتهاد على قدر المحبة ، بخلاف قوله لنوح[5]: « إنى أعِظُك أن تكونَ من الجاهلين » ؛ لأنه صَفِيّ ، ولا يبلغ قَدْر الحب .

(فرّطْنَا[6]) ؛ أى ضيّعنا وأغفلنا . والمراد بالكتاب فى الآية اللّوْحُ المحفوظ. والكلامُ على هذا عامّ . وقيل القرآن ؛ ومعناه أن الله لم يفرط فيه من شىء ؛

---

(١) آل عمران : ١٣٧ (٢) الأنعام : ١١ (٣) الأنعام : ٣٣

(٤) الأنعام : ٣٥ (٥) هود : ٤٦ (٦) الأنعام : ٣٨

فيه هداية الخلق ، والبيان لهم . وقد قدمنا أنّ جميعَ العلوم الدنيوية والدينية مستنبطةٌ منه .

(فلولا إذ جاءَهم بأسُنا تضرّعوا[1]) : فى هذه الآية عرض وتحضيض على التضرع ، ومدح لهم فى رجوعهم إلى الله ، ودليل على أن من أخذه الله بذنوبه فلم يرجع إليه يقسو قلبه ، كما ذكر فى هؤلاء الكذابين .

(فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به[2]) : أى من الشدائد ، ولم يتّعظوا بها ، فتح عليهم أبواب الرزق والنعم ، ليشكروا عليها فلم يشكروا ، فأخذهم اللهُ .

(فتطرُدَهُم[3]) : هذا جواب النفى فى قوله[3] : ما عليك .

(فأىُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ[4]) : استفهم عن المؤمنين والكافرين لعلهم يجيبون ؛ فأجاب عن السؤال بقوله[5] : « الذين آمنُوا ... » الآية . وقيل إن الذين آمنوا استئناف ، وليس من كلام إبراهيم .

(فإنْ يكفرْ بها هؤلاء[6]) : أى أهل مكة .

(فقد وكّلْنا بها قوماً ليسُوا بها بِكافرين[6]) : هم الأنبياء المذكورون وقيل الصحابة . وقيل كلُّ مؤمن . والأول أرجح لدلالة ما بعده على ذلك . ومعنى توكيلهم بها توفيقهم للإيمان بها ، والقيام بحقوقها .

(فبِهُداهُمْ اقتدِه[7]) : استدل به مَنْ قال إنّ شرعَ مَنْ قبلنا شرع لنا . وقد قدمنا أن الاختلاف إنما وقع فى الفروع . والخلاف : هل يقتدى النبى صلى الله

---

(١) الأنعام : ٤٣ (٢) الأنعام : ٤٤ (٣) الأنعام : ٥٢

(٤) الأنعام : ٨١ (٥) الأنعام : ٨٢ (٦) الأنعام : ٨٩

(٧) الأنعام : ٩٠

عليه وسلم فيها بين قبله أم لا ؟ والهاء فى «اقتَدِه» للوقف ؛ فينبغى الوقف عليها ، وتسقط فى الوصل ؛ ولكن من أثبتها فيه راعَى ثبوتها فى خط المصحف .

(فأخرَجْنَا به[1]) : أى بالماء . ومنه[1] : أى من النبات . وذكر الله الإخراج فى كتابه فى خمس آيات : إخراج القدرة ، وهو الصبيان . «[2] والله أخرجكم من بُطونِ أمَّهاتِكُم» . وإخراج النعمة كهذه ؛ وكقوله[3]: «فأخرج به من الثمرات رِزقًا لكم» . «[4] فأخرجنا به أزواجًا من نَبَاتٍ شَتّى» ؛ كالحبّ والعِنَب . وإخراج العقوبة[5] : « فأخرجَهُمَا مِمَّا كانَا فيه » . وإخراج الميتة : «[6] يخرجون من الأجداث سِرَاعا » . وإخراج الكرامات[7] : « يُخرِجهم من الظُّلماتِ إلى النـــور » ؛ أى من الكفر إلى الإيمان ، ومن النكرة إلى المعرفة .

فإن قلت : لم جمع الظلمات ، وأفرد النور ، وجمع السموات وأفرد الأرض حيث وقع فى كلامه سبحانه [٢٧٧ ب] ؟

والجواب لما شَعَّب سبحانه الكُفْرَ على شعب كثيرة جمعه بهذا الاعتبار ، والنُّور واحد أفرده وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكما نشاهد السموات بعلامة الكواكب ، والمنّة لله علينا فيها ، لأن فيها منفعتنا ذكرهنّ بلفظ الجمع ، بخلاف الأرض ، لأنّا لا نشاهد غير الأرض التى نحن عليها ، ولا منفعة لنا فى غيرها ، ولو كانت لنا فيها منفعةٌ فالسموات أعظم لخدمتهن ، والاستدلال بكواكبهن ، وخدمة أهلهن لنا كما قدمنا .

---

(١) الأنعام : ٩٩ (٢) النحل : ٧٨ (٣) البقرة : ٢٢

(٤) طه : ٥٣ (٥) البقرة : ٣٦ (٦) المعارج : ٤٣

(٧) البقرة : ٢٥٧

(فاعْبُدوه[1]) : مسبَّبٌ عن مضمون الجملة ، أي من كان هكذا فهو المستحقُّ للعبادة وحده .

(فكلُوا مما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه[2]) : أباحت هذه الآية أكلَ ما ذُكِر اسمُ الله عليه ، والنهى عن ذبح للنُّصُب وغيرها ، وعن المَيْتَة . وهذا النهى يقتضيه دليل الخطاب من الأمر ، ثم صرح به في قوله[3]: « ولا تأْكُلوا مِمَّا لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه » . وقد استدلَّ بذلك مَنْ أوجب التسميةَ على الذبيحة ، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم المَيْتَة وغيرها ، فإنْ حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على ذلك . وقال عطاء : هذه الآية أمرٌ بذكر الله على الذبح والأكل والشرب .

(فما كانَ لِشُرَكائِهم فلا يَصِلُ إلى الله[4] ...) الآية : كانوا إذا هبّت الريح فحملت شيئا من الذى لله إلى الذى للأصنام أقرُّوه ، وإذا حملت شيئا من الذى للأصنام إلى الذى لله ردُّوه ، وإذا أصابتهم سنةٌ أكلوا الذى لله وتحاموْا نصيب شركائهم ، وهذا من جهلهم . ولهذا رد الله عليهم بقوله[4] : « ساء ما يحكُمونَ » .

(فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغةُ[5]) : لما أبطل حجتهم أثبت حجة الله ، ليظهر الحقّ ، ويبطل الباطل .

(فإنْ شَهِدُوا فلا تَشْهَد مَعَهُمْ[6]) ، لأنهم يكذبون في شهادتهم ، ونسبتهم لله ما لا يليق به ، فكيف تشهد يا محمد وأنتَ على الحق ؟

(فَالِق الحبِّ والنَّوَى[7]) : أي يفرق الحبّ تحت الأرض ، والحنطة

---

(١) الأنعام : ١٠٢ (٢) الأنعام : ١١٨ (٣) الأنعام : ١٢١
(٤) الأنعام : ١٣٦ (٥) الأنعام : ١٤٩ (٦) الأنعام : ١٥٠
(٧) الأنعام : ٩٥

بخروج النبات منها ، ويفلق النوى لخروج الشجر منها . وقيل أراد الشق الذى فى النواة والحنطة . والأول أرجح لعمومه فى أصناف الحبوب .

(فالق الإصْبَاح[1]) : أى الصبح ؛ فهو مصدر سُمِّى به الصبح . ومعنى فَلقه إخراجه من الظلمة . وقيل : إن الظلمة التى تنفلق عن الصبح ، فالتقدير فالق ظُلْمَةِ الإصباح .

(فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سَبِيله[2]) : أى تفرقكم عن سبيل الله . والفعل مستقبل، حُذفت منه المضارعة ، ولذلك شدَّده .

(فرَّقُوا دِينَهم وكانُوا شِيَعاً[3]) : جمع مَنْ فرق دينه من اليهود والنصارى وأهل البِدَع . وقرىء : فَارَقُوا ، أى تركوا . وفى الحديث : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فِرْقَة ، والنَّصارى على اثْنَتَين وسبعين ، وستفترق أُمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها فى النار إلا واحدة . قيل : ما هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى . ولولا الإطالة لذكرت فرق هذه الأمة ومذاهبها . وقد تكفَّل بذكرها أئمتنا للاحتراز منهم ، جزاهم الله عن هذه الأمة خيرا .

(فجاءَها بأْسُنا بَيَاتاً[4]) : لا يصح عطفُ هذه الآية بالفاء ، لأن مجىء البأس قبل الإهلاك . ويحتمل أن يكون استئنافاً على وجه التفسير للإهلاك ، فلا يحتاج إلى تكلُّف . والمراد أهلكنا أهلها ، فجاءهم ، ثم حذف المضاف بدليل : «[4] أوْ هُم قائلون » ، من القائلة بالنهار . وقد أصاب العذابُ بعضَ الكفار المتقدمين بالليل ، وبعضهم بالنهار ؛ و « أو » هنا للتنويع .

(فما كان دَعْوَاهُم[5]) : أى ما كان دعاؤهم واستغاثتهم إلا الاعتراف

---

(١) الأنعام : ٩٦ (٢) الأنعام : ١٥٣ (٣) الأنعام : ١٥٩

(٤) الأعراف : ٤ (٥) الأعراف : ٥

بأنهم ظالمون . وقيل : المعنى أن دَعْوَاهم هنا ما كانوا يدعونه من دينهم ، فاعترفوا لما جاءهم العذاب بأنهم كانوا ظالمين فى ذلك .

(فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ[1]) : أى على الرسل والأمم .

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي[2]) : الفاء للتعليل ، وهو متعلّق بفعل قسم محذوف ، تقديره أُقسم بالله بسبب إغوائك ، لأغوينّ بنى آدم . وما مصدرية . وقيل استفهامية ؛ ويبطله ثبوت « فَبِما[3] » مع حرف الجر . وفى الحديث أنه قال : "لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم" . فقال الله : "وعزّتى وجلالى [٢٢٨ ا] لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى ، وأنا الغفور الرحيم" .

(فَعَلُوا فاحِشَةً[4]) : هى ما كانت العرب تفعله من الطواف بالبيت عرايا : الرجال ، والنساء . ويحتمل عموم الفواحش .

(فمن أظْلَم ممّن افترى على الله كَذِبا[5]) : هذه الآية بالفاء ، وفى الثانية[6] من الأنعام . وفى يونس[7] لما فيها من المناسبة اللفظية ؛ لأنه افتتح آية الأنعام بقوله[8] : « وأُوحِيَ إلىّ هذا القرآنُ لأُنْذِركم به ومَنْ بَلغ » . ثم قال[9] : « ومَنْ أظْلَم » . وختم الآية بقوله : « إنه لا يُفلح الظالمون » . ليكون آخر الآية لفظ أول الآية ، وتتبُّع هذه الآيات يطول ذكرها ، فقِسْ ما ذكرتُه على ما لم نذكره .

(فَمَا كانَ لكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ[10]) : هذا من قول أولاهم ـ

---

(١) الأعراف : ٧ (٢) الأعراف : ١٦ (٣) يريد ثبوت الألف فى « ما » ، إذ أنها تحذف إذا كانت ما استفهامية . (٤) الأعراف : ٢٨

(٥) الأنعام : ١٤٤ (٦) فى الأنعام : ٢١ ، ٩٣ بالواو والسابقة ١٤٤ بالفاء .

(٧) يونس : ١٧ (٨) الأنعام : ١٩ (٩) الأنعام : ٢١

(١٠) الأعراف : ٣٩

وهم الرؤساءُ والقادة ، لأُخراهُمْ ـ وهم الأتباع والسفلةُ : لم يكن لكم علينا من فَضْل فى الإيمان والتقوى يُوجب أن يكون عذابنا أشدَّ من عذابكم ؛ بل نحن وأنتم متساوون .

(فذوقُوا العذابَ بما كنتم تَكسِبُون[1]) : هذا يحتمل أن يكون من قولهم أيضا ، أو من قول الله لهم .

(فصَبْرٌ جَمِيل[2]) : هذا وعْدٌ من يعقوب بالصبر ؛ وارتفاعهُ على أنه مبتدأ تقديره صَبْر جميل أمْثَل ، أو خبر مبتدأ تقديره شأنى صبر جميل . روى أن يعقوب عليه السلام لما طال بكاؤه ، واشتد حزنه ، نهاه الله عن ذكر يوسف ، ثم أمر جبريل عليه السلام أن يتصوّر بصورة يوسف ، فلما بصر به يعقوب تأوّه ، فأوحى الله إليه : قد علمتُ ما تحت أنينك ، لو كان ميتا لنشرته لحسن وفائك . فقال : يا جبريل ، ما أعلمنى بحياته ؟ فأحبّ أن أشمّ ريحه . فقال له : الآن بعد ما شكوته ودعوته بلسان الضرورة سأوصل إليك يوسف .

وكذلك أنت يا مؤمن وعدَكَ ربُّك بالإجابة عند الاضطرار ، وبغُفران الذنوب عند الاستغفار ، فقال[3] : « استغفروا رَبّكم إنه كان غَفّارا » .

(فتَاها[4]) : أى عَبْدها . ويقال بمعنى الشاب ؛ والعرب تسمى المملوك شابًا كان أو شيخا فتىً . فتأمل هذه الإضافة .

وفى قوله[5] : « وراوَدَتْه التى هُوَ فى بَيْتِها » : يوضّح لك أنكَ فى بيته وتحت يده ، فإذا اجتنبت الكبائر وما أشبهها يعفو عنك الصغيرة ، لأنك فى بيته ؛

---

(١) الأعراف : ٣٩ (٢) يوسف : ١٨ (٣) نوح : ١٠
(٤) يوسف : ٣٠ (٥) يوسف : ٢٣

قال تعالى[1]: « إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه » . كما عفا عن يوسف للنظر إليها والخاطبة لاجتنابه الدنوَّ إليها ، لأنه كان فى بيتها .

(فقد سرق أخٌ لَهُ من قَبْلُ[2]) : هذا من كلام إخْوَة يوسف ، ومرادُهم أنّ هذا الأمر صدرَ مِنْ ابنٍ لأمّ لا مِنّا ؛ وقصدوا بذلك رفع المَرّة عن أنفسهم ورَمَوْا بها يوسف وشقيقه . واختلف فى السرقة التى رموا بها يوسف على ثلاثة أقوال :

الأول : أن عمّته ربّتْه فأراد والده أن يأخذه منها ، وكانت تحبُّه ولا تصبر عنه ، فجعلت عليه مِنْطقةً لها ، ثم قالت : إنه أخذها منها ، فاستعبدته بذلك ، وبقى عندها إلى أن ماتت .

والثانى : أنه أخذ صنما لجدّه والدِ أمه فكسره .

والثالث : أنه كان يأخذ الطعام من دار أبيه ويُعطيه للمساكين .

(فأسَرَّها يوسفُ فى نَفْسه ولم يُبْدِها لهم[3]) : الضمير للجملة التى بعد ذلك وهى قوله[3]: « أنتم شرٌّ مكانا[4] » .

(فتحَسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأخيه[5]) ؛ أى تعرّفوا خبرهما . والتحسس طلب الشىء بالحواس الأربعة : السَّمْع ، والبَصَر ، والشَّم ، والذَّوق . وإنما لم يذكر الولد الثالث ؛ لأنه بقى هناك اختياراً منه ؛ لأن يوسف وأخاه كانا أحبَّ إليه لصغرهما .

---

(١) النساء : ٣١ (٢) يوسف : ٧٧ (٣) قالوا ذلك ليبرءوا من فعله لأنه ليس من أمهم . (٤) فى القرطبى : أسر فى نفسه قولهم : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . وقيل إنه أسر فى نفسه قوله : أنتم شر مكانا ، ثم جهر فقال : والله أعلم بما تصفون . (٥) يوسف : ٨٧

فإن قلت : أليست الحواسّ خمسة ؟

قلت : الذى مشى عليه الفخر فى تفسير قوله تعالى[1] : « يوم تشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم » ـ أن الحواسّ أربعة ، فجعل الذوق واللمس واحداً، ألا ترى أن الشم لا تكليف فيه البتة ، ولا يتعلق به أمر ولا نهى ؛ ولما كان الاسم الشريف من أربعة أحرف دلّ على أن الحواس أربعة ؛ فالألف للسمع ، والحاء للبصر ، والميم للشم ، والدال للذوق .

ووقع للفخر فى سورة الحمد مناسبة اسمه صلى [٢٢٨ ب] الله عليه وسلم أحمد ومحمد من الحمد ؛ لأنه أول ما خلق الله العقل ، فكان أول ما نطق به الحمْد ، وآخر ما نطق به الحمد، وكان آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فناسب الاسم أن يكون من نوع المبدأ ، فاشتق له من الحمد اسمان : محمد وأحمد ، فأهل السماء هو أحمدهم ، وأهل الأرض هو محمُودهم .

(فلما دخلوا على يوسفَ[2]) : هنا محذوفات يدلّ عليها الكلام ، وهى : فلما رحل يعقوب بأهله حين بلغه خبر يوسف ـ آوى إليه[2] أبويه، أى ضمّهما وتعانقا ؛ ورأى يعقوب أناساً كثيراً ، فقال : يا يوسف ، مَنْ هؤلاء ؟ قال : يا أبت ، إنَ هؤلاء كلهم عَبيدى ، وقد أعتقتهم كلّهم لرؤيتك .

فكذلكم أنتم يا أمةَ محمد ؛ يقول الله عز وجل : يا محمد ، يوسف أعتق عبيده برؤية أبيه ، وإنى أعتق برؤيتك جميعَ عصاةِ أمّتك .

(فأولئك الذين كفرُوا بِربِّهم وأولئكَ الأغلالُ فى أعناقهم[3]) : هذه

(١) النور : ٢٤ (٢) يوسف : ٩٩ (٣) الرعد : ٥ ، والآية من غير فاء ، وقد ذكرت فى الأصل بالفاء قبل أولئك . وقد ذكر بعد أنها قراءة .

على القراءة بالعطف بالفاء المقتَضِية للتسبيب والتعقيب ، ولا يصح العطف بالفاء ؛ لأنّ السبب على ثلاثة أنواع : ظاهر ، وخفى ، ومتوسط . وإنما يحتاج إلى الفاء فى المتوسط والخفى ، وأما هنا فظاهر كونه سبباً فيما بعده ، فلا يحتاج فى عطفه إلى ما يبيّن كونه سببا .

والآية عند بعض العلماء من باب القَلْب . والأصل فيها : وأولئك فى أعناقهم الأغلال ؛ لأن الأغلال محيطة بأعناقهم كإحاطة الظرف بالمظروف ، وأعناقهم هى المظروف . وقد قالوا : إن القلب لا يجوزُ إلا فى الضرائر أو فيما قلّ من الكلام ، وقد جعلوا منه[1] : « ما إنَّ مَفَاتِحَه لتَنُوءُ بالعُصْبَة أُولى القوة » .

وفى الآية دليل على أنّ منكِرَ البعث كافر ، واشتملت على اللفظ العام والإبهام ، ثم التفسير ؛ لأن قوله : وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم ـ تفسير للعذاب النازل بهم . وهذا من باب ذكر المسبب عقب السبب ؛ لأنّ الكفر سبب فى غلّ الأعناق .

فإن قلت : هل هذا على التوزيع ، أو كلّ واحد فى عنقه أغلال ؟

فالجواب أن آية الحاقة[2] تدل على التوزيع لكلّ واحد غلّ واحد ؛ أو تكون الأغلال فى رءوسهم ، وهو يقوم مقامَ سلاسل متعددة فى عنق كلّ واحد من سائرهم ، حتى لا يظهر منه شىء . وقيل : إن هذا مجاز فيكونون فى الدنيا ممنوعين من الإيمان ، كقوله تعالى[3] : « إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذْقانِ فهم مُقْمَحُون » .

---

(١) القصص : ٧٦ (٢) آية الحاقة (٣٠) هى قوله تعالى : خذوه فغلوه .
(٣) يس : ٨.

والإشارة بأولئك وتكرارها للذين قالوا : « أإذا كُنَّا ترابا[1] » .

(فَاخْرُجْ مِنها[2]) : الضمير يعود على الجنة ، وإن لم يَجْرِ لها ذكر ، أو من السماء ، كما قال في آية الأعراف[3] : « فاهبِطْ منها » .

ويحتمل أن يعود الضمير على جُمْلة الملائكة ، وعلى هذا فيكون إبليس من الملائكة ، وهو الظاهر من القرآن ، ومِنْ كثير من الأحاديث ؛ وانتقده ابن عطية بأن الملائكة معصومون ؛ قاله الأصوليون . وحكى الطبري عن ابن عباس أن الله خلق ملائكةً فأمرهم بالسجود لآدم ، فأبوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم . ورُدّ بثبوت العصمة للملائكة .

(فبما أغويتني[4]) : قد قدمنا مراراً أنّ الإغواء هو الحمْل على الوقوع في المعاصي ، فلا يقدر على إغواء المخلصين بوَجْه ، لكن يزيّن لهم فقط ؛ لأن التزيين هو تحسين القبائح ، فالإغواءُ يستلزم الفعل ، والتزيين لا يستلزمه .

فإن قلت : ما الفرق بين قسمه في الأعراف بالإغواء[5] . وفي ص : قال[6] : « فبعزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهم » ؟

فالجواب أنه أقسم بالأول في الفعل ، وفي الثاني بالصفة . قال بعضهم : فسادتُهم يقولون : هذا مناقِضٌ لأصل الزمخشري ؛ لأنه ينفي الصفات جملة ، يقول : إن الله سميع لا يسمع ، بصير لا يبصر ، عليم لا يعلم ، مريد لا بإرادة ، قادر لا بقدرة ؛ بل سميع لذاته ، بصير لذاته ، عالم لذاته .

(فسجَدَ الملائكةُ كلّهم أجمعون[7]) : هذا تأكيد بعد تأكيد ،

---

(١) الرعد : ٥ (٢) الحجر : ٣٤ (٣) الأعراف : ١٣
(٤) الأعراف : ١٦ ، وفي الحجر : قال رب بما أغويتني (٣٩)
(٥) الأعراف : ١٦ (٦) ص : ٨٢ (٧) الحجر : ٣٠

يتضمّن الآخر ما تضمّن الأول . وقال غيره : لو وقف على كلّهم لصلحت للاستثناء وصلحت على معنى المبالغة ، مع أن يكون [٢٢٩ ا] البعض لم يسْجد ، وهذا كما يقول القائل : كلُّ الناس يعرف هذا ، وهذا يزيد لأن المذكور أمر مشتهر ، فلما قال أجمعون رفع الاحتمال [بأن بعضهم لم يسجد ، واقتضى الكلام أن][1] جميعهم سجد .

وقال المبرد : لو وقف على « كلّهم » لاحتمل أن يكون سجودهم فى مواطن كثيرة ، فلما قال أجمعون دل على أنهم سجدوا فى موطن واحد .

قال ابن عطية : واعترض على قول المبرد بأنه جعل قوله أجمعون حالا بمعنى مجتمعين ، ويلزمه على هذا أن يكون أجمعين ، هذا على أن يقرب من التنكير ؛ إذ هو معرفة لكونه يلزم اتباع المعارف ، والقراءة بالرفع تأبَى قوله .

فإن قلت : ما فائدة إتيانه فى الحِجر وفى ص بهذا اللفظ دون غيرها .

فالجواب أنه لما بالغ فى السورتين[2] فى الأَمْر بالسُّجُود ـ وهو قوله : فقَعُوا له ساجدين ـ فى السورتين بالغ فى الامتثال فيهما فقيل : "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" ؛ لتقع التوفقة بين أوْلاها وأخْراها .

(فَبِمَ تُبَشِّرُونَ[3]) : هذا من قول إبراهيم عليه السلام على وَجْه التعجب مِنْ ولادته فى كبره ، أو على وَجْه الاستبعاد لذلك ، حسبما قدمناه . وقرىء بتشديد النون وكسرها على إدغام نون الجمع فى نون الوقاية ؛ وبالكسر والتخفيف على حذف أحد النونين ، وبالفتح ـ وهو نون الجمع .

---

(١) ما بين القوسين غير واضح فى الأصول . (٢) ص : ٧٢ ، وفى الحجر : ٣٠ ـ كما تقدم .

(٣) الحجر : ٥٤

(فاسألوا أهلَ الذِّكرِ[1]) : يعني أحبارَ اليهود والنصارى ؛ لأن جميعهم يشهدون أن الرسل من البشر .

ويؤخذ من هذه الآية وجوبُ سؤال الجاهل عما يحتاج إليه في أمرِ دينه ، ولا يُعذَر بجهله . وفيها دليل على أن خَبر التواتر يفيد العلم ؛ لأن المعنى : فاسألوا أهلَ الذِّكرِ لتعلموا إن كنتم لا تعلمون ؛ فهو سؤالٌ عمّا لم يعلم ليعلَم . فإن كان المسئولون بالغين عددَ التواتر فهو خَبَر تواتر ، وإلا فهو خبر واحد محصِّلٌ للعلم في الوجهين .

(فالذين لا يُؤْمِنُون بالآخرة قلوبُهم مُنْكِرة[2]) : الفاء للتسبيب ، وليس هو من باب ذكر اللازم ، وإنما هو من باب ذكر الشيء عقيب نقيضه ؛ لأن لازم كونه إلها واحدا التصديقُ لا الإنكار والكفر .

(فخَرَّ عليهمُ السقفُ مِنْ فَوْقِهِم[3]) : هذا كقوله لهم[4] : « مِنْ تحتهم غَوَاشٍ ، ومن فوقهم غَوَاشٍ » . وهل السقف إلا فوقهم . وقد قدمنا سِرَّ التعبير من فوقهم فيما نقلناه عن ابن عطية .

(فادْخُلُوا أبوابَ جهنَّم[5]) : حال[6] مقدرة . وجهنّم الطبقة الأولى من النار .

فإن قلت : كيف قال هنا : ادخلوا أبْوَابَ جهنم ، مع أنها مأوى العُصَاة من هذه الأمّة ؟

---

(١) النحل : ٤٣ (٢) النحل : ٢٢ (٣) النحل : ٢٦

(٤) الذي في سورة الأعراف ، آية ٤١ : لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزي الظالمين . (٥) النحل : ٢٩

(٦) في القرطبي (١٠ ـ ٩٩) : أي يقال لهم ذلك عند الموت .

والجواب أنّ دخولهم فيها ليس على جهة الاستقرار ؛ وإنما هو على جهة الدخول لما تحتها ؛ لأن النصارى قيل فى الثانية ، واليهود فى الثالثة .

ورُدّ هذا بأنّ الرسل مهما كثرت كانت عقوبة مكذبيها أشدّ ، وقوم موسى كفروا بموسى فقط ، والنصارى كَفَرُوا بعيسى وهو بعد موسى فعذابُهم أشد ؛ لأنه سبقه من الأنبياء كثيرون دَعَوْا إلى مثل ما دعا هو قومه .

(فتَمتَّعُوا[1]) : أى فى الدنيا . وهذا على وجه التهديد لمن عقل .

(فهو وَلِيُّهم اليوم[2]) : فسره الزمخشرى بوجوه[3] : منها أنّ الضمير راجعٌ لكفار قريش ، وأنه زَيّن لآبائهم أعمالهم فهو وليّ هؤلاء ؛ لأنهم منهم ؛ فعلى هذا يكون الألف واللام فى اليوم لتعريف الحضور ، وعلى الوجوه الأُخر التى ذَكَرَ هو وغيره تكون إما لتعريف الماهية ، أو لتعريف العهد .

(فأحْيَا به الأَرْضَ[4]) : الفاء للتعقيب ، وخصوصاً فى مكة ؛ لحرارة أرْضها كما قدمنا أنها تصبح أرضها خضراء بصبّ المطر أول الليل .

(فَرْثٍ ودَمٍ[5]) : قد قدمنا فيما نقلناه عن الزمخشرى[6] أنّ الفرث ما فى الكرش من القذر ؛ وهذا من عجيب القُدرة أن اللبن متوسط بين الفَرْث والدم ، ولا يغيّران له لوناً ولا طعماً ولا رائحة . قال أبو حيان : من بين فَرْث ودم حال من ضمير نسقيكم ؛ أى خارجاً من بين فَرْث ودم . وقيل متعلق بنسقيكم المقدر ؛ إذ لا يتعلق مجروران بفعل واحد . ويجوز هنا لاختلاف معناهما ؛ لأنّ من الأولى للتبعيض ، والثانية لابتداء الغاية .

---

(١) النحل : ٥٥ (٢) النحل : ٦٣ (٣) الكشاف : ١ــ ٥٢٨

(٤) النحل : ٦٥ (٥) النحل : ٦٦ (٦) الكشاف : ١ــ ٢٢٨

(فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بعضٍ فى الرِّزْقِ فما [٢٣٩ ب] الذين فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِم على ما مَلَكَتْ أَيمانُهم فهم فيه سواءٌ أَفَبِنِعمةِ اللهِ يَجْحَدُونَ[1]) :
فى هذه الآية دلالة على الوحدانية ، كأنّ الله يقول : أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين عبيدكم ، ولا تجعلونهم شركاء لكم ، فكيف تجعلون عبيدى شركاء لى ؟
والآخر أنها عتاب وذمٌّ لمن لا يحسن إلى مملوكه حتى يرد ما رزقه الله عليه ، كما جاء فى الحديث : "أطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون". وفيها دليل على صحة إطلاق لفظ البعض على النصف وعلى أكثر منه ؛ لأن الفاضل أكثر رزقاً من المفضول . وحكى الخلاف فى البعض : هل يطلق على النصف أم لا ؟

فإن قلت : التفاوتُ إنما هو فى الرزق التكميلى الزائد على ما يُقيم الرَّمَق ويستر البدن . وأما الحاجِيّ فهم فيه مع المماليك مستوون ؛ فهلا قيل : فما الذين فُضّلوا برادّى فَضْل رِزْقهم ، كما قال[2] : « والله فَضّل بعضكم على بعض فى الرزق » ؟

والجواب : لو قيل : فما الذين فضلوا برادّى فَضْلَ رزقهم لكان فيه غثاثةٌ لتكرار لفظ الفضل ثلاث مرات ؛ وهذا يقال له فى علم البيان الاستخدام ؛ وهو أن يعبّر باللفظ عن غيره خوفَ السآمة والملَل . وأيضاً فضـــل الرزق أخصّ من الرزق ؛ فاستعمل الأخص فى الثبوت ، والأعم فى النفى ؛ لأن نفى الأعمّ يستلزم نَفْى الأخص .

فإن قلت : لفظ الردّ يقتضى سابقية : الملك والحوز ؛ والمماليك لم يكن لهم ذلك بوجه ؛ فهلا قيل : فما الذين فضّلوا بمُعْطِين رزقهم لما ملكت أيمانهم ؟

---

(١) النحل : ٧١ (٢) النحل : ٧١

وهذا نحو ما أوردوا فى قوله تعالى[1] : « أو لتعودُنَّ فى مِلَّتِنا » ؟

والجواب : إنه إشارةٌ إلى تأكيد النفى ، وأن هذا امتنعوا من إعطائه للماليك يمكن إن كان يكون للماليك بدلا عنهم ، فكانوا قابلين لأن يماسكوه ؛ لأن الذى أعطاه لسادتهم كان قادراً على إعطائه لهم دون ساداتهم بناء على أنَّ من ملك أن يملك يعدّ مالكا ، وإن فسرنا الرزق بما منعه السادات مماليكهم فى قوله : "فما الذين فُضِّلوا برادّى رزقهم على ما ملكت أيمانُهم" فتكون النعمةُ فى قوله : "أفَبِنِعْمَةِ اللهِ" ـ الرزق. وإن جعلناه تمثيلا؛ أى كما أنفوا أن يشاركهم أحَدٌ فى رزقهم كذلك ينبغى ألّا يجعلوا مع الله شريكا ؛ فيكون المعنى أفبالدَّلائل الدالة على وحدانية الله يجحدون .

وانظر إذا ردُّوا كلَّ رزقهم عليهم لا يكونون فيه سواء ، وإنما يستوون معهم بردّهم عليهم نصفَ فَضْلِ رزقهم ، فإما أن يكونَ على حذف مضاف ، أو يكون الرزق مضافاً إلى ضمير ما ملكت أيمانهم ، ويكون الذين فَضَّلوا به مملوكهم هو رزق مملوكهم الذى يساويهم به فى نفس الأمر .

(فلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ[2]) : الضمير يعــــود على مَنْ عبد غير الله وأشركوهم فى العبادة ، مع أنهم لا يملكون شيئاً ، فنبّههم سبحانه بهذه الأمثال والمواعظ ليتنبّهوا ويرجعوا ، لكن من المصيبة خطاب غير العاقل ، والعاقل تكفيه الإشارة ، ولا يستغرب هذا فى حقهم ؛ لأنا مثلهم فى عدم الفهم والإدراك .

(فهو يُنفِقُ منه سِرًّا وجَهْرًا هل يستوون . الحمد لله بل أكثرهم لا يَعلَمُون [3]) : إما أن المراد به الكفار باعتبار من سيُؤْمِنُ منهم وهم أقلّهم ،

---

(١) الأعراف : ٨٨ (٢) النحل : ٧٤ (٣) النحل : ٧٥

فأقلهم يعلمون ؛ وإما أن يراد به الأصنام، وعبّر بالأكثر عن الكل ؛ وهو بعيد. ويحتمل أن يكون الحمد لله من كلام الله تعالى ؛ أثنى على نفسه بنفسه ، أو أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم خاصًا به ، أو عامًا له ولأمته : قولوا الحمد لله على ما أنعم علينا ، بأنْ هدانا ووفّقنا .

وفي قوله : « يَسْتَوُون » دليل لمن يقول : إنّ أقلّ الجمع اثنان كما قدمنا .

ونَفْيُ المساواة يقع في القرآن على وجهين : تارة مطلقا كهذه الآية ، وكقوله : «[1] هل يَسْتَوِي الذين يَعْلَمون والذين لا يَعلمون» ، وتارة مع تعيّن الأرجح ؛ كقوله[2] : « لا يستوي أصحابُ النـارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنة هم الفائزون» . وكقوله[3]: «لا يَسْتَوِي منكم مَن أنفَق مِن قَبلِ الفَتْح... » الآية . وإنما لم يبين هنا الأفضل لظهوره قبل ، وكذلك كل أحد يعلم أنّ أصحاب الجنة هم الفائزون . وذلك أنّ أصحاب النـار يدخل فيهم العُصاة من المؤمنين والكفار، فهل قصد تفضيل أصحاب الجنة بالإطلاق على أصحاب النار بالإطلاق، أو على الكفار ؟ فلما أعيد ذكر الأفضلُ علم أنّ المراد بأصحاب النار أصحابها حقيقة ، وهو [٢٣٠ ا] من حكُم عليه بالخلود فيها .

فإن قلت : الآية خرجت مخرج المدح لفاعل ذلك ، فَهَلَّا ذكر فيها صدقةَ السرّ فقط ؛ لأنها أفضل ؟

والجواب : أنه قصد التنويه على كثرة إنفاقه ومبادرته إلى أفعال البِرّ كيفما أمكنته ، وبدأ بالسر ؛ لأنه أفضل .

(فَكَفَرَتْ بأَنْعُمِ اللهِ[4]) : الضمير للقرية المذكورة في المثل[5] .

---

(١) الزمر : ٩ (٢) الحشر : ٢٠ (٣) الحديد : ١٠

(٤) النحل : ١١٢ (٥) في أول الآية : وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت ...

واختلف فيها ؛ فقيل مكة ، لأنها كفرت بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأصابهم الجدب والخوف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم إليهم . وقيل : إنما قصد قرية غير معينة أصابها ذلك ، فضرب الله بها مثلا ؛ وهذا أظهر ؛ لأن المراد وعظ أهل مكة بما جرى لغيرهم ؛ والضمير في قوله[1] : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » لأهل القرية : فاعل قوله : بما كانوا يصنعون . والإذاقة واللباس هنا مستعاران ، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة . وأما اللباس فاستعير للجوع والخوف لاشتمالها على اللابس ومباشرتهما له كمباشرة الثوب .

(فحقّ عليها القَوْلُ[2]) ؛ أي القضاء الذي قضاه الله . والضمير يعود على القرية التي أمر مُتْرَفيها ففسقوا فيها ؛ أي قضينا عليه بالفِسْقِ ، وعلى قراءة مدّ الهمزة من « آمرنا » فهو بمعنى كثّرنا . وقراءة أمّرنا ـ بتشديد الميم فهو من الإمارة ؛ أي جعلهم أمراء ففسقوا .

(فَضَّلْنا بعضَهم على بَعْضٍ[3]) : أي في رزق الدنيا ؛ ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخْرِياً .

(فاسأَلْ بَنِي إسرائيل إذْ جاءَهُم[4]) : هذه الآية خطابٌ لنبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعناها سلِ المُعاصرين لكَ من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى ، لتزدادَ بذلك يقينا . وقال الزمخشري[5] : المعنى قلنا لموسى : سَلْ بني إسرائيل من فرعون ؛ أي اطْلُب منه أنْ يرسلهم معك ؛ فهو كقوله :

---

(١) النحل : ١١٢ (٢) الإسراء : ١٦ (٣) الاسراء : ٢١

(٤) الإسراء : ١٠١ (٥) الكشاف : ١ ـ ٥٥٩

أرسل معى بنى إسرائيل . [أو سلهم][1] أن يعضدوك ويكونوا معك . وهذا أيضا على أن يكون الخطاب لموسى . والأول أظهر .

والعامل فى إذ على هذا القول الأول آتينا موسى ، أو فعل مضمر . والعامل فيه على قول الزمخشرى القول المحذوف .

(فَجْوَةٍ[2]) : متسع . ويقال معناه أى موضع تصيبه الشمس .

(فَمَنْ شاءَ فليُؤْمِنْ ومَنْ شاء فليَكْفُرْ[3]) : لفظه أمر وتخيير . معناه أن الحق قد ظهر ، فيختار كلُّ إنسان لنفسه إما الحقّ الذى ينجّيه ، وإما الباطل الذى يُرْديه ، فقى ضمن ذلك تهديد .

(فاختلط به نَبَاتُ الأرْض[4]) : الباء سببية . والمعنى صار به النباتُ مختلطا ، أى ملتفّا بعضه ببعض من شدّة تكاثفه .

(فأصبح هَشِيما[5]) : أى متفتّتا ، وأصبح بمعنى صار .

(فلَنْ يهْتَدُوا إذاً أبداً[6]) : يريد به من قضى أنه يؤمن .

(فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها[7]) : الضمير للسفينة . وهذا مؤخّر فى المعنى عن ذكر غَصْبها ؛ لأن خوف الغصب سبب فى أنه عابها . وإنما قُدِّم للعناية به ، وأسند الإرادة هنا لنفسه ؛ لأنها لفظ عيب فتأدّب بألّا يسندها إلى الله ؛ وذلك كقول إبراهيم : «[8] وإذا مرِضْتُ فهو يَشْفِين » . فأسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله ، تأدُّبا .

---

(١) من الكشاف . (٢) الكهف : ١٧ (٣) الكهف : ٢٩
(٤) الكهف : ٤٥ (٥) الكهف : ٤٥ (٦) الكهف : ٥٧
(٧) الكهف : ٧٩ (٨) الشعراء : ٨٠

واختلاف في قوله[١] : « فأَرَدْنَا أن يُبدِّلهما رَبُّهما » : هل هو مسند إلى ضمير الخضر أو إلى الله . وقوله[٢] : « فأراد رَبُّك » أسندها إلى الله في هذه ؛ لأنها أمر مغيب مستأنف لا يعلمُ ما يكونُ منه إلا الله .

وقال بعض الصوفية : لما قال : فأردتُ ، فأردنا — تعرّضَ له جبريل ، فقال : مَنْ أنتَ ؟ وما فعلك ؟ فأسنده في الثالثة إلى فاعل الأمور الذي بيده مقاليدها .

(فأتبعَ سَبباً[٣]) ؛ أي طريقاً يوصله .

(فلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى[٤]) ؛ أي من تمادَى على الكفر قتله ، وهو معنى قوله : «[٥] فسوف نُعذِّبُه » . ومَنْ أسلم أحسن إليه .

(فما اسْطَاعُوا[٦]) : أصلهُ استطاعوا ، وحذفت التاء في هذا تخفيفاً .

(فأوْحى إليهم[٧]) : أي أشار . وقيل : كتب في التراب ؛ إذ كان لا يقدر على الكلام ، مع أنه سليم من الخرس ؛ وإنما جعل الله له ذلك علامةً على حَمْل امرأته .

(فحمَلَتْهُ[٨]) : يعني في بطنها .

(فأجَاءَهَا[٩]) : معناه ألجأها ، وهو منقول من جاء بهمزة التعدية .

(فإمّا تَرَيِنَّ[١٠]) : هي إن الشرطية دخلت عليها ما الزائدة للتأكيد . وترين فعل خوطبت به مريم ، دخلَتْ عليه النون الثقيلة للتأكيد .

---

(١) الكهف : ٨١ — (٢) الكهف : ٨٢ — (٣) الكهف : ٨٥
(٤) الكهف : ٨٨ — (٥) الكهف : ٨٧ — (٦) الكهف : ٩٧
(٧) مريم : ١١ — (٨) مريم : ٢٢ — (٩) مريم : ٢٣
(١٠) مريم : ٢٦

(فأتَتْ به قَوْمَها تحمِلُه[1]) : لمـا رأت الآياتِ علمت أن الله سيبيّنُ عذرها ، قالوا لهـا : « [2] يا مريم لقد جئتِ شيئاً فَرِيّاً » . من الفِرْيَة ، وهي الشنعة .

(فأشارَتْ إليه[3]) ، أي إلى ولدها ليتكلّم ، وصمتت [٢٣٠ ب] هي ، كما أُمِرت . فتولّى الله تبرئتها ، كذلك يعقوب بلغ به البلاء حتى ضاق به الأمر ، فأظهر الله له الفرج ببشارة القميص . وكذلك موسى وعيسى ، وكذلك عائشة لمـا ضاق بها الأمر حتى تركت العلائق ورفعت قلبها عن الخلائق ، فأنزل الله طهارتها ، فقال لها أبوها : قومى فقبّلى رأسَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : بحمد الله لا بحمدكما ، لأن الله طهّرنى بالآيات .

كذلك أنتَ يا محمدى ، إذا ضاق بك الأمر ، وتركت العلائق إلا من الله فتح عليك باب البشارة ، وأدخلك دار كرامته .

(فاختلف الأحزابُ مِن بَيْنِهم[4]) ، أى من تلقائهم ، ومن أنفسهم ، وأن الاختلاف لم يخرج عنهم . والأحزاب : اليهود والنصارى ، والحق خلاف أقوالهم كلّها .

(فوَيْلٌ للذين كفروا[5]) : قد قدمنا أنّ الويل هو الحزن والثّبور . ورُوِى هذا الكفر الذى كفروا عن قتادة أن بنى إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعةَ أحبار غايةً فى المكانة والجلالة عندهم ، وطلبوا أن يبينوا أمر عيسى ، فقال أحدهم : هو الله نزل إلى الأرض ، فأحيا من أحيا وأمات من أمات . ثم صعد فقال له الثلاثة : ليس الأمر كذلك . واتبعه اليعقوبية .

---

(١) مريم : ٢٧ (٢) مريم : ٢٧ (٣) مريم : ٢٩

(٤) مريم : ٣٧ (٥) مريم : ٣٧

ثم قال أحد الثلاثة : عيسى ابن الله ، فقال له الاثنان : كذبت ، واتبعه النسطورية . ثم قال أحدهما : عيسى أحد ثلاثة : عيسى إله ، وأمه إله ، والله إله . فقال له الرابع : كذبتَ واتبعه الإسرائيلية . فقال الرابع : عيسى عبد الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم ، فاتبع كلٌّ واحد من الأربعة فريقٌ من بنى إسرائيل ، ثم اقتتلوا ، وغلب المؤمنون ، وقتلوا ، وظهرت اليعقوبية على الجميع .

وروى أنه فى ذلك نزلت[1] : « إنَّ الذين يَكفُرون بآيات الله . . . » الآية .

فإن قلت : ما الفرق بين وصفهم هنا بالكفر ، وفى الزخرف بالظلم ؟

فالجواب أنَّ الكفر أبلغ من الظلم . وقصة عيسى فى سورة مريم مشروحة فيها ، ذكر نسبهم فيها إلى الله تعالى ، حتى قال[2] : « ما كان لِلهِ أن يتخذ مِنْ وَلَدٍ سُبحانه » ، فذكر بلفظ الكفر . وقصته فى الزخرف مجملة فوصفهم بلفظٍ دونه وهو الظلم . وقيل غير هذا من الأجوبة حذفناه اختصاراً .

(فلا تعْجَل عليهم[3]) ؛ أى لا تستبطىء عذابهم وتطلب تعجيله ، إنما نعدّ مدة بقائهم فى الدنيا .

(فلما أتاها نُودِيَ يا موسى...[4]) الآية . ضمير الإتيان راجعٌ إلى النار ، ولم يناده من الشجرة ؛ وإنما ناداه عند وصوله إليها ، وإنما أمره بخلع نعْليه ؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميّت ، فأمر بخلع النجاسة . واختار ابن عطيـــة أنه إنما أُمِر بخلعهما ليتأدب ، ويعظّم البقعة المباركة ، ويتواضع فى المناجاة مع خالقه .

---

(٢) مريم : ٣٥ (٣) مريم : ٨٤

وأين هذا المقام من مقام سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم لما زج به فى عالم العزة ؛ أراد أن يخلع نعليه ، فإذا النداء : يا محمد ، لا تخلع نعليك . فقال : يا رب ، سمعتك تقول لموسى : فاخلع نعليك . فقال : يا محمد ؛ لئن أمرت موسى بنزع نعليه على جبل الطور فقد أبحنا لك أن تطأ بنعليك على بساط النور ؛ لأنك المكرم عندنا ، والعزيز لدينا .

اللهم بحرمته لديك اعف عنا واغفر لنا .

قيل أصحاب الشجرة فى القرآن أربعة : آدم[1] : «ولا تقربا هذه الشجرة» . وموسى[2] : «نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة» . ومريم[3] : «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة» . ومحمد صلى الله عليه وسلم[4] : «إذ يبايعونك تحت الشجرة» .

فآدم دنا من شجرته باختيار نفسه ، فصارت عليه محنة ، حتى خرج منها بسببها . وموسى دنا من شجرته بالأمر ، فصارت عليه بركة ، وأوصله بالوادى المقدس ، ونودى منها إنى أنا ربك . ومريم دنت من شجرتها باختيار نفسها ، فصارت عليها محنة ، حتى قالوا ما قالوا ، ونالها من الألم ما نالها ، ولم تصل إلى رزقها إلا بالعناء . والنبى صلى الله عليه وسلم دنا من شجرته من حيث الأمر ، فعادت عليه رحمة ، وبايعوه تحتها ، وظهر الإسلام ، واستقام الشرع .

وكذلك مثل الله الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة . وقيمة الشجرة بالثمار والأنوار ، وقيمة المؤمن بمعرفة الجبار ، كأنه تعالى يقول : قلبك بموضع شجرة إنباتها معرفتى ، وثمرها شهادتى ، ونورها حديثى [٢٣١ ا] ومنها تصير يا عبدى

---

(١) البقرة : ٣٥ (٢) فى آية ٣٠ من القصص . (٣) مريم : ٢٣

(٤) الفتح : ١٨

موحّدى ؛ ... آدم قصد شجرةً وفيها للعدو نصيب ، فأصابه من الذلّ والمِحَن والخروج من الجوار ما أصابه . والشجرة التى هى فى موضع نظرى ومقام معرفتى إذا قصدها الشيطان أترانى أسلمها له ، وأنا أنظر إليها كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة لحرمتها ، أفترانى أسلمها للشيطان إذا قصدها ! بل أطرده وأكافئه كما كافأت آدم ، حين قصد شجرة فيها للعدو نصيبٌ أخرجته منها لنصيبه ، والشجرة التى هى نصيبى أكافئه بأن أضع ذنوبك على عنقه ، وأدخلك الجنة لنصيبى فيك .

فإن قلت : قد اختلفت الألفاظ فى قصة موسى ؛ ففى موضع قال : آتاها ، وفى موضع : جاءها . وفى آية[1] : « إنى أنا ربُّك » . وفى آية : « إنى أنا الله » ؟

فالجواب إن لفظ جاء وأتى بمعنى واحد ، لكن كثُر هنا لفظ الإتيان ؛ نحو : فأتياه ، فلنأتينّك ، ثم أتى ، ثم ائتوا صفًّا . وكثُر فى النمل لفظ جاء ، نحو : فلما جاءهم . وجئتك من سبأ . فلما جاء سليمان .

وإنما أبرز الضمير فى هذه الآية بقوله : ربك ؛ لأنه خاطبه مرتين ، كل مرة بما يليق به ؛ ففى الأولى أظهر له النعم فى إنجائه من فرعون ، وتحنّن شعيب له ، وإكرامه بالكلام . فلما تأنّس وزالت عنه الدهشة خاطبه بالألوهية المُشْعِرة بالخوف من هذا الاسم العظيم .

فسبحان اللطيف بعباده ، المُنعم عليهم بنعمه : خلقهم بلا مثل ، وصورهم بلا مشاورة ، وربّاهم بلا قوة ، وهداهم بلا شفاعة ، ورزقهم بلا دعوة ، وأمرضهم بلا واسطة ، وشفاهم بلا دَوَاء ، وأماتهم بالعدل ، وأحياهم بالقدرة ، وغفر لهم بالرحمة .

---

(١) طه : ١٢

وقد قدمنا أنّ موسى خرج لطلب النار ، فوجد الجبّار . ويوسف خرج للنزهة فوجد العبودية . وبلقيس خرجت للنظر فوجدت المعرفة . وطالوت خرج لطلب حماره فوجد الملك .

وأنت يا محمدىّ إذا خَرجتَ من الدنيا لِطلَب مَوْلاك أفتراك لا تجده وقد خرجت لأجله ! كلا، بل تجده ، ويُنيلُك ما اشتهت عيْنُك ، ولذّت نفسك. ألا تَراه قال لموسى لما توجّه تِلْقاء مدين وجاع وعَيِي ورفع رأسه فقال: أنا الغريب الفقير المريض ـ فأجابه : الغريب الذى ليس له مثلى حبيب ، والفقير الذى ليس له مثلى نصيب ، والمريض الذى ليس له مثلى طبيب . فرضى بهذه الكلمات .

(فلا يَصُدّنّكَ عنها[١]) : الضمير للساعة ؛ أى لا يصدنّكَ عن الإيمان بها والاستعداد لها . والخطاب لموسى . وقيل لنبينا ومولانا محمد ؛ وهو بعيد ؛ لأنه قد استعدّ لها . وقيل الضمير للصلاة ؛ وهو بعيد .

(فتَرْدَى[١]) ؛ أى تهلك . وهذا الفعل منصوب فى جواب لا يصدنّك .

(فألْقاهَا فإذا هى حيّةٌ[٢]) : لما ذكر موسى عليه السلام المنافع التى كانت فى عصاه بسؤال اللهِ له أمره أنْ يُلْقيها ليَرَى فيها عجائب غير التى كانت فيها ، ويعلمَ أن الله يؤيده وينصره ويعزّه ، فألقاها امتثالا لأمرِ ربه ، فقلب الله أوصافَها وأعراضها ، فصارت حيّةً تسعى ؛ أى تنتقل من مكان إلى مكان .

والحية اسمُ جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير .

وقد قدمنا أنّ الله سمّاها بأسماء مختلفة : بالحية ، والثعبان ، والجان ؛ فأراد بالحية أول أمرها صغيرة رقيقة ، ثم تتزايد وتصير كالثعبان فى سرعة حركة الجان.

---

(١) طه : ١٦ (٢) طه : ٢٠

وقيل : كان لها عُرْف كعرف الفرس ، وكان بين لَحْيَيْها أربعون ذراعا .

قال ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الحجرَ والشجر ، لها كلامٌ كالرعد القاصف. فلما رآها موسى كذلك خاف . وقد قدمنا أن خوفه إنما كان من أجل عِلْمه أنها كانت من الشجرة التى أكل منها آدم . وقيل : لأنها كانت معجزة بالخوف منها ، فخاف منها كلُّ أحد . فقال الله له : يا موسى ، اذهب بها إلى فرعون ، وخُذْها ، ولا تخَفْ ؛ سنعيدها سيرتها الأولى .

وموسى أمّنه الله من أربع مخاوف : من إلقاء العصا ، وفرعون ، وقومه ، ومن قَتْل القبطى ؛ فأمنه الله منها جميعاً .

وأنت يا محمدى إذا رجعْتَ إليه أمّنه لا يُنجيك من غمٍّ الدنيا ، وعند النَّزْع ، وفى القبر ، وفى [٢٣٣ ب] أهوال القيامة . وقد قال لك : إن الله مع المؤمنين . إن الله مع الصابرين . إن الله مع الذين اتَّقَوْا . إن الله لَمعَ المحسنين .

موسى كانت فى يمينه العصا ، فضرب البحر بها فانفلق حتى جاوزَه هو وقومه ، والمؤمن الذى بيده كتابُ ربِّه أتراه لا يضرب به بحرَ الموت فينفلق له ، ويقول له : كن علىّ رحمةً فتنزع روحه نوماً برفق كالقطر من الصفا ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الملك الموت : " ارفق بأمتى . فقال له : أبشر ، فإنى بكل مؤمن رفيق " .

(فاقذِفيه فى اليَمِّ[1]) : اليم : هو البحر ، وأمر الله فى هذه الآية لأُمّ موسى أن ترميه فى بَحْر النيل ؛ لأن فرعون لما ذكر له أن هلاكه على يد...

---

(١) طه : ٣٩

من بني إسرائيل أمر بذبح كلُّ ذكر يولد لهم، فألقته في تابوت، وألقت التابوتَ في البحر، وكان فرعون في موضع يُشرف على النيل، فلما رأى التابوتَ أمر به فسِيق إليه، وامرأتُه معه، ففتحه فأشفقت عليه امرأته، وطلبت أن تتخذه ولداً، لأنها لم يكن لها ولد، فأباح لها ذلك؛ فذلك قوله[1] : « وألقيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّي » . فهذه المحبةُ نفعت امرأة فرعون، وكذلك صَفُورا نفعت محبتها لموسى، وزُليخا ليوسف، وخديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم.

فالمؤمن الذي يحبُّ الله ويحبُّه الله أقرباه لا تنفعه محبته، وهو يقول: يحبُّهم ويحبُّونَه، ولم تكن هذه المحبة إلا لأمّة الحبيب، لأنه كان حبيباً، وحبيباً كحبيب حبيب، ألا ترى آدم كان صفيًّا، فلم يجد أحد من قومه الصفوة، وإبراهيم كان خليلا فلم يجد أحدٌ من قومه الخلة، وهكذا سائر الأنبياء، لكن من علامة المحبة أولها الإفلاس، وآخرها الوسواس، ومن فرّ منه دعاهُ بكثرة الإحسان حتى يستحي من الله، فيرجع إليه.

(فتقول هل أدُلُّكم على مَنْ يَكْفُلُه[2]) : يعني أنّ فرعون لما أخذه من التابوت، وأسلمه لآسية صارت تُرْضعه في المراضع، فلم يَقْبلَ ثَدْيَ مُرْضعة، حتى شاع خبره، فذهبت أخته إليهم، وقالت[3] : « هل أدلكم على من يَكْفُلُه » .

(فرَدَدْنَاه إلى أمّه[4]) : وهذا مِنْ مِنَنِ الله عليه لما قلت لهم: أنا أدُلُّكُمْ على أهْلِ بيت يَكْفُلُونه لكم وهم له ناصِحون، وحرّضْتُم بهذا الكلام قالوا لها: أنتِ تعرفين هذا الغلام؟ قالت: لا، غير أني أعلم من هذا البيت الحرصَ على التقرب

---

(١) طه : ٣٩ (٢) طه : ٤٠ (٣) طه : ٤٠

(٤) القصص : ١٣ ، وفي طه (٤٠) : فرجعناك إلى أمك .

إلى الملكة والجدّ في خدمتها ورضاها ، فتركوها وسألوها الدلالة ، فجاءت بأمّ موسى، فلما أخذته التقم ثديها ، ففرحت آسية لذلك ، وقالت لها : تكونين[1] معي في القصر . فقالت لها : ما كنتُ لأدعَ بيتي وولدي - تعني هارون . ولكنه يكون عندي . فأحسنت آسية إليها غايةَ الإحسان ؛ واعتزّ بنـــو إسرائيل بهذا الوليد السعيد ، فهذا معنى رجوعه إلى أمّه ، وإقرار عينها ، وذهاب الحزن عنها. وهذا كله من ثقتها بربها ، وتسليم الأمر إليه بعد امتثال أمره ؛ ولولا أن الله ربَط على قلبها بالصَّبْر لكادت تُبدى به ، لكن رجعت إلى ربها ، فجمع الله شملها به. ويعقوب لما رجع في حِفْظِ يوسف إلى أولاده وقولهم له : وإنا له لحافظون ، واطمأن إلى حفظهم ابتلاه الله بمفارقته . ولما زال عن حفظ إخوته ردّه الله إلى حفظه ، فقهر له العبادَ والبلاد ، وردّ عليه والده .

وأنتَ يا محمّدي لو رجعتَ إلى الله وتوكّلتَ عليه لحفظك في أهلك ومالك وولدك ، وجمع بينك وبين أحبتك يوم القيامة ، ولكنك أسأتَ الأدب ، واطمأننتَ إلى المخلوقين ، فكيف تطمع بنيل مرغوبك وقد أعرضت عنه ؟

فإن قلت : أي فرق بين[2] الرجوع في هذه الآية وفي آية القصص بالرد ؟

والجواب هما بمعنى واحد . ولما كان لفظ الرجوع ألطف خُصّت به هذه الآية. وعبّر في القصص بالرد لمناسبة قوله[3] : « إنا رَادُّوه إليكَ » .

(فنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمّ[4]) : لما خاف من قَتْلِ القبطي أمّنه الله بقوله[5] : « لا تخف نَجَوْتَ من القوم الظالمين » .

---

(١) في ا : تكوني .　　(٢) الرجوع في طه : ٤٠ ، والرد في القصص : ١٣ ، وانظر الهامش السابق رقم ٤ في الصفحة السابقة .　　(٣) القصص : ٧

(٤) طه : ٤٠　　(٥) القصص : ٢٥

وكذلك المؤمن يخاف من غمّ القيامة ، فيسمع النداء : لا تخف [٢٣٢ ا] ؛ فالمراد به غيرك .

(فَتَنَّاكَ فُتُونًا[1]) ؛ أى اختبرناك اختباراً حتى ظهر منك أنك تصلح النبوة والرسالة . وقيل : خلّصناك من محنة بعد محنة ؛ لأنه خلصه من الذبح ، ثم من اليمّ ، ثم من القصاص بالقتل .

والفتون يحتمل أن يكون مصدراً أو جمع فتنة .

(فلبثتَ سنين فى أهل مَدْيَن[1]) : يعنى الأعوام العشرة التى استأجره فيها شعيب لرَعْيِ الأغنام ، فقال له شُعيب فى العام الرابع : يا موسى ، كلما وُلدت أنثى من الحُمْلان فهى لك فى هذه السنة ، فكان موسى يُلقى عصاه فى الماء ، ويسقى الأغنام منها ، فولدت كلها أنثى فى تلك السنة ، فقال شعيب عليه السلام فى السنة العاشرة : كلما ولدت ذكوراً من الحُمْلان فهى لك ؛ فولدت فى تلك السنة كلها ذكوراً . فاجتمع له أغنام كثيرة ، فرجع مع أهله إلى مصر ؛ فآنسَ فى الطريق ناراً ، كما قال الله تعالى ، فلما دنا منه الكليم صار نوراً ، وكذلك نار الخليل لما دنا منها الخليلُ صارت روضة ورحمة . وكذلك جُبّ يوسف كان مملوءاً عفاريت وحيّات ، فلما دنا منه الصديق صار رحمةً ، وكذلك البحر لما دَنا منه الكليم صار يبساً ، وكذلك القبر موضع الوَحْشة والديدان فإذا نام فيه الحبيبُ صار عليه روضةً من رياض الجنة . وكذلك يوم القيامة - يوم الحسرة والندامة - فإذا قام فيه الحبيب يصير يوم العزّ والقُرْبة ، والدنوّ والرتبة . وكذلك النار موضع الملامة فإذا دخل عليها الحبيب صار موضع إظهار الكرامة .

---

(١) طه : ٤٠

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ[1]) : ضمير التثنية يعود على موسى وهارون ، وضمير الإفراد على فرعون . يعنى أن الله أمرهما بالإتيان إليه ليُخبِراه بالرجوع عما هو فيه ؛ لِمَا فى إخبارهما له بإقامة الحجة عليه . وفى ضمن ذلك دعوتُهُ إلى الإيمان . والمرادُ بإرسال بنى إسرائيل معهما لإخراجهم عن ملكه ، ومن دائرة حكمه . وفى ذلك تحقير لشأنه وإبطال ما ادّعاه من السلطان .

فإن قلت : لم حذف من هذه الآية اسم فرعون وأثبته فى الشعراء ؟

والجواب أنه تقدم ذكره فى قوله : « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » ـ فلم تكن إعادةُ اسمه ظاهرا مع الاتصال والقرب ؛ إذ لم يفصل بين ظاهره ومضمره إلا كلمتان . أما آية[2] الشعراء فوَجْه إظهاره أنه قد اجتمع فيها أمران :

أحدهما : الفصل بين مضمر الاسم وظاهره ، مع إتيان الظاهر مضافاً إليه فَضْلُهُ إلى ما ذكر من الفَصْل ببضع وعشرين كلمة .

والثانى : أمر موسى عليه السلام أولا ، وإنما أورد بإتيانه قوم فرعون . قال تعالى[3] : « وإذ نادى ربُّك موسى ... » الآية ؛ فقد يتوهم أن الجارى على هذا أن لو قيل عوض قوله : فأْتيا فرعون ـ فأْتِهم ـ إلا أنه لم يقصد ثانيا إلا ذكر متبوعيه ، فلم يكن بُدٌّ من الإفصاح باسمه غير مُضْمَر .

وأما قوله تعالى فى الأولى : فقولا إنا رسولا ربك ـ بتثنية لفظ « رسولا » فواردٌ على اللغة الشهيرة . وأما قوله فى الثانية : إنا رسولُ ربِّ العالمين ـ فعلى لغة مَنْ يقول رسول للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ؛ فورد

---

(١) طه : ٤٧ (٢) هى قوله تعالى : فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين (الشعراء : ١٦) . (٣) الشعراء : ١٠

الأول فى الترتيب الثابت على اللغة الشهيرة ، والثانى على اللغة الأخرى ، على ما قد تقدم فى مثل هذا .

وعكسُ الوارد مخالف للترتيب ، ولا يناسبه . وأما قوله : « إنّا رسولَا ربك » بإضافة اسمه تعالى إلى ضمير الخطاب فإنه يُناسب من حيث ما فيه من التلطف والرفق لما تقدمه من قوله تعالى[1] : « فقولَا لَهُ قَوْلًا ليناً » . وقد تفسّر هنا القول ، وتبيّن ما فيه من التلطّف فى قوله تعالى فى آية النازعات[2] : « فقل هَلْ لكَ إلى أن تَزَكّى . وأهديك إلى ربّك فتخشى » . وناسب هذا ما بُنيت عليه سورةُ طه من تأنيس نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتأنيس موسى كليمه بقوله[3] : « وأنا اخترْتُك فاستَمِعْ لما يُوحَى » ؛ وما بعده إلى قوله : « قد أُوتيتَ [٢٣٢ ب] سُؤْلَكَ يا مُوسى » ؛ وما بعده . فلما كان مَبْنَى هذه السورة بجملتها على التلطّف والتأنيس ناسب ذلك بما أُمر موسى عليه السلام من دُعاء فرعون وأنسه ولطفه ، وأمر موسى عليه السلام وأخيه هارون بذلك ؛ فقيل لهما[4] : « فقُولَا له قَوْلًا ليِّنا » . وجرى على ذلك قوله : « إنا رسولا ربك » ؛ فأشعرت هذه الإضافة بالتلطف الربّانى .

ولما لم تكن سورة الشعراء مبنية على ما ذكر ؛ وإنما تضمنت تعنيفَ فرعون وملأه وإغراقهم ، وأخذ المكذّبين للرسل بتكذيبهم ؛ وهذا فى طرف من التلطف ـ ورَدَ فيها : « فقولا إنّا رسولُ ربِّ العالمين » ، بإضافة اسمه تعالى إلى العالمين ؛ لتحصيل أنه مالك الكلّ ، وأنهم تحت قَهْره تعالى ، وفى قبضته ، وعدل عن الإضافة إلى ضمير الخطاب ؛ إذ لم يقصد هنا ما قدم من التلطف .

---

(١) طه : ٤٤ (٢) النازعات : ١٩ (٣) طه : ١٣
(٤) طه : ٣٧

ونظير الوارد فى هاتين الآيتين قوله تعالى[1] : « ولو شاء ربُّك ما فعلوه » — تأنيساً لنبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ورد فيما بعد[2]: «ولو شاء الله ما فعَلُوه » . فقِفْ على ذلك ؛ وقد تبين جليل النظم ، وهو التناسب ، وتأمّل أمْرَهما الله هنا بالإخبار بأنهما رسُولا ربِّه ، وأمرهما فى آية أخرى بالتلطف له فى الموعظة ؛ لأنه أعون على قَبُول النصح ، وإنفاذ الدعوة ، وإمالة القلوب إلى ما تُدْعى إليه ؛ وهذا كقوله تعالى[3]: « ادْعُ إلى سَبِيلِ ربِّك بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحسنة » .

واختلف فى معنى القول اللين ؛ فقيل : عِدَاهُ شباباً لا يهرم بعده ، ومُلكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن تبقى له لذةُ المطعم والمشرب والمَنْكح إلى حين موته .

وقيل: لا تُواجهاه بما يكره ؛ فإن فى ذلك تنفيراً له ؛ أو لما له من حق التربية لموسى ؛ فقد روى أنّ الله عزّ وجل قال : كانت لفرعون على موسى حقّ التربية، فأردت أن أكافئه بقولى: «فقُولَا قَوْلًا ليِّنا» . وقيل كنّياه ، وكان له ثلاث كنى: أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة .

وقد رُوى أنّ إبليس أتى إليه ودقّ عليه الباب ، فقال: مَنْ ؟ فقال له إبليس: من ادَّعى الرُّبوبية يعرف مَنْ أنا ؟ فقال له فرعون: هل علمت من هو شر منّا[4]؟ قال إبليس : مَنْ باع آخرته بدُنْيا غيره .

فانظر هذا اللطف العظيم مع من ادّعى الربوبية ، فكيف بمن أقر له بالعبودية وعبده مدةً مديدة ، أتراه لا يُعامله بما تدهش له النفوس من العيشة الهنية ؟

---

(١) الأنعام : ١١٢ (٢) الأنعام : ١٣٧ (٣) النحل : ١٢٥

(٤) فى هامش ب : منى .

(فمَنْ ربُّكما يا موسَى[1]) : خطاب لهما ، مع أنَّ موسى الأصل في النبوءة وهارون تابعٌ له .

(فيُسْحِتَكُم[2]) : معناه يهلككم . وقيل سحت وأسْحَت ، وقد قرىء بفتح الياء وضمها . والمعنى متفق .

(فأجمِعُوا كَيْدَكُم[3]) ؛ أي اعزموا وأنفذوه . وهذا من قول موسى على وَجْه الإسراع في مقصودهم لعِلْمه ببباطلهم .

(فرجع موسى إلى قَوْمه[4]) : يعني بعد كمال الأربعين يوماً التي كلّمه الله فيها في قوله : « وواعَدْنا موسى ثلاثين ليلة » ؛ فتناول منها ورقةَ زيتون ، فأمر بعشرة أخرى ، فانظر بالله ورقة زيتون منعت متناولها عن المراد ، فكيف تنال مُرادك مع تناول شهواتك ، وخصوصاً إن كانت من ظلم للعباد .

(فلا يُخرِجَنّكُما مِنَ الجنةِ فتَشْقَى[5]) ؛ أي في طاعتك لإبليس ، فجعل المسبَّب مع السبب .

فإن قلت : لم خصّ آدم بالشقاء والتوبة في قوله : فتاب عليه وهَدَى ، وحوّاء كانت المتسببة ؟

فالجواب : أن آدم كان نبيناً وحوّاء كانت من جملة الأولياء الذي يجب أن يكون[6] مأمون العاقبة ، ومن شرط الولاية كثرة الحُزْن والخوف إلى آخر الزمان .

وخص آدم بالخطا ؛ لأنه كان المخاطب أولا والمقصود بالكلام ، وأضاف

---

(١) طه : ٤٩ (٢) طه : ٦١ (٣) طه : ٦٤
(٤) طه : ٨٦ (٥) طه : ١١٧ (٦) هذا في الأصول .

الإخراج إلى إبليس والإنزال إلى نفسه بقوله[1]: «اسكُنْ أنْتَ وزَوْجك الجنَّة»؛ لأن المضيف إذا كان كريماً لا يُخرج ضيفَه من ضيافَتِه، فلما خرج قال له: يا آدم، أسكَنْتُكَ فى جوارِ العدو لتعصيه فيها، وتطيعنى؛ فأقول هذا بذاكَ، والمحبة بيننا باقية، كذلك يوم القيامة يقول: عبدى أنعمتُ عليك برضاك، وأطعتنى برضائى، وعصيتنى مخالفاً لأمرى، دع الطاعة فى مقابلة النعمة، والزَّلَّة فى مقابلة البليّة، والمعرفة بيننا باقية.

(فإمَّا يَأْتِيَنَّكُم [٢٣٣ ا] مِنّى هُدًى[2]): إن الشرطية دخلَتْ عليها ما الزائدة وجوابها.

(فمن اتَّبع هُدَاى فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى[2])؛ أى لا يضلّ فى الدنيا، ولا يَشْقى فى الآخرة.

(فلا تستعجلون[3])؛ أى لا تستعجلون العذاب.

وقيل المراد هنا آدم؛ لأنه لما وصل الروح إلى صدره أراد أنْ يقومَ، وهذا ضعيف.

(فَعَلَهُ كَبِيرُهم[4] هذا): ضمير الفعل للصنم؛ وذلك أنهم لما سألوه عَنْ كسر الأصنام قال لهم هذا القولَ، ومقصودُه بذلك تبكيتُهم لإقامة الحجة عليهم، كأنه يقول: إن كان إلهاً فهو قادر على أن يفعل، وإن لم يقدر فليس بإله، ولم يقصد الحقيقة المَحْضَة.

فإن قلت: قد ورد فى الحديث: إنَّ إبراهيم كذب ثلاث كذبات؛ إحداها هذه.

---

(١) البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩ (٢) طه: ١٢٣
(٣) الأنبياء: ٣٧ (٤) الأنبياء: ٦٣

والجواب : أن معناها قال قولا ظاهره الكذب ، وإن كان القصد به معنى آخر . ويدلُّ على ذلك قوله[1] : «فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» . وهذا التأويل أولى ؛ لأن نفي الكذب يعارِضُ الحديث ؛ والكذبُ الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق . وأما المعاريض فهي جائزة ، وعلى تقدير جواز الكذب فإنما جاز له ذلك ؛ لأنه فعله من أجل الله .

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ[2]) : الضمير يعود على القضية المذكورة قبل هذا في الرجلين .

(فهل أَنْتُمْ شاكِرُون[3]) : لفظه استفهام ، ومعناه استدعاء إلى الشكر .

(فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنَا[4]) : عبارة عما ألقاه الحقُّ سبحانه من أسرار آثارِ أسماء الأفعال ، وسرى إليها من ذلك السر ، فتكوَّن الولدُ في رحمها ؛ وذلك الإلقاء إما بواسطة الملك المعبَّر عنه بالرُّوح أو دونه ؛ وإضافةُ الروح إلى ضميره تعالى إضافة الملك إلى المالك . وقد كثرت الأقاويل في الروح ، حتى أنهاه بعضُهم إلى أربعمائة قول ، ولا يعلم حقيقته إلا الله ، كما قال : مِنْ أَمْرِ رَبِّي ؛ أي من عجائب ربي . وقيل : من علم ربي . وقيل الروح آدم ، ونفخنا فيه من روحي . وقيل جبريل ، وأيَّدْناه بروح القدس . وقيل الروح : الخَلْق العظيم الذي في عالم العزّة يأمر بما يأمره الله به جميع الملائكة ، وهو خلق عظيم أعظم العوالم يسبِّح كلَّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكا يجيء[5] يوم القيامة صفا واحدا ، فذلك قوله[6] : «يوم يقوم الرُّوحُ والملائكةُ صفًّا» .

---

(١) الأنبياء : ٦٣ (٢) الأنبياء : ٧٩ (٣) الأنبياء : ٨٠
(٤) الأنبياء : ٩١ (٥) أي هذا الخلق . (٦) النبأ : ٣٨

فإن قلت : لم أنّث الضمير هنا وذكّره فى التحريم ، مع أن القصة واحدة ؟

والجواب أنه لما كان المقصود فى سورة « اقتربت[1] » ذِكْرُها وما يؤول إليه أمرها حتى ظهر ابنها وصارت هى وابنها آية ، وذلك لا يكون إلا بالنفخ فى جملتها خُصّت بالتأنيث ، وما فى التحريم[2] مقصور على ذِكْرِ إحصانها وتصديقها بكلمات ربها ، وكان النفخُ فى جيبها وهو مذكّر ، فلذا قال : « فيه » .

وأيضا فهنا أنّث بعد ذكر جملة من الأنبياء والرسل بخصائص عليّة ، وآيات نبوية ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما مُنحا . وأما آية التحريم فمقصود فيها ذِكر عظتين عظيمتين تبيّن بهما حكم السبقية بالإيمان أو الكفر ، وهما قضية امرأتى نوح ولوط ، وإن انضواءهما إلى هذين النبيّين الكريمين انضــــواء الزوجية التى لا أقرب منها ، ومع ذلك لم يُغنيا عنهما من الله شيئا ، وقضية امرأة فرعون وقد انضوت إلى الكافر لم يضرّها كُفره ، ثم ذكرت مريم عليها السلام لا التقاء فى الاختصاص وسبقية السعادة ، ولم يَدْعُ داعٍ إلى ذِكْر ابنها ، فلا وَجْه لذكره هنا .

(الفَزَعُ الأكبر[3]) : فيه أقاويل ، قيل النفخ فى الصور . «[4] ففَزِعَ مَنْ فى السموات » . وقيل : هو صوتُ القطيعة ، وهو قوله لأهل النار[5] : « اخْسَئُوا فيها ولا تُكلّمُون » . «[6] فإن يَصْبِرُوا فالنارُ مَثْوًى لهم » . وقيل يوم ذبح[7] الموت بين الجنة والنار . وقيل يوم يسمعون : «[8] وامْتَازُوا اليَوْمَ أيُّها المُجْرِمون » . وقيل يوم أمر الله آدم ابعث من ذريتك بَعْثَ النار من كل

---

(١) هذا بالأصول ، مع أن الآية فى الأنبياء كما تقدم .

(٢) فى قوله تعالى : فنفخنا فيه من روحنا (التحريم : ١٢

(٣) الأنبياء : ١٠٣ — (٤) النمل : ٨٧ — (٥) المؤمنون : ١٠٨

(٦) فصلت : ٢٤ — (٧) والقرطبي : ١١ ـ ٣١٦ — (٨) يس : ٥٩

ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحدٌ إلى الجنة . وقد سمّى الله فى كتابه ثلاثة أشياء أكبر : هذا ، «[1] وَلَذِكْرُ اللهِ أكبر » . «[2] ورِضْوانٌ من الله أكْبَر » .

(فَاعْبُدُونِ[3]) : خُصَّت هذه الآية بالعبادة ، لأنه لم يرد فى سورتها ذِكْرُ لفظ التقوى فى أمرٍ ولا خبر من أولها إلى آخرها ؛ بل ورد فيها الأمر بالعبادة [٢٣٣ ب] فى قوله[4] : «وما أرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلّا نُوحِي إليهِ أنه لا إله إلا أنا فَاعْبُدُونِ » . بخلاف سورة المؤمنين ؛ فإنه تكرر فيها ذكر التقوى فى ثلاثة مواضع : فى قصة نوح[5] : « أفلا تَتَّقُون » . والتالية لها[6] : « أفلا تَتَّقُون». فرُوعى فى الأولى ما تقدمها، ونُوسب بالثانية ما اكتنفها ، وأيضاً فإنّ العبادة[7] ... بها ليحصل لهم[8] الاتّقاء ، فهى مقدّمة فى الطلب لتحصل ما يتسبَّبُ عنها إذا كانت الإجابة . وعلى ذلك ورد دعاءُ الخلق ، قال تعالى : «يأيها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم» ؛ فالاتصافُ بالتقوى ثانٍ عن الاتصاف بالعبادة ؛ فقيل فى الأنبياء : فاعبدون . وفى الثالثة[9] : فاتّقون ، على مقتضى الترتيب .

(فَتَقَطَّعُوا أمْرَهم بَيْنَهم[10]) ؛ أى اختلفوا فيه ، وهو استعارةٌ من جعل الشىءِ قِطَعاً ؛ والضمير للمخاطبين ؛ والأصلُ تقطعتم أمرَكم بينكم ، إلا أنّ الكلامَ صُرِف إلى الغيبة على طريق الالتفات ؛ كأنه يَنْعَى عليهم ما أسْنَدوه إلى آخرين ، ويقبّح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا تَرَوْن إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ، وإن اختلفوا فى الدين فرجعُهم إلينا وحسابهم علينا .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) التوبة : ٧٢ (٣) الأنبياء : ٩٢
(٤) الأنبياء : ٢٥ (٥) المؤمنون : ٢٣ (٦) المؤمنون : ٣٢ ، ٥٢
(٧) بياض بالأصل نحو كلمة . (٨) شطبت فى الأصليين ؛
(٩) المؤمنون : ٥٢ (١٠) المؤمنون : ٥٣

فإن قلت : ما فائدة عطف هذه الآية بالفاء وزيادة « زُبُراً » ؟

والجواب أن زيادته تأكيد لافتراقهم ، ونصب الحال الواردة بياناً وتأكيداً لقُبْح تفرقهم ، وتشنيع مُرْتَكَبِهم ؛ فناسب ذلك مقصود هذه الآية لما هنا من التخويف والإنذار ، ولم يكن ليناسب آية الأنبياء[(١)] ؛ لبنائها على غيرها لما تقدمها من تأنيس نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعريفه بما منح سبحانه متقدمى الرسل ، وما أعقبهم صبرهم على أممهم ؛ ولذلك عطفها بواو العطف ؛ كأنه يقول : نبهناهم على السؤال ، وأوضحنا لهم أمر مَنْ تقدمهم ، وعاقبة الاستجابة لمن تمسك بهذى المذكورين ؛ وهم مع ذلك على عنادهم وافتراقهم ؛ وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم ، ولم يَشُبْه شدة الوعيد ؛ ليبقى رجاؤه .

(فَلَك[(٢)]) : هو القطب الذى تدور عليه النجوم .

(فَجّ عَمِيق[(٣)]) ؛ أى طريق بعيد .

(فكُلُوا منها[(٤)]) : ندب للأكل من الأضحية ، وهو من خصائص هذه الأمة المحمدية ، يأكلون صدقاتهم فيُؤْجَرون عليها بخلاف من تقدم ؛ فسبحان من أنعم عليهم بنعم دنيا وأخرى ، جعلنا الله ممن أحبهم .

(فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأوثان[(٥)]) : من لبيان الجنس ، كأنه قال الرجس الذى هو الأوثان ؛ والمراد النهى عن عبادتها ، أو عن الذبح تقرُّباً لها كما كانت العرب تفعل .

(فيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشيطان[(٦)]) ؛ أى فيُبْطِله ، كقولك : نسخت الشمسُ الظلَّ .

---

(١) الأنبياء : ٩٣ (٢) الأنبياء : ٣٣ (٣) الحج : ٢٧
(٤) الحج : ٢٨ (٥) الحج : ٣٠ (٦) الحج : ٥٢

(فلا يُنَازِعنَّكَ فى الأمر[1]) ، أى فى الدين والشريعة ، وضمير الفاعل للكفار . والمعنى أنهم لا ينبغى لهم منازعةُ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق قد ظهر بحيث لا يَسَعُ النزاع فيه ، فجاء الفعل بلفظ النهى ، والمراد غير النهى . وقيل المعنى : لا تنازعهم فيُنَازِعُوك ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . ويحتمل أن يكون نهياً لهم عن المنازعة على ظاهر اللفظ .

(فأقِيموا الصلاة[2]) : الظاهر أنها المكتوبة ، لاقترانها مع الزكاة؛ وإقامتها يإتيانها بالخضوع والحضور ، إذ ما كل مُصَلّ مقيم ، ولا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ، الصلاة طهرةُ القلوب ، واستفتاحٌ لباب الغيوب .

(فاسْلُكْ فيها من كلٍّ زَوْجين اثنين[3]) : لما صنع نوحٌ السفينة ، وجعل الله علامةَ خروج الماء إفارة[4] التنور أمر جبريل أنواعَ الحيوان أنْ تأتيه فيضع يمينه على الذَّكَر ويساره على الأنثى .

وروى أن أول من دخل السفينة الذّر ، وآخر من دخلها الحمار ، فتمسك الشيطان بذَنَبه ، فزجره نوح ، فلم ينبعث ، فقال له : ادخل ، ولو كان معك الشيطان . قال ابن عباس : زلّت هذه الكلمة عن لسانه ، فدخل الشيطان حينئذ ، وكان فى مؤخرة السفينة .

وروى أن نوحاً عليه السلام ومَنْ فى السفينة شم نتن الزبل والعذرة فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل ، ففعل ، فخرج من الفيل، وقيل من أنفه خنزير، فكفى نوحا وأهله ذلك الأذى ، فيؤخذ من هذا أن نوع الخنزير لم يكن قبل ذلك .

---

(١) الحج : ٦٧ (٢) الحج : ٧٨ (٣) المؤمنون : ٢٧

(٤) هذا فى الأصول . والآية : وفار التنور .

وروى أن الفأر آذى الناس فى [١٢٣٤] السفينة بقرض حوائجهم ، فأمر الله نوحا أن يمسح على جبهة الأسد ، ففعل، فعطس فخرجت منه هرة وهر ، فكفياهم الفأر .

وروى أيضا أن الفأر خرج من أنف الخنزير ، وهذا كله ليس له مستند .

وروى أن إبليس لما دخل فى السفينة طمع فى إغواء أهلها ، فشكا نوح إلى الله ، فأمره أن يحمل معه تابوت آدم فى السفينة حتى ينظر إليه إبليس ، فيذوب حسرة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الشدّ بالقَيْد أهونُ من النظر إلى الضد ؛ وإذا كانت مشاهدةُ العدو تمنع الاشتغال بالنفس وتمنع عن الطعام والشراب ، فكيف لا تذوب أنتَ يا محمدى والمحبة فى قلبك ، كما ذاب إبليس حين نظر إلى عـــــدوه ؛ لو صدقْتَ محبتُك فى صحبة معبودك لمنعك مشاهدته عن الشهوات وطلبِ الفضولِ والتلذذِ بالزلات، ولا يقدر إبليس على وَسْوَستك وإغوائك فى جميع الأوقات ؛ ألا ترى أنه لم يقدر على دخول السفينة إلا بإذن صاحبه ، فكيف يدخل قلبَكَ وفيه مولاك ؛ أما سمعته يقول[1]: «وإذا ذَكَرْتَ ربَّك فى القرآن وَحْدَه وَلَّوْا على أدبارهم نُفُورا » . وفى الحديث : إن له صفتين: وسواس ، وخنّاس ؛ فإذا خنس على ابن آدم وشَمَّهُ ووجد فيه الغَفْلة وسوس ، وإذا وجده متيقّظاً خنس ؛ فانظر بأى شىء تعمره ؛ إن عمرته بذكره سبحانه والتفكرِ فى عجائبه — طردَه عنك ، ووصلْتَ إلى حضرته ؛ ألا تراه سبحانه أمر نوحا بحَمْله معه الحيوان الذى لا معرفةَ له ، ولم يفرق بينه وبين محبوبه ؛ فكيف يذيق عَبْدَه المؤمن أليمَ فُرْقته بعد طول خدمته ، وقديم معرفته !

---

(١) الإسراء : ٤٦

كأنه سبحانه يقول : يا نوح ، احمل ما هو مفارِقٌ لك ، وهارب عنك ؛ لترى الخلقَ حُسْنَ خُلقك ؛ فيستدلون بحسن خلقك على لطيف صُنعى ؛ أنا لما ذَكَرنى الموفون اللازمون ببابى ، والخواصّ من عبادى — هديتُهم ، وأنعمت عليهم ؛ هذه معاملتى معهم فى دار المِحْنة ، فكيف معاملتى معهم فى دار النعمة ؟ إنك أدخلْتَ الخلائق فى سفينتك ولكَ إليها حاجة ؛ فأى عجب لو أدخلْتُ جميع العصاة فى الجنة ولا حاجة لى فيها !

(فبُعْداً[١]) : مصدر وُضِع موضع الفعل ، بمعنى بَعُدُوا ؛ أى هلكوا ؛ والعامل فيه مضمر لا يظهر .

(فار التنُّور[٢]) : يعنى بالماء ؛ ولمّا أخبرته امرأتُه بوجود الماء فيه ركب هو وأهلُه السفينة ، وكان هذا التنور لآدم ، فخلص إلى نوح . واختلف فى موضعه ؛ والصحيح أنه كان فى مسجد الكوفة ، وقيل بدمشق .

(فكان من المُغْرَقين[٣]) : الضمير يعود على ابن نوح ؛ لمّا لم يسمع قولَ أبيه أغرقه الله ببوله ؛ وذلك أنه اتخذ قارورة وأدخل فيها ذَكَرَه لظنّه أنه ينْجُو ، فأظهر الله موْجَ القدرة ، وحال بينه وبين ولده ؛ وكذلك الكافر فى خروجه من الدنيا يظهر له موج الشقاوة ، فيحول بينه وبين ما يشتهيه من قبول العذر والإقرار بالوحدانية ؛ كما قال تعالى[٤] : « وحِيلَ بينهم وبين ما يَشْتَهُون » ؛ كذلك العبد العاصى يدعو ربَّه بالندامة ، فيظهر له موجُ الرحمة ؛ فيحول بين معرفته ومعصيته ، وتَبْقى معرفته ؛ وذلك قوله تعالى[٥] : « يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه » .

---

(١) المؤمنون : ٤١ (٢) المؤمنون : ٢٧ (٣) هود : ٤٣
(٤) سبأ : ٥٤ (٥) الأنفال : ٢٤

وفى الخبر أن نوحا قال : يارب ، أنت وعدتَنى بنجاةِ أهلى وإنّ ابنى من أهلى ؛ فأوحى الله إليه : إنه ليس من أهلك الذين وعدتُكَ بنجاتهم ، وقد وافقتك فى دعائك على الكفار ؛ أفلا تُوافقنى أنتَ فى واحد هو ابنك بعد أن قلتُ لك : إنه ليس من أهلك ! كأنه سبحانه يقول : عبدى ، أسلمت إليكَ الدنيا بأسرها عاجلا ، والعُقبى آجلا موافقة لسؤالك وإجابة لدعائك؛ أفلا تسلم لى واحداً من أعضائك ، وهو القلب ؛ فأكون لك نعم الرب !

(فلا أنسابَ بَيْنَهم[1]) ؛ يعنى فى الآخرة ؛ لأن كلّ واحد منهم مشغول بنفسه ، وكل منهم يفرّ من أبناء جنسه ، مخافةَ أن يتعلق بشخصه ؛ قال تعالى[2] : « يوم يَفِرّ المرءُ من أخيه ... » الآية .

(فَرَضْنَاها[3]) ؛ أى فرضنا الأحكامَ التى فيها . وقرىء بالتشديد مبالغة .

(فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ[4]) ؛ ليس على عمومه ، يخص منه المُحْصن والمحصنات والعبد والأمة ، وصِفَتُه عند الشافعى أن يفرّق على جميع الأعضاء والمجلود قائم . وعند مالك فى الظهر والمجلود جالس ، وتُستر [٢٣٤ ب] المرأة بثوب لا يقيها الضَرْبَ ، ويجرّد الرجل عند مالك ، وقال[5] ... يجلد على قميص ويؤخَّرُ المريض والحامل للبُرْء .

واختلف هل يجوز أن يجمع مائة سوط ويضرب بها ضربة واحدة؟ وأجازه الشافعى للمريض ؛ لورود ذلك فى الحديث ؛ ومنعه مالك ؛ وأجازه أبو حنيفة لما فى قصة أيوب .

---

(١) المؤمنون : ١٠١ (٢) عبس : ٣٤ (٣) النور : ١

(٤) النور : (٥) بياض بالأصول نحو كلمة .

فإن قلت : ما الحكمةُ فى سقوط الحدّ عن المريض ؟

فالجواب إن المقصود به التأديب لا القتل ؛ ولذلك أمر بالتخفيف عنه فى الحرّ الشديد والبرد الشديد . كذلك العاصى من هذه الأمة إذا دخل النارَ يقول الله لمالك : لا تقرّبْه إلى النار العظمى ، ولا تعذّبه عـــذاب الكفرة ؛ لأن القصد فى إدخاله التأديب لا التعذيب ؛ هذا حدُّ العاصى فى الدنيا ، وهذا حد الجانى فى العقبى .

(فشهادَةُ أحدِهم أربَعُ شهادات[1]) : بالنصب على المصدرية ، والعامل فيه شهادة أحدهم . وقرىء بالرفع ، وهو خبر « شهادة أحدهم » . وقوله : « بالله » ، وإنه لمن الصادقين ـ من صلة أربع شهادات ، أو مِنْ صلة : « شهادة أحدهم » ؛ أى يقول الزوج أربع مرات : أشهد بالله ، لقد رأيتُ هذه المرأة تزنى ، أو أشهد بالله ما هذا الحمل منى ، ولقد زنت ، وإنى لمن الصادقين ؛ ثم يقول فى الخامسة : لعنة الله علىّ إنْ كنتُ من الكاذبين .

(فارهين[2]) ؛ بألف وعدمها ، منصوب على الحال من المفعول فى « تنحتُون » ؛ وهو مشتق من الفَرَاهَة ، وهى النشاط والكيس . وقيل : أشِرين بطرين .

(فأصبحُوا نادِمين[3]) : الضمير يعود على قوم صالح ؛ لما تغيرت أموالهم كما ذكرناه ـ ندِموا .

فإن قلت : ما بالهم لم ينفعهم الندمُ كقوم يونس ؟

والجواب أن ندمهم إنما كان على عدم قتلهم لولدِ الناقة ، ولم يندموا على قتلها ،

---

(١) النور : ٦ (٢) الشعراء : ١٤٩ (٣) الشعراء : ١٥٧

وكذلك نَدَمُ قابيل ؛ ندم على كونه عجز عن إخفاء أخيه لا على قتله ؛ فلذلك لم ينفعهما الندم، بخلاف قوم يونس فندَمُهم كان حقيقةً، وآمنوا فنفعهم إيمانهم؛ وهذه الأمةُ المحمدية ينفعهم الندم لحديث: الندمُ توبة. وفي الحديث: إن الحفظة تصعد بعمل العبد يقابلونه باللوح المحفوظ، فلا يجدون ما كتبوا فيختلسوا، وإذا النداءُ من قِبَل الله: وصلت ندامةُ قلبه قبل وصولكم إليَّ.

(فبعثَ اللهُ غُرَاباً يبحث في الأرض[1]) : لما قتل قابيلُ أخاه، وأراق دمَه، فاجتمع النُّسور عليه، فتحيَّر قابيل في دَفْنه، فأخذ يَفُور في الأرض، فكلُّ قطرة وقعت من دم هابيل عليها صارت سبخة، فبعث الله غُرابَيْن يقتتلان؛ فقتل أحدُهما الآخر، ثم بحث الأرض بمنقاره ودفنه، فاقتدى به قابيل؛ فذلك قوله تعالى[2]: «ألم نجعل الأرض كِفَاتاً[3] . أحياءً وأمواتاً»؛ والحكمة في بَعْث الغراب لاسوِدَادِه، ولما كان القتل مستغرباً إذ لم يكن معهوداً قَبْلَ ذلك ناسب بعث الغراب إليه؛ ولهذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب.

وروَى أنس أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "امتَنَّ اللهُ على ابن آدم بالريح بعد الروح"؛ ولولا ذلك ما دَفن حبيب حبيباً، وقابيلُ أول من يُساق إلى النار، وهو المراد بقوله[4]: «رَبَّنا أرِنا اللَّذَيْنِ أضَلَّانا من الجنِّ والإنس»؛ وهما قابيل وإبليس.

وروَى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الثلاثاء، فقال: يوم الدم، فيه حاضت حواء، وفيه قَتَل ابنُ آدم أخاه. قال مقاتل: كانت

---

(١) المائدة : ٣١ (٢) المرسلات : ٢٥

(٣) الكفات : الموضع يكفت فيه الشيء، أي يضم ويجمع، والأرض كفات لنا.

(٤) فصلت : ٢٩

السباع والطير تستأنس بآدم ، فلما قتل قابيلُ هابيل هربت منه الطير والوحش ، ومالت الأشجار ، وحمضت الفواكه ، وملحت المياه ، واغبرّت الأرض .

وعن ابن أبي واقد عن ابن حبيب ؛ قال : بينما أنا عند أبي بكر الصديق إذ أتى بغراب، فلما رآه بجناحيه حمد الله، ثم قال : قال صلى الله عليه وسلم : "ما مِنْ صيد مصيد إلا بنقصٍ من تسبيح ، ولا أنبت اللهُ نابتة إلا وُكّل بها ملكاً يُحصي تسبيحها حتى يأتي به يوم القيامة ، ولا عُضدت[١] شجرة ، ولا قُطعت إلا بنقصٍ من تسبيح ، ولا دخل على امرىء مكروه إلا بذنب ، وما عفا الله أكثر".

"يا غراب ، اعبد الله"، ثم خلى سبيله .

(فَكِهِين ، وفاكهون[٢]) ؛ أي معجبون ، كما يقال حذِر وحاذر . وفي التفسير : فاكهون : ناعمون ، وفَكِهُون : معجبون ، وفاكهون أيضاً الذين عندهم فاكهة كثيرة . كما يقال : رجل لابنٌ وتامر ؛ أي ذو لبن وتمر كثير .

(فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ[٣]) ؛ أي أنزله عليكَ وأثبته [٢٣٥ ا] . وقيل : معناه أعطاك القرآن . والمعنى متقارب . وقيل : فرض أحكام القرآن ، فهو على حذف مضاف .

(فلبِثَ فيهم ألفَ سنة[٤]) : الضمير لنوح . والمعنى أنه بقي هذه المدة بعد بَعْثه . وروى أنه عُمّر بعد الطوفان ثلاثمائة سنة . وأكثر الصحابة على أنه قبل إدريس ، واسمه عبد الغفار .

وروى الطبراني ، عن أبي ذَرّ . قال : قلتُ : يا رسول الله ، مَنْ أول الأنبياء ؟ قال : آدم . قلت : ثم مَنْ ؟ قال : نوح ؛ وبينهما عشرة قرون .

---

(١) عضدت : قطعت .
(٢) الدخان : ٢٧ ، يس : ٥٥
(٣) القصص : ٨٥
(٤) العنكبوت : ١٤

(فالزاجراتِ زَجْرا[١]) : هي الملائكة تزجر السحاب وغيره . وقيل : الزاجرون من بنى آدم بالمواعظ . وقيل : آيات القرآن المتضمنة الزَّجْر عن المعاصى .

(فالتَّاليات ذِكْرا[١]) : هي الملائكة تتلو القرآن والذكر . وقيل : هم التالون للقرآن ، والذكر من بنى آدم ، وهى كلّها أشياء أقسم الله بها على أنه واحد .

(فنظر نظرةً في النجوم . فقال : إنى سَقِيم[٣]) ؛ يعنى أن قوم إبراهيم طلبوا منه أنْ يَخرج معهم إلى عيد لهم ، وأراد الامتناعَ من ذلك ، فنظر في النجوم لأنهم كانوا مُنَجِّمين ؛ وقال لهم : إنى سقيم ؛ أى فيما يستقبل ؛ لأن كلَّ إنسان لا بد له أنْ يمرض ، أو أراد أنه سقيم النفسِ من كفرهم وتكذيبهم له ؛ وهذا التأويل أولى . وقيل : إنه كانت تأخذه الحُمّى في وقت معلوم ، فنظر في وقتِ أخذِها له ، واعتذر عن الخروج معهم لذلك . وقيل : نظر وفكر فيما يكون من أمره معهم ؛ لأنه أراد كسر أصنامهم ؛ فقال : إنى سقيم . والنجوم على هذا ما يَنْجُم مِنْ حاله معهم ، وليست نجوم السماء ؛ وهذا بعيد .

(فما ظَنُّكم بربِّ العالمين[٢]) : المعنى أى شيء تظنون برب العالمين أن يعاقبكم وقد عبدتم غيره ؟ أو أى شيء تظنون أنه هو حق عبدتُم غيره ؟ كما تقول : ما ظنُّك بفلان إذا قصدت تعظيمه ؛ فالمقصد على المعنى الأول تهديد ، وعلى الثانى تعظيم لله وتوبيخٌ لهم .

(فتولَّوْا عنه مُدْبرين . فراغَ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون[٤]) :

---

(١) الصافات : ٢ — (٢) الصافات : ٨٨ ، ٨٩ — (٣) الصافات : ٨٧
(٤) الصافات : ٩٠ ، ٩١

لما قال لهم : إنى سقيم — خافوا أن يكون طاعونا ، فخافوا منه ، وتباعدوا خوفاً من عدْواه ، فمال إلى آلهتهم ، وقال هذا القولَ على وجه الاستهزاء بالذين يعبدونها ؛ وقد قدمنا فائدة إدخال الفاء فى هذه الآية .

(فجعلناهم الأسفلين[1]) : يعنى قوم النمرود ؛ وذلك أنه قال له : يا إبراهيم ، إن كان ربُّك ملكا فليحارِبْنى بعسكره ، وليأخُذ الملك منى. فقال إبراهيم : إلهى، إن نمرود ركب مع جنوده ، فأرْسِلْ إليه جُنْدا من أضعف خَلْقك ، وهى البعوض؛ لأنها إذا شبعت تموت وسائر الحيوان إذا شبع يَحْيا ؛ فأوحى الله إليه : يا إبراهيم، لو لم تسأل جُند البعوض لأرسلتُ عليهم جُنْدًا ما لَوْ جمعت منه لم يكن مثل ما أهلكتهم به . قال تعالى[2]: «وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو». فركب نمرود — لعنه الله — فى سبعمائة ألف فارس مُقنَّع ومُدرَّع ، وخرج إلى الخلاء يطلب المبارَزة ، فأرسل الله جُنْدَ البعوض ، وقال لهم : جعلتُ اليوم رزقكم هذا الجند ، وقوّى الله مناقرها ، فلم يحجبها الدروعُ والمغافير[3] حتى أكلت لحومهم ودماءهم ، ولم يبق منهم أحد غير نمرود ، فإنه هرب ورجع إلى بيته ، وأوحى الله إلى البعوض الموكل به أنْ يُمْهله حتى يرى ما صنع اللهُ بجنده ؛ فلما دنا وقتُ عَذابه جعل يحومُ حَوْلَ منخره ودخله بعد ثلاثة أيام تنبيها لنمرود وإمْهالا له ، كأنه تعالى يقول: أمهلتُكَ لمعاصيك وكُفْرك ، لم نأخذك بغتة ، فإن رجعت إلينا فى الثلاث فلك الأمان ، ومنا القبول والإحسان ، وإن لم ترجع فالعيبُ منك ؛ أما نحن فقد استعملنا فَضْلنا وكرمنا .

وهكذا عادته سبحانه فى إمهال الكفرة وعدَم أخْذِهم بغتة ؛ فكيف بك

---

(١) الصافات : ٩٨ (٢) المدثر : ٣١

(٣) المغفر — كمنبر ، وبهاء ، وككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح ، وجمعه مغافر ومغافير .

يا محمدى إنْ رجعْتَ إليه ! أَرَاه لا يقبلك ، وقد عاتب أنبياءَه في عدم رحمتهم بالكَفَرة اللئام .

فإن قلت : قد عبَّر في آية الأنبياء[1] بالأخسرين ، فهل هما بمعنى واحد ؟

والجوابُ أن الصفتين من السفالة غاية حالِ الكافرين ، ومَنْ كان من الأسفلين فقد خسر خُسراناً مبيناً ، فلا تضادَّ بين الصفتين ، لأن [٢٣٥ ب] السفول لاحق في ذات المتسفل والخُسْرَان حقيقة في خارج عنه ، فالسفول أبلغ ؛ فقدَّم ما هو لاحق خارجيّ وأخَّر ما لا يتعدى ذات المتصف به ، تكملةً وتتمةً ؛ إذ هو أبلغُ على ما يجب وعلى ما قدمنا من رَعْىِ الترتيب ، والتسفّل ضد الترقى .

وقيل : رُوعى في الصفة مقابلة قولهم[2] : « ابنُوا له بُنْياناً » ؛ لأنه يفهم منه إرادتهم علوَّ أمرهم بفعلهم ذلك ، فقوبلوا بالضدِّ ، فجُعلوا الأسفلين ، وهو حسن .

(فإنهم يومئذٍ في العذاب مُشْتَرِكون[3]) : الضمير يعود على المتبعين والأتباع ، واشتراكُهم في العذاب حكم عدل ، إذ كلٌّ منهم مستحق ، ألا ترى كيف وصفهم جميعاً بأنهم مجرمون ؟

فإن قلت : هل يفهم من اشتراكهم في العذاب استواؤهم فيه ؟

والجواب: لا استواء بينهم ؛ لأن الشركة في الشيء قد تقتضى تساوى الشركاء في ذلك المشترك فيه وقد لا تقتضى . والضالّ والمضلّ وإن اشتركا في العذاب فللمضلِّ ضعفان ، لأنه ضلّ وأضلّ .

فإن قلت : قد قال الذين كفروا : «[4] إنا كلٌّ فيها » ، أي في النار ؟

---

(١) الأنبياء : ٧٠ (٢) الصافات : ٩٧ (٣) الصافات : ٣٣

(٤) غافر : ٤٨

فالجواب أنه إخبار عن التَّساوى فى المكان ، لا عن الواقع فيه ؛ لأنهم فى دَرَكات متفاوتون .

وقد صحّ أن سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم سأل عن مكانها ، فقال : الطبق السابع مأوى المنافقين . والسادس مأوى مَنْ طغى وبغى وادّعى الربوبية . والخامس مأوى الجبّارين والظالمين . والرابع مأوى المتكبرين والكافرين . والثالث مأوى اليهود . والثالث مأوى النصارى ؛ وسكت عن الأول ؛ فقال له : أخبرنى عن الأول ـ وألحّ عليه ؛ فقال : عصاة أمتك يا محمد ؛ فأغمى عليه ، فلما أفاق بكى بكاءً شديداً ، وأغلق عليه الباب ، وصار يطلب فى أمته ، فجاءه جبريل وبشّره بالشفاعة فيهم ؛ اللهم كما جعلته رحيما بنا لا تحرمنا من شفاعته ، أقسم عليك بجاهه عندك .

(فَبَشَّرْناه بغُلامٍ حَلِيم ... [1]) الآيات ، إلى قوله: (وفَدَيْناه بِذِبْحٍ عظيم) : هذه البشارة انطوت على ثلاثة أشياء : على أن الولد ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما .

قيل : ما نَعَتَ اللهُ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم ؛ وذلك لعزة وجوده . ولقد نعت الله به إبراهيم ، وأىُّ حلم أعظم من حلمه لمّا عرض عليه أبوه الذّبح قال : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . والحادثةُ شهدت بحلمهما جميعاً . وفى هذا دليلٌ على أنّ الإشارة بإسماعيل وهو الذّبيح ، وأمرُ ذبحه كان بالحجاز بمنى ، وثَمّ رَمَى إبراهيم الشيطان بالجمرات ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : أنا ابن الذّبِيحين ، يعنى إسماعيل ، وعبد الله أباه الذى نذر

---

(١) الصافات : ١٠٠ ـ ١٠٧

عبدُ المطلب لما حفر بئر زمزم أن يَذْبح أحد أولاده ، فخرج السهمُ على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له: افدِ ابْنَك بمائة من الإبل ، ففداه بها ، ونحرها عن آخرها ، تقرُّبا إلى الله ؛ فأخذ منها الناسُ ما يحتاجون والطير والسباعُ . قال علماء الإسلام، ومن جرّى[1] هذه الواقعة كانت دِيَةُ الإبل عدد وصفه ، كما كان الكبش الذي فدى الله به إسماعيل مثالا لما وقعت به مشروعية الأضحية .

وروى أن إسماعيل أول مَنْ خطّ بالقلم . ورأيت فى بعض التقاييد أن أول من خطّ بالقلم من العرب هود عليه السلام وأن[2] ... كان يكتب به ، فرأى فى منامه مَنْ نهاهُ عن كتبه فى الأحجار ، وأنه إنما خص الله به نبيًّا يُبعث فى آخر الزمان ، فينزل عليه كتاباً يُقرأ ويخط بهذا الخط العربى .

وعن الأصمعى قال : سألتُ عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى ، أين عَزُب[3] عنك عقلك ؟ ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان بها إسماعيل، وهو الذى بنى البيت مع أبيه .

وذكر الطبرى ، عن ابن عباس ، قال : الذبيح إسماعيل ؛ وتزعم اليهود أنه إسحاق ، وكذبوا . وسأل عمر بن عبدالعزيز يهوديًّا كان أسلم وحَسُن إسلامه، قال : الذبيح إسماعيل [٢٣٦ ا] واليهود يعلمون ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكونَ هذه الفضيلة فى أبيكم .

وفى رياض النفوس أن أسد بن الفرات قال : كنت بالعراق زمن قراءتى على محمد بن الحسن ، فقلت له : اختلف الناسُ فى الذّبيح ؛ من هو ؟ وعندى أنه إسماعيل. قال : لِمَ ؟ قال: لأن الله يقول[4]: «فبشّرْناها بإسحاق ومِنْ وراء

---

(١) من جراك ومن جرائك : من أجلك . (٢) بياض فى الأصول نحو كلمتين .
(٣) عزب : غاب وبعد . (٤) هود : ٧١

إسحاق يعقوب » ، فكيف يُؤْمر بذبح مَنْ قد أخبر أنه سيولد له ؟ ومن المعلوم أن الإخبار إنما يقعُ على مجهول العاقبة ؛ فتعيّن أنه إسماعيل . قال الشيخ رحمه الله: هذا إن كان صحّ الخبر قبل الأمر بالذبح .

فإن قلت : لِمَ وصف المبشر به هنا بالحلم ، وفي الذاريات والحِجْر[1] بالعلم ؟

فالجواب أنه وصفه هنا بالحلم لانقياده لحكم ربه ، واستسلامه له ؛ ووصفَه في غيرها بالعلم لكبره . وقيل : إن الحليم إسماعيل ، والعليم إسحاق . وعن محمد ابن كعب القُرَظي قال : كان مجتهدُ بني إسرائيل إذا دعا قال : اللهم إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل . فقال : يا رب ، ما لمجتهد بني إسرائيل يدعو بهذا ، وأنا بين أظهرهم ؟ قد أسمعتني كلامك ، واصطفيتني برسالتك . قال : يا موسى ، لم يحبّني أحد حبَّ إبراهيم قط ، ولا خُيّر بين شيء قط وبيني إلا اختارني . وأما إسماعيل فإنه جادَ بنفسه ، وأما إسرائيل فإنه لم يأيس[2] من روحي في شدة نزلت به قط .

فإن قلت : لِمَ كان الأمر بالذبح هنا ما دون اليقظة ؟

فالجواب : لتعلَم أنّ النبوءة اثنان : رسالة ، ورؤيا منام ؛ ولما كان إسماعيل أحبَّ إليه من كل شيء لم يُرِد الله أن يواجه خليلَه بما فيه كراهية له ، فأراه في المنام؛ كأنه استحيى منه ، وهكذا عادته سبحانه مع أنبيائه وخيرته من خَلْقه ؛ ألا ترى رؤيا يوسف سجود إخوته وأبويه ، ورُؤْيا سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم دخولَ المسجد الحرام ، وما سواها ؛ للدلالة على تقوية صِدْقهم ؛ وإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما .

---

(١) في الذاريات آية (٢٨) : وبشروه بغلام عليم . وآية الحجر (٥٣) : إنا نبشرك بغلام عليم . وفي ا : المبرات ـ تحريف .

(٢) ييأس

فإن قلت : قد قال الله له : قد صدّقتَ الرؤيا ، وإنما كان يصدقها لو صحّ منه الذبح ، ولم يصح ؟

فالجواب أنه قد بذل وُسْعه فيما أمر به من بَطْحه على شقّه ، وإمرار الشَّفْرَة على حَلْقه ، ولكن الله منعها من القطع ، ليعلم أنّ القطع لله لا للسكين ، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ، فلا يُسمى عاصيا ولا مُفرّطا .

فإن قلت : الله تعالى هو المُفْتدِي منه ، لأنه الآمر بالذبح ، فكيف يكون فاديًا حتى قال : « وفَدَيْناه » ؟

والجواب الفادي هو إبراهيم عليه السلام، والله عزّ وجل وهب له الكَبْش ليفتدي به ، وإنما قال : وفَدَيْناه ـ إسنادا الفداء إلى السبب الذي هو المُمكّن من الفداء بهبته .

فإن قلت : لِمَ شاوره في أمرٍ هو حَتْم من الله ؟

فالجواب أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ، ولكن ليعلم ما عنده ، لأنه بُشّر بالحلم ، وأيضا ليوطّن الولدُ نفسه على الصّبر ، ويحتسب ؛ فجاوبه عليه السلام بأحسن جواب ؛ ألا تراه قال له : يا أبتِ، خُذْ بناصيتي ، واجلس على كتفي لئلا أوذيك إذا أصابني حرّ[1] الحديد . ففعل إبراهيم ، فلما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين ؛ فالحُرمة تغير وجهه رُفِع عنه الذّبح ؛ فالمؤمن الذي عفّر وجهه في التراب سنين عديدة أتراه يحرقه بالنار ؟

ولما سأل إبراهيمُ الولدَ الصالح وبُشّر به أمر بذبحه ؛ ليعلم أنّ هذا الولد هو الذي طلبه ؛ وكذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سأل اللهَ تعالى صلاحَ أمته

---

(١) في ا : حد الحديد .

فى وقت وفاته ، وطلب منه هو الخليفة بعده عليهم ، فأجاب الله دعاءه ، وأراه سؤاله فيهم : إسماعيل استسلم لقضاء ربه ، ومِنْ عادة الصبيان الجزَعُ من الألم ، ومن طبع الحديد القَطْع ، فلما صبر وغيّر عادته لأجل الله غيّر طَبع الحديد لأجله ، ولم يقطع ، كذلك حال المؤمن مع الله ، إذا صبر واستسلم لقضاء غيّر الله طبع الشوائد عليه وأثابه الحُسنى .

وقيل: إنه لما صُرع للذبح كشف الله له من الجنة حتى يسهل عليه [٢٣٦ب] اللقاءُ مع ربه ، وكذلك المؤمن فى حالة الموت يكشفُ اللهُ لعطى ما أعدَّ له من النعيم، فيسهل عليه خروجُ رُوحه . قال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل أحد الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزدادَ شُكرا ، ولا يدخل أحد النار إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حَسرةً .

قيل : لما أُوتى إبراهيم بالكبش يداه مشدودتان إلى قرنه ، لأن إسماعيل قال له : اطلِقْ لى رِجلًا واحدة لتعلمَ الملائكة أنى فعلتُ ذلك عن رضاً منى وطِيب نفسى ، وأنى لم أجزع ، فأوتى بالكبش كذلك .

وأنتَ يا محمدى لو وافقتَ ربك فيما أمركَ به لرأيتَ العجائب من لطفه فى موافقة جميع المخلوقات لك ، لكنّك خالفتَ فاختلفت عليك الأمور ، ولذلك قال بعضهم : إنى لأعلم حالى مع ربى حتى فى غلامى ودابّتى .

ومرَّ ابنُ المبارك بفرس يُباع بأبخس ثمن ، فقال : ما بال هذا ؟ فقيل له : به عيوبٌ كثيرة ، من حَرَن[1] ورَكض، وذَعارة[2] ، فاشتراه وقال فى أذنه :

---

(١) الحرن كنصر وكرم . والدابة الحرون : التى إذا اشتد جريها وقفت .

(٢) من الذعر ، وهو الخوف ، ومنه المذعورة : الناقة المجنونة .

إنى أتوب من جميع ما عصيتُ الله به ، فإياك والمخالفة ، فَنَلَّهُ الله له ، وصار كأحسن ما كان ، كلُّ ذلك من طاعة الله ، وعدم المخالفة .

ولما فدىّ الله إسماعيل من الذبح دعا بدعوات منها : اللهم اغفر لكل مَنْ وحّدك ، ومن أصابته محنة ـ فتذكّر محنتى ـ ففرّجْ عنه . وقال : يارب ، حاجتى إليك أن تغفر لكل مؤمن ومؤمنة يذكرك فإنى أسألك كما بردت النار على خليلك إبراهيم ، وأنجيتنى من الذبح ، كذلك خلّص المؤمنين من النار .

فانظر ما أعظم حرمتك عند ربك يا مؤمن ؛ الملائكةُ والأنبياءُ وجميعُ المخلوقات يستغفرون لك ، ورسولُك صلى الله عليه وسلم يشفع فيك ، أفتراه يعذّبك بعد هذه الفضائل ؟ بل يفديك من النار بيهودى أو نصرانى كما فدّى إسماعيل بالكبش الذى تقرّبَ به هابيل وربّاه فى الجنة لإسماعيل .

فإن قلت : لِمَ وصف الفداء بالعظمة ؟

فالجواب : لكيلا يدخل فى حدّ محـــدود ؛ إذ لو كان محدوداً لوجب الاقتداءُ به ؛ وكذلك سائر المسلمين . وكان فيه مشقة . وقيل : لأنه من عند الله . وانظر كيف وصفه بالعظمة ، مع أنه وصف نفسه وكتابَه والأجر بالعظيم ، والفوز العظيم ، والعذاب العظيم ، والظلم شِرْك عظيم ، والبهتان ، وكَيْد النساء عظيم ، وزلزلة الساعة شىء عظيم ، والعرش العظيم ؛ وقال : « أنْ تميلوا ميلا عظيما » . قد افترى إثماً عظيما ، وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم .

وقيل : إن الله أمر إبراهيم بتعليق قرْن الفداء على الكعبة إشارة له أن علّق قلبك بعرشى ، ولا تلتفت لسوائى ؛ لأنى ربُّ الكل .

وأنت يا محمدىّ إذا علقت قلبَك بربك ، وأخفيتَ مابينك وبينه ،

ولم تُطلِع عليه أحدا من خَلْقه ، أفتراه لا يقبلك ، وقد أخفى لك ما لا يخطر ببالك من قُرّة أعين ؟

فإن قلت: لم يقل فى هذه القصة كما قال قبل : إنّا كذلك نَجْزِى المحسنين؛ فيكون ذكره تفخيما لأمره ؟

فالجواب أنه تقدم فى قصة إبراهيم نفسها : إنا كذلك ؛ فاستغنى عن إعادتها .

(فأْتُوا بكتابكم إنْ كنتُم صادقين[1]) : عجّز قريشا بهذا الخطاب ؛ لأنهم ليس لهم كتاب يحتجّون به ، وكذلك[2] : « فاسْتَفْتِهم » ؛ أى سَلْهُم على وجه التقرير والتوبيخ عما زعموا من أن الملائكة بنات الله .

(فإنّكُمْ وما تَعْبُدُونَ . ما أنتُم عليه بِفَاتِنين[3]) ؛ يعنى بما تعبدون من الأصنام وغيرها . وما تعبدون عطف على الضمير فى إنكم ؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع . ومعنى فاتنين مضلّين . والضمير فى عليه يعود على ما تعبدون ، وعلى سببية ؛ معناها التعليل . و« من »[4] مفعول بفاتنين . والمعنى إنكم أيها الكفّار وكل ما تعبدونه لا تُضِلّون أحدا إلا مَنْ قضى الله أنه يَصْلَى الجحيم. وقال الزمخشرى[5] : الضمير فى « عليه » يعود على الله تعالى .

(فَتَولَّ عنهم حتّى حِين[6]) ؛ أى إلى حضور آجالهم . وقيل : حضور يوم القيامة . وقيل : حضور يوم بدر ، وهذه موادعة منسوخة بالقتال .

---

(١) الصافات : ١٥٧ (٢) الصافات : ١١ (٣) الصافات : ١٦١، ١٦٢

(٤) فى قوله تعالى فى الآية التى بعدها : إلا من هو صال الجحيم ــ آية ١٦٣ من السورة نفسها .

(٥) فى الكشاف : ٢ ــ ٢٧٢ (٦) الصافات : ١٧٤

(فسوف يُبْصِرون[1]) : وعدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ووَعِيد لهم .

فإن قلت : ما فائدة تكرير هذه الآية ؟ ولم حُذِف [٢٣٧ ا] فى الثانية المفعول[2] ؟

فالجواب : من وجهين : أحدهما أنه اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانياً ، فحذفه اختصاراً . والآخر أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم ، كأنه قال : أبصر جميع الكفار ، بخلاف الأول ، فإنه فى قريش خاصة .

(فإذا نزل بساحَتِهم فساءَ صباحُ المُنْذَرين[3]) : الساحة : الفِناء حول الدار ؛ والعرب تستعمل هذه اللفظة[4] فيما يرِدُ على الإنسان من محذور . وسوء الصباح مستعمل فى ورود الغارة والرزايا ؛ ومقصدُ الآية التهديد بعذابٍ يحل بهم بعد أن أُنذروا فلم ينفعهم الإنذار ؛ وذلك تمثيل بقوم أنذرهم ناصح بأنّ جيشاً يحلُّ بهم ، فلم يقبلوا نُصْحه ، حتى فاجأهم الجيش فأهلكهم .

وفى صحيح البخارى أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا ، ونادى بأعلى صوته : يا صباحاه ! ففزعت إليه قريش ، فقال : ما تقولون ، لو أنذرتكم خيلا تُصْبِحكم أوَ مصدِّقِىَّ أنتم ؟ فقالوا : نعم . فقال لهم : إنى نَذيرٌ لكم بين يدى عذابٍ شديد ؛ ثم أنذرهم عموماً وخصوصاً ، فقال له أبو لهب : تبًّا لك ! ألِهَذا جمعتنا ؛ فأنزل الله تعالى[5] : « تَبَّتْ يَدَا أبى لهب » .

(فَلْيَرْتَقُوا فى الأسْباب[6]) : هذا تعجيز لهم وتهكّم بهم . ومعنى يرتقوا

---

(١) الصافات : ١٧٩ (٢) الآية الأولى : وأبصرهم فسوف يبصرون : آية ١٧٥ والثانية : وأبصر فسوف يبصرون ، وهى هذه الآية . (٣) الصافات : ١٧٧

(٤) يريد قوله : ساء صباح ... (٥) اللهب : ١ (٦) ص : ١٠

يصعدوا ، والأسباب هنا السلالم والطرق وشِبْه ذلك مما يُوصل به إلى العلو . وقيل: هي أسباب السماء . والمعنى إن كان لهم مُلك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدَبِّرُوا الملك .

(فَوَاق[1]) : فيه ثلاثة أقوال : أحدها — رجوع ؛ أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا ، وهو على هذا مشتق من الإفاقة . الثاني — ترداد ، أي هي واحدة لا ثاني لها . الثالث — ما لها من تأخير ولا توقّف مقـــدار فُوَاق ناقة ، وهو ما بين حَلْبتيها ؛ وهذا القول إنما يجرى على قراءة فواق بالضم ؛ لأن فُواق[2] بالضم ، كذا في الحديث ؛ والقولان الأول على الفتح ، والثاني على الضم .

(فَصْلَ الخِطَاب[3]) : هو فصل القضاء بين الناس بالحق عند ابن عباس ، وعند على بن أبي طالب ـ هو إيجاب اليمين عليه والبَيِّنة على المدَّعِي . وقيل كلمة أما بعد ، فإنه أول مَنْ قالها . وقال الزمخشري[4] : معنى فصل الخطاب : البَيِّن من الكلام الذى يفهمه من يخاطب به ؛ وهذا هو الذى اختاره ابن عطية ، وجعله من قوله[5] : « إنه لقول فَصْلٌ » .

(فاعْبُدُوا ما شِئْتُم مِنْ دونه[6]) : هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتَّخْلِية لهم على ما هم عليه .

(فسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرض[7]) ؛ أي أدخل المطر وأجراه . والينابيع : جمع ينبوع ، وهو العين ؛ وفي الآية دليل على أنّ ماء المطر هو المُخْرِج للعيون .

---

(١) ص : ١٥ (٢) في القاموس : ويفتح . (٣) ص : ٢٠
(٤) الكشاف : ٢ـ ٢٧٩ (٥) الطارق : ١٣ (٦) الزمر : ١٥
(٧) الزمر : ٢١

(فرَّطتُ فى جَنْبِ اللهِ[١]) ؛ أى فى حق الله . وقيل فى أمره ؛ وأصله من الجنب ، بمعنى الجانب ، ثم استُعِير لهذا المعنى . ومعناه اتقوا يوماً تقول فيه كلُّ نفس : يا حسرتى على ما فرطت فى جَنْبِ الله وإنْ كنتُ لمن الساخرين ؛ ندامةً على استهزائه بأمر الله تعالى .

فإن قلت : لم نكرت النفس[٢] ؟

فالجواب أن المراد بها بعضُ الأنفس ، وهى نفس الكافر ؛ ويجوز أن يُراد نفس[٣] متميِّزة من الأنفس إمّا بلجاج فى الكفر شديد أو بعذاب عظيم ؛ ويجوز أن تكون للتكثير ؛ قال قتادة : لم يكفه أنْ ضَيَّعَ طاعةَ الله حتى سخر من امتثالها .

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل عالم ترك عِلْمه وفسق ـ أتاه إبليس ، فقال له: تمتَّع من الدنيا ثم تُبْ . فأطاعه ، وكان له مال ، فأنفقه فى الفجور ، فأتاه ملك الموت فى ألَذّ ما كان ؛ فقال : يا حسرتى على ما فرَّطتُ فى جنب الله ؛ ذهب عُمْرى فى طاعة الشيطان ، وأسخطت الملك الدَّيان ، فندم حين لم ينفعه الندم ، فأنزل الله خبره فى القرآن .

فليتأمل العاقِلُ هذا الوعيد الهائل ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ، على طَمْس قلوبنا ، وغَفْلتنا عما يُراد بنا . صدق الله العظيم فى قوله فى بعض كتبه : "يا علماء السوء ، قد وعظتكم وأنذرتكم ، ومِنْ فعل القبيح حذَّرْتُكم ، وكثير من الآيات أريتكم فلم تنتفعوا بالمواعظ والآيات ، وما تُغْنِى الآيات والنـــذر عن قوم لا يؤمنون ، تطيعون أنفسكم فيما [٢٣٧ ب] تشتهون وهى تعصيكم فيما تأمرون ،

---

(١) الزمر : ٥٦ (٢) فى الآية نفسها : أن تقول نفس يا حسرتى على ما . . .

(٣) والكشاف : ٢ ـ ٣٠٢

بئس العبيد أنتم إذا علمتم أنكم لا تنالون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تبلغون ما تأملون إلا بصبركم على ما تكرهون ؛ تريدون مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بأي عمل عملتموه ؟ بأي غَيْظ كظمتموه ؟ بأي رحم وصلتموه ؟ بأي قريب باعدتموه ؟ بأيّ بعيد قرّبتموه ؟ وبأي زلة لإخوانكم عَفَوْتم عنها ؟ بأي شهوة تركتموها ؟ هل أنتم إلا كالحمقى ؟ أما علمتم أنّ مَنْ كثر شبعه كثر لحمه ، ومن كثر لحمه كثرت شهوته ، ومن كثرت شهوته كثرت ذُنوبُه ، ومَن كثرت ذنوبه قَسا قلبه ، ومَنْ قسا قلبه غرق في الآفات ؟ أما علمتم أن المسيء ميت وإن كان في منازل الأحياء ، والمحسن حيّ وإن انتقل إلى منازل الأموات ؟

(فَوْج[1]) : مفرد أفواج ، وهي الجماعة من الناس .

(فَطَرَني[2]) : أي خلقه ابتداء ؛ ومنه فاطر السموات والأرض ، وفِطْرَة الله التي فطر الناس عليها . وأفطر بالألف من الإطعام .

(فعليه كَذِبُه[3]) : هذا من قول موسى إلى فرعون ، يعني إن كان موسى كاذباً في دعوى الرسالة فلا يضرّكم كذبُه ، فلأي شيء تقتلونه ؟

فإن قلت : كيف قال : وإن يك كاذبا ـ بعد إيمانه به ؟

فالجواب أنه لم يقُلْ ذلك على وجه التكذيب ؛ وإنما قاله على وجه زعمكم أنه كاذب ، وقصد بذلك المحاجّة عليهم . وفيه احتجاجٌ عليهم ، كأنه قال : قدّرْنا كذِبَه ، ماذا عليكم من كذبه ، هَبْه رجلا منكم كذب عليكم ، فأقام عليهم الحجة على تقدير الكذب والصدق .

---

(١) ص : ٥٩ (٢) يس : ٢٢ (٣) غافر : ٢٨

(فأطلِعَ[١]) : بالرفع عطف على « أبلغُ[٢] » ، وبالنصب على إضمار « أنْ » في جواب لعلّ ، لأن الترجي غير واجب ، فهو كالتمنى فى انتصاب جوابه ، ولا نقول إن لعل أشربت معنى ليت ، كما قاله بعض النحاة .

وهذا من قول فرعون لما أمر هامان ببنيان الصرح الذى رام أن يصعد به إلى السماء ، وانظر ضَعْف عقولهما وعقول قومهما بجهلهم بالله فى كونهم طمعوا أنْ يصِلُوا إلى السماء ببُنْيان الصرح .

وقد روى أنه أول من عملنا الآجر ، وصعد على الصرح بعد بنيانه ، ورَمى بسهم إلى السماء ، فرجع السهم مخضوباً بالدم ؛ وذلك فتنة له ولقومه ، وتهكم به .

(فقال لها وللأرضِ ائْتِيَا طوعاً أو كَرْهاً[٣]) ، ضمير التأنيث[٤] يعود على السموات ، وقوله : ائتيا مجاز ، وهو عبارة عن تكوين طاعتهما ، وكذلك قولهما : أتَيْنَا طائعين ، عبارة على أنهما لم يمتنعا عليه حين أراد تكوينهما . وقيل : بل ذلك كلام حقيقة ، أنطق الله السموات والأرض بالطوع ، ولهذا جمعهما جمع العقلاء لفعلهما فعلهم[٥] . وقول الله لهما عبارة عن لزوم طاعتهما كما يقول الملك لمن تحت يده : افعل كذا ، شئْتَ أو أبَيْتَ ، أى لا بدّ لك من فعله . وقيل تقديره : أتيتما طوعا وإلا أتيتما كَرْهاً . وقيل : إن المجيب له من الأرض موضع الكعبة ، ومن السموات البيت المعمور ، فلذا أكرمهما الله بالطواف بهما .

فإن قلت : هلّا قال طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى ، لأنها سموات وأرضون ؟

---

(١) غافر : ٣٧ (٢) فى الآية قبلها : لعلى أبلغ الأسباب . (٣) فصلت : ١١
(٤) أى فى « لها » . (٥) أى فعل العقلاء .

فالجواب لما جُعِلن مُجيبات ومخاطبات ووُصِفن بالطوع والكره قال: طائعين فى موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين ـ تغليبا.

فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما فى الأمر بالإتيان، والأرضُ مخلوقة قبل السماء بيومين؟

فالجواب قد خلق جرم الأرض أولا غير مَدْحُوَّة[١] كما قدمنا، فالمعنى إئتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوَصْف، إئتى يا أرض مدحوةً قراراً ومِهَاداً لأهلك، وائتى يا سماء مقببة سقفاً لهم، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع، وتنصره قراءةُ من قرأ وآتَيَا من المواتاة، وهى الموافقة، أى لِتُوَاتِ كلٌّ واحدة أختها ولتوافقها، قالتا: وافقنا وساعدنا.

(فَتَنَّا سُلَيْمان[٢]): قد قدمنا أنه لما نظر إلى مُلْكه، واستعظمه، ابتلاه بأنْ ألقى على كُرْسيه جسداً، فقيل ولده الذى مات. وقيل: الصنم الذى اتخذته بنتُ ملك الروم التى أمرها سليمان ثم تزوجها، وهذه عادَتُه سبحانه مع أنبيائه وأحبابه؛ ولذلك أمر حبيبه بألّا يلتفت إلى غيره غيرةً منه عليه، ولما لم يلتفت إلى غيره قَرَّبَه منه، فكان كقابَ قَوْسين أو أدنى.

(فوَيْلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذِكْرِ الله[٣]): [١٢٣٨] الويل: وادٍ فى جهنم تستعيذ منه كلٌّ يوم سبعين مرة، وقد ذكره الله لثمانية عشر صنفاً: اليهود[٤]: «فوَيْلٌ لهم مما كتبت أيديهم». «[٥] ويل لكل أفاك أثيم». و «[٦] وَيْلٌ يومئذ للمكذبين». و «[٧] ويل للمطففين...»

(١) مدحوة: مبسوطة. (٢) ص: ٣٤ (٣) الزمر: ٢٢
(٤) البقرة: ٧٩ (٥) الجاثية: ٧ (٦) المرسلات: ١٥
(٧) المطففين: ١

الأيقين . و « (١) ويل لـكل هُمَزة لُمَزة » . « (٢) يا ويلنا إنا كنّا طاغين » . « (٣) فويل للمصَلّين » . « (٤) يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا » . « (٥) يقولون يا ويلتنا » . « (٦) ولكم الوَيْلُ مما تَصِفون » . « (٧) يا ويلتَى ليتنى » . « (٨) ووَيْل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة » . « (٩) وويل للكافرين من عذاب شديد » . « (١٠) فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » (١١)

ولا أظن أحداً فى هذا الزمان سلم من هؤلاء الأصناف ، وخصوصاً القاسية قلوبهم مِنْ ذكر الله ، قد اتصفنا بها أجمعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! وهذه حالة تقتضى ختم القلوب وتغذيها بالحرام الذى يبعد عن المربوب .

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ (١٢)) ؛ أى صنعهن ؛ وانتصابها على التمييز تفسيراً للضمير ؛ وأعاد عليها هنا ضمير الجماعة المؤنثة لأنها لا تعقل .

فإن قلت : قد قال أولا فى يومين ، وبعده فى أربعة أيام ، وهنا فى يومين ؛ وهذا يقتضى أنها ثمانية أيام ؟

والجواب لما ذكر أنّ الأرضَ خُلِقَتْ فى يومين عُلِم أن ما فيها خلق فى يومين ، فبقيت المخايرة بين أن يقول فى يومين ، وأن يقول فى أربعة أيام ؛ فتلك أربعة أيام ؛ ثم خلق السموات فى يومين ؛ فتلك ستة أيام حسبما ذُكر فى مواضع كثيرة من القرآن ؛ ولو كانت هذه الأربعة الأيام زائدة على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملةُ ثمانية أيام ، بخلاف ما ذكر فى مواضع كثيرة.

---

(١) الهمزة : ١ (٢) القلم : ٣١ (٣) الماعون : ٤
(٤) الأنبياء : ٩٧ (٥) الكهف : ٤٩ (٦) الأنبياء : ١٨
(٧) الفرقان : ٢٨ (٨) فصلت : ٦ ، ٧ (٩) إبراهيم : ٢
(١٠) الزخرف : ٦٥ (١١) سرد المؤلف خمسة عشر صنفاً ، ولم يكمل العدد الذى سبق أن قاله إنه ثمانية عشر صنفاً .
(١٢) فصلت : ١٢

قال بعض العلماء : إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى يوم الأحد ؛ فمن أراد البناء فليبن فيه ؛ وخلق الشمس والقمر فى يوم الاثنين وصفتهما السير ؛ فليسافر فيه ؛ وخلق الحيوان يوم الثلاثاء ، وأباح ذَبْحها وإراقةَ دمها ؛ فمن أراد الحجامة فيه فليحتجم فيه ؛ وخلق البحار والأنهار يوم الأربعاء وأباح شربها ، فمن أراد شرب الدواء فليشرب فيه ، وخلق الجنة والنار يوم الخميس وجعل الناس محتاجين إلى دخول الجنة والنجاة من النار ؛ فمن أراد قضاءَ الحوائج فليسأل فيه وخلق آدم وحواء يوم الجمعة وزوجهما فيه ، فمن أراد عقد التزويج فليتزوج فيه ؛ أخذه من قول الإمام على رضى الله عنه[1] :

لنعم السبت يوم السبت حقا ... لصيدٍ إن أردتَ بلا امتراءِ
وفى الأحد البناء ، لأن فيه ... ابتدأ اللهُ خَلْقَ السماء
وفى الاثنين أسفار وربح ... وأمنٌ فى الطريق وفى العطاء
وإنْ تُرد الحجامة فالثلاثا ... ففى ساعتها هرق الدماء
وإنْ شرب امرؤ يوماً دواء ... فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفى يوم الخميس قضا حوائج ... وفيه الله يأذن بالقضاء
ويوم الجمعة التزويج فيه ... ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لا يحويه إلا ... نبىٌّ أوْ وَصِىُّ الأنبياء

فإن قلت : كيف ذكر الأيام التى خلق الله فيها المخلوقات ، وإنما تعتبر بوجود الشمس ؟

والجواب إنه يحتمل أن يحملها على التقدير ، وإن لم تكن الشمس خُلقت بعد ، وكان تفصيل الوقت أنها الأحد ويوم الاثنين ، كما ذكر فخلق

---

(١) بعض هذه الأبيات فى حاجة إلى تحرير .

الأرض غير مَدْحُوَّة[1] ، ثم خلق السموات فسواهنّ في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسيَ وغيرها في يومين ، فتلك أربعة أيام للأرض، وهذا معنى قوله تعالى[2] : « والأرض بَعْدَ ذلكَ دَحَاها » ، كلُّ ذلك تعليما لعباده ، وإشارة لهم في التأني في الأمور ، لأنه كان سبحانه قادراً على قوله لها : كُنْ ، فكانت .

وفي الحديث أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الأحد ، فقال : يوم غَرْس وعمارة ، قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأن فيها ابتدأ الله خلق الدنيا وعمارتها .

فإن قلت : بم علق قوله : للسائلين[3] ؟

قلت : بمحذوف، كأنه قال: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خُلقت الأرض وما فيها ؟ أو يقدر فيها الأقوات لأجل الطالبين إليها من المقتاتين . وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على طريقة الزجاج .

(فَرِحُوا بما عندهم من العلم...[4]) الآية : الضمير يعود على الأمم المذكورة الذين جاءتهم رسلهم بالبينات .

فإن قلت: أي علم عندهم حتى يَفْرَحوا به ؟

فالجواب أنهم [٢٣٨ ب] كانوا يفرحون بما عندهم من العلم في ظنهم ومُعْتقدهم من أنهم لا يُبعثون ولا يحاسبون ، واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعاش، وظنّوا أنه يَنْفَعهم . وهذا كقول بعضهم[5]: « وما أظُنّ الساعة قائمة... » الآية .

---

(١) مدحوة : مبسوطة . (٢) النازعات : ٣٠ (٣) فصلت (١٠) : وجعل فيها رواسي . . سواء للسائلين . (٤) غافر : ٨٣ (٥) الكهف : ٣٦

وقيل : أراد علم الفلاسفة والدهريّين ، من بنى يونان ؛ وكانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم ؛ وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام فقيل له : لو هاجرْتَ إليه . فقال : نحن قوم مهذّبون ؛ فلا حاجةَ بنا إلى من يُهذّبنا .

وقيل : فرحوا بما عند الرسل من العلم فَرَحَ ضَحِكٍ منه واستهزاء به ، كأنه قال : استهزءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوَحْى . ويدل عليه قوله[1] : « وحاق بهم ما كانُوا به يَسْتَهْزِئون » ؛ جزاء جهلهم واستهزائهم . وقيل : الضمير عائد على الأنبياء ؛ وفى هذا التأويل حذفٌ ؛ وتقديره : فلمّا جاءتهم رسلُهم بالبينات كذّبوهم ، فرح الرسل بما عندهم من العلم والثقة به ، وبأنه سينصرهم .

و « حاق » معناه نزل بهم وثبت ؛ وهى مستعملة فى الشر . و « ما » فى قوله : «ما كانوا» هو العذاب الذى كانوا يكذّبون به ويستهزئون بأمره . والضمير فى بهم عائد على الكفار بلا خلاف .

فإن قلت : ما معنى ترادف هذه الفاءات فى هذه الآيات ؟

قلت : أما قوله[2] : «فما أغْنَى عنهم ما كانوا يكسبون» . فهو نتيجة قوله : «كانوا[2] أكثر منهم» . وأما قوله[3] : «فلما جاءتهم رسلُهم بالبينات فرحوا» ، فجارٍ مَجْرَى البيان والتفسير لقوله تعالى[2] : « فما أغنَى عنهم » ؛ كقولك : رُزِق زيد المال فمنع المعروف ، فلم يُحسن إلى الفقراء . وأما قوله[4] : « فلما رَأَوْا

---

(١) الزمر : ٤٨ (٢) غافر : ٨٢ (٣) غافر : ٨٣

(٤) غافر : ٨٤

بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا » فكذلك(١) : « فلم يك ينفعهم إيمانهم » تابع لإيمانهم لما رأوا بَأْس الله.

فحقّ لمن سمع هذه الموعظة أنْ يبادر إلى الطاعة ، ولا يتأنّى . بلى ، والله ، وقعت مِنا المخالفة وقتلْنَا أنفسنا بالمعاصي بئس ما اخترنا ! كم وعظنا المشيب ولا قبلنا ، علمنا أنّ الدنيا ثلاثة أنفاس : نَفَس مضى عملنا فيه ما عملنا ، و نَفَس لا ندرى أعلكه أم لا ؟ فليس لنا إلا النفس الذى نحن فيه حرصنا على درهم لا ندرى لمن يبقَى ، ومزقنا ثوب المعاصي ولم نسكفه بتوبة ؛ فما أسرع الملتقى ! أليس هذا من السعى ؛ إذا شغلنا بالجنة خسرنا فكيف يكون حالنا وقد شغلتنا المعاصى عن الإقبال عليه ! بئس ما استنفدنا زمانَ الصبا فى المعاصى واللهو ، ولم نفته فى الكبر عن لَهْونا ؛ ولو تُبْنَا لحقّ لنا البكاء ، فكيف وقد انهمكنا ! إذا تاب الشيخ يقول الله عز وجل : الآنَ جئتنا حين ضَعُفَتْ مفاصلك . الآن وقد ذهبت قُوّتك . الآن وقد نفد عمرك . الآن وقد قسا بالمعاصي قَلْبُك . الآن وقد ضاع فى البطالة وقتُك . هذا لمن تاب ؛ فكيف حال مَنْ هو فى قفص الطبع محجوب عن العتاب ؛ نعقد عقدة التوبة بخيط العنكبوت ظاهراً وباطناً ، نتلذّذ بها ، فكيف لا نحلها ؟ لو صدقت التوبةُ منا لوجدنا مرارتها ، كما وجدنا حلاوتها ؛ إلهى التوبة لا تدوم لى ، والمعصيةُ لا تنصرف عنى ، ولا أدرى بِمَ تختم لى ، غير أنّ عفـــوك ورجاءك أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك ؛ فهب لى منك توبةً باقية ، واصرف أزمة الشهوات عنى ، وحقّقنى بحقيقة الإيمان ، وأعنّى على نفسى والهوى والشيطان ، بحرمة سيدنا ونبينا ومولانا سيد الثقلين صلى الله عليه وعلى آله ما اختلف الملوان .

---

(١) غافر : ٨٥

(فإن أعرَضوا[1]) : الضمير لقريش ، أى أعرضوا عنك يا محمد فسآخذهم أخذةً شديدة ، مثل أخذ عادٍ وثمود ، وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالا وأولاداً ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

(فإنّا بما أُرْسِلتُم به كافرون[2]) : ليس فيه اعتبار الكفار بالرسالة ، وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودَعْوَتكم ؛ وفيه تهكم .

(فالَّذِينَ عِنْد ربِّك[3]) : يعنى الملائكة . ووصفهم بالعندية للتشريف والتكريم ؛ إذ يستحيل فى حقه جلّ وعلا التجسيم ، الجسم أعمى والمعال أكه .

(فحُكْمُهُ إلى اللهِ[4]) : الضمير فى المختلف فيه ، يعنى ما اختلفتم أنتم والكفّار مِنْ أمر الدين الحُكْمُ فيه إلى الله بأنْ يعاقب المبطل ويُثيب المحق ، أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكَمُوا فيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا كقوله[5] : « فرُدُّوه إلى الله والرسول » .

(فإمّا نَذْهَبَنَّ بكَ فإنَّا منهم مُنْتَقِمُون[6]) : يحتمل أن يريد بهذا [٢٣٩ ا] الانتقام قَتْلَهم يوم بَدْر ، وفَتْح مكّة ، وشبه ذلك من الانتقام فى الدنيا ، أو يريد به عذابَ الآخرة . وقيل : إن الضمير فى منهم منتقمون للمسلمين ، وإن معنى ذلك أن اللهَ قضى أن ينتقم منهم بالفِتَن والشدائد ، وأنه أكرم نبيّه صلى الله عليه وسلم بموته قبل رؤيته الانتقام منهم .

والصحيح أنّ مقصد الآية وَعِيدُ الكفار ، يعنى إن عجّلْنا وفاتَك قبلَ الانتقام منهم فيقع الانتقامُ منهم بعده ، وإن أخّرْنا وفاتَك إلى حين الانتقام منهم فإنّا عليهم مقتدرون .

---

(١) فصلت : ١٣ (٢) فصلت : ١٤ (٣) فصلت : ٣٨
(٤) الشورى : ١٠ (٥) النساء : ٥٩ (٦) الزخرف : ٤١

ثم شهد له بأنه على صِرَاطٍ مستقيم ، وكيف لا يكون على الصراط المستقيم وقد كان يَقُمّ[١] البيتَ ، ويحلب الشاة ، ويعلف الناضح[٢] ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، وينام على الحصير ، ولا ينام على الوَثِير ، ويسلِّمُ مبتدراً[٣] على مَنْ أتى من صغير أو كبير ، ويأخذ بيد الخادم ويَطْحَن معها إذا عيَّت ، حتى قال الحق فيه : وإنك لعلى خُلُق عظيم ، وأنزل عليه الكتابَ الحكيم ، وشرح صَدْرَه ، ويسَّر أمره ، وأعْلَى في العالمين ذِكْرَه ، وأمر بالاستمساك بما أوْحى إليه، ليَقْتَدِي به مَنْ بعده ؛ فهو أحمد ، وأُمّته الحامدون ، ومستغفرٌ وأُمّتُه التوّابون ؛ خصه الله وأُمته بخصائص لم يعطها مَن تقدم في الدنيا ولا في الآخرة : في الدنيا يطول ذكرها ، وفي الآخرة لا يُقدر قَدرها ، كالحوض ، والكوثر ، واللواء الذي عَرْضُهُ مابين المَشْرِق والمَغْرب مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ تقدمته آدم ونوح ، وخلفه إبراهيم وموسى ، وعن يمينه جبريل وميكائيل ، وعن يساره إسرافيل وعزرائيل ، وساقته أصحابه وأُمته ، رافعاً صوته : يا ربِّ ، أمتي أمتي ، وقد وعدتني الشفاعةَ فيهم ، وهم عبيدُك ؛ فاغفر لهم ما جَنَوْا ، ولا تؤاخذهم بما عصَوا ؛ يا أكرم الخَلْق ، يا رسول الله ، عبدك المصنف قد وحل في شَرَك المعاصي ، ولم يجد مُنْقِذاً يُنْقِذه منه غيرَ جاهك العظيم ، فلا تخيِّبه منه ، وخُذْ بيده ، ولا تعامِلْهُ بما جفاك به ، حاشا لفضلك أنْ تخيب راجياً ؛ الخير أكبر ، والمواهب أوسع !

(فأنا أوّلُ العابدين[٤]) : هذه الآية ردٌّ على الكفار ، واحتجاجٌ عليهم؛ لأنهم كانوا يقولون : إنَّ له ولداً ؛ ومعناها : لو كان للرحمن ولد كما يقول

---

(١) يقم البيت : يكنسه . (٢) النواضح : الإبل التي يستق عليها واحدها ناضح .
(٣) مبتدراً : مبتدئاً . (٤) الزخرف : ٨١

الكفار لكنتُ أنا أول من يعبد ذلك الولد ، كما يعظِّمُ خدامُ الملك ولدَ الملك لتعظيم أبيه ؛ ولكن ليس للرحمن ولد ؛ وما ينبغى له أن يتخذ ولداً ، فلا تعبد غيره .

وهذا نوعٌ من الأدلة يسمّى دليلَ التلازم ، لأنه علَّقَ عبادةَ الولد بوجوده، ووجودُه محال ، فعبادته محال . ونظير هذا أن يقول المالكى ـ إذا قصد الرد على الحنفى فى تحليل النبيذ : إن كان النبيذُ غيرَ مُسْكِرٍ فهو حلالٌ ، لكنه مسكر فهو حرام .

قال الطبرى: هو ملاطفةٌ فى الخطاب ؛ ونحوه قوله تعالى[١]: «وإنَّا أو إيَّاكم لعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين » . قال ابن عطية : ونحوه قوله تعالى فى مخاطبة الكفار[٢] : « أين شركائى » ـ يعنى فى زعمكم . وقد تكلم الزمخشرى هنا بزعمه الفاسد بما لا يليق ذِكْرُه للمبتدىء ، وأما المنتهى فيعلم فسادَ مذهبه ؛ ورضى الله عن ابن خليل السكونى فى ردِّه عليه للتحرز منه ، عامله الله بلطفه .

(فاصْبِرْ كما صبرَ أولو العَزْم مِنَ الرُّسل[٣]) : قد قدمنا أن الله ذكرهم فى قوله[٤]: «وإذا أخذْنَا من النبيين ميثاقَهم ومنك» ـ فى هذا التقديم[٥] إشعارٌ بفَضْلِه صلى الله عليه وسلم على مَنْ سواه .

وقيل : أولو العزم الثمانية عشر المذكورون فى الأنعام ؛ لقوله تعالى[٦] : « فبهُدَاهُمْ اقْتَدِه » . وقيل : كلُّ من لقى من أمته شدة . وقيل : الرسل كلهم أولى عَزْم ؛ فمن الرسل على هذا لبيان الجنس ، وعلى الأقوال المتقدمة التبعيض .

---

(١) سبأ : ٢٤ (٢) القصص : ٦٢ ، ٧٤ (٣) الأحقاف : ٣٥
(٤) الأحزاب : ٧ (٥) فى قوله : ومنك ... (٦) الأنعام : ٩٠

(فضَرْبَ الرِّقَابِ[1]) : أصله : فاضربوا ضَرْباً ، ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه . والمراد قتلهم ، ولكن عَبَّر عنه بضرب الرقاب ؛ لأنه الغالبُ في صفة القتل .

([1] فشدُّوا الوَثَاقَ فإمّا مَنّاً بَعْدُ وإمّا فِدَاءً ، حتى تضعَ الحَرْبُ أوْزارَها): قد قدمنا في حرف التاء اختلاف الأوزار ، ومتى يكون ذلك ؛ وانتصب المَنّ والفِدَاء على المصدرية ، والعامل فيهما فعلان مضمران . ومعنى المَنّ العتق . والفداء : فك الأسير بمالٍ . وأمر الله في هذه الآية بوثق الأسير حتى يفدى أو يُمَنّ عليه ؛ والإمامُ مُخَيَّر في ذلك أو القتل ، والاسترقاق ، وضَرْب الجزية .

وقيل : لا يجوز المن ولا الفداء ؛ لأن الآية منسوخة بقوله[2] : « فاقتُلوا المشركين [٢٣٩ ب] حيثُ وجدتموهم » . فلا يجوز على هذا إلا قتلهم. والصحيح أنها محكمة .

(فقد جاءَ أشْرَاطُها[3]) : يعني علامات الساعة ، والذي جاء من ذلك مبعثه صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله : أنا من أشراط الساعة ؛ وبُعثت أنا والساعة كهاتين .

وقد أخبرنا أنّ لها دلائل ؛ منها ظهور الفِتَن وكثرة المعاصي ، والحرص في الدنيا ، والتنافس عليها ، وتوسيد الأمر لغير أهله ؛ فحينئذ يظهر الدجال ، ويأجوج ومأجوج ؛ وطلوع الشمس من مغربها ، وتفصيل هذا كلّه يحتاج لطول نَفَس ، لكنّهم اختلفوا في أول الآيات ظهوراً ؛ وذلك يتوقف على صحة نَقْلٍ ؛ وظهور المهدي والدجال بَعْده ، وعيسى بعده ، ويعلم الله ما بعد ذلك .

---

(١) محمد : ٤ (٢) التوبة : ٥ (٣) محمد : ١٨

والصحيح أنها كالخرز إذا ظهرت واحدةٌ تبعتها أختها .

(فأَوْلَى لهم[١]) : في معناه قولان :

أحدها أنه بمعنى أحق ، وخَبَره على هذا طاعةٌ . والمعنى أن القول المعروف والطاعة أولى لهم وأحق .

والآخر أنّ أولى لهم كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم ؛ كقولك : وَيْل لهم . ومنه قوله أَوْلَى لك فأَوْلى ، فيوقف على أولى لهم على هذا القول، ويكون طاعةٌ ابتداء كلام ؛ تقديره طاعةٌ وقول معروف أمثل ، والمطلوب منهم طاعة وقول معروف ، أو قولهم لك يا محمد : طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم .

(فإذا عَزَم الأمر فلو صدَقُوا اللهَ لكانَ خَيْرًا لهم. فهل عسيْتُم[٢]) : أسند «الأمْرَ» إلى العزم مجازاً ، كقولك : نهارُه صائم ، وليلُه قائم . ويحتمل أن يريد صِدْقَ اللسان ، أو صِدْق العزم والنية ، وهو أظهر .

وانظر كيف خرج من الغَيْبَة إلى الخطاب بقوله : « عسَيْتُم » ، ليكون أبلغ في التوبيخ .

والمعنى : هل يُتَوَقَّع منكم الإفساد في الأرض ، وقَطْعُ الأرحام ، إنْ تولّيتم . ومعنى توليتم : صرتم وُلاةً على الناس ، وصار الأمْرُ لكم ، وعلى هذا قيل : إنها نزلت في بني أمية . وقيل معناه : أعرضتم عن الإسلام .

(فكيف إذا توَفَّتْهُم الملائكة[٣]) : ضمير الفاعل للملائكة . وقيل : إنه للكفار ، أي يضربون وجوهَ أنفسهم ، وذلك ضعيف .

---

(١) محمد : ٢٠ (٢) محمد : ٢١ ، ٢٢ (٣) محمد : ٢٧

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم[1]) : هذا قَطْعٌ بأن مَنْ مات على الكفر لا يَغْفِرُ الله له . وقد أجمع المسلمون على ذلك .

(فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأَعْلَوْن واللهُ معكم[2]) : معناها لا تَضْعُفُوا عن مقاتلة الكفار ، وتبدءونهم بطلب الصلح ، فهو كقوله[3] : « وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها » .

(فَيُحْفِكُم[4]) ، أى يلح عليكم . والإحفاء : هو أشدُّ السؤال . و « تبخلوا » جوابُ الشرط .

(فسيقولون : بَلْ تَحْسُدُونَنا[5]) : الضمير يعود على المنافقين . معناه أنهم يقولون : يعز عليكم مالا وغنية ، و « بل » هنا للاضراب عن الكلام المتقدم، وهو قوله[6]: «لن تَتَّبِعُونا كَذَلِكُمْ قال الله من قبل» ، فمناها رد أن يكون اللهُ حكم ألّا يتبعوهم .

وأما « بل » فى قوله تعالى[6] : « بل كانوا لا يَفْقَهُون إلّا قليلا » — فهى إضراب عن وصف المؤمنين بالحسد ، وإثباتٌ لوصف المُخَلَّفين بالجهل .

(فعَلِم ما فى قلوبهم[7]) : يعنى مِنْ صـــــدق الإيمان ، وصِدْق العزم على ما بايَعُوا عليه . وقيل : مِنْ كراهة البَيْعَة على الموت ، وهذا باطل ، لأنه ذمٌّ للصحابة .

(فعجّل لكم هذه[8]) : يعنى فَتْح خَيْبَر . وقيل: إن المغانم التى وعدهم بها مغانمُ خَيْبَر ، والإشارة بـ « هذه » إلى صُلْح الحديبية .

---

(١) محمد : ٣٤ (٢) محمد : ٣٥ (٣) الأنفال : ٦١

(٤) محمد : ٣٧ (٥) الفتح : ١٥ (٦) فى الآية نفسها .

(٧) الفتح : ١٨ (٨) الفتح : ٢٠

(فآزره[1]) : أي قوّاه ، وهو من المؤازرة بمعنى المعونة . ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع والمفعول شطأه ، أو بالعكس ، لأن كلّ واحد منهما يقوّى الآخر . وقيل معناه ساواه طولا ، فالفاعل على هذا الشطء ، ووزن آزره أفعله . وقيل فاعله . وقرىء بقصر الهمزة على وزن فعله .

(فاستغلظ[1]) ، أي صار غليظا .

(فاستوى على سُوقِه[1]) : جمع ساق ، أي قام الزرع على سوقه . وقيل كزرع النبيّ صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه بأبي بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سُوقه بعلي بن أبي طالب .

(فقال الكافرون[2]) : أي من قريش ، ووضع الظاهر موضع المضمر لقصد ذمّهم بالكفر ، وأنهما كهم في النبيّ ، كما قال تعالى[3] : « أولئك هم الكافرون حقًّا » ، وهل ترى كفرا أعظم من تكذيب مَنْ صدقه الله بوحيه ويتعجبوا من إنذاره لهم مع علمهم بصدقه وأمانته .

فإن قلت : عطفه هنا بالفاء بخلاف سورة ص[4] بالواو يدلُّ على أنها قضيتين .

والجواب أنّ آية ص إنما وردتْ مورد الإخبار بمرتكبات [١٢٤٠] من أفعال العرب وأقوالهم فجيء بتلك الجمل منسوقا بعضها ببعض ، وأخبر تعالى أنهم في عزّة وشقاق ، وأنهم عجبوا أنْ جاءهم منذر منهم ، ولم يكن من الملائكة ، وأنهم رموه بالسحر والكذب ، وأنهم تعجبوا من جعله الآلهة إلهاً واحداً ، وأنهم تمالئوا على قولهم[5] : « امشُوا واصبِرُوا على آلهتكم » ، فلما قصد هنا

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) ق : ٢ (٣) النساء : ١٥١
(٤) ص : ٤ — وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . . (٥) ص : ٦

الإخبار بجملة من مُرتكباتهم جاءت منسوقاً بعضُها على بعض بالواو التي لا تقتضي ترتيباً ولا تسبباً .

وأما آية « ق » فمقصودٌ بها التعريفُ ، فتعجبهم من البعث الأُخروي واستبعادُهم إياه ، ولم يقصد هنا غير هذا ، قصده ، فربطه بالفاء ، أي عجبوا من البعث بعد الموت ، فقالوا : كذا ، فجيء لكل بما يحرزه .

(فالحامِلات وِقْراً[١]) ، هي السحاب يحمل المطر . والوِقْرِ : الحمل ، وهو مفعول به .

(فالجارِيات يُسْراً[٢]) : هي السفن تجري في البحر ، وإعرابُ « يسراً » صفة لمصدر محذوف ، ومعناه بسهولة .

(فالمُقَسِّمَاتِ أَمْراً[٣]) ، هي الملائكة تُقَسِّم أمورَ الملكوت من الأرزاق والآجال وغير ذلك . و « أمراً » مفعول به .

وقيل: إن الحاملات وِقْراً : السفن . وقيل: جميع الحيوانِ الحامل . وقيل: إن « الجاريات يُسْرًا » السحاب . وقيل : الجاري من الكواكب . والأول أشهر ، لأنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(فوربِّ السماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ[٤]) : هذا قسمٌ أقسم اللهُ باسمه ، كقوله[٥] : « فوربِّك لنسألنَّهم أجمعين » .

ولما ذكر الله في هذه الآية رِزْقَ عباده ، وأنه يوصله لهم ، أقسم لهم اطمئناناً لنفوسهم ، ويقسم اللهُ في كتابه إما لتفضيلة وإما لمنفعة . وأقسم بنفسه

---

(١) الذاريات : ٢ (٢) الذاريات : ٣ (٣) الذاريات : ٤
(٤) الذاريات : ٢٣ (٥) الحجر : ٩٢

كهذه الآيات ، وبفعله مثل : والسماء وما بناها ... الآيات ، وما ضاهاها ، من أفعاله ، كقوله تعالى : والنجم إذا هوى . والطور . والتين . والليل .

فإن قلت : إن كان القسم لأجل المؤمن فإنه يصدقه بغير قسم ، وإن كان للكافر فإنه لا يصدقه ؛ فما فائدته ؟

والجواب أن قسمه تعالى لإكمال الحجة وتأكيدها ، والحاكم يقبل الحكم باثنين ، إمّا بالشهادة وإمّا بالقسم ، فذكر اللهُ القسم فى كتابه كى لا تبقى لهم حجة على الله ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على هذه العقول الخسيسة ، اختارنا من بين جامد[1] ونامٍ ، وناطق وصامت ، وذلك أنه اختار النامى[1] من الجامد لما كان فيه من الخضرة والزهرة والطيب والمنفعة ، ثم اختار الحيوان من النامى[1] لما فيه من الحركة والقوّة والتصرف والزينة ، ثم اختار الناطق من الحيوان لما فيه من الفصاحة والذلاقة والفطنة والبصيرة ، ثم اختار الممتحن من الناطق لما أفادهم من العلم والحجة والدعوة والشريعة ، ثم اختار المؤمن من الممتحن لما آتاه الله من المعرفة والهداية والتوحيد والشهادة ، ثم اختار المحب بالثناء والبشارة والمحبة ، قال تعالى[2] : « التائبون العابدون الحامدون » . «[3] يحبهم ويحبونه » . واصطفاك يا محمدى لوحيه ، قال تعالى[4]: « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » . فأنت مختار المختار ، ووعدك برزقه كى تتفرغ لخدمته ، وضمنه لك فلم تثق بضمانه حتى أقسم لك به ، فأعرضت عن هذا كله ، واشتغلت بالمعاصى والفجور عن طاعته ، أما علمت أنّ زلّة الوزير ليست كزلّة العامة ، يعصى الوزير فتضرب رقبته ، ويعصى أحدُ العامة فلا يُلتفت إليه ، أليس من الغبن العظيم والرزء الجسيم ـ أنك تثق بمخلوق مثلك ، يقول لك : غذاؤك اليوم والعشاء علىّ

(١) هكذا بالأصلين ولم أتبينها . وقد تكون محرفة من « نابت » .

(٢) التوبة : ١١٢ (٣) المائدة : ٥٤ (٤) فاطر : ٣٢

فلا تدبّر معه. وتثق بقوله ، ولا تثق بقول أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين !
وأعظم من هذا أنْ لو قاله لك يهودى أو نصرانى لوثقت بقوله ، ولم تثقْ بالملك
الذى خلقك وصوّرك ووعدك ، ورَضِى الله عن الإمام علىّ فى قوله :

أتطلُبُ رِزْق الله مِنْ عند غيره   وتصْبِح من خوف العواقب آمنًا
وترضى بطرف وإن كان مُشركا   ضَمِينا ولا ترْضى بربك ضامنًا

قال بعضهم : نبشت على أكثر من سبعين فوجدت وجوههم محوّلة
[٢٤٠ ب] عن القِبْلة ، وذلك اتهامهم ربّهم . اللهم ارحمنا إذا صِرْنا إليك .

(قالوا سَلَامًا[1]) ، نصب على أنه فى معنى الطلب ، وهو مفعول بفعل
مضمر . وموقع[2] الثانى مرفوع لأنه خبر تقديره : [عليكم][3] سلام ؛ وهذا
على أن يكون السلام بمعنى السلامة ؛ وإن كان بمعنى التحية فإنه رفع الثانى ليدلّ
على إثبات السلام ، فيكون قد حيّاهم بأكثر مما حيّوه ، وينتصب السلام الأول
على هذا على المصدرية ؛ تقديره سلمنا عليكم سلاما ، ويرتفع الثانى بالابتداء تقديره
سلام عليكم .

(فتَوَلّى بِرُكْنِه[4]) ؛ أى أعرض فرعون عن الإيمان ، واستمسك بقوته
وسلطانه ، وقال : موسى ساحر أو مجنون .

(فأخذَتْهُم الصاعقةُ وهم يَنْظُرون[5]) ؛ لأنها كانت بالنهار ؛ زيادةً
فى نكالهم ؛ إذ ليس المبيت صَبْرًا كالغِيلَة .

(ففِرُّوا إلى الله إنّى لكُمْ منه نَذِيرٌ مُبين[6]) : أمر الله فى هذه الآية

---

(١) الذاريات : ٢٥ (٢) فى الآية نفسها : قال سلام ...
(٣) مكانها بياض فى الأصول . والتكملة من القرطبى : ١٧ — ٤٥
(٤) الذاريات : ٣٩ (٥) الذاريات : ٤٤ (٦) الذاريات : ٥٠

بالإيمان به والدخول فى طاعته ، وعبّر عن الأمر بذلك بلفظ الفرار ، لينبّه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً أليماً حقّه أن يُفرّ عنه إن لم يُفر منه طوعاً يفر منه خوفا؛ ونحن لم نفر منه لا طوعا ولا خوفا ؛ ولو علمنا ما تحت هذه الكلمة من التحذير والاستدعاء لم يهدأ روعنا ؛ ألا تراه كرّره للإبلاغ وهزّ النفس للتشمير[1] ، وتحكيم التحذير ، وإعادة الألفاظ بعينها فى هذه المعانى بقرينة شدة الصوت ، لكن الجاهل ضعيف الاستخراج ؛ فيالها من مصيبة لو عقلها العاقلُ .

(فإنّ للذين ظلموا[2]) : هم كفار قريش وأصحابهم ممن تقدم من الكفار ، يعنى أن لهم نصيباً من العذاب .

(فالّذين كفروا هم المكيدون[3]) ؛ أى المغلوبون[4] فى الكيد . ويعنى مَنْ تقدم الكلام عليهم[5] وهم قريش ، فوضع الظاهر موضع المضمر .

(فبأىّ آلاءِ ربّكَ تتمارى[6]) : هذه مخاطبة الإنسان على الإطلاق ، يعنى بأى نِعَمِ ربك تشك ، وقد منّ عليك ، وجعل رحمَ أمّك سكنَك ، والأرضَ مِهادك ، والشمسَ سِراجك ، والإسلام خلقتك ، ومحمد نبيّك ، والكعبة قِبْلتك ، والجنة منزلك ، والنارَ سِجْن أعدائك ، والملائكة خدامك ، والشيطانَ حبالَ عِصْيانك ، والعقل والفهم والانتباه خصالَك ؛ فما لك أعرضتَ عنا وتركت الالتفات إلينا ! أهكذا معاملتك معنا ! بئس العبدُ ؛ لنعم الرب .

(فما تُغنِ النُّذُر[7]) : بمعنى الاستبعاد والإنكار .

(فتولّ عنهم[8]) : لعلمك أن الإنذار لا ينفعهم ، وأمره بالإعراض عنهم

---

(١) التشمير : الجد . (٢) الذاريات : ٥٩ (٣) الطور : ٤٢

(٤) والكشاف : ٢ ـ ٤١٤ (٥) فى ا : فوقها : فيهم . (٦) النجم : ٥٥

(٧) القمر : ٥ (٨) القمر : ٦

لمّا لم يقبلُوا كلامَه . وفيه إشارة إلى أن مَنْ لم يقبل الإنذارَ يُعرض الله عنه ، وإذا أعرض عنك أيها الأخ كيف يكون حالك ؟

(فكذبوا عَبْدَنا[1]) : يعنى محمداً عبدنا ؛ فما أشرفها من إضافة لأنه قرنه بنون العظمة .

(فكيف كان عذابى ونُذُر[2]) : توقيف فيه تذكيرٌ لقريش ، والنُذُر : جمع نذير .

(فتعاطى فعَقَر[3]) ؛ أى اجترأ على أمرٍ عظيم ، وهو عَقْرُ الناقة ، وقيل : تعاطى السيف .

(فبأىّ آلاءِ ربّكما تُكَذّبان[4]) : الآلاء : هى النعم ، واحدها[5] إلَى على وَزْن مِعى . وقيل ألا على وزن قفاً . وقيل غيرُ هذا . والخطاب للثّقَلين : الإنس والجن ، بدليل قوله[6] : « سنفرغ لكم أيُّهَ الثّقلان » .

وروى أنه لما قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات سكت أصحابُه ؛ فقال : إن جوابَ الجنّ خَيْرٌ من سكوتكم ؛ إنى لما قرأتها عليهم قالوا : لا نكذب بشىء من آلاءِ ربّنا .

وكرر هذه الآية تأكيداً ومبالغة . وقيل : إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التى قبلها ؛ فليس بتأكيد ؛ لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات .

---

(١) القمر : ٩ (٢) القمر : ١٦ (٣) القمر : ٢٩

(٤) الرحمن : ١٣ ، وما بعدها . (٥) فى المفردات (٢٢) : آلاء الله : نعمه ، الواحد ألا ، وإلى ، نحو أنا وإنى لواحد الآناء . وفى القاموس : والآلاء : النعم ، واحدها إلى ، وألو ، وإلى ، وألى ، وإلى (٦) الرحمن : ٣١

(فيومئذ لا يُسألُ عن ذَنبه إنسٌ ولا جَان[1]) : قد قدمنا أن السؤال المنفى هنا على وَجْه الاستخبار وطلب المعرفة ؛ إذ لا يحتاج إلى ذلك ، وأما السؤالُ فلا بد منه ، قال تعالى[2] : « فوربِّكَ لنسألنَّهم أجمعين » .

وأحوال القيامة مختلفة على حسب الخلق .

(فاكهةٍ زَوْجان[3]) ؛ أى من كل ما يُتفَكَّه به نوعان ، بخلاف الدنيا ؛ وإنما جعل ما فيها أنموذج على ما فى الجنة لا أنه مثلها .

(فشارِبُون عليه من الحميم . فشاربونَ شُرْبَ الهِيم[4]): الضمير للمأكول ووزن الهيم فعل ، بضم الفاء ؛ وكُسرت الهاء لأجل الياء ، وهو جمع [١٢٤١] أهيم ، وهو الجمَل الذى أصابه الهُيَام بضم الهاء ؛ وهو داء معطش يشرب منه الجمَلُ حتى يموت أو يسقم . والأنثى هَيْماء . وقيل : هو جمع هائم وهائمة . وقيل : الهِيم : الرمال التى لا تَرى من الماء ؛ وهو على هذا جمع هَيام بفتح الهاء . وقرىء شُرب بضم الشين ؛ واختلف هل هو مصدر أو اسمٌ للمشروب . وقرىء بالفتح؛ وهو مصدر .

فإن قلت : كيف عطف قوله : فشاربون على شاربون[5] ؛ ومعناها واحد ؟

فالجواب أنّ المعنى مختلف ؛ لأن الأول يقتضى الشرب مطلقا ، والآخر يقتضى الشرب الكثير المشبه لشُرب الهيم .

(فلولا تُصَدِّقُون[6]) : تحضيض على التصديق . إمّا بالخالق[7] تعالى ، وإما بالبعث ؛ لأنّ الخلقة الأولى[8] دليل عليه .

---

(١) الرحمن : ٣٩ (٢) الحجر : ٩٢ (٣) الرحمن : ٥٢

(٤) الواقعة : ٥٤ و ٥٥ (٥) الآيتان هما : فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم (٥٤ ، ٥٥) . (٦) الواقعة : ٥٧ (٧) أى التصديق إما ...

(٨) الخلقة الأولى فى قوله فى الآية نفسها : نحن خلقناكم ...

فلولا تذكَّرُون[1]) : تحضيض على التذكّر والاستدلال بالنَّشأة الأولى على النَّشأةِ الآخرة . وفى هذا دليل على صحةِ القياس .

(فلولا إذا بلغتِ الحُلقُومَ . وأنتم حينئذٍ تنظرُون[2]) : لولا هنا عرض ، والضميرُ فى بلغت للنفس ؛ لأن سياقَ الكلام يقتضى ذلك ، وبُلوغُها الحلقوم حين الموت ؛ والفعلُ الذى دخلت عليه « لولا » هو قوله : ترْجِعُونَها ؛ أى هلّا رددْتم النفس حين الموت .

ومعنى الآية : احتجاجٌ على البشر ، وإظهارٌ لعجزهم ؛ فإنهم إذا حضر أحدَهم الموتُ لم يقدروا أن يردُّوا رُوحَه إلى جسده ؛ وذلك دليلٌ على أنهم مقهورون تحت قدْرته ؛ وهو القاهِرُ فوق عباده ؛ والمقهورُ لا يقدر على شىء ؛ وذلك أشدُّ لحسرته .

(فسَلامٌ لكَ مِنْ أصحاب اليَمين[3]) : معنى هذا على الجملة نجاة أصحاب اليمين بسعادتهم . والسلامُ هنا يحتمل أن يكون بمعنى السلامة أو التحية . والخطابُ فى ذلك يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لأصحاب اليمين ؛ فإنْ كان للنبى صلى الله عليه وسلم فالسلامُ بمعنى السلامة . والمعنى سلامٌ لك يا محمد منهم ؛ أى لا ترى فيهم إلا السلامة من العذاب . وإن كان الخطابُ لأصحاب اليمين فالسلامُ بمعنى التحية . والمعنى سلام لكَ ؛ أى تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك ، وهم أصحاب اليمين ؛ أى يسلّمون عليك فهو كقوله[4] : «إلا قِيلًا سَلاماً سلاماً» . أو يكون السلام بمعنى السلامة ؛ والتقديرُ سلامة لك يا صاحبَ اليمين ، ثم يكون قوله : مِن أصْحاب اليمين — خبر ابتداءٍ مضمر ؛ تقديره أنت من أصحاب اليمين .

---

(١) الواقعة : ٦٢ (٢) الواقعة : ٨٣ و ٨٤ (٣) الواقعة : ٩١
(٤) الواقعة : ٢٦

فهنيئاً لكَ يا محمدىّ بما منحكَ اللهُ من هذه التحية التى حيّا بها أنبياءَه وأصفياءَه فى قوله لنوح[١] : « اهْبِطْ بِسلامٍ منّا » . ولإبراهيم[٢] : « قلنا يا نارُ كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » . حياك فى الدنيا بقوله[٣] : « وسلامٌ على عباده الذين اصْطَفَى » . وفى الآخرة يأتيك الملكُ بكتابٍ منه : أمّا بعد السلام عليك فزرنا ، لأنا اشتقناكَ ، لا رَاعَى اللهُ مَن لا يُرَاعى الذمم .

(فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم[٤]) : لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم . فلما نزلت[٥] : « سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى » — قال : اجعلوها فى سجودكم . فلذلك استحبَّ مالك وغيره فى السجود سبحان ربى الأعلى ، وفى الركوع سبحان ربى العظيم ، وأوجبها الظاهرية . ويحتمل أن يكون المعنى سبِّح اللهَ بذكر أسمائه ، والاسم هنا جنس الأسماء . والعظيم صفةٌ للرب ، أو يكون الاسم هنا واحدا ، والعظيم صفة له ، وكأنه أمره أن يسبِّحَ باسمه الأعظم؛ ويؤيِّدُ هذا ويشير إليه اتصالُ سورةِ الحديد بها ، وفى أولها التسبيح ، وجعله من صفات اللهِ وأسمائه . وقد قال ابن عباس : اسْمُ الله الأعظم موجودٌ فى ست آيات من أول سورة الحديد . ورُوى أنّ الدعاءَ بعد قراءتها مُستجاب .

(فالَّذِين آمَنُوا منكم وأنْفَقُوا لهُمْ أجْرٌ كَبِير[٦]) : نزلت فى عثمان ابن عفان رضى الله عنه ؛ فإنه جهّز جَيْش العُسْرة يومئذ . ولفظ الآيةِ مع ذلك عامّ ، وحكمها باقٍ لكل من أنفق فى سبيل الله وطاعته ، ويدخل فيه النفقة على العِيال بنيّة تعفّفهم وإعانتهم ؛ بل هى من أعظم النفقات لحديث : درهم يُنفقه أحدُكم على أهله خير من ألف ينفقها فى سبيل الله .

---

(١) هود : ٤٨ (٢) الأنبياء : ٦٩ (٣) النمل : ٥٩
(٤) الواقعة : ٩٦ (٥) الأعلى : ١ (٦) الحديد : ٧

(فطالَ عليهمُ الأمَدُ[١])[٢] : أى مدة الحياة . [٢٤١ ب] وقيل انتظار القيامة . وقيل انتظار الفتح . والأول أظهر .

(فمنهم مُهتَدٍ[٣]) : قد قدمنا أن الضمير راجع لذرية نوح وإبراهيم لتقدم ذكرهما ، لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم .

(فافسَحوا[٤]) : هو التوسع دون القيام ؛ لأنه منهيٌّ عنه للحديث : لا يَقُم أحدكم من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه ، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا . واختلف : هل هذا النهى محمول على التحريم أو الكراهية ؟

(فانشُزوا[٤]) : أى ارتفعوا . واختلف فى هذا النشوز المأمور به ؛ فقيل : إذا دُعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعة . وقيل : إذا أُمروا بالقيام مِنْ مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان يحبُّ الانفرادَ أحيانا ، وربما جلس قوم حتى يؤْمَروا بالقيام ؛ ولهذا أخبر اللهُ أنَّ جلوسهم كان يؤذي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيستحى منهم ، والله لا يستحى من الحق .

(فبايِعْهُنَّ[٥]) : الضمير يعود على النساء اللواتى بايَعْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثانى يوم الفتح على جبل الصَّفا ، وبايعهنّ بالكلام ، ولا تمس يده يدَ امرأة . وقيل : إنه غمس يَدَه فى الماء ودفعه إلى النساء ، وغمسن أيديهن فيه . وروى أنه لما بايعهنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه المبايعة قرَّرَهُنَّ على ألّا يَسْرِقْنَ . قالت هند بنت عتبة ، وهى امرأة أبى سفيان بن حرب : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجلٌ شَحِيح ، فهل علىَّ إن أخذتُ من ماله بغير إذنه ؟ قال : خُذِي ما يكفيك وولدك بالمعروف ، فلما قرَّرهنّ

---

(١) الحديد : ١٦ (٢) تفسير للأمد . (٣) الحديد : ٢٦
(٤) المجادلة : ١١ (٥) الممتحنة : ١٢

على ألا يَزْنين قالت هند : يا رسول الله ، أتزنى الحرة ؟ فقال عليه السلام: لا تزنى الحرة - يعنى فى غالب الأمر ، وذلك أن الزنى فى قريش إنما كان فى الإماء .
فلما قال: ولا يقتُلْنَ أولادهن قالت : رَبَّيْنَاهم صغاراً وقتلتَهم أنت ببدرٍ كباراً ؛ فتبسم صلى الله عليه وسلم ، فلما وقفهن على ألا يعصينه فى معروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفى أنفسنا أنْ نعصيك . وهذه المبايعة للنساء إنما كانت فى ذلك اليوم، ولا يعمل بها اليوم ؛ لإجماع العلماء على أنه ليس على الإمام أنْ يشترط عليهن هذا .
فإمّا أنْ تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ ، أو يكون ترك هذه الشروط ؛ لأنها قد تقررت وعُلمت من الشريعة فلا حاجة إلى اشتراطها .

(فلما جاءَهُم بالبَيِّنَاتِ[1]) : يحتمل أن يريد عيسى أو محمد صلى الله عليه وسلم . ويؤيِّدُ الأولَ اتصاله[2] بما قبله . ويؤيد الثانى[3] : « وهو يُدْعَى إلى الإسلام » ؛ لأن الداعى إلى الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم .

(فأَصْبَحُوا ظَاهِرِين[4]) : قيل إنهم ظهروا بالحجة . وقيل غلبوا الكفار بالقَتل بعد رَفْعِ عيسى عليه السلام . وقيل : إنّ ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا[5]) : استبعدوا أن يرسل الله بشراً ، أو تكبّروا عن اتباع بَشَرٍ . والبشر يقع على الواحد والجماعة .

(فإذَا بلَغْنَ أجلَهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو فارِقوهنّ بمعروف[6]): يعنى فى أداء الصدَاق والإمتاع حين الطلاق . وبلوغ الأجل خطابٌ بآخر العدة .
والإمساك بمعروف هو تحسين العشرة وتَوْفِية النفقة .

---

(١) الصف : ٦ (٢) أى بقوله تعالى والآية نفسها : وإذ قال عيسى بن مريم .
(٣) الصف : ٧ (٤) الصف : ١٤ (٥) التغابن : ٦
(٦) الطلاق : ٢

فإن قلت : ما الحكمة فى تعبيره فى آية البقرة بالسراح[١] فى مكان الفراق هنا .

والجواب لاكتناف آية البقرة النهى عن مضارّة النساء وتحريم أخذ شىء منهن ما لم يكن منهن ما يسوّغ ذلك من ألّا يقيما حدودَ الله ، فلما اكتنفها ما ذُكر وأتبع ذلك بالمنع عن عَضْلِهنّ ، وتكرر أثناء ذلك ما يفهم الأمر بمجاملتهن والإحسان إليهن حالَى الاتصال والانفصال لم يكن ليناسبها ـ قصد من هذا أن يعبّر بلفظ : «أو فارقوهن» ؛ لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان ، فعوّل إلى ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة ، وهو لفظ التسريح ؛ فقال تعالى[٢] : « فأمسِكوهنّ بمعروف أو سرّحوهنّ بمعروف » ؛ وليجرى مع ما تقدم من قوله تعالى[٣] : « الطلاق مرّتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان» . وقيل هنا : بإحسان ، ليناسب به تعالى المذكور من قوله : "أو تسريح". وقد رُوعى فى هذه الآىِ كلّها مقصد التلطّف ، وتحسين الحال فى الصحبة والافتراق ؛ ولما لم يكن فى سورة الطلاق تعرُّض لعَضْل ، ولا ذِكْر مضارة ـ لم يذكر ؛ وورد التعبير بلفظ : أو فارقوهنّ ، على الانفصال ، ووقع الاكتفاء فيما يراد [٢٤٢ ا] من المجاملة فى الحالين بقوله : معروف ؛ وبانَ افتراق القصتين فى السورتين ، وورود كلٍّ من العبارتين على ما يجب .

(فأنفِقوا عليهنّ حتى يضَعْنَ حَمْلَهنّ[٤]) : اتفق العلماءُ على وجوب النفقة للمطلقة الحامل ، عملا بهذه الآية ، إذا[٥] كان الطلاق رجْعِيًّا . وإن كان بائنا

---

(١) البقرة : ٢٢٩ : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وفيها (٢٣١): فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف .

(٢) البقرة : ٢٣١

(٣) البقرة : ٢٢٩ (٤) الطلاق : ٦ (٥) والقرطبى : ١٨ ـ ١٦٢

فاختلفوا فى نفقتها . وأمّا المتوفَّى عنها إذا كانت حاملا فلا نفقة لها عند مالك والجمهور ؛ لأنهم رأوا أنّ هذه الآية إنما هى فى المطلقة . وقال قوم : لها النفقة فى التركة .

(فإنّ اللهَ هوَ مَوْلَاه وجِبريل وصَالِح المؤْمِنين[1]) : هو أبو بكر الصديق على قول مَنْ قال إنه مفرد[2] . وقيل على بن أبى طالب . وعلى القول بأنه جمع محذوف النون للإضافة فهو على العموم فى كلّ صالح . والخطاب لنبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يعنى إن تعاونتما[3] عليه بما يسوءه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإنّ له مَنْ ينصره .

ومولاه هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم فيوقف على مولاه ، ويكون جبريل مبتدأ وظهير خبره وخبرٌ ما عطف عليه . ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الولىّ الناصر ، فيكون جبريل معطوفاً ، فيُوصل مع ما قبله ، ويوقَف على صالح المؤمنين ، ويكون الملائكة مبتدأ وظهير خبره . وهذا أرجح وأظهر ؛ لوجهين :

أحدها ـ أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع ؛ فإن ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم وتشريفٌ له . وأما إذا كان بمعنى السيد فذلك يشترك فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم مع غيره ؛ لأنّ اللهَ مولى جميع خلقه بهذا المعنى ؛ فليس فى ذلك إظهار مزيّة له .

---

(١) التحريم : ٤ (٢) أى كلمة صالح . وفى القرطبى (١٨ ـ ١٨٩) : وقيل صالح المؤمنين ليس لفظ الواحد ، وإنما هو صالحو المؤمنين ، فأضاف الصالحين الى المؤمنين ، وكتب بغير واو على اللفظ .

(٣) فى القرطبى : يعنى حفصة وعائشة (١٨ : ١٨٨) .

والوجه الثانى ـ أنه ورد فى الحديث الصحيح أنه لمـا وقع ذلك جاء عُمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ما يشقّ عليك من أمْرِ النساء ، فإن كنتَ طلقتَهنّ فإن الله معك وملائكته ، وجبريل معـــك ، وأبو بكر معك ، وأنا معك ؛ فنزلت الآية موافقة لقول عمر ؛ فقوله: معك يقتضى معنى النصرة .

وقد أفرد جماعةٌ من العلماء تصنيف ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة . والأصلُ فيه موافقاتُ عُمر ، وقوله رضى الله عنه : وافقت ربى ، ووافقنى فى أربع مرات : فى الحجاب . وفى أسارى بَدْر . وفى مقام إبراهيم . وفى قوله[1] : « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلَالةٍ من طين ... » الآية ؛ لما نزلت قلت أنا : "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فنزلت كذلك .

وأخرج عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقِى عُمر بن الخطاب فقال: إن جبريل الذى يَذْكُرُه صاحبُك عدوٌّ لنا . فقال عمر : مَنْ كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإنّ الله عدو للكافرين ، فنزلت كذلك .

وأخرج الترمذى ، عن ابن عُمر ـ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلْبه". قال ابن عمرو : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلّا نزل القرآنُ على نحو ما قال عمر . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن عكرمة ، قال : لما أبطأ على الناس الخبر فى أحُد خرجن يستخبرن فإذا رجلان مُقْبلان على بعير ، فقالت امرأة : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالا : حَيّ . قالت : فلا أبالى ؛ يتخذ الله من عباده الشهداء ، فنزل قوله تعالى[2] : « ويتّخذَ منكم شُهَداء » .

---

(١) المؤمنون : ١٢ (٢) آل عمران : ١٤٠

(فَلَمَّا رَأَوْه زُلْفَةً[١]) ؛ أى قريباً ؛ وضمير الفاعل للكفار ، والمفعول للعذاب .

(فطافَ عَلَيْهَا طائِفٌ[٢]) : الطائف : الأمر الذى يأتى بالليل .

(فتنادَوْا مُصْبِحِين[٣]) ؛ أى نادَى بعضهم بعضا حين أصبحوا ، وقال بعضهم لبعض : اغدوا على حَرْثكم ؛ فلما لم يعرفوها ورأوا ما أصابها قالوا : بل نحن محرومون[٤] ؛ أى حَرَمنا الله خيرها ؛ فقال أوسطهم ، وهو أفضلهم[٥] : ألم أقلْ لكم لولا تُسَبّحون . وهو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه . وقيل : أراد الاستثناء فى اليمين ، كقوله : إن شاء الله . والأول أظهر ؛ لقولهم بعد ذلك[٦] : « سبحان ربنا إنّا كنا ظالمين » .

(فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتلاوَمُون[٧]) : أى يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا عزموا عليه من مَنْع المساكين ؛ أو على غَفْلتهم عن التسبيح .

فإن قلت : ما معنى عطفه هنا [٣٤٢ ب] بالفاء ، وفى الثانية من سورة الصافات ، بخلاف الأولى[٨] ؟

والجواب أن هذه الآية من كلام أهل صنعاء لما رأوا جنّتهم محترقة وندموا على ما كان منهم وجعلوا يقولون : سبحان ربنا ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاوَمُون .

وأما عطف أولى الصافات بالواو فلأنه عطف جملة على جملة فحسب ، وعطف

---

(١) الملك : ٢٧ (٢) القلم : ١٩ (٣) القلم : ٢١
(٤) القلم : ٢٢ ، ٢٧ (٥) القلم : ٢٨ (٦) القلم : ٢٩
(٧) القلم : ٣٠ (٨) الصافات : ٢٧ ، ٥٠ الأولى : وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وفى الثانية : فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

الآية بعدها بالفاء ؛ لأنه عطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام ؛ لأنه حكى أحوالَ أهْلِ الجنة ومذاكرتهم فيها ، وما جرَى بينهم فى الدنيا وبَيْن أصدقائهم ، وهو قوله : « وعندهم قاصراتُ الطَّرْف عِين . كأنّهنّ بَيْض مكنون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... » الآية .

(فوقَهُمْ يومئذ ثَمانية[١]) ؛ أى ثمانية أملاك ، والمراد بالفوقية أنهم يزادون يوم القيامة أربعة ؛ لأنهم اليوم أربعة ، رءوسُهم عند العرش ، وأرجلهم تحت الأرض السابعة . وقال ابن عباس : هى ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحدٌ عدتهم . والأول أصح لوروده فى الحديث .

(فيقول : يا ليتنى لم أُوتَ كِتابِيَه[٢]) ؛ أى يتمنى أنه لا يُعْطَى كتابه . وقال ابن عطية : يتمنى أن يكون معدوماً لا يجرِى عليه شىء . والأول أظهر .

(فَصِيلتِهِ التى تُؤْوِيه[٣]) ؛ أى تضمّه ، فيحتمل أن يريد تضمّه فى الانتماء إليها ، أو فى نُصرته وحِفظه من المضرات .

([٤] فأُدْخِلُوا ناراً) : يعنى جهنم ، وعَبّر عن ذلك بالفعل الماضى ؛ لأنّ الأمر محقّق وقيل : أراد عَرْضَهم على النار ، وعَبّر عنه بالإدخال .

([٥] فاجراً) : مائلا عن الحق . وأصلُ الفجور الميل .

([٦] فزَادُوهم رَهَقاً) : ضمير الفاعل للجن ، وضمير المفعول للإنس . والمعنى أنّ الجنّ زادوا الإنس ضلالا أو إثماً لما عاذوا بهم ، أو زادُوهم تخويفاً لما رأوا ضعفَ عقولهم . وقيل ضمير الفاعل للإنس ، وضمير المفعول للجن . والمعنى

---

(١) الحاقة : ١٧ (٢) الحاقة : ٢٥ (٣) المعارج : ١٣
(٤) نوح : ٢٥ (٥) نوح : ٢٧ (٦) الجن : ٦

أن الإنسَ زَادُوا الجنّ تكبُّراً لمّا عاذوا بهم ، حتى كأن الجنى يقول أنا سيِّد الجن والإنس .

(فَمَنْ[1] يَسْتَمِعِ الآنَ) ؛ أى وقت استراقه ، فإنه يسلك من بيْن يديه ومِنْ خلفه « رَصَدا » . قد قدمنا أن الرصد اسم جمع للواحد كالحرس للحراس ، ومعنى الآية : إن الله يسلك من بين يدى الرسول ومِنْ خلفه ملائكة يكونون رَصداً يحفظونه من الشياطين .

قال بعضهم : ما بعث اللهُ رسولا إلا ومعه ملائكةٌ يحرسونه حتى يبلِّغَ رسالةَ ربه . وإذا كان الله يحفظ غَيْرَ الرسل فما بالك بهم . وتأمل حكايةَ الشيطان الذى أتى لوسوسة القائم الذى كان فى المسجد يصلّى فلم يقدر على الدخول ، فقال أخوه من الشياطين : ما بالُكَ لا تدخل إليه ؟ فقال : نفس النائم منعنى من توسوس القائم ، وكان النائم إبراهيم بن أدهم .

(فقُتِلَ كيف قدَّر)[2] : دعاء على الوليد بن المغيرة ، وذَمٌّ لحاله ؛ وكرره[3] تأكيداً . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون مقتضاه بزَعْمِه الأول حين أعجبه القرآن ، فيكون قوله : « قُتِل » لا يُرَادُ به الدعاء عليه ، وإنما هو كقولهم : قاتَلَ اللهُ فلاناً ما أشجعه ! يريدون التعجبَ من حاله واستعظامَ وصفه . وقال الزمخشرى[4] : يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء ، أو حكاية لقول قريش تهكُّما به .

فإنْ قُلْتَ : ما معنى « ثُم » الداخلة فى تكرير الدعاء ؟

قلت : الدلالة على أنّ المرة الثانية أبلغُ من الأولى ؛ ونحوه قوله :

---

(١) الجن : ٩ (٢) المدثر : ١٩ (٣) كرره فى الآية بعدها : ثم قتل كيف قدر .
(٤) فى الكشاف : ٢ ـ ٥٠٣

ألَا يا سلمى ثم اسْلَمِى . . .

فإن قلت : فما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها ؟

قلت : الدلالة على أنه قد تأنّى في التأمّل والتمهّل ، وكان بين الأفعال المتناسقة تراخٍ وتباعد .

فإن قلت : فلم عطف فقال بالفاء بعد عطف ما قبله بثم[1] ؟

قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يلبث أن نطق بها من غير لبث .

فإن قلت ، فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين ؟

قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد .

(فَمَنْ شاءَ ذَكَرَه[2]) : فاعل شاء ضمير يعود على مَنْ . وفي ذلك حضّ وترغيب . وقيل الفاعل هو الله . ثم قَيّدَ[3] فعلَ العبد بمشيئة الله .

(فاقِرَةٌ[4]) ؛ أي مصيبة قاصمة الظَّهر ، تقول : فقرتُ الرجل ، إذا كسرت فقارَه ، كما تقول : رأَسْتُه ، إذا ضرَبْتُ رأسه .

([5] فأَوْلَى) : قد تقدمنا في مواضع أنه كرّرَ ذلك تأكيداً ، وأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لبَّبَ[6] أبا جهل، وقال : إن الله يقول لكَ : أولى لكَ فأولى ، فنزل القرآن بموافقة ذلك .

(فالعاصِفَاتِ عَصْفاً[7]) : هي الملائكة ، لأنهم يعصفون كما تعصفُ الرياح

---

(١) الآيات هي : إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . والعبارة على ذلك غير مستقيمة لأنه عطف بالفاء أولا ثم عطف بثم . (٢) المدثر : ٥٥

(٣) في الآية بعدها : وما يذكرون إلا أن يشاء الله . (٤) القيامة : ٢٥

(٥) القيامة : ٣٤ (٦) في القرطبي (٩ ـ ١١٥) : أخذ رسول الله بيده فهزه مرة أو مرتين ، ثم قال : أولى لك فأولى . (٧) المرسلات : ٢

فى سرعة مُضِيِّهم إلى امتثال أوامرِ الله . وقيل : الرياح ؛ لقوله : ريح عاصف .

(فالفارِقَاتِ فَرْقًا[١]) : قيل الملائكة لأنهم يفرقون بين الحق والباطل . وقيل الرياح ؛ لأنها تفرق السحاب ؛ ومنه[٢] : « ويجعله كِسَفاً » .

(فالمُلْقِيَاتِ[٣] ذِكْراً) : هم الملائكة ؛ لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام . والأظهر فى المرسلات والعاصفات أنها الرياح ؛ لأن وَصْف الرياح بالعصف حقيقة . والأظهر فى الناشرات[٤] والفارقات أنها الملائكة ؛ لأنّ الوصف فى الفارقات أليق بهم من الرياح ؛ ولأن المُلْقيات المذكورة بعدها هى الملائكة ، ولم يقل أحدٌ أنها الرياح ؛ ولذلك عطف المتجانسين بالفاء ، فقال : والمرسلات ، فالعاصفات ؛ ثم عطف على ما ليس مِنْ جنسها بالواو ؛ فقال : والناشرات ؛ ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء . وقيل فى المُرْسَلَات والمُلْقِيات أنهم الأنبياء عليهم السلام .

فإن قلت : هل يصحُّ قولُ القائل إن المُرْسَلات الرياح لمعنى قوله : عُرْفاً .

والجواب أنّ معنى عُرْفاً على كلّ قَوْلٍ : فَضْلا وإنعاما ؛ وانتصابُه على أنه مفعول من أجله ، وقيل معناه متتابعة ، وهو مصدرٌ فى موضع الحال . وأما عَصْفاً ونَشْرا وفَرْقا فمصادِر . وأما ذِكْراً فمفعول به .

(فإنْ كانَ لكُمْ كَيْدٌ فكِيدُونِ[٥]) : تعجيز وتعريض بكَيْدِهم بالدنيا ، وتَقْريع عليهم ؛ كقول هود[٦] : « فأجمعوا أمْرَكم وشركاءَكُمْ ثم لا يَكُنْ أمْرُكم عليكم غُمّة ثم اقضُوا إلىّ ولا تُنْظِرُون » . وكقول

---

(١) المرسلات : ٤ . (٢) الروم : ٤٨ . (٣) المرسلات : ٥

(٤) فى الآية ٣ ، من المرسلات . (٥) المرسلات : ٣٩ . (٦) يونس : ٧١

موسى[1] : « فأجمِعُوا كَيْدَكُمْ ثم ائتوا صفًّا » .

(فالسابِقَاتِ[2] سَبْقًا) : قيل إنها الملائكة ، حمّام الله نازعات ؛ لأنهم ينزعون نفوسَ بنى آدم من أجسادها ؛ وناشطات ؛ لأنهم ينشطونها ، أى يخرجونها ، فهو من قولك : نشطت الدّلْوَ من البئر ، إذا أخرجتَها . وسابحات ، لأنهم يسبحون فى سيرهم ، أى يسرعون فيسبقون فيدبّرون أمورَ العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسبما يَأْمُرهم الله .

وقيل : إنها النجوم ، وسماها نازعات ؛ لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب ، وناشطات لأنها تنشط من بُرج إلى برج ، وسابحات لأنهـا تَسْبَحُ فى الفلك ؛ ومنه[3] : « كلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون » ، فتَسْبق فى جَرْيها ، فتدبّر أمْراً من علم الحساب .

([4]فالمُدَبِّرَاتِ أمرا) : قال ابن عطية : لا أعلم خلافا أنها الملائكة ، وحُكى فيها القولانِ ، كما تقدم .

فإن قلت : ما معنى « غَرْقا[5] » على القولين ؟ وأين جواب القسم ؟

فالجواب إنْ قلنا إنّ النازعات الملائكةُ ففى معنى غَرْقا وجهان : أحدهما أنه من الغرق ، أى تُغْرِق الكفَّار فى جهنم . والآخر أنه من الإغراق بمعنى المبالغة فيه ؛ أى تُبالغ فى نَزْعِ النفوس حتى تُخْرِجها من أقاصى الأجساد . وإن قلنا إن النازعات النجوم فهو من الإغراق بمعنى المبالغة ؛ أى تبالغ فى نُزوعها، فتقطع الفَلَكَ كلّه . وإن قلنا إنها النفوس فهو أيضاً من الإغراق ؛ أى تُغْرِق فى الخروج من الجسد .

---

(١) طه : ٦٤ (٢) النازعات : ٤ (٣) الأنبياء : ٣٣
(٤) النازعات : ٥ (٥) فى قوله تعالى : والنازعات غرقا .

وإعراب «غَرْقاً» المصدر فى موضع الحال . ونَشْطاً وسَبْقاً وسَبْحاً مصادر ، وأمراً مفعول به .

وجواب القسم محذوف ؛ وهو بَعْثُ الموتى بدلالة ما بعده عليه من ذِكْر القيامة . وقيل الجواب[1] : « يوم تَرْجُفُ الراجفةُ . تَتْبَعُها الرادِفَةُ » على تقدير حَذْف لام التوكيد . وقيل : هو[2] : « إن فى ذلك لعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » ؛ وهذا بعيدٌ لبُعْدِه من القسم ، ولأنه إشارة إلى قصةِ فرعون لا لمعنى القسم .

([3] فإنّما هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) : هذا من كلامِ اللهِ ردًّا على الذين أنكروا البَعْث ، كأنه يقول : لا تظنّوا أنه صعب على الله ؛ بل هو عليه يسير .

([4] فإذا هُمْ بالساهرة) ؛ أى وجه[5] الأرض ، والباء ظرفية ، وإذا فجائية . والمعنى إذا نفخ فى الصُّور حصلوا بالأرض أسرع شىء .

([6] فحَشَر فنَادَى . فقال أنا رَبُّكم الأعْلَى) ؛ يعنى أن فرعون جمع جنُودَه ، ونادى قومه ، وقال لهم ما قال . ويحتمل أنه أمر مَنْ يُنَادِيهم . والأول أظهر ؛ لأنه روى أنه قام فيهم [٢٤٣ ب] خطيباً .

([7] فسَوّاها) : الضمير يعود على السماء ، أى أتقن خلقتها . وقيل : جعلها مُسْتَوِيةً ، ليس فيها مرتفع ولا منخفض .

([8] فإذا جاءت الطّامّةُ الكُبْرَى) ، هذا أحد أسماء يوم القيامة ؛ وقد سماه اللهُ فى كتابه بثلاثين اسما لعظمه : يوم الآزِفَة . ويوم التلاق . ويوم التناد . ويوم التغابُن . ويوم الثبور . ويوم الجَمْع . ويوم الحق . ويوم الخصومة . ويوم

---

(١) النازعات : ٦ ، ٧ (٢) النازعات : ٢٦ (٣) النازعات : ١٣
(٤) النازعات : ١٤ (٥) تفسير الساهرة . (٦) النازعات : ٢٣ ، ٢٤
(٧) النازعات : ٢٨ (٨) النازعات : ٣٤

الدين . ويوم الراجفة . ويوم الزلزلة . ويوم الشفاعة . ويوم الصاخّة . ويوم عظيم . ويوم عَبُوس . ويوم العُسْر . ويوم القارفة . ويوم القَمْطَرِير . ويوم الفَصْل . ويوم القيامة . ويوم النَفخ . ويوم الوَعيد . واليوم الموعود . ويوم القارعة . ويوم الواقِعة . واليوم المشهود . ويوم الحاقّة . ويوم النُشور . يخرجون من الأجداث كأنهم جَرادٌ مُنْتَشِر ، يكشف المرء ما أخفاه ، ويتذكر حينئذ غَفْلته وهواه ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون على غفلتنا على ما يُراد بنا ! يقول الله تعالى فى بعض كتبه : عَبْدى أعطيتُك منية المرضى ، وأهل السجون ، وأهل القبور ، وأهل النشور ، وأهل الجِنَان ، وأهل النيران : فما لك لا تغتنم ساعتَكَ التى أنتَ فيها ؟ ألم تعلم أنّ مَنْ أحبَّ شيئاً طلبه ، ومَنْ طلب شيئاً وجده ، ومن خاف من شىء هرب منه ، ومَنْ أراد سفراً اهتمّ له ، ومَنْ أحبَّ اللحوق بقومٍ اقتدى بفعالهم وسلك سبيلهم ، ومَنْ فضل قوما بالعلم يحق أن يفضلهم بالعمل ، فليكن الغالب مِن همومك همّ المَعاد والتزوّد له ، والغالب مِنْ كلامك ذكر الموت والاستعداد له ، فهو أشدُّ شىء نزل بك قط ، وأهونُ شىء فيما بعده ، لأن بعده سبعين هَوْلا ، كلُّ هَوْلٍ أشدُّ من الموت ، فلا يستتبعك الشيطان فى الدنيا ، والمنافقون فى الآخرة .

فإن قلت : لِمَ خُصّت النازعات باسم الطامّة ، وعبس[1] باسم الصاخّة ، مع أنهما شىء واحد ؟

فالجواب أنّ اسمَ الطامّة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة ، لأنها من قولهم : طَمّ السيلُ ، إذا علا وغلب . وأما الصاخّة فالصيحة الشديدة ، من قولهم صخّ بأذنيه مثل أصاخ ، فاستُعير على[2] أسماء القيامة مجازاً ، لأن الناس يُصيخون لها ، فلما كانت الطامّة أبلغ فى الإشارة إلى أهوالها خصّ بها أبلغ

---

(١) فى النازعات : ٣٤ ، وعبس : ٣٣ (٢) هذا فى الأصلين .

السورتين في التخويف والإنذار . وعلى ذلك بُنيت سورة « النازعات » ؛ ألا ترى قوله : « يوم تَرْجُفُ الراجفة. تتبعها الرادفة » . ووصف الطامة الكبرى ، وما أُتبع به بَعْدُ . وابتداء السورة وختامها قَبْلها تخويف[1] وترهيب ، فناسبها أشدّ العبارتين موقعا ، وأرهبها . وأما سورة عبس فلم تُبْنَ على ذلك الغرض ؛ وإنما بُنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى . وذلك مشهور ، ثم ورد قوله : « فإذا جاءت الصاخّة » عَقِبَ التذكير بقوله[2] « إنها تَذْكِرَة » والتذكير للاعتبار بقوله :[3] « فلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طعامه . . » إلى قوله : « مَتَاعا لكم ولأنعامكم » . ثم أتبع بعد ذكر الصاخة بقوله[4] : « وجوه يَوْمَئِذ مُسْفِرَة . ضاحكةٌ مستبشرة » . فسورةُ النازعات على الجملة أشدُّ في التخويف والترهيب ، فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة .

وقيل : إنما خُصَّت النازعات بالطامّة ؛ لأن الطمّ قبل الصخ ، وهو الصوت الشديد والفزع قَبْل الصوت ، فكانت هي السابقة . وخُصَّت سورة « عبس » بالصاخّة ؛ لأنها بعده وهي اللاحقة .

(فلْيَنْظر الإنسانُ إلى طَعَامه[5]) : أُمِر بالاعتبار في[6] الطعام ، كيف خلقه اللهُ بقدرته ، ويَسَّرَه برحمته ، فوجب على العبد طاعته وشُكره . وتَجنّب معصيته والكفر به . وقيل : فلْيَنْظر الإنسان إلى طعامه كيف يَصير ، فيَزْهَد في دُنْياً هذه حالها ، ولا يرغب في لذّاتها ، كما قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي : ما طعامك ؟ قال : اللحم واللبن . قال : فإلى ماذا يَصير ؟ ولهذا كان صلى الله عليه وسلم لا يشبع من خُبْز الشعير زُهْداً فيها . قال يحيى بن سلام : بعد أن ذكر اللهُ زواجرَ الكفّار استأنف ضَرْبَ المثل لأهل الإيمان ، ليزدادوا اعتباراً بقوله :

---

(١) آخر سورة النبأ قبلها : إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً .
(٢) عبس : ١١ (٣) عبس : ٢٤
(٤) عبس : ٣٨ : ٢٩ (٥) عبس : ٢٤ (٦) هذا في الأصلين .

«فلينظر الإنسانُ إلى طعامه الذى يحيا به ويأكله ، من أى شىء كان» ؟ ثم صار بعد حفظه ابن آدم[1] ، وهو الجسد [١٢٤٤]. قال الحسن: ملك يميل رقبة ابن آدم حين يجلس . وقيل : فلينظر الإنسان إلى طعامه ويفكّر فيما هيّأه من سماء وأرض ، وماء وحَرّ وبرد ونحوها ، وآلة عديدة ، وأسنان : منها كاسرة وطاحنة ، بريق حُلو لذَوْقه وسَوْغه ، وقوة هاضمة ، ودافعة ، وإذا استوى طعامُه بحرارة كبده ونحوه أعطى اللهُ تعالى لكل جُزْء وشعرة نصيباً .

(فأَقْبَرَه[2]) : أى جعله ذَا قَبْر ، يقال : قبرت الميت إذا دفنته ، وأقبرته إذا أمرت أن يُدْفَن .

(فلْيَتنافَسِ المُتَنافِسون)[3] : التنافس فى الشىء هو الرغبةُ فيه ، والمغالاة فى طلبه ، والتزاحمُ عليه ، وهذا كقوله[4] : «لِمِثْلِ هذَا فلْيَعْمَلِ العامِلُون» . فسبحان من جذب عباده إليه تارةً بذكر نعيمه ، وتارة بالتخويف من عذابه ، وتارةً بإحسانه إليهم لعلهم يرجعون إليه ، لم يكفه ما أعطاهم من رياسة الدنيا ، وتسخير المخلوقات لهم حتى وعدهم بالملك العظيم ، والفوز المقيم ، والرضوان الجسيم ، ورؤيتُه تعالى أعظم من هذا كله .

(فاليَوْمَ[5] الذين آمَنُوا من الكفّار يَضْحَكُون) : لما كان الكفار فى الدنيا يضحكون على المؤمنين قلب الله الحقائق ، فيضحك المؤمنون من الكفار حينئذ ويقولون لهم : هذا يومكم الذى كنتم توعدون. اصْلَوْها اليوم بما كنتم تكفرون .

(فلا أُقْسِم بالشَّفَق)[6] : هو الحمرة التى تبقى بعد غروب الشمس . وقال أبو حنيفة : هو البياض . وقيل : هو النهار كله . والأول هو المعروف عند الفقهاء وأهل اللغة .

---

(١) هذا بالأصلين . (٢) عبس : ٢١ (٣) المطففين : ٢٦ (٤) الصافات : ٦١
(٥) المطففين : ٣٤ (٦) الانشقاق : ١٦

(فما لهم لا يؤمنون[1]) أى أى شىء يمنع الكفار من الإيمان بعد قيام هذه العبر .

(فبشّرهم[2] بعذاب أليم) : وضع البشارة موضع النذارة تهكما بهم .

(فتنوا المؤمنين والمؤمنات[3]): إن كانت هذه الآية فى أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق ، وإن كانت فى كفار قريش فالفتنة بمعنى الفتنة والتعذيب . وهذا أظهر ، لقوله[3]: « ثم لم يتوبوا » ؛ لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا ، بل ماتوا على كفرهم . وأما قريش فنهم مَنْ أسلم وتاب . وفى الآية دليلٌ على أنَّ الكافر إذا أسلم يُغفر له مافعل فى حال كُفْره ، للحديث : الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

واختلف هل يكتب له ما فعل من الخير ؟ الصحيح أنه يكتب له ؛ للحديث: أسلمت على ما أسلفت من الخير ، وقد ألّف بعضهم فيه تأليفاً مفيدا .

([4]فلينظر الإنسانُ ممَّ خُلق): حذف ألف ما لأنها استفهامية، وجوابُها: « خُلِقَ من ماءٍ دافق »[5] ، واستفهم هنا عن ابتداء الخِلقة ليعلم الإنسان مَنْ هو ، ومن أى شىء خُلق ، كى لا يتكبر ، وكيف يتكبر مَنْ خُلق من ماء نجس غُمس فى دم نجس ، ولذلك قال بعضهم : ما يصنعُ بالكِبْر مَنْ خُلق من نطفة مَذِرة[6] وآخره جيفة قَذِرة ، وهو فيما بينهما حامل عَذِرَة !

(فما له من قُوَّةٍ ولا ناصر[7]) : قد قدمنا أنَّ الضمير للإنسان ، وفيها التنبيه له على الرجوع إلى خالقه وناصره ، ولا يلتفت إلى غيره مِنْ والدٍ وزوج وأخٍ وولد ؛ إذ كلّهم ينقطعون عنه ، ولا يجدُ إلا مولاه لذى ينصره حيًّا وميتاً ،

---

(١) الانشقاق ٢٠ (٢) الانشقاق : ٢٤ (٣) البروج ١٠ (٤) الطارق ٥
(٥) الطارق ٦ (٦) المذرة : القذرة (القاموس) . (٧) الطارق : ١٠

يقول تعالى فى بعض كتبه : عبدى أحباؤك أربعة : حبيب يصلح لأُولاك ولا يصلح لأخراك ، وهما الأبوان يخدمانك ويربيانك فى صغرك ، فإذا كبرا يكونان ضعيفين لا يقدران على أن يربياك . وحبيب يصلح لأخراك ولا يصلح لأولاك ، وهم أولادك يخدموك فى آخر عمرك . وحبيب يصلح لظاهرك ولا يصلح لباطنك، وهم الأخلاء والأصدقاء . وحبيب يصلح لباطنك ولا يصلح لظاهرك، وهن أزواجك ، فإذا أردتَ أن تحبَّ أحداً فإنى أحبك أولا وآخراً وظاهراً وباطناً، وأنصرك فى كل الأحوال ، أتترك من يحبك فى كل الأحوال وتحبُّ من لا يحبك على كلِّ حال ؟

(فَسَوَّى[١]) : حذف مفعول خَلَقَ فسوّى ؛ لقصد الإجمال الذى يُفيد العموم . والمراد خلق كل شىء فسوّاه ، أى أتقن خلقته .

(فَهَدَى[٢]) : حذف المفعول أيضاً ليُفيد العموم [٢٤٤ ب] ، فإن كان من التقدير[٣] فالمعنى قدَّر لكل حيوان ما يُصلحه فهداه إليه ، وعرَّفه وجهَ الانتفاع به . وقيل : هدَى ذكورَ الحيوان إلى وطء الإناث لبقاء النسل . وقيل : هو المولود حين وَضعِه إلى مص الثدى . وقيل : هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع . وهذه الأقوال أمثلة . والأول أعم وأرجح ، فإن هدايةَ الإنسان وسائرِ الحيوانات إلى مصالحها بابٌ واسع فيه عجائب وغرائب . وقال الفراء : المعنى هدى وأضل ، واكتفى بالواحدة ، لدلالتها على الأخرى . وهذا بعيد .

(فذَكِّرْ إنما أنتَ مُذَكِّر[٤])، أى ذَكِّرْ كلَّ أحد، «إلا[٥] مَنْ تولَّى» يئست منه ، فهو على هذا متصل . وقيل : إلا مَنْ تولى استثناء من قوله : «ولست

---

(١) الأعلى : ٢ (٢) الأعلى : ٣ (٣) فى قدر فى الآية : والذى قدر فهدى .
(٤) الغاشية : ٢١ (٥) الغاشية : ٢٣

عليهم بمُصَيْطِر[1]» ؛ أى لا تتسلَّط إلا على مَنْ تولى وكفر ؛ وهو على هذا متصل لا نَسْخَ فيه ؛ إذ لا مُوَادعة فيه ؛ وهذا بعيد ؛ لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة .

([2]فَصَبَّ عليهم ربُّكَ سَوْطَ عَذَاب): قد قدمنا أنه استعار للسوط العذاب ؛ لأنه يقتضى من التكرار مالا يقتضيه السيف وغيره ، قاله ابن عطية . قال الزمخشرى[3] : ذِكْرُ السوط إشارة إلى عذاب الدنيا ؛ إذ هو أهون من عذاب الآخرة ، كما أن السوط أهونُ من القتل .

(فأمّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّه[4]) : قد قدمنا أن معنى الابتلاء الاختبار ، واختباره تعالى لعَبْدِهِ لتقومَ الحجةُ عليه بما يبدو منه ؛ وقد كان الله عالماً بذلك قبل كونه . والإنسانُ هنا جنس . وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة ، وهى مع ذلك على العموم فيمَنْ كان على هذه الصفة ، وذكر اللهُ فى هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير والشر اختباراً وفتنة .

(فقدَر عَلَيْهِ رِزْقَه[5]) ؛ أى ضيَّقَه . وقرىء بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد . وفى التشديد مبالغة . وقيل معنى التشديد جعله على قدر معلوم .

([6]فيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عذابَه أَحَدٌ): مَنْ قرأ بكسر الذال من يعذب والثاء من يوثق فالضمير فى عذابه ووثاقه لله تعالى . ومَنْ قرأ بالفتح فالضمير للإنسان ، أى لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، وهذه قراءة الكسائى . وروى أن أبا عمرو رجع إليها، وهى قراءة حسنة صحَّتْ عنه صلى الله عليه وسلم .

(فادْخُلِى فى عِبَادِى[7]) ؛ أى فادخلى فى عبادى الصالحين . وقرىء : فادخلى

---

(١) الغاشية : ٢٢ (٢) الفجر : ١٣ (٣) الكشاف ٢ — ٥٤٢

(٤) الفجر : ١٥ (٥) الفجر : ١٦ (٦) الفجر : ٢٥ (٧) الفجر : ٢٩

فى عَبْدِى بالتوحيد ، ومعناه ادخلى فى جسده ، وهو خطابٌ للنفس . ونزلت هذه الآية فى حمزة . وقيل فى خُبيب بن عدى الذى صلبه الكفار بمكة ، ولفظُها يَعُمُّ كلَّ نفس مطمئنة ، لأن النفوس ثلاثة : لوّامة ، وأمّارة ، ومطمئنة ، والممدوح منها الأخيرة .

(فلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَة[1]): قد قدمنا أنَّ الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة : عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بَعْدُ ، وجعلها عقبة استعارةً عن عَقَبَة الجَبَل ، لأنها تصد ويشقُّ صعودها على النفوس . وقيل هى جبل فى جهنم له عَقَبة لا يجاوزُها إلا من عمل هذه الأعمال و « لا » تحضيض بمعنى هلّا . وقيل هى دعاء . وقيل نافية . واعترض على هذا القول بأن لا النافية إذا دخلت على الفعل الماضى لزم تكرارها . وأجاب الزمخشرى[2] بأنها مكررة فى المعنى ، والتقدير فلا اقتحم العقبة ، فلا فَكَّ رقبة ، ولا أطعم مسكيناً .

(فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها[3]) : أى عرّفها طرق الفجور والتقوى ، وجعل لها قوةً يصح معها اكتساب أحد الأمرين . ويحتمل أن تكون الواو بمعنى أو ؛ كقوله[4] : « إنا هَدَيناه السبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفورا » .

([5]فقال لهم رسولُ الله ناقةَ اللهِ) : منصوب بفعل مضمر تقديره احفظوا ناقةَ الله ، أو احذَروا ناقةَ الله .

([6] فَدَمْدَمَ عليهم رَبُّهم بذنبهم فسوّاها) ، أى سوى القبيلة لم يُفلت أحداً منهم وقال [٢ : ٥ ا] الزمخشرى[7] : الضمير للدمدمة ، أى سوّاها بينهم .

فانظر كيف هَوَّل عليهم بهذه اللفظة بسبب ذَنْبهم ، وهو التكذيب ، وعَقْر الناقة ، ليتعظ غيرهم .

---

(١) البلد : ١١ (٢) الكشاف : ٢ـ٥٤٥ (٣) الشمس : ٨ (٤) الإنسان : ٣

(٥) الشمس : ١٣ (٦) الشمس : ١٤ (٧) الكشاف : ٢ ـ ٥٤٧

(ولا يخاف عُقْباها[1]) : ضمير الفاعل لله تعالى . والضمير فى عقباها للدَّمْدَمة والتسوية ، وهو الهلاك ؛ أى لا يخاف عاقبةَ إهلاكهم ولا دركَ عليه فى ذلك كما يخاف الملوكُ من عاقبة أعمالهم ؛ وفى ذلك احتقارٌ لهم. قيل : وضمير الفاعل لصالح ، وهو بعيد . وقرىء فلا يخاف بالفاء وبالواو . وقيل فى القراءة بالواو إن الفاعل أشقاها . والجملة فى موضع الحال ؛ أى انبعث ولم يخَفْ عقبى فعلته ؛ وهذا بعيد .

(فأنذَرْتُكم ناراً تلَظَّى[2]) : مخاطبة من الله أو من النبى صلى الله عليه وسلم على تقدير : قل يا محمد .

(فحَدِّثْ[3]) : أمر من الله لرسوله أنْ يحدّث بنعمه ، وهى القرآن ، والرسالة ، وجميع النعم التى أعطاه من دِينية ودُنياوية ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : "التحدث بنعم الله شُكْرٌ لها وكتمانُها كفرها" ؛ ولهذا كان بعضُ السلف يقول : صليتُ البارحة كذا ، وصمتُ من الشهر كذا ؛ وهذا إنما يجوز إذا ذكره على وَجْهِ الشكر ، أو ليُقتدى به ، لا على وَجْهِ الفَخْر والتكبّر .

وانظر كيف ذكر الله فى هذه السورة ثلاث نعم ، ثم ذكر فى مُقابلتها ثلاث وصايا ؛ فقابل قوله : « ألم يجِدْكَ يتيما » بقوله : « فأما اليتيمَ فلاتقْهَرْ » . وقوله : « ووجدَكَ ضالًّا فهدَى » بقوله : أما السائلَ فلاتنْهَرْ على قولِ مَنْ قال: إنه السائل عن العلم . وقابله بقوله : « وأمّا بنعمة ربِّكَ فحدِّثْ » ــ على القول الآخر .

(فإنَّ مع العُسْرِ يُسرا[4]) : هذا وعْدٌ باليُسْر بعد العسر ، وتسليةٌ لنبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما كانوا يلقَوْن من الأذَى من الكفار ، وإنما ذكره بلفظ مع التى تقتضى المقارنة ليدلَّ على قُرْب اليسر من العسر .

---

(١) الشمس : ١٥ ، وقد جاء بالأصلين : فلا يخاف ، ليتسق مع الباب ، وهو حرف الفاء . وفى الكشاف ٢ ــ ٥٤٧ : وفى مصاحف أهل المدينة والشام : فلا يخاف .

(٢) الليل : ١٤ . (٣) الضحى : ١١ (٤) الشرح : ٥

فإن قيل : ما وَجْه ارتباط هذا مع ما قبله ؟

والجواب : لما عدّدَ عليه النعم تسليةً له وتأنيساً قَوِي رجاؤه بالنصر ؛ كأنه يقول له : إن الذى أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويُظهرك ويُبدّل لك هذا العسر يسرا قريباً ، ولذلك كرَّر : «[1] إنَّ مع العُسر يسراً» مبالغة ، قال صلى الله عليه وسلم : "لن يغلب عُسر يُسرين". وقد روى ذلك عمر ، وابن مسعود ، وتأويله أن العسر المذكور فى هذه السورة واحد ، لأن الألف واللام للعهد ، كقولك : جاءنى رجل فأكرمتُ الرجل . واليسر اثنان لتنكيره . وقيل : إن اليسر الأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة ؛ وقد أكثر الناسُ فى هذه الآية وألفوا فيها تواليف منها كتاب « الفَرَج بعد الشدة » ، وجنة الرضا ، وغيرها مما يطول ذكر شىء منها .

وبالجملة فمَنْ تذكَّر سَبْقَ نعمته عليه ، وكثرة نعمه إليه ، وعظيم ثوابه ، وصدقَ وعْده ، وسعةَ رحمته وسَبْقَها غضبه — آثر له قوة رجائه فيه ، وهان عليه ما يَلقاه فى ضيقه ؛ قال تعالى فى بعض كتبه : يامطرود ، لا تبرح ، ويا مَرْدُود لا تَأيس[2] ، ويا مهجور لا تَقلق ؛ قد فتحنا لك البابَ وجعلناك من الأحباب ، وهبك أنى طردتُك عن بابى ، وألزمتك حِجابى فإلى باب مَنْ تلتجىء ، وعلى أى جهة تَقف ، فكُنْ معى كالصبى مع أمّه ، كلما زجرَتْهُ رجع إليها ، وكلما طردته تمرَّغ بين يديها ، فلا يزال معها حتى تقبله ، فانقُل قدمَ الإقدام لبابى ، واكشف رأسَ الاستغفار ونادِ بلسان الفقر[3] والاضطرار : ربّى مَسّنى الضُّر وأنتَ أرْحَمُ الراحين — يقع لك جواب : « فكشفنا[4] ما به من ضُر وآتيناه أهْلَه ومِثلَهم معهم رحمةً من عندنا وذِكرى للعابدين » .

---

(١) الشرح : ٦ (٢) لا تأيس : لا تيأس . (٣) الفعل من باب ضرب .

(٤) الأنبياء : ٨٤

(فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ[١]) : هو من النَّصَب بمعنى التعب . والمعنى إذا فرغت من أمرٍ فاجتهد فى أمرٍ ؛ ثم اختلف فى تعيين الأمرين [٢٤٥ ب] ؛ فقيل : إذا فرغت من الفرائض فانْصَبْ فى النوافل . وقيل : إذا فرغت من الصلاة فانْصَبْ فى الدعاء . وقيل : إذا فرغت من شُغْل دنياك فانصب فى عبادة ربك .

(فارْغَبْ[٢]) : إنما قدم المجرور فى « إلى ربك » ليدلّ على الحصر ؛ أى لا ترغب إلا إلى ربك وحْدَه . وفى هذا إشارةٌ إلى عدم الركون للخلق ؛ فإن الركونَ إليهم وحشةٌ والإلتجاء إليهم إعراض عن الحق . وقد قدمنا من هذا المعنى كثيراً .

(فلهم أجْرٌ غير مَمْنُون[٣]) : أى غير منقوص ، يقال : مننتُ الحبْلَ إذا قطعته . وقال مجاهد : غير محصور ؛ لأن كلّ مَحْسُوب محصور ؛ فهو ممدٌ لأن يمنّ به .

ويظهر فى الآية أنه وصفه بعدم المنّ والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى ؛ فهو شريف لا منّ فيه ، وأعطياتُ البشر هى التى يدخلها المنّ . قال السدى : نزلت هذه الآية فى المَرْضَى والزمناء إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر ما كانوا يعملون .

فإن قلت : أىُّ حكمة فى الإخبار بهذا ؟ ولِمَ زيدت هنا الفاء ، وحذفت من آية الانشقاق وفُصِّلَتْ[٤] ؟

(والجواب) إنما زِيدت لمراعاة الفاء التى بعدها ؛ وفائدة تكرير هذه الآية والإخبار بها للتأسى والتخلّق بأفعال الحق فى عدم مَنِّه ؛ لأنّ المنّ يكدّرُ الإحسانَ

---

(١) الشرح : ٧ (٢) الشرح : ٨ (٣) التين : ٦

(٤) فى الانشقاق آية ٢٥ ، وفى فصلت آية ٨

ويذهب بلذّته ؛ ولذلك قال تعالى[1] : « لا تُبْطِلُوا صدقَاتِكم بالمَنّ والأذَى » . قال المفسرون : المنُّ أن يذكره ، والأذى أن يظهره . وقال صلى الله عليه وسلم : لا تأكل طعام المنّان ؛ فإنه داءٌ . . . إلى غير ذلك من الأحاديث مما يطول ذكرها .

(فمن[2] يعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرًا يَرَه) : قد قدمنا فى حرف الميم ما فى هذه الآية وتسميتها بالجامعة الفاذة ، ولما نزلت هذه السورة بَكَى أبو بكر ، وقال : يا رسول الله ، أوَ أُسْأَلُ عن مثاقيل الذَّرّ من أعمالى ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ، ما رأيته فى الدنيا مما تكره فمثاقيل ذَرِّ الشر ويدَّخِر لك الله مثاقيلَ ذرِّ الخير ... إلى آخره .

فانظر بكاءَ المشهود له بالجنة على نفسه ، وخوفه من ذنوبه مع أن الله بشّره بشفاعته فى عدد ربيعة ومُضَر من هذه الأمة ، وأنت تريد اللحوقَ بهم مع عدم خوفك وبكاك ، وكثرة أوزارك محيطة بك ، ما يكون جوابك إذا قيل لك : اقرأْ كتابكَ كفَى بنفسكَ اليوم عليكَ حَسيبا ؟ فما أعظمها من كربة إذا حملتَ حُزْمة سيئاتك ، وصرت تقرؤها بين يدى ربك ، وما مثلنا إلا كحاطب يجمع كُلّ ما يَلْقَى ، فإذا جاء يرفعها لم يقدر عليها ؛ وقد أخفى الله غضبه فى معاصيه ، فلا تحقرنّ منها شيئاً ؛ فإنها عند الله بمكانٍ ، وكلّ ما صغر فى عينك عظيم عند الله .

قال الفضيل بن عياض : أتانى رجل ، فقال : عِظْنى ، فقرأتُ عليه[3] : « إذا زُلْزِلَت » ، فغاب مدةً ثم أتانى ، فقلت له : أين غَيْبَتُك ؟ قال : كنتُ

---

(١) البقرة : ٢٦٤ (٢) الزلزلة : ٧ (٣) الزلزلة : ١

مشغولا بتحقيق الحساب الذى علّمْتَنى ؟ فقلت له : وما هو ؟ قال(١) : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يره » ؛ ورئى بعضُ المشايخ وقد بلغ جداراً ، وكان فى زمن الشتاء ، وهو يتصبّبُ عرقاً فسئل عن ذلك ، فقال : أخذتُ من هذا الحائط قطعةَ طينٍ غسل يده بها ضيفٌ ، ولم أستحل من صاحبه حتى مات ، فأنا كلما مررتُ به لم أملك نفسى .

هذا حالُهم ، فأنَّى لنا اللحوق بهم ! ملأْنا بطوننَا من الحرام ، وتراكت على قلوبنا سحائبُ الآثام ، وغلب علينا سكر المنام ، وادّعَيْنا الدعاوى الباطلة والآمال الكاذبة .

فإن قلت : ما سِرُّ تقديم الخير فى هذه الآية على الشر ؟

والجواب لما كان المطلوب فى العمل تقديمُ الخير على الشر جاء فى اللفظ على الوَجْهِ المطلوب . وأيضاً لما كان فاعلُ الخير مقدَّماً فى الرتبة على فاعلِ الشرِّ جاء العملُ مرتّباً على ترتيب عامله .

(فلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيت(٢)) : هذا إقامة حجةٍ عليهم ، واستدعاءٌ لهم ، بملاطفةٍ وتذكير بالنعم حيث كان الناسُ يتخطفون مِنْ حَوْلهم ، وهم لا يُصيبهم ما أصاب غيرَهم ؛ من الأمن وإتيان الرزق إليهم ، لحُرْمَةِ هذا البيت المعظم عند جميع بنى آدم ، كأنه يقول [٢٤٩ ا] لهم : إن لم تعبدوه لما شرّفكم بالعقل ، وجعلكم محبوبين ، فاعبدوه لهذا البيت الذى شرّفكم به ، ودفَع عنكم مَنْ قَصد ضرَّكم من جميع الأمم .

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ(٣)) : قد ذكرنا معنى التسبيح والاستغفار ، وأن هذه السورة إعلام من الله لرسوله بقُرْب أجله .

(١) الزلزلة : ٧ (٢) قريش : ٣ (٣) النصر : ٣

فإن قيل : لِمَ أمره بالتسبيح والحمدِ والاستغفار عند رؤية النصر والفتح، وعند اقتراب أجله ؟

فالجواب إنه أمره بالتسبيح والحمد ليكونَ شُكْرَه على النصر والفتح وظهورِ الإسلام ؛ وفيه إشارةٌ إلى أنّ المرْءَ لا يَخْتِمُ صحيفتَه إلا بخير الأعمال، ويهيِّء زاداً للقاء ربه، ولا يَغْفُل كما غفل فى أول أجله . والاستغفارُ والتسبيح من أفضل الأعمال ؛ لما فيهما من تَنْزِيهِ الخالق، وانكسارِ القَلْب مع الاستغفار ؛ وهو تعالى عند المنكسرة قلوبهم .

(فَرَاش)[1] : قد قدمنا أنه طير دقيق يتساقطُ فى النار ويقصِدها، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يَحْتَرِق . ومنه الحديث : أنا آخذ بِحُجَزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها تَقَاحُمَ الفراش والجنادب .

فإن قلت : قد شبههم فى سورة القمر[2] بالجَرَاد المُنْتَشِر، وهنا بالفَرَاش ؛ فهل بينهما توافق أم لا ؟

فالجواب أنّ بينهما موافقـــة على قول بعضهم ؛ قال الفراء : الفَرَاش غوغاء الجراد، وهو صغيره الذى ينتشر فى الأرض والهواء . قال بعض العلماء : الناس أول قِيامهم من القبور كالفَرَاش المبثوث ؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعى فيتوجّهون إلى ناحية الحَشْر كالجراد المنتشر ؛ لأن الجرادَ إنما توَجُّهه أبدا إلى ناحيةٍ مقصودة، وبهذا يظهر لك الجَمْعُ بين الآيتين . وروى البيهقى فى الشعب عن النّوّاس بن سمعان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافُتَ الفراش فى النار، كلّ

---

(١) القارعة : ٤، والآية : يوم يكون الناس كالفراش المبثوث .

(٢) القمر : ٧، والآية : يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر .

الكذب مكذوب إلا الكذب فى الحرب أو الكذب لإصلاح ذات البَيْن ، أو الكذب على امرأته ليرضيها . قال الغزالى : ولعلك تظنُّ أنَّ ذلك لنُقصانها وجهلها ، فاعلم أن جَهْلَ الإنسان أعظمُ من جهلها ؛ بل صورة الإنسان فى الإكباب على الشهوات صورة الفَرَاش فى التهافت على النار ؛ فلايزال يَرْمِى بنفسه فيها إلى أن ينغمس فيها ، ويهلك هلاكا مؤبَّدا ؛ فليت جهل الآدمى كان كجَهْل الفراش ؛ فإنما اغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلّصت فى الحال ، والآدمى يبقى فى الحال أبَدَ الآبادِ ، ومدةً مؤبَّدة ؛ ولذلك كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم تتهافتون فى النار تهافُتَ الفراش وأنا آخذ بحُجزِكم .

قلت : وقد قدمنا أنَّ الفرش صغارُ الإبل كالعجاجيل والفُصْلان[1] ؛ لأنها تُفرش للذبح ويفرش ما ينسج من صوفها .

فإن قلت : ما مِيزةُ تقديم[2] الحمولة على الفرش مع احتياج الناس إليهما أكثر ومنفعتها أهمّ .

فالجواب أن الحمولة أعظم فى الانتفاع ، لأنها للأكل والحَمْل . قال الفراء : ولم أسمع بالفراش يُجمع . ويحتمل أن يكون مصدراً سُمِّىَ به ، من قولهم : فرشها الله فَرْشا .

(فُرْقَان) : له ثلاثة معان : القرآن ، ومنه[3] : « يجعل لكم فرقانا » ؛ أى تفرقه . ويوم بَدْر ؛ ومنه[4] : « وما أنْزَلْنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقان »[5] .

---

(١) جمع فصيل ، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه . (٢) الأنعام : ١٤٢

(٣) الأنفال : ٢٩ (٤) الأنفال : ٤١ (٥) لم يذكر المعنى الثالث .

وفى القاموس : الفرقان : القرآن ، وكل ما فرق به بين الحق والباطل ، والنصر ، والبرهان ، والصبح أو السحر ، والتوراة ، وانفراق البحر ، ومنه : آتينا موسى الكتاب والفرقان . ويوم الفرقان يوم بدر .

(فُلْك[1]) : سفينة ، ويستوى فيها المفرد والجمع .

(فقه) : فهم ، ومنه[2] : « لا يَفْقَهُونَ » . و « ما نَفْقه كثيراً مما تقول[3] » .

(فُومِها[4]) : هو الثوم . وقيل الحنطة بالعبرانية . ويقال : فوموا ، أى اختبزوا ، ويقال : الفُوم الخرنوب .

(للفقراء الذين أُحْصِرُوا فى سبيل الله[5]) : متعلق بمحذوف ، تقديره : الإنفاق للفقراء المهاجرين الذين حُبِسوا بالعدوّ أو بالمرض ، والمرادُ بهم أصحابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله[6] : « إنما الصدقاتُ للفقراء » ـ فالمرادُ أنَّ الزكاةَ تُدفع للفقراء ، وهم أحد الأصناف الثمانية . والفقيرُ الذى له بُلْغَة من العيش ؛ وقد قدمنا أنّ المسكينَ أحوجُ من الفقير ؛ لأنه الذى لا شىء له بالكلية . والعاملين عليها الذين يَقْبِضُونها ويفرّقونها . والمؤلّفة قلوبهم : كفار يُعطَونها ترغيباً فى الإسلام ، كإعطائه [٢٤٦ ب] للأقرع بن حابس مائةً من الإبل . وقيل : هم مسلمون يُعطَون ليتمكّنَ إيمانُهم . واختلف : هل بقى حكمُهم أو سقط للاستغناء عنهم ؟ وفى الرِّقَاب : يعنى العبيد يُشترون ويُعتَقون . والغارِمين : يعنى مَنْ عليه دين . ويشترط أن يكونَ استدانَ فى غير فَسادٍ ولا إسراف . وفى سبيل الله : يعنى الجهاد ، فيُعطَى منها المجاهدون ويشترون منها آلاتِ الحرب . واختلف هل تُصْرَف فى بناءِ الأسوار وإنشاء الأساطيل ؟ وابن السبيل : يعنى الغريب المحتاج .

(فَرِيضةً[7]) ؛ أى حقًّا محدودا ، ونصبه على المصدر . وقد قدمنا أن لفظة

---

(١) الأنبياء : ٣٣ (٢) الأنفال : ٦٥ (٣) هود : ٩١
(٤) البقرة : ٦١ (٥) البقرة : ٢٧٣ (٦) التوبة : ٦٠
(٧) التوبة : ٦٠

الفَرْض تحتمل معانى كثيرة ؛ بمعنى التقدير ، ومنه الحديث : زكاةُ الفِطْر فريضةٌ ؛ أى مقدّرة . وبمعنى النزول ، ومنه : «سورةٌ أنْزَلْناها وفَرَضْناها»[1] . وقرىء بتشديد الراء ، يعنى بَيَّنَّاها .

وبمعنى التحليل ؛ قال تعالى[2] : «ما كان على النبى من حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللهُ له» ، يعنى فيما أحلّ اللهُ له . وقال تعالى[3] : «وقد فَرَضْتُم لهن فريضةً» ، أى سمّيتم . وقوله[4] : «فَمَنْ فَرَضَ فيهن الحجَّ» : يعنى أوجب . وقال تعالى[5] : «قد فَرَضَ اللهُ لكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم» ، يعنى بيّنها .

فإن قيل : لم ذكر مصرف الزكاة فى تضاعيف ذِكر المنافقين ؟

فالجواب أنه خَصّ مصرف الزكاة فى تلك الأصناف ليقطع طَمَعَ المنافقين فيها ، فاتّصَلَتْ هذه الآية فى المعنى بقوله[6] : «ومنهم مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصدقات» .

(فُسوق بكم[7]) : خطاب لمن وقع فى الإضرار فى الكاتب والشهيد المتقدمين فى الذكر . وقد قدمنا أنّ الفِسْقَ هو الخروج عن الطاعة ، وقد عبّر سبحانه عن المنافق بالفاسق فى قوله تعالى[8] : «أفَمَنْ كان مُؤْمِناً كَمَنْ كان فاسِقاً» .

(فُرادَى[9]) : منفردين عن أموالكم وأولادكم . وأما قوله[10] : «قل إنما أعِظُكم بواحدة أنْ تقوموا لله مَثْنَى وفُرادَى» ـ فمعناها أن تقوموا للنظر فى أمرِ محمد صلى الله عليه وسلم قِياماً خالصاً ليس فيه اتّباعُ هَوى ولا مَيْل ،

---

(١) النور : ١ (٢) الأحزاب : ٣٨ (٣) البقرة : ٢٣٧
(٤) البقرة : ١٩٧ (٥) التحريم : ٢ (٦) التوبة : ٥٨
(٧) البقرة : ٢٨٢ (٨) السجدة : ١٨ (٩) الأنعام : ٩٤ (١٠) سبأ : ٤٦

وليس المراد بالقيام بالأمر الجد فيه ، وأن تقوموا بدل أو عطف بيان ، أو خبر ابتداء مضمر . ومَثْنَى وفُرَادى حال من الضمير فى « أن تقوموا » . والمعنى أن تقوموا اثنين اثنين للمناظرة فى الأمر وطلباً للتحقيق . وتقوموا واحدا واحدا لاستحضار الذِّهْن وإجماع الفِكرة .

(فُرُطا[1]) : من التفريط والتضييع ، أو من الإفراط والإسراف .

(فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم[2]) : الضمير للملائكة ؛ وقد قدمنا أنهم إذا سمعوا الوَحْىَ إلى جبريل يفزعون لذلك فزعاً شديدا ، فإذا زال الفَزَعُ عن قلوبهم قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقّ . ومعنى فُزِّع زال عنها الفزَع ، فالضمير فى قالوا للملائكة .

فإن قلت : كيف ذلك ولم يتقدم للملائكة ذِكْرٌ يعودُ الضمير عليه ؟

والجوابُ أنه قد وضحت إليهم إشارة بقوله[2] : « ولا تَنْفَعُ الشفاعةُ عنده إلّا لِمَنْ أَذِن له » ؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكةَ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فذِكْرُ الشفاعة يقتضى ذِكْرَ الشافعين ؛ فعاد الضمير على الشفعاء الذين دَلّ عليهم لَفْظُ الشفاعة .

فإن قيل : بِمَ اتّصل قوله : حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم ؟ ولأى شىء وقعت حتى غاية ؟

فالجواب : أنه اتصل بما فُهِم من الكلام مِن أنّ ثَمَّ انتظارا للإذن فى الشفاعة وتوقّفا وفزَعا حتى يَزول الفزَع بالإذْن فى الشفاعة ؛ ويقرب من هذا المعنى قوله[3] : « يَوْم يَقُوم الرُّوحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلّمون... » الآية .

---

(١) الكهف : ٢٨ (٢) سبأ : ٢٣ (٣) النبأ : ٣٨

ولم يفهم بعضُ الناس اتصالَ هذه الآية بما قبلها فاضطربوا فيها حتى قال بعضهم : هي في الكفار بعد الموت ، ومعنى فُزِّع عن قلوبهم - رأوا الحقيقةَ ؛ قيل لهم : ماذا قال ربُّكم ؟ فيقولون : قال الحق ، فيقرّون حين لا ينفعهم الإقرار .

والصحيح أنها في الملائكةِ لوُرود ذلك في الحديث ؛ ولأن القَصْد الردُّ على الكفار الذين عبدوا الملائكةَ بذكر شدةِ خَوْفِ الملائكة من الله وتعظيمهم له .

(فُروج[1]) : انشقاق[2] ؛ وذلك دليل على إتقان الصنعةِ . ومنه[3] : « أولم يَرَ الذين كفَرُوا أنَّ السموات والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتقناهما » . والفروج والانشقاق والفُطور والصدوع والفتوق بمعنى واحد .

(فِراشًا[4]) : بمعنى مهادًا ، يعني ذلّلناها لكم ، ولم نجعلها صعبةً غليظة لا يمكن الاستقرارُ عليها .

(فُؤَاد[5]) : قلب ، وجمعه [١٢٤٧] أفئدة .

(فِصَال[6]) من الرضاع ، وإنما عبر عن مُدّته بالفصال ، وهو الفطام ، لأنه منتهى الرضاع .

فإن قلت : قد قال في سورة لقمان : « وفِصالُه في عامين » ، وفي الأحقاف[6] : « وفِصالُه ثلاثون شهرًا » ؟

فالجواب أنّ ما في لقمان مدة رضاعه ، وفي الأحقاف حَمْلُه وفصاله ثلاثون شهرًا . وهذا لا يكون إلا بأن ينقص من أحد الطرفين ؛ وذلك إما أنْ

---

(١) ق : ٦ (٢) وفي المفردات (٣٧٥) : شقوق وفتوق . (٣) الأنبياء : ٣٠

(٤) البقرة : ٢٢ (٥) القصص : ١٠ (٦) في لقمان ، آية ١٤ ، وفي الأحقاف آية ١٥

تكون مدة الحمل ستة أشهر ، ومدةُ الرضاع حَوْلين كاملين ، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ، ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر . ومن هذا أخذ عليٌّ بن أبي طالب مدةَ الحمل ستة أشهر .

(فِتنة[1]) : وردت على أوجه : الشرك : « والفِتْنَةُ أشَدُّ من القَتْل[1] » . « حتى لا تكونَ فِتْنَةٌ[2] » : والضلالُ : « ابتغاء الفِتْنَة[3] » . والقَتْل : « أنْ يَفْتِنَكم الذين كفَرُوا[4] » . والصدّ : « واحذَرْهم أنْ يَفْتِنُوك[5] » . والضلالة : « ومَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَه[6] » . والمعذرة : « ثم لم تكن فِتْنَتُهُم[7] » . والقضاء : « إن هي إلا فِتْنَتُك[8] » . والضلالة : « ألا في الفِتْنَةِ سقَطُوا[9] » . والمرض : « يُفتنون في كل عام[10] » . والعبرة : « لا تجعَلْنا فِتْنَة[11] » . والعقوبة : « أن تُصيبهم فِتْنة[12] » . والاختبار : « ولقد فتَنَّا الذين مِنْ قبلهم[13] » . والعذاب : « جعل فِتْنَةَ الناسِ كعذاب الله[14] » . والإحراق : « يوم هُمْ على النار يُفْتَنون[15] » . والجنون : « بأيِّكم المَفْتُون[16] » .

(فرعون) : قد قدمنا أن اسْمَه الوليد بن مصعب . وقيل إن كلّ مَنْ ملك مصر يسمّى فرعونا ، كما يقال تُبّع لكل من ملك اليمن ، أي يَتْبع صاحبه كالخليفة يخلف غيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ؛ قال : كان فرعون فارسيا من أهل إصطخر .

---

(١) البقرة : ١٩١ (٢) الأنفال : ٣٩ (٣) آل عمران : ٧
(٤) النساء : ١٠١ (٥) المائدة : ٤٩ (٦) المائدة : ٤١
(٧) الأنعام : ٢٣ (٨) الأعراف : ١٥٥ (٩) التوبة : ٤٩
(١٠) التوبة : ١٢٦ (١١) يونس : ٨٥ (١٢) النور : ٦٣
(١٣) العنكبوت : ٣ (١٤) العنكبوت : ١٠ (١٥) الذاريات : ١٣
(١٦) القلم ٦

(فِجَاجاً[١]) : مسالك ، واحدها فَجّ .

(فِرْدوس[٢]) : مدينة في الجنة، وهي جنة الأعناب. وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ؛ قال : الفردوس بستان ـ بالرومية ؛ وأخرج عن السُّدِّي ؛ قال : الكَرْم بالنبطة ، وأصله فرداسا.

فإن قلت : يُفهم من إعادة الضمير عليها مؤنثا على معنى الجنة ؛ وهذا مخالفٌ لما ذُكر في سورة المعارج ؛ أنه ذكر أوصافَ هؤلاء، فقال[٣] : وأولئكَ هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» ـ « في جناتٍ مكرمون ؛ فدلّ على أنها جنات ؛ وهو الصحيح .

قلت : لا تنافي بينهما ؛ لأنه ذكر في المَعارِجْ مسكن كل فرد فرد ، وهنا ذكر جَنَّات الفِرْدَوْس التي هي مسكنه عليه الصلاة والسلام ، ومساكن مَنِ اتبعه من أمته ؛ ولذلك ورد في الحديث : "إذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة" ، ومنه[٤] : تفجر أنهار الجنة .

(في) حرف جر له معان : بمعنى الظرفية مكانا أو زمانا ، نحو[٥] : « غُلِبت الرُّومُ في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون في بِضْع سنين » . حقيقةً كالآية ، أو مجازا ، نحو : « ولكم في القصاصِ حَيَاةٌ[٦] » . « لقد كان في يوسف وإخوتهِ آياتٌ للسائلين[٧] » . « إنَّا لَنَرَاكَ في ضَلَالٍ مُبِين[٨] » .

---

(١) الأنبياء : ٣١ ، ونوح ٢٠ (٢) الكهف : ١٠٧ ، والمؤمنون ١١

(٣) الجزء الأول من قوله أولئك هم الوارثون . . . في سورة المؤمنون ١٠ ، ١١ ، لا المعارج . أما قوله : في جنات مكرمون فني المعارج كما ذكر ، آية ٣٥ ، فالعبارة فيها اضطراب ، وحقها : إنه ذكر هنا أوصاف هؤلاء فقال . وذكر في المعارج في جنات مكرمون . . .

(٤) لعله يشير إلى قوله تعالى : وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ـ آية ٣٤ من سورة يس . (٥) الروم : ٢ (٦) البقرة : ١٧٩ (٧) يوسف : ٧

(٨) الأعراف : ٦٠

ثانيها ـ المصاحبة كمع ، نحو[1] : « ادْخُلوا فى أُمَمٍ » ؛ أى معهم ـ « فى تسع آيات » .

ثالثها ـ التعليل، نحو[2] : « فَذَلِكُنَّ الذى لُمْتُنَّنِي فيه » . «[3] لَمَسَّكم فيما أفَضْتُمْ » ؛ أى لأجله .

رابعها ـ الاستعلاء ؛ نحو[4] : « لأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذوع النخل » .

خامسها ـ معنى الباء ؛ «[5] يَذْرَؤُكم فيه » ؛ أى بسببه .

سادسها ـ معنى إلى ، نحو[6] : « رَدُّوا أيديهم فى أفواههم » ؛ أى إلى أفواههم .

سابعها ـ معنى مِن ؛ نحو[7] : « يومَ نبعثُ فى كُلِّ أمةٍ شهيداً » ، بدليل الآية الأخرى[8] .

ثامنها ـ معنى عن ؛ نحو[9] : « فهو فى الآخرة أعمى » ؛ أى عنها وعن محاسنها .

تاسعها ـ المقايسة ، وهى الداخلة بين مفضول سابق وفاضلٍ لاحق ؛ نحو[10] : « فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

عاشرها ـ التوكيد ، وهى الزائدة ، نحو[11] : « وقال ارْكَبُوا فيها » ؛ أى اركبوها .

(الفاء) ثلاثة أنواع عاطفة ، ورابطة ، وزاحفة للفعل بإضمار أن ، ومعناها للترتيب والتعقيب والتسبّب .

---

(١) الأعراف : ٣٨ (٢) يوسف : ٣٢ (٣) النور : ١٤ (٤) طه : ٧١
(٥) الشورى : ١١ (٦) إبراهيم : ٩ ، والآية : فردوا . . . (٧) النحل : ٨٩
(٨) فى السورة نفسها ، آية ٨٤ (٩) الإسراء : ٧٢ (١٠) التوبة : ٣٨
(١١) هود : ٤١

حرف القاف

(قَسَتْ قُلُوبُكم[1]) : يبست وصلبت ؛ وقلب قاسٍ ، وجاس ، وعاسٍ ، وعات ؛ أى صُلْب يابس جاف عن الدين غير قابل له . وهذا الخطاب لبنى إسرائيل لقُبح قساوةِ قلوبهم بعد رؤيتهم للآيات ؛ فهى كالحجارة أوْ أشدُّ قسوة ، ولم يقل أقسى مع [٢٤٧ ب] أنّ فعل القسوة يُبْنَى منـــه أفعل ، لكون أشد أدلّ على فرط القسوة .

(قَفَّيْنا[2]) : مأخوذ من القفا ، أى جاء بالثانى فى قَفَا الأول .

(قالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهودُ على شىء[3]) : سببُها اجتماعُ نصارى نجران مع يهود المدينة ، فذمّت كلُّ طائفة الأخرى ، وهذا أيضاً منهم موجود فى هذا الزمان ، فإن كل طائفة منهم مُقِرَّة بأن الإسلام خير من دين الفريق الآخر .

(قال الَّذِين لايعلمون[4]) : هم هنا وفى الموضع الأول[5] كفّار العرب على الأصح ، وقيل هنا : هم اليهود والنصارى .

(قال الَّذِين مِنْ قَبْلهم[6]) : يعنى اليهود ، والنصارى على القول بأنّ الذين لا يعلمون كفّار العرب . وأما على القول بأن الذين لا يعلمون اليهود والنصارى فالذين مِنْ قبلهم أمم الأنبياء المتقدمين .

(قد بيَّنَّا الآيات[7]) : أخبر تعالى أنه قد بيّن الآيات الدالة على وحدانيته وعلى صِدْقِ رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكيف تطلب الآيات بعد بيانها ،

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) البقرة : ٨٧ (٣) البقرة : ١١٣
(٤) البقرة : ١١٨ ، والآية : وقال . . . (٥) البقرة : ١١٨
(٦) البقرة : ١١٣ (٧) البقرة : ١١٨

إنما فهمها الذين يوقنون ؛ ولذلك خصهم بالذكر بخلاف الكفّار المعاندين ، فإنهم لا تنفعهم الآيات لعنادهم .

(قانتون[١]) : القنوت له خمسة معـــان : العبادة ، والطاعة ، والقيام فى الصلاة ، والدعاء ، والسكوت .

(قَضَى[٢]) : ورد على أوجه : الفراغ : « فإذا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُم[٣] » . والأمر : « إذا قَضَى أمْراً[٤] » . والأجل : « فنهم مَنْ قَضَى نَحْبَه[٥] » . والفصل : « لقُضِيَ الأمْر بيني وبينكم[٦] » . والمضى : « ليَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مفعولا[٧] » . والهلاك : « لقُضِيَ إليهم أجَلهم[٨] » . والوجوب : « لمّا قُضِيَ الأمر[٩] » . والإبرام : « فى نفس يعقوب قَضَاها[١٠] » . والإعلام : « وقَضَيْنَا إلى بنى إسرائيل[١١] » . والوصية : « وقَضَى ربُّكَ ألا تَعْبُدوا إلا إيّاه[١٢] » . والأداء والوفاء : « [١٣]ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قَضَيْتُ » : يعنى أديت ووفيت والفراغ : « قُضِيَ الأمْرُ الذى فيه تستفتيان[١٤] » ؛ أى فرغ ومضى . والحكم : « واللهُ يَقْضِي بالحق[١٥] » ؛ أى يحكم . والموت : « فلما قضينا عليه الموت[١٦] » . والخلق : « فقَضَاهُنّ سَبْعَ سموات فى يومَيْن[١٧] » . والفعل : « كلاّ لمّا يَقْضِ ما أمَره[١٨] » ، يعنى حقا لم يفعل . والعهد : « إذ قَضَيْنَا إلى موسى الأمْر[١٩] » .

(قَوَاعد[٢٠]) البيت : أساسه . والقواعد[٢١] من النساء التى قعدت عن الولد .

---

(١) البقرة : ١١٦ (٢) البقرة : ١١٧ (٣) البقرة : ٢٠٠ (٤) البقرة : ١١٧
(٥) الأحزاب : ٢٣ (٦) الأنعام : ٥٨ (٧) الأنفال : ٤٢ (٨) يونس : ١١
(٩) إبراهيم : ٢٢ (١٠) يوسف : ٦٨ (١١) الإسراء : ٤ (١٢) الإسراء : ٢٣
(١٣) القصص : ٢٨ (١٤) يوسف : ٤١ (١٥) غافر : ٢٠ (١٦) سبأ ١٤
(١٧) فصلت : ١٢ (١٨) عبس : ٢٣ (١٩) القصص : ٤٤
(٢٠) الآية : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ــ سورة البقرة : ١٢٧
(٢١) النور : ٦٠ ــ والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا .

وقيل التى إذا رأيتها استقذرتها . وقيل : قعدت عن التصرف .

(قَيُّوم[١]) : من أسماء الله تعالى ، وزنه فَيْعُول . ومنه بناء مُبالغة ، من القيام على الأمور . ومعناه ، مُدَبِّر الخلائق فى الدنيا والآخرة . ومنه : « أَفَمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كسبَتْ[٢] » . قال الواسطى : القيوم هو الذى لا ينام بالسريانية .

(قدر) : له خمسة معان : من القدرة ، ومن التقدير ، ومن المقدار ، ومن القدر والقَضاء ، وبمعنى التضييق ؛ نحو[٣] : « ومن قُدِرَ عليه رزقُه » وقد يشدد الفعل ويخفف . والقدَر ـ بفتح الدال وإسكانها القضاء والقدار ، وبالفتح لا غير من القضاء .

(قَوَّامون[٤]) : قام له ثلاثة معان : من القيام على الرِّجْلين ، ومن القيام على الأمر بتدبيره وإصلاحه ؛ وهذا بناء مبالغة ، وقام الأمرُ ظهر واستقام ، ومنه[٥] : « الدين القَيِّم » . قال ابن عباس : الرجال أمراء على النساء .

(قانِتات[٦]) : أى النساء الصالحات فى دينهن مطيعات لأزواجهن ، أو مطيعات لله فى حق أزواجهن .

(قَتَلْنا المسيحَ عيسى ابن مريم[٧]) : هذا من قول اليهود على وَجْه الافتخار والجُرْأة مع أنهم كذبوا فى ذلك ولزمهم الذنبُ وهم لم يقتلوه ؛ بل صلبوا الشخصَ الذى أُلقى عليه شبهه وهم يعتقدون أنه عيسى . وروى أنَّ عيسى قال للحواريين : أيكم يُلْقَى عليه شبهى فيُقتل ويكون رفيقى فى الجنة ؟ فقال أحدهم : أنا ، فألقى عليه شبه عيسى ، فقُتل على أنه عيسى . وقيل : بل دل على عيسى

---

(١) البقرة : ٢٥٥ (٢) الرعد ٣٣ (٣) الطلاق : ٧ (٤) النساء : ٣٤
(٥) التوبة : ٣٦ (٦) النساء : ٤ (٧) النساء ١٥٧

يهودىٌّ ، فألقى الله شَبَه عيسى عليه ، فقُتل على أنه عيسى ، ورُفع عيسى إلى السماء .

وسببُ قتلهم له أنهم قالوا فى عيسى : إنه ساحر فاغتمّ لذلك ودعا عليهم ، فجعل اللهُ منهم قِردة وخنازير ، فبلغ الخبر إلى ملكهم ، وخاف من دعائه ، فأمر بقتله . ويقال : إن اسم الرجل الذى أُلقى عليه شبه عيسى اشيوع [٢٤٨] ، وهكذا وقع لنبينا صلى الله عليه وسلم حين اجتمع قُريش لقتله ؛ قال لعلى رضى الله عنه : ارْقُد فى مكانى حتى تدخل عليك قريش ، ويريدون قتلك ؛ فإن قُتِلت كنتَ رفيق فى الجنة ، فدخلوا عليه فوجدوه عليّاً ، وانقلبوا خاسئين ، ولم يقدروا على شىء ، فقال الله لجبريل وميكائيل : انظرا إلى حبيبى كيف فداه ابنُ عمه ؛ وعزّتى وجلالى لأجعلنّ اليهودَ والنصارى فداءً لأمة حبيبى ؛ إنى أردتُ رَفْعَ عيسى إلىّ ، فجعلت إيذاءَ اليهود سبباً لذلك ، كذلك اجعلوا وسوسةَ اللعين سبباً لإغوائهم وأرحمهم مع ذلك .

فانظر هذه الرحمة النازلة عليك يا محمدىّ ، ورحم الله القائلَ : لولا المؤمن لضاعت جنّةُ النعيم ، ولولا الكافر لضاعت نارُ الجحيم ، ولولا المعاصى لضاعت رحمةُ الرحيم .

([١] القناطير المقنطَرة) : جمع قنطار ، وهو ألف ومائتا أوقية . وقيل ألف ومائتا مثقال ؛ وكلاهما مروىٌّ عنه صلى الله عليه وسلم ؛ وأكّدها بالمقنطرة كقولهم : ألف مؤلّفة . وقيل المضروبة دنانير أو دراهم . وقال الفراء : المقنطرة المضعفة ، كأن القناطير ثلاثة والمضعفة تسعة .

([٢] قَرْحٌ) ؛ أى جراح ، ومعنى الآية : إن مسكم قتل أو جراح فى أحُدٍ

---

(١) آل عمران : ١٤ ـ والقناطير المقنطرة . (٢) آل عمران : ١٤٠

فقد مَسَّ الكفارَ مِثْلُه فى بَدْر . وقيل : قد مَسَّ الكفار يوم أحد مِثْلُ ما مسكم فيه ؛ فإنهم نالوا منكم ونِلْتُم منهم ؛ وذلك تسلية للمؤمنين بالتأسّى .

([١]قد خلت مِنْ قَبْلكم سُنَن) : خطاب للمؤمنين وتأنيس لهم . وقيل للكفار تخويفاً لهم .

([٢]قالوا كُنّا مستَضْعفين فى الأرض) : اعتذار عن التوبيخ الذى وبختهم الملائكة ؛ أى لم يقدروا على الهجرة ؛ وكان اعتذاراً بالباطل ، ولذلك قالوا لهم : « ألم تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فَتُهاجِرُوا فيها[٢] » .

(قَوّامين لله شُهَداءَ بالقِسْطِ[٣]) : أى بالعَدْل مجتهدين فى إقامته .

فإن قلت : ما فائدة تقديم القسط فى آية النساء[٤] وتأخيره فى آية المائدة ؟

والجواب آيات النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط ، قال تعالى[٥] : «مَنْ يعمل سُوءًا يُجْزَ به .. » الآية ؛ وقال بعد[٦] : « ويستفتونك فى النساء » ، ثم قال[٦] : « وأنْ تقوموا لليتامى بالقسط » ؛ وتوالت الآى بَعْدُ على هذا المعنى ، فقدم القسط ليناسب ما ذكر . وأما آية المائدة فذكر قبلها الأمر بالطهارة ، ثم تذكيره سبحانه بتذكّر نعمته ، والوقوف مع ما عَهِد به إلى عباده والأمر بتقواه ؛ فناسب قوله : كونوا قَوّامين لله ؛ ثم اتبع لما بنى على ذلك من الشهادة بالقسط . فتأمل ما بنى على هذه وما بنى على آية النساء يَتَّضح لك ما قلت .

(قال اتَّقُوا اللهَ إنْ كنتُم مُؤْمنين[٧]) : هذا من قول عيسى للحواريين حين سألوه نُزولَ المائدة ، ويحتمل أن يكون زَجْراً لهم عن طلبها واقتراح

---

(١) آل عمران : ١٣٧ — (٢) النساء : ٩٧ — (٣) المائدة : ٨
(٤) النساء : ١٣٥ ـ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . — (٥) النساء : ١٢٣
(٦) النساء : ١٢٧ — (٧) المائدة : ١١٢

الآيات . ويحتمل أن يكون زَجْراً عن الشك الذى يقتضيه قولهم : « هل يستطيع رَبُّكَ » على مذهب الزمخشرى ، أو عن البشاعة التى فى اللفظ ، وإن لم يكن فيه شك . وقوله : « إن كنتم مؤمنين » هو على ظاهره على مذهب الزمخشرى[١].
وأما على مذهب ابن عطية وغيره فهو تقرير لهم ، كما تقول : افعل كذا إن كنت رجلا . ومعلوم أنه رجل . وقيل إن هذه المقالة صدرت منهم فى أول الأمر قبل أنْ يَرَوا معجزات عيسى .

(قالوا نُرِيد أن نأْكُلَ منها[٢]) ؛ أى أكْلاً نتشرف به بين الناس ، وليس مرادهم شهوة البطن .

(قال عيسى ابنُ مَرْيَم اللهمَّ ربنا أَنزِلْ علينا مائِدَةً من السماء[٣]) : أجابهم عيسى إلى سؤال المائِدَة من الله ، فلبس جُبة شعر وقام يصلى ويدعو ويبكى .

(قال اللهُ إنى مُنَزِّلُها عليكم[٤]) : أجابه الله إلى ما طلب ، ونزلت المائدة عليها خُبْز وسمك . وقيل زيت ورُمّان . وقال ابن عباس : كان طعام المائِدة ينزل عليهم حيثما نزلوا . والكلام فى قصة المائِدة كثير تركْتُهُ لعدم صحته .

(قال اللهُ يا عيسى ابنَ مريم أأنتَ قُلْتَ لِلنّاس ...[٥]) الآية ، قال ابن عباس والجمهور : هذا القولُ من الله يكون يوم [٢٤٨ ب] القيامة على رءُوس الأشهاد ، ليرى الكافرُ تبرئةَ عيسى مِمّا نسبوه إليه ؛ ويعلمون أنهم كانوا على باطل . وقال السدّى : لما رفع الله عيسى إليه قالت النصارى ماقالت ، وزعموا أنّ عيسى أمَرهم بذلك ، فسأله الله حينئذٍ عن ذلك .

---

(١) الكشاف : ١ ـ ٢٦٢ (٢) المائدة : ١١٣ (٣) المائدة : ١١٤
(٤) المائدة : ١١٥ (٥) المائدة : ١١٦

([١] قالوا إنْ هى إلّا حياتُنا الدنيا) : حكاية قولهم فى إنكار البعث الأخروى .

([٢] قالوا يا حَسْرَتَنا على ما فَرَّطْنا فيها) : الضمير بفيها للحياة الدنيا ؛ لأن المعنى يقتضى ذلك وإن لم يجْرِ لهـا ذكر . وقيل الساعة ؛ أى فرطنا فى شأنها والاستعداد لها . والأول أظهر .

([٣] قد نَعْلَمُ إنّه لَيَحْزُنُكَ الذى يَقُولُون) : قرىء يحزن حيث وقع بضم الياء من أحزن إلا قوله [٤] : « لايَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبر » . وقرأ الباقون بفتح الياء من حزن الثلاثى ، وهو أشهر فى اللغة ، والذى يقولون : قولُهُمْ شاعرٌ ساحر كاهن .

([٥] قَرَاطِيس) : هى الصحائف . قال الجواليقى [٦] : يقال إن القرطاس أصله غير عربى . ومعنى هذه الآية أن الله ردَّ بها على اليهود بأنه ألزمهم ما لا بدَّ لهم منه ؛ لأنهم أقرّوا بإنزال التوراة على موسى . وقيل القائلون قريش ؛ وألزموا ذلك ؛ لأنهم كانوا مُقِرِّين بالتوراة .

([٧] قد جاءكم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكم) : جمع بصيرة، وهى نورُ القلب، والبصر : نور العين ، وهذا الكلام على لسان نَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله [٨] : « وما أنا عليكم بحفيظ » .

(قائلون [٩]) : من القائلة .

([١٠] قليلا ما تَذَكَّرُون) ، انتصب قليلا بتذكرون ، أى تذكرون تذكيراً قليلا ، وما زائدة للتأكيد .

---

(١) الأنعام : ٢٩ (٢) الأنعام : ٣١ (٣) الأنعام : ٣٣
(٤) الأنبياء : ١٠٣ (٥) الأنعام : ٩١ (٦) المعرب : ٢٧٦
(٧) الأنعام : ١٠٤ (٨) هود : ٨٦ (٩) الأعراف : ٤ (١٠) الأعراف : ٣

(قالوا إنّا كُنّا ظالمين[1]) : اعتراف منهم بأنهم كانوا ظالمين لما جاءهم العذابُ ، ولو اعترفوا قبل ذلك لنفعهم .

([2]قاسَمَهُمَا) ، من القسم ، وهو الحلف ، وذكر قسم إبليس لآدم وحوّاء بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين ، لأنه اجتهد فيه ، أو لأنه أقسم لهما وأقسما له أن يَقْبلا نَصيحته .

(قَبيلُهُ[3]) : أمته . ومعنى الآية أن إبليس وجماعته يرى الإنسان من حيث لايرونهم فى الغالب ؛ لأنه قد جاءت فى رؤيتهم أحاديث كثيرة ، فتُحمل الآية على الأكثر جَمْعــاً بينه وبين الأحاديث ، وفى الآخرة يرام الإنسان ولا يرونهم ، عكسَ الدنيا ، فسبحان من قَلب الحقائق .

(قالوا وَجَدْنَا عليها آباءَنا[4]) : اعتذروا بعُذْرَين باطلين : أحدهما تقليد آبائهم ، والآخر افتراؤهم على الله بأنه أمرهم ؛ فردّ الله عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء .

(قالت أُخرَاهُم لأولاهُم[5]) : قد قدمنا أن الأولى هم الرؤساء والقادة ، والأخرى هم الأتباع والسفلة ، والمعنى أن أُخرَاهم طلبوا من الله أنْ يُضاعف العذاب لأولاهُم ؛ لأنهم أضلُّوهم . وليس المعنى أنهم قالوا لهم ذلك خطاباً لهم ، إنما هو كقوله : قال فلان لفلان كذا ، أى قال عنه وإن لم يخاطبه به .

([6]قال أَوَلَوْ كنّا كارِهين) : الهمزة للاستفهام والإنكار ، والواو للحال ؛ تقديره : أنعود فى ملتكم وما يكون لنا أنْ نعود فيها ونحن كارهون . وهذا

---

(١) الأعراف : ٥ (٢) الأعراف : ٢١ (٣) الأعراف : ٢٧
(٤) الأعراف : ٢٨ (٥) الأعراف : ٣٨ (٦) الأعراف : ٨٨

الخطاب من شُعيب لقومه لمّا قالوا له : « لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعُودن في ملتنا » .

فإن قلت : العود إلى الشيء يقتضى أنه فَعل قَبل ذلك ؛ وهذا محال في حقّ الأنبياء قبل الرسالة .

والجواب أنّ « عادَ » قد تكون بمعنى صار ، فلا تقتضى تقدُّم ذلك الحال الذى صار إليه ؛ قاله ابن عطية . وقال الزمخشرى[1] : إن المراد بذلك الذين آمنوا بشُعيب ، وإنما أدخلوه فى الخطاب معهم بذلك كما أدخلوه فى الخطاب معهم بقولهم : « لنخرجنّك والذين آمَنُوا معكَ من قريتنا » ، فغلبوا فى الخطاب بعود الجماعة على الواحد ، وبمثل ذلك لا يُجاب على قوله[2] : إن عُدْنا فى مِلّتِكم بعد إذْ نجّانا اللهُ منها ، وما يكون لنا أنْ نعودَ فيها إلا أن يشاءَ اللهُ » .

فإن قلت : ما معنى هذا الاستثناء من شُعيب مع عِلْمه بعصمته ، وأنه لا يعود فيها ، ولا يريد الله ذلك منه ؟

والجواب : ما قدمناه من أنّ الأنبياء يتبرءُون من إسناد الأمور إليهم ويتأدبون مع الله .

فإن قلت : ما المانع من أنّ الكفار ادّعُوا على الرسُل أنهم كانوا قبل [٢٤٩ ا] البعثة على ملّتهم وافتروا عليهم ذلك .

والجواب يمنع منه أنّ هذا أمر مشاهَد حسىّ ، وليس بعقلى ؛ وقالوا فى أصول الفقه : إن عددَ التواتر يقَعُ فى الأمر الحسىّ بخلاف العقلى ، فلو أقرّ

---

(١) الكشاف : ١ ـ ٣٢٦ (٢) الأعراف : ٨٩

عشرون ألفاً بعدم العالم لما قبلَ قولُهم بخلاف ما لو أخبر جماعة بقدوم زيد ، فإنا نقبل قولَهم على الكذب فيه . وأما الأول فالعقلُ يكذبهم ؛ نعم يحتمل أن يكون العود على حقيقته لاحتمال كَوْنِ الرسل لم يُظْهِروا لهم قبل البعثة أنهم مخالفون لدينهم ، فلما بعثوا إليهم أظهروا المخالفة .

فإن قلت إخراجهم إياهم من أرضهم عقوبةٌ ناشئةٌ عن عدم العَوْد ؛ فهلاَّ قالوا : لتعودنّ في مِلَّتِنا أو لنخرجنَّكم من أرضنا ؟

فالجواب أنَّ المقامَ مقامُ التخويف ؛ فلذلك بدءُوا بالإخراج .

(قال المَلأُ من قَوْمِ فِرْعون[١]) : حكى الكلامَ هنا عن الملأ ، وفي الشعراء[٢] عن فرعون ، فكأنه قد قاله هو وهُمْ ، أو قاله هو ووافقوه عليه كعادة جُلساء الملوك في اتّباعهم لما يقولون لهم .

(قالوا : إنَّ لَنَا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالبين[٣]) : هذا من قول السحرة ؛ طلبوا الأجر من فرعون إنْ غَلَبُوا موسى .

فإن قلت : لِمَ ورد هنا مجيء السحرةِ عقب قوله[٤] : « يأتوك بكل ساحر عليم » ، وأخَّرَ جمعهم ومجيئهم في الشعراء ، فقال[٥] : فجمعَ السحرةَ ... » الآيات المذكورة فاصلة .

فالجواب أن فيها إطناب يُناسبه ما تقدَّمَ من ذلك في مجاورة موسى عليه السلام ومكالَمَته فرعون مِن لَدُن قوله تعالى[٦] : « وإذ نادى ربُّك موسى أن ائْتِ القومَ الظالمين » . إلى هذه الآية ، ولم يقع في قصصه عليه السلام

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٠٩ (٢) في الشعراء ، آية ٣٤ : قال للملأ حوله .
(٣) سورة الأعراف ، آية ١١٣ (٤) الأعراف : ١١٢
(٥) الشعراء : ٣٨ (٦) الشعراء : ١٠

فى السُّوَر الوارد فيها قصصه من الإحالة فى مراجعة فرعون مثل الوارد هنا ؛ فناسب ما أُعْقِب به مما لم يقع الإخبارُ به فى الأعراف . ولما كان الواردُ قَبْلَ آية الأعراف مَبْنِيًّا على الإيجاز وتحصيل المراد بأوجز كلام ـ ناسبَهُ إيجازُ الآية المذكورة ، وورد كلٌّ مِنْ ذلك على مايجب ويناسب .

(قال : نعم ، وإنكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبين[1]) : لما طلبوا الجُعْل من التقريب من فرعون أنعم لهم بذلك ؛ فهذا عطف على معنى نعم ؛ كأنه قال للسحرة : نُعطيكم أجراً ، ونقرِّبكم ، واسم رئيسهم يومئذ شمعون أو يوحنّا .

فإن قلت : ما وَجْهُ حذفِ « إذاً » هنا وإثباتها فى الشعراء ؟

والجواب أن ذلك من الإطناب المذكور ، وأيضاً فهى مضمرةٌ مقدرة ؛ ومعناه : إن غلبتم قَرَّبْتُكم ، ورفعتُ منزلتكم ؛ فهى جزاء . وورد فى الشعراء مُفصحاً ؛ ليناسب بزيادتها ما مضَتْ عليه آيُ هذه السورة من الاستيفاء والإطناب .

(قالوا : يا موسى إمّا أنْ تُلْقِيَ وإما أنْ نكونَ نحْنُ المُلْقِين[2]) : أنْ هنا فى موضع نصب ؛ أى إما أن تفعل الإلقاء . ويحتمل أن تكون فى موضع رفع ؛ أى إمّا هو الإلقاء . وخَيَّر السحرةُ موسى فى أن يتقدم فى الإلقاء أو يتأخر ؛ وهذا فِعْل المُدِلّ الواثق بنفسه . والظاهرُ أن التقدُّم فى التخيلات والمخارق أحجج ؛ لأن بديهتها تمضى فى النفوس ؛ فلما أراد الحقُّ أن يُظْهِرَ نبوءَةَ موسى قوَّى نفسه ويقينَه ، ووثَّقه بالحق ، فأعطاهم التقدم ؛ فبسطوا وسَرُّوا حتى أظهر اللهُ الحق وأبطل سَعْيَهم .

---

(١) الأعراف ، آية ١١٤ — (٢) الأعراف : ١١٥

فإن قلت : ما معنى اختلاف كل السحرة وتخييرهم فى الإلقاء ؟

والجواب لأنه كان فى موطنين ، أو لعله كان قد تكرر منهم ، أو لعل بعضهم قال هذا وبعضهم هذا ، أولعل المعنى الذى حكى عنهم تعطيه العبارتان ؛ وهذا أقرب شىء لما بين اللغات من اختلاف المقاصد عند الواضع الأول ، أو قصد الإبهام على الخلاف فى ذلك ؛ ومع هذه الإمكانات يسقط الاعتراض رأساً .

(قال فرعونُ : آمنتُم به قبل أن آذَن لَكُم[1]) : [٢٤٩ ب] هذا قول فرعون دليل على وَهَن أمره ؛ لأنه إنما جعل إذنهم مفارقا لإذنه ، ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط . والضميرُ فى « به » يحتمل أن يعودَ على اسم الله تعالى ، ويحتمل أن يعودَ على عيسى عليه السلام ؛ وعنفهم على الإيمان قبل إذنه ، ثم ألزمهم أن هذا كان من اتفاق منهم ؛ فقال لهم موسى: إن غلبتُكم أتؤمنون بى ؟ فقالوا له : نعم ؛ فعلم بذلك فرعون ؛ فلهذا قال : إن هذا لمكر مكرتموه ؛ أى صنيع صنعتموه فى مصر ، لتستولوا عليها ، فلسوف تعلمون ما أفعلُ بكم .

فإن قلت : ما وجهُ إظهار اسم فرعون[2] فى هذه الآية وحذفه من طه[3] ؟

والجواب لأنه تقدّمها قوله[4] : « قال الملأ من قوم فرعون » ، فعرفت هذه الآية أنهم كانوا متولين للتجربة من تكذيب الآية ، وردّ ما جاء به موسى عليه ؛ ولم يجر هنا ذِكرٌ لفرعون ولا فيما يلى الآيةَ ويتلوها من المحاورة والمراجعة بين الملأ وأتباعهم إلى قوله : « رَبِّ موسى وهارون » ؛ فلما لم يقع إفصاح باسمه فى هذه الجملة مع أنه ليس القائل على كل حال : « آمنتم به »

---

(١) الأعراف : ١٢٣ (٢) الأعراف : ١٢٣ قال فرعون آمنتم به قبل آذن لكم

(٣) طه ٧١ : قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . . . (٤) الأعراف : ١٠٩

غير فرعون وإنْ بَعُدَ ذلك ، ولو لم يكن لبس البتة ، فإن كونه لم يجْرِ له ذِكْرٌ مما يقتضى أنْ يذكر .

ولما تقدم فى سورة طه أمْر موسى عليه السلام بإرساله إلى فرعون فى قوله تعالى[١] : « اذهَبْ إلى فرعونَ إنه طَغَى » ، وقوله لموسى وهارون[٢] : « اذهبا إلى فِرْعَوْن إنه طَغَى » ؛ ثم كرر ذلك ، ثم وقع بعد ذلك سؤال فرعون لهما فى قوله[٣] : « فمَن رَبُّكما ياموسى » ؛ فتكرَّرَ اسم فرعون ظاهر ومضمر ؛ ولم يجْرِ الملأ به ذِكْراً مُفْصحاً به ظاهراً البتة ولا مضمراً سوى الجارى مضمراً فى قوله[٤] : « فتنازَعُوا أمْرَهُم بينهم وأسَرُّوا النَّجْوَى . قالوا . . » إلى ما بعد هذا ـ من غير إظهارٍ البتّة ، فلتكرر اسم فرعون كثيراً ظاهراً ومضمراً ، وارتفاع اللَّبْس البتة ، حَسُنَ إتيانُه مضمراً فى قوله : قال آمنتم له ؛ إذ ليس الواردُ هناك كالواردِ فى الأعراف للافتراق من حيث ما ذكرنا .

(قد جاءكم الفَتْح . . . [٥] » : إن كان الخطاب للكفّار فالفَتْحُ هنا بمعنى الحكم : أى قد جاءكم الفتح الذى حكم اللهُ عليكم بالهزيمة والقتل والأسر ، وإن كان الخطاب للمؤمنين فالفَتْحُ هنا يحتمل أن يكونَ بمعنى الحكم ؛ لأنَّ الله حكم لهم . أو بمعنى النصر .

(قالوا : سمِعْنَا وهم لايسمعون[٦]) : أى سمعنا بآذاننا ، وهم لايسمعون بقلوبهم ، فسماعُهم كلاَسَماع .

(وقاتِلُوا المُشْرِكِينَ كافّةً [٧]) ؛ أى فى الأشهر الحرم ، فهذا نسخٌ لتحريم القتالِ فيها . « وكافة » حال من الفاعل أو المفعول .

---

(١) طه : ٢٤ (٢) طه : ٤٣ (٣) طه ٤٩ (٤) طه : ٦٢ ، ٦٣
(٥) الأنفال : ١٩ (٦) الأنفال : ٢١ (٧) التوبة : ٣٦

(قالوا لا تَنْفِرُوا في الحَرِّ[1]) : قائل هذه المقالة رجل من بني سلمة ممن صعب عليه السفَر إلى تبُوك في الحر ، فأمر اللهُ نبيَّه أن يقول[1] : « قل نارُ جهنم أشدُّ حرًّا لو كانوا يفقهون » ؛ لحرارةُ هذا السفر دفعت حَرَّ نارِ جهنم ، وكذلك الجوع والتعب الذي ينالُ الإنسان في الدنيا يقابَلُ في الآخرة بضده .

(قعد الذينَ كذَبُوا اللهَ ورسولَه[2]) : هم قوم لم يعتذِرُوا وكذَبوا في دعوام الإيمان ؛ إذ لو كانوا صادقين لم يتخلَّفُوا عن رسول الله ، فأخبر اللهُ رسوله بأنه سيُصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم .

(قَدَّرَه مَنَازِل[3]) : الضمير للقمر ؛ والمعنى قَدَّرَ سَيْرَهُ في المنازل ، ليعلموا عددَ السنين والأشهر والأيام والليالي ، ويكون القدر بمعنى التقدير ؛ كقوله تعالى[4] : « إنَّا كلَّ شيء خلقناه بقَدَر » . وبمعنى التصوير ؛ كقوله تعالى[5] : « فقَدَّرْنا فنعم القادرون » ؛ يعني صوَّرنا ، وبمعنى الوجود ؛ كقوله تعالى[6] : « إلا امرأته قَدَّرْناها من الغابرين » ؛ وبمعنى القضاء ؛ كقوله تعالى[7] : « فالتقى الماءُ على أمرٍ قَدْ قُدِر » . وبمعنى التضييق ؛ كقوله[8] : « ومَنْ قُدِر عليه رزقُه » ؛ « فظَنَّ أنْ لن نَقْدِر عليه[9] » . وبمعنى التسوية ، كقوله تعالى[10] : « نحن قَدَّرْنا بينكم الموتَ » . وبمعنى المثل ؛ كقوله تعالى[11] : « فسالت أوْدِيَةٌ بقَدَرِها » : أي بمثلها ؛ ومنه سميت [١٢٥٠] القدرية قدرية ، لأنهم يقولون بمثل قول المجوس ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : القدرية مجوس هذه الأمة .

(قَدَم صِدْقٍ عند ربِّهم[12]) ؛ أي عملَ صالحٍ قدَّموه . وقال ابن عباس

---

(١) التوبة : ٨١ (٢) التوبة : ٩٠ (٣) يونس : ٥ (٤) القمر : ٤٩
(٥) المرسلات : ٢٣ (٦) النمل : ٥٧ (٧) القمر : ١٢ (٨) الطلاق : ٧
(٩) الأنبياء : ٨٧ (١٠) الواقعة : ٦٠ (١١) الرعد : ١٧ (١٢) يونس : ٢

السعادة السابقة لهم فى اللوح المحفوظ . وقيل غير هذا . والظاهر أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنّ أمته قدموه بين أيديهم .

(قال الكافرون : إنّ هذا لسِحْرٌ مُبين[1]) : يعنون به ما جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وعلى قراءة ـ الساحر ـ فيعنون به سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون كلامُهم هذا تفسيراً لما ذكر قبلُ مِن تعجبهم من النبوة ، أو يكون خبراً مستأنفاً .

(قادِرُونَ عليها[2]) ، أى متمكنون من الانتفاع بها .

(قَتَر[3]) ، أى غبار يغبّر الوجه ، وهذا كقوله تعالى[4]: « وجوه يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرة » . والقتور من التقتير .

(قوماً صالحين[5]) ، أى بالتوبة والاستقامة ، وقيل صالحين مع أبيهم يعقوب، فانظر كيف سوّفوا التوبةَ ، وعلموا أنهم أخطئوا الصواب ؛ ولا يُنسب لهم الخطأ ، لأنهم صلوات الله وسلامه عليهم وقع منهم هذا قبل النبوة لا بعْدَها .

(قال : لا يَأْتِيكُما طَعَامٌ تُرزَقَانِه...[6]) الآية، تقتضى أنه وصفَ لهما نفسه بكثرة العلم ، ليجعل ذلك وصلة إلى دعائهما لتوحيد الله ؛ وفيها وجهان : أحدهما أنه قال ذلك يخبرهما بكل ما يأتيهما فى الدنيا مِن طعام قبل أنْ يأتيهما ؛ وذلك من الإخبار بالغيوب الذى هو معجزةُ الأنبياء . والآخر أنه قال : لا يأتيكما طعام فى المنام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أنْ يظهر تأويله فى الدنيا .

---

(١) يونس : ٢ — (٢) يونس : ٢٤ — (٣) يونس : ٢٦
(٤) عبس : ٤١ — (٥) يوسف : ٩ — (٦) يوسف : ٣٧

(قال الذى نجا منهما[١]) : هو ساقى القوم .

(قليلا مما تأكلون[٢]) ؛ أى لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج للأكل خاصة خوفَ ضياعه .

(قال الملِكُ ائتونى به[٣]) : قبل هـذا محذوف ؛ وهو : فرجع الرسول إلى الملك فقصّ عليه مقالةَ يوسف ، فرأى عِلْمَه وعَقْله ، فقال : ائتونى به .

(قال : ارجعْ إلى ربِّك فاسْأَله[٣] ...) الآية : لما أمر الملكُ بإخراج يوسف من السجن وإتيانه إليه أراد يوسف أنْ يُبَرِّىءَ نفسه مما نُسِب إليه مِن مُرَاوَدة امرأة العزيز عن نفسه ، وأنْ يعلمَ الملكُ وغيره أنه سُجن ظُلْما ؛ فذكر طرفاً من قصته لِينظرَ الملكُ فيها ، فيتبيَّن له الأمر ، وكان هذا الفعل من يوسف صبراً وحلما ؛ إذ لم يُجِبْ إلى الخروج من السجن ساعةَ دُعِى إلى ذلك بعد طول المدة .

فإن قلت : قد قال سيدنا صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى يوسف ، لو لبثت فى السجن ما لبث فيه لأجبت الداعىَ[٤] . وهذا يقتضى أن الإجابةَ أولى من المُكْثِ فيه .

والجواب أن هذا عنـــه صلى الله عليه وسلم على جهة المَدْح ليوسف والتواضع منه صلى الله عليه وسلم ، وإلا فصَبر يوسف فى السجن فيه فوائد ؛ منها : إظهار منزلته عند الملك وتبرئته مما قيل ، وليزدادَ منزلةً عنده فيصير سائساً للدولة وحافظا ، ألا تراه كيف قال[٥] : « اجعلْنى على خزائنِ الأرضِ إنى حفيظٌ عَلِيم » ، وإنما طلب منه الولاية شفقةً على عباد الله ، ورغبـةً فى العدل ، وإقامة

---

(١) يوسف : ٤٥ (٢) يوسف : ٤٧ (٣) يوسف : ٥٠

(٤) فى القرطبى (٩ ـ ٢٦٠) : رحم الله أخى يوسف لقد كان صابراً حليما ، ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعى ولم ألتمس العذر . (٥) يوسف : ٥٥

الحق والإحسان إلى الضعفاء من عباد الله ؛ لأن هـذا الملكَ كان كافراً فأسلم لمّا رأى من حسن سيرته ، وكَمْ له فى هذه الولاية من المصالح الدينية والدنياوية ؛ والمراد بخزائن الأرض أرضُ مصر ؛ لأن الملك لم يملك غيرها ؛ فتأسَّ يا محمدى بهذه الأخلاق الكريمة ، واجتهد فى إصلاح هذه الأمة : وَقِّرْ كبيرهم ، وارحم صغيرهم ، وتجاوَزْ عن مسيئهم ، ألا ترى الصدِّيقَ لم يذكر امرأةَ العزيز مع ما كان منها من الإساءة ؛ بل ذكر النسوة اللاتى قطَّعْنَ أيديهنَّ ، وعفا عن إخوته فيما صدر منهم ، هكذا أولو العَزْم فى معاملتهم مع أمّةِ نبيهم ، تعلموا منه الصفحَ والإحسان ، فعاملُوا أمتَـه بسَتْرِ ذوى العصيان والدعاء لهم بالرحمة والإحسان ، راجين بذلك معاملةَ الله لهم ، وكما تَدِين تُدَان .

فإن قلت : هل يجوز لنا الاقتداء بمَدْح يوسف لنفسه ؟

والجواب أنه مدح الصفتين اللتين أودعهما اللهُ فيه ، فالمدحُ إنما هو لله لا لنفسه ، ولولا ذلك لهلك الخلق . وقد أخبره اللهُ أن [٢٥٠ ب] صلاح هؤلاء العامة إنما يكون بسببه بصبره على بلائه ، وكذلك أنتَ يا محمدى إذا جُهل أمرك ، ورجوت صلاح إخوانك ، فلاينبغى لك السكوت ، لما فيه من المصلحة ، هـذا إن رجوت بذلك منفعة غيرك ، ولذلك استُحبَّ للعلماء لُبْسُ الجيِّد ، والتشبُّهُ بأرباب الدنيا ، لأن العامة لا تقبل كلامَ رَثِّ الهيئة ، ولا تلتفت إليه ، فضلا عن سماع كلامه ، ورَضى الله عن السيد الذى طُولب بولاية القضاء ففرَّ منها ، فلما كان بَعْدُ أعطى عليها ألف دينار ، فقال له الملك : بالأمس هربت منها ، والآن أرشيت عليها ، فقال : بالأمس كان غيرى أولى بها ، والآن أعقبتُ هذه الأمة من يريد أكلها ، هكذا كانوا رضى الله عنهم ، يراعون مصلحة الأمة رَعْياً لنبيها ، ويرحمونها لوصيته عليها . فيالأبناء الطريقة ورجال الحقيقة ، استوصوا

خيراً بهذه الخليقة، وخصوصاً بهذه الأمة، فاخفضوا لها جناحَ الذُّل من الرحمة، ولا توحشوها ما أنستها مِنْ رَبِّها ونبيها، وعاملوا الـكلَّ على الإطلاق بمكارم الأخلاق؛ صِلُوا مَنْ قطعكم، وأعطوا مَنْ حرمكم، واعفُوا عمن ظلمكم؛ وإن لم يكونوا لها أهلا فـكونوا أنتم لها أهلا.

(قال: إنى أنا أخوك[1]) ؛ أى قال يوسف لأخيه: إنى أنا أخوك واستكْتَمَه الأمر. وحبسه بتهمة السرقة، فـكتب إليه يعقوب وقال لموصله: انظره، فإنْ نظر فيـه وتغيَّرَ لونُهُ فاعلم أنه يوسف؛ ثم قال له فى كتابه: إن الله اصطفاك فاستحال عليكَ اسمُ السرقة، كذلك مَن اصطفاه اللهُ يستحيل أن تنسبه إلى السرقة، فلما نظر يوسف إلى الـكتاب تغيَّرَ لونُه، فقال الرسول: مِثْلُ هذا الـكتاب لا يقرَأُ إلا فى الخلوة، ثم قرأه وبكى كما قدمنا.

وأنت يا محمدىُّ اصطفاكَ ربُّك فى الأزَل، وأخرجك فى خير الملل، وبعث إليك خاتم الأنبياء والرسل، وخاطبك بكتابه الذى ليس له مِثْل، فامتَهَنْتَه ولم تلتفت إليه؛ بل وصفْتَ نَفْسك بشرّ الخصال، وعرَّجْتَ عليه كأنكَ لم تصدِّق بالمآل، ولم تعرِفْ أنكَ تُعْرَضُ عليه عند الموت ويوم السؤال، وتطالب — مع هذا الجَوْر والقصور — بالتنعم باللذات والحبور؛ أنت تعلم ما تقاسى على صفة منتنة، وما تحتاج إليه من مئونة، وتريد الوصولَ إلى الجوارى الحسان اللاتى لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ ولا جان؛ هؤلاء الملائكة مع جليل قَدْرهم، وكَثْرَةِ عبادتهم، يقولون يوم القيامة: سبحانك ما عَبَدْناكَ حقَّ عبادتك، ولو استكثرت أعمالَا لتباعدت من خالقها؛ يقول تعالى فى بعض كتبه: أيطلب أحدُكم الجنةَ بقيام الليل، والحارسُ يحرس ليلةً بدانِقَيْن[2]، فـكيف يمنُّ علىّ بليلةٍ، وهى تساوى

---

(١) يوسف: ٦٩ (٢) الدانق ـ كصاحب: سدس الدرهم، وتفتح نونه (القاموس).

دارقين ، أخذت بزى كسرى وقيصر ، وتريد أن ترافق أحبابى ! ويحك ! اعرض نفسك على كتابى تجد فيه وصف أحبابى وأعدائى ، وانظر إلى أى الصنفين أنت أقرب ؛ فإنك بهم يوم القيامة تلحق . كيف تأمن مكرى ، أو تطلب جوارى ، ولست تدرى فى أى الفريقين أنت يوم الميثاق حيث قلت : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، أم حين خلقتك فى ظلمات ثلاث ، وكتب عليك ملك الأرحام بالشقاوة أو السعادة ، أو يوم الطلع حين تبشر برضائى أو سخطى ، أم يوم يصير الناس أشتاتا ، ولا تدرى أى الطريقين تسلك ، فحقوق صاحب هذه الأخطار ألا يلتفت إلى الأغيار ، ولا يتشبه بالأحرار ، ما حيلتك إذا اضطجعت فى حفرتك ، وانصرف المشيعون من جيرانك ، وبكى كل غريب عليك لغربتك ، ودمع عليك المشفقون من عشيرتك ، وناداك من شفير القبر ذو مودتك ، ورحمك المعادى عند صرعتك ، ولم يخف على الناظرين عجز حيلتك ؛ فإن كنت عندى حبيبا ، وإلى قريبا ، أحسن ضيافتك ، وأكون[1] أشفق من قرابتك ، وأقول للملائكة : فريد قد نساه الأقربون ، ووحيد قد جفاه الأهلون ، فأشفقوا عليه وارحموه ، ويا هوام لا تقربوه ، ويا أرض توسعى عليه ولا تؤذيه ، ويا رضوان [٢٥١] افتح عليه من نعيم ما يؤنسه ويغذيه ، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

(قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا[2]) : هذا الكلام من من إخوة يوسف على وجه الاستعطاف ؛ لأنهم كانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه .

---

(١) هنا فى الأصول . (٢) يوسف : ٧٨

(قال كبيرُهم[١]) ؛ أى فى السن ، وهو روبيل ، أو فى الرأى ، وهو شمعون ، وقيل يَهُوذا[٢] .

(قال : بل سوَّلت لكم أنفُسكم أمْراً[٣]) ؛ قبله محذوف ، تقديره : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له : «إنَّ ابنكَ سرق» ؛ عند الجمهور بفتح السين وضمها وشدّ الراء وتخفيفها[٤] ؛ فقال : «بل سوَّلتْ لكم أنفُسكم» ، لأنه علم أنَّ كلَّ ذلك لم يكن .

(قال : يا أسفَى عَلَى يوسف[٥]) : تأسَّف على يوسف دون أخيه لإفراط محبته فيه ، ووَحشته له ، ومصيبته كانت السابقة ؛ فجدّدت له هذه الثانية وَحشته .

وهكذا عادته فيمن أحبَّ غيره ابتُلى بفراقه ، فلا تجعل محبك ومحبوبك إلا مَن لا يفارقك . وروى أن يوسف عليه السلام جاءه رجل فقال له : إنى أحبّك . فقال : لا تفعل ، أحبَّنى أبى فعمى بصره ، وأُلقيت فى الجب ؛ وامرأةُ العزيز أحبَّتنى فابتُليت بالملامة ، وحُبست فى السجن ؛ وكذلك سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم أحبَّ جبريل فابتُلى بحَبسه عنه مدةً ، وأحبَّ مكةَ فابتُلى بالخروج منها ، وأحبَّ عائشة فابتُلى بقصة الإفك ؛ كلُّ هذا غيرةً منه سبحانه على أحبابه ، ليكون شغلك يا محمدىّ بالله لا بغيره إن فهمت ، وإلا فهكذا يُفعل بك .

(قالوا أإنَّكَ لأنتَ يوسف[٦]) : قُرِىء بالاستفهام والخبر[٧] ؛ فالخبر

---

(١) يوسف : ٨٠ (٢) فى القرطبى(٩ـ١ ٢٤) : قال الكلبى : يهوذا وهو أعقلهم .
(٣) يوسف: ٨٣ (٤) قال الزجاج : سرق يحتمل معنيين ، أحدهما علم منه السرق ، والآخر اتهم بالسرق . (٥) يوسف : ٨٤ (٦) يوسف : ٩٠
(٧) أى إنك لأنت يوسف .

على أنهم عرفوه ، والاستفهام على أنهم توهموا أنه هو ولم يحققوه .

(قال أبوهم : إنى لأجدُ رِيحَ يوسف[1]) كان يعقوب ببيت المقدس ، ووجد ريح القميص ، وكان مع يوسف فى بيته زمانًا لا ريح له ، فلما فصلت العيرُ اتّصل ريحُهُ بيعقوب . كذلك قلبك يا محمدى مع مالك خزائنك ، فإذا أنفقتَ مالكَ فى طاعة الله تفرّغ قلبُك لعبادته ، وترى حينئذ من لطف الله بكَ حالا لا يخطر ببالك .

(قال : سوف أستغفرُ لكم ربى[2]) ؛ وعدهم يعقوب بالاستغفار ؛ لأنهم جاءوا متضرّعين معترفين بما جنوه ، كذلك أنتَ يا عبد الله ؛ إذا أذنبتَ وأتيتَ معترفًا لرسولك الذى أرسل إليك متضرعًا وجِلاً ، فإنه يستغفر لك ، ويشفعُ فيك. لأن الله أمره بالاستغفار لك، وأذن له فى الشفاعة فيك . وكيف لا وهو أكرم الخلق عليه ! وقد وعدنا بذلك فى قوله[3] : « ولو أنهم إذْ ظَلَمُوا أنفسهم جاءوكَ فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسولُ لوجدُوا اللهَ توّابًا رحيما » ، وإنى قد مُنعت يا سيد الأولين والآخرين عن الإتيان إليكَ بذنوب جنَيْتُها على على نفسى ، فأنتَ تعلم عُذْرى ، ولا حيلةَ لى غير التعلق بجاهك المظيم والصلاة عليك ، صلى الله عليك وعلى آلك أفضل صلاة وأزكى تسليم .

فإن قلت : لِمَ وعدهم الله بالاستغفار ولم يستغفر فى الحين ؟

والجواب أنه وعدهم بالاستغفار للسَّحَر ، لأنه وقت إجابة ، والدعاء فى وقت الإجابة لا يُرَدّ . فأخذ العلماء من هذه الآية التعرض لنفحات رحمةِ الله ، ومَنْ راقب يُراقب ، ومن غفل غُفِل عنه ، وقالوا : الوعد مع العطاء أفضلُ من العطاء بغير وعد ، فجبر قلوبَهم بالوَعْدِ بالاستغفار ، ثم استغفر لهم فكمُلت الفرْحتانِ .

---

(١) يوسف : ٩٤ (٢) يوسف : ٩٨ (٣) النساء : ٦٤

(تَصَصِهِم[1]) : الضمير للرسل على الإطلاق ، أو ليوسف وإخوته ؛ والأول أعم ؛ لقوله تعالى[2] : « وظَنُّوا أنهم قد كُذِبوا[3] » بتشديد الذال وتخفيفها . وقد قدمنا معناها فى حرف الكاف .

(قارعةٌ[4]) : يعنى فى أنفسهم وأولادهم ، أو غزوات المسلمين إليهم ؛ وانظر قوله تعالى[4] : « حتى يأتى وَعْدُ الله » ما المراد به ؟ وبهذا تمسك أهلُ الاعتزال ، وقالوا بوجوب إنفاذ الوعيد ، وهو مختلَفٌ فيه عندنا ؛ لكن الكلام القديم الأزَلى الذى هو صفةٌ ذاتيةٌ لله تعالى يستحيل فيه الخُلف ، وأما كلامُ النبى صلى الله عليه وسلم [٢٥١ ب] الذى هو ترجمةٌ عن ذلك الكلام فليس كذلك ومثالُه إذا قلت : مَنْ يقتل زيداً فأنا أقتله ؛ فتارة تقصد الحقيقة ، وتارة تكون غير مُريد قَتْله ، لكنك تقصد المبالغة فى العبارة على جهة التخويف والتنفير عن فعل ذلك ، فعبارتُكَ يمكن فيها عدَمُ الوقوع ، وأما فى نيتك وقَصْدِك فلا بُدَّ من وقوعه ؛ لأنك عزمْتَ على ما أجمعت عليه ، وهو قصدٌ حقيقى بخلاف الكلام الذى هو ترجمةٌ عما فى القلب فإنه قد يكون مجازاً . وهذا هو جوابُ أهل السنة عن قوله تعالى[5] : « ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً متعَمِّداً فجزاؤه جهنَّمُ خالداً فيها » .

(قائم على كلِّ نَفْس بما كسبَتْ[6]) : إن قُصِد استعلام الخبر فهو استفهامٌ ، وإلا فإن كان المعنى ثابتاً فى نفس الأمر فهو تقرير ، وإن لم يكن ثابتاً فهو إنكار . وهو تقرير لقول ابن عطية : المراد أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحقُّ بالعبادة أم الجمادات التى لا تنفع ولا تضر ؟ وهو معطوف على مقدَّر ؛ فهو من

---

(١) يوسف : ١١١ (٢) يوسف : ١١٠ (٣) أى أيقنوا أن قومهم كذبوهم .
(٤) الرعد : ٣١ (٥) النساء : ٩٣ (٦) الرعد : ٣٣

كان يقدِّرُه : أهم ىداولون عمن هو قائم ؟ ومنهم من قدَّره : أهم غافلون عن هو قائم ؟ وهو الصواب : قال : وهل هذا من العمومات المخصوصة أولا ؟ قال : إن قلنا إن ذات البارى تعالى لا يُطلَق عليها نَفْسٌ فيكون عامًّا باقيًا على عمومه ، وإن جوَّزنا الإطلاق ؛ لقوله تعالى[١] : « تَعلَمُ ما فى نَفسى ولا أَعلَمُ ما فى نَفسِك » ؛ فيكون هذا مخصوصًا بالبارى جلَّ وعَلَا ؛ إذ لا يقال إنه حفيظ على نفسه .

قيل : بما كسبت يدل على التخصيص . وقيل : بل هو متعلق بقائم ، وليس بصفة للنفس . والكسب : الصوابُ تَفْسِيرُه بما قاله أهل السنة ؛ لأن الأصل عدم النقل ، ومعنى قائم أى حفيظ ورقيب وعالم .

(قالت رسلهم : أَفِى اللهِ شَكٌّ[٢]) : أى فى ألوهية الله شكٌّ ؟ وقال الفارسى : أفى وحدانية الله شكٌّ ، وإنما قرَّره الفارسى هكذا ؛ لأن أول ما يحضُّ الرسلُ قومَهم على اعتقاد وحدانية الله ، بخلاف الألوهية ؛ إذ لم يخالف فيها أحد ؛ وقد خالف فيها المجوس الذين عبدوا الشمس وإنْ عبدوها فلم ينكروا البَعْثَ بدليل[٣] : « ولئن سألتَهُم مَنْ خَلَقهم ليقولُنَّ الله » . والدهرية ؛ قالوا[٤] : « ما هى إلّا حياتُنا الدنيا نموت ونَحيا » . وكان بعضهم يقول فى هذه الآية : انظر كلامَهم ؛ جعلوا أنفسهم مظروفين فى الشك ، والشكَّ ظرفًا لهم ، وكلامُ الرسل جعلوا الشك مظروفًا فى أمر الله ؛ أى فى شأن الله ، وجعلوا شأن الله ظرفًا له ؛ وقالوا : هذا لوجهين : نَقْلِىّ وعقلى ، أما النقلىُّ فلأنَّ الظرف أوسع من المظروف ، فالشكُّ محيطٌ بالكفّار من جميع الجهات ، وهم مفتقرون إليه ؛ إذ المتحيز مفتقر إلى الحيِّز ، والحالُّ مفتقر إلى المحلّ لا بدّ منه . وقول الرسل : أفى الله شكّ — جعلوا الشكَّ متحيزًا حالًا فى أمر الله ، فأمرُ الله أعلى منه

---

(١) المائدة : ١١٦ (٢) إبراهيم : ١٠ (٣) الزخرف ٨٧ (٤) الجاثية : ٢٤

وأكبر ؛ فهو حيِّز له ؛ فهو إشارةٌ إلى تقليل الشكّ ؛ أى لا يتصوّر أن يقعَ شكٌّ فى الله بوَجْه وإن قلّ ؛ فإذا أنكروا أن يكون أمر الله حيِّزاً للشك مع قلته فأحرَى أن يكون الشكُّ حيِّزاً له مع كثرته .

فإن قلت : أضاف الرسلَ إليهم ولم يقل رُسلنا ؟

قلت : تنبيهاً على أنّ الرسل منهم بحيث يعلمون حالَهم ، وأنهم لم يَعْهَدوا منهم كذباً ، ولا علموا أنهم خالطوا سحَرةً ؛ فدلّ ذلك على أن ما جاءُوهُمْ به حقٌّ . قال الفخر فى المحصل : مذهبُ أهل السنة أنّ الرسل ليس فى خِلقتهم وبِنْيتهم زيادة علمية ، ولا خاصية ذاتية اختصوا بها عنا ، وما وُجد منهم من القوة على الوَحْى وغير ذلك فأمورٌ عرَضية ، كالشجاعة للبطل . ومذهبُ الفلاسفة أنّ بِنْيتهم مخالفةٌ لنا ، ولا بُدّ فيهم من خاصية ذاتية اختصُّوا بها عنا .

(قالت لهم رسُلُهم[1]) : لم يثبت الخافض فى الأولى وأثبته هنا ؛ لأنها إما مقالة خاصة أو هى جواب عن قولٍ صدرَ منهم ، والمقالة الأولى لهم ولغيرهم .

وقيل : لما كان وجود الله تعالى أمراً نظريًّا ليس بضرورى ، وكوْن الرسل مثلهم أمراً ضروريًّا لا يحتاج إلى نظرٍ لظهوره ؛ فكأنه يقول : ما قالوا هذا إلا لهم لا لغيرهم [٢٥٢ ا] لغفْلَتهم وغباوتهم وجهْلهم ، كما أنّ القائل : السماءُ فوقنا والأرض تحتنا ـ ما يُخاطب بها إلا مَنْ هو فى غاية الجهل والغباوة .

وأجاب بعضُ النجباء إن قوله : أفى الله شكٌّ ـ خطاب لمَنْ عاند فيه ، وهو كالمعاند فى الأمر الضرورى ؛ فلذلك أسقط المجرور ، لأن المُجيبَ عن ذلك يُجيب به من حيث الجملة ، ولا يُقْبِل بالجواب على المخاطب لغباوته عنده ومعاندته ؛ فيجيب وهو مُعرض عنه ، بخلاف قولهم[1] : « إن نحنُ إلاّ بَشَرٌ

(١) إبراهيم : ١١

مثلكم » ؛ فإنه تقرير لمقالتهم ، وتثبيتٌ لها ، والمقرُّ لمقالة خصمه يُقبل عليه بالجواب ؛ لأنه لم يبطل كلامه بالإطلاق ؛ بل يقرِّرُه ويزيد فيه زيادات تُبطل دعوى خصمه .

فإن قلت : لم جمع السبل فى قوله تعالى(١) : « وقد هَدَانا سُبلَنا » ، وقد ذكرتم غير مرة أن طريق الهدى واحدة ؟

فالجواب أنه على التوزيع ؛ فلِكلِّ رسولٍ طريقٌ باعتبار شريعته وأحكامه ؛ قال تعالى(٢) : « لِكلٍّ جعلْنا منكم شِرْعةً ومِنْهاجاً » .

(قال إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هذا البلد(٣)) : المراد به مكة ؛ وهذا الدعاءُ وقع من إبراهيم حين خلَّف هاجر « بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ(٤) » ، فنفى القليلَ والكثير ؛ والمراد ليس فيه طعم ولا شجر ولا ماء .

فإن قلت : آية البقرة مدنية(٥) ، وآية إبراهيم مكّية ، والقاعدةُ أنَّ الاسْمَ إذا كرِّرَ ذكْرُه يأتى أولا منكَّراً وثانياً معرفاً .

والجواب أن الإنسانَ إذا دعا أولا إنما يَدْعُو لشخص معيَّن يقْصِدُه ويعيِّنه فى ذهنه ، فإذا أراد الدعاءَ بعيد نكرةً أو معرفة أو كيف ما كان ، اكتفاءً بحصول تعيينه أولا . وقيل : هذا تأكيد ؛ هذا إذا قلنا إن المنزل أولا هو المدعو به ثانياً ؛ لأنَّ الاسم إذا تقدم نكرةً ثم يُعاد فإنما يُعيده معرَّفاً ؛ قال تعالى(٦) : « كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعونُ الرسولَ » .

فإن قلت : القاعدة أن يكون المبتدأ معلوماً وخَبَرُه مجهولا ، والبلدُ فى هذه الآية أصله قبل دخول الفعل عليه مبتدأٌ ، لأنه نعتٌ لهذا ، ونعت المبتدأ

---

(١) إبراهيم : ١٢ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) إبراهيم : ٣٥
(٤) إبراهيم : ٣٧ (٥) البقرة : ١٢٦ (٦) المزمل : ١٥ ، ١٦

مبتدأ ؛ وآمنا خبره . وفى قوله : اجعل هذا بلداً آمناً « هذا » مبتدأ ، وبلداً خبره ، وآمِناً نعت أو خبر بعد خبر ؛ والقصةُ واحدةٌ .

وأجيب بأن الشيء فى نفسه ليس هو كغيره معه ، فهو معلوم من حيث كونه ، مجهول من حيث كونه بلداً آمناً ؛ فالأول كما تقول : اجعل هذا الرجل صالحا ، دعوْتَ له بالصلاح فقط ، والثانى كقولك : اجعل هذا رجلا صالحا مع أنه رجل ، لكنك دعوت له بتحصيل المجموع . ورُدَّ بأنه يلزم عليه أن يجوز زيد زيد العاقل ، فيخبر بزيد العاقل عن زيد نفسه ، مع أنه لا يُفيد شيئاً ؛ لأن الأول هو الثانى .

وأجيب إنما نظيره زيد القائم زيد العاقل ، فيخبر بزيد مع غيره ، أما إذا أثبت بمجرد لفظِ الأول فلا يجوز .

فإن قلت : كيف يدعو الخليل بقوله[1] : « واجْنُبْنِى وبَنِىَّ أنْ نَعْبُدَ الأصنام » ، وقد علم أنّ عبادةَ الأصنام مستحيلة فى حقّ النبى ، فأحْرَى فى حق الخليل ؟

فالجواب دعا بهذا على وَجْهِ التذلُّل والخضوع ، وعادةُ الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم عدَمُ الانبساط مع الربوبية ، لتمكّن الخوف من قلوبهم ؛ وهذا فيه الاقتداءُ بغيره ؛ ويؤخذ من هذه الآية أنه لا يدعو الشخص بالمستحيل عقلا ، كقول الإنسان : رَبِّ اجعلْنِى فى غير حَيِّز ، أو غير ذلك من المستحيلات . وقد ذكرها القرَافى فى قاعدة مايجوز من الدعاء ، وقاعدة مالا يجوز ، حذفنا ذكرها للطول .

(قالوا يأيُّها الذى نُزِّلَ عليه الذِّكر[2]) ؛ يعنى بزعمك ودَعْواك لا بإقرارنا .

---

(١) إبراهيم : ٣٥ (٢) الحجر : ٦

فإن قلت : الوصفُ الأخصّ هو القرآن ، والذِّكرُ وصفٌ أعم ، فلِمَ عَبّروا بالأعَمّ دونَ الأخص ؟

والجواب أنه فى التعبير بالأخص تنبيهٌ وتذكير بالمعجزات التى ورد بها القرآن ، وهم متصدم تعميةُ ذلك وإخفاؤه . وانظر إلى المثل السائر : ذَكَّرتنى الطعنَ وكنتُ ناسيا .

فإن قلت : هل أرادوا اتّصافَه بالجنون ، لما جاء به من الوحى إلى الذين يسترقون السمع ؟

فالجواب أنهم أرادوا أن به جنوناً [٢٥٢ ب] يصحبونه بدليل قوله تعالى[1] : « أم يقولون به جِنّة » .

(قوم مَسْحُورون[3]) : هذا الإضراب[3] منهم إضراب انتقال ، لأنهم أضربوا عن مفهوم قولهم[2] : « سُكِّرَتْ أبصارُنا » ؛ لأن مفهومه أنّ باقى جسدهم لم يسكر . وما زال صحيحاً ؛ فأضربوا عن هذا المفهوم ؛ وقالوا : بل جميعُ ذواتنا مسحورة ، ولو كان إضراب إبطالٍ للزم عليه أن تكون أبصارُهم غير مسحورة ، وليس ذلك مرادهم ؛ وقوله : « إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا » ظاهره كالمناقض لقوله : « بل نحن قومٌ مسحورون » .

فإن قلت : ما أفاد قولهم « قوم » ، ولو قالوا : بل نحن مسحورونَ لاستقلّ الكلام .

فالجواب أنه أفاد الإخبار بكمال عبادتهم ، وأنهم جماعةٌ كثيرون ، وتعدُّدُ الأشخاصِ مظِنّةُ التفطن والفَهْم ، ومع هذا فكلُّهم يتعامَوْن وتعمُّهم الضلالةُ ولا يهتدون إلى الإيمان به بوَجْهٍ .

---

(١) المؤمنون : ٧٠ (٢) الحجر : ١٥

(٣) الآية : بل نحن مسحورون . فالإضراب ببل .

(قال ربِّ بما أغويتني)[1] : قد قدمنا معنى الإغواء . واعترافُه بالربوبية يُفهم منه أنَّ كفرَه كان باعتراضه على الله فى أمره بالسجود لآدم . وقدمنا أيضاً أن الفاء لم تدخل فى الحجر كما فى الأعراف[2] اكتفاءً بمطابقة النداء لامتناع النداء منه ، لأنه ليس بالذى يستدعيه النداء ، فإن ذلك يقعُ مع السؤال والطلب ؛ وهذا قسم عند أكثرهم ، بدليل ما فى ص[3] ؛ وخبر عند بعضهم ؛ والذى فى « ص » جاء على قياس ما فى الأعراف ؛ لأن ما فيها موافق لما قبله فى مطابقة الفاء ، وزاد فيها الفاء التى هى لعطف جملة على جملة لتكونَ الثانية مربوطة بالأولى ، فوافقتُها أكثر . وقال فى ص[3] : « فبعزّتِكَ » وهو قَسَم عند الجميع .

(قال هذا صِرَاطٌ علىّ مستقيم[4]) : القائل لهذا هو اللهُ تعالى ، والإشارةُ بهذا إلى نجاة المُخلَصين من إبليس ، وأنه لا يقدر عليهم ، وإلى تقسيم الناس إلى غوىّ ومخلص .

(قالوا إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قوم مُجْرِمين[5]) ؛ قالت الملائكة : أرسلنا إلى قوم لوط .

(قالوا بَشَّرْناكَ بالحق[6]) : الضمير لإبراهيم ؛ أى بَشَّرْناكَ باليقين الثابت ، فلا تستبعده ، ولا تَكُنْ من القانطين : من اليائسين .

(قدَّرنا إنهـا لَمِنَ الغَـابرين[7]) : إنما أسند الملائكةُ فعل التقدير إلى أنفسهم ، وهو لله وحْدَه ، لما لهم من القُرْب والاختصاص بالله ، لاسيما فى هذه القضية ، كما يقول خاصة الملك : دبَّرْنا كذا . ويحتمل أن يكون حكايةً عن الله .

---

(١) الحجر : ٣٩ (٢) فى سورة الأعراف (آية ١٦) : قال فبما أغويتنى .
(٣) ص ٨٢ : فبعزتك لأغوينهم أجمعين . (٤) الحجر : ٤١
(٥) الحجر : ٥٨ (٦) الحجر : ٥٥ (٧) الحجر : ٦٠

(قوم مُنْكَرون[1]) ؛ أى لا نعرفهم .

(قالوا : بل جِئْنَاكَ بما كانوا فيه يَمْتَرُون[2]) : يعنى جئناك بما كانوا يَشُكُّون من العذاب لقومك .

(قالوا : أَوَلَم نَنْهَكَ عن العالَمِين . قال هؤلاء بَنَاتى إن كنتُم فاعلين)[3] : كان قومُ لوط نَهَوْه أنْ يُضِيف أحداً ، فقالوا له هذه المقالة احتجاجاً بما سبق من إنذاره ، فأجابهم بتزوّج بناته إنْ أرادوا شيئاً ، وفدَاهم ببناته . واختلف فى عددهم ، وكان أبو البنات ، كما كان إبراهيم أبو الذكور ، وجَمَعَ اللهُ لنبينا الذكورَ والإناثَ ، فكان له أربعة ذكور وأربع نسوة ؛ وهذا من اعتدال مزاجه صلى الله عليه وسلم .

(قال الذين أُوتُوا العِلْمَ إنّ الخِزْىَ اليوم والسوءَ على الكافرين[4]) : الخِزْى : راجع لأمر الباطن النازل بهم ، والسوءُ راجع لأمر الظاهر الحالّ بهم فى أبدانهم .

فإن قلت : كيف أُكِّدَ بأنّ خطابهم إنما هو لله تعالى العالم بأنّ ذلك حق ؟

والجواب أن هذه المقالة صدرَتْ منهم قبل حلُول العذاب بأولئك ، فهم فى قضية الإنكار لما يريد أنهم استسلموا لقضاء الله ، والمغلوبُ إذا استسلم تارة يعترفُ ويُقِرّ ، كقوله تعالى[5] : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَامَ لستَ مُؤمناً » ، وتارة يُنْكِرُ موجبات العقوبة ، كهذه الآية ؛ طمعاً فى أنْ يُقبل ذلك منه ، ويُتَغاضى عنه ويترك .

---

(١) الحجر : ٦٢ (٢) الحجر : ٦٣ (٣) الحجر : ٧٠، ٧١ (٤) النحل : ٢٧
(٥) النساء : ٩٤

(قال النار مَثْوَاكُم[1]) : هذا من قول الله . وقال : « مَثْواكُم » ولم يقل داركم ؛ لأن الدارَ محلّ السكنى ، والسكنى مظنّة الطول ، فناسب الإتيان بالدار فى محل المدح للمتقين ؛ لأنّ الإنسانَ قد يسكن الموضع الزمانَ القليل ويملُّ مِن سكناه ، ولا يحبُّ البقاء فيه . والمَثْوى : الإقامة مطلقاً ، تطلق على القليل والكثير .

(قال : أرأيتَكَ هذا الذى كرَّمْتَ علىَّ[2]) : الكاف لا موضع لها من الإعراب وهذا مفعول بأرأيت والمعنى أخبرنى عن هذا الذى كرَّمْتَه علىَّ وأنا خير منه [٢٦٣ ا] ، فاختصر الكلام، فحذف ذلك . وقال ابن عطية : أرأيتَكَ هنا تأملت ونحوه لا بمعنى أخبرنى . ومعنى الاحتناك[3] الميل ، مأخوذ من تحنيك الدابّة ، وهو أن يشدَّ على حنكها بحَبْل فتنقاد .

(قال اذهَبْ[4]) : خطاب من الله لإبليس ، وما بعده من الأوامر على وَجْه التهديد لإبليس . قال الزمخشرى[5] : ليس المراد هنا الذهاب الذى هو ضد المجىء ، وإنما معناه : امْضِ لشأنك الذى اخترتَه ، خذلاناً له وتخلية . ويحتمل عندى أن يكون معناه الطرد والإبعاد .

(قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ[6]) : القصف : هو الكسر ، وفيه تهديدٌ لمَنْ ركب البحر ولا يخاف الله .

(قَبيلا[7]) : قيل معناه مُقَابلة ومعاينة . وقيل ضامناً شاهداً يصدقك . والقَبالة فى اللغة الضمان .

---

(١) الأنعام : ١٢٨ (٢) الإسراء : ٦٢ (٣) فى الآية : لأحتنكن ذريته إلا قليلا .
(٤) الإسراء : ٦٣ (٥) الكشاف : ١ ــ ٥٠١ ، ٥٠٢
(٦) الإسراء : ٦٩ (٧) الاسراء : ٩٢

(قَيِّماً[1]) : أي مستقيما . وقيل قَيِّماً على الخلق بأمر الله . وقيل قَيِّماً على سائر الكتب بتصديقها . وانتصابُه على الحال من الكتاب ، والعاملُ فيه أنزل[2] . ومنع الزمخشري[3] ذلك الفصل بين الحال وذي الحال ، واختار أن العامل فيه فعلٌ مضمر ، تقديره جعله قَيِّماً .

(قال له موسى : هل أتَّبِعُكَ[4]) : في الآية مخاطبة فيها تلاطف وتواضع ، وكذلك ينبغي أن يكونَ الإنسانُ مع مَنْ يريد أن يتعلّمَ منه ؛ يُنْصِتُ لكلامه ، ولا يعارضه ، ويخدمه بنفسه وماله ، ويُسرع في قضاء حوائجه .

(قال ألَمْ أقُلْ لكَ[5]) : هذا مِنْ قول الخضر لموسى ؛ وذلك أن موسى نَسِيَ العَهْدَ الذي بينهما ؛ هذا قول الجمهور .

فإن قلت : ما فائدة زيادة اللام في الثالثة ؟

فالجواب لما فيه من الزجر والإغلاظ ما ليس في الأوليين . وفي صحيح البخاري : كانت الأولى من موسى نسياناً ، وفيه ـ عن مجاهد قال : كانت الأولى نسياناً ، والثانية شرطاً ، والثالثة عَجْزا . قال ابن عطية : وهذا كلام معترَض ؛ لأن الجميع شرط ، ولأن العَهْدَ يَبْعُدُ على موسى عليه السلام ؛ وإنما هو التأويل ؛ إذ جنب صفة السؤال أو النسيان . وروى الطبري ، عن أبي كعب ، أنه قال : إن موسى عليه السلام لم ينس ، ولكن قوله هذا من معاريض الكلام . قال ابن عطية : ومعنى هذا القول صحيح ، ولم يبيّنه ؛ ووَجْهُه عندي أنّ موسى عليه السلام إنما رأى العَهْد في أن يسأل ، ولم ير إنكار هذا الفعل شيئاً سؤالا ، بل رآه واجبا ؛ فلما رأى الخضر قد أخذ العَهْدَ على أعمّ وجوهه فضمّنه السؤال

---

(١) الكهف : ٢ (٢) الآية التي قبلها : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب .
(٣) الكشاف : ١ ـ ٥٦١ (٤) الكهف : ٦٦ (٥) الكهف : ٧٥

والإنكار والمعارضة ، وكلٌّ اعتراض؛ إذ السؤال أخَفُّ من هذه كلها ـ أخذ معه في باب المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب ، فقال له : لا تؤاخذني بما نَسيت ، ولم يقل إني نسيت العَهْد ، بل قال لفظًا يُعطي للمتأول أنه نسي العهد ، ويستقيم أيضًا تأويلُه وطلَبُه مع أنه لم ينس العهد ؛ لأن قوله : لا تؤاخذني بما نسيتُ ـ كلامٌ جيد ، وليس فيه للعهد ذِكْر ؛ هل نسيه أم لا ، وفيه تعريض أنه نسي العهد ، فجمع في هذا اللفظ بين العُذْر والصدق ، وما يخل بالقول .

(قال انفُخُوا[1]) : يريد نَفْخَ الكير ؛ أي أوقدوا النارَ على الحديد . ورُوى أنه حفر الأساس حتى بلغ الماءَ ، ثم جعل البنيان من زُبَر[2] الحديد حتى ملأ به بين الجبَلين ، ثم أفرغ عليه قِطراً : نحاسا مُذابا . وقيل هو الرصاص .

وهذا السدُّ من عجائب الدنيا ، إذ لا يَقْدِرُ على هَدْمه أهلُ الدنيا . ولمّا فرغ من بنائه قال : هذا رحمةٌ من ربي . ولما أُسْرِى به صلى الله عليه وسلم رآه وتعجّب من صنعته ، وقال رجل : يا رسول الله ، رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج . فقال : كيف رأيتَه ؟ قال : كالبُرْد المحبَّر ، طريقة صفراء ، وطريقة حمراء ، وطريقة سوداء ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد رأيته .

(قَبَس[3]) : قد قدمنا أنه الجَذْوَة من النار تكون على رأس العود أو القصبة ونحوها .

فإن قلت : ما معنى اختلاف هذه الألفاظ والتقديم والتأخير في مواضع من السور ؟

والجواب أنّ ذلك يختلف باختلاف المَقْصد ، والتناسب ؛ ففي آية طه[3] رؤية موسى النار وأمْره أهله بالمكث وإخباره إياهم أنه آنس [٢٠٣ ب] ناراً ،

(١) الكهف : ٩٦ (٢) زبر : جمع زبرة ، وهي القطعة من الحديد . (٣) طه : ١٠

وأطمعهم بأن يأتيهم بنار يصطلون بها ، أو خبر يهتدون به إلى الطريق الذي ضلوا عنه ، لكنه نقص من النمل[1] رؤية موسى النار وأمره أهله بالمكث اكتفاء بما تقدم ، وزاد في القصص : قضاء موسى الأجل المضروب وسيره بأهله إلى مصر ؛ لأن الشيء قد يُجمَل ثم يفصَّل ، وقد يفصَّل ثم يجمل ، وفي طه فصَّل ثم أجمل ، ثم فصَّل في القصص[2] وبالغ فيه ، وقوله في طه : « أو أجدُ على النار هُدى » ؛ أي مَنْ يخبرني بالطريق فيهديني إليه ؛ وإنما أخر ذلك الخبر فيها وقدمه فيهما[3] مراعاةً لفواصل الآيِ في السور جميعا ، وكرر « لعلّي » في القصص لفظا وفيهما معنى ، لأن « أو » في قوله : « أو أجد » نائب عن « لعلي ». وقوله : « سآتيكم » تضمن معنى لعلي . وفي القصص : أو جذوة من النار ، وفي النمل : بشهابٍ قبَس ، وفي طه بقَبَس ؛ فهي في السور الثلاث عبارة عن معبَّر واحد ، وهذا برهان لامع .

(قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى[4]) : أي أعطيتك كل ما طلبتَ من من الأشياء المذكورة .

(قد جئناك بآيةٍ من ربك[5]) : يعني قلب العصا حيّة ، وإخراج اليدِ بيضاء ؛ وإنما وحّدها وهما اثنتان ، لأنه أراد إقامةَ البرهان ، وهو معنى واحد .

(قالوا : إنْ هاذان لساحران[6]) : قرىء إن هاذين بالياء ولا إشكال في ذلك ، وقرىء بالتخفيف ، وهي مخففة من الثقيلة ، وارتفع بعدها هاذان بالابتداء . وأما على قراءة نافع وغيره بتشديد إنّ ورَفع هاذان فقيل : إنّ هنا بمعنى نعم ، فلا تنصب ، ومنه ما رُوِي في الحديث : إنّ الحمدُ لله بالرفع . وقيل

---

(١) النمل : ٧ (٢) القصص : ٢٩ (٣) في القصص والنمل . (٤) طه : ٣٦
(٥) طه : ٤٧ (٦) طه : ٦٣

فاسم إنْ ضمير الأمر والشأن ، تقديره إن الأمر ، وهاذان لساحران مبتدأ وخبر في موضع خبر إن . وقيل : جاء في القرآن في هذه الآية بلغة بني الحارث بن كعب ، وهي إبقاء التّثنية بالألف في حال النصب والخفض ، وقالت عائشة : هذا مما لحن فيه كاتبُ المصحف .

وقد أكثروا في الكلام في هذه الآية وألفوا فيها تأليفا .

(قالوا : أضغاث أحلام[1]) : إنما حكى اللهُ عن قريش هذه الأقوال الكثيرة ليُظْهِرَ اضطرابَ أمرهم وبُطلان أقوالهم .

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثَرِ الرسول)[2] : القبضة : مصدر قبض ، وإطلاقها على المفعول مِنْ تسمية المفعول بالمصدر ، كضَرْب الأمير . ويقال قبض بالضاد المعجمة إذا أخذ بأصابعه وكفّه ، وبالصاد المهملة إذا أخذه بأطراف الأصابع . وقد قرىء كذلك في الشاذّ ؛ وإنما سُمّي جبريل رسولا لأن الله أرسله إلى موسى .

(قَصَمْنَا مِنْ قريةٍ كانت ظالمةً)[3] : والقَصْم : الكسر . قال ابن عباس : هي قرية باليمن ، يقال لها حَضُور[4] ، بعث اللهُ إليهم رسولا فقتلوه ، فسلّط الله عليهم بخت نَصّر ملك بابل ، فأهلكهم بالقتل . وظاهر اللفظ أنه على العموم ، لأنّ « كَمْ »[5] للتكثير ، فلا يريد قريةً معينة .

(قانتين[6]) : مُصلّين .

(قانع[7]) سائل ، يقال : قَنَع قُنُوعاً إذا سأل ، وقَنِعَ قناعة إذا رضي .

---

(١) الأنبياء : ٥ (٢) طه : ٩٦ (٣) الأنبياء : ١١

(٤) في القرطبي (١١ — ٢٧٤) : وتروى حضوراء ، بالألف الممدودة .

(٥) الآية : وكم قصمنا من قرية . (٦) الحج : ٢٦ ، وهي في الآية : والقائمين

(٧) الحج : ٣٦

(قَلَى) يقلى أبغض ، ومنه : « وما قلى[1] » و « لعملكم من القالين[2] » .

(قوماً عالين[3]) : متكبِّرين . والمراد بهم قومُ فرعون .

(قال : طائرُكم عِندَ الله[4]) ؛ أى السبب[5] الذى يحدُثُ عنه خيركم وشركم هو عند الله ، وهو قضاؤه وقَدَره ، وذلك ردٌّ عليهم فى تطيُّرهم ونسبتهم ما أصابهم من القحط إلى صالح عليه السلام .

(قال : إنِّى مُهَاجِر[6]) : فاعل قال « إبراهيم » . وقيل لوط . وهاجرا من بلادهما من أرض بابل إلى الشام .

(قال إنّ فيها لُوطاً[7]) : ليس إخباراً بأنه فيها ، وإنما قصد نجاةَ لوط من العذاب الذى يُصيب أهلَ القرية وبراءته من الظلم الذى وُصفوا به ، فكأنه قال : كيف تُهلِكون أهلَ هذه القرية وفيها لوط ؟ وكيف تقولون : إنهم ظالمون وفيهم لوط ؟

(قالوا : أآلهتنا خير أم هو[8]) : الضمير لعيسى ؛ وذلك أنهم قالوا : إن كان عيسى يدخل النارَ فقد رضينا أن نكونَ وآلهتنا معه ، لأنه خير من آلهتنا . وقيل : إنهم لما سمعوا ذِكْرَ عيسى قالوا : نحن أهْدَى من النصارى ؛ لأنهم عبدوا آدميًّا ، ونحن عبَدْنا الملائكةَ فقصدهم [٢٥٤ ا] تفضيل آلهتهم على عيسى . وقيل : إن قولهم : « أم هو » يعنُون محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فإنهم لما قالوا إنما يريد محمدٌ أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا : أآلهتنا خيرأم هُو » .

---

(١) الضحى : ٣ (٢) الشعراء : ١٦٨ (٣) المؤمنون : ٤٦
(٤) النمل : ٤٧ (٥) فى القرطبى : طائركم عند الله ، أى مصائبكم . وفى المفردات (٣١٠) : أى عمله الذى طار عنه من خير أو شر . (٦) العنكبوت : ٢٦
(٧) العنكبوت : ٣٢ (٨) الزخرف : ٥٨

يريدون تفضيلَ آلهتهم على محمد، والأظهر أنّ المرادَ بـ « هو » عيسى . وهو قولُ الجمهور ؛ ويدلُّ على ذلك تقدم ذِكْرِهِ .

(قوم خَصِمُون)[1] : هذا من قولِ الله لهم ، يعنى يريدون أن يغالطوك فى عيسى وإنما هو عَبْدٌ أنْعَمْنا عليه بالنبوة والمعجزات وغير ذلك .

(قال الذين كفَرُوا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقُونا إليه[2]) : القائلون لهذه المقالة هم أكابِرُ قريش لما أسلم الضعفاء ، كبلال وعَمّار وصُهيب ـ قالوا : لو كان الإيمانُ خيراً ما سبقَنا هؤلاء إليه . وقيل : بل قالها كنانة وقبائل من العرب لما أسلمَتْ غفار ومُزَينة وجُهينة ، وقيل : بل قالها اليهود لما أسلم عَبْدُ الله بن سلام . والأول أرجح : لأن الآية مَكيَّة .

فإن قلت : كان الأَوْلى أن يقول ما سَبَقْتُمُونا إليه ؛ لأنقول الذين كفروا للذين آمنوا مواجهة .

والجواب معنى الذين آمنوا : من أجل الذين آمنوا ، أى قالوا ذلك عنهم فى غَيْبتهم ، وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام ، لأنه لو كان خطاباً لقالوا : ما سبقتمونا إليه .

(قد خَلَتِ النُّذُر من بين يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِه[3]) ؛ أى تقدمَتْ من قبله ومِنْ بعده . والنُّذُر : جمع نذير .

فإن قيل : كيف يتصور تقدّمها من خلفه ؟

فالجواب أنّ هذه الجملة اعتراض ، وهى إخبارٌ من الله تعالى أنّ الله قد بعث رُسُلاً متقدمين قبل هُود وبعده . وقيل من خلفه : يعنى خَلْفه فى زمانه .

---

(١) الزخرف : ٥٨ (٢) الأحقاف : ١١ (٣) الأحقاف : ٢١

(قال إنما العِلْمُ عند الله[1]) : قال هود : العذابُ الذى قلتم ائتنا به ليس لى علم وَقْتَ كونه ، وإنما يعلمه الله ، وما علىَّ إلا أنْ أُبلغكم ما أُرسلتُ به ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون أَمْرَ الله ووَعيده .

(قالوا للذين أُوتُوا العلم ماذا قال آنِفاً[2]) : قد قدمنا معنى آنفا . والمعنى أن قُرَيشًا كانت تقول ذلك إمَّا احتقاراً لكلامه ، كأنهم قالوا أىُّ فائدة فيه ؟ وإما جهلا ونسيانا ، لأنهم كانوا وقْتَ كلامه صلى الله عليه وسلم مُعْرِضين عنه .

(ق)[3] : قد قدمنا أنه جبل محيط بالأرض ، أو هو من أسماء الله تعالى : القاهر ، أو المقتدر ، أو القادر .

فإن قلت : أين جواب القسم ؟ وما الفرق بينه وبين « يس » فى إظهار جوابِ القسم ووصف القرآن بالمجيد ؟

والجواب إنَّ جوابَ القسم محذوف ، تقديره ما ردُّوا أمرك بحجة ، وما كذَّبوا ببرهان ، وشبه ذلك ، وعن هذا المحذوف وقع الإضراب[4] ببل . ووصف كلامه هذا بالمجيد لشرفه ، وفى سورة يس بالحكيم ، لأنه محكم على غيره لرعاية الفواصل . وقد قدمنا أنَّ اللهَ سمّاه بستين اسما ، وما ذلك إلا لتعظيمه ؛ فاعرفْ قَدْرَ ما وصل إليكَ يا مَنْ أكرمه الله به .

(قَعِيد)[5] : أى قاعد ، وقيل مقاعد يعنى مجالس . ورَواه ابنُ عطية بأنَّ القاعد إنما يكون مع قعود الإنسان ، وإنما أفرده وهُمَا اثنان ، لأنَّ التقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من « المُتَلَقِّيَان[6] » ، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقال الفراء : لفظُ « قعيد » يدل على الاثنين والجماعة ، فلا يحتاج

---

(١) الأحقاف : ٢٣ (٢) محمد : ١٦ (٣) ق : ١

(٤) فى الآية التى بعدها : بل عجبوا . . . (٥) ق : ١٧ (٦) فى الآية نفسها .

إلى حذف ؛ وذكر جماعةٌ عن مجاهد أن « قَعِيد » اسم كاتب السيئات .

(قاصِرَاتُ الطَّرْف[1]) : معناه أنّ الحورَ العين يقصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم .

(قالوا : لولا نزل هذا القرآنُ على رَجُل من القَرْيَتَيْن عَظيم[2]) : لم يكفِ قريشًا مُعَانَدَتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ضموا إليه مكابرته والاستخفاف بكتابِ الله وشرائعه والاحتكام على حكمةِ الله فى تخَيُّر محمد صلى الله عليه وسلم مِن أهل زمانِه . ومعنى القريتين : مكة ، وعَنَوْا بالرجل منها الوليد بن المغيرة ، وقيل عتبة بن ربيعة . والأخرى الطائف ، وعَنَوْا بالرجل منه عروة بن مسعود . وقيل حبيب بن عُمير . ووصفوه بالعظمة لكثرة ماله ، فأنكر اللهُ [٢٥٤] عليهم اعتراضَهم وتحكّمهم ، وأن يكون لهم التدبير لأمر النبوة بقوله[3] : « أهُم يَقْسِمون رحمةَ رَبّك » ، والتخير لها مَنْ يصلح لها ويقوم بها والمتولّين لقسمة رحمةِ الله التى لا يتولاها إلا هو بباهر قُدرته وبالغ حكمته؛ ثم ضرب لهم مثلا فأعلَم أنهم عاجزون عن تدبير خُوَيصة أمرهم وما يصلحهم فى دُنياهم ، وأن الله عزّ وعلا هو الذى قَسم بينهم معيشَتَهم وقدَّرها ودَبَّر أحوالَهم تدبيرَ العالم بها ، فلم يُسَوِّ بينهم ، ولكن فاوت بينهم فى أسبابِ العيش ، وغاير بين منازلهم ؛ فجعل منهم أقوياء وأغنياء ، ومحاويج وضعفاء ، وموالى وخدما ؛ ليصرِّف بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويستخدموهم فى مهنهم ، ويسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ، ويصلوا إلى منافعهم ، ويحصلوا على مرافقهم ؛ ولو وَكَلَهُم إلى أنفسهم ، وولاَّهُم تدبيرَ أمرهم لضاعوا وهلكوا ؛ فإذا كانوا

---

(١) الصافات : ٤٨ (٢) الزخرف : ٣١ (٣) الزخرف : ٣٢

فى تدبير المعيشة الدنيّة فى هذه الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنّك بهم فى تدبير أمرِ الدين الذى هو رحمةُ اللهِ الكبرى ورأفته العظمى ، وهو الطريقُ إلى خيار حظوظ الآخرة والسُّلَّم إلى حلول دار السلام .

(قالوا : يأيُّها الساحرُ ادعُ لنــا ربَّكَ بما عَهِد عندك[1]) : يعنى من إجابتك . وقولهم : « إننا لمُهتَدون[2] » : وَعْدٌ نَوَوْا إخلافَه ؛ لأنهم رأَوْا تسعَ آيات فلم يؤمنوا . وقولهم : « يأيها الساحر » : إما أنْ يكون عندهم غيرَ مذموم ؛ لأن السحر كان علمَ أهلِ زمانهم ، وكأنهم قالوا يأيها العالم . وإما أنْ يكون ذلك اسماً قد ألِفوا تسميةَ موسى به من أوّل ما جاءهم ، فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه .

فإن قلت : ظاهرُ كلامهم يقتضى تكذيبَهم له ، وقولهم : « ادعُ لنا ربَّك » ـ يقتضى تصديقَه ؛ فما معنى الجمع ؟

والجواب أنّ القائلين لذلك كانوا مكذّبين ، وقولهم : « ادعُ لنا ربَّك » يريدون : على قولك وزَعْمك ، فدعا الله موسى فكشفه عنهم فنكثوا عهدَهم .

(قال : يا قوم ، أليس لى مُلْكُ مِصرَ[3]) : القائل لهذا فرعون ، وقصدَ بذلك الافتخارَ على موسى والتعظيمَ لملكه ، ومِصْرُ هو البلد المعروف ، وما يرجع إليه ؛ ومنتهى ذلك من نهر[4] الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل ؛ فانظر عقلَه الفاسد ، وبلادَته ، حيثُ فخرَ بتافهٍ من الدنيا ، ولم يعتبر بمَنْ تقدَّمه من الملوك الذى كانوا أعظمَ منه ؛ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ، ولكن تعمَى القلوبُ التى فى الصدور .

---

(١) الزخرف : ٤٩ (٢) بقية الآية السابقة . (٣) الزخرف : ٥١

(٤) يريد بحر الإسكندرية : البحر الأبيض .

(قال قرينُه : هذا ما لدىّ عتيد[1]) : اختلف ما المراد بالقرين؛ هل الشيطان الذى كان يُغْويه ، أو الملك الذى يسوقه ، أو الملك الذى يتولّى عذابَه فى جهنم ؟ والأولُ أرجح ؛ لأنه هو القرين المذكور بعد ؛ ولقوله[2] : « نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين » ؛ وقوله : « هذا ما لدىّ عتيد » ؛ أى هذا الإنسان حاضر لدىّ قد استعدَدْتُه ويسَّرته لجهنم ؛ وكذلك المعنى إن قلنا إنّ القرينَ هو الملك السابق . وإن قلنا إنه إحـــدى الزبانية فمعناه هذا العذاب لدىّ حاضر .

ويحتمل أن يكون « ما » فى قوله : « ما لدىّ » موصولة ، فعَتِيد بدلٌ منها ، أو خَبَرٌ بعـد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو تـكون موصوفة فعَتيد صفة لها ، ويحتمل أن يكون عَتيد الخبر ويكون « ما » بدلا مِنْ هذا أو منصوبة بفعل مضمر .

فإن قلت : إذا كان القَرين فى الآية الثانية[3] بعد هذا فما فائدة تـكرُّره وعطفه بالواو أوّلا ؟

فالجواب أنهم اختلفوا ؛ هل المراد بهما قرين واحد أم لا ؟ إذ المقارنة تـكون على أنواع . وقال بعض العلماء : قرين فى هذه الآية الثانية ليست عطفاً بل جواباً[4] ، وأما عطفه بالواو فلأن هذه الآية معطوفة على ما قبلها من آياتٍ هى إخبار عما يَلْقَاهُ الإنسان المتقدم ذكره مِن الأهوال والشدائد فى المواقف الأخروية ، وما بين يديها : أولها قوله : «وجاءت سَكْرَة الموت بالحق[5]» . ثم قال : «ونُفِخ[6] فى الصور ذلك يوم الوَعيد» . «وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائق وشهيد» . «وقال قرينُه هذا ما لدىّ عَتيد» ؛ فهذه إخبارات عن شدائد يلى بعضها

---

(١) ق : ٢٣ (٢) الزخرف ٣٦ (٣) ق : ٢٧

(٤) فى الـكشاف (٢ ــ ٤٠٤) : أخليت الجملة من الواو لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول . (٥) ق : ١٩ (٦) ق : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣

بعضا . فطابَق ذلك وورد بعضها معطوفا على بعض . وأما قوله بعد[1] : « قال قرينه ربنا ما أطغيته » فهو إخبار مبتدأ مستأنف معرّف بتبرّى قرينه من حمله [٢٥٥ ا] على ما ارتكبه واجترحه ، ولا طريق إلى عطف ذلك على ما قبله ؛ إنما هو استئناف إخبار ، فوُجد كلٌّ على ما يرد .

(قاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى[2]) ؛ أي كان جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم بمقدار القاب ـ وهو مقدار المسافة بين قَوْسين عربيين ، ومعناه من طَرَف العود إلى طَرَفه الآخر . وقيل من الوتر إلى العود . وقيل ليس القوس الذى يُرْمَى بها ؛ وإنما هى ذِراع تُقاس به المقادير . ذكره الثعلبي ؛ وقال : إنه من لغة أهل الحجاز ؛ وتقدير الكلام : مقدارُ مسافة قُرْبِ جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم مِثْلُ قاب قوسين ، ثم حُذفت هذه المضافات . ومعنى أدنى أقرب .

و « أو » هنا مثل قوله : أو يزيدون . وأشْبَهُ التأويلات فيها أنه إذا نظر إليه البشر احتمل أن يكونَ قاب قوسين ، أو يكون أدنى . وهذا الذى ذكرنا أن الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح . وقد ورد ذلك فى الحديث عن سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنها لله تعالى ، وهذا القول يردُّ عليه الحديث والعقل ؛ إذ يجبُ تنزيهُ اللهِ تعالى عن تلك الأوصاف من الدنوّ والتدلّى وغير ذلك .

(قاضِيَة[3]) : يعنى من أعطى كتابه بشماله يتمنى أنْ يكون مات فى الموتة الأولى بحيثُ لا يكون بعدها بعث ولا حياة .

(قاسطون[4]) : من قسط الثلاثى يعنى جار ، وأقسط الرباعى ـ بالألف ، إذا عدل بالرومية ، ومنه[5] : « إنَّ اللهَ يحبُّ المُقْسِطين » .

---

(١) ق : ٢٧ (٢) النجم : ٩

(٣) الحاقة : ٢٧ (٤) الجن : ١٤ (٥) المائدة : ٥ ، والحجرات ٩ والممتحنة ٨

(قصص[1]) : له معنيان : من الحديث ، ومن قَصّ الأثر ، ومنه[2] : « فارتَدّا على آثارِهما قصصا » . « قُصّيه[3] » .

(قَسْوَرَة[4]) - ابن عباس : هو الرامى . وقال أيضاً القسورة بلغة أهل الحبشة هو الأسد . وقيل أصوات الناس . وقيل الرجال الشداد . وقيل سوَاد أولِ الليل .

فإن قلت : سواد أول الليل لا يليق ، لأنّ اللفظة مأخوذة من القَسر الذى هو القهر والغلبة .

والجواب : أنه يليق باللفظة ؛ لأنه لاشىء أشد نفاراً لحُمُرِ الوحش من قُرْب الظلام لتوحُّشها .

(قَمْطَرِيرا[5]) : معناه طويل . وقيل شديد .

(قوارِيراً قوارِيرا[6]) منونين ، وبتنوين الأول ؛ وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق ، لأنه فاصلةٌ ، والثانى لإتباعه الأول . وقرىء قوارير - بالرفع ، على : هى قوارير ؛ والضمير فى قدَّروها تقديرا يحتمل أن يكونَ للطائفين وأن يكون للمنعمين ؛ ومعنى تقديرهم أنهم قدروها فى أنفسهم ؛ أو تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم ، فجاءت كما قدَّروا ؛ والتقدير إما أن يكون على قدر الأكف ؛ قاله الربيع ، أو على قَدْر الرِّى ، قاله مجاهد . قال ابن عطية : وهذا كله على قراءة مَنْ قرأ قدَّروها بفتح القاف . وقرىء قُدروها على البناء للمفعول ؛ ووجهه أن يكون من قدر منقولا من قدر ؛ تقول : قُدرت الشىء ، وقدرك على فلان إذا جعلك قادراً له . والمعنى جعلوا قادرين له كما شاءُوا ، وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا .

---

(١) القصص : ٢٥ (٢) الكهف : ٦٤ (٣) القصص : ١١ (٤) المدثر : ٥١
(٥) الإنسان : ١٠ (٦) الإنسان : ١٥ ، ١٦

فإن قيل : من المعلوم أن القارورة من الزجاج ، فكيف قال من فضة ؟

فالجواب أنّ المراد أنها فى أصلها من فضة ، وهى تشبه الزجاج فى صفائها وشفيفها . وقيل : هى من زجاج ، وجعلها من فضة على وَجْه التشبيه لشرف الفضة وبَيَاضها .

(قَصْر[1]) : واحد القصور ؛ وهى الديارُ العظام . وقد قدمنا وَجْهَ تشبيه الشرر به فى عِظَمه وارتفاعه فى الهواء . وقيل : هو الغليظ من الشجر واحده قَصْرة كجَمْرة .

(قَضْبا[2]) هى القِصْقِصة[3] . وقيل علف البهائم . واختار ابن عطية أنها [البقول][4] وشبهها مما يُؤْكل رطبا .

(قَيِّمَة[5]) فيعلة ، وفيه مبالغة ، تقديره الملة القيّمة أو الجماعة القيمة ، ومعناه أنّ الذى أمروا به من عبادة الله والإخلاص له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الإسلام ، فلأىّ شىء لا يدخلون فيه ؟

(قرآنا[6]) : يكون بمعنى القراءة ، ويقال فلان يقرأ قرآنا حسنا ، ومنه[7] : « إنَّ قرآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً » . وقد قدمنا أنه لا يُسمى بهذا الاسم غَيْرُ كتابِ الله ؛ لأنه يجمع السور ويضمُّها ، والقارىء مَنْ له القراءة ومَنْ لا قراءة له فليس بقارىء ، ولا يكون قارئًا إلا عند وجود القراءة ، ولو كانت القراءة قديمة لكان يجبُ أن يكونَ الحافظ لكتاب الله قارئًا [٢٥٥ ب] له فى جميع أحواله ، فلما بطل ذلك دلّ على أنها مُحْدَثة ، والقراءةُ غير الحفظ ، والكتابةُ غير السمع . والمتلوُّ والمقروء والمحفوظ والمكتوب والمسموع واحدٌ ؛ ولهذا لو قال :

---

(١) المرسلات : ٣٢ (٢) عبس : ٢٨ (٣) فى القاموس (قص) : القصقصة : نبات ــ فارسيه اسبست . وفى القرطبى (١٩ ــ ٢٢١) : القصقصة : القت الرطب .

(٤) مكانها بياض فى المنتخب ، والتكميل من القرطبى . (٥) البينة : ٣

(٦) الجن : ١ (٧) الإسراء : ٧٨

واللهِ لا قرأت القرآن ثم سمعه من غيره لم يحنَث، وهكذا لو قال: واللهِ لاحفظت القرآن ثم كتبه أو قرأه أو سمعه من غير أن يحفظه لا يحنَث ، فدلّ ذلك على تغاير الكتابة والقراءة والحِفْظ والسمع . والله أعلم .

(قَرِّي عَيْنا[1]) : أي طيبي نفساً لما فعل اللهُ لكِ من ولادة نبيّ كريم ، أو من تيسير المأكول أو المشروب ، كقولك : قررت به عينا أقَرّ بالكسر في الماضي والفتح في المضارع ، وقرَرت بالمكان بالفتح في الماضي ، والكسر في المضارع .

(قَرْضاً[2]) : سلفا ، والفعل منه أقرض يقرض .

(قلنا[3]) : مذهب العرب إذا أخبر الرئيس منها عن نفسه قال: قلنا وفعلنا وصنعنا ، لعِلْمه أنّ أتباعه يفعلون بأمره كفعله، ويَجْرُون على مثل أمره ؛ ثم كثر الاستعمال بذلك حتى صار الرجلُ من السوقة يقول فعلنا وصنعنا . والأصل ما ذكرت .

(قُرُوء[4]) : جمع قرء ، وهو مشترك في اللغة بين الطهر والحيض ، فحمَلَهُ مالك والشافعي على الطهر لإثبات التاء في ثلاثة ، فإنّ الطهر مذكر والحيض مؤنث ، ولقول عائشة رضي الله عنها : الأقراء هي الأطهار ؛ وحمَلَهُ أبو حنيفة على الحيض ؛ لأنه الدليل على براءة الرحم ؛ وذلكَ مقصود العِدَّة ؛ فعلى قول مالك والشافعي تنقضي العدةُ بالدخول في الحيضة الثالثة ، إذا طلقها في طُهْرٍ لم يمسها فيه ، وعند أبي حنيفة بالطهر منها .

(قُرْبان[5]) : ما يُتقرَّب به إلى الله عز وجل مِنْ ذبح وغيره ، والقُرْبة

---

(١) مريم : ٢٦ (٢) الحديد : ١١ ، ١٨

(٣) البقرة : ٣٤ ، وفي ستة وعشرين موضعاً أخرى في القرآن .

(٤) البقرة : ٢٢٨ (٥) آل عمران : ١٨٣

هي الطاعة ، ومن شرطها العلمُ بالمتقرب إليه ، فمحال وجود القُربة قبل العلم بالمعبود والنظر والاستدلال المؤدّيين إلى معرفته عزّ وجل ؛ فهو واجب وطاعة له ؛ فكلُّ قربة طاعة ، وليست كل طاعة قُرْبة ؛ لأن الصلاة في الدار المغصوبة تقعُ واجبة وطاعة ، وليست بقربة ؛ لأنه لا يُثاب عليها ؛ وإنما الفرض يسقط عند الفقهاء والمتكلمين من أهل الحق ، ومَنْ لا قربة له فليس بمتقرب . ولا يقال متقرب إلا لمَنْ كثرت قُرَبُه وطاعته .

(قُبُلا[1]) : أصناف ، جمع قبيل ؛ أي صنف صنف . وقُبلا أيضاً جمع قبيل ؛ أي كفيل . وقِبلا أيضاً مقابلة . وقِبلا عيانا . وقُبلا استئنافا . وقولُ سفيان : لا قِبَل لهم بها ، أي لا طاقة لهم .

(قِسْطاس[2]) : قال مجاهد : هو العدل بالرومية ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبير ، قال : القسطاس ـ بلغة الروم : الميزان .

(قُمَّل[3]) ـ بضم القاف وتشديد الميم : صغار الجراد . وقيل البراغيث . وقال الواسطي : هو الذُّبان بلسان العبرانية والسريانية ، وقرىء بفتح القاف والتخفيف ، وهو على هذا القمل المعروف ، وكانت تتعلق بلحومهم ، ومن طبعها أن تكون في الشعر الأحمر أحمر وفي الأسود أسود وفي الأبيض أبيض ، ومتى تغيَّر الشعر تغير إلى لونه ، وهو من الحيوان الذي إناثُه أكبر من ذكوره . وقيل : إن الصئبان بيضه . وأما قملة النسر التي تسقط منه إذا عضّت قتلت .

وروى أن موسى عليه السلام مشى بعصاه إلى كثيب أهْيل ، فضرب به فانتشر كلُّه قمل في مصر . ثم إنهم قالوا : ادْعُ لنا ربك في كَشْف هذا عنّا ، فدعا ؛ فرجعوا إلى كفرهم .

---

(١) الأنعام ١١١ ، والكهف ٥٥ (٢) الإسراء ٣٥ ، الشعراء ١٨٢
(٣) الأعراف : ١٣٣

وروى الترمذي الحكيم أنه إذا وجد الجالس على الخلاء قملة لا يقتلها، بل يدفنها، لِمَا رُوِى أنه مَنْ قتل قملة على رأس خلائه بات معه فى شِعَاره شيطانة تُنْسيه ذِكْرَ الله أربعين صباحا. وقد رخص صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف والزُّبير بن العوام لُبْسِ الحرير لدفع القمل، لأنه لا يقمل بالخاصية. قال الجاحظ: وربما كان للإنسان قمل الطباع، وإن تنظف وتعطر وبدّل الثياب، فعند الشافعية يجوز لُبْس الحرير لهذه النازلة. وقال مالك: لا يجوز لبسه مطلقاً، لأنّ وقائع الأحوال عنده لا تعمّ. وفى فتاوى قاضى خان: لا بأس أنْ يطرح القملة حيّة، والأدب أن يقتلها. وإذا رأى المصلّى فى ثوبه قملة أو برغوثا فالأولى أن يتغافلَ عنها، فإن ألقاها بيده [٢٥٦ ا] أو أمسكها حتى يَفْرغ فلا بأس، فإن قتلها فى الصلاة عُفِى عن دمها دونَ جلدها، فإن قتلها وتعلّق جلدها بظُفْره أو ثوبه بطلت صلاتهُ. قال الغزالى: ولا بأس بقتلها كما لا بأس بقتل الحية والعقرب. قال القمولى: ولا بأس بإلقائها بغير المسجد، والذى قاله صحيح، ف الحديث: إذا وجد أحدكم القملة فى المسجد فليَصرّها فى ثوبه حتى يخرج من المسجد. رواه الإمام أحمد فى الصحيح. وروى الحاكم فى أوائل المستدرك من حديث أبى سعيد أنه قال: قلت: يا رسول الله، مَنْ أشدُّ الناس بلاءً؟ قال: الأنبياء. قال: ثم مَنْ؟ قال: العلماء. قال: ثم مَنْ؟ قال: الصالحون؛ كان أحدهم يُبْتلى بالقمل حتى تقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى لا يجد إلا العباءة يلْبَسها، ولأحدهم كان أشدّ فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء، قال: صحيح على شرط مسلم.

(قرّة عَيْنٍ لى ولك[1]): مشتق من القَرّ، وهو الماء البارد، ومعنى قولهم:

(١) القصص: ٩

أقر الله عينكَ : أبرد الله دمعك ، لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة .

(قُدورٍ راسيات[1]) : قد قدمنا أنها ثابتات لا تنزل ، لأنها كانت أثافيها منها ، ويُطبخ فيها الجمل ، لا يخرج منها إلا عظامه .

(قُتل الخرّاصُون[2]) ؛ أي الكذابون . والإشارةُ إلى الكفار . وقُتِل معناه لعن . قال ابن عطية : واللفظةُ لاتقتضي ذلك . وقال الزمخشري[3] : أصله الدعاء بالقتْل ، ثم جرى مجرى اللعن والقُبْح .

(قُطوفها[4]) : جمع قِطف ، وهو ما يُجنى من الثمار ويُقطف كالعنقود .

(قِبلة[5]) : جهة ، وسُميت الكعبة بذلك لأنها تُقابل المصلّى ويقابلها .

(قيلا ، وقولا) بمعنى واحد ؛ ومنه : « وأقوم قيلا[6] » .

(قِسّيسين[7]) : جمع قَس ، وهو العالم . وفي الحديث : يُبعث قُسّ بن ساعدة أمةً وحده . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : رأيته على جمل بعُكاظ ، وهو يقول: أيها الناسُ اسمَعُوا وعُوا ، مَن عاش مات، ومَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آت آت ، مالى أرى الناسَ يذهبون ولا يرجعون ، أرَضُوا بالإقامة فأقاموا ، أمْ تُركوا هنالك وناموا ؛ إن في السماء لخبرا . وإنّ في الأرض عبرا . سقفٌ مرفوع . ومِهاد موضوع . وبحار تمُور . ونجوم تحور ، ثم تمود . أقسم بالله قسما لا كَذِب فيه ولا إثما : إن لله لدِيناً هو أرضى من دِينٍ نحن عليه ، ثم تكلم بأبيات شعر لا أدرى ما هى .

قال أبو بكر : كنت حاضرا ، والأبيات عندى . وأنشد[8] :

---

(١) سبأ ١٣ (٢) الذاريات ١٠ (٣) الكشاف : ٢-٤٠٨

(٤) الحاقة ٢٣ ، الإنسان ١٤ (٥) البقرة ١٤٤ (٦) المزمل ٦

(٧) المائدة : ٨٢ (٨) والمصريين : ٨٨

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابرُ والأصاغر

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر

أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القومُ صائر

وقوله هذا يدلُّ على أنه تنبه بعقله في هذه ، فانظر واعتبر ، ولو أدركته الرسالةُ لنبّه بعقله من كان في جهالة .

(قِطَعاً من الليلِ مُظْلِماً[1]) : جمع قطعة ، ومَنْ قرأ قِطْعا ـ بتسكين الطاء ـ أراد اسم ما قُطع ؛ تقول قطعت الشيء قَطْعا ، بفتح القاف من المصادر ، واسم ما قطعت ، والجمع أقطاع ، فمُظْلِما على قراءة فتح الطاء حال من الليل ، وأما على إسكانها فصفة له أو حال من الليل .

(قِطَعٌ مُتجاوِرَاتٌ[2]) : قد قدمنا أنّ معناها قُرًى متصلة ، ومع تلاصقها فإن أرضها تتنوع إلى طيب وردِيء . وصلب ورخو ، وغير ذلك .

(قِيعَة[3]) : جمع قاع ، وهو المنبسط من الأرض . وقيل القيعة بمعنى القاع ، وليس بجمع .

(قَرْن[4]) : مفرد قرون ، وهو مائة سنة ، وقيل سبعون ، وقيل أربعون .

فإن قلت : قد ورد في آيات من القرآن زيادة «من» كآية الأنعام[4] ويس[5] ؛ وفي السجدة[6] : «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم» .

---

(١) يونس : ٢٧ (٢) الرعد ٤ (٣) النور ٣٩ (٤) الأنعام ٦

(٥) يس : ٣١ (٦) السجدة : ٢٦

وفى ص[1] : «كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادَوا ولات حين مَناص» هذه ؛ الآيات الثلاث بزيادة «من» فيها، وسائرها[2] ورد فى القرآن من مثل هذه الآى لم تزد فيها مِنْ .

والجواب أنها تُزاد حيث يُراد تأكيد مضمن الآى من العصاة ، والإشارة إلى الوعيد ، وهى أبدا فى أمثال هذه المواضع محرزة معنى التأكيد لا تنفكّ عن ذلك ، ثم إن حذفها أوجز [٢٥٦] من إثباتها ، ولكلٍّ مقام مقال ؛ فحيث ورد من هذه الآى ما قبله استيفاء تفصيل وعيدى فى أمة بعينها أو أكثر ، أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق وهو فحوى الكلام ، فذلك موضع زيادتها والتأكيدُ بإثباتها ، وحيث لا يتقدم تفصيلٌ على ما ذكرناه ، أو تكون آيةُ التهديد لا تَبلُغ فى اقتضاء مقتضاها نفوذ الوعيد ، فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها ؛ إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يُراد فى الآى الأُخر .

(قِرْنَ فى بيوتكنّ[3]) : قرئ بكسر القاف ، ويحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من الوقار ، أو من القرار فى الموضع ؛ ثم حُذفت الراء الواحدة كما حُذفت اللام فى ظلت . وأما القراءة بالفتح فمن القرار فى الموضع على لغة مَنْ يقول : قرِرت بالكسر أقر بالفتح . والمشهور فى اللغة عكسُ ذلك . وقيل : هو من قارّ يقار إذا اجتمع . ومعنى القرار أرجح ؛ لأن سودة رضى الله عنها قيل لها : لِمَ تحتجبين ؟ فقالت : أمرنا الله أن نقرّ فى بيوتنا ، وكانت عائشة إذا قرأت هذه الآية تبكى على خروجها أيامَ الجمل ، وحينئذ قال لها عمار : إن اللهَ أمرك أن تقرّى فى بيتك .

---

(١) ص : ٣ (٢) فى الأنعام ٦ ، ومريم ٧٤ ، ٩٨ ، ص ٣ ، ق ٣٦ فيها كلها : من قرن . وفى هود ١١٦ ، والإسراء ١٧ ، وطه ١٢٨ ، والقصص ٧٨ ، والسجدة ٢٦ ، يس ٣١ ، فيها كلها من القرون . (٣) الأحزاب : ٣٣

(قال رَبِّ إني قَتَلْتُ منهم نَفْساً[1]) : هذا من قول موسى ؛ والإشارةُ بالنفس إلى القِبْطى ، فقال الله : ألَمْ أحفظ خضرة الشجرة من النار لم تحرقها ولم تضرها ، فكذلك يا موسى أحفظك وأنجيك من فرعون ولا يضرك بشىء ، فلما خرج موسى من مصر حين قتل القبطى سأل اللهَ الهداية ، فقال[2] : « عسى رَبِّى أنْ يَهْدِيَنِى سواءَ السَّبِيل » ؛ فلم يجبه حتى بعث إلى مصر ثانية ، فقال عند خروجه : سمعتُ نِدَاءَكَ وأجبتُكَ ، واليوم هديتك إلى كلامى ، إنى أنا الله العزيز الحكيم ؛ فكذلك أنتَ يامؤمن لمّا أنزلتُك إلى الدنيا عرفتَ المحن التى توجهتْ إليك ، فقلت : اهدنا الصراط المستقيم ، فأسمع وأجيب ، ثم إذا قرب رجوعُك إلىَّ وفوضتَ أمرك إلىّ أقول لك : إنى أنا الغفور الرحيم ، وأجعل الجنةَ منزلك ومَثْواك ، كما جعلت دِيارَ فرعون ومقامه ميراثاً لبنى إسرائيل ، فقلت : « [3] كم تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعيون ... » الآية .

فإن قلت : ما ورد فى الشعراء[4] إن الله أهلك القبط على أيدى بنى إسرائيل وأورثهم ملكهم وديارهم ، والذى فى الدخان[4] إن الله أورثها آخرين ليسوا هم ؟

والجواب أنه وقع الخلافُ فى رجوع بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعون ، وقد قدمنا فى مشهور التواريخ أنهم لم يرجعوا إليها ولا ملكوها قطّ ، وإنما أمرهم الله بدخول الأرض المقدّسة ؛ ولهذا قال قتادة : القوم الآخرون هم بنو إسرائيل ، فورثوا نوعها فى بلاد الشام ؛ وإنما سماهم آخرين ؛ لأنهم ليسوا

---

(١) القصص : ٣٣ (٢) القصص : ٢٢ (٣) الدخان : ٢٥

(٤) آية الشعراء (٥٩) : كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . وآية الدخان (٢٨) : كذلك وأورثناها قوما آخرين .

منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا وَلاء ؛ لأنهم كانوا مُسَخَّرين مستعبدين في أيديهم .

وقد ذكر الثعلبي عن الحسن أنَّ بني إسرائيل لما رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون — ويقوى قوله آية الشعراء — إليه ، ونصبه بالكاف في كذلك يدلُّ على رجوعهم ؛ أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ، وأورثناها لهم ، وسمّاها وراثة من حيث كانت لأُناس ووصلت إلى آخرين بعد موت الأولين ؛ وهو حقيقةُ الميراث في اللغة وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث .

(قِطَّنا)[1] : قد قدمنا أنَّ القِطَّ في اللغة له معنيان : أحدهما الكتاب بالنبطية ، والآخر النصيب . وفي معناه — في قوله[1] : «وقالوا رَبَّنا عَجِّل قِطَّنا قبل يوم الحساب» ثلاثة أقوال : أحدها نصيباً من الخير ، أي دعَوْا أن يعجِّل اللهُ لهم في الدنيا . والآخر نصيبهم من العذاب ؛ فهو كقولهم : «[2] أمْطِرْ علينا حجارةً من السماء» . والثالث صحائف أعمالنا . فتباً لقوم طَبع اللهُ على قلوبهم [١٢٥٧] وطلبوا الحجارة أو العذاب مع علمهم أنه الحق ؛ ولولا أنَّ اللهَ رحمهم بوجوده معهم لعاجَلهم بالحجارة ونزولِ العذاب ، لكنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالم ، كما قال تعالى[3] : «وما كان الله ليُعَذِّبَهم وأنْتَ فيهم» . وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما أجهل قومك حين ملَّكوا أمرهم امرأة ! فقال له : قومُك أجهلُ من قومي حيث قالوا حين دعاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق : «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمْطِرْ علينا حجارةً» ؛ ولم يقولوا : اهْدِنا له .

فإن قلت : قد قال بعدها[4] : «وما لهم ألاَّ يُعَذِّبهم الله» ، وهي

(١) ص : ١٦ (٢) الأنفال : ٣٢ (٣) الأنفال : ٣٣
(٤) الأنفال : ٣٤

مناقضة لقوله تعالى[1] : « وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم » .

فالجواب أن هذه الآية نزلت كلّها بمكة إثر قولهم[2] : « أو ائتِنا بعذاب أليم » . ونزل قوله[3] : « وما كان الله معذِّبَهم وهم يستغفرون » عند خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة فى طريقه إلى المدينة ، وقد بَقِىَ بمكة مؤمنون يستغفرون .

وقيل : إن قوله : « : « وما لهم ألاَّ يعذّبهم الله » نسخ لقوله : « وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفِرون » - وفيه نظر ؛ لأن الخبر لا يدخله نسخ . والظاهر أن : « ما لهـــم ألا يعذبهم الله » - يقتضى الوعيد . وتقديرُه : وما يملكهم ، أو ما يُدَرِّيهم ، ونحو هذا من الأفعال التى توجب أن تكونَ « أن » فى موضع نصب . وقال الطبرى : تقديره : وما يمنعهم أن يعذبوا . قال ابن عطية : والظاهرُ فى قوله : « وما » أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال ؛ وهذا أفصحُ فى القول ، وأقطعُ فى الحجة . والمعنى : وأىُّ شىء لهم فى انتفاء العذاب عنهم وهم معذّبون لا محالة ؟ وكيف لا يعذبون وحالُهم أنهم يصدُّون عن المسجد الحرام جَوْراً وتعدّيا عامَ الحديبية ، وإخراجهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدّ .

(قد) : حرف يختص بالفعل المتصرف الخبَرِىّ المثبت المجرّد من ناصب وجازم . وحرف تنفيس ماضيا أو مضارعا . ولهـا معان :

التحقيق مع الماضى ؛ نحو :[4] « قد أفلَح المؤمنون » .[5] « قد أفلح من زَكّاها » ، وهى فى الجملة الفعلية المجاب بها القسم ، مثل إن واللام فى الاسمية المجاب بها فى إفادة التوكيد والتقريب مع الماضى أيضاً ؛ تقرّبه من الحال ؛ تقول : قام زيد ، فيحتمل الماضى القريب والماضى البعيد ، فإن قلت : قد قام اختص بالقريب .

قال النحاة : وانبنى على إفادتها ذلك أحكام ؛ منها : مَنْع دخولها على ليس ،

---

(١) الأنفال : ٣٣ (٢) الأنفال : ٣٢ (٣) الأنفال : ٣٣
(٤) المؤمنون : ١ (٥) الشمس : ٩

وعسى ، ونِعْم ، وبئس ، لأنهن للحال ؛ فلا معنى لذِكْرِ ما يقرّب ما هو حاصل ، ولأنهن لا يُفِدْن الزمان .

ومنها وجوبُ دخولها على الماضى الواقع حالا ، إما ظاهرة ؛ نحو[1] : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أُخرِجْنا من ديارنا وأبنائنا » . أومقدرة ؛ نحو[2] : « هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا » . «[3] أوجاءُوكم حَصِرَتْ صدورُهم » . وخالف فى ذلك الكوفيون والأخفش ، فقالوا : لا يحتاج إلى ذلك لكثرة وقوعه حالا بدون قد .

وقال السيد الجرجانى وشيخنا العلامة الكافيجى : ما قاله البصريون غلط ، سببُه اشتباهُ لفظِ الحالِ عليهم ؛ فإنّ الحال الذى يقربه « قد » حال الزمان ، والحال المبيّن للهيئة حال الصفات ، وهما متغايران .

المعنى الثالث التقليل مع المضارع ؛ قال فى المغنى[4] : وهو ضربان تقليل وقوع الفعل نحو : قد يصدق الكذوب . وتقليل متعلّق الفعل ، نحو[5] : « قد يعلم ما أنتم عليه » ؛ أى أنّ ما هم عليه هو أقل معلوماته تعالى ؛ قال : وزعم بعضهم أنها فى هذه الآية ونحوها للتحقيق . وممّن قال بذلك الزمخشرى ؛ قال : إنها دخلت لتوكيد العلم ، ويرجع ذلك إلى توكيد الوعيد .

الرابع : التكثير ، ذكره سيبويه وغيره ، وخرّج عليه الزمخشرى[6] : « قد نرى تقلُّبَ وَجْهِك فى السماء » ؛ أى ربما نرى ، ومعناه تكثير الرؤية .

الخامس : التوقع ؛ نحو قد يقدم الغائب لِمَنْ يتوقّع وقوعه وينتظره . وقد قامت الصلاة ؛ لأن الجماعة ينتظرون ذلك ، وحمل عليه بعضُهم قوله تعالى[7] : « قد سمع اللهُ قولَ التى تُجادلك فى [٢٥٧ ب] زوجها » ؛ لأنها كانت تتوقّع إجابة الله لدعائها .

---

(١) البقرة : ٢٤٦ — (٢) يوسف : ٦٥ — (٣) النساء : ٩٠

(٤) المغنى : ١ — ١٣٤ — (٥) النور : ٦٤ — (٦) البقرة : ١٤٤

(٧) المجادلة : ١

حرف السين المهملة

(سليمان) بن داوود . قال كعب : كان أبيض ، جسيما ، وَسِيما ، وَضِيئاً جيلا ، خاشعاً متواضِعاً ، وكان أبوه يشاوِرُه في كثير من أموره مع صِغَر سنه لوفور عقــــله وعلمه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ؛ قال : ملك الأرض مؤمنان : سليمان ، وذو القرنين. وكافران : النُّمْرود ، وبخت نصّر. قال أهل التاريخ : ملك وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ بنـاءَ بيت المقدس بعد مُلْكه بأربع سنين ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة .

(سَوَاءَ السَّبِيل[1]) : هو الطريق ، وجمعه سُبُل ، ثم استعمل في طريق الخير والشر . وقد قدمنا أنّ سبيلَ الله الجهاد ، وابن السبيل الضيف . وسَوَاء بالفتح والهمز من التسوية بين الأشياء . وسواء الجحيم وَسطها ، وسيأتي معناها آخر الحرف .

(سَنَزِيدُ المحسنين[2]) ؛ أي يزيدهم أجراً إلى المغفرة .

(سَلْوى[3]) : طائر يشبه السُّمَانَى ، كان ينزل على بني إسرائيل من المنّ .

(سُجَّداً[4]) : معناه رُكَّعا ؛ لأن الدخول لا يتأتّى مع السجود . وقيل : متواضعين. وقد قدمنا أنّ سجودَ الملائكة لآدم كان بوَضْع جباههم في الأرض ، وأول مَن سجد إسرافيل ؛ ولذا جازاه اللهُ بولاية اللوح المحفوظ .

---

(١) الممتحنة : ١ (٢) البقرة : ٥٨ (٣) والأعراف ١٦٠ ، طه ٨٠

(٤) البقرة : ٥٨ ، وغيرها .

(سفِه نفسه[١]) : منصوب على التشبيه بالمفعول به . وقيل : الأصل في نفسه ثم حذف الجار فانتصب . وقيل تمييز ؛ ومعناه أهلكها وأوبقها .

(سيقول السفهاء[٢]) : ظاهره الإعلام بقولهم قبل وقوعه . وقال ابن عباس : نزلتْ بعد قولهم ، والمراد بهم اليهود أو المشركون أو المنافقون . وأما : « ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكم[٣] » فالمرادُ بهم أولاد الرجل ونساؤه ، لأنهم يبذِّرون . وقيل السفهاء المحجورون ، وأموالكم ، أي أموال المحجورين ، وأضافها إلى المخاطبين لأنهم ناظرون عليها وهي تحتَ ولايتهم .

(سِرًّا[٤]) وسرورا[٥] بمعنى واحد .

(تسليما) : ملاطفة وقَصْداً .

(سلَف) الأمر ، أي تقدم ، وأسلفت الرجل أي قدمته ، ومنه : « بما أسْلَفْتم في الأيام الخالية[٦] » .

(سَلم) ـ بفتح السين : السلامة ، والمراد به عقد الذمة بالجزية . وقرىء بكسر السين بمعنى الدخول في الإسلام . وأما السَّلَم بغير ألف فهو الانقياد . ومنه : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم[٧] » ، وقرىء بالألف بمعنى التحية .

(سارعوا[٨]) : بغير واو استئناف ، وبالواو عطف على ما تقدم ، ومعناه المبادرة إلى الأمر .

(سَعِيراً[٩]) : اتقاداً ، وهو اسمٌ من أسماء جهنم .

---

(١) البقرة : ١٣٠ (٢) البقرة : ١٤٢ (٣) النساء : ٥
(٤) البقرة : ٢٣٥ (٥) هذا بالأصلين ، وحقها : استسرارا ، أي خفية .
(٦) الحاقة : ٢٤ (٧) النساء : ٩٤ (٨) آل عمران : ١٣٣
(٩) النساء ١٠

(سلام) : اسم من أسماء الله ، وهو بمعنى الخير ، « فاصْفَحْ عنهم وقل سلام[1] » . وبمعنى الثناء : « سلام على نوح فى العالَمِين[2] » . وبمعنى السلامة : « اهْبِط بسلام منا[3] » . « لهم دارُ السلام عند ربّهم[4] » . وبمعنى الشجر العظام ، واحدتها سَلِمَة .

(أسلم) : له ثلاثة معان : الدخول فى الإسلام ، والإخلاص لله ، والانقياد ، ومنه : « أسلمتُ لرب العالمين[5] » . « فلما أسْلَمَا وتَلّهُ للجَبِين[6] » .

(سكينة) : وقار وطمأنينة . وقال الراغب[7] فى مفرداته - فى قوله تعالى : «هو الذى أنزل السكينةَ فى قلوب المؤمنين[8] » : إنه ملك يسكِّن قَلْب مؤمن ويؤمنه ، كما رُوِى : إن السكينة تنطقُ على لسان عُمَر . وقيل فى سكينة[9] تابوت بنى إسرائيل : إن لها وجهاً مثل وَجْه الإنسان ، ثم هى بعد ريح هفّافة . وقيل : رأس[10] مثل رأس الهرّ وجناحان وهى من أمر الله .

(سكن) يسكن : له معنيان : من السكون ضد الحركة . ومن السكنى فى الموضع ، ومنه : « اسكُنْ أنتَ وزَوْجك الجنّةَ[11] » .

فإن قلت : إذا كان من السكون الذى معناه الإقامة ، فما معنى عطف الأكل فى البقرة بالواو بخلاف آية[12] الأعراف ؟

والجواب أنّ مورد الآيتين مختلف فى الموضعين ؛ لأن الواردَ فى البقرة

---

(١) الزخرف ٨٩ (٢) الصافات ٧٩ (٣) هود ٤٨

(٤) الأنعام ١٢٧ (٥) البقرة ١٣١ (٦) الصافات ١٠٣

(٧) فى المفردات ٢٢٢ (٨) الفتح ٤ (٩) الآية فى سورة البقرة (٢٤٨) : . . . أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم .

(١٠) فى المفردات : وما ذكر أنه شىء رأسه كرأس الهر - فما أراه قولا يصح .

(١١) البقرة : ٣٥ (١٢) الأعراف : ١٩

قُصد به مجرّد الإخبار والإعلام به لرسوله صلى الله عليه وسلم بما جرى فى قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه ، وأمر الملائكة له بالسجود ، وما جرى من إبايَة إبليس عن السجود ، ثم ما أمر به آدم من سكنى الجنة والأكل منها ، ولم [١٢٥٨] يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زمانىّ أو تحديد غاية ؛ فناسبهُ الواو ؛ وليس موضع الفاء . وأما آية[١] الأعراف فمقصودُها تعداد نِعَم الله تعالى على آدم وذُرّيته ؛ ألا ترى ما تقدّمها من قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم[٢] » . وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم قوله مفردا لإبليس : « اخرُجْ منها مَذْءوماً مَدْحُوراً[٣] » مفردا بذلك أمر آدم عليه السلام بالهبوط متبعاً بالتأنيس له ووصية الذرية فى قوله : « يا بنى آدمَ لا يفتِنَنّكم الشيطانُ[٤] » ؛ فناسب هذا القصد العطف بالفاء المُحْرِزة معنى الترتيب ، والواو لا تقتضى ذلك ، وإنما بابُها الجمع حيث لا يُراد ترتيب ، وليس موضع شرط وجزاء ؛ فيكون ذلك مسوّغا لدخول الفاء ؛ وإنما ورد هاهنا لما ذكرتُه من قَصْد تجريد التفضيل المحصّل لتعديد النعم . ولما اختلف القصدانِ اختلفت العبارة فيهما .

(سعى) يسعى : له ثلاثة معان : عمل عملا ؛ ومنه : « وأن ليس للانسان إلاّ ما سعى[٥] » . ومشى ؛ ومنه : « فاسعَوْا إلى ذِكْرِ الله[٦] » . وأسرع فى مشيه ؛ ومنه : « وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يَسْعَى[٧] » .

فإن قلت : ما وَجْه تقديم الرجل فى هذه الآية وتأخيره فى آية يس[٨] ؟

---

(١) الأعراف : ١٩ (٢) الأعراف : ١١ (٣) الأعراف : ١٨

(٤) الأعراف : ٢٧ (٥) النجم : ٣٩ (٦) الجمعة : ٩

(٧) القصص : ٢٠ (٨) يس : (٢٠) : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى .

والجواب إنما أخره فى يس لأوجه ؛ منها : أنه كان يعبد الله فى جبل ، فلو أسمع خبر الرجل سعى مستعجلا .

وقيل : حيث قدّم الظرف على رجل أراد أن ينبه أن الرجل من المدينة نفْسها ، وحيث أخّر الظرف لم يرد أن يُذَبِّه على المعنى المذكور . وقيل : لما كانت مقالةُ الرجل فى سورة يس تقتضى الإرشادَ أخّر ذكْرَه ليكون مواليًا لإسناد قوله إليه ؛ وليعلم القائل أنّ مقالته تقتضى الإنذار قدم ذكره وفصّل بينه وبين مقالته ليبعد إسنادها إليه ، إذ المقالة تقتضى الإخفاء ، وهو أيضًا كذلك ، فكان بعد إسناد المقالة إليه فيه ضربٌ من إخفائه .

وقيل غير هذا من الوجوه حذفناه لطوله .

(سَوْءَةَ أخيه[1]) ؛ أى عورته ، وخصها بالذكر لأنها أحقّ بالستر من سائر البدن ، والضميرُ فى « أخيه » عائد على ابن آدم ، وأما قوله : « فبَدَتْ لهما سَوْءَاتُهما[2] » ، فقد قدمنا أنه زال عنهما اللباسُ الذى كان عليهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر .

(سَمَّاعُونَ لِلْكذبِ سَمَّاعُون لقومٍ آخَرِين[3]) ، أى لقوم آخرين من اليهود الذين لا يأتُون النبيَّ صلى الله عليه وسلم لإفراط البغْضَة والمجاهرة .

فإن قلت : ما فائدة تكرير هذا السماع هنا ؟

فالجواب أنه إن كان سماعون الأول استئناف إخبار عن المنافقين والذين هادُوا فيكون الثانى فى اليهود خاصة ، وإن كان من الذين هادُوا استئنافًا منقطعًا عما قبله فيكون سماعون الأول راجعًا إليهم خاصة ، فكرّر الثانية

---

(١) المائدة : ٣١ (٢) طه : ١٢١ (٣) المائدة : ٤١

تأكيداً ، وبالجملة فالآيةُ خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه التسلية .

وأما قوله فى براءة : « وفيكم سمّاعون لهم[1] » فمعناه خطابٌ للصحابة بأنهم يسمعون كلامَ المنافقين فى إخبارهم بإبتغائهم فتنتكم ، وتنقلونها لإخوانكم المؤمنين ، وهم مع ذلك طالبون فسادكم . وقيل سمّاعون ؛ أى يتجسسون لهم الأخبار .

(سأُرِيكم دارَ الفاسقين[2]) ؛ أى دار فرعون وقومه ، وهو مصر ؛ فالذى أُريكم كيف أقفرت منهم لما هلكُوا . وقيل : منازل عاد وثمود ومَنْ هلك من الأمم المتقدمة ليعتبروا بها. وقيل جهنم. وقرأ ابن عباس بالثاء المثلثة : "سأُورثكم" من الوراثة ، وهى على هذا مصر كما قدمنا .

(سأصْرِفُ عن آياتى الذين يتكبّرُون فى الأرض بغير الحقّ[3]) : يحتمل أن يريد بهـا آيات القرآن وغيره من الكتب فيطمس اللهُ فَهْمَها ، والتدبُّر فى معانيها على المتكبرين ؛ وهذا كقوله : « واتَّقُوا اللهَ ويعلِّمُكم اللهُ[4] » . وفى الحديث : العلم نور يضعُهُ الله فى قلبِ الخائف. وفيه [٢٥٨] : مَنْ عمل بما علم أورثه اللهُ عِلْمَ ما لم يعلم . مَنْ لم يتق الله يصرفه عن فهم آياته ، ويصدّه عن الإيمان عقوبةً له على تكبّره . وقيل : الصرف منعهم عن إبطالها .

(سَكَتَ عَنْ مُوسى الغَضَبُ[5]) ؛ أى سكن ، وبذلك قرأ بعضهم . والغضب : شعلة نار ، وهو مذموم ، مَنْ وجده فليستعذ بالله منه ، وإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً فليضطجع ؛ وغضبُ موسى إنما كان لله فى غضبه على اتخاذ العِجْل فى غيبته إلى الطور ، فلما رجع ألقَى الألواحَ التى كانت عنده

---

(١) التوبة : ٤٧ (٢) الأعراف : ١٤٥ (٣) الأعراف : ١٤٦
(٤) البقرة : ٢٨٢ (٥) الأعراف : ١٥٤

لما لحقه من الدهش ، وأخذ برأس أخيه هارون يجرُّه ، لأنه ظن أنه فرّط في كفّ الذين عبَدُوا العجل ؛ فقال : « ابنَ أم ، إنّ القومَ استضعفُونى وكادُوا يَقتُلُوننى ...[1] » الآية ؛ فسكن حينئذ موسى . وإنما دعاه هارون بأمّه ؛ لأنه أدعَى إلى العطف والحنوّ . وقرىء ابن أم بالكسر على الإضافة إلى ياء المتكلم وحُذفت الياء ؛ وبالفتح تشبيهاً بخمسة عشر ، جُعل الاسمان اسماً واحداً .

وفي الآية تنبيه على أنّ الغضبَ لله من النصرة لدين الله ، فلا يغفل المرء عن الحبّ في الله والبغض في الله . وإنما غضب موسى على مَنْ ظنّ منه الإفادة والانتهاء عما هو فيه . وأما مَن ظن عدم ذلك فلا ينبغي إلا هجرانُه وطرْدُه .

ولعمري هل فيك نفحة من هذه النفحات فتغضب على أهلك ووَلَدك وما ملكت يمينك إذا رأيتهم خالفوا أمرَ ربهم ؟ كلاّ لو فهموا منك تغضّبا لِتَرْكِ دينهم كما تغضب عليهم إذا ضيّعوا دُنياك لانتهَوا ، ولكنك لا تغضب عليهم لعدم صِدْقك مع الله فلم يزيدوا إلا طُغياناً كبيرا .

(سيَّارة[2]) : قوم مسافرون .

ورُوِى أنّ السيارة التي أخرجت يوسف كانت من مَدْين . وقيل أعراب السيارة طلبوا الماءَ فوجدوا يوسف . وسليمان طلبَ السمكةَ فوجد الخاتم ، وموسى طلب النارَ فوجد الجبّار . وأنتَ يا عبدَ الله ، هلاَّ ترى شبكةَ الندامة في بَحْر الاستغفار وتَصْطاد لنفسك الضعيفةِ حُوتَ السلامة من الفُرقة والقطيعة ، فإن كنت أحذق فعليكَ بالأوفق ؛ لايشغلك شاغل عن الطاعة بجهد الاستطاعة ، فإن وقَعْتَ في ظلمة أو وَحلة يخرجك كما أخرج يوسف ، وإن صيّره ملكا فيصيّرك ملكا كريماً في دارِ ضيافته ، ويكشف لك عن كمال ذاته ، فتنظر إلى جماله .

---

(١) الأعراف : ١٥٠ (٢) يوسف : ١٠ ، ١٩

(سيِّدَها[1]) : قد قدمنا أن السيد يُراد به الرئيس والذى يفوق فى الخير قَوْمَه . والسيد فى الحقيقة هو المالك . ولذا أضاف امرأةَ العزيزِ إليه ، لأنه مالكها ، فلما رأته خجلتْ واستحيت وقالت : « ما جَزَاءُ مَنْ أرادَ بأهلكَ سُوءًا إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم[1] » : قتلا أو ضربا وَجيعا . قالت ذلك ضجَراً لِمَا فاتها منه ، ولما ظنت أن يَنْتَسب إليها من ذلك .

وأنتَ يا عبد الله ، تفوتك من مولاك اغتنامُ الطاعات ، ولا تبكى على فَقْدها ، ولا تهتم من عقوبة معصيته . أما علمتَ أنّ عقوبةَ غيبة الحبيب أشدُّ من عقوبة الغضب . غضبَتْ زُليخا ساعةً فأورثها حزْنًا طويلا ؛ كانت تقومُ الليل وتقول : يا يوسف ، هل أنتَ نائم أوساهر ؟ أما أنا فأنا ساهرة منحبِّك ، ليتنى لم أمرْ بك إلى ما ترى ! وأنت لا تخاف من غضب مَنْ لا يقوم لغضبه شىء . فلا تحسبنّ إمهاله لكَ إهمالا ، أما سمعتَه يقول : « سنَسْتَدرِجهم من حيثُ لا يَعْلَمون[2] » ؛ أى نؤاخذهم قليلا ولا نباغتهم كما يرتقى الراقى الدرجةَ فيتدرّج شيئاً بعد شىء حتى يصلَ إلى العلوّ ؛ وقال بعضهم : معناه كلما جدّدوا خطيئةً جدّدْنا لهم نعمةً حتى نأخذهم بغَتْة .

(سَبْعٌ شِـدَاد[3]) : يعنى ذات شدة وجوع سَبْعَ سنين . هذا تعبير الرؤيا ؛ وذلك أنه عبَّر البقرات السمان بسبع سنين مُجْدبة ، وكذلك السنبلات الخضر واليابسة .

فإن قلت : ما وَجْهُ اختلافِ العددَيْن فى هذه الآية وآية البقرة فى قوله : « سَبْعَ سنابل[4] » ؟

فالجواب أن بابَ ما يجمع بالألف والتاء أن يكون القليل ما لم ينص

(١) يوسف : ٢٥ (٢) الأعراف : ١٨٢ (٣) يوسف : ٤٨ (٤) البقرة : ٢٦١

عليه أو بعرض عارض ؛ لأن آيةَ البقرة مبنية على ما أعدَّ الله [١٢٥٩] تعالى للمُنفق فى سبيله وما يُضاعف له من أجْر إنفاقه ؛ وإن ذلك ينتهى إلى سبعمائة ضعف ، وقوله : « والله يضاعفُ لمَنْ يشاء[١] » قد يُفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد ، كما أشارت إليه آياتٌ وأحاديث ، فَبُنِى هذه الآية على التكثير ؛ فناسب ذلك ورود المفسّر على ما هو مِنْ أبنية الجموع للتكثير لَحْظاً للغـــاية المقصودة ، ولم يكن ما وَضْعه للقليل فى القالب ليُناسب ما لحظ فيه الغاية من التكثير . أما آيةُ يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه : (سبع سُنْبُلات[٢]) : فلا طريقَ هنـا لَحَظِّ قِلّة ولا كثرة ؛ لأنه إخبار برؤيا ، فوَجْهُه الإتيانُ من أبنية الجموع بمـا يُناسب المراد وهو قليلٌ ؛ لأن ما دون العشرة قليل ؛ فلحظ فى آية البقرة وما بعدها ممـا يتضاعف إليه هذا العدد ، وليس فى آية يوسف ما يُلحظ، فافترق القَصْدَان وجاء كلٌّ على ما يجب .

(سارِب[٣]) : قد قدمنا أن « سارِب » عطف على مُسْتَخْف بالليل ، لا على مستخف وحْدَه ، وأما قوله : « فاتخذ سبيله فى البحر سرَبا[٤] » فمعنـاه أنّ الحوتَ سار فى البحر ؛ قيل : إن الحوتَ كان مَيّتا مملوحا ثم صار حيّـا بإذن الله ، ووقع فى الماء ، فسار فيه . وقال ابن عباس : بل صار موضعُ سلوكه ماءً جامدا . قال ابن عطية : وهؤلاء يتأوّلون سرَبا بمعنى جَولانا ، من قولهم : فحل سارب ؛ أى مهمل يَرْعَى فيه حيث شاء . وقالت فرقة : اتخذ سرَبا فى التراب من المِكْتَل إلى البحر ، وصادفَ فى طريقه بحَرًا فنقبه . وظاهر الأمر أنّ السرَب إنما كان فى الماء .

ومن غريب ما رُوى فى البخارى فى قصص هذه الآيات أنّ الحوت إنما

---

(١) البقرة : ٢٦١ (٢) يوسف : ٤٦ (٣) الرعد : ١٠ (٤) الكهف : ٦١

حيي لأنه مسّه عَين هناك تُدعى عين الحياة ما مسّتْ قطّ شيئاً إلا حَيِيَ ؛

ومن غريبه أيضاً أن بعضَ المفسرين ذكر أنّ موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً ، وأن موسى مشى عليه متّبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريقُ إلى جزيرة في البحر ، وفيها وجد الخضر . وظاهرُ الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضَفّة البحر يدلُّ عليه قوله : « فارْتَدّا عَلَى آثارِهما قَصَصاً[1] » .

وإنما ذَكر بعده : « واتّخذ سبيله في البحر عَجَبًا[2] » ـ بالواو : لأنه يحتمل أن يكون من كلام يوشَع لموسى ؛ أي اتخذ الحوتُ سبيله عجباً للناس . ويحتمل أنْ يكون قوله تمام الخبر ، ثم استأنف التعجب ؛ فقال من قبل نفسه : عجباً لهذا الأمر . وموضع العجب أن يكون حوتٌ قد مات وأُكل شقّه الأيسر ثم حَيِيَ بعد ذلك .

قال أبو شجاع في كتاب الطبري : رأيته فإذا هو شقه حُوت وعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيء . قال ابن عطية : وأنا رأيتُه والشق الذي ليس فيه شيء قشر له قشرة رقيقة تشفّ تحتها شوكة ، وشقّه الآخر . ويحتمل أن يكون قوله : « واتّخذَ سَبِيلَه ...[3] » الآية إخباراً من الله تعالى ، وذلك على وجهين : إما أنْ يُخبِر عن موسى أنه اتّخذَ سبيلَ الحوتِ من البحر عجبا ، أي تعجّب منه ؛ وإما أنْ يُخبِر عن الحوت أنه اتخذَ سبيلَه عجبا للناس .

وقرىء : واتّخاذ سبيله ؛ فهذا مصدرٌ معطوف على الضمير في « أن أذْكُرَه[3] » .

(سَرَابِيلُهم مِنْ قَطِران[4]) بفتح القاف وكسر الطاء ، وبفتحهما وبسكون الطاء ؛ وإنما جُعل قُمُص أهلِ النار من القَطِران ، وهو الذي تُهْنَأ[5] به الإبل ، لأن للنار اشتعالا شديداً .

---

(١) الكهف : ٦٤ (٢) الكهف : ٦٣ ، فهو ليس بعده . (٣) الكهف : ٦٣

(٤) إبراهيم : ٥٠ (٥) تهنأ : هنأ الإبل ع[؟]ـ بفتح النون : طلاها بالهناء ، وهو القطران .

فإن قلت : ما فائدة الإتيان بمِنْ ، وقد كان يستغنى عنها ؟

فالجواب أن فائدة الإتيان بهـا نَفْىُ توهُّم مجاز التشبيه ، نحو زيد أسد ، وكقوله عليه السلام فى صحيح مسلم : إنّ أحدَكم لا يزال راكبًا ما انتعل . ففرْق بين خاتم فضة ومِنْ فضة ؛ فإن الأول يحتمل أنه تشبيه محذوف الأداة ، والثانى نصٌّ لا يتطرق إليه احتمالٌ البتة .

وقد يقال : إن الإتيانَ بها هو الأصل؛ لأن الإضافةَ فى مثله على معنى مِنْ ، نحو ثوب خزّ ؛ وإنما يُستغنى [٢٥٩ ب] بذكرها مع الإضافة ، ولما تعذّرَتْ الإضافةُ هنا بإضافة السرابيل إلى ضمير المحدّث عنهم تعيَّن الإتيانُ بها رجوعا للأصل ، لتدلَّ على التبعيض المقصود مِن هذا التركيب . وفائدةُ قصْدِه هنا الإعلام بأن هناك قَطِرانًا غَيْرَ ما جُعل من السرابيل ، ليصبّ عليه ، فيزدادُ اشتعالُ النارِ عليهم بذلك ، أو تُجدد منه السرابيل إن ذهبت الأُولى بذهاب الجلودِ التى طُليت بما شُبّه منه بالسرابيل : « كلما نَضِجَتْ جلودهم بدّلْناهم جلُوداً غيرها » ، أو يُسقونه فتحترق أفئدتهم كلما أحرقَتْ جلودَهم نارُ الله الموقدة التى تطَّلِعُ على الأفئدة ، أو لغير ذلك ، ولو لم تذكر « مِنْ » لما عُلم أنّ هناك منه غير ما جعلت السرابيل إلا بدليل آخر .

ونظيرُ ما ذكرناه من فائدة قصد التبعيض هنـا قوله صلى الله عليه وسلم فى حكاية عن قول إبراهيم : « فاجعلْ أفئدةً من الناس تَهْوِى إليهم وارْزُقْهم من الثمرات[١] » ولا يتأتى السربال حقيقة من القَطِران إلا بأَنْ تبدّل صفته من المائعية إلى التجمد ، وحينئذ يكون إخبارا ، بخلاف المَعْهود منهُ . ويشبه على هذا الجمل أن يكون تنكيره للنوعية ؛ أى نوع من القطران غير متعارف ؛ فظهر

---

(١) إبراهيم : ٣٧

من هذا أنّ احتمالَ التشبيه مع ذِكْر « من » قائم كما هو مع حذفها .

ويحتمل أنه قصد التشبيه بالقطران لشدةِ سوادها واشتعال النار فيها ونَتنها بحيث يقال إنها من القطران ، وربما يكون من تلك السرابيل المسوح التى تُقبض فيها أرواحُ الكفار على ما ورد مرادا بها الحقيقة فى قراءة تنوين قَطرانٍ ، ووصف بآنٍ أقرب ؛ ويدل على أن التصريح بمن لا يُنافى التشبيه الإتيان بها مع صريحه ؛ نحو قوله صلى الله عليه وسلم : كأنه من رجال شنوءة ، وكأنه من رجال الزط .

(سبعاً من المثانى والقرْآنَ العظيم [١]) : قال بعضُ العَدديين : إنما خصص لفظ السبع هنا لأنها أوّل العدد الكامل الزائد على العدد التام الأجزاء ؛ لأن الستة عدد تام الأجزاء ، وهذا العدد له نسبة فى المخلوقات الجلة ؛ كعدد السموات والأرض والأيام والأعضاء ، وأبواب جهنم . وغير ذلك مما يطول ذكرها . وذكر الله لهذه السورة أسماء كثيرة ، وفيها سبع آيات ، وهى خالية من أحرف العذاب : الثاء : « لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً [٢] » . والخاء : « ألاّ تخافوا ولا تحزَنوا [٣] » . والشين : « ولا تَشقَى [٤] » . والجيم : « لهم نارُ جَهنم » — جمى الكفار . والزاى : « إن شجَرَةَ الزَّقُّوم [٥] » . والفـــاء : « يومئذ يفرّقون [٦] » . والظاء : « أو كظُلُمَاتٍ [٧] » . فسبحان من خصّ هذه الأمة بمحامدَ وخصائص يجبُ عليهم شكرُها إن عقلوا ، ولو لم يكن لهم إلا افتتاح هذا الكتاب المنزّل عليهم بالحمد تعليما لهم وإرشاداً لحمده . وكرّر عليهم ذكر ذلك فى كتابه : كقوله لنبيه : « قل الحمد لله الذى لم يتخذ ولَدًا [٨] » . « قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » .

---

(١) الحجر : ٨٧ (٢) الفرقان : ١٤ (٣) فصلت : ٣٠ (٤) طه : ١٢٣
(٥) الدخان : ٤٣ (٦) الروم : ١٤ (٧) النور : ٤٠ (٨) الإسراء : ١١١

فإن قلت : لِمَ أمر بالحمد لله على عدم اتخاذ الولد ؟

والجواب أنه لو كان له ولد فلا بد من عبادته ، وعبادة إلهين يشقُّ علينا ، ولو كان له ولد لأعطاه أفضل الأشياء ، فانفرد بالملك كله ، ولو كان له ولد لكان له إلى النساء حاجة ، والمحتاجُ لا يستحق الربوبية : « ما كانَ للهِ أنْ يتَّخِذَ مِنْ ولدٍ سبحانه[1] » .

فإن قلت : لِمَ أمر عباده بالحمد قَبْلَ سائر الطاعات ؟

والجواب لأن أول كل شيء منه نعمة ؛ وهو الخَلْق السويّ ، والمعرفة ، والإسلام ، والهداية ؛ فأمرنا بالحمد ليكونَ جزاؤه فقد الإنسية فيشق علينا أداؤه ، وإذا أردت أن تعرف قيمةَ الحمد فتأمّل إلى أهل الجنة حيث حمدوه إذا فرغوا من الحساب : « وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وقِيلَ الحمدُ لله[2] » ، وإذا عبَرُوا على الصراط قالوا : « الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحزَنَ[3] » ، وإذا بلغوا بابَ الجنة قالوا : « الحمدُ لله الذي صدقَنا وعدَه[4] » ، فإذا نزلوا منازلهم قالوا : الحمد لله « الذي أحلَّنا دارَ المُقَامة من فَضْله[5] » . فإذا فرغوا من الطعام قالوا : « الحمد لله ربِّ العالمين[6] » . قال تعالى : « وآخِرُ دَعْواهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين[7] » .

فانظر كيف لم يغفلوا عن الحمد في كل الأحيان مع أنَّ الله [١٢٦٠] ختم لهم بالحُسْنَى ، فكيف تغفَلُ يا محمديّ عمّن ناصيَتُك بيده ، وأعطاكَ سُورة لا بدَّ لك من ذكرها في صلاتك ، كلُّ ذلك لمحبته فيك ، ألَا ترى أنه قسمها بينك وبينه ، وجعل جوارِحَك سبعاً رأبواب جهنم سبعاً ، فإذا قرأتها أعتقَ اللهُ من النار سبعاً بسبع ، وجمع لكَ ذِكر عشر نفرٍ من الأنبياء قبل نبيك : نوح ؛ قال : « إن

---

(١) مريم : ٣٥ (٢) الزمر : ٧٥ (٣) فاطر : ٣٤ (٤) الزمر : ٧٤
(٥) فاطر : ٣٥ (٦) الفاتحة : ٢ (٧) يونس : ١٠

أجرىَ إلا على ربّ العـالمين[١] » . وهود : « إن أجرىَ إلا على الله[٢] » . وموسى : « إنى رسولُ ربّ العالمين[٣] » . وإبراهيم : « أســـلمتُ لربّ العالمين[٤] » . ونبيك : « أمِرْنا لنُسْلِم لربّ العالمين[٥] » . وهارون : « إنّ ربكم الرحمن[٦] » . وإبراهيم : « ومَنْ عصـانى فإنكَ غفورٌ رحيم[٧] » . ومحمد : « لـكم دينكم ولىَ دِين[٨] » . وأولاد يعقوب لمـا سألهم قالوا : « نعبد إلهكَ وإله آبائك[٩] » . ومحمد : « وَربُّنا الرحمنُ المُستَعانُ على ما تَصِفُون[١٠] » . وإبراهيم : « الذى خلقنى فهو يَهدِين[١١] » . وموسى : « إنّ معى رَبى سيَهْدِين[١٢] » . وسليمان أمره الله بقوله : « أنْ أشْكُرَ نعمتَكَ التى أنعمتَ علىّ[١٣] » . وموسى : « ربِّ بما أنعمتَ علىّ[١٤] » .

والمغضوب عليهم ذكره فى الذين كفروا من بنى إسرائيل فى قوله إذ غضب الله عليهم : « وباءُوا بغضبٍ من الله[١٥] » .

ولا الضالين ذكره فى قصة داود عليه السلام تحذيراً له من الضلال وتطولا عليه كما تطوّل علينا قوله : « ولا تَتّبِـع الهوَى فيُضِلّك عن سبيلِ الله[١٦] » . وذكر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله : « قد ضَلُّوا[١٧] » . وذكره عن كفرة بنى إسرائيل : « وضَلُّوا عن سوَاءِ السبيل[١٨] » .

فانظر كيف أمرك بالدعاء بهما فى كلّ صلاةٍ ، واختصر لك فيها التوراةَ

---

(١) الشعراء : ١٤٥ (٢) سبأ : ٤٧ (٣) الزخرف : ٤٦
(٤) البقرة : ١٣١ (٥) الأنعام : ٧١ (٦) طه : ٩٠
(٧) إبراهيم : ٣٦ (٨) الكافرون : ٦ (٩) البقرة : ١٣٣
(١٠) الأنبياء : ١١٢ (١١) الشعراء : ٧٨ (١٢) الشعراء : ٦٢
(١٣) النمل : ١٩ (١٤) القصص ١٧ (١٥) البقرة : ٦١
(١٦) ص : ٢٦ (١٧) الأنعام : ١٤٠ (١٨) المائدة : ٧٧

والإنجيل ، والزّبور ، والفرقان ، وصحفَ إدريس وإبراهيم وموسى ، فلهذا منّ الله بذكرها على نبيه بقوله : « ولقد آتيناك سَبْعاً من المثاني[1] » .

فإن قلت : إخفاء النعم والسكوت عنها وتناسيها هو أكمل من إتيانها والمنّة بها ، كما قال القائل :

وإنّ امرأً أسْدَى إليّ بنعمة وذكّرَ فيها مرةً لبخيل

والجوابَ أن التذكير بالنعمة الماضية إنْ كان إشعاراً بورود نعمةٍ أخرى في المستقبل فلا شيء فيه ؛ وإنما يكون امتناناً إذا لم يشعر بورود نعمةٍ أخرى في المستقبل ، وعليه قوله تعالى : « ألَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى . ووجدك ضالاً فهدَى[2] » . وأيضاً ذكرها ليرتبَ عليها أمراً تكليفياً فيكون أدخل في مقام الامتثال .

فإن قلت : الجملة الثانية كأنها مبيّنةٌ عن الأولى . فهلاّ عُطفت بالفاء ، فكان يقال : « فلا تمدنّ عينيك[3] » .

فالجواب أنه لما كانت السببية ظاهرة أغنَتْ عن الإتيان بالفاء .

فإن قلت : ما سرُّ تسمية الفاتحة[4] بالسبع المثاني ، والقرآن العظيم ، والفاتحة ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، والوافية ، والكافية ، والكنز ، والأساس ، وسورة الحمد ، وسورة الشكر ، والواقية ، والشافية ، والشفاء ، وسورة الدعاء ، وتعليم المسألة ، وغير ذلك من أسمائها[4] ؟

---

(١) الحجر : ٨٧ (٢) الضحى ٦ ، ٧ (٣) الحجر : ٨٨

(٤) والإتقان : ١–١٥١ ، وما بعدها ، والبرهان ١ – ٢٦٩ ، قال في الإتقان : وقد وقفت لها على نيف وعشرين اسماً ، وذلك يدل على شرفها ، فإن شرف الأسماء فيه دلالة على شرف المسمى .

فالجواب أن ذكر فضائلها وأسمائها يحتاج لمجلد مستقل كما قال الإمام عليّ رضى الله عنه: لو شئت أن أضع على الفاتحة وقر سبعين بعيراً لفعلت ؛ لكني أشير لك إلى ما فتح الله به من كتب ساداتنا وأئمتنا رضى الله عنهم :

فسُمّيت بالمثانى لأنها تثنى فى كل ركعة أو فى كل صلاة ، أو بسورة أخرى ، أو لأنها نزلت مرتين ، أو لأنها على قسمين : ثناء ، ودعاء ، أو لأنها إذا قرأ العبد منها آية ثناه الله بالإخبار عن فعله ، كما فى الحديث الصحيح : إذا قال العبدُ : "الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدنى عبدى" . . . إلى آخر الحديث ؛ أو لأنها جُمع فيها فصاحة المبانى وبلاغة المعانى ، أو لأنهـا من الثُّنْيا لأن الله استثناها لهذه الأمة .

وإنما سُميت بالقرآن العظيم ؛ لاشتمالها على المعانى التى فى أمّ القرآن[1] .

وفاتحة الكتاب ، لأنها يُفتتح بها فى المصاحف ، وفى التعليم ، وفى القراءة ، وفى الصلاة ، أو لأنها أول سورة نزلت ، أو لأنها أول سورة كُتبت فى اللوح المحفوظ ، أو لأنها فاتحة كل كلام .

وسُميت بأم الكتاب وأم القرآن لحديث أبى هريرة : إذا قرأتم الحمدَ فاقرءُوا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب .

والسبع المثانى ـ قال الماوردى : سُميت بذلك لتقدُّمها وتأخر [٢٦٠ ب] ما سواها تبعاً لهـا ؛ لأنها أمّته ، أى تقدمته ، ولهذا يقال لراية الحرب أمّ ، لتقدمها واتباع الجيش لها . ويقال لما مضى من سِنى الإنسان أمّ لتقدمها ، ولمكة أمّ القرى لتقدمها على سائر القرى . وقيل أم الشىء أصله ، وهى أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن ومافيه من العلوم والحكم وقيل: إنها أفضل السور

---

(١) فى الإتقان : لاشتمالها على المعانى التى فى القرآن .

كما يقال لرئيس القوم أم القوم . وقيل لأن حرمتها كحرمة القرآن كله . وقيل لأن مَفْزَع أهلِ الإيمان إليها . وقيل : لأنها مُحكمة ، لأن المحكمات أم القرآن[1] .

وسميت الوافية لأنها وافية بما في القرآن من المعاني ، أو لأنها لا تقبل التنصيف ، فإن كلُّ سورة من القرآن لو قرىء نصفُها في كل ركعة والنصف الثاني في أخرى لجاز بخلافها . وقال المرسى : لأنها جمعت ما لله والعبد .

وسميت بالكنز لما روى البيهقي في الشعب من حديث أنس مرفوعاً[2] : إن الله أعطاني فيما مَنّ به عليّ أني أعطيت فاتحة الكتاب . وهي من كنوز العرش . وفي رواية عن أبي أمامة ، قال : أربع آيات نزلن من كَنْز العرش لم ينزل منه شيء غيرهنّ : أم الكتاب ، وآية الكرسي ، وخاتمة سورة البقرة ، والكوثر ، يعني خاصة به صلى الله عليه وسلم .

وسميت الكافية ، لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها ، ولا يكفي غيرها عنها .

والأساس ، لأنها أصل القرآن ، وأول سورة فيه .

وسورة الحمد ، وسورة الشكر ، وسورة الحمد الأولى . وسورة الحمد القصوى[3] ، والواقية ، والشافية ، والشفاء ، والصلاة ؛ لحديث : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ؛ أي السورة . وسورة الدعاء ؛ لاشتمالها عليه في قوله : « اهدنا الصراط[4] » .

وتعليم المسألة ، لأن فيها آداب السؤال ، ولها أسماء غير هذه ؛ وقد ذكر اللهُ الحمد من سبعة نَفَر ، فوجد كلُّ واحد منهم كرامةً : لآدم حين عطس ؛ قال :

---

(١) في الإتقان : أم الكتاب .
(٢) والإتقان : ١١٠
(٣) في الإتقان : القصرى .
(٤) الفاتحة : ٦

الحمد لله ، فوجد الرحمةَ من الله بقوله : يرحمك الله . ونوح قال : « الحمد لله الذى نجّانا من القوم الظالمين[1] » ، فوجد السلامة بقوله : « يا نوح اهبطْ بسلام مِنّا وبركات عليك[2] » . والخليل قال : « الحمدُ لله الذى وهب لى على الكِبَرِ إسماعيل وإسحاق[3] » ، فوجد الفداء : « وفدَيْناه بذبح عظيم[4] » . وداود وسليمان قالا : « الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين[5] » ، فوجد النبوة والمُلْك بقوله تعالى : « وكلاًّ آتَيْنا حكماً وعِلما[6] » . ومحمد صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى بالحمد ، فوجد الرِّفعة والشرف بقوله تعالى : « ألَمْ نشرح لكَ صَدْرَك[7] » .

وأنت يا محمدى إذا أكثرتَ من هذه السورة وطلبتَ منه سبحانه شيئاً أتراك لا تنالُه وقد أعطاكَ اللهُ ما أعطى الأنبياء ؟ فاحْمَدِ اللهَ الذى هداكَ لها ، وخصّكَ بهذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله أفضل صلاة وأزكى تسليم .

فإن قلت : هل للسور غيرها من القرآن هذه التسمية أو لها اسم واحد يخصُّها ؟

فالجواب : قد قدمنا فى حرف اللام تسمية سُوَر باسم واحد ، ونذكر لكَ الآن تسمية بعض السور بأسماء تتمةً للفائدة :

فالبقرة[8] تُسمّى بفسطاط القرآن لما جُمع فيها من الأحكام التى لم تُذْكَرَ فى غيرها . وسنام القرآن ، لأنها أعلاه .

---

(١) المؤمنون : ٢٨ (٢) هود : ٤٨ (٣) إبراهيم : ٣٩
(٤) الصافات : ١٠٧ (٥) النمل : ١٥ (٦) الأنبياء : ٧٩
(٧) الشرح : ١ (٨) الإتقان : ١ـ١٥٥

وآل عمران : اسمها فى التوراة طيبة ، وفى صحيح مسلم تسميتها والبقرة الزهارين[1] .

والمائدة : تسمى أيضاً العُقود ، والمُنقِذة ؛ قال ابن الفرس : لأنها تنقذ صاحبها من ملائكة العذاب .

والأنفال : تسمى سورة بَدْر .

وبراءة : تسمى التَّوبة ؛ لقوله تعالى : «لقد تاب الله على النبى»[2] . والفاضحة لأن فيها : ومنهم ، ومنهم ؛ قال ابن عباس : حتى ظننا أنه لم يَبْقَ منـــا أحد إلا ذُكِر فيها . وسورة العذاب ؛ قال حذيفة : تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب . وقال عمر : هى إلى العـذاب أقرب ، ما كادت تقلع عن الناس حتى ما كادت تُبْقِى منهم أحداً . والمُقَشْقِشة لقول ابن عمر : ما كنا ندعوها إلا المقشقشة ؛ أى البراءة[3] من النفاق . والنقرة لأنها نقرت عما فى قلوب المشركين ؛ قاله ابن عمر . والبَحوث ، بفتح الباء ، لمـا أخرج الحاكم عن المقداد ؛ قيل له : لو قعدت العام عن [٢٦١ ا] الغَزْو ! قال : أبَتْ علينا البَحوث ، يعنى براءة . . . الحديث . والحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ؛ ذكره ابن الفرس . والمثيرة لما أخرج ابن أبى حاتم عن عبادة[4] ، قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة ، فضحت المنافقين ، وكان يقال لها المثيرة ؛ أنبأتْ بمثالبهم وعَوْراتهم . وحكى ابن الفرس من أسمائها المبعثرة ، وأظنه تصحيف المنَقِّرة ؛ فإن صحّ كملت الأسماء عشرة ، ثم رأيته كذلك ، أعنى المبعثِرة بخط السخاوى فى جمال القراء ؛ وقال : لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين . وذكر أيضاً فيـه من أسمائها المُخزِية ، والمُنَكِّلة ، والمشددة[5] ، والمدمدمة .

---

(١) فى الإتقان : الزهراوين . (٢) التوبة : ١١٧ (٣) فى الإتقان : المبرئة .
(٤) فى الإتقان : قتادة . (٥) فى الإتقان : المشردة .

النحل : قال قتادة : تسمى سورة النعم ، لأنّ الله عدّد فيها من النعم على عباده .

الإسراء : تسمى سورة سبحان ، وسورة بنى إسرائيل .

الكهف : سماها ابن مَرْدُويه فى الحديث سورة أصحاب الكهف . وروَى البيهقى من حديث ابن عباس — مرفوعاً — أنها تُدْعى فى التوراة الحائلة ؛ تحول بين النار وبين قارئها .

طه : تسمى سورة الكليم ؛ ذكره السخاوى فى جمال القرّاء .

الشعراء : تسمى سورة الجامعة . ذكره الإمام مالك .

النمل : تسمى سورة سليمان .

السجدة : تسمى سورة المضاجع ؛ لقوله تعالى[1] : « تَتَجافَى جُنُوبُهم عن المضاجع » .

فاطر : تسمى سورة الملائكة .

يس : سماها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قلبَ القرآن . وفى حديث أبى بكر — مرفوعاً : سورة يس تُدْعى فى التوراة المعِمّة ؛ تعمّ صاحبها بخير الدنيا والآخرة ، وتُدْعَى المدافعة[2] والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كلّ حاجة .

الزمر : تسمى الغُرف .

غافر : تسمى سورة الطَّوْل والمؤمن ؛ لقوله فيها[3] : « وقال رجل مُؤْمِن » .

فُصلت : تسمى السجدة ، وسورة المصابيح .

الجاثية : تسمى الشريعة ، وسورة الدهر ؛ حكاه الكرمانى فى العجائب .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم تسمّى القتال .

---

(١) السجدة : ١٦ (٢) فى الإتقان : الدافعة . (٣) غافر : ٢٨

ق : تسمى الباسقات . اقتربَتْ تسمى القمر ؛ وأخرج البيهقى عن ابن عباس أنها تُدْعى فى التوراة المبيّضة ؛ تبيضُّ وَجْهَ صاحبها يوم تسوَدُّ الوجوه .

الرحمن : سميت فى حديث عروس القرآن ، أخرجه البيهقى عن علىّ مرفوعا .

المجادلة : سُميت فى مصحف أُبَىّ الظهار .

الحشر : سمّاها ابنُ عباس سورة بنى النَّضِير ؛ قال ابن حجر : كأنه كره تسميتها بالحشر ، لئلا يظنّ أن المراد يوم القيامة ؛ وإنما المرادُ به هنا إخراجُ بنى النَّضِير .

الممتحنة ؛ قال ابن حَجر : المشهور فى هذه التسمية أنها بفتح الحاء ، وقد تكسر ؛ فعلَى الأول هى صفة المرأةِ التى نزلت السورةُ بسببها ، وعلى الثانى هى صفة السورة كما قيل لبراءة الفاضحة . وفى جمال القرّاء : تسمّى أيضاً سورة الامتحان ، وسورة المودّة .

الصف : تسمى أيضاً سورة الحَوَاريين . الطلاق تسمى سورة النساء القُصْرى ؛ لأن الطول والقصر أمر نسبى . وقد أخرج البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : طول الطوليَيْنِ ، وأراد بذلك سورة الأعراف . والتحريم يقال لها المتحرّم . وسورة لم تحرّم . سورة الملك تسمى المانعة ، لأنها تمنع صاحبها من عذاب القَبْر ، وأخرج الترمذى من حديث ابن عباس مرفوعا هى المانعة هى المنجية ، تُنْجيه من عذاب القبر . وقال ابن مسعود : كنا نسميها فى عَهْد رسول الله صلى الله عليه وسلم المانعة . وفى جمال القراء تسمى أيضاً الواقية والمنّاعة .

سألَ : تسمى المعارج ، والواقع . عمّ : يقال لها النّبأ ، والتساؤل ، والمعصرات .

لم يكن : تسمى سورة أهل الكتب[1] ، كذلك سُمّيت فى مصحف أُبىّ . وسورة البيّنة ، وسورة القيامة ، وسورة البرية ، وسورة الانفكاك ذكر ذلك فى جمال القراء .

---

(١) الإتقان : الكتاب .

« أرأيت » : تسمى سورة الدّين ، وسورة الماعون . الكافرون : تسمى المشقشقة ، وتسمى أيضاً سورة العبادة ، وذكره فى جمال القراء . النصر : تسمى سورة التوديع ، لما فيها من الإيماء إلى وفاته صلى الله عليه وسلم . تَبت : سورة المَسَد . والإخلاص تسمى سورة الأساس ؛ لاشتمالها على توحيد الله ، وهو أساسُ [٢٦١] الدين . قال : والفلق والناس يقال لهما المعوِّذتان بكسر الواو ، والمتشقشقتان[1] ، من قولهم : خطيب مشقشق . فهذا ما وقفتُ عليه .

وعلى القول بأن أسماء السور المفتتح بالحروف المقطعة هى أسماء لها ، لكن[2] منها ما هو أحدى ، كص، ون، وق . وثُنائى ، كطه، ويس، والحواميم ، وثلاثى مثل ألم ، طسم . ورباعى : المر ، المص . وخماسى : كهيعص ، وحم عسق . وقد أكثر الناس الكلام على هذه الحروف المقطعة . والذى عندى أن الله وَضعها لإطفاء تشغيب الكفّار حيث قالوا[3] : « لا تَسْمَعُوا لهذا القرْآنِ » ، فأتى الله بها ليسمعوها لغرابتها ، ثم يبلغُ الرسولُ رسالته . كأنّ الله يقول لهم : إن لم تصدقوه فأتوا بسورة من مثله فى مثل هذه الحروف وأنتم لا تفهمون معناها ، وهذه دلالةٌ لنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الله ذكر فى الكتب الماضية أنه يخرج فى آخر الزمان رسولٌ ، وعلامتُه أن تكونَ بعض رءوس سور كتابه الحروف المقطعة ، وهى أسماءُ اللهِ فرّقها ووضعها على بعض السور لشرفها عنده .

(سائغاً للشّاربين[4]) : فقد قدمنا أنه صفة اللبن — سهلا الشرب ، حتى إنه لم يَغَصّ به أحد . وقد جعل فيه غُنْية عن الطعام والشراب ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم حين شربه : اللهم زِدْنا منه سَكَرا ، يعنى الخمر ، ونزل ذلك قَبْلَ تحريمها . فهى منسوخة بالتحريم . وقيل : إن هذا على وَجْه المنفعة التى فى الخمر ، ولا تعرُّضَ

---

(١) فى الإتقان : والمشقشقتان .

(٢) البرهان : ١ — ١٦٥

(٣) فصلت : ٢٦

(٤) النحل : ٦٦

فيه التحليل ولا تحريم ؛ فلا نسخ . وقيل السكر المائع من هاتين الشجرتين كالخلّ والرب ، والرزق الحسن : العنب والتمر والزبيب .

(سَرَابِيلَ تَقِيكُم الحرَّ[1]) : قد قدمنا أن السرابيل القمص . وذَكَر وقايةَ الحر ولم يذكر وقايةَ البرد ؛ لأنه أهم عندهم لحرارة بلادهم . والخطاب معهم .

(سببا[2]) : هو الطريق الموصِّل إلى المقصود ، من علم أو قدرة أو غير ذلك . وأصل السبب الحَبْل ؛ ومنه[3] : « فليَمْدُدْ بسببٍ إلى السماء » . « فأَتْبَعَ سبباً[4] » ، فسمى الطريق سبباً ، لأنه يتوصَّل بسلوكه إلى المقصود . وأما[5] « أسباب السموات » فمعناه أبوابها .

(سَمِيًّا[6]) : أي نظيرا ، وهذا مدح ليحيى عليه السلام ، وسمّاه اللهُ قبلَ وجوده ؛ وبهذه الآية احتجَّ أهلُ السنة على المعتزلة ، لأنه لو كان الاسم غير المسمَّى لكان المخاطب غير يحيى ؛ وقد قال له : « يا يحيى[7] خُذِ الكتابَ بِقُوَّة » . وقوله : « سبِّح اسْمَ ربِّكَ الأَعْلَى[8] » ـ لو كان الاسم غير المسمى لكان قد أمر بأن يسبِّح الاسم دونه ، وهذا لا يقوله محصل . فدلَّ ذلك على أن الاسمَ هو المسمّى .

(سَاوَى بين الصَّدَفَيْنِ[9]) : من التسوية بين الأشياء وجعلها سويّة ، بمعنى أتقن وأحسن ، ومنه : « فسوَّاكَ فعدَلَكَ[10] » .

(سَرِيًّا[11]) : قال مجاهد : هو بالسريانية : نهرا . وقال سعيد بن جُبير :

---

(١) النحل : ٨١ (٢) الكهف : ٨٥ (٣) الحج : ١٥ (٤) الكهف : ٨٥
(٥) غافر : ٣٧ (٦) مريم : ٧ (٧) مريم : ١٢ (٨) الأعلى : ١
(٩) الكهف : ٩٦ (١٠) الانفطار : ٧ (١١) مريم : ٢٤

بالنبطية . وحكى شَيْذلة أنه باليونانية ، وعلى كلِّ قولٍ ما كان قريباً من جِذعِ النخلة ، فسَّره عليه الصلاة والسلام بذلك . وقيل يعني عيسى ، فإن السري الرجل الكريم .

(سويًّا[1]) : أي قويا .

(سلامٌ عليكَ[2]) : إنما سلم إبراهيم سلام مُوَادعة ومفارقة لا تحيّة ؛ لأن ابتداء الكافر بالسلام لا يجوزُ ، فإذا سلّم عليه الكافر يقول له : وعليكم ، أوعليك السلام ، بكسر السين ، وهي الحجارة . وفي الحديث : إنَّ عائشة قالت ليهودٍ سلموا : وعليكم السام واللعنة . فقال لها عليه الصلاة والسلام : مَهلا ياعائشة ، فإن اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ . فقالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قالوا : السام عليكم. فقال : قد قلت لهم وعليكم .

(سأستَغفِرُ لكَ رَبِّي[3]) : لما طلب آزَرُ من إبراهيم الاستغفارَ وعده أنْ يدعُوَ له . قال ابن عطية : معناه سأدعو اللهَ أنْ يهديك ، فيغفرلكَ بإيمانك . وذلك لأن الاستغفارَ للكافر لا يجوزُ . وقيل : وعَدَه أن يستغفر له مع كفره ، ولعله كان لم يعلم أنَّ اللهَ لا يغفر للكافر حتى أعلمه اللهُ بذلك. ويقوِّي هذا قوله : واغفِرْ لأبي إنه كان من الضالّين[4] » . ومثلُ هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : "لأستغفِرَنّ لك ما لم أُنهَ عنك". وروى أنه لما نزلت[5] : « إن تستغفر لهم سبعين مرة [٢٦٢] فلن يغفرَ اللهُ لهم » — قال صلى الله عليه وسلم : "لأزيدنَّ على السبعين ، فلما فعل عبد الله بن أُبي وأصحابه ما فعلوا ، وقولهم : « لئن رجَعْنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلّ[6] » ، وتوليتهم عن

---

(١) مريم : ١٧ (٢) مريم : ٤٧ (٣) مريم : ٤٧ (٤) الشعراء : ٨٦
(٥) التوبة : ٨٠ (٦) المنافقون : ٨

استغفار رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لهم شدَّدَ اللهُ عليهم بقوله[1]: « سواءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ اللهُ لهم إن الله لايهدى ...» الآية. وفى هذا نظر، لأن هذه السورة نزلت فى غزوة بنى المُصْطلق قبْل الآيةِ الأخرى بمدة. وروى أنه إذا كان يوم القيامة يجعلُ اللهُ آزَرَ تحت قدم إبراهيم على صورة كبش ملطَّخ بالدم ويُؤْمَرُ إبراهيم بذبحه، لأنه لما حملت أمُّه بإبراهيم اشتهى أن يكونَ غلاماً فيذبحه تحت رِجل النمرود رضاءً له لجازاه اللهُ بذلك، وحوّله كبشاً، لأنه دعا ألّا يخزيه فى أبيه، كذلك أهلُ مصر تمنَّى كلٌّ واحد منهم أن يكون يوسف عبداً له، فجعلهم الله عبيده.

وأنت يا عبد الله إذا كانت نِيّتُك ومُرادك غَيْرَ عصيان الله يعاملك على نيتك ومرادك فيجعل سيئاتك على الكفار، ويجعلهم فداءً لك عقوبةً لهم، وعلى إبليس الذى كان سبباً فى إغوائك؛ ألا تراه سبحانه يقول لك: إذا قلت أذنبْتُ عَفَوْتُ وصَفَحْتُ، وإذا قلت اللهم اغفرْلِى يقول لك: قد غَفَرْتُ لك وأنا الغفور الرحيم.

(سنكتب ما يقول[2])؛ من قوله: لئن بعثت كما يزعم محمد ليكونَنَّ لى هناك مال وولد، وإنما جعله مستقبلا؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب فى المستقبل.

(سيكفرونَ بعبادَتهم ويكونُونَ عليهم ضِدًّا[3]): الضمير للكفار، وفى عبادتهم للمعبودين، وهذا كقولهم: « ما كنتم إيانا تعبدون ».

(سيَجْعَلُ لهم الرحمن وُدًّا[4])، هو المحبة والقبول الذى يجعله الله لمن أطاعه. وقد صحّ فى الحديث أن الله ينادى: يأهل السماء، إنى أحبّ فلاناً

---

(١) المنافقون: ٦ (٢) مريم: ٧٩ (٣) مريم: ٨٢ (٤) مريم: ٩٦

ما حبّوه ، فيحبه أهلُ السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض . وقال بعضهم : يكتبُ جبريل له صحبةً فيضعها فى الماء المشروب منه . وقيل : إنها نزلت فى على ابن أبى طالب . والأولُ أظهر لعمومه ، والعيانُ يشهدُ بذلك ، وهذه أولُ كرامة يُكرِمُ الله بها أولياءه .

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى[1]) : يعنى أن موسى لما أخذ العصا عادت كما كانت أولَ مرة ؛ وإنما أمره بالإلقاء أوّلا ليستأنِس بها ، وانتصب « سيرتها » على أنه ظرف أو مفعول بإسقاط حرف الجر .

(سلك لكُمْ فيها سُبُلا[2]) ، أى أنهج لكم فى الأرض طرُقاً تمشون فيها . وأما قوله تعالى آمراً للنحل : « فاسْلُكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً[3] » _ فقد قدمنا أنّ الله أمرها بالرجوع . وقيل بالذهاب ؛ قال أبو حيان : إنْ أُريد بالطريق الحسىّ فهو مفعول به ، وإن أُريد المعنوى فهو ظرف .

(سَحِيق[4]) : بعيد .

(سَخرْنَاهَا لكم[5]) : أى كما أمرناكم بهذا كلّه سخرناها لكم . وقال الزمخشرى : التقدير مثل التسخير الذى علمتم سخّرْنَاها لَكم .

(سَبْعَ طرائق[6]) : سمٰوات ، واحدتها طريقة ، وسُمِّيت بذلك ؛ لأنها بعضها فوق بعض ، كطارقة النعل . وقيل : يعنى الأفلاك ، لأنها طرق الكواكب .

(سامراً[7]) : مشتق من السمر ، وهو الجلوسُ بالليل للحديث ، وكانت قريش تجتمع فى الليل بالمسجد يتحدثون بسبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) طه : ٢١ (٢) طه : ٥٣ (٣) النحل : ٦٩ (٤) الحج : ٣١
(٥) الحج : ٣٦ (٦) المؤمنون : ١٧ (٧) المؤمنون : ٦٧

والمعنى أنهم سامرون بذكره وسبّه . وسامِراً مفرداً بمعنى الجمع ، وهو منصوب على الحال .

(سَرَاب[1]) : هو ما يرى فى الفَلَوات مِنْ ضوء الشمس فى الهَجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجرى على وَجْه الأرض . وشبّه اللهُ به أعمال الكفار فى الآخرة بأنهـــا لا تنفعهم ، بل يضمحلُّ ثوابها كما يضمحل السراب . والتمثيل الثانى فى قوله : « أو كظُلُمات[2] » يقتضى بطلانَ أعمالهم فى الدنيا ، وأنها فى غاية الفساد والضلال ، كالظلمات التى بعضها فوق بعض .

(سَنَا بَرْقِه[3]) : السنا — بالقصر الضوء ، وبالمد المجد والشرف .

(سَبَأ[4]) : قبيلة من العرب ، سُمِّيت باسْمِ أبيها الذى تناسلت منه . وقيل باسم أمها . وقيل باسم موضعها ، والأول أشهر ، لأنه ورد فى الحديث [٢٦٢ ب] .

(سَرْمَدا[5]) : دائماً ، وفيه تعديدُ النعم على عبيده ، بحيث جعل لهم اختلاف المَلَوَان ، هذا لراحتهم ، وهذا لمنافعهم وشغلهم ؛ وخِلْفَةً لِمَنْ أراد أن يَذَّكَّرَ أو أرادَ شكورا .

(سَلَقُوكُم بألسنةٍ حِدَاد[6]) ؛ أى إذا نصركم اللهُ أيها المؤمنون ، فزال الخوفُ رجع المنافقون إلى إذايتكم بالسبِّ وتنقُّص الشريعة ، وإذا جاء الخوفُ نظروا إليكم ولإخوانكم من شدة خوفهم ، تَدُورُ أعينُهم كالذى يُغْشَى عليه من الموت ، وهو عبارةٌ عن التكلم بكلام مستكْرَه . ومعنى « حداد » فصحاء قادرين على رفع الصوت ، لأن السلق والصلْق رفع الصوت .

---

(١) النور : ٣٩ (٢) النور : ٤٠ (٣) النور : ٤٣ (٤) النمل : ٢٢ ، سبأ : ١٥ (٥) القصص : ٧١ ، ٧٢ (٦) الأحزاب : ١٩

(سابغات[1]) : كاملات ، والضمير يعودُ على الدُّروع التى كان يعملها داود من الحديد ، لأنه كان تحتَ يده كالعجين يصنَعُ به ما يشاء ، وهو المرادُ بقوله : « وقَدِّرْ[1] فى السَّرْدِ » ؛ أى قدِّرْها بألاّ تعمل الحلْقَة صغيرة فتضعف ولا كبيرة فيصاب لابسها من خلالها . وقيل : لا تجعل المِسْرَاد رقيقاً ولا غليظاً . والسرد : الخرز أيضاً . ويقال للإشْفَى مِسْرد ومِسْرَاد .

(سيَهْدِين[2]) : هذا من قول إبراهيم بعد خروجه من النار ؛ وأراد أنه ذاهب إلى الله ، مهاجر إلى أرض الشام . وقيل : إنه قال ذلك قبل أن يُطْرَح فى النار ، وأراد أنه ذاهب إلى ربّه بالموت ؛ لأنه ظن أن النار تحرقه . وسيهدين على القول الأول يعني الهدى إلى صلاح الدِّين والدنيا . وعلى القول الثانى إلى الجنة . وقالت المتصوفة : معناه ذاهب إلى ربِّى بقلبى ، أى مقبل على الله بكليته ، تاركٌ لما سواه .

(ساحة البيت[3]) : فناؤه . والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من محذور .

(سوَاء[4]) الطريق : القصد الواضح والطريق اللائح .

(سَلَمًا لِرَجل[5]) : أى خالص . وقرىء بألف . والمعنى واحد .

(سيَقُولُ لكَ المخلَّفُون من الأَعْرَاب[6] . . » الآية : سماهم بالمخلفين لأنهم تخلَّفوا عن غَزْوة الحُدَيبية ، والمراد بالأعراب أهل البوادى ، كمُزَينة وجُهينة، ومَنْ كان حول المدينة ، لأنهم ظنوا أنه لا يرجع صلى الله عليه وسلم من غَزْوَته تلك ، ففضحهم اللهُ فى هذه الآية ، وأعلم رسولَه صلى الله عليه وسلم

---

(١) سبأ : ١١ (٢) الزخرف : ٢٧ (٣) الصافات ١٧٧ : فإذا نزل بساحتهم .
(٤) القصص ٢٢ : سواء السبيل . (٥) الزمر : ٢٩ (٦) الفتح : ١١

بقولهم واغترارهم قبل رجوعه إليهم ، فكان كما قال : « شَغَلَتْنَا أموالنا وأهلونا ... » الآية .

فإن قلت : لِمَ أبرز الضمير فى هذه الآية وحذَفه فيما بعدها ؟

فالجواب أن المُخْبَرَ عنهم من المخلَّفين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم الاستغفارَ لهم لتخلُّفهم عنه ، وأفردوه بخطابهم ، إذ ليس ذلك من مطلوبهم لغيره ، فوردت العبارةُ عن ذلك بإفراد الخطاب ، وأعْلَم اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بنِفَاقهم وكَذِبهم فى اعتذارهم بقوله[1] : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » .

وأما الآية الثانية فليس قولهم[2] : « ذَرُونا نَتَّبِعكم » خطابا خاصًّا له صلى الله عليه وسلم، بل له وللمؤمنين، والسياقُ يفصح بذلك ، وما أمر به عليه السلام من مجاوبته فى قوله لهم[2] : « لن تَتَّبِعونا » ، فلم يرِد هنا إفراده عليه السلام بخطابهم له كما ورد فى الأولى ، وجاء كلٌّ على ما يناسبه .

فإن قلت : إن خطابهم له خاصٌّ كالأول ، ولكن خاطبوه مخاطبة التعظيم بقولهم : « ذَرُونا نَتَّبعكم » .

قلت : وعلى فرض هذا فمراعاةُ الألفاظ فى النظم أكيدة جدًّا ، وبها إحرازه ، وعلى هذا لا يُلائم هنا الخطاب كيفما هو إلا بصورة ما للجميع . والله أعلم بالمراد .

(سَكْرَة الموت[3]) : أى غصصه ومشقّاته . وقد قدمنا الحديثَ أنه أشد من سبعين ضربة بالسيف ، ولما حضرته الوفاةُ جعل يدَه صلى الله عليه وسلم فى إناءِ ماءٍ ومسح بها وجهه وقال : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات ،

---

(١) الفتح : ١١ (٢) الفتح : ١٥ (٣) ق : ١٩

اللهم الرفيق الأعلى . ولما بلغ روحه سرته قال : يا جبريل، ما أشدَّ مرارةَ الموت، فولّى جبريل وجهه ؛ فقال : يا جبريل ، أكرِهْتَ النظَرَ إلى وجهى ؟ فقال : ياحبيبَ الله ، ومَنْ يقدر أن ينظر إليك وأنتَ تُعالج الموت !

هذا نبيك [٢٦٣ ا] المعصوم قاسى منه ما سمعت ، ووعك وعك رجلين كما صحّ ، فكيف بكَ أيها المغرور لا تبكى على نفسك ، وتعالج هوّاك لعلّه يرحمك ويسمع أنينك !

(سائق وشَهِيد[1]): السائق : ملك يسوقه ، والشهيدُ يشهَدُ عليه ، وهو الأظهر . وقيل صحائف الأعمال . وقيل : جوَارِح الإنسان . لقوله تعالى : « يوم[2] تَشْهَدُ عليهم ألسنَتُهم . . . » الآية .

(سال[3] ، وسأل) : بالهمز : طلب الشيء والاستفهام عنه ، وسال بغير همز من المعنيين المذكورين ، ومن السيل . ومنه سأل سائل . فن قرأه بالهمز احتمل معنيين : أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء ، أى دعا داع بعذاب ، وتكون الإشارةُ إلى قول الكفار : « أمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائْتِنا بعَذابٍ أليم[4] » ، وكان الذى قالها النَّضْرُ بن الحارث . والآخر أن يكون بمعنى الاستخبار ؛ أى سأل سائل عن عذابٍ واقع ، والباء على هذا بمعنى عن ، وتكون الإشارةُ إلى قولهم : « متى هذا الوَعْدُ إن كنتُم صادقين[5] » ، وشبه ذلك .

وأما مَنْ قرأ سال ـ بغير همز ـ فيحتمل وجهين : الأول أن يكون مخففًا من المهموز ، فيكون فيه المعنيان المذكوران . والثانى أن يكون من سال السيل إذا جرى ، ويؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عباس سال سيل ، وتكون الباء[6] على

---

(١) ق : ٢١ (٢) النور : ٢٤ (٣) المعارج : ١ (٤) الأنفال : ٣٢
(٥) يونس : ٤٨ (٦) فى قوله تعالى : بعذاب واقع .

هذا كقولك : ذهبت بزيد . وإذا كان من السيل احتمل وجهين : أحدهما أن يكون شبهه في شدته وسرعة وقوعه بالسيل . وثانيهما أن يكون حقيقة . قال زيد بن ثابت : في جهنم واد يقال له سايل . فتلخص من هذا أنه في القراءة بالهمز يحتمل وجهين ، وفي القراءة بغير همز أربعة معان .

(سَقْف مرفوع[1]) : يعني السماء .

(ساقِطاً يقولوا سَحابٌ مَرْكُوم[2]) : كانوا قد طلبوا أن ينزّل عليهم كسفا من السماء ، فأخبر الله أنهم لو رأوه ساقطاً عليهم لبلغ بهم الطغيان والجهل والعناد أن يقولوا : ليس بكسف ، وإنما هو سحاب مركوم ، أي كثيف بعضه فوق بعض .

(سامِدُون[3]) : لاعبون ولاهُون . وقيل : غافلون . والسامد : الساكت والحزين الخاشع قلبُه ، فله على هذا خمسة معان .

(سائحات[4]) : من ساح في الأرض إذا ذهب فيها . وقيل معناه صائمات ، وقد رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل معناه مهاجرات . والسائحون من الأصناف الثمانية المذكورة في سورة براءة[5] هم الذين اختاروا الحقّ على كل شيء وثبتوا على ذلك ، وتواصَوْا بالحق ، وتواصَوْا بالصبر ، وهؤلاء يقال لهم الأبدال وأرباب الكمال ، وهم سبعة رجال قد تبدّلت عوالمهم وتخلّصت من الشوائب البشرية جواهرُهم ؛ فأخذوا بالسياحة في البُلْدان لطلب لقاء الرجال ؛ إذ هي كيمة الخير ، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال الواردة من عين الجود بالجلال والكمال والجمال . وأما الساجدون فهم الذين أفسدت رسومهم ، وفنيت بالمجاهدة

---

(١) الطور : ٥ : والسقف المرفوع . (٢) الطور : ٤٤ (٣) النجم : ٦١

(٤) التحريم : ٥ (٥) التوبة : ١١٢

نفوسهم وجسومُهم ؛ وهم أرباب الفناء المتجردون عن كل المناقد ، تخلصوا من رقّ البشرية لتحققهم أنه اللطيف الخبير السّميع البصير ، عاشوا عيشاً تاماً كاملا ، فإنّ ترك التدبير لله عيش ، كما أن التدبير نصفُ العيش ، ويقال لهذا الوجه الأوتاد ، وهم أربعة رجال ، مقام كلّ واحد مقام ركن من الأركان : شرقاً ، وغرباً ، وجنوباً ، وشمالا ، واحداً يتصرف عندهم لتجريدك عن الكون وثبوتك بالحق . ومنه قول الشيخ القطب ابن العريف : مَن شهد الخلق الفِعْل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لا حياةَ لهم فقد جاز ، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل ، والكلامُ هنـا طويل ، وعلى هذه الآية الكريمة بُنِى التصوف ، وسبيلُ التعرف ، وقد صنَّف فيها من ذاق أهلها وعرفهم تأليفاً عجيباً ورتّبهم ترتيباً غريباً لا ينبغى لنا أنْ نحومَ حولَ حماه ، ولا نتعرض لما قد تعاطاه ، [٢٦٣ ب] لأنا لسنا منهم فنستغفر اللهَ من الكلام معهم ، وكان الأولى بنا اشتغالنا عن هذا بالانتباه مِنْ رَقْدةِ الغفْلة ، وتخليصنا من وَرْطة الفترة ، وإيقاظنا من السّكْرَة ، لكن نسأله سبحانه أن يهبَ لنا نُور التنبيه من غفلة هذه النفس ، فيظهر لنا عجيبها وقبيح ذَنْبها ، فنقلع فى الحال ، ونعزم على ألاّ نعود فى الاستقبال ، ونبحث على ما خفى من دسائس النفس ، ونستعد للنازلة فى الرَّمْس[1] ، ونشمّر[2] للمعاملة فى المحبة ، ونطلب ممن نظر فى هذا الكتاب بالدعاء إلى العبادة ظاهراً وباطناً فإنما نحن به وله .

(سَنَسِمُهُ على الْخُرْطوم[3]) : أصل الخرطوم أنف السبع ، ثم استعير للإنسان استخفافاً به وتقبيحاً له ؛ والمعنى نجعل له سِمَةً ، وهى العلامة ، على خرطومه . واختلف فى هذه السّمَة ؛ فقيل : هى الضربة بالسيف يوم بَدْر . وقيل

---

(١) الرمس : القبر . (٢) نشمر : نجد . (٣) القلم : ١٦

علامة من نار تُجعل على أنفه فى جهنم . وقيل علامة تُجعل على أنفه يوم القيامة ليعرف بها ، كما يجعلون[1] أهلُ الدنيا لمواشيهم علامة يعرفونها بها .

(سَلْهم أيُّهم بذلكَ زَعِيم[2]) : قد قدمنا أنّ الزعيم الضامن ، ومعناها : سَلْ يا محمد قريشا أيهم زَعِيمٌ بذلك الأمر .

(يَسْأَمُ) : يسأم ؛ أى يمل ؛ ومنه : « وهم لا يَسْأَمُون[3] » .

(سبب) : له خمسة معان : أحدها الحَبْل ، وقد تقدم . والاستعارة من الحبل فى المودة والقرابة ؛ ومنه : « وتقطَّعَتْ بهمُ الأسباب[4] » . والطريق ؛ ومنه : « فأتبَع سَبَبًا[5] » . وسببُ الأمر : موجبه .

(ساق) : ما بين القدم إلى الركبة ؛ وأما قوله : « يوم يُكْشَفُ عن ساق[6] » فقد قدمنا أن ذلك عبارة عن هَوْل يوم القيامة وشدّته ؛ وفى الحديث الصحيح أنه قال : ينادِى منادٍ يوم القيامة لتتبع كلّ أمة ما كانت تعبد ، فيتبع الشمسَ مَنْ كان يعبد الشمس ، ويتبع القمر من كان يعبد القمر ، ويتبع كلُّ أحد ما كان يعبد ، ثم تبقى هذه الأمة وغُبَّرَاتٌ[7] من أهل الكتاب معهم منافقوهم ، فيقال لهم : ما شأنكم ؟ فيقولون : ننتظر ربنا . قال : فيجيئهم اللهُ فى غير الصورة التى عرفوه ، فيقول : أنا ربُّكم . فيقولون : نعوذ بالله منك . قال : فيقول : أتعرفونه بعلامة ترونها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف لهم عن ساق ، فيقولون : نعم ، أنتَ ربُّنا ، ويخرون للسجود ، فيسجد كلُّ مؤمن ، وتُرْجَع أصلاب المنافقين عظْما واحداً فلا يستطيعون سجوداً . وتأويل الحديث كتأويل الآية .

---

(١) هذا فى الأصول . (٢) القلم : ٤٠ (٣) فصلت : ٣٨ (٤) البقرة : ١٦٦
(٥) الكهف : ٨٥ (٦) القلم : ٤٢ (٧) الغبرات : البواقى . الغبر جمع غابر . والغبرات : جمع غبر (النهاية) .

(سَبْحًا طويلا[١]) : السَّبحُ هنا عبارة عن التصرف فى الأشغال والمعنى يكفيك النهارُ فى التصرُّف فى أشغالك ، وتفرَّغْ فى الليل لعبادة ربك . وقيل المعنى : إنْ فاتك شىءٌ من صلاة الليل فاخلفه بالنهار ؛ فإنه طويل يسَعُ فيه ذلك ؛ وقرئت سبخا ؛ أى بالخاء المعجمة ؛ أى سعة ؛ يقال سبِّخى[٢] قطنك ؛ أى وَسّعيه ، والتسبيخ أيضا التخفيف ، يقال : اللهم سبِّخْ عنه الحُمّى : أى خففها عنه .

(سأُرْهِقُه[٣]) : أى سأكلفه المشقَّة من العذاب فى صَعُود ؛ وهى العقبة الصعبة .

(سَلَكَكُمْ فى سَقَر[٤]) : ذكر الجواليقى[٥] أنها عجمية ؛ ويحتمل أن يكون خطاب المسلمين لأهل النار أو الملائكة ، فأجابوهم بقولهم[٤] : « لم نك من المصَلِّينَ ... » الخ . وإنما خصَّ التكذيب[٦] بيوم الدين تعظيما له ، لأنه أكبر جرائمهم .

(سَلْسَبِيلا[٧]) : اسم أعجمى ، ومعناه سلسا منقاداً بجرْيِه . وقيل سهل الانحدار فى الحلق ، يقال شراب سلسل وسلسال وسَلْسَبِيل بمعنى واحد ، وزيدت الباء فى التركيب للمبالغة فى سلامته ، فصارت الكلمةُ خماسية . وقيل سل فعل أمر وسبيلا مفعول به ؛ وهذا فى غاية الضعف .

فإن قلت : قد قال فى الآية الأولى قبلها : « كان مِزَاجُها كافوراً[٨] » ، فهل يمزجان [١٢٦٤] مع الخمر أم لا ؟

---

(١) المزمل : ٧ (٢) فى القاموس : التسبيخ : لف القطن ونحوه ، وتعريض القطن ليوضع عليه الدواء .
(٣) المدثر : ١٧ (٤) المدثر : ٤٢
(٥) المعرب : ١٩٨ (٦) فى آية ٤٦ من المدثر : وكنا نكذب بيوم الدين .
(٧) الإنسان : ١٨ (٨) الإنسان : ٥

والجواب أنه كالكافور فى طيب رائحته ، وهو علم لذلك الماء . واسم الثانى زنجبيل[1] ، وقيل اسمها سلسبيل . وقال بعضهم : سل من الله سلسبيلا ، فيجوز أن يكونَ اسمها هذه الجملة ؛ كقولهم : تأبّط شرّا ، وبرقَ نحرُه . ويجوز أن يكون معنى تسمَّى تُذْكر ، ثم قال الله : سَلْ سبيلا ، واتصالُه فى المصحف لا يمنعُ هذا التأويل لكثرة أمثاله فيه .

(ساهرة[2]) : قد قدمنا أنها وجه الأرض ، وأصلها مسهورة ومسهور فيها ، فصُرف من مفعوله إلى فاعله . كما يقال عيشة راضية أى مرضيّة ، ويقال الساهرة أرض القيامة .

(سَفَرة[3]) : هم بالنبطية القراء ، وبالعربية الملائكة الذين يسفرون بين الله وبين عباده ، واحدهم سافر ؛ وهم الملائكة ، وقيل الذين يكتبون القرآن فى الصحف ، وقيل يعنى القُرّاء من الناس . وفى الحديث : الماهر فى القرآن مع السفرة الكرام البررة ؛ أى أنه يعمل مثلَ عملهم فى كتابة القرآن وتلاوته ، أو أنّ له من الأجر على القرآن مثل أجورهم .

وقد قدمنا أنه نزل جملة إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا ، وأن الملائكة يتدارسونه بينهم لتعظيم شأنِ هذه الأمة عند الملائكة وتعريفهم عنايةَ الله بهم ورحمته لهم ؛ ولهذا المعنى أمر سبعين ألفا من الملائكة بتشييع سورة الأنعام .

(سرائر[4]) : جمع سريرة ، وهى ما أسرَّ العبدُ فى قلبه من العقائد والنيات ، وما أخفى من الأعمال ، وبلاؤها[5] هو تعرفها والاطلاعُ عليها .

ورُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنّ السرائر الإيمان والصلاة والزكاة

(١) الإنسان : ١٧ (٢) النازعات : ١٤ (٣) عبس : ١٥ (٤) الطارق : ٩

(٥) الآية : يوم تبلى السرائر .

والغسل من الجنابة ، وهذه معظمها ؛ فلذلك خصها بالذكر ، والعامل فى « يوم » قوله : « رَجْعِهِ[1] » ؛ أى يرجعه يوم تُبْلَى السرائر . واعترض بالفصل بينهما . وأجيب بقوة المصدر فى العمل . وقيل العامل ، قادر[1] ؛ واعترض بتخصيص القدرة بذلك اليوم ؛ وهذا لا يلزم ، لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أخبر اللهُ أن البعثَ إنما يقَعُ فى ذلك اليوم . وقال من احترز من الاعتراضين فى القولين المتقدمين : العامل فعل مضمر من المعنى تقديره : يرجعه يوم تُبْلَى السرائر ، وهذا كلُّه على المعنى صحيح فى رَدِّه . وأما على القول الآخر فالعاملُ فى يوم مضمر تقديره : اذكر .

(السماء ذات الرَّجْع[2]) : أى المطر ، وسمّاه رَجْعاً بالمصدر ، لأنه يرجع كلَّ عام ، أو لأنه يرجع إلى الأرض . وقيل الرَّجْع السحاب الذى فيه المَطَر . وقيل : هو مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من منزلة إلى منزلة .

(سَعْيَكُمْ لَشَتَّى[3]) : جمع شتيت ، ومعناه مختلف ؛ فمنه حسنات ومنه سيئات ، وهذا جواب القسم فى قوله : « والليل » .

(سجى)[4] : فيه أربعة أقوال : أدبر ، وأقبل ، وأظلم ، وسكن ، أى استقر ، واستوى أو سكن فيه الناسُ والأصواتُ ، ومنه : ليلة ساجيةٌ ، إذا كانت ساكنة الريح ، وطَرْفٌ ساج ؛ أى ساكن غير مضطرب النظر . وهذا أقرب فى الاشتقاق ؛ وهو اختيار ابن عطية .

(سبحان) : تنزيه . وسبَّحت الله ، أى نزَّهته عما لا يليق به من الصاحبة والولد والشركاء والأضداد .

---

(١) فى سورة الطارق ، آية ٨ (٢) الطارق : ١١
(٣) الليل : ٤ (٤) الضحى : ٢

(سُحْت[1]) : يعمُّ كلَّ حرام من رشوة وربًا وغير ذلك .

(سُلَّمًا[2]) ، بضم السين وفتح اللام مشددة : هو الذى يُصْعَد فيه ، ولما كان صلى الله عليه وسلم شديدَ الحرصِ على إيمانهم قال الله له : إن استطعت أن تدخل فى الأرض أو تصعد إلى السماء لتأتيَهم بآية يؤمنون بها فافعل ، وأنتَ لا تقدر على ذلك ، فاستَسْلِمْ لأمر الله .

(سُقِطَ فى أيديهم[3]) ؛ أى نَدِموا ؛ يقال : سُقِط فى يد فلان إذا عجز عما يريد ، ووقع فيما يكره . وضمير الغيبة يعود على الذين عبدوا العجل . ويحتمل أن يريد الذين لم يغيروا على مَنْ عبده .

(سوء الحساب[4]) : مناقشته والاستقصاء فى السؤال ، وهو عبارة عن مؤاخذة العبد بخطاياه كلها .

(سُوءُ الدار[5]) : يحتمل أن يريد بها فى الدنيا والآخرة ؛ وهو تهكُّم [٢٦٤ ب] بهم ؛ لأن ذلك عليهم لا لهم ، وكذلك قوله[6] : «وبئس المهاد» ، تهكُّم ؛ لأن المِهاد هو ما يُفْرش ويُوطأ .

(سُكِّرَتْ أبصارُنا[7]) : قد قدمنا أن الضمير لكفار قريش المعاندين المختوم عليهم بالكفر ؛ والمعنى أنهم لو رأوا أعظم آية لقالوا إنها تخيّل أو سحر . وقرىء بالتشديد والتخفيف ؛ ويحتمل أن يكون مشتقًّا من السكر ، ويكون معناه خُدعت أبصارنا ، فرأينا الأمر على غير حقيقته ، أو من السكر وهو السدّ فيكون معناه مُنعت أبصارُنا من النظر .

(سُرَادِقها[8]) : قال الجواليقى : هو معرب[9] ، وأصله سرادار ، وهو الدهليز .

---

(١) المائدة : ٤٢ ، ٦٢ ، ٦٣ (٢) الأنعام : ٣٥ (٣) الأعراف : ١٤٩
(٤) الرعد : ١٨ (٥) الرعد ٢٥ (٦) آل عمران ١٩٧
(٧) الحجر : ١٥ (٨) الكهف : ٢٩ (٩) المعرب : ٢٠٠

وقال غيره : الصواب أنه بالفارسية سرادره ؛ أى ستر الدار ، وسرادق جهنم : حائط من نار ، وقيل دخان .

(سُنْدُس وإستبرق[1]) : قال الجواليقى[2] : رقيق الديباج بالفارسية . وقال الليث : لم يختلف أهل اللغة والمفسّرون فى أنه معرب . وقال شيذلة : هو بالهندية .

(سُؤْلَك[3]) ؛ أى بغيتك .

(سلالة من طين[4]) : أى ما يَسيل من الشىء ويُستخرج منه ، ولذلك قوله بعد هذا : ثم جعلناه نُطْفةً ـ لا بد أن يُراد به ابن آدم ، فيكون الضمير على مَنْ ذُكِرَ أولا ، لكن يفسره سيَاقُ الكلام ، وإن أراد بالإنسان ابن آدم فيستقيم عَوْد الضمير عليه ، ويكون معنى خَلَقَه من سُلالة من طين أنه خلق أصْلَه وهو أبوه آدم . ويحتمل عندى أن يُريد بالجنس الذى يعُمُّ آدم وذريته ، فأجْمَلَ ذِكْرَ الإنسانِ أولا ثم فصّله بعد ذلك إلى الخلقة المختصة بآدم ، وهى من طين ، وإلى الخلقة المختصة بذريته وهى النطفة .

فإن قلت : ما الفرق بين مِنْ ومِنْ ؟

فالجواب ماقاله الزمخشرى[5] إن الأولى للابتداء ، والثانية للبيان ، كقوله : من الأوثان .

(سوق[6]) : جمع ساق ، أى قام الزرعُ على سُوقِه ، ومنه : « والتفّت السّاقُ بالساق[7] » ، أى التفّت ساقُه إلى ساقه الأخرى عند الموت . وقيل ماتت ساقه فلا تحمله .

---

(١) الكهف : ٣١ . (٢) المعرب : ١٧٧ (٣) طه : ٣٦ (٤) المؤمنون : ١٢
(٥) الكشاف : ٢ ـ ٧٠ (٦) الفتح ٢٩ (٧) القيامة : ٢٩

(سُعُر[١]) : جمع سعير فى قول أبى عبيدة ، ومعناه الجنون ، يقال ناقة مسعورة إذا كان بها جنون .

(سور[٢]) البلد : المحيط به . وبالهمز : البقية من الشيء ، ومنه قول أم سلمة رضى الله عنها : أسئرُوا لأمكم من هذا الشراب ، وقوله[٣] : « فضُرِب بينهم بسور له بابٌ » ، فمعناه أنه يُضْرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصِلُ بينهم ، وفى هذا السور بابٌ لأهل الجنة يدخلون منه ، وقيل : إن هذا السور هو الأعراف ، وهو سورٌ بين أهل الجنة والنار . وقيل : هو الجِدار الشرق من بيت المقدس ؛ وهذا بعيد .

(سُحْقًا[٤]) : انتصب بفعل مضمر على معنى الدعاء على أصحاب السعير . ومعناه البعد ؛ ومنه : مكان سَحِيق .

(سُوَاع[٥]) : اسم صنم كان يُعْبَد فى زمان نوح عليه السلام ، وكذلك يَعُوق ويَغُوث ووُدّ . ورُوِى أنها أسماء رجالٍ صالحين كانوا فى صدْر الدنيا ، فلما ماتوا صوَّرهم أهلُ ذلك العصر من حجارة ، وقالوا : ننظرُ إليها لنتذكَّر أعمالهم ، فهلك ذلك الجيلُ ، وكَثُر تعظيمُ مَنْ بعدهم لتلك الصور حتى عبدوها من دون الله ، ثم انتقلت تلك الأصنامُ بأعيانها . وقيل : بل الأسماءُ فقط إلى قبائل من العرب ، فكان ودّ لكلْب بِدُومة الجندل ، وكان سُوَاع لهذيل ، وكان يغوث لمراد ، وكان يعوق لهَمْدَان ، وكان نَسر لذى الكَلاع من حِمْير .

(سُدًى[٦]) : مهملا ، عَبثًا ، وهذا توبيخ ، ومعناه أيظنُّ الإنسانُ أن يَبْقَى بغير حساب ولا جزاء ، فهو كقوله : «أفحسبْتُمْ أنما خلقناكم عبثًا . .[٧]» الآية .

---

(١) القمر : ٢٤ ، ٤٧ (٢) الحديد ١٣ (٣) الحديد ١٣ (٤) الملك ١١

(٥) نوح ٢٣ : ولا تذرن وداً ولا سواعاً . (٦) القيامة ٣٦ (٧) المؤمنون ١١٥

والإنسان هنا جنس . وقيل نزلت في أبي جهل ؛ ولا يبعد أن يكون سببها خاصًا ومعناها عام .

(سُبَاتًا[1]) : راحة . وقيل معناه قطعاً للأعمال والتصرّف . والسبت القطع . وقيل معناه موت ؛ لأن النومَ هو الموت الأصغر ؛ ولذلك لا ينام أهل الجنة ، والسباتُ : ما يغيّب العقل والحواسّ حتى يظن الناظر أنه ميّت وما هو بميت ، وقد [٢٦٥ أ] دُفِن بعضهم بهذا الداء لظنّهم موته ثم قام من قبره ، ورجع لداره بسبب حفرِ نبّاش عليه لأخذِهِ أكفانه ، ولذلك يؤخَّر الميت عن دفنه لئلا يكون من هذا القبيل .

(سُجِّرَتْ[2]) : أصله من سجرت التنورَ إذا أحميته ، والبحار إذا ملأتها ، والمعنى إن البحار تفجّر بعضها إلى بعض حتى تسودَ بَحْرًا واحداً . وقيل إنها تُملأ ناراً لتعذيب أهلها . وقيل تُفرغ ماؤها فتيبس . والقول الأول والثاني أليق بالأصل . وقد قدمنا أن البحارَ سبعة لقوله : « والبحر يَمدُّه من بعده سبعةُ أبحر[3] » : بحر طبرستان ، وبحر كرمان ، وبحر عمان ، وبحر القلزم ، وبحر هندوستان ، وبحر الروم ، وبحر المغرب .

(سُعِّرَتْ[4]) : أوقدت وأحميت ، يُزاد في حرها يوم القيامة على ما هي عليه الآن ، وهذه النار طبيت في الثلج سبعين سنة ، ولولا ذلك لم ينتفع بها ، فقِسْ حرّها على ما يزاد فيها يوم القيامة ، وإذا تأملت قوله[5] : « ترى بِشَرَرٍ كالقَصر » تفهم منه أنها تأكلُ بعضها بعضا من شدة غيظها ، كما قال تعالى[6] : « تـكَادُ تَمَيَّزُ من الغَيْظ » : فأيُّ جسم يقوَى على هذه الأحوال لو لا أن

---

(١) الفرقان ٤٧ ، والنبأ ٩ (٢) التكوير ٦ (٣) لقمان ٢٧
(٤) التكوير : ١٢ (٥) المرسلات : ٣٢ (٦) الملك ٨

الله قوّاها ، اللهم كُنْ لنا حافظاً منها ؛ فإنه لا طاقة لنا عليها .

(سُطِحَتْ) (١) ، أي بُسطت ، والمرادُ بذكر هذه الأشياء الاستدلالُ بقُدْرة الخالق على هذه المخلوقات . وقد قدمنا أن من العجائب ما قاله بعضُ المفسرين : إن من الأقاليم الستة عندهم ستة أشهر منها نهار وستة ليل خالص ، وهذا مذكور في علم الهيئة ، فانظره في حرف الميم . وقال قتادة : الدنيا أربعة عشر ألف فرسخ للسودان ، وثمانية آلاف فرسخ للروم ، وثلاثة آلاف فرسخ لفارس ، وألف فرسخ للعرب ، وألف فرسخ لأهل الترك والصين . وقال بعضهم : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ؛ ثلاثمائة قفار ، ومائة بِحار ، وثمانون ليأجوج ومأجوج ، وثمانية عشر للسودان ، وعامين للبيض .

وفي الخبر إن عبد الله بن سلام أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، مِنْ أي شيء خَلَق اللهُ الأرض ؟ قال : مِنْ زَبَد . قال : فمن أي شيء خلق الزبد ؟ قال : من المَوْج ؟ قال : فمن أي شيء خلق الموج ؟ قال : خلق من البحر . قال : فمن أيّ شيء خلق البحر ؟ قال : من الظلمة . قال : يا محمد ؛ فقرار الأرض من أي شيء ؟ قال : بالجبال . قال : وقرار الجبال بأي شيء ؟ قال : بجبل قاف . قال : وجبل قاف من أي شيء ؟ قال : من زُمُرّدة خضراء وخضرة السموات منه . قال : صدقت ؛ فكم مسيرة علوه ؟ قال : خمسمائة سنة . قال : صدقت . فكم مسيرة حواليه ؟ قال : مسيرة ألف سنة . قال : صدقت . فهل وراء جبل قاف شيء ؟ قال : وراءه سبعون أرضاً من المسك . قال : فما وراءها ؟ قال : سبعون أرضاً من الذهب . قال : وما وراءها ؟ قال سبعون أرضاً من الحديد . قال : فهل وراء هذه الأرضين شيء ؟ قال عليه السلام : ومِنْ وراء هذه الأرضين سبعون ألف عالم ، في كل عالم ملائكةٌ لا يَعْلَم عددَهم إلا الله ؛ وهذه الملائكة لا يعلمهم آدم وبنوه ولا إبليس ، وتسبيحهم سبعُ كلمات : لا إله إلا الله ،

(١) الغاشية : ٢٠

محمد رسول الله . قال : صدقت ؛ هل وراء هؤلاء شيء ؟ قال : نعم ، حية أدارت ذَنبها على هذه العوالم . قال : صدقت .

ثم قال : أخبرنى عن سكان الأرضين . قال عليه السلام : فى الأرض السابعة ملائكة ، وفى السادسة إبليس وأعوانُه ، وفى الخامسة الشياطين ، وفى الرابعة الحيات، وفى الثالثة العقارب ، وفى الثانية الجنّ ، وفى الأولى الإنس قال : صدقت .

فهذه الأرضون على أى شيء ؟ قال : على الثور . قال : وكيف صفة الثور؟ قال : له أربعة آلاف رأس مابين الرأسين مسيرة خمسمائة عام . قال : صدقتَ ، أخبرنى عن هذا الثور على أى شيء ؟ قال : على صخرة . قال : أخبرنى عن الصخرة على أى شيء هى ؟ قال : على ظهر الحوت . قال : والحوت على أى شيء ؟ قال : على بحر ، والبحر قَعْره مسيرة ألف سنة . قال : صدقت .

أخبرنى عن ماء البحر على أى شيء ؟ قال : على الريح . قال : والريح على أى شيء ؟ قال : على الظلمة . قال : والظلمة على أى شيء ؟ قال :على نار جهنم . قال : صدقت ؛ ونار جهنم على أى شيء ؟ قال : على الثرى . قال : صدقت . قال : فهل تحت الثرى شيء ؟ قال عليه السلام : سؤالك هذا خطأ لا يعلم ما تحت الثرى إلا الله .

فانظر تصديقَ عبد الله حَبْر بنى إسرائيل والمسلمين لسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم لوجود ذلك كُلِّه فى التوراة التى جعل اللهُ فيها تبيان كل شيء وتفصيله .

فإن قلت : أىُّ فائدة فى التحريض إلى ذكر الإبل وابتدائه بها فى الآية ،

وهي أدنى من خَلقِه السموات والأرض ؟ ومن المعلوم الاستدلال بأعظم المخلوقات أقوى .

فالجواب لاعتناء العرب بها ؛ إذ كانت معايشهم فى الغالب منها فى شُرْب ألبانها ، وهي أكثرُ المواشي في بلادهم ، وأيضاً لما فى خَلقها من الاعتبار ، لأنها فى خلقتها دالةٌ على وحدانية خالقها ، شاهدةٌ بتدبير منشئها وحكمته ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال ، وجعلها تَبْرك حيث تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت ، وسخَّرها منقادةً لكل مَنْ يقودها بأزمتها ، حتى حُكي أن فأرة قادت ناقةً لا عاري ضعيفاً ، ولا تمانع صغيراً ، وبَرَاها[1] طوال الأعناق لتنوء بالأوقار .

وعن بعض الحكماء أنه لما حدِّث عن البعير وبديع خلقه ، وقد نشأ ببلاد الإبلُ فيها ، فتفكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الاعناق وصلة إلى المقدة التي جعل الله في صَدْرِها جامعةً للأعصاب ، ومثلها فى أعالى ظهورها ، كلُّ ذلك زيادة فى قُواها ، وحين أراد بها أن تكونَ سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى أن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا ، وجعلها ترعى كلَّ شيء نابتٍ فى البرارى والمفاوز مما لا يَرْعاه سائر الحيوان ، فهي يسيرة المؤنة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الإبل عزٌّ لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ؛ وكان شريح القاضي يقول لأصحابه : اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظرُ إلى الإبل كيف خُلقت .

قال القرافى فى فروقه : أعلم أنَّ النواهي تعتمد المفاسد ، كما أنَّ الأوامر تعتمد المصالح ، فما حرَّم الله تعالى شيئاً إلا لمفسدة ، وما أمر بشيء إلا لمصلحةٍ تحصل مِنْ تناوله .

وقد أجرى اللهُ تعالى أن الأغذية تنقل الأخلاق لخلق الحيوان المغذَّى به

---

(١) براها : خلقها .

حتى يقال : إن العرب لما أكثرَتْ من لحوم الإبل حصل عندها فَرْط الإيثار بأقواتها ، لأن ذلك شأن الإبل ، فيجوع الجميع من الإبل الأيامَ الكثيرة ، ثم يوضع لها ماتأكله مجتمعةً فيضع كلٌّ منها فمَه فيتناول منها حاجته من غير مُدَافعة عن ذلك الحبّ ، ولايطرد مَنْ يأكل معه ، ولاتزال الإبل تأكل علفها كذلك بالرِّفق حتى يفنى جميعاً من غير مدافعة بعضها بعضاً ، بل مُعْرِضة عن ذلك ؛ وعن مقدار ما أكله غيرها ممن يجاورها .

وغيرها من الحيوانات تقتتِلُ عند الأغذية على حَوْز الغذاء ، وتمنع من يأكلها معها أن يتناول شيئاً ؛ وذلك مشاهدٌ فى السباع والكلاب والأغنام وغيرها .

فاتصل ذلك لخُلق الأعراب ، فحصل عندهم من الإيثار الضيف مالم يحصل عند غيرهم من الأمم ، كما أنه حصل عندهم أيضاً الحِقْد ؛ لأن الجمل يأخذ ثأره ممن آذاه بعد مدة طويلة ، ولايزول ذلك من خاطره حتى يقال : إن أربعاً أكلت أربعا ، فأورثهم أربعا ، أكلت العرب الإبل فأفادتها الكرم والحقد . وأكلت السودان القِردة فأفادتها الرقص . وأكلت الفرنج الخنزير فأفادتها عدم الغيرة . وأكلت الترك الخيل فأفادتها القساوة .

فإذا تقرر هذا فهذه السباع فى غايةِ الظلم وقلّة الرحمة تأكل الحيوانات من غير اكتراث واهتمام بها ، بل تفسد تيبها وتقطع لحومها ، ولاتبالى بما تجده من الألم فى تمزيق أعضائها ، وتثب على ذلك وثوباً شديداً من غير توقُّف لذلك فى حاجة ولغير حاجة ؛ وذلك لفرْط ظلمها ، وقلّة الرحمة ؛ تأكل الحيوانات من غير اكتِراث ، وذلك متوفّر فى سباع الوحش أكثر منه فى سباع الطير ، فأين الأسد من العُقاب والصقر ؟ وأين النمر والفَهْد والسبع وغيرها من الحيوانات مِن الحدأ والغربان ونحوها ؟ فلما عظُمَت المفسدة والظلم فى سِبَاع الوحش حرمت لئلا يتناولها بنو آدم فتصير أخلاقهم كذلك ، ولما قَصرت مفسدة سباع الطير عن ذلك فمِن الفقهاء مَنْ نهض عنده ذلك للتحريم دَفْعاً لمفسدة

سوء الأخلاق ، وإن قلَّت ؛ ومنهم من لم ينهض عنده ذلك للتحريم لخفة أمره ، فاقتصر به على الكراهة .

(سرًّا) له معان: ضد العلانية . ومنه [1] « والذين يُنفقون أموالَهُمْ بالليل والنهار سِرًّا وعلانية » . قال : قال أبو هريرة : نزلت في عليّ بن أبي طالب ، لأنه تصدّق بدرهم في الليل وبدرهم بالنهار وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية . والنكاح ؛ ومنه : [2] « لاتُواعِدُوهُنَّ سِرًّا » ؛ أي لا تواعدوهنّ في العدة خيفةَ أن تتزوَّجوهن بعد العدة ؛ وسرُّ كلِّ شيء خياره .

(سِنَة [3]) هي ابتداء النوم ، لانفسه [4] ، كقول القائل : في عينه سِنَةٌ وليس بنائم . فالسِّنَةُ في الرأس والنوم في القلب .

(سِنِين [5]) : جمع سَنَة ، وهي عبارة عما أخذ اللهُ بني إسرائيل من القَحْط والجدب لعلهم يرجعون ، فلم يزدهم ذلك إلا طغيانًا .

(سيروا [6] ، وسيحوا) بمعنى واحد ، وأمَرَ اللهُ قريشًا بالسير في الأرض للاعتبار بمخلوقات الله ، والنظرِ فيمَنْ تقدَّم من الهالكين ، وقد كانوا أشدَّ منكم قوةً وأكثر جمعا ، وأخذ بعضُ الصوفية من هذا أنّ مَنْ سافر للاعتبار في مخلوقاته ورؤية نباتِ الأرض وسهلها وجبالها وأنهارها فهو أفضلُ من الإقامة ؛ وكيف لا وقد قطع علائقَه بمعرفة عيوب نفسه بغربته ابتعاده ؟ ألا ترى رِفْق الله بالمسافر ؛ فرخص له القَصْر والجمع ، والفِطْر في رمضان ، ومزيد مدة مسح الخف ، والتنفل راكبًا ، وترك الجمعة ، وعدم قضاء المسافة لضرات زوجة أخذه بالقرعة .

---

(١) البقرة : ٢٧٤ (٢) البقرة : ٢٣٥ (٣) البقرة : ٢٥٥

(٤) فى القرطبي : السنة : فتور يعترى الإنسان ، ولايفقد معه عقله .

(٥) يوسف ٤٢ (٦) آل عمران ١٣٧ ، التوبة ٢ ، على الترتيب .

واستجابة دعوته ، وصحّ أنه ضيفُ الله مالم يعصه ، إلى غير ذلك من فوائد ذكرها أبو حامد فى إحيائه .

فإن قلت : قدقال فى الأنعام [1] : « ثم انظروا » ، وعطف فى غيرها بالفاء.[2] فما الفرق بينهما ؟

فالجواب أنه لما كانت « ثمّ » للتراخى ، فأمروا باستقراء الديار وتأمّل الآثار ، وفيها كثرةٌ ، فيقع ذلك سيرٌ بعد سيرٍ وزمانٌ بعد زمان .

وقد قدمنا فى حرف الفاء أن معنى« ثم انظروا» إباحة السّير للتجارة وغيرها، فنبّه بثم لتباعُد مابين الواجب والمباح .

وأما تحديد السياحة فى الأرض بأربعة أشهر فهو الأجل الذى جعل الله لأمنِهم. واختلف فى وقتها ؛ فقيل هى شوّال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، لأن السورةَ نزلت حينئذ ؛ وذلك عام تسْعَة . وقيل : هى عيد الأضحى إلى تمام العشر من ربيع الآخر ؛ لأنهم إنما علموا بذلك حينئذ ، وذلكَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث تلك السنة أبا بكر الصديق فحجّ بالناس ، ثم بعث بعده علىّ ابن أبى طالب فقرأ بعده سورة براءة يوم عرفة . وقيل يوم النحر .

(سِىءَ [3] بهم) ؛ أى أصابه سوء وضَجَر لما ظن أنهم من بنى آدم وخاف عليهم من قومه .

(سِجِّيل [4]) بالفارسية أوله حجارة وآخره طين ؛ قاله مجاهد، يعنى أنها كانت مثل الآجرّ المطبوخ . وقيل : هو من سجله إذا أرسله .

(سِقَاية [5]) : قد قدمنا أنه الصاع الذى كان يشرب به يوسف .

---

(١) الأنعام : ١١ (٢) النمل : ٦٩ (٣) هود : ٧٧

(٤) هود : ٨٢ ، والحجر ٧٤ ، الفيل : ٤ (٥) يوسف : ٧٠

وأما قوله تعالى(١) : «أجعلتم سِقَايَةَ الحاجّ وعِمَارةَ المسجد الحرام» ـ فسببها أنّ قوما من قريش افتخروا بسقاية الحاج وبعمارة المسجد الحرام ، فبيّن اللهُ أن الجهاد أفضلُ من ذلك . ونزلت الآية في عليّ والعباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن شيبة ـ افتخروا ، فقال طلحة : أنا صاحب البيت ، وعندي مَفَاتِحه . وقال العباس : أنا صاحبُ السقاية . وقال علي : لقد أسلمتُ قبل الناس وهاجرتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(سجلّ (٢)) بلغة الحبشة : الرجل عند ابن عباس . وعند ابن جني الكتاب ؛ قال قوم : هو فارسي معرب . وأخرج ابنُ أبي حاتم ، عن أبي جعفر الباقر ، قال : السجل ملك ، وكان هاروت وماروتُ من أعوانه . وأخرج عن ابن عمر ؛ قال : السجل ملك . وأخرج عن السدّي ؛ قال : ملك موكّل بالصحف . ومعنى : «يوم (٣) نَطْوِي السماء كطيّ السجلّ للكتب» ـ أن اللهَ يطوي السماءَ كما يُطْوَى السجلّ ليكتب فيه ، أو لتصانَ الكتبُ التي فيه . وقد ضعّف بعضهم كونه ملك ؛ ولا أدري ما وَجْهُ تضعيفه . وفيه ضعف .

(سنَا (٤)) : أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : سنا ـ بالنبطية الحسن . وقيل بالحبشية . وفي الحديث سَنَهْ سَنَهْ ؛ أي حسنة بالحبشية (٥) .

(سُخْريا (٦)) ، بضم السين من السخرة بمعنى التحول (٧) ؛ وبالكسر من السخر بمعنى الاستهزاء . وقد يقال هزؤاً بالضم ، وقرىء هنا بالوجهين لاحتمال المعنيين ، على أن معنى الاستهزاء هنا أليق ، لقوله (٨) : «وكنتم منهم تضحكون» ؛ وفي الزخرف استخدام بعضهم بعضا أليق ، لقوله (٦) : «ورحمة ربّكَ خير مما يجمعون» .

---

(١) التوبة ١٩ (٢) الأنبياء ١٠٤ (٣) الأنبياء ١٠٤ (٤) النور ٤٣

(٥) في النهاية : قيل سنا بالحبشية حسن ، وهي لغة ، وتخفف نونها وتشدد . وفي رواية سنه سنه وفي أخرى سناه ، سناه ، بالتشديد والتخفيف فيهما . وانظر أيضاً المعرب : ٢٠٢

(٦) الزخرف : ٣٢ (٧) أي خولا وخدما (القرطبي : ١٦ ـ ٨٣) (٨) المؤمنون : ١١٠

(سِدْرٍ مَخْضُودٍ[1]) : قد قدمنا في حرف الميم أنه النبق الذي قُطع شوكه .

(سِجّين) : اسم علم منقول من صفة على وزن فعّيل للمبالغة . وقد قيل عظم الله أمره بقوله : [2] « وما أدراك ما سِجّين » ، ثم فسره بقوله بأنه كتاب مرقوم ؛ أي مسطور بيّن الكتابة ، وهو كتابٌ جامع يكتب فيه أعمالُ الشياطين والكفار والفجّار ، وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس ، لأنه سبب الحَبْس والتضييق في جهنم ، أو لأنه مطروح في مكان والعذاب كالسجن ؛ فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأرض السفلى . وروى أنه في بئر هنالك.

وحكى كعب عن التوراة أنه في شجرة سوداء هنالك . وحكى البكالي بسند صحيح عن رجل كان بمكة : انتهت حاله في العبادة إلى مقام عظيم، ويقصده أصحاب الأموال التي تركها التجار بمكة ، ويسافرون ؛ فاتفق أنّ رجلا ذا مال جليل أراد السفر من مكة إلى أرض بعيدة فدُلّ على ذلك الرجل في أن يترك عنده وَديعة ، ففعل ، وسافر ، وقدر على الرجل لما حضرته الوفاة فأوصى بكل ما كان عنده لأربابه من الودائع ، فتوفى ، فأخذ الناسُ ودائعهم سوى ذلك الرجل فإنه لم يوجد له ذِكر ، فحار دليلُ الرجل ؛ فدُلّ على رجل كبير القدر أنْ يخبره بقصته ، وقال : وكل من أخبره عن المتوفى بشيء كان خيراً ، قال : فلما انتهيت إلى الثاني وأخبرته قال لي : يا بني ، ما عندي ما أدلك عليه إلا أنك تأتي ليلةَ الجمعة لبئر زمزم آخر الليل وتُنادي فيه : يا فلان بن فلان ، فإنْ أجابكَ سَلْهُ عن مالك فإنه يخبرك كيف اتفق فيه ؛ فإن لم يجبْك فافعل ذلك سبع ليالٍ من ليالي الجمعة ؛ فإن أجابك فحسن ، وإلا فأخبرني .

ففعلت ، ولم يجبني أحد ، فأخبرت الرجلَ بذلك ، فقال : يا بني ، ما أرى

---

(١) المطففين : ٧.　　(٢) المطففين ٨

الرجل إلا من أهل النار ، فتُسافر إلى أرض حضرموت ، وتأتى إلى بئر هنالك يقال له بئر برهُوت ، فتنادى فيه باسم الرجل ليلةَ الأربعاء ، فإنه يجيبك ضرورة؟ فاسأله يخبرك .

قال : فسرتُ إلى الموضع فناديتُ أول ليلة باسم الرجل، فأجابنى ... عن مالى ، فأخبرنى أنه نسى أنْ يُوصِيَ بمكانه حيث دفنه ، قال : ولما أخبرنى بمكانه من محلَّ سكناه قال لى : باقٍ عليك إلا ما بلغت رسالةً لأختٍ بيلد كذا من مكان كذا ، واسم زَوْجها وابنتها ، وأمارات ، وقل لها : تجعلنى فى حِل من كونى فارقتُها من غير طيب نَفْسٍ منها ، ووقع بينى وبينها مهاجرة ، فتضرَّعْ لها وأرغبها لعل اللهَ يُنقذنى (١٢٦٧) من هذا المقام ؛ فإنى عُوقِبْتُ من سبب قطعى رحمها .

وتمامُ الحكاية أنه وجد مالَه ، واستحق من الأخت لأخيها ، وعاد الرجل إلى مكة ، ونادى ليلة الجمعة باسمِ الرجل ، فأجابه وجزاه خيرًا ؛ وأخبره أنَّ الله قد غفر له .

ومما يؤكد صحة هذا أن الأرواحَ حينًا ذكر ـ ما ذكره القرطبى فى سورة قد أفلح : اختلف فى مقر الأرواح على أقوال ذكر فيها قولا إن بئر زمزم خاصٌ بالسعداء وبئر برهوت خاص بالأشقياء .

قلت : وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الأرواح على أحوال مختلفة ؛ فمنها ما هو يعلق فى ثمر الجنة ، ومنها ما هو فى قناديل معلقة تحت العرش ، ومنها ما هو فى كفالة آدم ، ومنها ما هو فى كفالة إبراهيم ، ومنها ما هو فى أفنيةَ قبورها تردُّ على مَنْ يسلِّم عليها ، ومنها ما هو لتلقى أرواح المؤمنين من إخوانهم يسألونهم عنهم ، فيقول بعضهم لبعض : دعُوه يستريح مِنْ غَمّ الدنيا وهمومها .

(السين) : حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال ، ويتنزّل منه منزلةَ الجزاء فلذا لم تعمل فيه . وذهب البصريون إلى أن مدةَ الاستقبال معه أضيق منها مع سوف ؛ وعبارةُ المعربين فيها حرف تنفيس ، ومعناها حرف توسُّع ، لأنها نقلت المضارعَ من الزمن الضيّق ـ وهو الحال ـ إلى الزمن الواسع ، وهو الاستقبال .

وذكر بعضُهم أنها قد تأتى للاستمرار لا لِلاستقبال ، كقوله : « ستَجِدُون[1] آخرين . . . » الآية . « سيقول[2] السُّفَهاء . . . » الآية ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : « ماوَلاَّهُمْ » فجاءت السينُ إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال . قال ابن هشام[3] : وهذا لايعرفه النحويون ، بل الاستمرار مستفاد من المضارع ، والسين باقيةٌ على الاستقبال ؛ إذ الاستمرار إنما يكون فى فى المستقبل . قال : وزعم الزمخشرى أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ، ولم أرَ مَنْ فهِم وَجْه ذلك ؛ ووجهه أنها تُفيد الوعد بحصول الفعل ؛ فدخولُها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه ، وقد أوْمأ إلى ذلك فى سورة البقرة ؛ فقال : « [4]فسيكفيكهم الله ، وهو السميعُ العليم » — معنى السين أن ذلك كائن لا محالة ، وإن تأخر إلى حين . وصرح به فى سورة براءة ، فقال فى قوله[5] : « أولئك سيرحمهم الله » : السين مفيدة وجودَ الرّحمة لا محالة ، فهى تؤكد الوعد ، كما تُؤكد الوعيد فى قولك : "سأنتقم منك".

---

(١) النساء : ٩١ (٢) البقرة : ١٤٢ (٣) المغنى : ١ ـ ١١٩

(٤) البقرة : ١٣٧ (٥) التوبة : ٧١

(سوف): كالسين أو أوسع زمانا منها عند البصريين ؛ لأن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى ، ومرادفة عند غيرهم ، وتنفرد عن السين بدخول اللام عليها نحو[1] : «ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» . قال أبو حيان : وإنما امتنع إدخالُ اللام على السين كراهةَ توالي الحركات في «لَسَيُدَحرج» ، ثم طُرد الباقي .

قال ابن بابشاذ : والغالب على سوف استعمالها في الوعيد والتهديد ، وعلى السين استعمالها في الوعد ؛ وقد تستعمل سوف والسين في الوعيد .

و (سواء) : تكون بمعنى مُسْتَوٍ ، فتقصر مع[2] الكسر ، نحو : «مكانا[3] سِوًى» ، وتمد مع الفتح نحو «سَوَاءٌ[4] عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يُؤمنون» ، وبمعنى الوسط فتمدّ مع الفتح نحو : «في سَوَاءِ[5] الجحيم» ، وبمعنى التمام نحو[6] : «في أربعة أيام سواءً للسائلين» ؛ أي تماما ، ويجوز أن يكون منه : «واهدنا[7] إلى سواء الصِّرَاط» ، ولم ترد في القرآن بمعنى غير . وقيل وردت ، وجعل منه في البرهان : «فقد[8] ضلَّ سواءَ السبيل» ، وهو وهم ، وأحسنُ منه قول الكلبي في قوله تعالى : «ولا[9] أنتَ مكانا سُوًى» — إنها استثنائية ، والمستثنى محذوف ؛ أي مكانا سوى هذا المكان ، حكاه الكرماني في عجائبه ، وقال : فيه بُعْد ، لأنها لا تستعمل غير مضافة .

(ساءَ) : فعل للذم لا يتصرف .

---

(١) الضحى : ٥ (٢) في الأصلين : مع القصر . (٣) طه ٥٨
(٤) البقرة ٦ (٥) الصافات ٥٥ (٦) فصلت ١٠
(٧) ص ٢٢ (٨) الممتحنة : ١ (٩) طه ٥٨

(سبحان) : مصدر بمعنى التسبيح لازمَ النصب والإضافة إلى مفردٍ ظاهر ؛ نحو : « سبحان[1] الله » . « سبحان[2] الذى أسْرَى » ، أو مضمر ، نحو : « سبحانه[3] أن يكون [٢٦٧] له ولد » . « سبحانَك[4] لا علم لنا » ، وهو مما أُمِيتَ فعله .

وفى العجائب للكرمانى : من الغريب ما ذكره المفضّل أنه مصدر سبح إذا رفع صوته بالدعاء والذِّكر ، وأنشد :

قبح الإله وجوهَ تغلبَ كلّما سبَحَ الحجيجُ وكبّروا إهْلالا

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : سبحان الله - قال : نَزّه[5] الله نفسه عن السوء .



(١) يوسف : ١٠٨ (٢) الإسراء : ١ (٣) النساء : ١٧١
(٤) البقرة ٣٢ (٥) فى الإتقان (٢ - ١٩٩) : تنزيه .

حرف الشين المعجمة

(شُعيب) : قال ابن إسحاق : وهو ابن ميكاييل ، كذا بخط الذهبي في اختصار المستدرك ، وقال غيره : بن ملسكاين . ورأيتُ بخط النووي في تهذيبه ابن ميكيل بن يشجن بن مدين بن إبراهيم الخليل ، كان يقال له خطيب الأنبياء ، وبُعث إلى أُمّتين : مدين ، وأصحاب[1] لَيْكَة رسولا ، وكان كثير الصلاة ، وعَمِي في آخر عمره .

وقد قدمنا قَوْلا بأن مدين وأصحاب لَيْكَة واحدة . قال ابن كثير[2] : ويدل على ذلك أن كلا منهما وعظ بوفاءِ الكيل والميزان ، فدلّ على أنهما واحد . واحتجّ الأول بما أخرجه السدّي وعكرمة ، قالا : لم يَبْعَث الله نبيا مرتين إلا شعيبا : مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ، ومرةً إلى أصحاب لَيْكَة ، فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلّة .

وأخرج ابنُ عساكر في تاريخه ، عن عبد الله بن عمرو ـ مرفوعا ـ أن قوم مدين وأصحاب لَيْكَة أمتان بعث الله إليهما شعيبا ؛ قال ابن كثير : وهو غريب ، وفي رَفْعِه نظر ؛ قال : ومنهم من زعم أنه بُعث إلى ثلاث أمم ؛ والثالثة أصحاب الرّسّ .

(شعر) بالأمر يشعر ، أي علمه . والشعور : العلم من طريق الحسّ ، ومنه : « وَمَا يَشْعُرُونَ[3] » ، أي لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم .

---

(١) أصحاب الأيكة : قوم شعيب . والأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر . وقيل الأيكة : اسم القرية ، وقيل : اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة وليكة : مدينتهم (القرطبي : ١٠ ـ ٤٥)

(٢) البداية والنهاية : ١ ـ ١٨٤ ، وارجع كذلك إلى الإتقان : ٤ ـ ٦٢

(٣) البقرة : ٩

فإن قلت : هل العلم والشعور بمعنى واحد ؛ لأنه يظهر من تكرير قوله : « لا يشعرون » أنهما بمعنيين ؟

والجواب ما قاله أبو الفضل بن الخطيب : إنما قال ذلك في قوله تعالى : « ألا[1] إنّهم هُم السفهاءُ ولكن لا يعْلَمون » ، وفيما قبلها[2] : « ولكن لا يشعرون » ؛ لوجهين :

أحدها - أن الوقف على أن المؤمنين على الحق ، وهم على الحقّ أمر عقلي نظري ، وأما أنّ النفاق وما فيه من البغي يُفضي إلى الفساد في الأرض فضروري ، جار مجرى المحسوس .

والثاني أنه لما ذكر السَّفَه ، وهو جهل ، كان ذِكْرُ العلم أحسن طباقا .
والله أعلم .

(شَكُور[3]) : من أسماء الله ؛ لأنه المجازِي للعباد على أعمالهم بجزيل الثواب.
وقيل : المُثْني على العباد . وأما الشكور من عباده فهو المصرِّفُ جوارِحَه فيما أمَر الله به عبادَه من الطاعة ، وهو موجب للزيادة كما قدمنا .

وقام صلى الله عليه وسلم حتى تفَطّرَتْ[4] قدماه ، وقال : أفلا أكُونُ عبدا شَكُورا ، فالشكرُ إذاً طاعةُ الله في كل نعمة بما هو الأولى مع رؤية مِنَّةِ الله تعالى ! والحياء من تتَابُع نِعمه واستعظام صغيرها ، واعترافه بعجزه عن شكرها ، وأنها وشكرها نعمةٌ منه تعالى ، وعدم ركونه إلى غير المنعم ، وأعظم النعم حسنُ خلق ؛ لأنه ما ضرّ أبدا كسوء خلق ، ويجب العلم بما قبّحه الشرع

---

(١) البقرة : ١٣ (٢) البقرة : ١٢ (٣) إبراهيم : ٥ ، ولقمان ٣١ ، وغيرها.

(٤) تفطرت : تشققت .

وبما حسّنه ، وكل نِعَمِه فإنها منه تعالى إجماعا ، فالشُّكرُ بما يجب حَتْمٌ ، وبما يستحبّ ندب ، ولما كانت نِعَمُ الله تعالى مبذولة لم يشكرِ الجاهلُ إلا ما خصَّه بقوله الحمد لله ، ولو عمي مثلا لتسخّط وشكى ، ولو عاد بَصَرُه شكر .

(شَرَوْا[1] :) بمعنى باعوا ، كقوله تعالى : « وشَرَوْه[2] بِثَمنٍ بَخْسٍ » .

(شَطْرَ المَسْجِدِ الحرام[3]) : تلقاءه ، بلسان الحبشة ، وكان صلى الله عليه وسلم يرفع رَأسه إلى السماء رجاءَ أن يُؤْمَر بالصلاة إلى الكعبة ، لأنها قِبْلَةُ إبراهيم ، أو كان يُحِبُّ ذلك من أجل أنّ اليهود كانوا يقولون : يخالفنا محمد في ديننا ويتبعنا في قبلتنا ؛ فقال لجبريل : وَدِدْتُ أن يُحوِّلني الله إلى الكعبة ، فإنها قِبْلة إبراهيم ؛ فقال جبريل : إنما أنا عَبْدٌ مثلك ، وأنتَ كريم على ربك ، فاسأل أنتَ ربَّك ؛ فعرج جبريل إلى السماء ، فأنزل الله الآية ؛ فهي متأخرة تلاوةً مقدمة معنى ؛ لأنها رَأس القصة ، وأوّل ما نُسِخ من أمور الشرع أمْرُ القبلة .

فإن قلت : ما فائدة تكريرها ثلاث[4] مرات ؟

فالجواب أنّ الأولى لنسخ القبلة ، والثانية للسبب ، وهو قوله : « وإنَّهُ لَلحقُّ من ربك » ، والثالثة للعلة ، وهو قوله : « لئلا يكونَ الناسِ عليكم حجةٌ [١٦٨ ا] » .

وقيل الأولى في مسجد المدينة ، والثانية خارج المسجد ، والثالثة خارج البلد . وقيل في الآية خروجان : خروج إلى مكانٍ ترى فيه الكعبة ، وخروج

---

(١) البقرة : ١٠٢   (٢) يوسف : ٢٠   (٣) البقرة : ١٤٤
(٤) البقرة ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠

إلى مكان[1] لا ترى أىّ الحالتين فيه سواء . وقيل فى الجواب غير هذا حذفناه لطوله .

(شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ[2]) : نصٌّ فى رفض شهادة الكفار والصبيان والنساء ، وأما العبيدُ فاللفظُ يتناولهم ، ولذلك أجاز ابن حنبل شهادتَهم ، ومنعها مالكٌ والشافعيّ لنقص الرِّق ؛ وإنما أمر الله بالإشهاد فى البياعات حفظاً للأموال ، فشهادةُ الرجلين أو رجل وامرأتين جائزة فى الأموال لا فى غيرها بشرط العدالة ، ومعناها[3] اجتنابُ الذنوب الكبائر وتوقّى الصغائر مع المحافظة على المروءة .

وروى أنّ آدم صلى الله على نبينا وعليه وسلم لما رأى ذرّيته عند خروجها من ظهره ، فسأل الله عنهم ، فقال له : هم الأنبياء من أولادك ، فقال : يارب ، كم أعمارهم ؟ فأخبره بِعُمْر كلٍّ واحد ، فوجد عمر داود أربعين ، فقال : يارب ، قد وهبتُ له من عمرى أربعين أخرى ، فلما بقى من عمره هذه الأربعون أتى ملكُ الموتِ لِيَقْبِضَ رُوحه ، فقال : إنى لم أهَبْ شيئا .

فقال الله له : أمراً أحدثته بين أولادك ، فَمَنْ كان عليه حقّ أنكره ، فلذلك أمره الله بالإشهاد ، فقال : « [2]واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكم » . ولذلك وَكل على كل أحَدٍ من الآدميين مَلَكين شاهدين حتى لا يجدَ إلى الإنكار سبيلا .

فانظرْ هذا التأنيسَ المعظم لأمّةِ هذا النبى الكريم .

وقيل : إنه كان نور المصطفى فى وَجْه آدم ينظر إليه ، فقال : يارب ، هل

---

(١) فى آية (١٤٩ ، ١٥٠) من البقرة : ومن حيث خرجت ...

(٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) أى العدالة .

بقى فى ظهرى من هذا النور شيء ؟ قال : نور أصحابه . قال : يارب ، اجعله فى بقية أصابعى ؛ فجعل نور أبو بكر فى الوُسْطى ، ونور عمر فى البنصر ، ونور عثمان فى الخنصر ، ونور علىّ فى الإبهام ؛ فكان آدم ، صلى الله عليه وسلم ، ينظر إلى تلك الأنوار ويعجبُ منها إلى أن أهْبَطه الله من الجنة ، ومارَسَ أعمالَ الدنيا ، فعادت الأنوارُ إلى ظهره .

وأنتَ ياعاصى ، تُمَارِسُ المعاصى والفواحش ، ولا تخاف مِنْ زوال نورِ الإيمان من قَلْبك ! ألم تسمع إلى قول ربك[1] : « كلا ، بَلْ رَانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسِبُون » .

فإن قلت : مابال آدم لم يُرِد الرجوع إلى الجنة ، بل رجع فيها وهب لداود ، وكان قد بكى عليها بعد خروجه منها حتى لو أُجْرِيت السفنُ فى دموعه لجرت ؟

والجواب أن آدم عليه السلام لما ذاق حلاوةَ النعمة فى الجنة بكى على فِرَاقها ، فلما خرج إلى الدنيا وكلفه الله فيها بالعبادة ، لأنها[2] محلُّ تكليف ، وذاق حلاوته ، اختار مافيه رِضاَ الله على حظ النفس . وقيل : كَرِه الخروجَ من الجنة لطلبِ الراحة وخوف الموت ؛ لأنّ الله أخبره أنه لا موت فيها ، ولما خرج إلى الدنيا ، وعلم بمرارة الموت فيها لم يُرِد الخروجَ منها ؛ فإذا أبو بكر المطهر من الذنوب يخاف من هذه الأهوال ، فكيف بكَ أيها الغريق لاتخافُ من الفراق ، وقَطْعِ حَبْل التلاق .

([3]شاوِرْهم فى الأمر) : أمَر الله رسولَه بمشاورة أصحابه فى الحروب

---

(١) المطففين : ١٤ (٢) أى الدنيا . (٣) آل عمران ١٥٩

وغيرها لا في أحكام الشريعة. وقال ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر، وقد كان صلى الله عليه وسلم يشاورهم في مواطن كثيرة؛ كيوم بدر، ويوم الأحزاب، والطائف، وغير ذلك.

وينبغي للانسان أن يشاورَ في أموره مَنْ يَثِقُ منه بعقلٍ صحيح وودٍّ صريح، ولا يستغني برأيه؛ فإن استغنى برأيه زَلّ. قال صلى الله عليه وسلم: المشاورةُ تزيد الرجل ذكاءً. وقد ورد في هذا المعنى من الأحاديث والأخبار مالا نُطيل بذكره. والله الموفق.

(شَجَرَ[1] بَيْنَهم)؛ أي اختلط. واختلفوا فيه؛ ومعنى الآية أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم، ونزلت الآية والتي قبلها في المحاكمة بين المنافقين.

فإن قلت: كثيرا ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسبابا متعددة؛ فبأيّ السبب نأخذ؟

والجواب أن الاعتمادَ في ذلك أن تنظر إلى العبارة الواقعة، فإن عبّر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر نزلت في كذا، وذكر أمراً آخر؛ فهذا يُرادُ به التفسير لا ذِكْر سببِ النزول، فلا منافاةَ [٢٦٨ ب] بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما؛ وإن عبّر واحدٌ بقوله نزلت في كذا، وصرح الآخر بذكر سببٍ خلافه فهوَ المعتمد. وقد يكون للآية أسبابٌ، وقد أفرد أسباب النزول بالتصنيف جماعةٌ أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، وألّف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل بن جعفر كتابا مات عليه مسوّدة فلم يقف عليه

(١) النساء: ٦٥

كاملا . وقد ألفتُ فيه كتاب القول في أسباب النزول ، فقِفْ عليه لعل قلبكَ يَميل .

(شَنَـآنُ(1) قَوْم) : أي بُغْضهم وحِقْدهم . ومعنى الآية : لا يحملنَّكم عَـدَاوةُ قومٍ على أن تعتَدُوا عليهم مِنْ أجْل أنْ يَصُـدُّوكم عن المسجد الحرام .

ونزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة ، فأرادوا أنْ يَسْتَأْصِلوهم بالقتل ، لأنهم كانوا قد صدُّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية ، فنهاهم الله عن قَتْلهم لعلمه بأنهم يؤمنون .

(شَهادَةُ(2) بَيْنِكم) : مرفوعٌ بالابتداء ، وخبره اثْنان . التقدير شهادة بينكم شهادةُ اثنين ، أو شهادة « آخران » على أن تكون إذا بمنزلة حين لا تحتاج جوابا .

ويجوز أن تكون شرطية ، وجوابها محذوف يدلُّ عليه ماتقدم قبلها ؛ فإن المعنى إذا حضر أحدَكم الموتُ فينبغي أن يشهد .

وسبب نزول الآية أنّ رجلين خرجا إلى الشام ، وخرج معهما رجلٌ آخر لتجارة ، فمَرِضَ في الطريق ، فكتب كتابا قَيَّدَ فيه كُلَّ ما معه ، وجعله في متاعه ، وأوصى الرجلين أن يُؤَدِّيا رَحْله لورثته ؛ فمات فقدم الرجلان المدينة ، ودفعا رَحْلَه إلى ورثته ، فوجدوا فيه كتابه ، وفقدوا منها أشياء قد كتبها ، فسألوهما عنها ، فقالا : لاندرى ، هذا الذى قبضناه ، فرفعوهما إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحلفهما ، فبقى الأمرُ مدةً ، ثم عثر على إناءٍ عظيمٍ من

---

(1) المائدة : ٢ (2) المائدة ١٠٦

فضة ؛ فقيل لمَنْ وجده عنده : مِنْ أين لكَ هذا ؟ فقال : اشتريتُه مِن فلان وفلان — يعنى الرجلين ، فارتفع الأمْرُ فى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رجلين مِنْ أولياءِ الميت أنْ يحلفا ، فحلفا واستحقّاه ، فمعنى الآية : إذا حضر الموتُ أحدا فى السفر فليُشْهِد عَدْلَين بما معه ، فإن وقعت رِيبةٌ فى شهادتهما حلفا أنهما ما كذبا ، ولا بدّلا ؛ فإن عُثِر بعد ذلك على أنهما كذَبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الميت ، وغَرِمَ الشاهدان ماظهر عليهما .

قال مكى : هذه الآية أشكلُ آية فى القرآن إعرابا ومعنى وحكما ، وتلخيصها ما ذكرناه .

(شك[1]) : الشك تَجويز أمرين لامَزِيّة لأحدهما على الآخر ؛ نحو : شَكّ الإنسانُ فى الغيم غير المشف أنه سيُمطر . وقيل التردد بين حكمين من غير تغليبِ لأحدهما على الآخر .

(شَعائر[2] الله) : ماجعله الله عَلَما لطاعته ، واحدتها شَعيرة ، مثل الجرائم ، يقول : لا تحلوه ، وكان المشركون يحجّون ويعتمرون ، فأراد المسلمون أنْ يُغيّروا عليهم ، فقيل لهم : لا تغيروا عليهم ولا تصدّوهم . وقيل : هى الحَرَم ، وإحلالُه الصيد فيه . وقيل : هى ما يحرم على الحاج من النساء والصيد وغير ذلك ، وإحلالُه فِعْله .

(شَاقّوا[3] الله وَرسوله) ؛ أى حاربوهما وصاروا فى شقّ غير شقّ المؤمنين .

---

(١) النساء : ١٥٧ وغيرها .　　(٢) المائدة : ٢
(٣) الأنفال : ١٣

(شَرِّدْ[1] بهم مَنْ خَلْفَهم) ؛ أى افعل بهم من النِّقْمة ما يَزْجرُ غيرهم من القتل والتعذيب .

ويقال : شرِّد بهم : سمِّع بهم ، بلغة قريش .

(شَهْراً[2]) : قال الجواليقى[3] : ذكر بعضُ أهل اللغة أنه بالسريانية .

(شفَا[4] جُرُف) : طرف حفْرة . وشفَا الوادى والقبر شفيره .

(شَغَفَها[5] حبًّا) : بَلغ شِغَافَ قلبها ، وهو غِلافُه . وقيل السويداء منه. وقيل : الشغاف داء يَصِلُ إلى القلب يقتل مَنْ تمكَّن منه . وقولهم فلان مشغوف بحبِّ فلانة إذا ذهب به الحبُّ أقصى المذهب .

(شجرة[6] ملعونة) : يعنى شجرة الزَّقُّوم ؛ وذلك أنّ قريشا لما سمعوا أنّ فى جهنم شجرةَ الزقوم سخِرُوا من ذلك ، وقالوا : كيف تكون شجرةٌ فى النار ، والنار تُحرق الشجر ؟ فقال أبو جهل : ما أعرف الزَّقُّوم إلا التمر بالزبد؛ وهذا كلُّه استهزاء وتهكُّم بنبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلا فقد علموا قُدْرةَ الله ؛ وكيفَ لا وهُمْ يُخرِجون من الشجر الأخضر ناراً يقتصون بها [٢٦٩ ا] .

فإن قلت : أين لُعنت شجرة الزقوم فى القرآن ؟

والجواب أنّ المراد لعنة آكلها . وقيل : إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد والكراهية ، لأنها فى أصل الجحيم .

(شاكِلَتِه[7]) : ناحيته وطريقته التى تُشاكله . ويدلّ على ذلك قوله :

---

(١) الأنفال : ٥٧ (٢) التوبة ٣٦ (٣) المعرب : ٢٠٧
(٤) التوبة ١٠٩ (٥) يوسف : ٣٠ (٦) فى الإسراء ٦٠: والشجرة الملعونة.
(٧) الإسراء : ٨٤

« فربكم[1] أعلمُ بمَنْ هُو أهدَى سبيلا » . وقيل شاكِلَته طبيعته ؛ وهو من الشكل ؛ يقال : لستَ على شكلي وشاكلتي .

(شَطَطا[2]) ؛ أي جَوْرا وغلوّا ؛ أي لو دعونا من دونه إلها لقلْنا قولا شَطَطا .

(شتّى[3]) ؛ أي أصنافا مختلفة .

(شَجَرة[4] الخُلْد) : هذا من قول إبليس لآدم وحوّاء ؛ وعدَهُما بأنّ مَنْ أكل منها لا يموت .

(شاطئ[5] الوَادِي) ؛ أي شَطّه[6] .

(شاخِصَةٌ[7]) : من الشخوص ، وهو إحدَادُ النظر من الخـوف ، لا تكاد تَطْرِف .

(شَجَرةٌ[8] تَخرُجُ في أصْل الجحيم) ؛ أي تنبت في قَعْر جهنم ، وترتفع أغصانُها إلى دركاتها. وشبّه طَلْعَها برءُوس[9] الشياطين مبالغة في قبحه وكراهته ؛ لأنه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها ، وإن لم يَرَوْها ؛ ولذلك يقولون للقبيح النظر : وجه شيطان . وقيل رءوس الشياطين شجرة معروفة باليمن . وقيل : هو صنف من الحيات .

(شَوْبًا[10] مِنْ حَمِيم) ؛ أي مزاجا من حَمِيم حار .

فإن قلت : لم تُعطف هذه الجمل بثم ؟

---

(١) الإسراء : ٨٤ (٢) الكهف : ١٤ ، والجن : ٤ (٣) طه : ٥٣
(٤) طه : ١٢٠ (٥) القصص : ٣٠ (٦) شاطئ الوادي وشطه : جانبه.
(٧) الأنبياء ٩٧ (٨) الصافات : ٦٤ (٩) في الآية بعدها (٦٥) : طلعها كأنه رءوس الشياطين. (١٠) الصافات : ٦٢

فالجواب من وجهين : أحدهما أنه لترتيب تلك الأحوال فى الزمان . والمعنى أنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم ، وبعد ذلك يشربون الحميم . والثانى أنه لترتيب مضاعفة العذاب ؛ فالمعنى أنّ شربهم للحميم أشـــدُّ مما ذكر قبله .

(شَـكْلِهِ[1]) ؛ أى مثله ونوعه . والمعنى أن الله تعالى نوّع على أهل النار أنواعا من العذاب .

(شَرَعَ[2] لَـكُمْ من الدين) : قد قدمنا أنّ الله تعالى فتح لنا بالدين الذى هو التوحيد والإيمان برسله وكتبه والدار الآخرة .

(شَرِيعةٍ[3] من الأمر) ؛ أى ملّة ودين .

(شَطْأَه[4]) : قد قدمنا أنها فراخ السنبلة التى تَنْبت حول الأصول . ويقال بإسكان الطاء وفتحها دون مد ، وفتحها مع المد ؛ وهى لغات .

(شَدِيدُ[5] القُوَى) : هو جبريل . وقيل الله تعالى . والأول أرجح ؛ لقوله : ذِى قُوَّة عند العرش . والقُوَى جمع قُوّة .

(شَوى[6]) : أطراف الجسد . وقيل : جلد الرأس . والمعنى أنّ النار تنزعها ثم تعاد .

(شرابا[7] طهورا) ؛ أى ليس بِنَجس كخمر الدنيا . وقيل معناه أنه لم تَعْصِرهُ الأقدام ، وقيل معناه : لا يصير أذى .

(شامخات[8]) ؛ أى مرتفعات . ومنه يقال : شمخ بأنفه .

---

(١) ص : ٥٨ (٢) الشورى : ١٣ ، وشرع : سن . (٣) الجاثية : ١٨
(٤) الفتح : ٢٩ (٥) النجم : ٥ (٦) المعارج (١٦) : نزاعة الشوى .
(٧) الانسان : ٢١ (٨) المرسلات : ٢٧

(شَفَق(١)) : الحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس . وقال أبو حنيفة : هو البياض . وقيل : هو النهار كلّه . وهذا ضعيف ، والأول هو المعروف عند الفقهاء ، وأهل اللغة .

(شَاهِد(٢) ومَشْهود) : يحتمل الشاهد أن يكون من الشهادة على الأمر ، أو يكون من معنى الحضور ، وحذف المعمول ؛ وتقديره مشهود عليه ، أو مشهود به ، أو مشهود فيه .

وقد اضطرب الناسُ في تفسير الشاهد والمشهود اضطرابا عظيما ؛ وتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولا ، يقابِلُها في المشهود اثنان وثلاثون قَوْلا :

قيل الشاهد هو الله تعالى ، لقوله(٣) : « وكفى بالله شهيدا » والمشهود على هذا يحتمل ثلاثة أقوال : أحدها أن يكون الخلق ، بمعنى أنه يشهد فيه ، أي يحضر للحساب والجزاء ، أو تقع فيه الشهادة على الناس .

وقيل إن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله(٤) : « ويكون الرسولُ عليكم شَهِيداً » . والمشهود على هذا يحتمل أن يكون أمته ؛ لأنه يشهد عليهم ، أو أعمالهم ؛ لأنه يشهد بها ، أو يوم القيامة ؛ لأنّه يَشْهَدُ فيه ؛ أي يَحْضر ؛ أو تَقَع فيه الشهادة على الأمة .

وقيل الشاهد أمّة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله(٥) : « وتكونوا شُهَدَاءَ على الناس » . والمشهود على هذا سائر الأمم ؛ لأنهم يشهدون عليهم ، أو أعمالهم ، أو يوم القيامة .

---

(١) الانشقاق : ١٦ (٢) البروج :
(٤) البقرة ١٤٣ (٥) الحج : ٧٨

وقيل الشاهد عيسى عليه السلام ، والمشهود أمته ؛ لقوله[1] : « وكُنْتُ عليهم شهيداً ما دُمْتُ فيهم » . أو أعمالهم ، أو يوم القيامة .

وقيل إن الشاهد جميع الأنبياء ، والمشهود [٢٦٩] أممهم ؛ لأن كل نبيّ يشهد على أمته ، أو يشهد بأعمالهم ، أو يوم القيامة لأنه يشهد فيه .

وقيل إن الشاهد الملائكة الحَفَظة . والمشهود على هذا أعمال الناس ؛ لأن الملائكة يشهدون بها ، أو يوم القيامة ، أو صلاة الصبح ؛ لقوله[2] : « إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً » .

وقيل إن الشاهد جميعُ الناس ؛ لأنهم يشهدون يوم القيامة ؛ لقوله[3] : « وذلك يوم مشهود » .

وقيل : الشاهد الجوارح ، والمشهود عليه أصحابُها ، لقوله[4] : « يوم تَشْهَدُ عليهم أَلْسِنَتُهم ... » الآية ؛ أو الأعمال ؛ لأن الجوارح تشهد بها ، أو يوم القيامة لأن الشهادة تقع فيه .

وقيل الشاهد الله والملائكة وأولو العلم ، لقوله تعالى[5] : « شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم » . والمشهود به الوحدانية .

وقيل الشاهد جميع المخلوقات . والمشهود به وجودُ خالقها ، وإثباتُ صفاتها من الحياة والقدرة وغير ذلك .

وقيل الشاهد النجم ؛ لما ورد في الحديث : لا صلاةَ بعد العصر حتى يطلعَ الشاهد ، وهو النجم . والمشهود على هذا الليلُ والنهار ؛ لأنَّ النجم يشهد بانقضاء النهار ودخولِ الليل .

---

(١) المائدة : ١١٧ (٢) الإسراء : ٧٨ (٣) هود : ١٠٣
(٤) النور : ٢٤ (٥) آل عمران : ١٨

وقيل الشاهد الحجَر الأسود . والمشهود الناس الذين يحجون ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عَرفة ؛ وذلكَ لأنّ يوم الجمعة يشهد بالأعمال ، ويوم عرَفة يشهده جمع عظيم من الناس .

وقيل الشاهد يوم عرفة . والمشهود يوم النحر .

وقيل الشاهد يوم التَّرْوِيَة . والمشهود يوم عَرفة .

وقيل الشاهد يوم الاثنين . والمشهود يوم الجمعة .

(شَفْع) : يعنى ثنى ؛ وأما قوله تعالى[1] : « والشَّفْع والوَتْر » فقد كثرت فيه الأقاويل . وفى الحديث إن الشفع يوم النحر ، والوَتْر يوم عرفة ؛ وذلك لأن يوم النحر عاشر ، فعَدَدُهُ شَفْع ، ويوم عرفة تاسع ، فعَدَدُه وَتْر .

وروى عنه عليه السلام أنها الصلوات ؛ منها[2] شَفْع ووتر . وقيل الشفع التنفل بالصلاة مَثْنَى مَثْنَى ، والوَتْر : الركعة الواحدة المعروفة . وقيل الشفع : العالم ، والوتر الله ؛ لأنه واحد . وقيل الشفع آدم وحواء ، والوَتْر الله تعالى . وقيل الشفع الصفا والمروة ، والوَتْر البيت الحرام . وقيل الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية ، والوتر أبواب النار ؛ لأنها سبعة ، وقيل الشفع قِرَان[3] الحج والوتر إفراده وقيل المراد الأعداد منها شَفْع ووتر ؛ فهذه عشرة أقوال . وقيل الشفع الصلوات ، والوتر المغرب . وقيل الشفع رجب وشعبان ، والوتر رمضان . وقيل الشَّفْع صفات الخَلْق كالعجز والقُدْرة ، والعلم والجهل ، والعزّ والذلّ . وقيل الشَّفع ما يتكرر من الفرائض ؛ كالصلاة ، والصوم . والوَتْر : ما لا يتكرر .

---

(١) الفجر : ٣

(٢) الشفع : خلاف الوتر ، وهو الزوج . وشفعت الركعة جعلتها ثنتين .

(٣) قرن بين الحج والعمرة : جمع بينهما فى الإحرام ، والاسم القران .

وقرىء الوتر بفتح الواو وكسرها ، وهما لغتان .

(شُرَّعًا)[1] ، بضم الشين : ظاهرة قريبةمنهم . يقال شرع منا فلان ، إذا دنا ؛ وقِصّتُهم أن الله تعالى أكرم موسى عليه السلام بوم السبت ، وأمره أنْ يأمر بنى إسرائيل بتعظيمه ، ولا يشغلوا بشىء من أحوال الدنيا ، وكانت بلدة يقال لها أيْلَة ، وكان أهلها صيّادين يصطادون السمك ، فأرسل اللهُ تعالى إليهم داود عليه السلام ، وأمره أنْ يمنع الصيادين عن صَيْدِ السمك فى يوم السبت ، وأباح لهم فى سائر الأيام ، فبلَّغَ داودُ عليه السلام رسالةَ ربه ، فلم يقبل اليهود ، فابتلاهم اللهُ تعالى ، فكانت تدخل سمكُ جميع الأبحر فى بَحْرِهم يوم السبت ، ولا تدخل فى سائر الأيام سمكةٌ قط ، فوقع القحطُ والغلاء ، وسلّط الله عليهم الجوع ، فاضطروا فحفروا حياضا وأنهارا ، وأسالوا الماءَ من الأنهار فى الحياض يوم السبت ، فإذا رأوا امتلاءَ الحياض ألقَوْا شباكهم يوم الجمعة بعد العصر ، وأخرجوها يوم الأحد ، فيأكلون ويبيعون ؛ فنصحهم العلماء والحكماء الزّهاد بالكف عن صيدهم ، فلم يمتنعوا [١٢٧٠] . فلما لم يسمعوا مواعظهم خرجوا مِنْ ديارهم كى لا يعاقَبُوا معهم ، فلما أراد الله عقوبتهم بعد إمهالهم سنتين أرسل إليهم رسولاً لينصحهم ويعظهم ، فلم يتعظوا ، فيوما من الأيام دخل العلماء فى البلدة فلم يروا فيها أحدا من [الناس][2] ، ففتحوا أبوابَ البيوت ، ودخلوا فرأوا الذكور والإناث كلّهم قد مسخوا قردة ؛ قال تعالى[3] : «فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به . . .» الآية ، والإشارة فيه كأن الله تعالى يقول : مَنِ احتال فى صيد السمك جزاؤه أنْ أحوّل صورته قِرَدة ، فكيف بمن احتال فى تحليل ما حرّمتُ من خمر وربا ؛

---

(١) الأعراف : ١٦٣ (٢) مكانها بياض بالأصلين .

(٣) الأنعام : ٤٤

أفلا يخاف من تحويل صورته وإن رفع الله مَسْخَ الظاهر ببركة سيدنا ومولانا محمد الظاهر ؛ فإنَّ مَسْخَ البواطن معلوم كما هو مشاهَدٌ فى الشُّرط والجلاوزة[1] وشبههم ؛ تراهم طولَ يومهم يروّعون الناس ، ويغضبون فى وجوههم ؛ فهؤلاء مُسخوا على صورة الكلاب ، ومنهم على صورة الخنازير ؛ وهم أهل القذارة والبلادة ، وهكذا تتبع بنظرك صفةَ كل شخص فى خُلُقه تستدلُّ بذلك على مسخ قلبه ما هو . وقد يبقى متحيِّراً لا مَسْخَ فى قلبه ، إلا أن قلبه قد مات ؛ وقد أخبر بذلك الصادقُ المصدوق فى قوله : يأتى على الناس زمان يموت فيه قَلْبُ المرء كما يموت بَدَنُه ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم : لأن القلب إذا لم تبق فيه تلك الحرارةُ الغريزية حتى يَفْقِـــده مصالحَه فهو ميت ، وقد يكون موته حقيقيا . والله أعلم .

والقدرةُ صالحة أن يكون حسيّا أو معنويا ؛ فإنه إذا لم ينتفع بقلبه فى النوع الذى أريد منه ، وتوالَتْ عليه الشهواتُ حتى لا يرَى إلا هى ، فذلك موْتُه ؛ لأن الفائدة التى فى حياة القلب معدومة منه ؛ ولذلك شبَّه صلى الله عليه وسلم الذاكر به بالحىّ ، والغافل بالميت ؛ واحتمل أن يكون موته حسيّا حيث شاء الله كما ييبس عُضْوٌ من أعضاء الشخص مثل يَده أو رِجْله أو غيره من الجوارح، وباقى بَدَنه صحيح القُدْرة صالح .

وقد ذكر بعض شُراح البخارى عن بعض مَنْ سمع الحديث : أما يخشى الذى يرفع رَأْسه قبل الإمام فى الصلاة أن يحوِّل الله رأسه رَأْسَ حمار ! فاستَهْوَنَه ، ورفع رأسه امتحانا بما صحّ عن الصادق المصدوق ، فحوَّل اللهُ رَأْسَه رَأْسَ حمار، وصار عجبا ينظر إليه .

---

(١) الجلاوزة : الجلواز الشرطى .

فإن قلت : قد صح أنه صلى الله عليه وسلم أمانٌ من المسخ ، فكيف يمسخ هذا ؟ وما معنى الحديث ؟

فالجواب : أنَّ معناه تحويل بعض الأجزاء من الإنسان لا مَسْخه كلّه ، وهَبْكَ أنه مُسخ كله فهو أمان فى الغالب وفى جميع الأمة ، وأما فى بعض الأفراد فممكن والله أعلم . وإذا تأمّلتَ إخبارَ الله لرسوله فى أصحاب السبت فى مواضع تَجد ذلك تحريضا وتأكيداً لنهى عن ارتكاب ما حرّم الله ورسوله ، أوّلها قوله[1] : « إنما جُعِل السَّبْتُ على الذين اختلَفُوا فيه » . « ولقد[2] علمتُم الذينَ اعتَدَوْا منكُم فى السَّبت » . « أو نَلْعَنَهُمْ[3] كما لعَنّا أصحابَ السَّبْت » . « قُلْنا[4] لهم : لا تَعدُوا فى السبت » « [5] واسألْهُمْ عن القريةِ التى كانَتْ حاضِرَةَ البحر ، إذ يَعْدُون فى السبت إذ تأتيهم حِيتانُهم يوم سَبْتِهِم شُرَّعاً ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم » .

وافترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق : فرقة عصت بالصيد يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت ، وفرقة سكتت واعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعص ؛ وإن هذه الفرقة لما رأت مهاجرةَ الناهية وطغيان العاصية قالوا للفرقة الناهية : لم تَعِظُونَ قوما يُريد اللهُ أنْ يُهلكهم أو يعذبهم ؟ فقالت الناهية : نهاهم معذرة إلى الله ، ولعلهم يتقون ؛ فهلكت الفرقةُ العاصية ، ونَجَت الناهية ، واختلف فى الثالثة ؛ هل هلكت لسكوتها أو نجت لاعتزالها وتركها العصيان ؟

فانظر يا محمدى ، كيف يكون حالُك لولا أنّ الله مَنَّ عليك بنبى كريم شفع لك وفيك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : حياتى خير لكم ومماتى خير لكم ؛

---

(١) النحل : ١٢٤ (٢) البقرة : ٦٥ (٣) النساء : ٤٧
(٤) النساء : ١٥٤ (٥) الأعراف : ١٦٣

أمّا حياتى فأسنُّ لكم وأشرع لكم الشرائع ، وأما مماتى فإن ذنوبكم تُعرَضُ علىّ ، فما كان منها سيئًا استغفرتُ اللهُ لكم ، فأكثِرْ [٢٧٠ب] من الصلاة عليه صلى الله عليه وعلى آله فى كل وقت وحين .

(شُقَّة[1]) : أى طريق ومسافة .

(شُعُوب[2]) جمع شَعب بفتح الشين ، وهو أعظم من القبيلة ، وتحته القبيلة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ؛ وهم القرابة الأَدْنَون ؛ فمُضَر وربيعة وأمثالها شعوب ، وقريش قبيلة ، وبنو عبد مناف ، وبنو هاشم فخذ — ويقال بإسكان الخاء فَرْقًا بينه وبين الجارحة ، وبنو عبد المطلب فصيلة . وقيل الشعوب فى العجم والقبائل فى العرب ، والأسباط فى بنى إسرائيل .

(شُوَاظ[3]) : لهب نار . وقرىء بكسر الشين ، وهما لغتان .

(شُهُب[4]) : جمع شهاب ، وهو كل متوقد مضىء .

فإن قلت : ما فائدة تكريره فى سورة الجن[4] فى موضع واحد ؟

والجواب : أنه كرره لاختلاف اللفظ ، ووصف الحرس بالشديد ، وهو مفرد ؛ لأنه يحتمل أن يُريد به الملائكة الحراس أو النجوم الحارسة .

(شيث) : ولد آدم عليه السلام .

(شية) ، وهو فى اللغة الأبيض الرأس ، وقوله تعالى : «[5] لا شِيَةَ » ، أى لا لون فيها غير الصفرة ، وهو من وَشَى ، ففاؤه واو محذوفة كعدة .

(شِقَاق[6]) : عداوة وقصد المخالفة . وقد قدمنا أن تنكير العزة والشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقم الكفار فيهما .

---

(١) التوبة (٤٢) : ولكن بعدت عليهم الشقة . (٢) الحجرات (١٣) : شعوبا .

(٣) الرحمن : ٣٥ (٤) فى الجن (٨ ، ٩) : حرسا شديدا وشهبا . فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا .

(٥) البقرة : ٧١ (٦) ص : ٢

(شِرْعَةً[١]) : أي شريعة يتبعونها ، وقد استدل بها من قال إن شريعة مَن قبلنا في الفروع ليست شرعا لنا . وقيل الشرعة معناها ابتداء الطريق .

(شِيَعًا[٢]) : جمع شيعة ، أي متفرقين ، كل فرقة تتشيّع لمذهبها .

وقوله[٣] : « في شِيَعِ الأوّلين » ، أي أمم الأولين .

(شِقِّ[٤] الأنفس) : أي مشقتها .

(شِرْذِمة[٥]) : أي طائفة من الناس ، وفي هذا احتقار لهم ، على أنا قدمنا أنهم كانوا ستمائة ألف ، ولكن جنود فرعون أكثر منهم بكثير .

(شِرْب[٦]) : نصيب .

(شِيعَته[٧]) : أعوانه ، مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذي يُشعل به النار ويعين الحطب الكبار على اتقاد النار . وقيل الشيعة الأتباع من قولهم : شاعك كذا وكذا إذا اتبعك .

(شِعْرَى[٨]) : نجم في السماء ، ويسمى كلب الجبار ، وهما شِعْريان : الغُمَيْصاء ، والعَبُور . وقد قدمنا تخصيصهما بالذكر لعبادة بعض العرب لها .

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) الأنعام ٦٥ ، ١٥٩ ، والقصص ٤ ، والروم ٣٢

(٣) الحجر : ١٠ (٤) النحل : ٧ (٥) الشعراء : ٥٤

(٦) الشعراء ١٥٥ ، والقمر: ٢٨ (٧) القصص ١٥ ، والصافات : ٨٣

(٨) النجم : ٤٩

حرف الهاء

(هارون[1]) : شقيق موسى. وقيل لأمه فقط ؛ حكاها الكرمانى فى عجائبه . كان أطول منه، فصيحا جداً ، مات قبل موسى، وكان وُلد قبله بسنة . وفى بعض أحاديث الإسراء : صعدت فيه إلى السماء الخامسة ، فإذا أنا بهارون ونصفُ لحيته بيضاء ونصفها أسود ، تكاد لحيته تضرب سُرّته من طولها . فقلت : يا جبريل، مَنْ هذا ؟ قال : المحب فى قومه هارون بن عمران . وذكر ابن مسكويه أن معنى هارون بالعبرانية المحب .

وقال ابن عباس : إنما سمى موسى لأنه أُلقى بين شجر وماء ، فالماء بالقبطية مُو ، والشجر سا . وفى الصحيح أنه وصفه بآدم طوال .

فإن قلت : ما فائدة لُقْيَاه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ وهل كان لقاؤه لأرواحهم ؟ أو للأجساد مع الأرواح ؟

فالجواب أن الله أسرى بأجسادهم ليراهم صلى الله عليه وسلم ، ويؤم بهم ، ويتشرفون برؤيته . ولما رأوا فَضْلَه وتَعْظيمَه فى كتبهم طلبوا من الله أنْ يُريهم وجهه الكريم ، ولهذا طلب موسى وعيسى أن يكونا من أمته .

(هود) : له معنيان : بمعنى اليهود ، ومنه : «كانوا[2] هُوداً» ، وهاد يهود فى اللغة إذا تاب. «[3]والّذِين هَادُوا» ، أى تهودوا ، وصاروا يهودا، من قوله : «[4]هُدْنَا إليكَ» .

---

(١) البقرة ٢٤٨ ، وغيرها . (٢) البقرة : ١١١ (٣) البقرة : ٦٢

(٤) الأعراف : ١٥٦

وهود : اسمُ نبي قَوْم عاد ، كان أشبهَ الناس بآدم . وقال ابن مسعود : كان رجلا جَلْدا . أخرجه في المستدرك . وقال ابن هشام : اسمه عابر بن أرفخشد ابن سام بن نوح . وقال غيره : الراجح أنه هود بن عبد الله بن رباح بن داود ابن عاد بن عوص بن آدم بن سام بن نوح . قال الجواليقي[1] : هود : اليهود ، أعجمي . وحكى شيذلة وغيره أن معنى « هُدْنا إليك » تُبْنا إليك ـ بالعبرانية .

(هَدْى[2]) ، بالهاء مفتوحة وإسكان الدال : ما يُهْدَى إلى الكعبة من البهائم ، واحدته هَدْى وهَدْيَة .

(هاجروا[3]) : تركوا بلادهم وأموالهم حبًّا لله ورسوله . وفي الحديث : المهاجِرُ مَنْ هجر ما نهى الله عنه .

(هارٍ[4]) : مقلوب من هائر ، أي ساقط ، يقال هار البناء وانهار وتَهَوَّر : سقط .

(هَمَّت[5] طائفةٌ منهم أنْ يُضِلُّوك) : هم الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم [أن يُبَرِّئوا][6] ابنَ الأُبَيْرِق من السرقة ، وهذه الآياتُ وإن كانت إنما نزلت بسبب سرقة لبعض الأنصار فهِيَ أيضا تتضمن أحكاماً غيرها .

(هَيْتَ لك[7]) ، أي هَلُمَّ بالنبطية . وقال الحسن : هي بالسريانية . وقال عكرمة : بالحورانية . وقال أبو زيد الأنصاري : هي بالعبرانية ، وأصلها هيتلج ؛ أي تعاله . وقرىء بفتح الهاء وضمها وكسرها . والمعنى في ذلك كلّه واحد ، وحركة التاء للبناء .

---

(١) المعرب : ٣٥٠ : أعجمي معرب . (٢) البقرة ١٩٦ ، وغيرها
(٣) البقرة : ٢١٨ وغيرها . (٤) التوبة : ١٠٩ (٥) النساء : ١١٣
(٦) مكان ما بين القوسين بياض في الأصلين . (٧) يوسف : ٢٣

وأما من قرأه بالهمز فهو فعل من تهيأت ؛ كقولك : جئت .

لما قالت له هلم أنا لك وأنت لي ؛ فقال لها يوسف : أنت زوجك وأنا لربي .

وكذلك أنت يا محمدي يدعي إبليس أمك له ليدخلك معه في النار ، فيقول : تعال ، أنت للنار وهو العزيز الجبار ، فعليك بشكر مولاك ، والرجوع إليه ، ليكون لك ؛ ألا ترى زليخا غلقت الأبواب كلها عليه لتصيب الخلوة معه ، فكذلك أنت غلق العلائق كلها من قلبك لتكون له خاصة ، ولا يقدر إبليس على الدخول فيه ؛ لأنه لا يدخل إلا بيتا ليس فيه حب المولى ! وأما البيت الذي هو مشغوف بخالقه ، فكيف يدخل فيه ، والله يقول : « إن[1] عبادي ليس لك عليهم سلطان » . وقال : [2]لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا » . ولا تغتر بحب ولي أو عالم ، وتطمع أن ينفع فيك أحد ؛ فإن سيد الأولين والآخرين لم يقدر على هداية أعمامه أو أحد من خدمه ؛ فكيف بغيره ؟ وإذا كنت معه سبحانه فلا يقدر إبليس على إغوائك .

(وهم بها) : الضمير لزليخا ، وقد أكثر الناس الكلام في هذه الآية وألفوا فيها تواليف ، فلا تأخذ منها ما ذكره بعضهم من حل تكته وقعوده بين رجليها وغيره ؛ بل همه بها إنما كانت خطرة له ولم يعزم ، بل أقلع في الحال حتى محاها من قلبه كما رأى برهان ربه .

وقد قدمنا أن البرهان كان أنه رأى في الحائط مكتوب : « ولا[3] تقربوا الزنى » . وقيل تكلم صبي في المهد : يا يوسف ، إن الله مطلع عليك وإن لم تره . وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على أنامله من الغضب . وقيل :

---

(١) الحجر : ٤٢ (٢) النور : ٢٧ (٣) الاسراء : ٣٢

إن زليخا سترَتْ صنماً لها بديباج ، فقال لها يوسف : لِمَ فعلت هذا ؟ فقالت : أنا أستحي منه . فقال : أنت تستحين من صنم لا عقل له ، فكيف لا أستحي أنا من خلقني ! وقيل غير هذا . والصحيح أن اللهَ عصمه من المخالفة ، واستغفر عما خطر له من الهم ، فكُتبت له حسنة .

ويقال : إن ثلاثة من الأنبياء رأوا ثلاثةَ أشياء ، فازداد لهم بها ثلاثة : أولهم إبراهيم رأى ملكوتَ السموات والأرض فازداد له يقينا . ويوسف رأى برهانَ ربه فازداد عصمةً . ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أراه الله الإسراءَ فازداد به رؤية المولى . قال تعالى : « ما كذَبَ الفؤَادُ ما رأى[1] » .

([2]هذا لله بِزَعْمِهم) ؛ أي بدعْوَاهم وقولهم من غير دليل ولا شَرْع . وأكثَرُ ما يقال الزَّعم في الكذب . وقرىء بضم الزاي وفتحها ، وهما لغتان . قال السهيلي : هم حيٌّ من خَوْلان يقال لهم الأديم كانوا يجعلون من زُروعهم وثمارهم ومن أنعامهم نصيبا لله ونصيبا لأصنامهم .

(هَوَاء[3]) - بالمد : منخرمة لا تَعِي شيئا من شدة الجزَع ، فشبهها بالهواء في تفرغه من الأشياء . ويحتمل أن يريد مضطربة في صدورهم ، وقد قدمنا قول[4] الزمخشري أن البيانيين يجعلونه استعارة ، وإنه إشارة إلى ذهاب أفئدتهم وعدم انتفاعهم بها .

وهوى النفس - بالقصر : ما تحبه وتميل إليه . ومنه : « ونَهَى النَّفْسَ عن الهوَى[5] » . والفعل منه بكسر الواو في الماضي وفتحها في المضارع . وهَوَى

---

(١) النجم : ١١ (٢) الأنعام : ١٣٦ (٣) إبراهيم : ٤٣

(٤) الكشاف : ١ - ٥٠٨ (٥) النازعات : ٤٠

يَهْوِى ، بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع : وقع من علو . ويقال أيضاً بمعنى الميل . ومنه : « أفئدَةً[1] من الناسِ تَهْوِى إليهم » . والهواء ، بالمد والهمز : ما بين السماء والأرض .

(هؤلاء[2] وهؤلاء من عَطَاءِ رَبِّكَ) : الإشارة إلى الفريقين المتقدمين . والعطاء : هو رزق الدنيا . وقيل : من الطاعات لمن أراد الآخرة ، ومن المعاصى لمن أراد الدنيا . والأولُ أظهر .

(هَشِيما[3]) : متفتِّتا ، ومنه سمى الرجل ٢٧١ ب) هاشما .

(هَدًّا[4]) ؛ أى انهداما وسقوطا إلى أسفل ، وهو قَمْز جهنم .

(هَدَى[5]) ؛ أى هـــدَى خَلْقَهُ إلى التوصل إلى العلم والهداية ، فضلا منه وإحسانا .

(هَمْسا[6]) : هو الصوت الخفى ، ويعنى به صوت الأقدام إلى المحشر .

(هَضْما[7]) ؛ أى بَخْسا ونقصا لحسناته ، يقال هضمه واهتضمه ، إذا نقصه حقَّه .

([8]هاتُوا بُرْهَانَكم) : تعجيز لهم ، وهو من هاتَى يُهاتِى ، ولم يُنطق به . وقيل : أصله أتوا ، وأبدل من الهمزة هاء .

([9] هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلى) : ردٌّ على المشركين . والمعنى هذا الكتابُ الذى مَعِى والكتبُ التى من قبلى ليس فيها ما يقتضى الإشراكَ بالله تعالى ؛ بل كلُّها متفقةٌ على التوحيد .

---

(١) إبراهيم : ٣٧ (٢) الإسراء : ٢٠ (٣) الكهف : ٤٥
(٤) مريم : ٩٠ (٥) البقرة : ١٤٣ ، وغيرها . (٦) طه : ١٠٨
(٧) طه : ١١٢ (٨) البقرة : ١١١ ، وغيرها (٩) الأنبياء : ٢٤

(هذا[1] الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمنِ هم كافرون): لما كان الذكر بمدح وبذم ذكروا أن إبراهيم يذكر آلهتكم بالذم، دلت على ذلك قرينةُ الحال؛ وهم بذكر الرحمن في موضع الحال؛ أي كيف ينكرون ذمّك لآلهتهم وهم يكفرون بالرحمن؛ فهو أحقُّ بالملامة. وقيل: معنى بِذِكْرِ الرحمن تسمية بهذا الاسم، لأنهم أنكروها، والأول أغرق في ضلالهم.

(هذه[2] أُمَّتُكُم)؛ أي مِلَّتكم ملةٌ واحدة، وهذا خطاب للناس كافة أو المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(هامِدَةً[3]): يعني لانبات معها.

(هَمَزَاتِ[4] الشَّياطِين): يعني حركاتهم ونزغاتهم. وقيل جنونهم. والأول أعم.

(هَبَاءً[5]): هي الأجرام التي لا تظهر إلا حين تدخل الشمس على موضع ضَيِّق كالكوة. وقد قدمنا أنه النور المتفرق[6]، ومنه: «هَبَاءً مُنْبَثّاً[7]»؛ وهو ما سطع بين سنابك الخيل، من الهَبْوَة، وهي الغبار.

(هَوْناً[8]): رُوَيدا، يعني أنهم يمشون بحلم ووقار. ويحتمل أن يكون وصف أخلاقهم في جميع أحوالهم؛ وعبّر بالمشي على الأرض عن جميع تصرفهم وحياتهم.

(هَضِيم[9])؛ أي لين رطب. يعني أن طَلْعها يتمر ويرطب.

---

(١) الأنبياء: ٣٦ (٢) الأنبياء: ٩٢ (٣) الحج: ٥

(٤) المؤمنون: ٩٧ (٥) الفرقان: ٢٣، الواقعة ٦

(٦) في القرطبي: قال مجاهد: الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار.

(٧) الواقعة: ٦ (٨) الفرقان: ٦٣ (٩) الشعراء: ١٤٨

(هؤلاء[1] الذين أغوَينا) : الإشارة إلى أتباعهم من الضعفاء .

فإن قلت : كيف الجمع بين قولهم : « أغويناهم » وبين قولهم : «[1] تبرّأنا إليك » ، فإنهم اعترفوا بإغوائهم وتبرءوا مع ذلك منهم ؟

فالجواب أن إغواءهم لهم هو قولهم لهم بالشرك . والمعنى إنا حملناهم على الشِّرك كما حملنا أنفسنا عليه ، ولكن لم يكونوا يعبدوننا ؛ وإنما كان يعبدون غيرهم من الأصنام وغيرها ، فتبرأنا إليكَ عن عبادتهم لنا ؛ فتحصّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغوَوا الضعفاء ، وتبرّءوا من أن يكونوا م آلهتهم ؛ فلا تناقض في الكلام . وقد قيل في الآية غير هذا مما هو تكلّف بعيد .

(هل[2] لكم مِمّا ملكَتْ أيمانُكم) : هذا مثل مضروب ، معناه أنكم أيها الناس لا يشارِككم عبيدُكم في أموالكم ، ولا يستَوُون معكم في أحوالكم ، فكذلك الله لا يشارِكه عَبِيدُه في مُلْكه ، ولا يماثِلُه أحد في ربوبيته . فذكر حرف الاستفهام ، ومعناه التقرير على النفي ، ودخل فيه قوله[2] : « فأنتم فيه سَوَاءٌ تخافُونَهم كخِيفَتِكم أنفُسَكم » ؛ أي لستم فيه سواء مع عبيدكم ، ولستم تخافونهم كما تخافُونَ الأحرار مثلكم ، لأن العبيد عندكم أقل من ذلك .

(هَلُمَّ[3] إلينا) هذا من قول المنافقين الذين قعدوا بالمدينة عن الجهاد ، كانوا يقولون لقرابتهم وأخِلاّئهم من المنافقين : هَلُمَّ إلى الجلوس معنا بالمدينة وترْك القتال .

(هل[4] يَنْظُرونَ إلاَّ تأويلَه) ؛ أي عاقبة أمره وما يؤول إليه من ظهور ما نطق من الوَعْد والوعيد .

---

(١) القصص : ٦٣ (٢) الروم : ٢٨ (٣) الأحزاب : ١٨
(٤) الأعراف : ٥٣

(هل[1] أتاكَ نبأُ الخصمِ) : جاءت هذه القصةُ بلفظ الاستفهام تنبيها للمخاطب ودلالةً على أنها من الأخبار العجيبة التي ينبغي أنْ يلقى البال لها .

(هذا[2] أخي له تِسعٌ وتسعون نَعْجَةً) : هـذا من حكاية كلامِ أحدِ الخصمين . والأخوة هنا أخوة الدين . ومنه الحديث : إذا ضرب أحـدكم أخاه فليجتنب الوَجْه .

والنَّعْجَة تقعُ في اللغة على أنثى بَقر الوحش ، وعلى أنثى الضأن ؛ وهي هنا عبارة عن المرأة ، وكأنه لم يُرِد الإفصاح بقصة داود مع امرأة أوريا ، وإنما ضرب له المثل لينتبه . « هذا » ذكر الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذِكرِ الأنبياء وقيل الإشارة إلى القرآن بجملته .

والأول أظهر ، فكأن قوله «هذا» ذِكرٌ ختام للكلام المتقدم ، ثم شرع بعده في كلامٍ آخر كما يتم المؤلف بابا ثم يقول هذا باب ، ثم يشرع في آخر .

(هذا ، وإن[3] للطَّاغين لشَرَّ مَآب) تقديره : الأمرُ هذا . لما تم ذِكْرُ أهل الجنة ختمه بقوله : هذا ، ثم ابتدأ وَصفَ أهل النار ، ويعني بالطَّاغِينَ الكفار .

(هذا[4] فليَذُوقوه حَمِيمٌ) : هذا مبتـــــدأ وخبره حميم ، وفليذوقوه اعتراض بينهما .

(هل[5] هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أو أرادني برحمةٍ هل هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِه) : هذه الآية تدل على وحدانية اللهِ وتَرُدُّ على المشركين في عبادتهم الأصنام.

---

(١) ص : ٢١ (٢) ص : ٢٣ (٣) ص : ٥٥ (٤) ص : ٥٧

(٥) الزمر : ٣٨

وسَبَبُها أنهم خوّفوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت الآيةُ مبينةً أنهم لا قدرة لهم .

فإن قلت : كيف قال كاشفات ومُمْسكات بالتأنيث ؟

فالجواب : أنها لا تعقل فعامَلَها معاملةَ المؤنث . وأيضا ففى تأنيثها تحقير لها وتهكُّم بمن عَبَدها .

(هَذِه[1] أبدا) : هو قَوْلُ الوليد بن المغيرة ، وأنكر بقوله أنْ يكونَ الله تفضَّل عليه . وهذا إنكار للبعث ، لقوله بعده : « وما[2] أظنُّ الساعةَ قائمة » . ومعناه إن بعثت على زعمكم فلى الجنة ، وهذا تَخَرُّص وتكبرٌ من الوليد .

(هذه الأنهارُ[3] تجْرِي مِنْ تَحْتِي) : هذا من قول فرعون ، ويعنى بالأنهار الخلجان الكبار الخارجة من تحت النيل ، وكانت تجرى تحت قُصوره . وقد قدمنا أنها أنهار[4] الإسكندرية ودمياط وتنيس ، وطولون .

(هذا[5] إفْكٌ قَدِيم) : هذا من قول مَنْ لم يَهْتَدِ بالقرآن، ووصفوه بالقِدَم لأنه قد قيل قديما .

فإن قلت : كيف عَمِل « فسيقُولون » فى « إذ » وهى للماضى ، والعامل مستقبل ؟

فالجواب أنَّ العامل فى إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به من عِنادهم فسيقولون ؛ قال[6] ذلك الزمخشرى . ويظهر لى أنَّ إذ هنا بمعنى التعليل فى القرآن

---

(١) الكهف : ٣٥ (٢) الكهف : ٣٦ (٣) الزخرف ٥١

(٤) فى القرطبى (١٦ ـ ٩٨) : يعنى أنهار النيل ، ومعظمها أربعة : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس . (٥) الأحقاف : ١١ (٦) الكشاف : ٢ـ٣٧٠

وفى كلام العرب ، ومنه : « ولن[1] يَنْفَعكم اليومَ إذْ ظَلَمتم » .

(هل[2] عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُم أن تُفْسِدُوا فى الأرض وتُقَطِّعُوا أرْحامَكم) : خاطب بهذا المنافقين المذكورين ، وخرج من الغيبة إلى الخطاب ، ليكون أبلغ فى التوبيخ ، ومعناها هل يُتَوقَّع منكم إلا فسادٌ فى الأرض ، وقَطْعُ الأرحام . إنْ توليتم ؛ أى صِرتم ولاةً على الناس ، وصار الأمرُ لكم ؛ وعلى هذا قيل : إنها نزلت فى بنى أمية . وقيل معناه : أعرضتم عن الإسلام .

(ها أنتم[3] هؤلاء) : منصوب على التخصيص ، أو منادى : ناداهم إلى الإيمان بالله والإنفاق فى سبيله .

(هذا[4] ما لدَىَّ عَتِيد) : قد قدمنا أنه مِنْ قول القَرين ؛ ومعناه هذا الإنسان حاضر لدىّ قد أعتدْتُه ويسَّرْته لجهنم .

(هل[5] مِنْ مزيد) : اختلف هل تتكلم جهنم بهذا ، أو مجاز بلسان الحال . والأظهر أنه حقيقة ؛ وذلك على الله يسير ، ومعنى طلب زيادتها أنها لم تمتلىء . وقيل معناه لا مزيد ؛ أى ليس عندى موضع الزيادة ؛ فهى على هذا قد امتلأت . والأول أظهر وأرجح ، لما ورد فى الحديث : لا تزال جهنم يُلْقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضع الجبّار فيها قدَمه ؛ أى خَلْقاً سماه القدم ، أو قدرته ؛ لأن الجارحة تستحيل فى حق الله سبحانه . وقيل : إن الخطاب من خزَنتها . والمزيدُ يحتمل أن يكون مَصْدراً كالمحيض ، أو اسم مفعول ؛ فإن كان مصدرا فوَزْنُه مفعل ، وإن كان اسم مفعول فوزنه مفعول .

(هذا[6] ما تُوعدون لكل أوّابٍ حفيظ) : هذا من كلام الله يحتمل أن

---

(١) الزخرف : ٣٩ (٢) محمد : ٢٢ (٣) محمد : ٣٨ (٤) ق : ٢٣
(٥) ق : ٣٠ (٦) ق : ٣٢

يقوله لأهل الجنة عند إزلافها[1] ، كما قال في الآية الأخرى : « هذا[2] يومكم الذي كنتُم تُوعَدُون » . ويحتمل أن يكون خطابا لهذه الأُمّة .

والأوّاب الحفيظ : هو الذي يمتثل أمْرَ الله ، ويترك نَوَاهيه .

(هل[3] أتاكَ حديثُ ضَيْفِ إبراهيمَ المُكرَمين): المراد بهذا الاستفهام التفخيم والتهويل ؛ ووصفهم بالمُكرَمين لأن الملائكة مكرمون ، أو لأنه خدمهم بنفسه أو أخْدَمهم امرأته .

(هذا[4] نَذِير من النُّذُر الأُولى) : قد قدمنا أنّ الإشارةَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حرف النون .

(همّاز[5]) : هو الذي [٢٧٢ ب] يعيبُ الناسَ . وأصل الهمز الغَمْز . وقيل لبعض العرب : الفأرة تُهمز ؟ فقال : السنور يهمزها .

(هل[6] ترى لهم مِنْ باقِيَة) ، أي من بقية . وقيل : من فئة باقية . وقيل : إنه مصدر بمعنى البقاء .

(هاؤم[7] اقرءُوا كِتَابِيَه) : هاؤم اسم فعل . قال ابن عطية : تعالوا . وقال الزمخشري[8] : هو صوت يُفْهم منه معنى خذْ . وكتابيه مفعول يطلبه هاؤم ، واقرءُوا من طريق المعنى ، تقديره هاؤم كتابي اقرءوا كتابي ، ثم حذف الأول لدلالة الأخير عليه ، وعمل فيه العاملُ الثاني ، وهو اقرءوا عند البصريين . والعاملُ الأول وهو هاؤم عند الكوفيين . والدليلُ على صحة قول البصريين أنه لو أعمل الأول لقال اقرءوه . والهاء في كتابيه للوقف ، وكذلك في حسابيه ، وماليه ،

---

(١) في الآية (٣١) قبلها : وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . (٢) الأنبياء : ١٠٣

(٣) الذاريات : ٢٤ (٤) النجم : ٥٦ (٥) القلم : ١١ (٦) الحاقة : ٨

(٧) الحاقة : ١٩ (٨) الكشاف : ٢ ، ٤٨٦

وسلطانيه ؛ وكان الأصل أنْ تسقط في الوصل لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف . وقد أسقطها في الوصل بعضهم . ومعنى الآية أن العبد الذي يُعْطَى كتابه بيمنه يقول للناس : اقرَءُوا كتابيه على وجه الاستبشار والسرور بكتابه .

(هلك[1] عني سُلطانيه) : هذا مِنْ قول الشقيّ ، يقول : زال عني ملكي وقُدْرتي حين يعايِنُ العذابَ . وقيل : ذهبت عني حُجَّتي . ومنه قوله[2] : « ما أنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطان » .

(هَلُوعا[3]) : قد فسره ، وهو قوله : « إذَا مَسَّهُ الشرُّ جزُوعا ، وإذا مَسَّهُ الخير مَنُوعا » . وذكر الله ذلك على وَجْه الذم لهذا الخلق ، ولذلك استثنى منه المُصَلِّين ؛ لأن صلاتهم تحُضُّهم على قلة الاكتراث بالدنيا ، فلا يجزعون من شرّها ولا يبخلون بخيرها .

(هَزْل[4]) : لعب ولهو ، يعني أن هذا القرآن جِدٌّ كلُّه لا هَزْلَ فيه .

(هُدًى[5]) ، بضم الهاء : لأربعة وعشرون وجها :

بمعنى الثبات : « اهدِنا[6] الصراطَ المستقيم » . والبيان : « أولئك[7] على هُدًى من ربهم » . والدين : « إنَّ[8] الهُدَى هُدَى الله » . والإيمان : « ويزيد[9] اللهُ الذين اهتدوا هدى » . والدعاء : «ولكلِّ[10] قوم هاد » . « وجعلناهم[11] أئمةً يَهْدُون بأمْرِنا » . وبمعنى الرسل والكتاب : « فإمَّا[12] يأتِيَنَّكم مني هُدًى» . والمعرفة : « وبالنجم[13] هم يَهْتَدُون » . والنبي صلى الله

---

(١) الحاقة : ٢٩ (٢) يوسف : ٤٠ (٣) المعارج : ١٩

(٤) الطارق (١٤) : وما هو بالهزل . (٥) آل عمران ٤ ، وغيرها .

(٦) الفاتحة : ٦ (٧) لقمان : ٥ (٨) آل عمران : ٧٣ (٩) مريم : ٧٦

(١٠) الرعد : ٧ (١١) الأنبياء : ٧٣ (١٢) طه : ١٢٣ (١٣) النحل : ١٦

عليه وسلم : « إن[1] الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » . وبمعنى القرآن[2] : «ولقد جاءهم من ربهم الهدى» . والتوراة : «ولقد[3] آتينا موسى الهدى» . والاسترجاع[4] : «أولئك هم المهتدون» . والحجة : «[5] ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم » . ثم قال بعده : « والله[5] لا يهدى القوم الظالمين » ، أى لا يهديهم حجة . والتوحيد : « نتبع[6] الهدى معك نتخطف من أرضنا » . والسنة : « فبهداهم[7] اقتده» . « وإنا[8] على آثارهم مهتدون» . والإصلاح «أن[9] الله لا يهدى كيد الخائنين» . والإلهام: «أعطى[10] كل شيء خلقه ثم هدى» ، أى ألهم المعاش. والتوبة : «إنا هدنا[11] إليك» . والإرشاد : «أن[12] يهدينى سواء السبيل » .

(هون[13]) : هوان وذلة .

(هجر[14]) : من الهجران . وبمعنى الهجر أيضا، وهو فحش الكلام، وقد يقال فى هذا أهجر بالألف .

(هم[15] نجوى) الإشارة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يعنى أنهم جماعة يتناجون ، فأخبر الله أنه يعلم ما يتناجون به .

(هنالك[16] الولاية لله الحق): ظرف يحتمل أن يكون العامل فيه منتصرا، أو يكون فى موضع خبر الولاية ، وهى بكسر الواو بمعنى الرياسة والملك، وبفتحها من الموالاة والمودة .

(هدوا[17] إلى الطيب من القول): هو لا إله إلا الله محمد رسول الله ، واللفظ

---

(١) البقرة : ١٥٩ (٢) النجم : ٢٣ (٣) غافر : ٥٣ (٤) البقرة : ١٥٧
(٥) البقرة : ٢٥٨ (٦) القصص : ٥٧ (٧) الأنعام : ٩٠ (٨) الزخرف : ٢٢
(٩) يوسف : ٥٢ (١٠) طه : ٥٠ (١١) الأعراف : ١٥٦
(١٢) القصص : ٢٢ (١٣) الأنعام : ٩٣ ، الأحقاف ٢٠ (١٤) المزمل ١٠
(١٥) الإسراء : ٤٧ (١٦) الكهف : ٤٤ (١٧) الحج : ٢٤

أعمُّ من ذلك ، « وصراط الحميد » : صراط الله ؛ فالحميد : اسْم الله . ويحتمل أن يريد الصراط الحميد ، وأضاف الصفة إلى الموصوف ، كقوله : مسجد الجامع .

(هو[١] أُذُن) ، أي يسمع كلَّ ما يقال له ويصدِّقه ، وكانوا يُؤْذُون بهذا القول سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم .

(هُمَزَة[٢]) : هو على الجملة الذي يَعِيبُ الناس ويأكل أعراضهم ، واشتقاقُه من الهَمْز واللَّمْز ، وصيغة فُعَلة للمبالغة . واختلف في الفرق بين الكلمتين ، فقيل : الهَمْز في الحضور ، واللَّمْز في الغيبة ، وقيل بالعكس . وقيل الهمز بالعين واليد ، واللمز باللسان . وقيل هما سواء .

ونزلت السورةُ في الأخنس بن شَرِيق ؛ لأنه كان كثير الوقيعة في الناس ؛ ولفظُها مع ذلك على العموم في كلّ مَنِ اتّصف بهذه الصفات .

(الهاء) : اسم ضمير غائب يستعمل في الجر والنصب ، نحو[٣] : « قال له صاحبُه وهو يُحَاوِرُه » .

وحرف للغيبة ، وهو اللاحق لإيّا . والسكت ، نحو : « ما هِيَهْ[٤] » . « كِتَابِيَهْ[٥] » . « حِسَابِيَه[٦] » . «ماليه[٧]». «سُلْطَانِيَه[٨]» . « لم يَتَسَنَّهْ[٩] » وقرىء بهاء في أواخرها آي الجمع ، كما تقدم وقفا .

(ها) تَرِدُ اسمَ فعل بمعنى خذ ، ويجوز مَدُّ[١٠] ألفه فيتصرف حينئذ للمثنى والجمع ، نحو[١١] : « هاؤُم اقرءوا كتابيَه » . وَاسْمًا ضميرا للمؤنث ؛ نحو « فألهمَها[١٢] فجُورَها وتقواها » .

---

(١) التوبة : ٦١ (٢) الهمزة : ١ (٣) الكهف : ٣٧ (٤) القارعة : ١٠
(٥) الحاقة : ٢٥ (٦) الحاقة : ٢٦ (٧) الحاقة : ٢٨ (٨) الحاقة : ٢٩
(٩) البقرة : ٢٥٩ (١٠) في ا : حذف. (١١) الحاقة : ٢٥ (١٢) الشمس : ٨

وحرف تنبيه، فتدخل على[1] الإشارة ؛ نحو هؤلاء ، هاذان خصمان. هاهنا .
وعلى ضمير الرفع ؛ نحو : « ها أنتم أولاء » . وعلى نعت أيّ فى النداء ؛ نحو :
يأيها الناس . ويجوز فى لغة أسد حذف ألف هذه وضمها إتباعا ، وعليه قراءة :
« [2] أيُّه الثقلان » .

(هات) : فعل أمر لا يتصرف ، ومِنْ ثم ادَّعى بعضهم أنه اسم فعل .

(هل) : حرف استفهام يُطلب به التصديق دون التصوّر ، ولا يدخل على
منفيّ ولا شرط ، ولا أن ، ولا اسم بعده فعل غالبا ، ولا عاطف .

قال ابن سيده : ولا يكون الفعل معها إلا مستقبلا ، ورُدَّ بقوله : « [3] فهل
وجدتُم ما وَعَد رَبُّكم حقًّا » .

وترد بمعنى « قد » ، وبه فُسِّر : « هل [4] أتى على الإنسان » .

وبمعنى النفى ، نحو : « هل [5] جزاءُ الإحسان إلا الإحسان » . وقد قدمنا
فى معانى الاستفهام مباحث غير هذا .

(هَلُمّ) : دعاء إلى الشيء ؛ وفيه قولان :

أحدها أن أصله « ها ولمّ » من قولك : لممتُ الشيء ، أى أصلحته ، فحذفت
الألف وركب . وقيل أصله هل أمّ ، كأنه قيل : هل لك فى كذا ، أمّه ؛ أى
اقصده فركِّبا . ولغة الحجاز تركه على حاله فى التثنية والجمع ، وبها ورد القرآن ،
ولغة تميم إلحاقه[6] العلامة .

(هنا) : اسم يُشار به للمكان القريب ؛ نحو[7] : « إنَّا ها هنا قاعِدُون» .

---

(١) فى الإتقان : وعلى ضمير الرفع المخبر عنه بإشارة .
(٢) الرحمن : ٣١
(٣) الأعراف : ٤٤
(٤) الإنسان : ١
(٥) الرحمن : ٦٠
(٦) فى الإتقان : الحاقة العلامات .
(٧) المائدة : ٢٤

وتدخل عليه اللام والكاف فيكون للبعيد ؛ نحو : « هنالِكَ[1] ابْتُلِي المؤمنون ». وقد يُشارُ به للزمان اتساعا، وخُرِّج عليه[2] : « هُنالِكَ تَبْلو كلُّ نفس ما أسلفتْ » . « هنالك[3] دَعَا زَكَرِيا رَبَّهُ » .

(هَيْتَ[4]) : اسم فعل بمعنى أسرع وبادِرْ ؛ قاله[5] في المحتسب .

(هيهات) : اسم فعـــــل بمعنى بَعُدَ ؛ قال تعالى[6] : « هيهات هيهات لما توعَدون »، أبْعَدَ لما توعدون ؛ قاله الزجاج . قيل : وهذا غلط أوقعه فيه اللام ، فإن تقديره بَعُدَ الأمر لما توعدون ؛ أي لأجله .

وأحسن منه أن اللام لتبيين الفاعل ، وفيها لغات ، قرىء منها بالفتح ، وبالضم وبالخفض مع التنوين في الثلاثة وعدمه .



---

(١) الأحزاب ١١ (٢) يونس : ٣٠ (٣) آل عمران : ٣٨ (٤) يوسف : ٢٣
(٥) المحتسب : ١ ـ ٣٣٧ (٦) المؤمنون : ٣٦

حرف الواو

(وَيْل): كلمة شَرّ، وقد قدمنا معناه ؛ قال الأصمعي : «ويل» كلمة قبح وويس استصغار، وويح ترحم.

(واسع[1]): جواد لما يسأل. ويقال الواسع المحيط بعلم كلّ شيء، كما قال «وَسِعْتَ[2] كلَّ شيء رحمةً وعلماً». ووسع يسع سعة من الاتساع، ضد الضيق، ومُوسِع[3]: غني ؛ أي واسع الحال، وهو ضد المقتر[4] «وإنا لَمُوسِعُون». قيل أغنياء. وقيل قادرون. وإلا وسْعَها[5]: طاقتها.

(وَدّ) يود: له معنيان: من المودة والمحبة، وبمعنى التمني ؛ نحو: «وَدَّ[6] كثير من أهل الكتاب»[7]. «وَدُّوا لو تكفرون». والودّ بالضم: المحبة. وقد قدمنا أنه اسم صنم عبد من دون الله.

(وَسَطا[8]): الوسط من كل شيء: خيارُه، وكيف لا تكون هذه الأمة خياراً وهم يشهدون يوم القيامة للأنبياء بإبلاغ الرسالة إلى أممهم.

فإن قلت: لم أخر المجرور في هذه الآية[8]: «شُهَداءَ على الناس»، وقدمه في قوله: «عليكم[8] شهيدا»؟

فالجواب أن تقديم المعمولات يفيد الحصر ، فقدمه لاختصاص شهادة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأمته، ولم يقدمه في الأمة لأنه لم يقصد الحصر.

فإن قلت: هل الأمة يشهدون كلهم ؛ برهم وفاجرهم، أوْ لا يشهد إلا من هو أهلٌ لذلك؟

---

(١) البقرة: ١١٥ (٢) غافر: ٧ (٣) البقرة (٢٣٦): على الموسع قدره.
(٤) الذاريات: ٤٧ (٥) البقرة: ٢٣٣، وغيرها. (٦) البقرة: ١٠٩
(٦) النساء: ٨٩ (٨) البقرة: ١٤٣

والجواب أن لفظ الآية عام ، لكن الذى يظهر من لفظ الآية أنه لا يشهد إلا العدول ، فلا يشهد منها إلا خيارها ، والحكم هناك كالحكم هنا ؛ وقد قال: « ممَّنْ[1] تَرضَوْنَ من الشهداء » . وأيضا قد ذكر فى حديث قوم نوح أنهم يقولون : كيف يَشهد علينا من لم يحضرنا ؟ فيقولون : يا ربنا ، أنزلتَ علينا كتابا فوجدنا فيه قصتَهم ، ثم يقرءون سورةَ نوح ؛ فهذا لا يكون جوابا إلا ممن له علم بالكتب ؛ وكثير من هذه الأمة [٢٧٣ب] لا يعلمون من الكتاب شيئا ، ومن طريق النظر من هذه الأمة إذ ذاك فى نوع من أنواع العذاب كيف يستشهدون ؟ وكيف تقبل لهم شهادة ؟ فإذا كان العالمُ الذى لا يخفى عليه شىء لا يحكم بعلمه فيما بيننا فى ذلكَ اليوم ، فكيف بالغير ؟ فيا أخا البطالة والتلويث لنفسك ، انتبه ، الحاكم قد زكاك وأنتَ بما ارتكبتَ من قبيح الأوصاف تجرح نفسك ، وبذلك تفرح ، فقد خضتَ بحارَ المهالك ، وعلى عقبك من الخير نكصت . أعلمك بهذه الرتبة الرفيعة لعلك تحافظ عليها فتكون ممن يشهد إذ ذاك ، فأعرضتَ عن الشهادة على غيرك ، وتعرضتَ لشهادة جوارحك عليك ! بئس ما استبدلت !

وقد جاء أنّ أول من يُساقُ للحساب الذى العَرَقُ على كاهله والعرق يتحدر على جبينه ؛ فيقول الله له : ما صنعت بعهدى ؟ فيقول : يارب ، بلَّغته جبريل ، فيؤتى بجبريل ، فيقول له الحق جل جلاله : هل بلغكَ إسرافيل عهدى ؟ فيقول : نعم ، فيخلّى حينئذ عن إسرافيل ، ويسأل جبريل فيقول عز وجل له : ما صنعتَ فى عهدى ؟ فيقول : يا رب ، بلغته الرسل ؛ فيؤتى بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فيقول لهم : هل بلَّغكم جبريل عَهدى ؟ فيقولون:

---

(١) البقرة : ٢٨٢

نعم ، فحينئذ يخلى عن جبريل ؛ فأول مَنْ يسأل مِن الرسل نوح عليه السلام ، فيكون من قصته ما ورد فى الحديث — أنه يُجاء بنوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلّغتَ ؟ فيقول : نعم يا رب ، فتُسأل أمّته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير . فيقال : مَنْ شهودك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال صلى الله عليه وسلم : فيُجاء بكم فتشهدون ؛ ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « وكذلك[1] جعلناكم أمّةً وَسطا » .

فإن قلت : يعارضنا هنا قوله صلى الله عليه وسلم : أوّل مَنْ يحاسَبُ من يجوز على الصراط .

والجواب : أنه ليس بينهما تعارض ؛ لأن حساب الأمم على نوعين ؛ وبذلك يجمع الحديثان ، ولا يبقى بينهما تعارض ؛ وهو أن النوع الأول أنْ تُسأل الأمم : بلّغهم الرسل أم لا ؟ فهذا الذى يتقدم جميعَ الأمم على هذه الأمة ؛ لأنهم هم الشهود عليهم ؛ فلا بد من حضورهم إلى آخر الأمم .

والنوع الآخر هو سؤالُ الأمم كلّ شخص منهم منفردا عن عمله بمقتضى شريعته ؛ فهذا الذى تكون هذه الأمة أوّل مَنْ يُحاسب . وسيّدُنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم شاهدٌ ، كما قال تعالى : « وجئنا[2] بكَ على هؤلاء شهيدا » تقديره : كيف يكون الحال إذا جئنا بنبيٍّ يشهد على أمته بأعمالهم . ولما قرأها ابن مسعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَرفت عيناه بالدموع ، وقال : حَسْبُكَ يابن مسعود ؛ « ولا يَأْبَ الشهداءُ إذا ما دُعُوا » ؛ أى لا يمتنعوا إذا دعوُا إلى أداء الشهادة . وقد ورد تفسيره بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم .

واتفق العلماء على أنّ أداءَ الشهادة واجبٌ إذا دُعى إليها . وقيل : إذا دعوا

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) النساء : ٤١

إلى تحصيل الشهادة وكتبها . وقيل إلى الأمرين : « ولا تسأموا[1] » ؛ أى لا تملّوا من الكتابة إذا ترددت وكثرت ، سواء كان الحق صغيرا أو كبيرا ، ونصب صغيرا[2] على الحال .

(وأشهدوا[3] إذا تبايعتم) : هذا أمر يُفهم منه الإشهاد ؛ وأهلُ الظاهر أوجبوه خلافا للجمهور . وذهب قوم إلى أنه منسوخ بقوله : « فإن[4] أمِنَ بعضُكم بعضا » ، وذهب قوم إلى أنه على الندب .

(ولا يُضَارَّ[2] كاتبٌ ولا شهيد) : يحتمل أن يكون كاتب فاعلا على تقدير كسر الراء المدغمة من يضار . والمعنى على هذا نَهْى للكاتب والشهيد أن يضرّا صاحبَ الحق ، أو الذى عليه الحق بالزيادة فيه أو النقصان منه والامتناع من الكتابة أو الشهادة .

ويحتمل أن يكون « كاتب » مفعولا لم يسم فاعله على تقدير فتح الراء المدغمة ، ويقوِّى ذلك قراءة عمر بن الخطاب : لا يضارَر ، بالتفكيك وفتح الراء .

والمعنى النهى عن الإضرار بالكاتب والشهيد ، بإذايتهما بالقول أو بالفعل .

« وإن[3] تفعلوا » ؛ أى وقعتم فى الإضرار فإنه فسوقٌ حالٌّ بكم .

(والله[5] يؤيِّدُ بنَصْره مَنْ يشاء) ؛ يعنى أنَّ النصر بمشيئة الله لا بالقلّة [٢٧٤] ولا بالكثرة ، فإن فئة المسلمين غلبت فئة الكافرين مع أنهم كانوا أكثر منهم .

(ورِضوان من الله أكبر) ؛ أى من نعيم الجنة حسبما ورد فى الحديث — أنه يقول لهم : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : قد أعطيتنا بُغيتنا ، فيقول: أزيدكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا ، فلولا الرضوان لم يطب لهم نعيمها لتخوّفهم من فراقها .

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) فى الآية نفسها : أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا . .
(٣) البقرة : ٢٨٢ (٤) البقرة : ٢٨٣ (٥) آل عمران: ١٣ (٦) آل عمران ، آية ١٥

(وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ[1] والأَبرصَ وأُحيي الموتى بإذن الله وأُنَبِّئكم بما تأكلون وما تدّخِرون في بيوتكم) : هذا من كلام عيسى . وروى أنهم كانوا يجمعون إليه الجماعة من العميان والبرصاء ، فيدعو لهم فيبرءون ، ويضرب بعصاه الميت أو القبر فيقوم الميت ويكلّمه .

وروى أنه أحيا سام بن نوح ، وكان يقول : فلان أكلتَ كذا ، وادخرتَ في بيتك كذا .

(ومُصَدِّقًا[2]) : عطف على رسولا : أو على موضع بآية من ربكم ؛ لأنه في موضع الحال ؛ وهو أحسن ؛ لأنه من جملة كلام عيسى على تقدير : جئتكم بآية وجئتكم مصدقا ؛ ولأُحِلّ لكم عطف على بآية .

وكانوا قد حُرِّمَ عليهم الشحم ولَحْمُ الإبل وأشياء من الحيتان والطير ؛ فأحلّ لهم عيسى بعض ذلك .

(وَجِيهاً[3] في الدنيا والآخرة ...) إلى آخر الآيات : حال . « ويعلمه[4] » معطوفة ؛ إذ التقدير ومعلما للكتاب . ورسولا يضمر له فعل ، تقديره أرسل رسولا أو جاء رسولا .

(وما كان[5] مِنَ المشركين) : نَفْيٌ للإشراك الذي هو عبادةُ الأوثان . ودخل في ذلك الإشراك الذي يتضمّنه دين اليهود والنصارى .

(وأنا معكم[6] من الشاهدين) : تأكيد للعهد بشهادة الله جلّ جلاله .

(وشهدوا[7]) عطف على إيمانهم ؛ لأن معناه بعد أن آمنوا . وقيل الواو للحال . وقال ابن عطية : عطف على كفروا ، والواو لا ترتّب .

---

(١) آل عمران : ٤٩ (٢) آل عمران : ٥٠ (٣) آل عمران : ٤٥

(٤) آل عمران : ٤٨ (٥) آل عمران : ٦٧ (٦) آل عمران : ٨١

(٧) آل عمران : ٨٦

(ولو افتدى[1] به) : قيل هذه الواو زائدة . وقيل للعطف على محذوف ، كأنه قال : لن يقبل من أحدهم لو تصدق به ، ولو افتدى به . وقيل نَفَى أوّلا القبول جملة على الوجوه كلها ، ثم خص الفدية بالنفس ، كقولك : أنا لا أفعل أصلا ولو رغبت إليّ .

(ومَنْ كفر) : عطف على « من[2] استطاع » ؛ أي من استطاع الوصول إلى مكة بصحة البدن إما راجلا وإما راكبا مع الزاد المباح والطريق الآمن ، أو الزاد والراحلة - فواجب عليه الحج . ومَنْ لم يحجّ فقد كفر ، وعبّر عنه بالكفر تغليظا ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : ومَنْ ترك الصلاةَ فقد كفر ؛ فإنّ الله غنيّ عنه ، ولا يعود وَبالُ ذلك إلا عليه .

وفي الحديث : "من مات ولم يحجّ ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من النفاق" . وقيل : إنما عبر بالكفر إشارة إلى مَنْ زعم أنّ الحج ليس بواجب .

(واعتَصِموا[3] بحَبْلِ اللهِ جميعا ولا تَفرّقُوا) ؛ أي تمسّكوا بحبل الله . وهو القرآن ، وقيل الجماعة ، ولا تفرّقوا فتفشلوا ؛ لأن الجماعةَ رحمةٌ ، والفرقة عذاب ، ومن فارق الجماعة شبرا خلع رِبْقَةَ الإسلام من عُنقه ؛ ولأجل الألفة والجماعة أمر الله باجتماع كلّ درب ومحلة في اليوم خمس مرات ، وفي الجمعة لأهل البلد حتى إنها لا تصح إلا في العتيق في العيدين الكبير والصغير وفي عرفة لأهل الأرض كلّهم ، كلّ ذلك للجمع .

« ولِيَعْلَم[4] » : متعلق بمحذوف تقديره : أصابكم ما أصاب ليعلم ذلك علما ظاهرا لكم تقومُ به الحجة عليكم ، ويتخذ منكم شهداء في قتلكم يوم أُحُد ، وليمحِّصَ اللهُ المسلمين ؛ لأن إدالة الكفار عليهم تمحيصا لهم ، ونَصْرُ المؤمنين على الكفار هلاكٌ لهم .

---

(١) آل عمران : ٩١ (٢) آل عمران : ٩٧ (٣) آل عمران : ١٠٣
(٤) آل عمران : ١٤٠

(ولقد[1] صَدَقَكم اللهُ وَعْده) : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد وعد المسلمين عن الله بالنصر ، فنصرهم اللهُ أولا ، وانهزم المشركون ، وقُتل منهم اثنان وعشرون رجلا ، « وعَصَيْتُم » : أى خالفتم ما أُمِرْتُم به من الثبوت ، وجاءت المخاطبةُ فى هذا لجميع المؤمنين وإن كان المخالِفُ بعضهم ، ووعظا للجميع وستراً على مَنْ فعل ذلك .

(ولقدْ[1] عَفَا عنكم) إعلام بأنّ الذَّنْبَ كان يستحقُّ أكثر مما نزل بهم من الهزيمة ، لولا عَفْوُ الله عنهم ؛ فمعناه لقد أبقى عليكم . والرسول يدعوكم فى أخراكم ؛ أى كان يقول فى ساقتهم : إلىَّ عبادَ الله ؛ ففيه مَدْحٌ له صلى الله عليه وسلم ، وعَتْب لهم ؛ لأن الأخرى هو موقف الأبطال ؛ وكيف [٢٧٤] لا وبه يتأنس الجيش ، ويؤمن من العدو ، وعاتبهم على عدم الوقوف معه .

(وطائفةٌ[2] قد أهَمَّتْهم أنفُسُهم) : هم المنافقون . كانوا خائفين من رجوع المشركين إليهم .

(ولِيَبْتَلِيَ[2] اللهُ ما فى صدورِكم) يتعلق بفعل ، تقديره : فعل بكم ذلك ليبتلى .

(ولئن[3] قُتِلْتُم فى سبيل الله ...) الآية : تخبر بأن مغفرةَ الله تعالى ورحمته تعمّ إذا قُتلوا أو ماتوا فى سبيل الله خَيْر لهم مما يجمعون من الدنيا .

(ولو كُنْتَ[4] فظاً غَليظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حولك): وصف اللهُ رسولَه باللين واللطف لأصحابه، لأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يُوَاجِهُ أحدا بما يكره، وقد أمره الله بالغلظ على الكفّار ؛ وبهذا وصف اللهُ الصحابة بأنهم كانوا أشدّاءَ على الكفار رُحماء بينهم .

(وقيل لهم[5] : تعالوا قاتِلُوا فى سبيلِ اللهِ أو ادْفَعُوا) من

---

(١) آل عمران ١٥٢ (٢) آل عمران ١٥٤ (٣) آل عمران ١٥٧
(٤) آل عمران ١٥٩ (٥) آل عمران : ١٦٧

لطف الله بهذه الأمة أنه لم يبيّن المخالفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموافق ؛ لأنه تعالى أراد السَّتر على عباده ؛ فأبْشِر يا محمدىّ بما أنعم الله به عليك حيث ستر على عدوّك .

والمرادُ بهذه الآية عبد الله بن أبىّ بن سلول ؛ لأنه لم يُرِد الخروج إلى المشركين يوم أُحُد ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم غضب ، وقال : أطاعهم وعصانى ، فرجع ورجع معه نحو ثلاثمائة رجل ، فمشى فى أثرهم عبد الله بن عمرو الأنصارى ، فقال : يا قوم ، ارْجِعوا وقاتلوا فى سبيل الله ، « أو ادفعوا » يعنى عن المسلمين إن لم تقاتلوا ؛ فقال له عبد الله بن أبى : « لو نَعْلَمُ[1] قتالا لاتَّبَعْنَا كم » .

(ويَسْتَبْشِرُونَ[2] بالَّذِين لم يَلْحَقُوا بهم) : المعنى أنهم يفرحون بإخوانهم الذين بقوا فى الدنيا من بعدهم ؛ لأنهم يرجون أن يستشهدوا مثلهم ، فينالوا ما نالوا من الأمن وعدم الحُزن .

وسببُ نزول الآية أن جماعةً من الصحابة استشهدوا فقال لهم الحقُّ تعالى : « تمنّوا ما تريدون » ؛ فقالوا : الرجوع إلى الدنيا للشهادة فى سبيلك ؛ فقال : سبق فى أزلى أنه لا يرجع إلى الدنيا أحَد ؛ فقالوا : أعلم إخواننا الذين بقوا فيها أنك رضيتَ عنّا وأرضَيْتَنا ؟

(ولا يَحْزُنْكَ[3] الذِينَ يُسَارِعُون فى الكُفْر) : الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم ، سلاه الله بهذه الآية . والمسارعون إلى الكفر المنافقون أو الكفّار فى مبادرتهم إلى أقوالهم وأفعالهم .

(وقَتْلَهُمُ[4] الأنبياءَ بغير حق) : أسند القتل إليهم مع أن آباءهم هم الذين

---

(١) آل عمران : ١٦٧ (٢) آل عمران ١٧٠ (٣) آل عمران ١٧٦
(٤) آل عمران ١٨١

قتلوهم ، لكنهم رضوا بذلك ، وتبعوا مَنْ فعل ذلك منهم ؛ فهم شركاءُ ؛ لأن الراضى بالمعصية كفاعلها .

فإن قلت : ما فائدة تنكير الحق هنا ، وتعريفه فى الآية الأولى[1] من البقرة ، ومعلوم أنه لم يقتل نبي بحق ؟

والجواب أنه عرفه لاجترائهم على قتلهم مع معرفتهم بأنه بغير حق ؛ ولذلك قرىء بالتشديد تعظيما للذنب والشّنعة للّذى أتوه ؛ وإنما أباح اللهُ تعالى من أباح منهم ، وسلّط عليهم عدوه كرامةً لهم ، وزيادة فى منازلهم ؛ كقتل مَنْ يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين ؛ قال ابن عباس وغيره : لم يُقتل قطُّ من الأنبياء إلّا مَنْ لم يُؤْمَر بقتال ، وأما مَنْ أُمر بالقتال فإنَّ الله نصره . وإنما عُرِّف الحقُّ فى البقرة إشارة إلى الحق الذى أخذ الله أن تُقْتَل النفس به ، وهو قوله : «ولا تَقْتُلوا النفْسَ التى حَرم اللهُ إلا بالحق»[2] ، فكان الأولى بالذكر ؛ لأنه من الله ، وما فى هذه السورة نكرة ؛ لأنه فى معتقدهم وتدينهم ، وكان هذا بالتأخير أولى .

فإن قلت : المذكورون فى الآيات الثلاث من بنى إسرائيل قد اجتمعوا فى الكفر والاعتداء ؛ فما وَجْهُ اختصاص الآية بجمع التكسير فيما جمع فى الآيتين جمع سلامة ؛ فقيل النبيين فى الآيتين ، وقيل فى هذه الآية الأخيرة الأنبياء مكسرا ؟

فالجواب أن جَمْعَ التكسير يشمل أولى العلم وغيرهم ، وجمع السلامة يختصُّ فى أصل الوضع بأولى العلم ، وإن وُجد فى غيرهم فبحُكم الإلحاق والتشبيه ، كقوله تعالى : «إنى[3] رأيتُ أحدَ عشر كوكبا ..» الآية ، ومايلحق

---

(١) البقرة : ٦١ (٢) الأنعام : ١٥١ (٣) يوسف : ٤

بهذا ، وإذا تقرر هذا نورود جَمْع السلامة فى قوله [٢٧٥ ا] فى سورة البقرة : «ويقتلون[1] النبيين بغير الحق» مناسب من جهتين : إحداها شرفُ الجمع لشرفِ المجموع . والثانية مناسبةُ زيادةِ المدّ لزيادة أداة التعريف فى لفظ الحق وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثْلُ الأولى فى مناسبة الشرف ومناسبة زيادة المد للزيادة فى الفعل العامل فى اللفظ المجموع فى قراءة مَنْ قرأ : ويقاتلون . ولما لم يكن فى الآية الثالثة سوى شَرَف المجموع ، وكانت العرب تَتّسع فى جموع التكسير تُوقيعُا على أولى العلم وغيرهم أتى بالجمع هنا مكسرا لتحصلَ اللغتان ، حتى لا يبقى لمن يتحدّى القرآن حجة ، إذ هم مخاطبون بما فى لغاتهم ، فلا يقتصر فى شىء من خطابهم على أحد الجائزين دون الآخر إلا أن يتكرر ، فإذ ذاك يَرِد على وَجْهٍ واحد مما يجوز فيه .

فتأمّل ما أجملته ، فسوف يتّضِح لك به إذا استوفيته ما يُعِينك على فهم الإعجاز .

(وأُخرِجُوا[2] مِنْ دِيَارِهِم) : هذه الآيات فى الذين آذاهم الكفار بمكة حتى خرجوا منها ، ولحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقاتلوا معه .

(وإنّ[3] مِنْ أهلِ الكتاب لَمَنْ يؤْمِن بالله ..) الآية : نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ، والجمهورُ أنها عامّةٌ فى كل من أسلم من اليهود أو النصارى .

(وَجْهَ[4] النهارِ واكْفُرُوا آخِرَه) : هذه مقالة قوم من اليهود قالوها لإخوانهم ليخدعوا المسلمين فيقولوا : ما رجع هــــؤلاء عن دين الإسلام إلا عن علم .

---

(١) البقرة ٦١ (٢) آل عمران ١٩٥ (٣) آل عمران ١٩٩ (٤) آل عمران ٧٢

وقال السهيلى : إنَّ هذه الطائفة هم عبد الله بن الضَّيْف ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف .

(ولا تَقْتلوا[1] أنفسكم) : أجمع المفسرون أنّ المعنى : لا يَقْتل بعضكم بعضاً ، ولَفْظها يتناول قَتْل الإنسان لنفسه ؛ وقد حملها عمرو بن العاص على ذلك ، ولم ينكره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لمّا سمعه ؛ وسكوته صلى الله عليه وسلم دليلٌ على صحة قوله .

(ومَنْ[2] يَفْعَلْ ذلك) : إشارة إلى القتل ؛ لأنه أقرب مذكور . وقيل إليه وإلى أكل المال بالباطل . وقيل إلى كل ما تقدّم من المنهيّات من السورة .

(ولِكلٍّ[3] جعلنا مَوَالِيَ مِمّا ترك الوالدانِ والأقْرَبون) : فى معنى هذه الآية وجهان : أحدهما لكل شىء من الأموال جعلنا موالى يرثونه ، فمِمّا ترك على هذا بيان لكل . والآخر لكل أحد جعلنا موالى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، فما ترك على هذا يتعلق بفعل مضمر ، والموالى هنا : العصبة والورثة .

(والذين[4] عَقَدَتْ أيمانُكم فآتُوهم نَصِيبَهم) : اختلف ، هل هى منسوخة أو مُحْكَمة ؛ فالذين قالوا : إنها منسوخة قالوا معناها الميراث بالحلف الذى كان فى الجاهلية . وقيل بالمؤاخاة التى آخَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، ثم نسختها «[5] وأولو الأرحام بعضُهم أولَى ببعض» ، فصار الميراث للأقارب .

والذين قالوا إنها محكمة اختلفوا ؛ فقال ابن عباس : هى فى الموازرة والنصرة بالحلف لا فى الميراث . وقال أبو حنيفة : هى فى الميراث ، وإن الرجلين

---

(١) النساء : ٢٩ (٢) النساء : ٣٠ (٣) النساء : ٣٣
(٤) النساء : ٣٣ (٥) الأنفال : ٧٥

إذا والى أحدهما الآخر على أنْ يتوارثا صحَّ ذلك وإن لم تكن بينهما قرابة .

(وإذا[1] حضَرَ القِسْمَةَ أُولو القُرْبى واليَتَامى والمساكين) : خطاب للوارثين ، أُمروا أن يتصدقوا من الميراث على قرابتهم ، وعلى اليتامى ؛ فقيل : إنَّ ذلك على الوجوب ، وقيل على الندب ؛ وهو الصحيح . وقيل نُسِخ بآية المواريث .

فإن قلت : ما فائدة حذف « واكسوهم » من هـــذه الآية وأثباتها فيما قبل[2] ؟

والجواب : لأن المراد فى الأولى السفيه المتصير إليه المال بإرث ، ولا يحسن القيام عليه ، فيحجر عليه ماله إبقاءً عليه ، ولا يمكَّن منه إلا بقَدْر ما يأكله ويلبسه ، فالنَّهيُ إنما هو للأوصياء ، ونسبةُ المال إليهم مجاز بما لهم فيه من التصرف والنظر . أمّا هذه الآية فليست فى شأن أحوال السفهاء وحكمها ؛ وإنما المرادُ بها المقتسمون لميراثٍ يخصُّهم لا حقَّ فيه لغيرهم ، فيحضر قريبٌ فقير ويتيم محتاج ، فندِبوا إلى التصدق عليهم والإحسان ، لا حقّ لهم ولا فى المال ، فمن أين تلزم كسوتهم والتنصيص عليها ؟ إنما ندبوا إلى الإحسان إليهم فالمعفوُّ عما يخف [٢٧٥ ب] عليهم وَسِع ذلك كسوتهم أو لم يَسع ، فافترق مقصودُ الآيتين ، وجاء كلٌّ على ما يناسب .

(والصاحبِ[3] بالجَنْبِ) : ابن عباس : الرفيق فى السفر . على بن أبى طالب : الزوجة .

(وأُولى[4] الأمْرِ منكم) : هم الوُلاة . وقيل العلماء . ونزلت فى عبد الله

---

(١) النساء : ٨ (٢) النساء : ٥ (٣) النساء : ٣٦ (٤) النساء : ٥٩

ابن حُذَافة بعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيَّة .

(وإذا[1] جاءهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا به) : قيل هم المنافقون . وقيل قومٌ من ضعفاء المسلمين ؛ كانوا إذا بلغهم خبرٌ عن السرايا والجيوش وغير ذلك تكلّموا به وأشهروه قبل أن يعلموا صحّته ، وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين مع ما في ذلك من العجلة ، وقلة التثبت ؛ فأنكر الله عليهم ذلك .

(وإنْ[2] كان مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكم وبَيْنَهم ميثاق) : معنى الآية أنّ المقتول خطأ إن كان قومه كفّارا معاهدين ، ففي قتله تحريرُ رقبة والديةُ إلى أهله لأجل معاهدتهم ، والمقتول على هذا مؤمن ؛ ولذلك قال مالك : لا كفّارة في قتل الذميّ . وقيل : إن المقتول في هذه الآية كافر ، فعلى هذا تجبُ الكفّارة في قتل الذمي . وقيل : هي عامة في المؤمن والكافر ؛ واللفظُ مطلق إلا أنه قيّده قوله : « وهو مؤمن » في الآية قبلها[3] . وقرأ الحسن هنا وهو مؤمن .

([4] ويَسْتَفْتُونَكَ في النساء) ؛ أي يسألونك عما يجبُ عليهم في أمر النساء . « وما يُتلى عليكم » عطف على اسم الله ؛ أي يفتيكم اللهُ ، والمتلوّ في الكتاب بمعنى القرآن .

([4] والمُسْتَضْعَفِين من الوِلْدان) : عطف على يتامى النساء ؛ أي والذي يُتلى في المستضعفين من الولدان وهو قوله : يوصيكم الله في أولادكم ؛ لأن العرب كانت لا تورّث البنات ، ولا الابن الصغير ؛ فأمر الله أن يأخذوا نصيبهم من الميراث .

(وأن[4] تقوموا لليتامى بالقسط) : عطف على المستضعفين ؛ أي والذي

---

(١) النساء : ٨٣ (٢) النساء : ٩٢ (٣) في الآية نفسها . (٤) النساء : ١٢٧

يُتْلَى عليكم فى أن تقوموا لليتامى بالقسط . ويجوز أن يكون منصوبا ، تقديره ويأمركم أنْ تقوموا ، والخطاب فى ذلك للأولياء والأوصياء والقضاة وشبههم ، والذى يُتْلى عليكم فى ذلك هو قوله تعالى : « إنَّ[1] الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلما » . وقوله[2] : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

(والصُّلْحُ[3] خَيْرٌ) : لفظ عام يدخل فيه صُلْحُ الزوجين وغيرهما. وقيل معناه صلح الزوجين خَيْرٌ من فراقهما ؛ فخَيْرٌ على هـــذا للتفضيل ، واللام فى الصلح للعهد .

([3]وأُحْضِرت الأنْفُس الشُّحَّ) : معناه أن الشح جُعل حاضرا مع النفوس لا يغيب عنها ؛ لأنها جُبِلت عليه ، والشُّحُّ هو ألاّ يسمح الإنسان لغيره بشىء من حظوظ نفسه . وشحّ المرأة من هذا هو طلبها لحقِّها من النفقة والاستمتاع . وشحّ الزوج : هو مَنْع الصداق أو التضييق فى النفقة وزهده فى المرأة لكبر سنها أو قبح صورتها .

(ولَنْ[4] تستطيعوا أن تَعدِلوا بين النساء ولو حَرَصْتُم): معناه العدل التامّ فى الأقوال والأفعال والمحبة وغير ذلك ، فرفع الله ذلك عن عباده ؛ فإنهم لا يستطيعونه ، وإذا كان الصادق المصدّق يعدل بين نسائه مع أن الله لم يأمره بذلك ؛ بل كان يتطوع لهنّ بذلك ، ويقول : اللهم هذا فِعْلى فيما أمْلك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك، يعنى ميله بقلبه ؛ والأمْرُ القلبى مرفوع عن الحرج، وخصوصا المحسنة منهنّ ؛ فإن القلوبَ جُبِلت على حبِّ مَنْ أحسن إليها وكراهةِ من أساء إليها ، هذا أمر جلىّ . وقد قدمنا أن الحُبَّ يتوارث والبغض يتوارث .

وقيل : إن الآية نزلت فى مَيْله صلى الله عليه وسلم بقلبه إلى عائشة ، فمعناها

---

(١) النساء : ١٠ (٢) البقرة : ١٨٨ (٣) النساء : ١٢٨ (٤) النساء : ١٢٩

على هذا اعتذار من الله تعالى عن عباده .

(ولَوْ عَلَى[1] أنْفُسِكم) : يتعلق بـ « شُهَدَاء » ، وشهادة الإنسان على نفسه هى إقرارُه بالحق ، ثم ذكر « الوالدين[1] والأقربين » ؛ إذ هم مظنّة التعصّب والميل ؛ فإقامةُ الشهادة على الأجنبيين من باب أحْرى وأولى .

(وإنْ[1] تَلْوُوا أوْ تُعْرِضُوا) : قيل : إن الخطاب للحكام . وقيل للشهود ؛ واللفظُ عام فى الوجهين. والليّ : هو تحريفُ الكلام ، أى إن تَلْوُوا عن الحكم بالعدل ، أو عن الشهادة بالحق ، أو تعرضوا عن صاحب الحق ، أو عن المشهود له ـ فإنه خبير بما تعملون .

وقرىء تَلُوا ـ بضم اللام من الولاية ، أى إن وليتم إقامةَ الشهادة أو [٢٧٦ ا] أعرضتم عنها .

(وإنّ[2] الذين اختلفوا فيه لفى شَكٍّ منه) : روى أنه لما وقع قَتْل المشبَّه بعيسى قالوا : إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبُنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فاختلفوا ؛ فقال بعضهم : هو هو . وقال بعضهم : ليس هو ؛ فأجمعوا أنّ شخصا قُتل ، واختلفوا مَنْ كان .

فإن قيل : كيف وصفهم بالشكّ ، ثم وصفهم بالظن ، وهو ترجيح أحَدِ الاحتمالين ؟

فالجواب : أنهم كانوا على الشك ، ثم لاحت لهم أمارةٌ فظنّوا . وقد يقال الظن بمعنى الشك ، وبمعنى الوهم الذى هو أضعفُ من الشك .

(وإنْ[3] مِنْ أهل الكتاب إلا لَيُؤْمِنَنّ به قَبْلَ موته) : فى هذه

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) النساء : ١٥٧ (٣) النساء : ١٥٩

الآية تأويلان : أحدهما أن الضمير في موته لعيسى ، والمعنى إن كلّ أحد من أهل الكتاب يُؤمن بعيسى حين ينزل إلى الأرض قَبْل أنْ يموت وتصير الأديان كلّها حينئذ دينا واحدا وهو دينُ الإسلام .

والثاني أن الضمير في موته للكتاب الذي تضمنه قوله : وإن من أهل الكتاب ، والتقدير وإنّ من أهل الكتاب أحد إلاّ ليؤمن بعيسى ويعلم أنه نبيء قبل أنْ يموت هذا الإنسان ، وذلك حين مُعاينة الموت ، وهو إيمان لا ينفعه . وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس وغيره .

وفي مصحف أُبَيّ بن كعب : قبل موتهم . وفي هذه القراءة تقويةٌ للقول الثاني ، والضمير في به لعيسى على الوجهين . وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(وبِصَدّهم[1]) : يحتمل أن يكون بمعنى الإعراض ، فيكون « كثيراً » صفة لمصدر محذوف ، أي صداً كثيراً ، أو بمعنى صدّهم لغيرهم . فيكون كثيراً مفعولا بالمصدر ؛ أي صدوا كثيراً من الناس عن سبيل الله .

(وكَلّمَ[2] اللهُ موسى تَكْليما) : تصريح بالكلام مؤكد بالمصدر ، وذلك دليل على بطلان قول المعتزلة : إنّ الشجرة هي التي كلمت موسى .

(ولا الملائكةُ[3] المقرَّبُون) : فيه دليل لمن قال : إن الملائكة أفضلُ من الأنبياء ؛ لأن المعنى لن يستنكف عيسى ومَنْ فوقه أنْ يكون عبدًا لله ؛ وفيه ردٌّ على من قال : إنهم أولاده .

(وما أكل السَّبُعُ[4]) ؛ أي أكل بعضه . والسبع : كلُّ حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والعقاب والنسر .

---

(١) النساء : ١٦٠ (٢) النساء : ١٦٤ (٣) النساء : ١٧٢
(٤) المائدة : ٣

(وَسِيلَة[١]) : كل ما يُتوسَّل به من الأعمال الصالحة والدعاء وغير ذلك ، ومنه : « أولئك[٢] الذين يَدْعُونَ يبتغُون إلى ربهم الوسيلةَ أيهم أقرب » ؛ أى أولئك الآلهة الذين تَدْعُون من دون الله يبتغون القُرْبَةَ إلى الله ، ويرجونه، ويخافونه ؛ فكيف تعبدونهم معهم ؟

وإعراب أولئك مبتدأ والذين يدعون صفةٌ له ، ويبتغون خبره ، والفاعل فى يدعون ضمير الكفار ، وفى يبتغون للآلهة المعبودين . وقيل : إن الضمير فى يدعون ويبتغون للأنبياء المذكورين . وقيل فى قوله : « ولقد[٣] فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض » .

(ولا يَحْزُنْكَ[٤] الذين يُسارِعُون فى الكفر . . .) الآية . انظر كيف سلّى اللهُ نبيَّه فى مواضع من كتابه . وقرىء بفتح الياء وضم الزاى حيث وقع مضارعا من حزن الثلاثى ، وهو أشهر فى اللغة من أحزن .

(وإذا[٥] جاءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وقد دخلُوا بالكُفْرِ وهم قد خرجوا به) : هم قومٌ من اليهود دخلوا كفّارا وخرجوا كفارا ، ودخلت « قد » على خرجوا ودخلوا ؛ تقريباً للماضى من الحال ؛ أى ذلك حالهم فى دخولهم وخروجهم على الدوام .

(وحَسِبُوا[٦] ألاّ تكونَ فِتْنَةٌ) ؛ أى بلاءٌ واختبارٌ . وقرىء تكون بالرفع على أن تكون « أن » مخففة من الثقيلة ، وبالنصب على أنها مصدرية .

(ولتجدنَّ[٧] أقربَهم مودَّةً ....) الآية . إخبار بأن النصارى أقربُ

---

(١) المائدة : ٣٥ : وابتغوا إليه الوسيلة .
(٢) الإسراء : ٥٧
(٣) الإسراء : ٥٥
(٤) آل عمران : ١٧٦
(٥) المائدة : ٦١
(٦) المائدة : ٧١
(٧) المائدة : ٨٢

إلى مودّة المسلمين ؛ وهذا الأمر باقٍ إلى آخر الدهر ، فكلُّ يهودى شديدُ العداوة للاسلام وأهله ؛ وكيف لا وهم الذين قالوا : « ليس[1] علينا فى الأُميين سَبيل » ، وأحبارهم يقولون لهم : قال نبى العرب : مَنْ غشنا فليس منّا ، فغشوهم لئلا تكونوا منهم .

وانظر حكاية عبد الله بن عمر لما سافَرَ معه اليهودىُّ ، فوجد منه من النصح ما أشعر به ، فسأله ابن عمر عن هذه النصيحة وأنه لم يصدر منه فى جانبه إلا المودة ؛ فقال له : كنتَ أمشى على [١٧٦ب] ظلّك ، لأنى لم أقدر لك على غيره من النكاية ؛ وقد شدَّدَ العلماء فى خلطتهم وصحبتهم ، وكيف لا يشددون والله يقول : « لا تجد[2] قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه » ؛ فصاحبة من حادّ الله ورسوله تفضِى إلى النار ، نسأل الله السلامة .

(وكلوا[3]) : جاء هذا الأمر بعد النهى عن الاعتداء فى التشديد على الأنفس رِفْقاً من الله بعباده ، وخصَّ الأكلَ بالذكر ؛ لأنه أعظم حاجاتِ الإنسان .

(ومَنْ[4] قتلَه منكم متعمِّدًا) : مفهوم الآية يقتضى أنّ جزاءَ الصيد على المتعمد لا على الناسى ؛ وبذلك قال أهل الظاهر . وقال جمهور الفقهاء : إن المتعمِّد والناسى سواء فى وجوب الجزاء ، ثم اختلفوا فى تأويل قوله : « متعمِّدا » على ثلاثة أقوال : أحدها أنّ المتعمد إنما ذكر ليناط به الوعيد الذى فى قوله : « ومن[4] عاد فينتقِم الله منه » ؛ إذ لا وعيدَ على الناسى .

والثانى أن الجزاء على الناسى بالقياس على المتعمِّد .

---

(١) آل عمران : ٧٥ (٢) المجادلة : ٢٢ (٣) المائدة : ٨٨
(٤) المائدة : ٩٥

والثالث أن الجزاء على التعمد ثبت بالقرآن ، وأن الجزاءَ على الناسي ثبت بالسنة .

(وَبَالَ[1] أَمْرِهِ) : عاقبة أمره من الشر والوَبَال وسوء العاقبة ؛ يقال : ماء وبيل وكلأ وبيل ؛ أي وبيل لا يستمر أو تَضُرُّ عاقبتُه ، والوبيل والوخيم ضد المريء .

« وطعامُه[2] » : الضمير عائد على البحر، يعني ما قذَفَ به ، ولا يطفو عليه؛ لأن ذلك طعام وليس بصيد ؛ قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وقال ابن عباس : طعامه : ما صلح منه .

(وحُرِّمَ[2] عليكم صَيْدُ البَرِّ ما دُمْتُم حُرُمًا) : لما ذكر أن صيدَ البحر حلال ذكر هنا أنّ صيد البر لا يحلُّ للمحرم تناوله .

(وإنْ[3] تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم) : فيه معنى الوعيد على السؤال ، كأنه قال : لا تسألوا ، وإن سألتم أُبْدِي لكم ما يسوءكم . والمراد بـ « حين ينزل القرآن » زمان الوَحْي .

(ولكنَّ[4] الذين كفَرُوا يَفْتَرون على الله الكذبَ وأكثَرهُم لا يَعْقِلون) ؛ أي يكذبون عليه بتحريم ما لم يحرِّم ، واخترعوا تحريمها من عندهم ، والذين لا يعقلون هم أتباعُهم المقلِّدون لهم .

(ولا تكُونَنَّ[5]) : الخطاب حينما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يكون معطوفا على معنى « أمرت » فلا حذف ، وتقديره أمرت بالإسلام ونُهيت عن الشرك .

---

(١) المائدة : ٩٥ (٢) المائدة : ٩٦ (٣) المائدة : ١٠١

(٤) المائدة : ١٠٣ (٥) الأنعام : ١٤

(وجعلنا[1] على قلوبهم أَكِنَّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وَقْراً) : عبر بالأكنة والوَقْر مبالغة ، وهى استعارة ، يعنى أنّ الله حال بينهم وبين فَهْم القرآن إذا استمعوه ، و « أن يَفْقَهُوه » فى موضع مفعول من أجله ، تقديره كراهةَ أن يَفقهوه .

(وهم[2] يَنْهَوْن عنه ويَنأَوْن عنه وإنْ يُهْلِكونَ إلا أنْفُسهم وما يَشْعُرون) : الضمير فى « وهم » للكفار ، و « عنه » يعود على القرآن . والمعنى أنهم ينهون الناسَ عن الإيمان به ، وينأَوْن عنه بمعنى يبعدون .

وقيل الضمير فى « عنه » يعودُ على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ومعنى ينهون عنه يُبْعِدُون الناس عن إذايته ، وهم مع ذلك يبعدون عنه . والمراد بالآية على هذا أبو طالب ومَنْ كان معه يحمِى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وينصره بنفسه وماله ، ويقول له : لا تخَفْ أحدا ، فإنى أَذُبُّ عنك بنفسى ومالى ، وهو القائل :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوَسَّد فى التراب دَفِينا

فانهض لأمرك ما عليك غضاضة وطِبْ نَفْسا وقَرَّ منك عيونا

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نصروا استنصر ، ولم يجر بإيمانه القدَر ، جىء بواحد من فارس ، وآخر من الحبشة ، وآخر من الروم ، وأبو طالب على الباب ؛ حُرِم الدخول ؛ اللهم لا مانع لما أعطيْتَ ، وما معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ .

(وذلك[3] الفَوْزُ المبين) : الإشارة راجعة إلى صرف العذاب أو الرحمة ؛

---

(١) الأنعام : ٢٥ (٢) الأنعام : ٢٦ (٣) الأنعام : ١٦

أى ذلك هو النجاة الظاهرة .

فإن قلت : ما فائدة حذف ضمير « هو » فى آية الأنعام ؟

والجواب : أنه لم يتقدم فيها ما يستدعى إبرازه لما تقدمها من قوله تعالى : « إنى[1] أخافُ إنْ عصيتُ رَبّى عذابَ يوم عظيم » . ثم أعقبه بقوله تعالى : « من يصْرَف عنه يومئذ فقد رَحِمه » ، والمراد مَنْ يصْرف عنه العذاب فى الآخرة فقد رحمه ، عطف عليه قوله : « وذلك الفَوْز المبين » ، وكأنَّ الكلامَ فى قوّة [٢٧٧ ا] فقد رحمه وفاز ، كما فى قوله : « فمَنْ[2] زُحْزِحَ عن النارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فقد فاز » . والفاء هنا ، وفى قوله : « فقد رحمه » جواب الشرط . والفوز مسبب عن الرحمة ، فاكتفى بذكره فى آية آل عمران ، وذكرا معا فى آية الأنعام ، فعطفُه عليه بَيّن ، ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهّمه العاقل فَوْزا ، فيتحرز منه بما يعطيه ضمير « هو » من المفهوم ، فلم يقع الضمير هنا .

(ومنهم[3] مَنْ يَسْتَمِعُ إليك) : الضمير عائد على الكفار ، وأفرد وهو فعل جماعة حملا على لفظ « مَنْ » ، و « الأكِنّة[4] » : جمع كنان ، وهو الغطاء .

فإن قلت : ما معنى وروده هنا بالإفراد بخلاف آية يونس[5] ؟

فالجواب : أنَّ هذه الآية نزلت فى أبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، وعتبة ، وشيبة ، وأمية ، وأُبَىّ بن خلف ، فلم يكثروا كثرة مَنْ فى سورة يونس ؛ لأنَّ المرادَ بهم جميع الكفار ، فحمل ها هنا مرةً على لفظ « مَنْ » فوَحّد لقلتهم ، ومرةً على المعنى فجمع ، لأنهم وإن قلّوا جماعة ، وجمع ما فى يونس ليوافق اللفظ المعنى .

---

(١) الأنعام : ١٥ (٢) آل عمران : ١٨٥ (٣) الأنعام : ٢٥
(٤) الأنعام : ٢٥ (٥) يونس : ٤٢

(ولو تَرَى[1] إذْ وُقِفوا على النار ...) الآية : جواب لو محذوف ليكون أبلغ ؛ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيّله . ووقعت « إذ » فى موضع إذا التى هى لما يستقبل ؛ وجاز ذلك ؛ لأن الأمر المتيقّن وقوعه يعبّر عنه كما يعبر عن الماضى الوقوع . و « وُقِفُوا » معناه : حُبسوا ، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعد سواء ، تقول : وقفت أنا ، ووقفت غيرى . قال الزهراوى : وقد فُرّق بينهما فى المصدر ؛ ففى المتعدى وقفت وقفاً ، وفى غير المتعدى وقفت وقوفا . ويحتمل أن يكون وقوفهم على النار دخولَهم فيها ، ويحتمل إشرافهم عليها ومعاينَتَها .

فإن قلت : مافائدة تكرير[2] الوقوف .

فالجواب : لأنهم أنكروا النارَ فى القيامة ، وأنكروا جزاءَ اللهِ ونكالَه فى النار ، فختم بقوله : « [3] فَذُوقُوا العذابَ بما كُنتُم تكفرون » . وهذه استعارةٌ بليغة ، والمعنى باشروه مباشرةَ الذائق ؛ إذ هى من أشد المباشرات .

(وقالوا[4] : إنْ هِيَ إلا حياتُنَا الدنيا وما نحن بمَبْعُوثِين) : هذه الآية ابتداء كلام على تأويل الجمهور ، وإخبار عنهم بهذه المقالة لإنكارهم البَعْثَ الأُخروى .

فإن قلت : مافائدة إسقاط قولهم : « نموت[5] ونحيا » فى هذه الآية ؟

والجواب : لأنها عند كثير من المفسرين متّصلة بقوله : « ولو رُدُّوا[6] لعَادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا : إنْ هِيَ إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن

---

(١) الأنعام : ٢٧

(٢) فى آية ٢٧ : ولو ترى إذ وقفوا على النار ... وفى آية ٣٠ : ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ..

(٣) الأنعام : ٣٠

(٤) الأنعام : ٢٩

(٥) فى سورة « المؤمنون » : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين (آية ٣٧) .

(٦) الأنعام : ٢٨

بمبعوثين » ، ولم يقولوا ذلك بخلاف ما فى سائر السور ؛ فإنهم قالوا ذلك ، فحكى الله عنهم .

(وما الحياةُ[1] الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ) :هذا ابتداء خبرعن حال الدنيا ، والمعنى أنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها أشبهت اللهو واللعب الذى لا طائل له إذا انقضى .

فإن قلت : قد قدم اللعب فى أكثر الآيات وفى بعضها أخره ، فهل لذلك وَجْه ؟

والجواب : إنما قدم اللعب فى الأكثر ؛ لأنه زمان الصبا واللهو ، زمان الشباب ، وزمانُ الصبا مقدَّم على زمان اللهو ، يُبَيِّنُه قوله فى الحديد : « اعلموا أنما[2] الحياةَ الدنيا لعب » كلعب الصبيان ، ولهو كلهو الشباب ، وزينة كزينة النساء ، وتفاخر كتفاخر الإخوان ، وتكاثر كتكاثر السلطان .

وقريب من هذا فى تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : «[3] وما بينهما لاَعِبين . لو أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لهوًا لاتَّخذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » ؛ وقدم اللهو فى الأعراف[4] ؛ لأن ذلك فى القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأ بما بدأ به الإنسان انتهاه من الحالتين . وأما العنكبوت[5] فالمرادُ بذكرها ذكر زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء ، قليل البقاء ، « وإن[5] الدار الآخرةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يعلمون » ؛ أى الحياة التى لا أمد لها ولا نهاية لأمدها ، فبدأ بذكر اللهو ؛ لأنه فى زمان الشباب كما قدمنا أنه أكثر مِنْ زمان اللعب .

---

(١) الأنعام : ٣٢ (٢) الحديد : ٢٠ (٣) الأنبياء : ١٦، ١٧

(٤) الأعراف : ٥١ (٥) العنكبوت : ٦٤

(ولَلدَّارُ[1] الآخرةُ خَيْرٌ) : سميت الآخرة لتأخرها عن الدنيا . وقرأ الستة من القراء : و « للدَّار » بلامين والآخرة نعت للدار . وقرأه ابن عامر وَحْدَه : ولَدَارُ - بلام واحدة ، وكذلك وقع فى مصاحف الشام بإضافة الدار إلى الآخرة ، وكذلك هو لَدَار الحياة الآخرة . وقرأ نافع وابن عامر وأبو حفص عن عاصم: أفلا[2] تعقلون ، على إرادة المخاطبين، وكذلك فى الأعراف [٢٧٧ ب] ، وفى آخر يوسف[3] ، ووافقهم أبو بكر فى آخر يوسف ؛ وإنما قال فيها: «ولَدَارُ الآخرة » بالإضافة ؛ لأن ما قبلها فى هذه السورة : « وما الحياة الدنيا » ، فالدنيا صفةٌ للحياة ، كذلك جعل الآخرة صفة للدار ؛ ولأنه فى المصاحف بلامين إلا فى مصحف الشام ، وما فى يوسف بلام واحدة على الإضافة ، فوافقوا المصاحف ، وقراءة ابن عامر على الإضافة موافقةٌ لمصحفهم ، واعتبارا بما فى يوسف . ويقوِّى ما فى هذه السورة ما فى الأعراف[4] : « والدار الآخرة خير » .

(وقالوا[5] لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ) : الضمير عائد على الكفار . ولولا تحضيض بمعنى هلاَّ . ومعنى الآية : هلا أُنزل على محمد بيانٌ واضح لا يَقعُ معه توقف من أحد ، كَمَلَك يشهد له ، أو غير ذلك مِنْ تشططهم المحفوظ فى هذا . فأُمِر عليه السلام بالردِّ عليهم بأن الله عز وجلَّ له القدرة على إنزال تلكَ الآيات، ولكن[5] أكثرهم لا يعلمونَ أنها لو نزلت ولولم يؤمنوا لعوجِلوا بالعقوبة .

ويحتمل : « ولكن[5] أكثرهم لا يعلمون » أن الله تعالى إنما جعل الإنذار فى آيات معروضة للنظر والتأمل ليهتدِىَ قومٌ ويضِلَّ آخرين .

---

(١) الأنعام : ٣٢ (٢) فى القرطبى (٦ - ٤١٦) : قرىء بالياء والتاء .
(٣) يوسف : ١٠٩ (٤) الأعراف : ١٦٩ (٥) الأنعام : ٣٧

فإن قيل : ما وَجْه إفراد الآية هنا وجمعها فى العنكبوت[١] ؟ ولِمَ طلبوا الآية وقد أتى بمعجزات وآياتٍ ؟

فالجواب : أن « لولا » فى الآتيين تحضيض ، وإنما يجرى فى كلامِهم عندما يراه المتكلم به أولى أو أهمّ فى مقصود ما أو أتمّ فى مطلب ما ، إلى أشباهِ هذا ، مما يستدعى التحضيض ، فأفردوا هنا الآية لما قصدوه من أنه عليه السلام لو جاءهم بآية واحدةٍ من الضَّرْبِ الذى طلبوه . أما آيةُ العنكبوت فقد تقدَّم قبلها : « بل[٢] هو آياتٌ بيناتٌ » ، وقال بعدها : « وما يَجْحَدُ[٢] بآياتنا » ؛ وقال بعدها : « قل إنما[١] الآيات عند الله » ، فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آيةٍ ، ثم إن هذه الآية لم يتقدمها من التهديد وشديد الوَعيد ما تقدَّم آيةَ الأنعام ؛ فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعّف . وجاء ذلك كلّه على ما يجب .

وإنما طلبوا الآية ، لأنهم لم يعتدُّوا بما أتى به ، فكأنه لم يأت بشىء عندهم لجحدهم وعِنادهم ؛ وأيضا فإنما طلبوا آيةً تضطرهم إلى الإيمان من غير نَظَر ولا تأمل .

(وكذلك[٣] فَتَنَّا بَعْضَهم ببعض) : أى ابتلينا الكفار بالمؤمنين ، وذلك أنَّ الكفار كانوا يقولون : هؤلاء العبيد والفقراء مَنَّ الله عليهم بالتوفيق للحق والسادة دوننا ، ونحن أشرف منهم وأغنياء ، وكان هذا الكلام منهم على جهة الاستبعاد لذلك .

(وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ[٤] الشيطان فلا تَقْعُدْ بعد الذِّكْرَى مع القوم الظالمين) :

---

(١) العنكبوت : ٥٠ — (٢) العنكبوت : ٤٩ — (٣) الأنعام : ٥٣
(٤) الأنعام : ٦٨

قد قدمنا مراراً أنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الشيطان ، وكيف لا وشيطانه أسْلَم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أعانني عليه فأسلم » ؛ فالخطابُ على هذا لأُمته .

ومعنى الآية إن أنساك الشيطانُ النهيَ عن مجالستهم ، فلا تَقْعُدْ بعد أن تذكر النَّهْيَ معهم . وإما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

(وما على[1] الَّذِين يتَّقُون مِنْ حسابِهم مِنْ شَيْءٍ) : الضمير في حسابهم للكفار المستهزئين . والمعنى ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وضلالهم . وقيل : إن ذلك يقتضي إباحةَ جُلوسِ المؤمنين مع الكافرين ؛ لأنهم شقّ عليهم النهيُ عن ذلك ، إذ كانوا لا بد لهم من مخالطتهم في طلب المعاش وفي الطَّوَاف بالبيت وغير ذلك ؛ ثم نُسخت بآيةِ النساء وهي : « وقد[2] نَزَّل عليكُمْ في الكتابِ أنْ إذا سمعتُم آياتِ اللهِ يُكفَرُ بها ويُستَهزَأُ بها » . وقيل : إنها لا تقتضي إباحةَ القعود .

(وليكون[3] من الموقِنين) : يتعلق بمحذوف تقديره : نُرِيه ملكوتَ السموات والأرض ليكون عالما من الموقنين .

(وتلك[4] حُجَّتُنَا) : إشارة إلى ما تقدم من استدلاله واحتجاجه .

(وكيل[5]) : كفيل بالأمور . وقيل : كاف .

(وأعْرِض[6] عن المشركين) : إن كان معناه أعرض عما يدعونكَ إليه أو من مُجادلتهم فهو مُحْكَم ، وإن كان أعْرِض عن قتالهم وعقابهم فهو

---

(١) الأنعام : ٦٩ — (٢) النساء : ١٤٠ — (٣) الأنعام : ٧٥

(٤) الأنعام : ٨٣ — (٥) الأنعام : ١٠٢ — (٦) الأنعام : ١٠٦

منسوخ ، وكذلك : « ما أنا[1] عليكم بحفيظ » و « بوكيل[2] » .

(ولا تكسب[3] كلُّ نفسٍ إلاّ عليها) : ردّ على الكفار ، لأنهم قالوا : اعْبُد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تَبِاعة تتوقعها فى دُنياك وأخراك ، فنزلت الآية ؛ أى ليس كما قلتم ، وإنما كسب كلّ نفس عليها خاصة .

(وَسْوَس[4]) الشيطان للانسان : ألقى فى نفسه . والوسواس : الشيطان .

(ونَزَعْنا[5] ما فى صدُورهم مِنْ غِلٍّ) : أى من كان فى صدره غلّ لأخيه فى الدنيا نُزِع منه فى الجنة ، وصاروا إخوانا على سُرُر متقابلين ؛ وإنما عبر [٢٧٨ ا] بلفظ الماضى فى « نَزَعْنا » وهو مستقبل لتحقق وقُوعه فى المستقبل ، حتى عبّرعنه بما يُعبّر بهعن الواقع . وكذلك كل ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية اللفظ ، وهى تقع فى الآخرة ، كقوله : « نادَى[6] أصحابُ الجنة » .

فإن قلت : أى فائدة زيادة « إخوانا[7] » فى آية الحجر ؟

والجواب : لأنها نزلت فى الصحابة رضوان الله عليهم ، وما سِوَاها عامٌّ فى المؤمنين . وذكر أنّ ابنًا لطلحة كان عند على بن أبى طالب ، فاستأذن [الأشتر][8] فحبسه مدةً ، ثم أذن له ؛ فقال ، ألهذا حبَسْتَنى . وكذلك لو كان ابن عثمان حبستنى له ؛ فقال على : نعم ، إنى وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : « ونَزَعْنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين » .

قال بعضهم : فقال له بعض مَنْ حضر : كلا ، اللهُ أعدل مِنْ أن يجمعك

---

(١) الأنعام : ١٠٤ (٢) الأنعام : ١٠٧ (٣) الانعام : ١٦٤
(٤) الأعراف : ٢٠ (٥) الاعراف : ٤٣ (٦) الاعراف : ٤٤
(٧) الحجر : ٤٧
(٨) مكانها بياض فى الأصول ، والمثبت فى ابن كثير : ٢ — ٢٠٢ .

وطلحة فى مكانٍ واحد . فقال : لِمَنْ هذه الآية لا أمّ لك ! وإنما قال له هـذا القائل هذا لأن طلحةَ قاتلَ عليًا مع معاوية .

والآيةُ تدلُّ على أن الغِلَّ لا ينافى التقوى ، والتقوى مساويةٌ للإيمان ، وليست أخص منه ؛ بخلاف غيرها من الآيات ؛ إذ لو كانت أخصّ منه لما كان فى قلوبهم غلّ .

فإن قلت : لعل الغل فى قلوبهم وهم يجاهدونه .

فالجواب : الآية تأبى ذلك ، وهذه صفةٌ ممدوحة ، وهذا إن كان النزع فى الآخرة ، وإن كان فى الدنيا فلا كلام .

(وأنا[1] أوّلُ المؤمنين) : أى أول قومِه ، أو أول زمانِه ، أو على وجه المبالغة فى السَّبْق إلى الإيمان .

(واتَّخذَ[2] قَوْم موسى مِن بعدِه) : أى من بعد غيبته فى الطور .

(وأَوْحَى[3] ربُّك إلى النَّحْل ...) الآية : قد قدمنا أنّ الوحى ينقسم إلى أقسام ، هذا أحدها ، وهو الإلهام ؛ أو يكون بمعنى الأمر بأنَّ ربَّك أوحى لها . ومما يدلّ على أن هذا إلهام قوله[4] : « ثُمَّ كُلِي مِنْ كلّ الثمرات » .

وأتى بصيغة الأمر مبالغة فى قصدها إلى ذلك ، كما اشترط فى المأمور القَصْد إلى الافتعال . وقيل : إنه أمرٌ حقيقة ؛ أى ثمّ قال لها : كلِي من كلِّ الثمرات . قال ابن الخطيب : وبيتُها الذى صنعته مسدّس ، وقام البرهان فى علم الهندسة على أنه أحسن الخواتم ؛ لأنه منفصّل الزوايا ، ليس بينها خلل ، بخلاف المربع والمثمن ؛ وذلك الاتصال وعدمه لا يظهر إلا لمن قرأ ستّ مقالات من كتاب

(١) : الأعراف : ١٤٣
(٢) الأعراف : ١٤٨
(٣) النحل : ٦٨
(٤) النحل : ٦٩

إقليدس . والشكل المسدس أقرب إلى الاستدارة كدائرة الضابط ؛ قال : وفى بنائها حكمة عظيمة ، وهو أنها تنسج ملأ البيت الأعلى على ملأ البيت الأسفل ؛ وهذا دليلٌ على أنه لا يشترط فى الإحكام والإتقان عـــلم الصانع . ذكره فى المحصل .

فإن قلت : هل ترْعَى النَّوْرَ أو ما ينزل عليه وهو الترنجبيل ؟

فالجواب : هو الظاهر ؛ فإنه لا يظهر رعيها فى النور أثر . والظاهر الأول لاختلاف طَعْم عسلها بالحلاوة والمرارة بحسب ما ترعى ، ولو رَعَت الترنجبيل فقط لا تَحَدَ طعْم عسلها . وأيضاً فالترنجبيل عند الأطباء بارد ، والعسل حار .

فإن قلت : يكتسب الحرارة من النحل ؟

قلنا : نجد عسل السعتر والخلنج أشدّ حرارة من عسل الإكليل ، ولو كان منها لما اختلف .

فإن قلت : قد قال تعالى : « فيه[1] شفاءٌ للناس » ؛ فهل هو عام أو مطلق ؟

فالجواب : ليس على العموم ، ولأنّ الأمزجة مختلفة ؛ فإنما هو شفاءٌ لمن مازجه البلغم أو السوداء فى بعض الأحيان .

فإن قلت : كيف يكون شفاءً لصاحبِ الصفراء والسوداء مع اختلاف أمزجتهما ، لأنه إن كان عندكم يقمع الصفراء فلا يقمع نقيضها .

وأجيب : بأنّ الترياق يقوى الروح ، فتتقوى الغريزة النفسية ، فتغلب

---

(١) النحل : ٦٩ .

على الطبيعة المزاجية ، فضمها ، فصحّ بذلك كونه داءً للشيء ونقيضه . وقال ارسطاليس : إنه شفاء من مائة داء خاصّة .

(وعلى[1] اللهِ قَصْدُ السبيلِ) : يعني أن من الناس مَنْ هداه اللهُ بالدلائل العقلية ، فاهتدى ؛ ومنهم من ضلّ فجار وخالفها .

(ومنه[2] شَجَرٌ) : يريد به كَلأَ الأرض ، ولفظُ الشجر مشترك بين الجزء والكل . وقال عكرمة : الشجر ما ليس له ساق .

(وسَخَّر[3] لكم الليلَ والنهار ...) الآية : في تقديم الليل ما يدلُّ على أنه عدم ، والعدم سابق على الوجود ؛ أو لأن العرب إنما يؤرّخون بالليالي ، وأول الشهر ليله ، وفي هذا دليل على أن الليل أفضلُ من النهار ؛ لأن التقديم يُؤْذِنُ بالفضل ، ومعراج الخليل ، وإدريس ، وتكليم موسى الكليم ، وعيسى إلى البيت المعمور ، ومعراج [٢٧٨ ب] الحبيب إلى قاب قوسين كان ليلا .

وأيضا خدمةُ العباد وخلواتهم إنما تكون ليلا ، وأيضا فالليلُ من الجنة والنهار من الجحيم ؛ وذلك أنّ الله لما خلق النارَ أمر بإخراج الظلمة من الجنة ، لتكون نوراً صافياً كلّها ليس فيها نار ، وجعل الليل والنهار في الدنيا علامةً على الجنة والنار ؛ وذلك أن الراحة والأمن إنما يكون بالليل ، والتعب والشدة بالنهار ، وقدّم الشمس[3] في الآية وإن كانت مؤنثة ، لأن ضوء القمر يستمدّ منها .

(وتَسْتَخْرِجُوا[4] منه حلية تَلْبَسُونَها) : قد قدمنا أن الضمير يعود على البحر ، والمراد بها[5] اللؤلؤ أو المرجان ؛ ولذلك قال في سورة الرحمن : « يخرج[6] منهما اللؤلؤ والمرجان » .

---

(١) النحل : ٩ (٢) النحل : ١٠ (٣) النحل : ١٢
(٤) النحل : ١٤ (٥) أي الحلية (٦) الرحمن : ٢٢

(وقيل[1] للذين اتقَوْا ماذا أنزَلَ ربُّكم قالوا خيْراً) : يعنى أنهم قالوا خيرا ، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً من القائلين ، يعنى أنه يحتمل أن يكون من كلام المحكى عنه . ونظيرُ ذلك أن يقول زيد يقول خيراً الحمد لله ، فتقول أنت — حاكيا لكلامه : قال زيد خيراً الحمدُ لله ، فهذه من كلام الحاكى . والقول يحكى به الجمل والمفرد المؤدى معناها .

(ولقد[2] بَعَثْنَا فى كلِّ أمّةٍ رَسولا ...) الآية : فيها دليل على أنَّ اللهَ بعث لكل أمةٍ رسولاً منهم .

فإن قلت : هذا مناقض لما قلتم : إن الله بعث شعيبا إلى أُمّتين . وقد صح أنّ رسالةَ نوح ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانتا عامتين للعرب والعجم مما يدل على أن غيرهما لم يرسل إلى العجم ، فترى العقل خلا من السمع .

والجواب : أن ذلك فى التفاصيل والأحكام ، وأما الإخبار بوجود الله ووحدانيته فكلُّ نبيء أرسل بذلك على العموم .

فإن قلت : قس بن ساعدة وغيره من فُصحاء العرب وعَبَدة الأصنام كانوا لا يعرفون الإله بوَجْه .

والجواب : إنما ذلك فى عوامهم ، وأما رؤساؤهم فيعرفون وجودَ الإله ، وإن كانوا معاندين فى ذلك .

(وما أرسلنا[3] مِنْ قبلك إلا رجالاً نُوحِى إليهم . . .) الآية : تدل على تخصيص الرسالةِ بالرجال ، فيحتج به مَنْ قال إن مريم ليست بنبيّة . ويجاب بأن الآية إنما اقتضتْ تخصيصَ الرجال بالرسالة لا بالنبوءة ، وإما بأنَّ قوله « بالبينات » متعلق بأرسلنا .

(١) النحل : ٣٠ (٢) النحل : ٣٦ (٣) النحل : ٤٣

(وأنزلنا[1] إليكَ الذِّكْرَ لتُبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم): قد قدمنا أن المراد بالذكر القرآن ، يعني إمّا بسَرْدِك عِلْم آياته ، وإما بتفسيرك المجمل وشرح ما أشكل منه ؛ فيدخل فيه ما بيَّنَتْه السنّة من أمر الشريعة ؛ فعلى الأول المرادُ بالناس أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وإن أراد ما بيَّنَتْه السنّة فالناسُ عامة . وانظر قوله : « لعلهم[1] يتفكرون » . والتفكر إنما يكون من العلماء .

فإن قلت : المبين بعد المبين ، وأنزل يقتضى الإجمال ، وإنزاله دفعة واحدة . ونزل يقتضى التنجيم حسبما ألمّ به الزمخشرى فى أول خطبة كتابه ، والقرآنُ نزل أولا دفعةً إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منها منجّما ، فأنزل قبل نزل ، وجاءت الآية على العكس ؛ وهو أنّ بيان ما نزل يقع بإنزال الذكر ، فجعل متعلّق أنزل بمتعلق نزل .

والجواب : ما قدمناه : إن متعلق أنزل راجع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ومتعلق نزل راجع لأمته ؛ فأنزل على النبى صلى الله عليه وسلم جملة ؛ ليبين بها ما نزل على أمته مُفَصَّلا منجّماً .

(وله[2] الدِّينُ وَاصِباً) ؛ أى دائما . وانظر هل أراد بالدين الطاعة أو الجزاء ؟ وقد قال الزمخشرى فى قوله تعالى : «مالِكِ يَوْمِ الدين» إنه يوم الجزاء . وفى الآية دليل لمن حكى الإجماع على منعْ الردة فى الخَلْق كلهم .

فإن قلت : قوله تعالى أوّلا : « وله[2] ما فى السموات » أتَتْ دليلا على وجود الصانع ، فلِمَ عطف عليه : « وله الدين » ، وهو لا يحسن أن يكون دليلا على وجود الصانع ؛ لأنه إنما يستدلّ على وجوده بخلقه لا بالأحكام والشرائع

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) النحل : ٥٢

التي كلفوا بها ، لأنها مسببة عن ذلك ، فلو كان العطف بالفاء لصح لأنها تدلُّ على السببية .

والجواب : بأن المراد من بعد خلقه للعالم ، فما من زمان يأتي إلا وهو معبود فيه مُطَاع ، تَعْبُده الملائكة وبعضُ الناس ؛ فهذا يدلُّ على صحة وجوده. واستدلوا في علم الكلام على وجود الصانع بطريقين : إما حدوث العالم ، وإما إمكانه ؛ لأنّ الممكن لا بدّ له من مخصص يوقعه على أحد الجائزين ، وطريقُ الاستدلال بالحدوث يستلزمُ الإمكان ؛ لأنّ كلّ حادث ممكن ، وليس كل ممكن حادث ؛ فإن وجود حجر من زيبق أو من ياقوت ممكن ، وليس هو [٢٢٩ ا] بحادث ؛ إذ المراد الحدوثُ بالفعل ، وهذا الجوابُ إنما يتم على قول مَنْ فسر الواصب بالدائم .

(والله[1] خلقكم ثم يَتَوَفَّاكُمْ) : قد قدمنا أن الخلق أبلغ من الوجود ، ولما قدم في الآية التي قبلها التذكير بقدرة الله ، وما اشتملت عليه من الآيات والحكم - عقبه ببيان قُدْرته في خَلْق الإنسان ، وفي خلق أنفسكم . وأسند فعل التوفي هنا لله تعالى ، وقال في سورة السجدة : « قل[2] يَتَوَفَّاكم مَلَكُ الموت » . والجَمْعُ بينهما ينتج صريحَ مذهب أهل السنة القائلين بالكسب .

فإن قلت : لم قال : « ومنكم[1] من يُرَد » بحذف الفاعل ، وقال يَتَوَفَّاكم - فذكر الفاعل ؟

والجواب : أنه إذا كان المقصود الإشعار بالفعل على الإطلاق يحذف الفاعل ، كقولك رأى الهلال ، وإن كان المقصود الإخبار بفاعل الفعل يُذْكَر ؛ كقولك طَعَن عمر غلام المغيرة ، ولما كان التوفي قد خالفوا فيه ، وقالوا :

---

(١) النحل : ٧٠ (٢) السجدة : ١١

ما يُهْلِكنا إلا الدهر — ذكر فاعله ، بخلاف الرد إلى أرذل العمر ، فإنه أمرٌ ظاهر لا يحتاج إلى ذِكر فاعله .

وأجاب بعضهم بأنه لما ذكر فاعل البدأة وفاعل النهاية أنه الله تعالى — عُلِمَ أن ما بينهما من فعله ، فاكتفى بذلك ، ولم يحتَجْ إلى ذكره فى الرد إلى أرذل العمر ؛ لأنها حالةٌ متوسطة بين البداية والنهاية .

(ويعبدون[1] من دُونِ الله ما لا يَملكُ لهم رِزْقاً) : الضمير راجع للكفار ؛ يعنى أنهم يعبدون الأصنام وغيرهم .

فإن قلت : لِمَ يخصُّوهم بالعبادة لأنهم يقولون : « [2]ما نَعْبُدهم إلا ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى » فلِمَ ذكر هنا العبادة لهم ؟ وما فائدة إبراز الضمير فى لهم ؟

والجواب أن ذلك الجزء الذى صرفوه لهم من العبادة ؛ عبدوهم وهم فيه من دون الله ؛ وإنما أبرز الضمير ، لأنه إذا أبرز الضمير لمن عبده فأحْرَى ألا يملكه لغيره ، وقدْ قدمنا أن شيئاً فى الآية بدل من رزقا .

(ورَحْمَتِى[3] وَسِعَتْ كلَّ شىء) : يحتمل أن يريدَ رحمته فى الدنيا ، فيكون خصوصا فى الرحمة وعموما فى كل شىء ؛ لأن المؤمن والكافر والمُطيع والعاصى تنالهم الرحمة ونعمته فى الدنيا . ويحتمل رحمةَ الآخرة فيكون خصوصا فى كل شىء ؛ لأن الرحمة فى الآخرة مختصةٌ بالمؤمنين . ويحتمل أن يريد جِنْس الرحمة على الإطلاق ، فيكون عموما فى الرحمة وفى كل شىء . وقد صح أنَّ لله مائة رحمة ، رحمة فى الدنيا للجميع ، وبضم هذه الرحمة لتسعة وتسعين ويخصها بالمؤمنين .

---

(١) النحل : ٧٣ (٢) الزمر : ٣ (٣) الأعراف : ١٥٦

(وَقَطَّعْنَاهم[1] فى الأرض أُمَماً) ، أى فرقناهم فى البلاد ، فى كل بلد فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه ؛ وذلك بقتلهم الأنبياء .

(وإذْ[2] أخذَ رَبُّكَ مِنْ بنى آدَمَ) : فى معنى الآية قولان :

إن اللهَ لما خلق آدم أخرج ذرِّيته من صلبه وهم مثل الذر ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم ، فأقَرُّوا بذلك ، والتزموا . رُوِى هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة ؛ وقال به جماعةٌ من الصحابة وغيرهم .

والثانى أن ذلك من باب التمثيل ، وأن أخْذ الذرية عبارة عن إيجادهم فى الدنيا . وأما إشهادهم فمعناه أن اللهَ نصب لبنى آدم الآيةَ على ربُوبيته ، وشهدَتْ بها عقولهم ، فكأنه أشهَدهم على أنفسهم ، وقال لهم : ألَسْتُ بربكم ؟ فقالوا بلسان واحد : بلى ، أنتَ رُّبنا .

والأول هو الصحيح ، لتَوَاتر الأخبار به ، إلا أن ألفاظَ الآية لا تطابقه بظاهرها ؛ فلذلك عدل عنه مَنْ قال بالقول الآخر ؛ وإنما تطابقه بتأويل ؛ وذلك أن أخْذَ الذرية إنما كان من صلْب آدم ، ولفظ الآية يقتضى أن أخْذ الذرية من بنى آدم . والجمع بينهما أنه ذكر بنى آدم فى الآية والمراد آدم ؛ كقوله :

(ولقد[3] خَلَقْنَاكم ثم صوَّرناكم ...) الآية ، على تأويل لقد خلقنا أباكم آدم من صورته . وقال الزمخشرى[4] : إن المراد ببنى آدم أسلاف اليهود ، والمراد بذريتهم مَنْ كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم منهم .

والصحيح المشهور أن المراد جميع بنى آدم حسبما ذكر . وفى الحديث : إن

---

(١) الأعراف : ١٦٨ (٢) الأعراف : ١٧٢ (٣) الأعراف : ١١
(٤) الكشاف : ١ ـ ٣٢٠

أول من أجاب الأنبياء ثم العلماء بعدهم فأجابوا ، ثم العامة ، ثم الكفار ، فكلهم أقرّوا له بالربوبية .

(وإنْ تَدْعُوهم[1] [٢٠٩ ب] إلى الهُدَى لا يَسْمَعُوا) : يحتمل أن يريد الأصنام ؛ فيكون تحقيرا لها وردّا على مَنْ عبدها ؛ فإنها جمادٌ مَوَات لا تسمع شيئاً ؛ أو يريد الكفار ، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ؛ يعني سمعا ينتفعون به لإفراط نفورهم ، أوْ لِأنَّ اللهَ طبع على قلوبهم .

(وترَاهُم ينظرون[1] إليكَ) : إن كان هذا من وصفِ الأصنام فهو مجاز ، وقوله : « لا يُبْصِرون[1] » حقيقة ؛ لأن لهم صورة الأعين وهم لا يبصرون شيئاً . وإن كان مِنْ وَصْف الكفار فينظرون حقيقة ، ولا يبصرون مجازا على وَجْه المبالغة ، كما وصفهم بأنهم لا يسمعون .

(وإخوانُهم[2] يَمُدُّونهم في الغيِّ ثم لا يُقْصِرون) : الضمير في الجميع للشيطان ، وأريد بقوله: « طائف من الشيطان[3] » الجنس ؛ فلذلك أعيد عليه ضمير الجماعة . وإخوانهم هم الكفار ، ومعنى « يمدّونهم » يكونون مَدّا لهم ؛ أي يعضدونهم . وضمير المفعول في « يَمُدُّونهم » للكفار ، وضمير الفاعل للشياطين . ويحتمل أن يريد بالإخوان الشياطين ، ويكون الضمير في إخوانهم للكفار .

والمعنى على الوجهين أنّ الكفار يمدّهم الشيطان . وقرىء يَمُدّونهم ـ بفتح الياء وضمها . والمعنى واحد . « وفي الغي » يتعلق بيمدونهم . وقيل يتعلق بإخوانهم ، كما تقول : أخوه في الله أو في الشيطان .

(وإذا[4] لَمْ تأْتِهم بِآيةٍ قالوا لولا اجْتَبَيْتَها) : في معناها قولان :

---

(١) الأعراف : ١٩٨ (٢) الأعراف : ٢٠٢ (٣) الأعراف : ٢٠١
(٤) الأعراف : ٢٠٣

أحدها اخترعتها من قِبَل نفسك ، فالآية على هذا من القرآن . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتأخر عنه الوَحْيُ أحيانا ، فتقول الكفار : هلا جئت بقرآن من قولك ؟ والاجتباء معناه طلبتها من الله وتخيّرتها عليه ، فالآية على هذا معجزة ؛ أى يقولون اطلب من الله المعجزة .

(وإذا[1] قُرِئ القرآنُ فاستَمِعُوا له) : كانوا إذا سمعوا القرآن اشتغلوا عنه ؛ فأمر اللهُ بالإنصات لقراءته على الإطلاق ، ولا معنى لمن قال : إن معناها الإنصات لقراءة الإمام أو الخطبة ؛ لأن الآية مكّيّة ، والخطبة إنما شُرِعت بالمدينة . وأيضا اللفظ عام ، ولا دليلَ على تخصيصه .

(وَجِلَتْ[2] قلوبُهم) ؛ أى خافت . وقرأ أُبيّ بن كعب فزعت . ومنه : لا توجل ، وَوَجِلون .

فاعرِضْ نفسك على هذا الميزان ؛ هل تجدُ لذِكْرِ الله وجلا فى قلبك ؛ فأنتَ مؤمن حقا ، وحينئذ فلا تنسَ نفسك وإخوانك من الدعاء ، وإلا فابكِ على نفسك لحرمانك بخطيئتك ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات .

(وإنّ[3] فريقاً من المؤمنين لكَارِهُونَ) ؛ أى لقتال العدو ؛ وذلك أنّ عيرقريش أقبلَتْ من الشام فيها أموالٌ عظيمة ، ومعها أربعون راكباً ؛ فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ، فسمع بذلك أهلُ مكة ، فاجتمعوا وخرجوا فى عَدَدٍ كثير ليمنعوا عيرهم ، فنزل جبريل ، وقالَ : يا محمد ، إنّ الله يَعِدُكِم إحْدَى الطائفتين ؛ إما العير وإما قريشا ؛ فاستشارهم صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا : العير أحبُّ إلينا من لقاء العدو ؛ فقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ؛ فقال له سعد بن عبادة : امض لما شئت ، فإنا

---

(١) الأعراف : ٢٠٤ (٢) الأنفال : ٢ (٣) الأنفال : ٥

متبعوك . وقال سعد بن معاذ : والذي بعثك بالحق لو خضتَ هـــذا البحر لخضناه معك .

(وليَرْبِطَ[1] على قلوبكم ويثبِّتَ به الأقدام) : لما عدم الصحابة الماء قبل وصولهم إلى بَدْر أنزل الله عليهم الماءَ فتطهَّروا به ، وثبتت قلوبهم بزوال ما وَسْوس لها الشيطان من عدم الماء لوضوئهم وغسلهم ، وأزال عنها الكسل، وكانوا فى رملة دَهسَة لا يثبت بها قدم ، فلما نزل المطر تلبَّدَت ، ولبَّدَت الطريق ، وسهل المشى والوقوف . وروى أنَّ ذلك المطر صعب الطريق على المشركين ، فكان فيه لطف من الله ؛ فلذلك عدَّدَه من نعمه عليهم .

(وإنْ[2] تعودوا نَعُدْ) ؛ أى إنْ تعودوا إلى الاستفتاح والقتال نعد لقتالكم والنصر عليكم .

(ولا تَوَلَّوْا[3] عنه وأنتم تسمعون) ؛ أى القرآن والمواعظ .

(وإذ[4] يَمْكر بكَ الذين كفروا ...) الآية : عطف على « إذ[5] أنتم قليل » ، أو استئناف ، وفيها إشارةٌ إلى اجتماع قريش بدار النَّدْوة .

قال الثعلبى : كانوا [٢٨٠ ا] اثنى عشر رجلا دخلوا الدارَ ، ودخل معهم إبليس لعنه الله على صورةِ شيخٍ فى يده عصاه ؛ فقال له أبو جهل : إنّا قد اجتمعنا فى تدبير أمرٍ خفىّ ، فارجع أنتَ يا شيخ . فقال إبليس : إنى شيخ من أرض نَجْد رأيت الدهور ، وكرّت الأمور علىّ ، أنا أعلم مصالح التدبير وموافقة التأويل والتفسير ، فأدخلونى معكم لعلى أنبئكم بتأويله . وإنما نسب نَفْسَه لنَجْد ، لأنهمْ قالوا : لا تدخِلوا معكم أحدا من أهل تهامة لحبتهم فى محمد ،

---

(١) الأنفال : ١١ (٢) الأنفال : ١٩ (٣) الأنفال : ٢٠
(٤) الأنفال : ٣٠ (٥) الأنفال : ٢٦

فلما دخلوا قال لهم عتبة : إن الموت حق ، فاصبروا حتى يقضيَ الله على محمد ، فتنجوا من شره . فقال له إبليس : أفّ لك ! أين أنتَ عن التدبير ، أنت لا تصلح إلا لرَعْى المواشى ، فلو صبرتم حتى يموتَ محمد يظهر دينه فى مشارق الأرض ومغاربها ، فتجتمع عنده عساكر عظيمة لمحاربتكم ، فيهلككم . فقالوا : صدق الشيخ النجدى . ثم قال شيبة : إنى أرى أنْ نَحْبِسه فى بيتٍ ونغلق أبوابه حتى يموت فيه جوعا وعطشا . فقال ابليس : وهذا أيضاً ليس بصوابٍ ؛ فإنّ بنى هاشم يجتمعون ويأخذونه من أيديكم ، ويخلون سبيله ، ويقع بينكم وبين أقربائه عداوة عظيمة . فقالوا : صدق الشيخ النَّجْدى . فقال عاص بن وائل : نعضد(١) محمداً على بَعير ونَسوقه فى البادية ليهلك فيها . فقال إبليس : ليس بصوابٍ ؛ لأن محمداً فصيح اللسان ، مَليح الجنان ، قويم القامة ، صبيح الوَجْه ، كلُّ مَن رآه أحبه ؛ وربما لقِيَه أحدٌ وهداه إلى البلاد ، فيصدقه كلُّ من يسمع كلامه ، ويجتمع عنده جمع عظيم ، فيرجع إليكم ، ويحاربكم ؛ فصاحوا جميعا : صدق الشيخ النجدى .

فقال أبو جهل لعنه الله : إنى أرى أنْ نُخرِجَ من كل قبيلة شابًا فيهجمون على محمد فى ليلة فيضربه كلُّ واحد منهم ضربةً جميعاً بالأسلحة حتى لا يُعلم قاتله بعينه ؛ فإذا طَلَبَ أقاربُه الديةَ نَجمَع الأموال من القبائل ونعطيهم وننجو من شره . فقال إبليس : أحسنتَ وأصبْتَ ، رَأيك أحسن الرأى ، وتدبيرك أحسن التدبير ؛ فاتفقوا على قَتْله صلى الله عليه وسلم ، وتفرقوا من دار الندوة ، فنزل جبريل بهذه الآية ، ثم قال : إن الله يقول لكَ : اخرج من مكة . فأتى إلى أبى بَكْر ، وكان يأتيه كلّ يوم طرفى النهار ، فأتاه فى الظَّهيرة ؛ فقال

---

(١) العاضد : الماشى إلى جانب دابة (القاموس) .

أبو بكر : ما جاء بك في هذا الوقت ؟ فداك أبي وأمي ! فقال له : أخرج مَنْ معك . فقال : وهل هُمْ إلا أهلك . فقال : أما شعرت أنَّ الله أمرني بالخروج ، وكان يقول لأبي بكر : لا تهـــاجر حتى أجدَ لك رفيقا ، فقال له : الصحبة يا رسول الله . فقال : الصحبة . فقال : خُذْ إحدى هاتين الناقتين . فقال له : لا آخُذها إلا بالثمن ، ليكون مُهاجرا بنفسه وماله .

ثم قال لأصحابه : أيّكم يبيت على فراشي أضمن له على الله الجنة ؟ فقال عليّ : أنا يا رسول الله ، وأجعل نفسي فداك . فبات عَليٌّ عَلَى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء الكفار يحرسونه ويرتقبون خروجَه ، وإبليسُ معهم ، فسلّط اللهُ عليهم الغَفْلَةَ والنومَ ، ونام إبليس لعنه الله ، ويقال: إنه لم ينم قط إلا في تلك الليلة ، ولا ينام بعدها أبدا ! فخرج صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر ورآهم نائمين ، فأخذ التُّرابَ وحثى[1] على رءوسهم . وقرأ سورة يس حين قصد المرور ، فلم يره أحد ببركة يس .

وفي الحديث : إن الله أوحى إلى جبريل ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل يقول : مَنْ يقتلك يا بن أبي طالب باهى اللهُ بك الملائكة ، فأنزل الله عليه : « ومن[2] الناس مَنْ يَشْري نَفْسه ابتغاءَ مرضاةِ الله واللهُ رءوف بالعباد » .

(وَلِيجةً[3]) : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وَليجة فيه ، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وَليجة .

(وقيل[4] اقعدوا مع القاعِدين) : يحتمل أن يكون القائل الله تعالى ، أو

---

(١) حثى : رمى . (٢) البقرة : ٢٠٧ (٣) التوبة : ١٦
(٤) التوبة : ٤٦

يكون ذلك من قول بعضهم لبعض ؛ وعلى الأول فهو عبـــارة عن قضائه عليهم بالقصود .

(والسابقون[1] الأوّلون) : قيل هم مَنْ صلى القِبلتين ، وقيل مَنْ شهد بدراً . وقيل مَنْ حضر بيعةَ الرضوان [٢٨٠ ب] . وقيل : مَنْ أسلم قبل الهجرة . وقيل : مَن اشتغل بمعادِه عن معاشه . وقيل : الذى غلبَ عقلُه على شهوته .

(والذين[1] اتّبعوهم) : سائر الصحابة ، ويدخل فى ذلك الباقون ، ومَنْ بعدهم إلى القيامة بشرط الإحسان .

(ورَضوا[2] بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها) : الضمير عائد على الكفار ؛ لأن هذا شأنهم ؛ قنعوا بالدنيا ، وسكنَتْ نفوسهم عن ذكر الانتقال منها ؛ فإياكَ والاتصاف بهذا الوصف، وهو حالُ أكثرنا ؛ لأنا نفرح بالزيادة منها ، ونحزن لفقدانها ، فيوشك أخذنا منها بغتة .

(ويَعْبدونَ[3] مِنْ دون الله ما لا يَضُرّهم ولا يَنْفَعهم) : الضمير عائد على الكفار من قريش الذين تقدمَتْ محاورتهم ، فأخبر الله أنّ أصنامهم لا تضر ولا تنفع . وردّ على مَنْ زعم نَفْعَهم لهم .

وقدم الضر هنا لتناسب الواردَ مِنْ متصل قوله : « ولا ينفعهم » بقوله : « ويقولون[4] هؤلاء شفعاؤنا عند الله » .

(ومنهم من[5] يؤمن به ...) الآية : أخبر الله فيها بما يكون منهم فى المستقبل . وقيل : إنّ بعضهم يؤمن وهو يَكتم إيمانه ، ومنهم من يكذب .

---

(١) التوبة : ١٠٠ (٢) يونس : ٧ (٣) يونس : ١٨
(٤) يونس : ١٨ (٥) يونس : ٤٠

(ومنهم[1] مَنْ يَنظر إليكَ أفأنتَ تَهْدِي العُمْيَ): المعنى أتريد أن تهدى العُمى ؛ وذلك لا يكون .

فإن قلت : ما الفرقُ بين « من » فى الاستماع[2] وبين هذه ؛ لأنه جاء أولا بلفظ الجمع وهنا بلفظ الإفراد ؟

فالجواب : أن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بخلاف النظر ؛ فكان فى المستمعين كثرة ؛ فجمع[3] ليطابق اللفظ المعنى ، ووَحّد ينظر حملا على اللفظ ؛ إذ لم يكثروا كثرتَهم .

وقد قدمنا أنه إذا جاء الفعل على لفظ « من » فجائز أن يعطف عليه آخر على معناها ، وإذا جاء أولا على معناها فلا يجوز أن يعطف بآخر على اللفظ ؛ لأن الكلام يلتبس حينئذ ، وكأنه قال : ومنهم من يَنظر إليك ببصره ، لكنه لا يعتبر ، ولا ينظر ببصيرته ؛ فهو لذلك كالأعمى فسلاه الله بهذه الآية ؛ والهدايةُ إنما هى بيد الله ، ولو شاء الله لجمعهم على الهُدَى .

(ولكل[3] أمّةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولهم قضِيَ بينهم بالقِسْطِ وهم لا يظلَمون) : قال مجاهد : المعنى فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّرَ قوْم للجنة وقوم للنار ؛ فذلك القضاءُ بينهم بالقسط . وقيل : المعنى فإذا جاء رسولهم فى الدنيا وبُعث صاروا ممن ختم اللهُ بالعذاب لقوم وبالمغفرة لآخرين لغاياتهم ؛ فذلك قضاء القِسْطِ بينهم ، وقرر بعض المتأولين هذه الآية بقوله تعالى : « وما كنا[4] مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولا » ؛ وذلك يتفق بأن يحمل معذبين فى الآخرة ، وأما بأن يحمل القضاء بينهم فى الدنيا بحيث يصحُّ اشتباه الآيتين ؛

---

(١) يونس : ٤٣ (٢) فى الآية ٤٢ : ومنهم من يستمعون إليك ...
(٣) يونس : ٤٧ (٤) الإسراء : ١٥

وإنما ورد في سورة يونس بالقسط في الموضعين ؛ لأنه بمعنى العدل والتسوية في الحكم بمظنة وروده حيث يُراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة .

(وأُمِرْتُ[1] أنْ أكونَ من المؤمنين) : هذه مخاطبة من الله لنبيه ، ويدخل تحته جميعُ المكلفين من أمّته ، وهذه الآية قبلها يتسق معناها بمحذوفات يدلُّ عليها هذا الظاهر الوجيز . والمعنى إن كنتم في شك من ديني فأنتم لاتعبدون الله ، فاقتضت فصاحةُ الكلام وإيجازه اختصار هذا كله . وأمره هنا بالإيمان بخلاف آخر النمل ؛ لأنه تقدم قبلها : « ولَوْ شاءَ[2] رَبُّك لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً » . « وما كان[3] لنَفْسٍ أنْ تؤمن إلا بإذْنِ الله » . وبعد هذا : « وما تغْنِي[4] الآيات والنُّذُر عن قَوْمٍ لا يؤمنون » . وبعد هذا كله : « كذلكَ[5] حقًّا علينا ننجِ المؤمنين » . وأما آية النمل فإن قبلها قوله : « إنما[6] أمِرْتُ أنْ أعْبُدَ رَبَّ هذه البلدةِ الذي حرَّمها ولَهُ كلُّ شيء » . وهذا يقتضي تسليم كل شيء له والتبرى من توهّم شريك أو نظير ، فناسب هذا قوله : « وأمِرْتُ أنْ[6] أكونَ من المسلمين » .

(وأنْ[7] أقِمْ وَجْهَكَ) ، أي قَصْدَكَ ودينك .

(واصْبِرْ[8] حتى يَحْكُمَ اللهُ وهو خَيْرُ الحاكمين) : وعد بالنصر والظهور على الكفار ، وإنما زاد في الأعراف[9] « بيننا » ، لأنه من خطاب الله لشعيب ، فناسبه البسط في الكلام .

(ويَتْلوه[10] شاهِدٌ منه) : الضمير في « يتلوه » للبرهان ، وهو البينة ، أو

---

(١) يونس : ١٠٤ (٢) يونس : ٩٩ (٣) يونس : ١٠٠
(٤) يونس : ١٠١ (٥) يونس : ١٠٣ (٦) النمل : ٩١
(٧) يونس : ١٠٥ (٨) يونس : ١٠٩ (٩) الأعراف : ٨٧
(١٠) هود : ١٧

لمن كان على بينة من رَبّه ، والضميرُ فى « منه » للرب تعالى . ويتلو هنا بمعنى يتبع ، والشاهد يراد به [٣٨١ ا] القرآن . والمعنى يتبع ذلك البرهانَ شاهدٌ من الله ، وهو القرآن فيزيد وضوحه وتعظيم دلالته . وقيل : إن الشاهد المذكور هنا هو علىّ بن أبى طالب ، فيالها من فضيلة ا كرر ذِكْرَه فى مواضع ، ولذلك قال له صلى الله عليه وسلم : الناس فى شجر شتّى وأنتَ فى شجرةٍ واحدة . وشبّهه بسورة الإخلاص فى قوله : مَنْ قرأ سورة الإخلاص مرة واحدة فله ثوابُ ثلث هذه الأمة ، ومَنْ قرأها مرتين فله ثلثا ثوابِ هذه الأمة ، ومن قرأها ثلاث مرات فله ثوابُ هذه الأمة . وقال : مَنْ أحبّ عليا بقلبه فله ثلث ثواب هذه الأمة ، ومن أحبه بقلبه ولسانه فله ثلثا ثواب هـــذه الأمة ، ومن أحبّه بلسانه وقلبه وجوارحه فله ثوابُ جميع هذه الأمة .

وقال مجاهد : نزلت فى علىّ سبع آيات ، لأنه كانت له أربعة أشياء لم تكن لغيره : السخاوة ، والشجاعة ، والزهادة ، والعلم . وله من جهة الرحمن امرأته أفضل النساء ، وصهره أفضل الخلق ، وشاهده جبريل ، وولده الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

(ومِنْ[1] قَبْلِهِ كتابُ موسى) ، أى من قبل ذلك الشاهد كتابُ موسى يشهد بأنَّ هذا القرآن هو من عند الله . وقيل أقوال غير هذه ، هذا أصحّها .

(ويَقولُ[2] الأَشْهادُ) : جمع شاهد كأصحاب . ويحتمل أن يكون من الشهادة ، فيراد به الملائكة والأنبياء ، أو من الشهود بمعنى الحضور ، فيراد به مَنْ حضر الموقف .

---

(١) هود : ١٧ (٢) هود : ١٨

(ومَنْ[1] آمَنَ) : معطوف على « أهْلَكَ » ، أى احمل أهلك ومَنْ آمَنَ من غيرهم .

(وعلى[2] أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) : يعنى فى السفينة . واختار الزمخشرى[3] أن يكون المعنى من ذرية مَنْ معك ، ويعنى به المؤمنين إلى يوم القيامة ، فـ « مِنْ » على هذا لابتداء الغاية . والتقدير على أمم ناشئة ممن معك ، وعلى الأول تكون مِنْ لبيان الجنس .

(وأُمَمٌ[2] سنمتّعهم) ، أى بمتاع الدنيا ، وهم الكفار إلى يوم القيامة .

(ولما[4] جاء أمْرُنا) : الأمر واحد الأمور ، ويحتمل أن يكونَ مصدر أمر يأمر ، أى أمرنا الريح ، أو خزَنتها ، ونحو ذلك .

فإن قلت : لِمَ قال هنا وفى قصة شعيب[5] : « ولما » بالواو ، وفى قصة صالح[6] ولوط[7] : « فلما » بالفاء ؟

والجواب : على ما قال الزمخشرى[8] : إنه وقع ذلك فى قصة صالح ولوط بعد الوعيد ، فجىء بالفاء التى تقتضى التسبيب ، كما تقول : وعدتُه ، فلما جاء الميعاد ، بخلاف قصة هود وشعيب فإنه لم يتقدم ذلك فيهما ، فعطف بالواو . وقيل فى الجواب غير هذا مما يطول ذكره .

(ونَجَّيْنَاهم[9] من عذابٍ غَلِيظ) : يحتمل أن يريد به عذابَ الآخرة ، ولذلك عطف على النجاة الأولى التى أراد بها النجاةَ من الريح . ويحتمل أن يريد بالثانى أيضاً الريح ، وكرره إعلاما بأنه عذابٌ غليظ وتعديد النعمة فى نجاتهم .

---

(١) هود : ٤٠ (٢) هود : ٤٨ (٣) الكشاف : ١ ـ ٤٤٣

(٤) هود : ٥٨ (٥) هود : ٩٤ (٦) هود : ٦٦

(٧) هود : ٨٢ (٨) الكشاف : ١ ـ ٤٤٥ (٩) هود : ٥٨

(وأُتْبِعُوا[1] فى هذه الدنيا لَعْنَةً) : حكم عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلّ العذابُ بهم ، وقد تبيّن أن هؤلاء وافوا على الكفر ، فيلعن الكافر الموافى على كُفْره ، ولا يلعن أحدا بعينه حتى البهيمة ؛ لأن معناها البعد من رحمة الله .

فإن قلت : لم جمع فى قصة هود بين اسم الإشارة ولفظ الدنيا الجارى عليه وصفا ، واكتفى فى قصة موسى[2] باسم الإشارة دون التابع ؟

والجواب : أنّ قصة هود عليه السلام فى هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسى عليه السلام بكثير ؛ فناسب الطولُ الطولَ ، والإيجازُ الايجازَ ، ولا يليق العكس .

(وإنَّنا[3] لَفِى شَكٍّ مما تَدْعُونَا) : هذا من قول قوم صالح ، أخبروه أنهم فى شك من أقاويله ، وأن ذلك الشك يرتابون به زائدا إلى مرتبته من الشك ؛ ولا فَرْق بين هذه الحال وحالة التصميم على الكفر ، وإنما أثبتوا النونين الداخلين للتأكيد ، وأفرد الضمير فى تدعونا ، وألحقه فى سورة إبراهيم[4] ، لأنها واردة على الأصل فى اتصال الضمير المنصوب بها . ثم يجوز حذفُ إحدى المضاعفين تخفيفا ، فتقول : إنا ، فتكتفى بالضمير عن النون المحذوفة ، وذلك من فصيح كلامهم . والأصل الأول .

(وأخذ[5] الذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فأصْبَحُوا فى دِيَارِهم جاثِمين) : إنما ذَكَّرَ الفعل المسند إلى الصيحة ، لأنها بمعنى الصياح وتأنيثها غَيْرُ حقيقى . وقيل جاز ذلك وهى مؤنثة لما فُصل بين الفعل وبينها [٢٨١ ب] كما قالوا : حضر

---

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٩٩ (٣) هود : ٦٢
(٤) إبراهيم : ٩ (٥) هود : ٦٧

القاضى اليوم امرأة . والأول أصوب . وإنما أسقط تاء التأنيث من هذه القصة وأثبتها فى قصة شعيب[1] ، لأنه على ضربين : حقيق ، وغير حقيق ، فالحقيق لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يَقع فصل ، نحو قام اليوم هند ، وكلما كثر الفصل حسن الحذف . ومن كلامهم ، كما قدمنا لو الإشارة مع الحقيق ما لم يكن جَمْعاً .

وأما التأنيث غير الحقيقى فالحذفُ فيه مع الفصل حسن ؛ قال تعـــالى : « فمَنْ[2] جاءَهُ موعظةٌ من ربه » وهو كثير ؛ فإن زاد الفصل ازداد حسنا ، والحذفُ والإثبات هنا جائزان ؛ فجاء الفعل فى هذه الآية على الأول ، وفى قصة شعيب على الوجه الثانى ، جَمْعاً بين الوجهين ، إذ الآيتان فى سورة واحدةٍ ، وتقديما للأوْلى على ما ينبغى ، وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكامٌ تخصه . والله أعلم .

(ولما[3] جاءَتْ رسُلُنا لوطاً) : قد قدمنا أنه أعاد الضمير ، لظَنّه أنهم من بنى آدم وخوفه عليهم من قومه ، وقوله لهم : « لو أنَّ[4] لى بكم قوةً » . ولما قالها قالوا له : إنَّ رُكْنَكَ لشَدِيد .

فإن قلت : كيف ينطق بهذا وقد قال صلى الله عليه وسلم : يرحم اللهُ لوطا ، لقد كان يَأْوِى إلى رُكْنٍ شديد ؟ وفى الحديث : لم يبعث الله نبيا إلا فى مَنَعَةٍ وعزة ؟

والجواب : أنه خشى عليه السلام أنْ يمهل الله أولئك العصابة حتى يعصوه فى الأضياف ، كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم ، فتمنّى ركناً من

---

(١) هود : ٩٤ : وأخذت الذين ظلموا الصيحة .

(٢) البقرة : ٢٧٥ (٣) هود : ٧٧ (٤) هود : ٨٠

البشر يعاجلهم ، وهو يعلم أنَّ اللهَ تعالى مِنْ وراء عقابهم ، وأيضاً فإنَّ قَوْمَه إنما يمنعونه هو لو أرادوه بضرّ ، وقد كان المطيع فيهم قليلا .

ولقد أُصيب نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم فى غير ما موطن مِنْ شَجِّ رأسه ، وكَسْرِ رباعيته ، وطَرح سلا الجزور على ظَهْرِه ، ولم ينطق بشيء من ذلك عزامة منه ونجدة .

فإن قلت : لِمَ حذف من هذه الآية إن الزائدة فى العنكبوت[1] ؟

والجواب : أنها كثيراً ما تُزَاد ، ولما وردت هذه الآية بلفظها مرتين ، وردت الثانية بزيادتها ليحصلَ بين التَّوَارُدين ما يرفع تثاقل اللفظ المتكرر .

فإن قلت : فإنه قد تباعد ما بين الآيتين ، ومِثْلُ هــــذا لا يلحظ فيه ما ذَكَرْت .

فأقول : لما كان اللفظُ اللفظَ ، وكان زيادة « إن » وعدم زيادتها هنا مقيس فصيح جيء بالجائزين معا ، وتأخرت الزيادة ، إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين .

فإن قلت : إن قوله تعالى : « فلمّا[2] أنْ جاء البَشير » لم يقع فيه تكرار ، فلِم زِيد « أن » ولم يأت على الأصل ؟

قلت : لما كان مجيء البشيرِ إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن ، وتَباعُد المدة ، ناسب ذلك زيادة « أن » لما فى مقتضى وَضْعِها من التراخي ، فورَد كلٌّ من هذا على ما يجب .

(ولقد[3] أرْسَلْنا مُوسى بآياتِنا وسُلْطانٍ مُبين) : قيل هو مشتق من

---

(١) العنكبوت (٣٣) : ولما أن جاءت رسلنا لوطا ...

(٢) يوسف : ٩٦ (٣) هود : ٩٦

التسليط الذي يستضاء به . وقيل : إنه مسلط على كل منّا ومخاصم ، وزاد السلطان في هذه الآية وفي سورة غافر زيادة قوله : « وسلطان[1] مبين » ، وورد في سورة يونس[2] والمؤمنين[3] ذكر تأييد موسى بأخيه هارون عليهما السلام ، ولم يرد ذلك في غيرها . وانفردت سورة المؤمنين بالجمع بين تأييده عليه السلام بأخيه وسلطان مبين ، لأنه حيث يذكر سورة الرسل إليهم وقُبح جوابهم يقال أبدا بتأييده بأخيه أو عضده بالآيات بما يقتضي القهرَ والإرغام ، وهو المعبَّرُ عنه بالسلطان المبين ، فيكون ذلك في مقابلة شَنيع مجاوبتهم وسوء رَدِّهم .

وبالجملة فإنه إذا اجتمع إفصاحُهم بالتكذيب واستكبارُهم جمع في التمهيد المتقدم بين التأييد بهارون والسلطان المبين ، وحيث يصرح بالتكذيب أو مايعطيه بينا ، كقوله[4] : « فاتَّبَعُوا أمرَ فِرْعون » .

(وما كان[5] رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرَى بظلْمٍ) : هذا المجرور في موضع الحال من « ربك » ، ويحتمل أن يريد بظلمٍ منه تعالى لهم . قال الطبري : وقيل يحتمل أن يريد بشرك منهم ، وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم ، وعَدْل بعضهم في بعض ، أي أنهم لا بد من معصية تقترن بكفرهم . وهذا ضعيف ، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل إن الله تعالى يُمْهِل الدُّوَل على الكفر ، ولا يُمهِلُها على الظلم والجور ، ولو عكس لكان ذلك متجِها [٢٨٢ ا] ، أي ما كان الله ليعذِّبَ أمةً بظلم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان . والاحتمال الأول أصحُّ إن شاء الله .

وجيء بالفعل هنا « ليهلك » إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم ؛ فلو كان في كل أمة وقَرْن بعد قَرن مَنْ يَنْهَى عن الفساد والظلم لما أخذوا

---

(١) غافر : ٢٣ (٢) يونس : ٦٨ (٣) المؤمنون : ٤٥
(٤) هود : ٩٧ (٥) هود : ١١٧

بذوى الظلم منهم و [لكن الله][1] تعالى يدفعُ بعضهم عن بعض ، ولكن تكرر الفساد ، وعمّ كل قرْن ؛ فتكرر عليهم الجزاء والأخذ ؛ فأشار بالفعل إلى التكرر ، ولم يكن قوله : « مهلك[2] » فى سورة الشعراء نيعطى ذلك ، وهنا كقوله تعالى : « أو[3] لم يرَوْا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن » ولم يقل وقابضات لمّا قصد من معنى التكرر .

(ولا يزَالُون[4] مُخْتَلفين . إلاّ منْ رَحِمَ رَبك ولذلكَ خَلَقَهُم) : الإشارة إلى الاختلاف فى المذاهب والأديان والملل . وقيل الإشارة إلى الرحمن ، وقيل إليهما .

(وكُلاًّ[5] نَقُصّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُل) : انتصب كُلاًّ بنقصّ و «ما» بدل من كلاً ، والإشارة فى : « وجاءَكَ[5] فى هذه » إلى السورة .

(وإن[6] كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لِمنَ الغافِلين) ؛ أى من قبل القصص غافلا عن معرفته ، وفى هذا احتجاج على أنه من عند الله ، لكونه جاء به من غير تعليم .

(وكَذلِكَ[7] يجْتَبيك رَبُّكَ ويُعلِّمكَ من تأويل الأحاديث) : قيل هى عبارة الرؤيا ، واللفظ أعمّ من ذلك .

(والشَّمْسَ[8] والقَمَرَ رَأيتُهم لى ساجِدِين) : كرر الفعل لطول الكلام ، وأجرى الكواكبَ والشمس والقمر مجرى العقلاء فى ضمير الجماعة لمّا وصفها بفعل مَنْ يعقل .

---

(١) مكانها بياض فى الأصول .

(٢) هنا بالأصول والذى فى الشعراء ، آية ٢٠٨ : وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . وفى آية ١٣٩ : فكذبوه فأهلكناهم .

(٣) الملك : ١٩ — (٤) هود : ١١٨، ١١٩ — (٥) هود : ١٢٠

(٦) يوسف : ٣ — (٧) يوسف : ٦ — (٨) يوسف : ٤

هذا يوسف أنجاه عِلْمُهُ من ذلّ السجن والبلوى ، وأنتَ يا محمدى عَلّمكَ الله عِلْمَ كتابه ، أفلا ينجيك علمك به من ذل الذنب ، ويوصلك إلى جوار الرب ، وقد اجتباك بقوله تعالى : « هُوَ[1] اجْتَبَاكُمْ » . هذه رؤيا وافق تعبيره على ما رأى ، وعصمه الله ، ووصل إلى الملك ، وكيف لا يعدّ لك الملكَ الأعظم ، ويحفظك من مكايد إبليس ونزعاته عند الموت ؟

(وَارِدَهُمْ[2]) : الوارد هو الذى يستقى الماءَ ، وكان سيِّدَ القافلة مالك ابن ذعر من العرب العاربة ، فلما رأى يوسفَ تفرّس فيه الصلوحية ، فطلب من يوسف الدعاء ، فدعا له بالنسل ؛ لأنه لم يكن له ، فدعا له فرزقه اللهُ اثنا عشر ولدا ، أعقب كلُّ واحد منهم قبيلة .

(وأَسَرُّوهُ[3] بِضَاعة) : الضمير للسيارة ، والمفعول ليوسف ؛ أى أخفوه من الرُّفقة ، وقالوا : دفعه لنا قومٌ لنبيعه بمصر .

(واللهُ[3] غالبٌ على أمْرِه) : فى عودة الضمير وجهان : أحدهما أن يعود على الله . والمعنى أنه يفعل ما يشاء لا رادَّ لحكمه . والثانى أنه يعود على يوسف ؛ أى يدبّرُ اللهُ أمره بحفظه وكرامته ؛ ألا ترى أنه لما كان يوسف بحضرة والده وبمَرْأى منه حاله إخوته على أعناقهم ، فلما غاب عن بصره توجّهت إليه المحنُ ، ولاقى الشدائد ، وكانت عاقبته الملك .

وأنت يا محمدى ، مالك لا تخاف من نظر الله إليك ، فيراكَ على مخالفته ، ويحرمك من رحمته .

(وإن[4] كان قميصه قُدَّ من دُبر فكَذَبَتْ وهو من الصادقين) ،

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) يوسف : ١٩ (٣) يوسف : ٢١

(٤) يوسف : ٢٧

لأنها جبذته[1] إلى نفسها حين فرّ منها ، ولهذا يحكم القاضى بالقرائن المغلِّبة للظن غالبا .

وقد قدمنا أن هذا الصبيّ كان من أقرباء زليخا وصل وزارة يوسف بشهادته له .

وأنتَ تشهد لخالقك بالوحدانية ، ولرسوله بالرسالة ، أتراه لا يوصلك الملك الكبير ، وهو على كل شيء قدير !

اللهم إنى أشهدك بما شهدت به لنفسك ، وثنّيْت بملائكة قدسك ، وثلثت بأولى العلم من جنِّكَ وإنسك ؛ إنك أنتَ الله لا إله إلا أنت وحدَكَ لا شريك لك . وإن محمداً عبدك ورسولك ، وأستودعك هذه الشهادة وأنتَ تحفظ الودائع ، ولا تخيب من استودعك ، فرُدَّها علينا وقتَ احتياجنا إليها .

(ولج) يلج ، أى دخل ، ومنه ما يلج فى الأرض . وأولج يولج ، ومنه : « يُولِجُ[2] الليلَ فى النهار » .

(وابيَضَّتْ[3] عيناهُ من الحزْن) ، أى من البكاء الذى هو ثمرة الحزن ، قيل : إنه عمى . وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفاً [٢٨٢ ب]. وفى الحديث : إن يعقوب حزن حُزْنَ سبعين ثَكلَى . وما ساء ظنُّه بالله قطّ ، فلذا أُعطى أجْرَ مائة شهيد .

(وأعلَمُ[4] مِنَ اللهِ مالا تَعلَمون) : هذا من قول يعقوب ، يعنى إنى أعلم من لطفه ورحمته ما يوجِب حسْنَ ظنى به وقوة رجائى فيه .

(ولِكلِّ[5] قَومٍ هاد) : روى أنها لما نزلت قال عليه السلام : أنا

---

(١) جبذته : جذبته .	(٢) الحج : ٦١	(٣) يوسف : ٨٤
(٤) يوسف : ٨٦	(٥) الرعد : ٧

المنذر ، وأنتَ يا عليّ الهادى . وقيل : معناها إنما أنت نبيء منذر ، ولكل قوم هاد من الأنبياء يتقدم ، فليس قولك ببدْع ولا مستنكر . وقيل المعنى: إنما عليكَ الإنذار ، والله هو الهادى لمن شاء إذا شاء .

([1] وجَعَل فيها رَوَاسِيَ وأنهاراً) : قد قدمنا أنّ الرواسى الجبال ، وقدمنا فائدة جَمْع الأنهار جمع قلة ، والرواسى جمع كثرة .

([1] ومِنْ كلّ الثمرات جَعَلَ فيها زَوْجَيْن اثْنَين) : قيل إنه معطوف على قوله : « رَوَاسى » ، فيكون متعلقا بجعل الأول . وقيل : إنه متعلق بجعل الثانى. وردّه بعض النحويين بأنّ فيه الفصل بين حرف العطف والمعطوف . وقد قال ابن عصفور فى شرحه الكبير : ولا يجوز فصل حرف العطف والمعطوف إلا بالقسم أو بالظرف والمجرور ، بشرط أن يكون حرف العطف على أزيد من حرف واحد . « وجعل » هنا معطوف على « جعل » الأول ، ففصل بين الواو وبينه بالمجرور ، وهذا جيد إلا أنْ يُجاب بأنه من حرف الجمل، فهو استئناف .

فإن قلت : هل المراد بالزوجين اثنين الذكر والأنثى ، كقوله[2] : « ومِنْ كلّ شيء خلَقْنا زَوْجين » ؟

فالجواب : أنّ المراد بالزوجين النوعين ، قال الزمخشرى[3] : كالأسْوَد والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، فإنها فى أصلها كانت زوجين ثم تفرّعت منها أنواعٌ ، فصارت أزواجا .

(وإنْ تَعْجَبْ[4] فعجبٌ قولُهُم) : انظر هل هذا أمر تقريرى ، أو هو استدعاء له ليعجب ؟

---

(١) الرعد : ٣ (٢) الذاريات : ٤٩ (٣) الكشاف : ٢ ـ ٤١١

(٤) الرعد : ٥

فإن قلت : إذا لا تدخل إلا على المحقق الوقوع ، وإن تدخل على المشكوك فيه ، والتعجبُ من هؤلاء محقَّقٌ وقوعه ؛ لأنهم أنكروا البعثَ ، وخالفوا ، مع علمهم أنَّ اللهَ خلقهم وأوجدهم ؛ ومَنْ أوجد المخلوقات من عدم قادرٌ على إعادتها ؛ قال : وعادتُهم يجيبون بأنَّ التعجبَ إنما يكون مما خَفِي بسببه ، فما يتعَجَّب إلا مَنْ يخفى عليه السبب ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم عالم بأنَّ ذلك الواقع منهم ، أمرٌ قدَّره الله ، وأراده منهم ؛ فهو فى خاصته لا يَتعجَّب منهم ، فضلا على أن يكون تعجُّبه منهم محققا ؛ بدليل قوله تعالى : « أتَعْجَبِينَ مِنْ أمْر اللهِ رحمةُ اللهِ وبركاتُه » قال أبو حيان : فعَجب مبتدأ وخبره قولهم إذا.

وردَّ بوجهين : الأول أن قولهم فى رتبة العلم ، وعَجب نكرة . والثانى أن محل الفائدة فى عجب ؛ لأنه المجهول ؛ وقولهم : أإذا كُنَّا تُرابا — هو المعلوم . وقولهم : « لفى خَلْقٍ جديد » يحتمل أنْ يريد بالجديد ما سبقه عدمٌ ، ويحتمل أنْ يريدَ به ما لم يُسْبَق بوجود . وهذا هو الأظهر ، لأجل تعنُّتهم ، فهم يجعلون الإعادة كأنها خَلْقٌ آخر لم يسبق بوجود البتّة ، فلذا نفَوْها .

ومذهبُ أهل السنة أنَّ الإعادةَ ممكنة عقلا واقعةٌ سَمْعا ، وهل تُعادُ الأجساد أم لا ؟ مذهبُ أهلِ السنة أنها تُعاد ، لأنَّ الوجود قسمان : إما متحيز أو قائم بالمتحيز ، فالأرواح إن كانت متحيزة فهى أجسام ، وإن لم تكن متحيزة فلا تستقلّ بنفسها ، ولا بُدَّ لها من أجسام تحلُّ فيها ، فلا بُدَّ من إعادة الأجسام خلافا للحكماء وغيرهم .

(ويَسْتَعْجِلونَكَ[١] بالسيِّئةِ قَبْلَ الحسنةِ وقد خَلَتْ من قبلهم المَثُلاتُ) : انظر هل المراد أنهم طلبوا الأمْرَيْن ، أو طلبوا السيئة فقط ، وهو الظاهر ، لأن

---

(١) الرعد : ٦

الحسنةَ بعدها ، فما تأتيهم إلا وهم قد هلكوا . ويحتمل أن يهلكوا من غير استئصال ، والمراد بالمَثُلات القرون ، لأنه وقع بها من العذاب ما صيّرها يُضرب بها المَثَل .

(١)وإنَّ ربَّكَ لذُو مَغْفِرةٍ للناس على ظلْمِهم) : قال ابن عبد السلام : هذه الآية نزلت على ترجيح جانبِ الخوف على جانب الرجاء ، لقوله : « ذو مغفرة » ، وهو للتقليل ، وإنما أخذه من كون المغفرة مصدراً محدوداً [٢٨٣ ا] بالتاء الدالة على الواحدة ، على العقاب ، مصدر مبهم يقع على القليل والكثير ، فلو قال : إن ربك لغفار للناس لأفاد المبالغة .

قال ابن عطية : والظاهر في معنى المغفرة هنا إنما هو سَتْره وإمهاله الكفرة، ألاَ ترى التيسير في لفظ المغفرة ، وأنها منكرة مقللة، وليس فيها مبالغة ، كما في قوله تعالى : « وإنّي(٢) لَغفّار لِمَنْ تاب » . وذكر الزمخشري(٣) في سورة غافر في قوله تعالى : « (٤)إنّ الله لذو فضلٍ على الناس » أن إدخال « ذو » يدلُّ على عِظَم فَضْله وكثرته ، ونحوه لابن عطية في سورة الروم في قوله : « فآتِ(٥) ذا القُرْبى حَقّه »، ونحوه للقاضي عياض في الإكمال في حديث سعد بن أبي وقّاص في الوصية حيث قال : قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وإني ذو مال ، ولا يرثني الا ابنةٌ لي.

(وكلّ(٦) شيء عنده بمقدار) : انظر هل المرادُ به القدرة وهي الإبراز من العدم إلى الوجود ، أو الإرادة وهي التخصيص ، أو العلم وهو الكشف والاطلاع . والظاهر أنَّ المراد به الإرادة وأن كل شيء عنده مقدَّر مراد ، لأنه أتى به مُعَقِّب قوله : « وما(٦) تَغيضُ الأرْحام وما تَزْدادُ » ، فثَمّ حمل ناقص،

---

(١) الرعد : ٦ (٢) طه : ٨٢ (٣) الكشاف : ٢ — ٣٢٠
(٤) غافر : ٦١ (٥) الروم : ٣٨ (٦) الرعد : ٨

وحل زائد ، وحل معتدل ، فقال : كلٌّ ذلك مقدَّر مُرَاد له ، لأن تخصيص الناقص بالنقص ، والزائد بالزيادة ، إنما هو راجع للارادة ، والظاهر أنه من العمومات الغير مخصصة ، كقوله تعالى : واللهُ بكلِّ شيء عليم .

(وإذا[1] أراد اللهُ بقَوْمٍ سوءاً فلا مَرَدَّ له) : هذا احتراس ، إشارة إلى أنَّ « المُعَقِّبات[2] » إنما يحفظونه مما أراد الله عدمَ وقوعه . وأهل السنة يعمّمون لفظَ « القَوْمِ » في الطائع والعاصي ، والمعتزلة يخصصونه بالعاصي بناءً على قاعدةِ التحسين والتقبيح عندهم .

ولا مردَّ له ، أي لا دافع عنه ابتداءً قبل وقوعه بهم ، ولا ناصر لهم برفعه عنهم بعد وقوعه .

(ويُنْشِيءُ[3] السَّحَابَ الثِّقَالَ) : اختلفوا في ماء المطر ، هل هو من السماء ، أو من البحار يتصعّد منها بخارٌ وتسكنه الأهوية رِقّةً وعذوبةً فيتكوّن في السحاب ثم ينزل مطراً .

وقيل بالوقف ؛ وهو اختيارُ ابنِ رشد في البيان . وذكر بعضهم أنه إذا سُخن ماء البحر وجُعلت على القِدْر نشافة فإنه يَعْذب . وقيل: بل تنكسر حدّته ويشربه المضطر إليه .

(ويُسَبِّحُ[4] الرَّعْدُ بحمده والملائكةَ مِنْ خِيفَتِه) : قيل : انّ الرعد اسم ملك ؛ وردَّه بعضهم لقوله تعالى : « فيه[5] ظلماتٌ ورَعدٌ وبرق » . فقد نكّره، فإن كان لفظ الرعد هو العَلَم على الملك لم يَجُزْ حذف الألف واللام منه ، كما

---

(١) الرعد : ١١

(٢) في الآية نفسها : له معقبات من بين يديه ومن خلفه .

(٣) الرعد : ١٢ (٤) الرعد : ١٣ (٥) البقرة : ١٩

لا يُحْذَف من القاسم والعباس ، وإن كان العلم عليه الرعد لزم إدخال الألف واللام هنا على الاسم العلم ، وهو جائز . ويحتمل أن يكون الألف واللام لِلَمح الصفة ، فإن لمحتَها أدخلتها وإلا فلا .

وقيل الرعد صوت ملك . وقال الحكماء : اصطكاك الأجرام .

فإن قلت : لم أسند الحمد للرعد والخوف للملائكة ؟

فالجواب إن كان الرعد اسم ملك فأسند الحمد إليه إما لأنه جُرْمٌ أعظم من سائر أجرام الملائكة ، فهو في مقام الحمد لا في مقام الخَوْف ، وإمّا ليدل اللفظُ دَلالتين : دلالة مطابقة والتزام ؛ فأسند التحميد إليه مع الملائكة لدخوله فيهم ، أو يكون حذَفَ من الأول لدلالة الثاني ، ومن الثاني لدلالة الأول ، أي ويسبّحُ الرعْدُ من خيفته بحمده والملائكة بحمده من خيفته .

وإن أريد بالرعد السحاب فالمعنى أنه مسبّح اللهَ وحمده على إبرازه إياه من العدم إلى الوجود بلسان الحال لا بالقول ، إذ لا عقل له . فلذلك لم يُسنِد الخوف إليه ، بخلاف التسبيح ، لقوله : « وإنْ من شيء إلاّ يسبّحُ بحَمْده » . والخوف إنما يقعُ من العاقل .

(والذين[2] يَدْعُون مِن دونه) : لم يَدْعُوهم مِنْ دون الله لكن الجزء الذي شركوهم فيه مع الله في العبادة دعوهم فيه من دونه . « يستجيبون[3] » : ليس هو من استفعل بمعنى طلب الفعل ، وإنما هو كقول الشاعر :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيب إلى النّدا ... فلم يَسْتَجِبْه عند ذلك مُجيب[4]

فعلى هذا لا سؤال ، وإن لم يكن بمعنى أجاب يرد فيه بأن استجاب خاصة

(١) الإسراء : ٤٤ (٢) الرعد : ١٤ (٣) من الآية نفسها .
(٤) البيت لكعب بن سعد الغنوي ، يرثي أخاه أبا المغوار (اللسان — جوب) .

بمن أجاب بما يوافق غَرَض السائل . وأجاب علامة في المجيب بالموافق والمخالف ؛ فيقال [٢٨٣ ب] لهم نفي جوابهم بالموافق ، مع أنهم لايجيبون بشيء على الإطلاق ، فيجاب بأن مطلوبهم من الآلهة إنما هو حصولُ غَرَضهم ، فنفاه . وأما غيره فليس مطلوباً لهم ، فلم يحتج إلى نفيه ؛ قاله الزمخشري[1] .

وقوله[2] : « كباسطِ كَفَّيه » : يحتمل أن يريد به إلا استجابة كاستجابة باسط، أي كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب أنْ يبلغ فاه، والماء جماد لايشعر بعطشه ولا بدعائه له . وشَبَّه باسطَ كفيه للماء دون فاتح فيه للماء ؛ لأنه داعٍ، وشأنُ الداعي أن يبسط يديه[1] .

(وما[2] هو بِبَالِغِهِ) : الفعل يقتضي التجدد، والاسم يقتضي الثبوت ؛ فإذا أريد المبالغة عبّر في الثبوت بالاسم ، وفي النفي بالفعل ؛ لأنه يلزمُ من نفي ثبوت الصفة وقتاً ما نَفْيُ ثبوتها دائماً ، ولا يلزم من نفي ثبوتها دائماً نفي ثبوتها وقتاً ما . وكذلك يؤتى في الأعم بالنفي ، وفي الأخص بالثبوت ؛ لأن نفي الأعم يستلزم نفي الأخص ، وثبوت الأعم يستلزم نَفْي ثبوت الأعم ، ونحوه للزمخشري في قوله[3] : « فلما أضاءَتْ ما حَوْلَه ذهب الله بنورهم » . وجاءت هذه الآية على العكس في قوله : «لِيَبْلُغَ فَاهُ . وما هو ببالغه» ؛ فعبّر بالثبوت في الفعل ، وفي النفي بالاسم ، فنفى عنه البلوغ الثابت دائماً ، ولا يلزم منه في البلوغ المتجدد الثابت وقتاً ما.

والجواب أنَّ القرينةَ هنا تنفي هذا المفهوم المتوهّم ، وتُعيِّن أنَّ المراد

---

(١) الكشاف : ١ ـ ٤٩١ (٢) الرعد : ١٤

(٣) البقرة : ١٧

نَفْيُ البلوغ على الإطلاق كيفما كان .

(ومِمَّا[1] يُوقدون عليه فى النار ابتِغاءَ حِلْيَةٍ أو مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) : الزمخشرى : هو كل ما يلين من المعادن ، فإذا برد اشتدّ وتبين ، كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص . والحلية : كل ما يتحلَّى به من الذهب والفضة وغيرها .

(والذين[2] يَنْقُضُون عهدَ الله من بعد مِيثاقه ويَقْطعون ما أمر اللهُ به أن يوصَل) : هذا دليل على أن العهد يطلق على الوعد ، وعلى الأمرِ المشقّ المُلْتَزَم ، ولو كان العهد هنا الميثاق لما كان لقوله[3] : « من بَعْد ميثاقه » فائدة . وقيل هى مباينة لما قبلها ، ووقعت المبالغة فيما قبلها بتسعة أوصاف ؛ وفى هذه بثلاثة أوصاف : لأن الأولى فى معرض الجزاء على الطاعة ، وهذه فى معرض العقوبة على المعصية ، فناسب المبالغة فى الأولى ، تأكيداً على المثابرة على الطاعة ، وعدم المبالغة فى هذه تنفيرا عن المعاصى ، وأن العقاب يقع على أدنى شىء من المعصية . ووجْه ثان : وهو أن نقض العهد إشارةٌ إلى العهد المأخوذ على الخلائق يوم[4] : « أَلَسْتُ بربكم » ، فهو راجع إلى التوحيد .

وقطع ما أمر الله بوصله : راجع إلى الإيمان بالرسول ؛ لأن تكذيبه قطع له من مرسله ، والإيمان به إقرار بصلته مع مرسله .

والفساد فى الأرض راجعٌ إلى المعاصى . وفى الآية حجةٌ لمن يقول : إن المندوب غير مأمور به ، لأنها فى معرض الذم لفاعل ذلك ، فلو كان مأمورا به لما

---

(١) الرعد : ١٧ (٢،٣) الرعد : ٢٥ (٤) أى يقال لهم : ألست بربكم .

تناوَلَهُ الذمُّ ، وليس المراد مَنْ جمع هذه الأوصاف ؛ بل من اتصف بواحدٍ منها فقط .

فإن قلت : هل قوله تعالى : « لهم[1] اللعنةُ ولهم سوءُ الدار » لمن اتصف بها ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ؟

والجواب : أنّ اللعنةَ للكفار وسوء الدار للعُصاة ، فهو لفٌّ ونشر ؛ وإدخال اللام تهكم بهم وإشارة إلى أن اللعنةَ أمرٌ ملائم لهم ومناسبٌ لفعلهم ؛ فليَحْذَرِ العاقلُ هذا الوعيد الهائل ولا يستحقر المعاصى .

(وفَرِحُوا[2] بالحياةِ الدنيا . . .) الآية : هذا يرجع إلى الكفار الذين جعلوا الدنيا دارَهم ، وهل هى إلا سجنُ المؤمن إن عقل ، لِمَا يستَوْلى عليه فيها من الهموم والبلايا والحيات والقمل .

ووَجْهُ المناسبة بينها وبين السجن ظاهرة ، فانظر ما أغْفَلنا عن الآخرة مع مشاهدتنا لهذه الأمور ! ولهذا تجد الكفار يوسَّع عليهم فى الدنيا ليزدادُوا كفراً وفِسقا ، وكذلك الموسّع عليه منا أكثر ترفّها وعصيانا ؛ ولهذا قال فى حديث : أولئك قوم عجلت لهم طيباتُهم فى الدنيا .

(ويقولُ[3] الذين كفروا لولا أُنْزِل عليه آيةٌ من ربّه) : لولا للتحضيض ، كقول الفقير للغنى : لولا أحسنْتَ إلىّ . فأجابهم الله بأن يقول لهم : إنما أنا عبد ، والعبدُ ليس له مع سيده اختيارٌ ، وسيِّدُه أعلمُ بأموره ، إما أنْ يضلّه أو يهدى [٢٨٤ ا] إليه مَنْ أناب .

---

(١) الرعد : ٢٥ (٢) الرعد : ٢٦

(٣) الرعد : ٢٧

فإن قلت : لم جعل فعلَ المشيئة مضارعا والإنابة ماضيا[1] . والمناسب العكس ؛ لأن مشيئة الله قديمة وإنابة العبد حادثة ، وفى غافر : « وما[2] يَتَذَكَّرُ إلا مَنْ يُنيب » ؟

فالجواب : أن فعل المشيئة أتى مضارعا باعتبار متعلقها ، وهو من فعل العبد وغير مطلوب لأن أصلها من الله ؛ فلم يحتجْ إلى طلب متعلقها . والإنابة من فعل العبد ؛ فجاء فعلها ماضيا إشارة إلى تأكد طلبها حتى كأنها واقعة . وأيضا مشيئة الله دائمة مستمرة ، وإنابة العبد منقطعة ؛ فهو إشارة إلى أن مَنْ أناب ليس على وثوق مِنْ بقاء إنابته واستمرارها فى المستقبل إلا بهداية الله وتوفيقه .

والآية عندى صريحة فى مذهب أهل السنة ؛ لقوله : « يَهْدِى[3] إليه » ؛ أى يخلق فى قلبه الهداية ويُرشده إليها . وأناب إشارة إلى ماله فى ذلك من الكسب . ثم[4] ذكر حالهم أنهم آمَنُوا به واطمأنت قلوبهم بذكره .

فإن قلت : كيف تطمئنُّ قلوبُهم بذِكْره وقد ذكرهم الله فى آية أخرى[5] : « الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبُهم » ؛ فهذه اقتضت أنّ ذكر الله موجب خَوْفه والوَجَلَ منه ، والأولى اقتضت طمأنينة قلوبهم .

والجواب : أنهم لما سمعوا ذكره تعالى حدث لهم خَوْف منه ووَجَل ، ثم تعقبه طمأنينة وسكون ، كما قال القائل :

---

(١) فى الآية نفسها : قل إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب .
(٢) غافر : ١٣ (٣) الرعد : ٢٧ (٤) فى الآية التى بعدها : ٢٨
(٥) الحج : ٣٥

وإنّي لتَعْرُوني لذِكْراكِ فَتْرَةٌ كما انتفض العصفورُ بلّلَهُ القَطْرُ

وقال ابن عبد السلام : معنى الأولى أنهم إذا أخبروا أنّ الله تعالى ذكرهم اطمأنّت قلوبُهم وسكنَتْ ؛ لأنهم يعلمون أنّ ذلك رحمة منه بهم واعتناء بذكرهم ؛ وجاء قوله[1] : « إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهم » على الأصل من حالهم ؛ لأنّ حالهم الخوف ؛ فإذا ذكر الله ازداد وَجَلُهُم وخوفهم من عقابه . وهذا جوابٌ حسن . وهذه أمور ذوقية لسنا من ذلك على ذوق ، فلا القلب يطمئن ولا يوجل ، اللهم أَقِل العَثْرَة واغفر الزلّة .

(ولو[2] أنّ قرآنا سُيِّرَتْ به الجبالُ . . .) الآية ، وجوابها مقدر ؛ أي لما آمنوا به ، والقضية الشرطية تقتضي نفيَ الأول لانتفاء الثاني ؛ نحو : لو كان هذا إنسانا لكان حيوانا ، لكنه ليس بحيوان فليس بإنسان . وتارة تقتضي ثبوتَه لثبوته ؛ نحو : لو لم يكن هذا حيوانا لما كان إنسانا ، لكنه إنسان فهو حيوان . وتارة تقتضي مجردَ الملازمة والارتباط ؛ نحو : لو حضر زيد لحضر ثوبه ؛ والآية من هذا القسم ، والعطف فيها تدلّ ؛ لأنّ تسيير الجبال أقرب وأعجب لعظم جرمها وكونها جماداً لا يقبل الاتصاف بصفة الحيوان ، والسير من صفة الحيوان ، ولم يقع ذلك فيها بوجه ، ثم يليه تقطيعُ الأرض لكثرة وقوعه ، لاسيما على ما قال ابن عطية من أنه تفجير أنهارها . ويليه تكليم الموتى ؛ لأنه قد وقع لعيسى عليه السلام وغيره .

(ولقد[3] استُهْزِئَ برسُلٍ من قبلك . . .) الآية : فيها دليلٌ على أنه

---

(١) الأنفال : ٢ ، والحج : ٣٥ (٢) الرعد : ٣١

(٣) الرعد : ٣٢

لا أثر للا[ستهزاء][1] على الكفر مع الكفر ؛ لأن الاستهزاء كفر وزيادة ، وتعليقُ الحكم على الوصف المناسب يُشعر بعليته له ؛ والاستهزاءُ هو عَيْنُ الكفر ؛ وهؤلاء لم يكونوا فى زمن الفترة ؛ بل كانوا مؤمنين بغيره ، وما عُلِم كفرُهم به إلا من لفظ الاستهزاء ؛ وفيها دليل على صحة العمل بالقياس ؛ لأن الايةَ سيقت مساق التخويف للكفار ، والتسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وما وَجْه التخويف إلا من ناحية أنّ المشاركة فى الوصف توجب التسوية فى الحكم الناشىء له ، والكفار المعاصرون لنبينا مشاركون لمن سبقهم فى الاستهزاء . واقتضت الآيةَ أنّ مَنْ سبقهم عُوقب ، فكذلك هؤلاء . ولا معنى للقياس إلا إثباتُ حُكْمِ الأصل للفرع لعلة جامعة . وتنكير لفظ « رسل » للتشريع ، ولا يناسب التعظيم ، ولا يحصل به التخويف ؛ لأنهم يقولون : إنما عُوقبوا[2] أولئك على استهزائهم بعظماء الرسل فما يلزم منه عقابنا نحن .

فإن قلت : كيف أكد هذا القسم باللام وقد مع أن الماضى بعيد عن زمن الحال ؟

والجواب : تنزيلا له منزلةَ القريب ؛ ليحصل كال التخويف . ولما أخبرهم بالإملاء[3] فعلم العاقل منهم أنّ الإملاء [٢٨٤ ب] أشد من الإهمال بكثير ، لأنه يتضاعف به العذاب ، فأسرع إلى الدخول فى الإسلام ، وعَلِم أن تيسير أسبابِ الوقوع من موجبات عذابٍ آخر ، والأمر كذلك ؛ لأنّ الله تعالى يقول[4] : « إنّما نُمْلِي لهم ليَزْدَادُوا إثماً » . ويحكون فى مثل هذا أنّ صبيًا مسلما صفع يهوديًا فى الحمام ، فأعطاه اليهودىُّ دينارا مكيدةً منه

---

(١) مكانها بياض فى الأصلين .
(٢) هذا فى الأصول .
(٣) فى الآية : فأمليت للذين كفروا ..
(٤) آل عمران : ١٧٨

للصبي ، فدخل ذو هيئة فصفعه الطفلُ ظاناً أنه يأخذ منه أكثر ، فقطعت يده . فافهَمْ يا محمدى ما تحت الإمهال والإملاء من الأهوال ، ولا تحسبنّ إمهاله إهمالا .

(وجعلوا[1] لله شركاءَ قُلْ سَمُّوهم . . .) الآية : تارة تبطل الدعوى ببيان بطلان مدلول دليلها ، وأبطل عليهم بهذه مدلولهم السمعي . وهو قوله[1] : أم بظاهرٍ مِنَ القَوْل » ، وهو قولهم[2] : « ما نَعْبُدهم إلاَّ ليُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى » ، وقولهم : « هؤلاء[3] شفعاؤُنا عِنْدَ الله » ؛ فقيل لهم : هل بلغكم ذلك عن الله على ألسنة الرسل أم لا ؟ وقد خلط الزمخشري في قوله : « شركاء » على عادته في خَلْط لفظ القرآن بكلامه .

وأما العقلى فبطلَ لِبُطلان مدلوله ، وهو قوله : « قل[4] سَمُّوهم أم تُنَبِّئُونه بما لا يَعْلَمُ في الأرض » ؛ فهو غيرُ معلوم لله ، وكلُّ ماليس بمعلوم لله فليس بموجود ولا معدوم إن قلنا إنّ المعدوم الممكن معلوم ؛ فدل على أنه محال .

فإن قلت : كيف قال : « قل سَمُّوهم » وهم سمّوهم ، فقالوا : اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ؟ وفى آية يونس : « قل[5] أتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض » . وفى هذه السورة : « بما لا يعلم في الأرض » . وفى سورة إبراهيم : « وما[6] يَخْفَى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » ؟

---

(١) الرعد : ٣٣ — (٢) الزمر : ٣

(٣) يونس : ١٨ — (٤) في الآية نفسها : الرعد ٣٣

(٥) يونس : ١٨ — (٦) إبراهيم : ٣٨

... والجواب : ليس المراد مجرد التسمية ؛ بل تعيينهم . والمعنى أنه إنما يستحقُّ اسمَ الإله مَنِ اتّصفَ بالاستغناء والكمال ، وتنزّه عن العجز والاحتياج ، فعيِّنوا لنا شركاء مُتّصفين بذلك ، فإنهم لا يجدونهم : وإنما خصّ الأرض بالذكر لأنّها المشاهَدَة القريبة ، وإلاّ فقد عبدوا الشِّعْرَى والعَبور ، وعبَدُوا الشمس إلى غير ذلك . و نَفْيُ علم الشيء عن الله يستلزمُ عدمَ ذلك الشيء ، وفيه دليل على أنّ العدم غير معلوم . وفى المسألة ثلاثة مذاهب : مذهب الجمهور إلى أنه معلوم ، وقيل إنه غير معلوم . وقيل المستحيل غير معلوم ، والممكن معلوم .

(وإمّا[1] نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهم ...) الآية : تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم ووَعْدٌ له بتعذيبهم . ومعناها إمّا نُرِيَنَّكَ بعضَ ما ينزل بهم من العذاب فلا تتوهّم أنّ عليك فى ذلك شيئاً ، لأنك إنما عليكَ البلاغ ، وقد بلّغْتَ ، أوْ نتوفّاكَ قبل رؤيتك ذلك فعلينا حسابُهم ؛ لأنهم إذا عذّبوا بعد وفاته انتفى التوهّم .

فإن قلت : هل هذا وعْدٌ له صلى الله عليه وسلم بتعذيبهم أو وَعيد ، فأطلق الوعد على الوعيد ؟

والجواب أنهما اجتمعا فى هذه الآية[2] ، وآيةُ الزخرف[3] أبلغُ لأن قوله تعالى : « أو[3] نُرِيَنَّكَ الذى وَعَدْناهم » اقتضت رؤيته بعض عذابهم . وهو

(١) الرعد : ٤٠

(٢) فى الآية تتمات أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

(٣) الزخرف : ٤٢

مايزل بهم في الدنيا قبل وفاته، وكان بعضهم يقول : الوعد بالإحسان أو بالنصرة على الأعداء من السلطان أو الرجل ذي الهيبة ليس كالوعد ممن دونه ، لأن الأول يحصل منه كمالُ الطمأنينة والركون .

فإن قلت : ما الفائدةُ في تأكيد الآيتين بالنون مع أن أحدها محقق الوقوع لاشكّ فيه ، وإنما المُهِمّ تعيين الواقع منهما ؟

والجواب : أنّ التأكيد راجع للجزاء لا للشرط .

فإن قلت : إنما هو في الشرط فقط ، فاعلم أنّ الشرط والجزاء مرتبطان ؛ ألا ترى أنّ القائل : إنْ قام زيد فأنا أكرمه — يحسن أن يقال له صدقت أو كذبت ، والتصديقُ والتكذيبُ إنما هو للجزاء لا للشرط .

(وهُوَ[1] سَرِيعُ الحساب) : سرعة حسابه إما باعتبار قُرْب أوانه أو قِصر زمانه وقلة مكثه . وقال ابن عطية في سورة آل عمران[2] عن مجاهد : يحتمل أنّ المرادَ بسرعة الحساب أنّ الله تعالى لإحاطته بكل شيء علما لا يحتاج إلى عدول أو فكرة . ويستدلّ بها أنّ الله سبحانه يحاسب آلاف آلاف في وقتٍ واحد من غير علم أحدهم بالآخر ، وهذا مشاهَدٌ في رؤيته صلى الله عليه وسلم في أقطار شتى على هيئات مختلفة ، ورؤية أموات في أقطار الأرض لمنكر ونكير في وقتٍ واحد [٢٨٥ ا] هذا يقع له التبشير بقولهم ، وآخر يضربانه ضربةً يشتعل منها قبرُه ناراً .

(وقد[3] مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِم) : قد قدمنا صفةَ مكرهم، ولذلك أجابهم

---

(١) الرعد : ٤١

(٢) في آل عمران (١٩) : فإن الله سريع الحساب .

(٣) الرعد : ٤٢

بقوله[1] : « فلله المكر جميعا » ؛ لأن مكرهم من غير قدرة ، وقدرته تعالى على الفعل ، وهو عالم بهم ، لا يخفاه شيء من أمرهم .

فان قلت : « من » لابتداء الغاية . فيقتضي أول أزمنة القبلية ، وقد يقرب الماضي من زمن الحال ، فكيف صحّ الجمع بينهما ؟

والجواب المراد أوّل أزمنة هذا المكر القريب ، وهو الزمنُ القريب من وقتك .

(ويقولُ[2] الذين كفرُوا لستَ مُرسَلا) : هذا تصريح بإنكارهم وقبح مقالهم ، وكيف لا وقد رأوا ظهورَ الخوارق المعلوم صِدْقُ من ظهرت على يديه بالضرورة ، وكان الواجب عليهم النظر ؛ لأنه واجب بالشرع خلافا للمعتزلة ؛ فإنهم قالوا بالعقل ، ولو كان واجبا بالشرع للزم عليه إفْحامُ الرسل ؛ لأنه يقول : ما ننظرُ في معجزتك حتى يجب ذلك عليّ ، ولا يجب عليّ إلا بقولك ، وأنا لا أصدقك .

وأجاب أهلُ السنة على ذلك بأن المعجزات والخوارق من الأمر القريب ، والنفوسُ مجبولةٌ على النظر في غرائب الأمور ، وأيضاً إن قلنا : إن النظر بتكليف مالا يُطاق ، فنقول : إنه واجب ؛ ولا يلزم ما ذكروه ، وإن لم نقل بذلك فنقول : إنه متوقف على تمكُّن العلم بنبوةِ الرسل لا على حصول العلم بنبوته . ونقول له : إنك متمكّن من العلم ؛ فانظُر النظر الذى يوصلك إلى ذلك العلم .

فان قلت : مقالتُهم ماضية ، فلم قال[3] : « ويقول الذين كفرُوا » ؟

---

(١) الرعد : ٤٢ (٢) الرعد : ٤٣ (٣) الرعد : ٤٣

فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول: أتى به مستقبلا للتعجيب، كقوله: «[1] ألم تر أنَّ الله أنزلَ من السماء ماءً فتُصْبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّة» ، ولم يقل فأصبحت . والثانى للتصوير ، كأنها لم تزل واقعة مشاهدة . والثالث ليتناول اللفظ مَنْ قالها ومَنْ سيقول مثلها فى المستقبل .

فإن قلت : هلاَّ قال : لست نبيئا ، فينتفى الأعَم ؛ لأن نفْىَ الأعم يستلزم نفْىَ الأخص ؟

والجواب أنّ نفى الأخص هنا يستلزم نفْىَ الأعم ؛ لأنه قال لهم : «يأيها[2] الناسُ ، إنى رسولُ الله إليكم جميعا» ، فكذَّبوه فى هذه المقالة ، فإذا كذَّبوه فيها فهم لا يصدّقونه فى نبوءته ؛ لأن النبى لا يَكْذِبُ .

(وما[3] أرْسلْنَا من رسولٍ إلا بلسان قوْمِه) : فيها دليل على أنّ واضعَ اللغة هو الله تعالى . واختلف هل الكتب المنزَّلة نزلت بلغاتهم أو بالعربية ، وكلّ رسول يعبّر لهم بلغتهم . وقد قدمنا ذلك . وفى قوله : «فيُضِلُ[4] الله مَنْ يشاء ويَهْدِى مَنْ يشاء» دليلٌ على أنّ حصولَ العلم عقيب النظر عادىٌّ ، وليس بعقلى ؛ إذ لو كان عقليا لزم من البيان الهداية . ويحتمل أن يقال لا يلزم ذلك ؛ لأن المخاطب قد لا ينظر النَّظرَ الموصِّل للعلم .

([5]وقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخْرِجْ قوْمَكَ من الظلمات إلى النُّور...) الآية . الظاهر أن «أنْ» هنا تفسيرية . وقال بعض النحاة : إن النحويين

---

(١) الحج : ٦٣ (٢) الأعراف : ١٠٨ (٣) إبراهيم : ٤

(٤) إبراهيم : ٤ (٥) إبراهيم : ٥

بمنعون وصْلَ « أن » بالجملة غير الخبرية . وذكر ابن العطار فى شرح الجزولية جوازَ ذلك .

فإن قلت : هلا قال : أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور بإذن الله ، كما قال أوّلا : « لتُخْرِجَ[1] الناسَ من الظُّلُمات إلى النور بإذْن ربِّهم » ؟

والجواب أنّ الأول خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وشريعتُه من أسهل الشرائع ؛ فناسب فيها ذِكْر الإذْن لِيُفيد معنى السهولة واللين المأذون فيها ، وهذه الآية الثانية خطابٌ لموسى ، وقد كانت شريعته صعبةً ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى[2] : « فتُوبُوا إلى بارئكم فاقْتُلُوا أنْفُسكم » . وأيضا « أخْرِج » فعل أمر ؛ فهو بنفسه دليل على الإذْن، فلم يحتج إلى ذكره معه ، بخلاف قوله : « لِتُخْرِجَ الناس » ، فإنه جملة خبرية لا تدل على الإذْن ، فلذلك قيدت به .

(وذَكِّرْهُم[3] بأيّامِ الله) : التذكير لقوم موسى سببٌ فى إخراجهم من الظلمات الى النور ؛ واللفظُ يعمُّ النعمَ والنِّقَم ، فإذا علموا عقوبتَه تعالى للأمم المتقدمة حرّكوا أنفسهم للاخراج من الكفر .

فإن قلت : كان حقه أنْ يقدم السببَ على المسبب ، فَلِمَ أخَّرَه عنه ؟ وما الفائدة فى تعبيره عنه بالأيام ؟

والجواب أن التذكير هو الموعظة ؛ والدعاءُ إلى الإسلام متقدِّمٌ عليها ، والموعظةُ إنما تكون [٢٨٥ ب] بعد ذلك ؛ لأنه يُريهم المعجزةَ ابتداءً ، فإذا آمنوا وعظَهم ليدومُوا على إيمانهم . وعبَّرَ عنه بالأيام ؛ لأنّ

---

(١) إبراهيم : ١ (٢) البقرة : ٥٤ (٣) إبراهيم : ٥

العقوبة كانت فى أيام ، وذلك تعظيم لها ، كقولهم : يوم كذا .

(ويستحيون نساءكم)[1] : لما أخبر فرعون أنه يولد من بنى إسرائيل مولود يكون سبب هلاكه صار يذبح الذكور ، ويستحيي النساء كما قدمنا .

فإن قلت : هلاَّ قال : يستحيون بناتكم ، ليوافق أبناءكم ؟

والجواب : أن البنات فى حال صغرهن لا مئونة منهن ولا مشقة ، وإنما يلحق آباءهم المئونة والمشقة إذا كبرن وصرن نساء ، وفيها إشارة إلى الوصف الذى لأجله أحيوا البنات وهو بقاؤهن حتى يكبرن فيحتقروهن ويذلوهن لبقائهن بغير رجال .

وإن قلت : هذا العطف يذبحون ويستحيون على يسومونكم[2] مشكل ؛ لأن العطف يقتضى المغايرة ؛ فإن كان السوم هو الذبح لزم عطف الشىء على نفسه ، وإن كان غيره لزم تفسير الشىء بغيره .

والجواب أنه غيره . لكنه أعم منه ؛ فالسوم هو أوائل العذاب ومقدماته ، والذبح أخص منه .

فإن قلت : ما الفرق بين هذه الآية وآية[3] البقرة فى عطفه هنا بالواو .

والجواب : أن المنة فى آية البقرة وقعت من الله تعالى ؛ لأنه قال فيها : « وإذ[3] نجيناكم من آل فرعون » ، فأسند الفعل إلى نفسه ، والملك كل

---

(١) إبراهيم : ٦

(٢) الرعد : ٦ : يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم .

(٣) البقرة : ٤٩ : يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم — من غير واو قبل « يذبحون » .

الأشياء عنده حقير ؛ فلهذا أتى بالجملة الثانية غير معطوفة لتكونَ مفسِّرة للأولى وكأنهما شيء واحد ، لأنه لا يَسْتَعْظِم الأشياءَ إلا مَنْ لا قدرةَ له ، فالثلاثة دينار لا قَدْرَ لها عند الغني ، وهي عند الفقير مال معتبر ؛ وأما في هذه السورة فالمِنّةُ فيها من موسى عليه السلام ؛ لأن أولها : « وإذ قال موسى لقومه » ، فناسب فيها المبالغةُ في العطف بالواو التي تقتضي المغايرةَ والتباين ، لتكثر أسباب المنّ .

وأجاب صاحب درة التنزيل بأنّ آيةَ إبراهيم وقعت في خبر عطف على على خبر آخر قبله : وهو قوله[1] : « ولقد أرسلنا » — « وإذ قال موسى » ، فتضمّن الأول الإخبار عن إرسال موسى بالآيات ، والثاني تنبيه لقومه على نِعم الله ، فيقوى معنى العطف في يُذَبِّحُون ؛ لأنه هو وما عطف عليه داخلٌ في جملة معطوفة على غيرها ، فالمقام مقام الفصل ؛ بخلاف آيةِ البقرة ؛ فإنه أخبر فيها بخبر واحد ، وهو إخباره عن نفسه بإنجاء بني إسرائيل ؛ فلذلك لم يعطف ، وأخبر في إبراهيم بخبرين معطوفين ، فلذلك عطف ؛ يريد والجملة المتقدمة في سورة البقرة إنما هي طلبية ؛ وهي قوله : « اذكروا[2] نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم ... » الآية ، والمشاكلة تقتضي الإخبارَ ، وتجرى مجرى واحدا في الفصل والوصل ، بخلاف الخبر والطلب ؛ فإنه لا يعامل أحدهما معاملةَ الآخر ، ألاَ ترى أنّ المشهور عند النحويين أنه لا يجوز عطفُ الجملة الخبرية على الطلبية ولا العكس .

(وإذ[3] تأذَّنَ ربُّكم) : قيل أذَّنَ ربُّك ، ونظيره توعّد وأوعد ،

---

(١) في الآية الخامسة قبلها من السورة نفسها .

(٢) البقرة ٤٧

(٣) إبراهيم : ٧

وتفضل وأفضل ، ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ؛ كأنه قيل : وإذ تأذنَّ ربّكم إيذانا بليغا ينفي عنه الشكوك ، ولأجل أن تفعّل يقتضي التكلّف والمشقة حمله الزمخشري - والله أعلم - على أنّ التضعيف للتأكيد والمبالغة في الإذن .

فإن قلت :لأي شيء أضاف الربّ للمخاطب، والأصل إضافته إلى المتكلم، فيقال : ربّنا ؟

والجواب : أنه لما طلب منهم الشكر أتاهم بأحد موجباته ، وهو اللفظُ الدالُّ على الترق والحنان ، وأضافَهُ إليهم ليكونَ آكدَ في الشكر . وأما هو فشُكْره حاصل ، ومعرفته بذلك مستقرةٌ ثابتة .

(وإنّا[1] لَفِي شَكٍّ) : قد قدمنا في قصة صالح أنّ الشك هو التردد بين أمرين .

فإن قلت : قد قال في سورة هود : «قالوا[2] يا صالحُ قد كُنْتَ فِينا مرْجُوًّا» ، فلم حذفه هنا ؟

والجواب : لتكرارها في تدعوننا ، ولم يحذفها لعدم تكرارها في تدعوننا ؛ لأنه خطاب لصالحٍ وحْدَه ، فهو ضمير مفرد .

فإن قلت : كيف جزموا [٢٨٦ ا] أولا بالكفر ، ثم قالوا : « وإنا[3] لفي شَكٍّ » ، والشاكُّ غير حاكمٍ بشيء فضلا عن أن يكونَ جازماً به ؟

والجواب : أنّ بعضهم قالوا : إنا كفَرْنا ، وبعضهم قالوا : إنا في شكٍّ . أو يجاب باحتمال أنْ يريدوا بالأول قسم التوحيد ، وبالثاني قسم الشرائع

---

(١) إبراهيم : ٩ (٢) هود : ٦٢ (٣) إبراهيم : ٩

والأحكام . أو باحتمال العكس . أو يُراد إنّا كفرنا بما أرسلتم به من حيث الجملة . وإننا لفى شكٍّ فى الرسل بدليل قوله : «أفى[1] الله شكٌّ» ، فهم كفروا بالله وكفروا بما جاءت به الرسلُ من عنده . وقد قدمنا أنّ قَوْلَ الرسل : «أفى الله شكٌّ» إشارة إلى تقليل الشكّ ؛ أى لا يتصور أن يقعَ شكٌّ فى الله بوَجْه وإن قلّ ؛ فإذا أنكروا أنْ يكونَ أمر الله حيِّزاً للشك مع قلته فأحْرَى أنْ يكون الشكُّ حيّزاً مع كثرته .

(ولكنّ[2] اللهَ يَمُنُّ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عباده) : لما كان وجود الله أمراً نظريًّا ليس بضرورى ، وكون الرسل مثلهم أمرا ضروريا لا يحتاج إلى نظر لظهوره قالوا لهم هذا لا لغيرهم . ومعناه يمنّ على مَنْ يشاء بالإيمان والخروج عن دين آبائه ، فلما سمعوا هذا منهم آذَوْهم فقالوا لهم :

(ولنصبرنّ[3] على ما آذَيْتمُونا) : وما موصولة بمعنى الذى ، أو مصدرية ، والعائد محذوف تقديره آذيتمونا ، أو آذيتمونا به .

(وقال[4] الذين كفروا لرسُلهم ...) الآية : قد قدمنا فى حرف الكاف أنّ الرسل لم يكونوا فى ملّة قومِهم قبل الرسالة .

(وما[5] ذلكَ على اللهِ بعَزِيز) ؛ أى بمتعذر ولا صَعْب ، وأحسن منه بمتعسّر ؛ لأن قوله[6] : «إنْ يَشأْ يُذهبكم» أفاد إمكانه ، فإنه غير متعذر .

(وبَرَزُوا[7] للهِ جميعا) : قد قدمنا معنى البروز فى حرف الباء ، وحينئذ فيقول الضعفاء[8] . . .

---

(١) إبراهيم : ١٠ (٢) إبراهيم : ١١ (٣) إبراهيم : ١٢

(٤) إبراهيم : ١٣ (٥) إبراهيم ٢٠ (٦) إبراهيم : ١٩

(٧) إبراهيم : ٢١ (٨) فى الآية نفسها : وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا .

فإن قلت : لِمَ عَبّر هنا وفى غافر[1] بالاسم ، وفى سبأ[2] : « يقولُ الذين استُضعفوا لِلّذِين استكبروا » ؟

والجواب : أن الاسم يقتضى الثبوتَ ، وكلما ثبت الأخصُّ ثبت الأعَم ؛ فإذا كان مطلق الاستكبار يمنع من إيمان مَنِ اتّصفَ بأخصِّ الضعف فأحرى أنْ يمنع من إيمان من اتصف بأعَمِّه . وأما سورة سبأ فالمرادُ فيها تبعيّةُ مَنِ اتّصف بمطلق الضعف إن اتصف بمطلق الكفر ، فإذا كان وجودُ مطلق الاستكبار لاينفع لمن اتصف بمطلق الضعف فأحرى ألا ينفع لمن اتصف بأخصه ولا ينعكس .

(وأُدْخِلَ[3] الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات جناتٍ) : هذا إما على التوزيع ، فلكلٍّ واحد جنةٌ أو لكل واحد جنات ، و « خالدين[4] فيها » حال من الذين آمَنُوا مقدَّرة ؛ لأن الدخول غَيْر مقارن لزمن الدخول .

فإن قلت : مافائدةُ ذِكْرِ الأنهار فى كل موضع يذكر فيه الجنة مع أنّ الجنة معلومة بالماء .

والجواب أنّ التمدح بالماء معلوم عند الناس ؛ لأنه أصل كلّ شىء .

وحُكِى أنّ بعض ملوك الروم كان يُهدِى لمعاوية ويُهاديه معاوية ، فطلب مرة من معاوية أن يبعثَ له بأصل كل شىء ، فاستشار معاوية خواصَّه ، فأشار إليه عبد الله بن عباس بأنْ يبعثَ له قارورة مملوءة بالماء ، فلما بعثها له قال له الرومى : ما أشار عليكَ بهذا الأمر إلا مَنْ فيه عضو من النبوءة .

---

(١) فى غافر : ٤٧ : فيقول الضعفاء للذين استكبروا ... (٢) سبأ : ٣١

(٣) إبراهيم : ٢٣

(واستفتحوا[1]) : الضمير للرسل ؛ أي استنصروا بالله . وأصلُه طلب الفتح ، وهو الحكم

(ويُسْقَىٰ[2] من ماءٍ صَدِيد) : معطوف على محذوف ، تقديره من[3] ورائه جهنم يُلْقَى فيها ويُسقى ، وإنما ذكر السقى تجريداً بعد ذكر جهنم ؛ لأنه من أشدِّ عذابها ؛ ألا ترى كيف علّله بقوله[4] : (ويأتيه الموْتُ من كلِّ مكانٍ وما هُوَ بميِّتٍ) : لأنَّ اللهَ قضى عليهم ألاّ يموتوا ، فسبحان من حبس أرواحهم مع هذه النكرمات .

(وفَرْعُها[5] في السماء) : الضمير يعود على الشجرة التي أصلُها ثابت. وقرىء : ثابتٍ أصلُها . والقراءة المشهورة أبلغ ؛ لأن «ثابتٌ أصْلُها» صفة رفعت الفاعل ، فهي في معنى الفعل ، وأصلها ثابت مبتدأ وخبر ؛ فليس في معنى الفعل ؛ والإخبارُ بالاسم عندهم أبْلَغُ من الإخبار بالفعل ، فلذلك كان زيد أبوه قائم أبلغ من زيد قائم أبوه

فإن قلت : كيف عبَّر عن الكلمة الطيبة بالفعل ، وعبَّر عن الكلمة الخبيثة بالاسم فرفع[6] ؟

والجواب : المؤمن له حالتان : انتقل من الكفر إلى الإيمان ، والكافرُ له حالة واحدة ثبت عليها ، ولم [٢٨٦ ب] ينتقل عنها ؛ فلذلك عَبَّر عن مثله بالاسم . وقد قدمنا أنّ أصحاب الشجرة أربعة .

(وأنزل[7] من السماء ماءً) : كلُّ ما علاكَ يسمى سماء ، وسمى السحاب سحاباً لعلوّه ، وهذا جارٍ على الخلاف في المياه على ما قدمنا ؛ هل هي من السماء؟

---

(١) إبراهيم : ١٥ (٢) إبراهيم : ١٦ (٣) في الآية نفسها .
(٤) إبراهيم : ١٧ (٥) إبراهيم : ٢٤
(٦) في الكلمة الطيبة قال : ألم تر كيف ضرب الله مثلا ... وفي الكلمة الخبيثة قال ومثل كلمة خبيثة (إبراهيم : ٢٦) . (٧) إبراهيم : ٣٢

أو هي من بخار لطيف يصعد من البحار فيتكوّن منه السحاب ؟ والصحيح الوقف .

(وسخّر[1] لكم الفلكَ لتجريَ في البحر بأمره) : هذا مثل : « ولا طائر يطير بجناحيه » ؛ لأن جريها ليس إلا في البحر ، وجريُها في البحر لا يقع إلا بإذن الله .

فإن قلت : ما فائدةُ قوله : « بأمره » مع أنه معلوم ؟

والجواب : لما كان لجريها أسبابٌ في محاولة البحر وخدمة النواتية ربما يُتوهم أنّ جريها بسبب ذلك ، فاحترس منه بقوله : « بأمره » ، وبهذا تفهم الحكمةَ في إدخال اللام في قوله في الواقعة[2] : « لو نشاء لجعلناه حُطاماً » دون إدخالها في قوله : « لو[3] نشاء جعلناه أجاجاً » ؛ لأن الأول فيه لابن آدم تسبب ومحاولة ؛ فقد يتوهم أن ذلك من فعلهم ، بخلاف الماء فإنهم لا تسبب لهم في كونه حلوا .

(وآتاكم[4] مِنْ كلِّ ما سألتموه) : مِن للتبعيض ، و « كلّ » للعموم ، ومتعلقهما مختلف ؛ فالعمومُ في الأنواع ، والتبعيض في أنواع تلك الأشخاص ؛ أي وآتاكم بعضَ كلِّ نوع مما سألتموه .

(وإن[4] تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصُوها) : إفراد النعمة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، بمعنى أنّ الإنسانَ لا يستطيعُ إحاطة جزئيات النعمة الواحدة ، فأحرى ما هو أكثر . و « نعمة » مصدر محدود بالتاء ؛ فليس المراد

---

(١) إبراهيم : ٣٢ (٢) الواقعة : ٦٥

(٣) الواقعة : ٧٠ (٤) إبراهيم : ٣٤

به الجنس ؛ بل هو مفرد حقيقة ، بدليل أنّ المصدر المحدود بالتاء يجوز تثنيته وجمعه ، بخلاف المبهم .

فإن قلت : الشرطُ لا يكون مناقِضاً للجزاء ؛ فلا تقول : إن قام زيد لم يقدر على القيام ، والعدُّ هو عين الإحصاء ؟

والجواب : معناه إنْ أردتم أنْ تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ، مثل : فإذا قرأت القرآن فاستعِذْ بالله من الشيطان الرجيم .

وانظر كيف وصف الإنسان بالظلم وجحد النعمة ، والمراد به العموم ، إلا إن استثنى ؛ كقوله تعالى : «والعَصْرِ[1] . إنّ الإنسانَ لفي خُسْر . إلا الذين آمنوا» .

(وَهَبَ[2] لي عَلى الكِبَرَ إسماعيلَ وإسحاق): حمد إبراهيم ربَّه على أنْ وُلِد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاما . والحمد مشتق من التثنية ؛ فهو إنما يصدق على مَنْ حمد مرة بعد أخرى ، وكذلك هذا ، لأن وجود إسماعيل مقدم على إسحاق ؛ فقد صدق أنه حمد مرتين . قال الزمخشري[3] : على بمعنى مع ، أو بمعنى في ؛ والأول أولى ، لإفادتها زَمَن الكبر كلّه على الجملة .

(ولا[4] تحسبَنّ الله غافلاً عمّا يَعْمَلُ الظالمون) : هذه الآيةُ بجملتها فيها وَعِيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين . والخطابُ لنبينا صلى الله عليه وسلم .

فإن قلت : هو صلى الله عليه وسلم غير غافل ، وعطف هنا بالواو وفيما بعدها بالفاء .

والجواب : أنّ معناها الثبوت على علمك يا محمد ، ومن اعتبر من أمتك

---

(١) العصر : ١ ، ٢ ، ٣ — (٢) إبراهيم : ٣٩

(٣) الكشاف : ١ — ٥٠٢ — (٤) إبراهيم : ٤٢

وغيرهم إن الله لا يُنجز ميعادَه في أخذِ الظالم حين ظُلمه ، فإن الله يمهله ؛ ولذا عطف الآية بعدها بالفاء ، وقد يعجل العقوبة على بعض الظالمين لرحمته بهم ، وإن أخرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار فسيعلمون ما يلحقهم .

فإن قلت : لِمَ تعلّق النهْيُ هنا بالأخص ، ونفي الأخصِّ لا يستلزم نَفيَ الأعم ؛ لأنّ الحسبان المنفي مؤكَّد بالنون الشديدة ؛ فهو أخصُّ من مطلق الحسبان ؟

والجواب : بأن النون دخلت على الفعل المنفي ، فأكَّدَتْه ؛ لأنّ النَّفيَ دخل على الفعل المؤكد فنفاه ، فهو تأكيد للنفي لا نفي للفعل المؤكد ؛ فهو نَفيٌ أخصُّ لا نفي أعم .

فإن قلت : ما فائدة شدة الوعيد على الظالم ؟

فالجواب إن الله لما ذكر الإنسان أنه ظلوم جحود لنعمة الله لا يستغني بما أُحِلَّ له عما حُرِّم عليه ، وكان الواجب في حقه أنْ يشكرَ اللهَ على ما آتاه ، ولو لم يشكره على نعمه كلّها فالواجبُ عليه الشكر على بعضها ؛ إذ لا يقدر أحدٌ على إحصائها ، كما قال تعالى[1] ، فلما كفر نِعَمَ اللهِ عليه وتعدّى كفره إلى ظلم أخيه الضعيف بالغ بهذا التهديد العظيم ، لعله يرجع ؛ كما جرى لبعضهم لما ظلم ، فقال له المظلوم : أشكوكَ إلى السلطان . فقال له : السلطانُ يعرفني ؟ [٢٨٧ ا] فقال أشكوك إلى الله ، فلما لقيَه بعد أيام قال له كالمستهزىء به : ماقال لك الله ؟ فقرأ عليه الآية ، فارتجع الظالم وأناب . وهكذا حال من أراد الله هدايته .

---

(١) في الآية بعدها : (٥٥) : وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا . . .

فإن قلت : ما مناسبة هذه الآية لقوله تعالى : « إن[1] الإنسان لظلوم كفار » . وختم آية النحل بقوله : « إن[2] الله لغفور رحيم » ؟

والجواب أنه تقدم آية إبراهيم : « ألمْ ترَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كُفراً ... » إلى قوله[3] : « وآتاكم من كلِّ ما سألتموه » ، فناسبه ما ذكره تعالى من توالى إنعامه ودرور إحسانه ، ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل ، وجعل الأنداد ـ وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار . وأما آيةُ النحل فلم يتقدمها غير ما نبّه سبحانه لعباده المؤمنين من توالى آلائه وإحسانه وما ابتدأهم به من نِعمه من لَدُنْ قوله : « خلَق[4] الإنسانَ من نُطفة » ؛ فذكر بضعا وعشرين من أمهات النعم إلى قوله ـ منبها وموقظا من الغفلة والنسيان : « أفَمَنْ[5] يَخْلُق كمَنْ لا يَخْلُق » . فناسب ختام : « وإنْ[6] تعدُّوا نِعمةَ الله لا تُحصوها » بالغفران . فانظر هذا اللطف الجليل بعباده والتناسب الواضح .

(وتَبيَّنَ[7] لكم كيف فعلْنا بهم) : يفهم من هذه الآية أنّ التواتر يُفيد العلم ؛ لأنهم لم يتبيَّنْ لهم ذلك إلا بالإخبار عن الأمم السابقة .

(وليَعلَموا[8] أنما هو إلهٌ واحد ...) الآية : تفيد أنّ الوحدانية تثبت بالسمع ، وهو أحدُ القولين عند الأصوليين ، وأتتْ هذه الآية بالتعرى من تاء التفعل لتقدّمها قوله تعالى : « ولِيُنذَرُوا[8] به وليَعلَموا » ، وقد عريت الكلمتان من حروف الشدة ، فعطف عليه : « ولِيذَّكَّرَ » ؛ لأن جميعها من الرخوة بخلاف آية ص[9] ، فإن قبلها وليدبروا ، وفيه حرفان من حروف

---

(١) إبراهيم : ٣٤ (٢) النحل : ١٨ (٣) إبراهيم : ٢٨ ـ ٣٤

(٤) النحل : ٤ (٥) النحل : ١٧ (٦) النحل : ١٨

(٧) إبراهيم : ٤٥ (٨) إبراهيم : ٥٢

(٩) آية ص : ٢٩ : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

الشدة ، فناسبهما : « وليتذكر » . والتناسب واضح .

(وما[1] بكم من نِعْمةٍ فمِنَ الله) : نبّه اللهُ عبادَه بهذه الآية مؤمنهم وكافرهم على أنْ يشكروه ويتأدَّبُوا معه . ويؤخذ منها أنَّ الكافرَ منعَمٌ عليه ، وقيل غير منعم عليه ، الآية : « أنّما[2] نُمْلي لهم ليَزْدادُوا إثماً » . وقيل منعم عليه في ظاهر حاله في الدنيا ، وغير مُنْعم عليه في عاقبته ومآله ؛ وتنكير « نعمة » للعموم لا للتقليل ؛ إذ لا يوصف عطاءُ الله بالقلة ، وقوله : « ثم[3] إذا مَسَّكم الضُّرُّ فإليه تجأرون » — المهلة معاوية ، لبعد ما بين غفلة الإنسان وذهوله من النعمة ، وما بين تضرُّعه وذلته زمَنَ الضر ؛ كقوله[4] :

وما يكشف الغمراء إلا ابن حُرَّة

يرى غمرات الموت ثم يزورها

ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف أو الحال ؛ فيكون الكلامُ متصلا بما قبله ؛ أي كيف تتقُون غيْرَ الله وما بكم من نعمةٍ فمنه وحْدَه . وبهذا يظهر لك تناسب الآيات .

(واتَّبِع[5] أدبارهم) ؛ أي كن خَلْفَهم وفي ساقتهم حتى لا يبقى منهم أحد ، وليكونوا قُدّامه ؛ فلا يشتغل قَلْبُه بهم ، ولو كانوا وراءه لاشتغل لِخَوْفه عليهم ؛ وبهذا يَظْهَرُ لك رحمةُ لوط بقومه الذين آمنوا معه .

(واللهُ[6] يعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون) : لما تقدم هذه الآية : لأن الله لا يؤاخذ عباده بعدم القيام بشكر النعم لذكره المغفرة والرحمة عقب قوله بهذه الآية ؛ أي ما تحدّثون به أنفسكم ، وليس المراد السر في اصطلاح الفقهاء ،

---

(١) النحل : ٥٣ (٢) آل عمران ١٧٨ (٣) النحل : ٥٣

(٤) من شواهد الكشاف . وفيه : ولايكشف الغماء ... (٥) الحجر : ٦٥

(٦) النحل : ١٩

وتضمنت الآية الإشعار باتصاف الله تعالى بالقدرة والعلم ؛ فالقدرة بقوله[1] : « أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ » ، وهذا للعلم . وعطف ما يسرون وما يعلنون للتسوية ؛ فهو أمر استأثر اللهُ به ، كما قال[2] : « إنّ الله عنده عِلْمُ الساعة » .

(وإنّ[3] لكم في الأنعام لَعِبْرَةً) : لما كان التفكر منفعة عامة في العاقل وغيره أعقبه بالمنفعة الخاصة بالعاقل ، وأكّده بأنّ واللام لغفلة المخاطب عن الاعتبار والتذكر ، لا لكونه منكرا لذلك . وقد قدمنا في حرف الفاء أن زيادة لكم تنبيه على العبرة ، والعبرة يُرَاد بها الاتعاظ ؛ لقوله : « فاعتبروا[4] يا أولِي الأبصار » .

(ومما[5] يَعْرِشُون) : قد قدّمنا أن الله تعالى أوحى إلى النحل أنْ تتخذ البيوت في الجبال والشجرِ وبيوتِ الناس حيث يعرشون ؛ أي يبنون العروش ، فلا ترى للنحل بيوتا في غير هذه الثلاثة البتة .

وتأمل كيف كان أكثر بيوتها في الجبال ، وهو المتقدم في الآية ، وفي الأشجارِ وهي دون ذلك ، ومما يعرش[6] الناس ؛ وهي [٢٨٧ ب] أقلّ بيوتها .

وانظُرْ كيف رآها حسنة الامتثال إلى أن اتّخَذَت البيوتَ قبل المرعى فهي تتّخذها أولا ، فإذا استقرّ لها بيتٌ خرجت منه ورَعَتْ ، فأكلت من كلّ الثمرات ، ثم أوت إلى بيوتها ؛ لأن ربّها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ، ثم بالأكل بعد ذلك .

قال في عجائب المخلوقات : يقال ليوم عيد الفطر يوم الرحمة ؛ إذ فيه أوحى

---

(١) النحل : ١٧ (٢) لقمان : ٣٤ (٣) النحل : ٦٦

(٤) الحشر : ٢ (٥) النحل : ٦٨ (٦) في الأصلين : ومما يعرشون الناس .

الله إلى النحل صنعةَ العسل . قال الغزالى : لو تأملت عجائبَ أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار واحترازها من النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها ، وهو أكبرها شخصا ، وهو أميرها ، ثم ماسخّر اللهُ له من أمرها من العدل والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل منها على باب المنفذ كلّ ماوقع على نجاسة لقضيْتَ من ذلك العجب إنْ كنتَ بصيرا فى نفسك ، وفارغا من همّ بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى مُعاداة أقرانك وموالاة إخوانك ، ثم دَعْ عنك جميعَ ذلك وانظر إلى بنيانها من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال المسدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مُرَبّعا ولا مخمسا ، بل مسدسا لخاصية فى ميل المسدس يقصر فَهم المهندسين عن دَرك ذلك ؛ وهو أنّ أوسع الأشكال وأحْوَاها المستدير ، وما يقرب منه ؛ فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فتركَ المُرَبّع حتى لا تبقى الزوايا فارغة ؛ ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارجَ البيوت فُرَجٌ ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصّة ، ولا شكل من الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فُرْجة إلا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل .

فانظر كيف ألهم اللهُ تعالى هذا النحل على صِغَر جرمه لُطْفاً به وعنايةً بوجوده فيما هو محتاج إليه ليتهنّأ عيشه ؛ فسبحانه ! ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

ولو ذكرنا منافع النحل ، وما أوْدَع فيها لاحتاج إلى مجلد ؛ ولذلك مثّل صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنحلة إن صاحَبْتَه نفعك ، وإن سارَرْته نفعك ، وإن جالسته نفعك . وكذلك النحلة كل مافيها منافع .

قال ابن الأثير : وجه المشابهة من المؤمن فى النحلة حِذْق النحل فى فِطنته وقلة أذاه وحقارته ومنفعته وقناعته وسَعْيه فى الليل وتنزهه عن الأقذار ، وطيب أكله ؛ لأنه لا يأكل من كسب غيره ، وتحوله وطاعته لأميره ، وإنّ للنحل آفات تقطعه عن عمله ؛ منها الظلمة ، والغيم ، والريح ، والدخان ، والماء ، والنار ؛ وكذلك المؤمن له آفات ، تفتره عن عمله ظُلمة الغفلة ، وغَيْم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، وماء السعة ، ونار الهوى .

وفى مسند الدارمى ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ قال : كونُوا فى الناس كالنحلة فى الطير ، إنه ليس فى الطير شىء إلا وهو يستَضْعفها ، ولو تعلم الطيرُ ما فى أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها ، خالطوا الناسَ بألسنتكم وأجسادكم ، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم ، فإنّ للمرء ما اكتسب ، وهو يومُ القيامة مع من أحبّ .

والمعروف من قول على بن أبى طالب أنه قال : إنما الدنيا ستة أشياء : مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشموم . فأشرفُ المطعوم العسل ، وهو قىء ذباب ، وأشرف المشروبات الماء يستوى فيه البرّ والفاجر . وأشرفُ الملبوسات الحرير ، وهو نسج دودة . وأشرف المركوبات الخيل ، وعليها يقتل الرجال . وأشرف المشمومات المسك وهو دَمُ حيوان . وأشرف المنكوحات المرأة وهو مبال فى مبال .

وروى الكواشى فى تفسيره الأوسط : إنّ العسلَ ينزل من السماء فينبت فى أماكن ، فتأتى النحلُ فتشربه ، ثم تلقيه فى الشمع المهيّأ للعسل فى الخلية ، لا كما يتوهمه بعض الناس إن العسل من فُضيلات الغذاء وأنه قد استحال فى المعدة [١٢٨٨] عسلا ، هذه عبارته .

ومما يدلك على كمال قدرته سبحانه أنه جمع في النحلة السمّ والعسل ، فدلّ على كمال قدرته ، وأخرج منها العسل ممزوجا بالشمع ، كذلك حال المؤمن ممزوج بالخوف والرجاء .

وفي العسل ثلاثة أشياء : الشفاء ، والحلاوة ، واللين : كذلك المؤمن ، قال تعالى : « ثم[1] تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله » . يخرج من الشاب خلاف ما يخرج من الكهل ، والشيخ كذلك حال المقتصد والسابق ، وأصلحها الله تعالى بأمره حتى صار لُعابها شفاء ، ودواء الأطباء مرّ ، ودواء الله حلوٌ ، وهو العسلُ ، وهي تأكل من كلّ الشجر ، ولا يخرج منها إلا حلوٌ . ولا يغيّرها اختلافُ مأكلها . والعبدُ الطيب يخرج نوره بإذن ربه .

(وشارِكهم[2] في الأموالِ) : بكسبها من الحرام ، وإنفاقها في المعاصي ، وغير ذلك ، والأولاد بالمستولد بالزنى ، وبتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وشبه ذلك .

(وعِدْهم[2]) : من المواعيد الكاذبة من شفاعة الأصنام وغير ذلك .

(وكيلا[3]) : قصدنا أن الوكيل هو القائم بالأمور الكافل .

(وصيد[4]) : باب الكهف ، وقيل عتبته .

(وليتلطّف[5]) : أي في اختفائه ، وتحيّله ؛ لأنهم حلفوا على أنفسهم في بعث أحدهم إلى المدينة ، وكانت الورق التي أعطوها فضة زوّدوها حين خروجهم إلى الكهف ، وأخذ من قضيتهم : زاد المسافر أفضل من تركه .

---

(١) الزمر : ٢٣ (٢) الإسراء : ٦٤ (٣) الإسراء : ٦٥

(٤) الكهف : ١٨ : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . . . (٥) الكهف : ١٩

فإن قلت : كيف اتصل بعث أحدهم بتذكر مدة لبثهم ؟

فالجواب كأنهم قالوا : « ربكم[1] أعلم بما لبثتم » ، ولا سبيل لكم إلى العلم بذلك ، فخذوا فيما هو أهم من هذا وأنفع لكم ، فابعثوا أحدكم إلى المدينة. قيل إنها طرسوس .

(ولبثوا[2] في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً) : في هذه الآية قولان : أحدهما أنه حكاية حال عن أهل الكهف ، يدل على ذلك ما في قراءة ابن مسعود : وقالوا لبثوا في كهفهم ، وهو معطوف على قوله[3] : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » ، فقوله : « قل[4] الله أعلم بما لبثوا » ردٌّ عليهم في هذا العدد المحكي عنهم .

والقول الثاني أنه من كلام الله تعالى وأنه بيان لما أجمل في قوله : « فضربنا[5] على آذانهم في الكهف سنين عدداً » ومعنى قوله[6] : « قل الله أعلم بما لبثوا » ، أي أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم . وقد أخبر بمدة لبثهم ؛ فإخباره هو الحق ؛ لأنه أعلم من الناس ، فكان قوله : « قل الله أعلم » احتجاج على صحة ذلك الإخبار ، وانتصب « سنين » على البدل ، أو عطف البيان ، أو على التمييز ؛ وذلك على قراءة التنوين في ثلاث مائة . وقرىء بغير تنوين على الإضافة ووضع الجمع موضع المفرد .

(وأحيط[7] بثمره) : عبارة عن هلاكه .

([8]وأعز نفراً) ؛ يعني الأنصار والخدم .

---

(١) الكهف : ١٩ (٢) الكهف : ٢٥ (٣) الكهف : ٢٢
(٤) الكهف : ٢٦ (٥) الكهف : ١١ (٦) الكهف : ٢٦
(٧) الكهف : ٤٢ (٨) الكهف : ٣٤

(ودَخَلَ[1] جَنَّتَه) : أفرد الجنةَ هنا لأنه إنما دخل الجنةَ الواحدة من الجنتين ، إذ لا يمكن دخولها معاً فى دَفْعَة واحدة .

([2]ويقول ياليتنى لم أُشْرِكْ بِرَبِّى أحَدا) — قال ذلك على وجه التمنى لما هلك بُسْتانه ، أو على وجه التَّوْبة من الشِّرْك .

(وتَرَى[3] الأرْضَ بارِزَةً وحشَرْناهم) ؛ أى ظاهرة لزوالِ الجبال عنها .

(وتلكَ[4] القُرَى أهلَكْناهم لَمَّا ظَلَمُوا) : الإشارةُ إلى عاد وثمود وغيرهم من المتقدمين . والمرادُ أهل القرى ، وفى ضمن هذا الإخبار تهديد لكفّار قريش .

(وَرَاءَهم[5]) : قيل قدامهم . وقرأ ابن عباس أمامهم . وقال ابن عطية : إنّ وراءهم على بابه ، ولكن روعى به الزمان ، فالوراء هو المستقبل ، والأمام هو الماضى .

(ويسألُونَكَ[6] عن ذِي القَرْنَيْن) : الإشارةُ إلى قريش بإشارة اليهود لهم على اختلاف الروايات ، وذلك أنهم سألوه عن الروح ، وفتية أهل الكهف ، وذى القرنين ، وقد ذكرنا أنّ الله مكّن له فى الأرض ودانت له ملوكها .

(وتَرَكْنا[7] بَعْضَهم يومئذٍ يَمُوجُ فى بَعْض ، ونُفِخ فى الصُّورِ فجَمَعْناهم جَمْعا) : المعنى أن الناس تموج يومَ القيامة كموج البحر . وقيل : إنّ الضمير

---

(١) الكهف : ٣٥ (٢) الكهف : ٤٢ (٣) الكهف : ٤٧

(٤) الكهف : ٥٩ (٥) الكهف : ٧٩ (٦) الكهف : ٨٣

(٧) الكهف : ٩٩

يعود على يأجوج ومأجوج ، والأول أرجح ؛ لقوله بعد ذلك : « ونُفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » .

(وهَنَ[1] العظمُ منّى واشتعلَ الرأسُ شَيْباً) : قد قدمنا أن هذا استعارة [٣٨٩ب] للشيب ، من اشتعال النار ، وهذا القولُ من زكرياء حين ضعف فطلب من الله أنْ يهبَ له الولد .

(ولم[2] أكُنْ بدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) : أى قد سمعتَ بدعائى لكَ فيما مضى ، فاستجبْ لى فى هذا ؛ فتوسّلَ إلى الله بإحسانه القديم إليه ؛ ولذلك قيل :

إذا أثنى عليكَ المرء يوماً كفى من تعرّضه الثناء

([3]وإنّى خِفْتُ الموالِىَ مِنْ ورائى) ؛ أى من بعدى . قيل : خاف أن يرثه أقاربُه دون نسله . وقيل : خاف أن يضيّعوا الدِّينَ من بعده ، فطلب من الله إقامةَ دينه ؛ ولهذا قال : « واجعله رَبِّ رَضِيًّا[4] » ، فاستجاب اللهُ دعاءه وبشّره بيحيى الذى لم يجعل له من قبل سميًّا .

(واهْجُرْنِى[5] مَلِيًّا) : عطف « اهجرنى » على محذوف تقديره : احذر رَجْمى لك حينا طويلا . وقال هذا لإبراهيم لما أيس من اتّباعه .

(وَفْداً[6]) : قد قدمنا أنّ الوفد هو الراكب ، وسرُّ تخصيص المتقين بالوفد لإكرامهم . وقد صح أنهم يُحْشرون ركبانا . وأما الكفار فعلى وجوههم عُمْيا وبُكْما وصمًّا مأواهم جهنّم .

---

(١) مريم : ٤ (٢) مريم : ٤ (٣) مريم : ٥ (٤) مريم : ٦
(٥) مريم : ٤٦ (٦) مريم : ٨٥

(وَزِيرا[1]) : أى معينا ، وإنما طلب موسى أخاه لِتُشَدَّ به أَزْرَه ، أى يقوّيه . ويؤخذ منه الاستعانة على الأمور بمَنْ هو أقوى ؛ ولذلك قال موسى[2]: « وأخى هارونُ هو أفْصَحُ منى لسانا » .

(وإنَّ[3] لكَ مَوْعِداً لن تُخْلَفَه) : يعنى العذابَ فى الآخرة زيادة على عذاب الدنيا ، وكان عذابه فى الدنيا كما قال : « إنَّ[3] لكَ فى الحياة أنْ تقولَ لا مِساس » . والصحيح أنَّ الله تاب على السامرى وغفر له لسخائه .

(ورَضِىَ[4] قوله قَوْلا) : إن أُريد بمن أذن له الرحمن المشفوع له فاللامُ فى له بمعنى من أجله ؛ أى رضى من المنافع من أجل المشفوع فيه . وإنْ أراد الشافع فالمعنى رَضِىَ قولَه فى الشفاعة .

(ولا[5] يُحِيطون به عِلْمًا) : قيل المعنى : لا يحيطون بمعلوماته ؛ كقوله : « ولا[6] ولا يُحيطون بشىء من عِلْمه إلا بما شاء » . والصحيح عندى أنَّ المعنى لا يحيطون بمعرفةِ ذاته ؛ إذ لا يَعْرِف الله على الحقيقة إلا الله ، ولو أراد المعنى الأول لقال : ولا يحيطون بعلمه ؛ ولذلك استثنى هناك إلا بما شاء ، ولم يستثن هنا .

(ولولا[7] كلمةٌ سبقَتْ مِنْ رَبّك) : الكلمة هنا القضاء السابق بتأخير العذاب عنهم . «[7] لَكَانَ لِزاماً » : أى واقعاً بهم .

(ولو[8] أنّا أهلَكْنَاهُم بعذابٍ مِن قَبْلِهِ) ؛ أى قبل مبعثك يا محمد لاحتجُّوا وقالوا : لولا أرسلْتَ إلينا رسولا ، فبعثناكَ لتكونَ لنا الحجة عليهم بِبَعْثِك لهم .

---

(١) طه : ٢٩ (٢) القصص : ٣٤ (٣) طه : ٩٧ (٤) طه : ١٠٩
(٥) طه ١١٠ (٦) البقرة : ٢٥٥ (٧) طه : ١٢٩ (٨) طه ١٣٤

(وأَسَرُّوا[1] النَّجْوَى) : الواو فى أسروا ضمير فاعل يعود على ماقبله ، « والذين[1] ظلموا » بدل من الضمير .

(وَلا[2] يَسْتَحْسِرُونَ) ؛ أى لا يعيون ولا يملّون . والضمير يعود على الملائكة ، وكيف يملّون وقد أعانهم اللهُ وقوّاهم على عبادته ، فأين عبادتك منهم ؟ وماذا يخطر ببالك من مُزَاحمتهم .

(ولا[3] يشفعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى) ؛ أى لمن ارتضى اللهُ بالشفاعة له . ويحتمل أن تكون شفاعة الملائكة للعاصى فى الدنيا بالاستغفار له أو فى الآخرة .

(وَسْوَسَ[4]) : قد قدمنا أنه يُقال لما يقع فى النفوس وسواس ، ولما يقع من عمل الخير إلهام من الله . ولما يقع من التقدير الذى لا على الإنسان ولا له خاطر .

(ومَنْ[5] يَقُلْ منهم إنى إلهٌ مِنْ دونه) ؛ أى على فرض أن قالوا ذلك ، ولكنهم لا يقولونها ؛ وإنما مقصود الآية الردّ على المشركين . وقيل : إن الذى قال إنى إله إبليس .

(وهو[6] الذى خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ): التنوين فى كل عوض من الإضافة ، أى كلهم فى فلك يسبحون ، يعنى الشمس والقمر دون الليل والنهار ؛ إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح فى الفلك ، فالجملةُ فى موضع الحال من الشمس والقمر ، أو مستأنفة .

فإن قيل لفظ كلّ ويسبحون جمع ، يعنى الشمس والقمر وهما اثنان ؟

---

(١) الأنبياء : ٣ (٢) الأنبياء : ١٩ (٣) الأنبياء : ٢٨ (٤) طه : ١٢٠
(٥) الأنبياء : ٢٩ (٦) الأنبياء : ٣٣

فالجواب أنه أراد جنس مطالع كلّ يوم وليلة ، وهي كثيرة ؛ قاله[١٢٨] الزمخشري وقال الغزنوي : أراد الشمسَ والقمرَ ومنازلَ الكواكب السيارة؛ وعبّر عنها بضمير الجماعة العقلاء في قوله : يسبحون ، لأنه وصفهم بفعل العقلاء ، وهو السبح .

فإن قلت : كيف قال في فلك وهي أفلاك كثيرة ؟

والجواب أنه أراد كلّ واحد يسبح في فلكٍ ، وذلك كقولك : كساهم الأمير حلّة ، أي كسى كلَّ واحد منهم حلّة .

ومعنى الفلك جسمٌ مستدير . وقال بعض المفسرين : إنه مذموم ، وذلك بعيد . ومعنى يسبحون ، أي يجْرُون أو يدورون ، وهو مستعار من السبح بمعنى العَوْم في الماء . وقد قدمنا أن مجاري القمر ثمانية وعشرون ؛ لأنه يقطع الفلك في شهر ، ومجاري الشمس مائة وثمانون لأنها تقطع الفلك في سنة . ووجهه أنّ السنة ثلاثمائة وستون يوما ونصفها مائة وثمانون فهي تقطع في نصف السنة ستة بروج ، ثم ترجع صاعدة أو هابطة فتمشي في نظائر تلك البروج ، فما مجاريها في الحقيقة إلا ستة بروج ، فسبحان من دبّر الأشياء كيف شاء وأتقنها بحكمته ، فلا يعلم أحد بحقيقتها إلا من أطلعه عليها .

(وكنا[١] لهم حافظين) ؛ أي حفظنا أمرَ سليمان وما صنع من الفساد . وقيل معناه : عالمين بعددهم .

(وكذلك[٢] نُنْجِي المُؤْمِنين) ؛ أي مطلقا من همومهم ، أي إذا دعوا بدعاءِ يونس : لا إله إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين . وقد قدمنا في

---

(١) الأنبياء : ٨٢ (٢) الأنبياء : ٨٨

قصة الحديث: « دَعْوةُ أخي ذا النون ما دعا بها مكروب إلا استُجيب له ومن دَعَا بها في مرضه أربعين مرة فمات غُفر له » .

(والتي[1] أحصَنَتْ فَرْجَها) : ضمير التأنيث يعود على الصديقة المطهرة ، لقولها : لم يَمْسَسْنِي بَشَر ، فأحصنَتْه عن الحلال والحرام ، حتى أراد اللهُ فيها ما أراد ، وقد قدمنا قصتها .

(وَحَرَامٌ[2] على قرية أهلكناها أنهم لا يَرجعون) : قرىء بكسر الحاء[3] بمعنى حرم . واختلف في معنى الآية ؛ فقيل حرام بمعنى ممتنع على قرية أهلكها اللهُ أن يرجعوا إلى الدنيا ، ولا زائدة في الوجهين . وقيل حرام بمعنى حتْم لا محالة ، ويتصور فيه الوجهان ، وتكون لا نافية فيهما ؛ أي حتم عدم رجوعهم إلى الله بالتَّوْبة ، أو حتم عدم رجوعهم إلى الدنيا . وقيل المعنى ممتنع على قرية أهلكها اللهُ أنهم لا يرجعون إليه في الآخرة ، « ولا » على هذا نافية أيضا ؛ ففيه ردٌّ على من أنكر البعث .

(ولقد[4] كتَبْنا في الزَّبُورِ من بعد الذِّكْرِ) : فيه قولان : أحدها أنه كتاب داود ، والذِّكْرُ هنا التوراة التي أنزل اللهُ على موسى ، أو ما في الزبور من حكم الله تعالى . والقولُ الآخر أنَّ الزبور جنس الكتُبِ التي أنزلها اللهُ على جميع الأنبياء ؛ وذلك خمسين صحيفة على شيث ، وثلاثين لإدريس ، وعشرين لإبراهيم ، والتوراة لموسى ، والزبور لداود ، والإنجيل لعيسى ، والفرقان لمحمد صلوات الله عليهم أجمعين . والذكر على هذا اللوح المحفوظ ؛ أي كتب اللهُ هذا في الكتاب الذي أفرد له بعد ما كتبه في اللوح المحفوظ ، حين كتب

---

(١) الأنبياء : ٩١ (٢) الأنبياء : ٩٥

(٣) أي وسكون الراء كما في القرطبي (١١ ـ ٣٤٠) (٤) الأنبياء : ١٠٥

الأمور كلها . والأولُ أرجح ؛ لأن إطلاقَ الزبور على كتاب واحدٍ أظهر وأكثر استعمالا ، ولأن الزَّبور مفرد فدلالتُه على الواحد أرجحُ من دلالته على الجمع ، ولأن النصَّ قد ورد فى زبور داود بأنَّ الأرض يَرِثُها الصالحون ، والأرضَ على الإطلاق فى مشرق الأرض ومغاربها . وقيل الأرض المقدسة . وقيل أرض الجنة : والأول أظهر .

والعبادُ الصالحون فى الآية أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ففى الآية ثناءٌ عليهم ، وإخبارٌ بظهور غيب مصداقه فى الوجود ؛ إذ فتح اللهُ لهذه الأمَّة مشارقَ الأرض ومغاربها .

(وأنَّ[1] اللهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيد) : قال ابن عطية : أنَّ فى موضع خبر الابتداء ، والتقدير الأمرُ أنَّ اللهَ ، وهذا ضعيف ، لأن فيه تكلفَ إضمارٍ وقطعاً للكلام عن المعنى الذى قبله . وقال الزمخشرى : التقدير أن الله يهدى من يريد أنزلناه كذلك آياتٍ بينات ، فجعل أن تعليلا للانزال ، وهذا ضعيف للفصل بينهما بالواو ، والصحيح عندى [٢٨٩ ب] أنَّ قوله : وأن الله معطوف على آيات بينات ، لأنه مقدر بالمصدر ، فالتقديرُ أنزلناه آياتٍ بينات ، وهدًا لمن أراد الله أن يهديه .

(وكثيرٌ[2] من الناس) : إنْ جعلنا سجودَ مَنْ فى السموات والأرض بمعنى الانقياد للطاعة فيكون « كثير من الناس » معطوف على ماقبله من الأشياء التى تسجد ، ويكون قوله : « وكثيرٌ[2] حقَّ عليه العذابُ » مستأنف يُراد به الانقياد للطاعة ، ويوقف على قوله : « وكثير من الناس » ، وهذا القولُ

---

(١) الحج : ١٦ (٢) الحج : ١٨

هو الصحيح . وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاء الله وتدبيره فلا يصح تفصيلُ الناس على ذلك إلى من يسجد ومن لا يسجد ، لأنَّ جميعهم يسجد بذلك المعنى ، وقيل : إن قوله : « وكثير من الناس » معطوف على ما قبله ، ثم عطف عليه « كثير حقَّ عليه العذاب » ، فالجميعُ على هذا يسجد ، وهذا ضعيف ؛ لأن قوله : حقَّ عليه العذاب يقتضي ظاهرهُ أنه إنما حقَّ عليه العذاب بتَرْكه السجود . وتأوّله الزمخشري على هذا المعنى بأن إعراب كثير من الناس فاعل بفعل مضمر تقديره يسجد له كثير من الناس سجودَ طاعة ، أو مرفوعا بالابتداء وخبره محذوف تقديره مثاب ، وهذا تكلُّف بَعِيد .

(وذُوقُوا[1]) : التقدير يقال لهم : ذُوقوا .

(ولُؤْلؤا[2]) - بالنصب - مفعول بفعل مضمر ، أي يحلَّوْن لؤلؤا أو معطوف على موضع من أساور ؛ إذ هو مفعول ، وبالخفض معطوف على أساور أو على ذهب .

(وَأَذِّنْ[3] في الناسِ بالحَجّ) : خطاب لإبراهيم . وقيل لنبيّنا صلى الله عليه وسلم ، والأول أصح لوروده في الصحيح أنه لما بنى البيت أمره أنْ ينادي الناس ، فقال : يارب ، وأين يبلغ أذَاني ؟ فقال : يا إبراهيم ، منك الأذَان وعلينا الإبلاغ ، فصعد على جبل أبي قُبيس ، ونادى : أيها الناس ، إنَّ اللهَ أمركم بحج هذا البيت ، فحجّوا ، فسمعه كلّ مَنْ يحج إلى يوم القيامة ، وهم في أصلاب آبائهم ؛ وأجاب في ذلك الوقت كل شيء من جماد أو غيره : لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْك ، فجرت التلبية على ذلك . وقيل : مَنْ لبى مرةً حجَّ مرة ، ومن لبى غير ذلك حجَّ على عدد التلبية .

---

(١) الحج : ٢٢ (٢) الحج : ٢٣ (٣) الحج : ٢٧

(وجبَتْ[1] جُنوبُها) ، أى سقطت إلى الأرض عند موتها ، يقال وجب الحائط وغيره إذا سقط . وقد قدمنا أنّ هذه اللفظة تُطْلَق على معان كثيرة .

(وإن[2] يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئا لا يستَنْقِذُوه منه) : بَيّن الله فى هذه الآية عَجْزَ الأصنام بحيث لو اختطف الذبابُ منهم شيئا لم يقدروا على استنقاذه حال ضعفه . وقد صَحّ أنهم كانوا يجعلون على أصنامهم الطيب وغيره من ألوان الأطعمة ، فيأتى الذبابُ فيخطفه ، ولا يقدرون على خلاصه منه ، وهو أقلُّ الخلق .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله فى تجهيل قريش ورَكاكة عقولهم ، وكيف لا وقد وصفوا آلهتهم بالقدرة والعلم ، ولا يقدرون على هذا الخلق الضعيف ، ولا يَنْتَبِهون لعمايتهم وضلالهم ، فهُمْ أضلُّ من البهائم ؛ ولذا ورد الحديث : إذا وقع الذبابُ فى إناءِ أحدِكم فليمْقُلْه فإنَّ فى أحد جناحيه داءً وفى الآخر شفاء ، وإنه يتّقى بجناحه الذى فيه الداء .

فإن قلت : كيف يجتمع الداءُ والشفاء فى جناحى الذبابة ؟ وكيف تعلم ذلك فى نفسها حتى تقدِّمَ جناحَ الداء وتؤخِّر جناحَ الشفاء ؟ وما حملها على ذلك ؟

والجواب : أنّ هذا غير مُنْكر ، لأنا نجد فى أنفسنا وفى أنفس عامّةِ الحيوان قد جمع فيها بين الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، وهى أشياء متضادّة إذا تلاقَتْ تفاسدت ، ثم إن الله تعالى قد ألّف بينها وقهرها على الاجتماع ،

---

(١) الحج : ٣٦ (٢) الحج : ٧٣

وجعل منها قوى الحيوان التى فيها بقاؤها وصلاحها لجدير ألاَّ يذكر اجتماعَ الداء والشفاء فى جزءين من حيوان واحد ، وإن الذى ألهم النحلةَ لاتخاذ البيتِ العجيب الصنعة ، وألهم الذرة[1] أنْ تدَّخر قوتها ، وتدخره لأوان حاجتها إليه هو الذى خلق الذُّبابة وجعل لها الهدايةَ إلى أن تؤخِّر جناحا وتقدِّمَ جناحا لما أراد من الابتلاء الذى هو مَدْرجة التعبُّد ، والامتحان الذى هو مِضْمار التكليف ، وله فى كل شىء حكمة وعنوان . وما يتذكَّر إلا أولو الألباب .

وقد تأملت الذباب فوجدته يتّقِى بجناحه الأيسر ، وهو مناسب للداء ، كما أنّ الأيمن موافق للدواء ، واستفيد من الحديث إنه إذا [١٢٩٠] وقع فى المائع أنه يموت فيه ولا ينجس ، وفى ذلك يخرج أنّ ما يعم وقوعهُ كالذباب والبعوض لا ينجس ، وما لا يعمّ كالخنافس والعقارب تنجس ، وهو متّجه لا محيد عنه .

(وحُرِّمَ[2] ذلك على المؤمنين) ؛ أى حرم الزنى . وقيل حرم تزوّج الزانية لغير الزانى ، فإن قوما منعوا أنْ يتزوجها أحد . وهذا على القول الثانى فى الآية قبلها ، وهو بعيد لجوازِ تزوّج الزانية . وروى كراهة تزوجها .

(وأنكِحُوا[3] الأيامَى منكم) : معناه الذين لا أزواج لهم رجالا كانوا أو نساء أبكارا أو ثيبا . والخطاب هنا للأولياء والحكّام ؛ أمرهم اللهُ بتزويج الأيامى ، فاقتضى ذلك النهى عن عَضْلهن من التزويج . وفى الآية دليلٌ على

---

(١) الذرة : النملة .

(٢) النور : ٣

(٣) النور : ٣٢

عدم استقلال النساء بالنكاح ، واشتراط الولاية فيه ، وهو مذهبُ الشافعي ومالك خلافا لأبي حنيفة .

(والصالحين[1] مِنْ عبادكم وإمَائِكم) : يعني الذين يصلحون للتزويج من ذكور العبيد وإناثهم ، والمخاطبون هنا ساداتهم . ومذهبُ الشافعي أنّ السيد يُجْبر على تزويج عبيده لهذه الآية خلافاً لمالك . ومذهب مالك أنّ السيد يُجْبِرُ أمته وعبده على النكاح خلافا للشافعي .

(وأعانه[2] عليه قوم آخرون) : هذا من قول الكفار ، ويعنون قوما من العبيد منهم عدّاس ويسار وأبو فكيهة الرومي .

(وعداً[3] مَسْئُولا) ، أي سأله المؤمنون أو الملائكة في قولهم : وأدخلهم جنات عَـــدْن . وقيل معنى وَعْـداً واجب الوقوع لأنه قد حتمه .

(ولكن[4] مَتّعْتَهم وآباءَهم) : معناه متّعْتَهم بالنعم في الدنيا ، وكان سبب نسيانهم لذكر الله وعبادته .

(ويَوْمَ[5] يَعَضُّ الظَّالمُ على يدَيْه) : المراد بالظالم هنا عقبة بن معيط ، لأنه جنح إلى الإسلام ، فنهاه أُبَيّ بن خلف . والآية تعمُّ كلّ ظالم سواء كان كافرا أو مؤمنا ظالما ، إذ كلُّ عاص يعضّ على أنامله من الندم ، وإذا كان المطيعُ يتحسّر على مافاته من زيادة الطاعة ، فما بالك بالعاصي .

(وكان[6] الشيطانُ للانسان خَذُولاً) : يحتمل أن يكونَ هذا من قول

---

(١) النور : ٣٢ (٢) الفرقان : ٤ (٣) الفرقان : ١٦

(٤) الفرقان : ١٨ (٥) الفرقان : ٢٧ (٦) الفرقان : ٢٩

الظالم ، أو ابتداء إخبار ، من قول الله تعالى . ويحتمل أن يكونَ الشيطان إبليس ، أو الخليل المذكور .

(وقال[1] الرسول يارب إنَّ قومى اتخذوا هذا القرآنَ مهجورا) : يحتمل أن يكون قال هذا فى الدنيا أو فى الآخرة أو مجموعهما .

(وكذلك[2] جَعَلْنا لِكل نبيّ عَدُوًّا مِنَ المجرمين) : العدوُّ هنا جمع ، والمراد تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتأسّى بغيره من الأنبياء .

(وقُرُونا[3] بين ذلكَ كثيراً) : يقتضى التكثير والإبهام ، والإشارةُ بذلك إلى أصحاب الرسّ وثمود وغيرهم .

(وجعل[4] بينهما بَرْزَخا وحِجْراً مَحْجُورا) : قد قدمنا فى حرف الباء والحاء أنّ معناه الحاجز ، وضمير التثنية يعود على البحرين ، لا يختلط أحدهما بالآخر ، وأغربُ منه وجود اللبن من بين فَرْثٍ ودَمٍ ، ووجود الشهد والسم فى النحل ، فالسمُّ سببُ هلاك الأحياء ، والشَّهْدُ سببُ شفاءٍ لمرضى ، وجعل بينهما حاجزا لا يختلطُ أحدهما بالآخر ، وكذلك جعل فى المؤمن النفس والقلبَ ، فالنَّفْسُ تميلُ إلى الدنيا ، والقلب يميل إلى العقبى ، فأعطى له الدين مع الدنيا ، وجعل بينهما حاجزا ، فلا تضر الدنيا مع الدين بفضله وكرمه .

(وتَوَكّلْ[5] على الحيّ الذى لا يمُوتُ) : لأنّ ما سواه يمـــوت ، والاعتزاز بمن يموت لا يبقى ؛ فكيف يعتزّ مخلوقٌ بعد هذه الآية بمخلوق مثله ، أفّ لقالب بلا قلب ! لقد عميت بصيرتنا ، وأظلمت سريرتُنا فظهرنا

---

(١) الفرقان : ٣٠ (٢) الفرقان : ٣١ (٣) الفرقان : ٣٨

(٤) الفرقان : ٥٣ (٥) الفرقان : ٥٨

بالصلاح والتوكل للمخلوقين ، وقلبُنا خَلِيٌّ عن رب العالمين .

(وسيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا[1] أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبون) : هذا وعيد لمن ظلم أحـدا من خلق الله . وعمل ينقلبون فى أى . وقيل إن العـامل فى « أىّ » سيعلم .

(وسبحانَ[2] اللهِ رَبِّ العالمين) : نَزَّه اللهُ نفسَه مما عسى يكون ببال السامع فى معنى النداء ، وفى قوله[2] : « بُورِكَ مَنْ فى النار » ، إذ قال بعض الناس فيه مايجب تنزيهُ اللهِ عنه .

(وأوتِينا[3] من كلِّ شىء) : عمومٌ معناه الخصوص . وقد قدمنا أنَّ المرادَ بقول سليمان هذا التكثير ، كقولك : فلان يَقْصِده كلُّ أحد . ويحتمل أن يريد نفسه وأباه ، أو نفسه [٢٩٠ ب] خاصة على وَجْه التعظيم ؛ لأنه كان ملـكا .

(وحُشِرَ لسليمانَ[4] جنوده من الجنِّ والإنسِ . . .) الآية : اعتبر بما أعطى اللهُ سليمانَ من الجند ، واختلف فى عسكره اختلافا كثيرا ؛ فقيل كان مائة فرسخ فى مائة : خمسة وعشرون للإنسِ ، وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمـائة منكوحة وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجنُّ فُسطاطا من ذهب وإبريسم فرسخ فى فرسخ ، وكان يوضع منبره فى وسطه ، وهو من ذهب ، فيقعد عليه وحوْلَه ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة ، فيقعد الإنسُ والجن على الكراسى وحوْلَهم الناسُ ، وتظلُّهم الطير بأجنحتها ، وترفع

---

(١) الشعراء : ٢٢٧ (٢) النمل : ٨ (٣) النمل : ١٦ (٤) النمل : ١٧

ريحُ الصبا البساط ، فتسير مسيرةَ شهر .

ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرُّخاء تسيّره ، فأوحى اللهُ إليه وهو يسير بين السماء والأرض : إنى قد زدت فى مُلْكك ، لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح فى سمعك . فيحكى أنه مرّ بحرّاث ، فقال : لقد أوتى آلُ داود مُلْكا عظيما ، فألقى الريحُ فى أذنه ، فنزل ومشى إلى الحرّاث ، وقال : إنما مشيتُ إليك لئلا ؛ تتمنّى مالا تقدر عليه! ثم قال : لَتَسْبيحةٌ واحدة يَقبَلُها الله خير مما أوتى آل داود .

وروى أنه سمع قولَ النملة من ثلاثة فراسخ ، وكان يفهم كلامَ الطيور ومعانيها وأغراضها ، وهذا نحو ما كان نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم يسمعُ أصواتَ الحجارة بالسلام .

ويحكى أن سليمان مرّ على طائر فى شجرة يحرّكُ رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدْرُون ما يقول ؟ قالوا : الله ونبيه أعلم . قال : يقول أكلْتُ نصفَ تمرة ، فعلى الدنيا العفاء .

فإن قلت : الظاهر من قول نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى خبر العفريت الذى عرض له فى صلاته فأخذه وأراد أنْ يُوثقه فى سارية من سَوَارى المسجد ، فقال : ذكرت قولَ أخى سليمان : « ربّ[1] اغفِرلى وَهَبْ لى مُلْكاً لا ينبغى لأحَدٍ مِنْ بَعْدى » ؛ فأرسلته ، إنه لم يبلغ هذا الملك .

فالجواب أن لفظة ينبغى إنما هى لفظة محتملة ليست بقطع فى أنه لا يُعطى

---

(١) ص : ٣٥

الله عز وجل محو ذلك الملك لأحد ، ونَبِيُّنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم لو ربط الجنى لم يكن ذلك نَقْصا لما أوتيه سليمان عليه السلام ، لكن لما كان فيه بَعْضُ الشبهة تركه جَرْيا منه صلى الله عليه وسلم على اختياره أبدا أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع ؛ ألا ترى لما عرض عليه أن يكون نبيئا عبدا أو نبيئا ملكا فاختار العبودية ، وقال : إنما أنا عَبْدٌ آكل كما يأكُلُ العبد ؛ فعوَّضه الله بتواضعه الشفاعة العظمى ، والوسيلةَ التي لاينالها غيره . وهذا مع ما كان عليه من تسخير الكونين والثقلين .

وقد ألف بعضُ العلماء في موازاة معجزاته عليه السلام لمعجزات الأنبياء على جميعهم السلام تأليفا عجيبا ، وكذلك نظم بعضهم قصيدةً في معجزاته عليه السلام موازيا لمعجزاتهم .

فإن قلت : كيف يتعرض الشيطانُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يريد إفسادَ صلاته ، ويفرّ من لقاء عمر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "لو سلك عُمر فجًّا لسلك الشيطانُ فجًّا غير فج عمر".

والجواب أنه ليس بمنكر أنْ يتعرَّضَ العفريت له إظهاراً لمعجزته وغلبته له ، وأيضا فأين يَفرُّ منه صلى الله عليه وسلم وهو مالكُ الأرض كلّها ، بل والآخرة بأسْرِها ، فإلى أين يفر من ملاقاته ؟ وعُمَرُ لا يملك إلا الفجّ الذي هو فيه ، فكان يفرُّ منه لغير ملكه ، ولقد علم اللعين أنه لو ظفر به اقتله لشدّة عمر وغِلظته في الله ونصرة دينه ، ونبيُّنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم في غاية الشفقة والرحمة على من يُؤذيه .

وقد حكى ولي الله أبو محمد المهدوي أن أبا مدين قال لتلامذته يوما : أيّما أفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أو أمة سليمان ؟ فأجيب بأنّ الفضل بينهما

معروف . فقال لهم : ما بالُ آصف أوتى علما من الكتاب تمكَّنَ به من الإتيان بعرش بلقيس ، وأنت يا محمدى أوتيت عِلمَ الكتاب ، ولم تتمكن من الإتيان برغيف ؟ قال : فلم [٢٩١ ا] يذكر أحد جوابا عن هذا . قال : فألقى علىّ فى النوم ، فرأيتُ قائلا يقول لى : لو خصّ أحد بسرّ الخفاء ، لعُدّ فى حق غيره خفاء ، وأمةُ محمد من أهل الصفاء والاصطفاء ، وحين استيقظتُ لاح لى سرُّ ما رأيته ، وعلمتُ أنّ آصف خُصَّ بمزية عن كل أمة سليمان عليه السلام لرفعةِ مرتبته ، وليس لتلك الأمة من العناية ما لهذه الأمة ، فلو عمّ ماهم محتاجون إليه ابطلت حكمةُ الله فى طلب الجد والسعى الذى عليه يُثابون ، فلو خُصّ واحد من هذه الأمة بدرجة قالوا : إن مَنْ سواه منحطٌّ عن حصول الاعتناء به فى تناول معاشه دون سبب لهم . بهذا الاعتبار قد تساووا فى الكسب ، لا فضلَ لواحدٍ منهم عن صاحبه فى تطلُّبه ؛ فهم متحدون فى الاقتداء ، فما شرفوا إلا من أجله صلوات الله وسلامه عليه .

(ولو يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ[1] بظُلْمِهم) ؛ أى بظلمهم أنفسهم ، أو بظلم بعضهم بعضا ، فهو للفاعل والمفعول ؛ لأن الناس عام فى الظالم والمظلوم ، وإنما أضاف الظُّلْمَ إليهم لأجل الكسب الذى لهم فيه ؛ ألا ترى أنك تقول عبد فلان، وثواب فلان ، وليس لهم فيه إلا المنافع. وأما الأعيان فما يملكها إلا الله .

وذكر الزمخشرى هنا آثارا عن أبى هريرة وابن عباس تقتضى عمومَ الهلاك فى بنى آدم وغيرهم بسبب شُؤم ظلم الإنسان ، وكذا نقل ابن عطية أنّ الطير والحوت يهلكان بسبب ظُلْم الإنسان ؛ وهذا مما لا يَتمّ الاستدلال به إلا مع ضَميمة ما قاله الأصوليون فى أنّ قول الصحابى إذا كان دليله مخالفا للقياس فإنه

---

(١) النحل : ٦١

يكون حجةً ، لأنه حينئذ لم يكن قاله من عنده ؛ بل يكون سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمّا إنْ وافق القياس فهو مذهبُ صحابي ، فلا يحتج به . وهذا مخالفٌ للقياس . قال تعالى : «ولا [1] تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى » .

وأجاب ابنُ عطية بأنّ هلاك من لم يظلم إنما هو لكونه لم يغيِّرْ على الظالم، ويعضده ما تقدم في قوله تعالى : «فلما [2] نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين يَنْهَوْنَ عن السوء » ؛ وفي قوله : « كانوا [3] لايَتَنَاهَوْنَ عن مُنْكرٍ فعلوه » .

وأجاب بعضهم إن هلاك الظالم بظلمه وهلاكَ مَنْ لم يظلم إنما هو ابتلاء له ليصبر ، فيعظم بذلك أجْرُه ومثوبته ، فهو رحمة به بهذا الاعتبار .

قال الفخر : واستدل بعضُهم بالآية على عدم عِصْمَةِ الأنبياء ، واستدل بها مَنْ جوّز الردة على جميع الخلق لنسبة الظلم فيها لجميع الناس .

ورُدّ بأنّ العمومَ في الآية إنما هو بالمؤاخذة وأمّا الظلم فإنما ذُكر على سبيل الفَرْض والتقدير ؛ أي لو فرض وقوعُ الظلم من الجميع وأُوخذوا به لم يبق أحد ؛ ولا يلزم من فرض الشيء وقوعُه ، كما قال [4] : « لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفَسَدَتا » .

فإن قلت : يفهم من قوله تعالى : « لا [5] يَسْتَأْخِرون ساعةً » نَفْي تأخرهم عن أجلهم ، لأنه كان متوقّعا ، وأما تقدمهم على أجلهم إذا حضر فمستحيل إذ الماضي لا يعودُ ، فلِمَ احتيج إلى نَفْيه ، وجُعل جوابا للشرط ؟

---

(١) الأنعام : ١٦٤ ، الإسراء : ١٥ ، فاطر : ١٨ ، الزمر : ٧
(٢) الأعراف : ١٦٥ (٣) المائدة ٧٩
(٤) الأنبياء : ٢٢ (٥) النحل : ٦١

والجواب أنه على معنى التأكيد لذلك ،وإشارة إلى تسوية الأمرِ الضرورى بالمشكوك فيه ، لأنّ استحالةَ تقدمهم عن أجلهم إذا حضر أمرٌ ضرورى ، وتأخرهم عنه مشكوك فيه ؛ ألا ترى مَنْ حلّ عليه دين مؤجل يمكن أن يؤخّره ربّه عنه ، ولا يمكن أن يقدمه هو عن أجله بعد حلوله بوجه ، فكأنه يقول : كما يستحيل تقدّمهم عن أجلهم إذا حلّ كذلك يستحيل تأخُّرهم عنه ، لأن ماعلمه الله وقدّره لا بُدّ من وقوعه .

(وقال[1] رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى والدىّ) : هذا من قول سليمان لمّا أنعم الله تعالى عليه بالملك ، وعلم أنه رخاء لا ينفعه عند الله إلا بإلهامه الشكر .

وحقيقةُ « أَوْزِعْنِي » اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفّه واربطه ، لا ينفلتُ عنى، حتى لاأنفك شاكرا لك. وأدخل والديه فى الدعاء ، لأن النعمةَ عليهما للولد منها نصيب بالوراثة ، فيجب شُكرُ الوالد على ذلك ؛ لأن موجبَ الشكر مشترك بين الولد [٢٩١ ب] والوالدين ، ومِنْ رؤية النعمة عند سليمان أنه أمر أن يعمل حولَ كرسيّه ألف محراب فيها ألفُ رجل عليهم المسوح يصرخون بالشكر دائما ويقول لجنده إذا ركب : سبّحوا اللهَ إلى ذلك العلم ، فإذا بلغوه قال : هللوا إلى ذلك العلم ، فإذا بلغوه قال : كبروا إلى ذلك العلَمَ الآخر ، فلج الجنود بالتسبيح والتهليل والتكبير لجةً واحدة ، شكرا لما أعطاه الله ، فاستعملوه من أجله . وقد صح أنّ الله يحتجُّ على الأغنياء يوم القيامة بسليمان ؛ لأنه لم يشغَلْه ما أعطاه اللهُ عن القيام بحقه، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب ، لما هلك جميع ما ملك دخل بَيْتَهَ وألقى ثيابه ، وقال : هكذا

---

(١) النمل : ١٩

خرجت إلى الدنيا ، وعلى الفقراء بعيسى ؛ كان له إناء يشرب فيه ، ومُشط يمتشط به ، فألقاها وصار يتخلّل بأصابعه ، ويشرب في يديه ؛ فقال له قومه : ألا تتّخذُ لك حمارا تركبُ عليه إذا أعياك المشي ؟ فقال : أنا أكرم على الله من أنْ يجعلني خادمَ حمار .

(وتَفَقَّدَ[1] الطَّيرَ فقال مالِيَ لا أرَى الهُدْهُدَ) - بضم الهاءين وإسكان الدال بينهما: طائر معروف ذُو خطوط وألوان . قال الجاحظ: وهو وفّاء حفوظ؛ وذلك أنه إذا غابت أنثاه لم يأكل ولم يشرب ولم يَشْتَغل بطلب طعم ، ولا يقطع الصياح حتى تعودَ إليه ، فإن حدث حدث أعدمه إياها لم يسفد بعدها أنثى أبدا ، ولم يزل صائحا عليه ماعاش ، ولم يشبع بعدها من طعم ؛ بل ينال منه ما يمسك رمقه إلى أنْ يشرف على الموت ، فعند ذلك ينال منه يسيرا .

فإن قلت : قد طاب سليمان الشُّكرَ من الله تعالى على هذا الملك ، وإنه لم يكن في باله ولا له به تعلق ، فما بالُه تفقّد الهُدْهُد حين كان يظلّله وتوعّده بالعذاب الشديد أو بالذبح ؛ وهذا الفعل يقتضي العناية بالمملكة والتهمم بكل جزء منها ؟

والجواب ما في الكامل وشعب الإيمان للبيهقي : إن نافعا سأل ابنَ عباس ، فقال : سليمان عليه السلام، مع ما خوّلَه اللهُ من الملك وأعطاه ، كيف عني بالهدهد مع صغره ؟ فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والهُدْهد كانت له الأرض كالزجاج . فقال ابن الأزرق لابن نافع : قِف ياوقّاف ؛ كيف يُبصر الماء من تحت الأرض ، ولا يرى الفخ إذا غُطّي له بقَدْر أصبع من تراب ؟

---

[1] النمل : ٢٠

فقال ابن عباس : إذا نزل القَدَر عَمِي البصر .

قال الزمخشري : وكان السبب في تخلّفه عن سليمان عليه السلام أنه حين نزل سليمانُ عليه السلام حلّق الهدهد ، فرأى هُدْهدا واقعا ، فوصف له مُلكَ سليمان وما سخّر له ، وذكر له ملك بلقيس ، وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف ، فذهب له لينظرَ فما رجع إلاّ بعد العصر ، فدعا سليمان عريفَ الطير وهو النَّسر ، فلم يجد عنده علمه ؛ ثم قال لسيد الطير — وهو العقاب : عليّ به ، فارتفع ونظر فإذا هو مُقْبل ، فقصده ، فناشده وقال له : بالذى قوّاك عليّ ، وأقدرك إلا رحمتنى ، فتركه ، وقال : ثكلتكَ أمُّك ؛ إنّ نبى الله حلف ليعذبنك .

قال : وما استثنى ؟ قال : بلى . قال : أوليأتيَنّى بسلطان مبين . فلما قرب من سليمان أرْخَى ذنبَه وجناحيه يجُرُّهما على الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذَ رأسه فمدّه إليه ، فقال : يانبي الله ، اذكر وقوفَك بين يدى الله خاضعا ذليلا . فارتعد سليمان وعفا عنه ؛ ثم كان تعذيبه لمن خاف أمْرَه من الطير أن ينتف ريشه ويشمسه . وقيل يلقيه للنمل يأكله . وقيل إيداعه القفص . وقال الهدهد : يانبي الله ، بم كنت تعذّبني العذابَ الشديد ؟ قال : أفارقك من إلفكَ وأجعلك تعاشر الأضداد .

فإن قلت : لِمَ أبيح له تعذيبُ الهدهد ؟

قلت : يجوز أنْ يبيح الله له ذلك كما أباح ذَبْحَ البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع . قال عِكْرِمةُ : إنما صرف سليمان عن ذَبْح الهدهد للخبر الذى أتى به من أمْر بلقيس .

وقيل : لأنه كان بارًّا بأبويه [٢٩٣ ا] ينقل الطعامَ إليهما فيزقّهما .

وحكى القزوينى أنَّ الهدهد قال لسليمان : أريد أن تكونَ فى ضيافتى . فقال : أنا وحدى ؟ قال : لا ، أنت وعسكرك فى جزيرة كذا فى يوم كذا ، فحضر سليمانُ وجنوده ، وطار الهدهد ، فاصطاد جرادةً وخنقها ورمَى بها فى البحر ، وقال : يانبى الله ، مَنْ فاته اللحم ناله المرق ؛ فضحك سليمان من ذلك عاما كاملا .

(وَجَدْتُ[١] امرأةً تملِكُهم) : هى بلقيس بنت شراحيل كان أبوها ملك اليمن ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت بعده على الملك . والضمير يعود على قومها .

(ولها[٢] عَرْشٌ عظيم) : يعنى سرير مُلْكها ، ووقف بعضهم على عرش ، ثم ابتدأ : عظيم وجدْتُها[٣] وقَوْمَها يسجدونَ للشمس . وهذا خطأ وغير منكر عليه وَصْف العرش بالعظمة .

(وأتونى[٤] مُسْلمين) : يحتمل أن يكونَ من الانقياد ، بمعنى مستسلمين ، أو يكون من الدخول فى الإسلام .

(وكذلك[٥] يفعلون) : من كلام الله تعالى ، تصديقا لقول بلقيس : إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قَرْيَةً أفسدوها ؛ أو هو من قولها تأكيدا للمعنى الذى أرادَتْه ، أو بمعنى كذلك يفعل[٦] هؤلاء بنا .

فإن قلت : كيف استعظم الهُدْهُدُ عَرْشها مع ما كان يرى من مُلْك سليمان ؟

---

(١) النمل : ٢٣ (٢) النمل : ٢٣ (٣) النمل : ٢٤ (٤) النمل : ٣١
(٥) النمل : ٣٤ (٦) فى ا : يفعلوا ــ تحريف .

فالجواب : أنه استعظم عَرْشَها بالنظر إلى حالها وأمثالها ، وأنه وصفه بالعظم إغراء له عليها ، ووصفه له بأنه ثمانين ذراعا فى ثمانين ، وأنه مكلَّل بأنواع الجواهر ، وأن قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودُرّ وزمرّد ، وغرابة ما فيه من البهاء ، وفى ذلك تقويةٌ لعذره عن غيبته ، ورفع للعقاب عنه ، ولعظمه عندهم أراد سليمانُ أن يُرِيهم قدرةَ الله ، وبعضَ ما خصَّه به من العجائب على يده ، ويشهد بنبوءته .

((١) وكان فى المدينة تسعةُ رَهْطٍ يُفْسدونَ فى الأرض) : يعنى الفساد العام فى كل ما فيه مضرّةٌ لأبناء جنسهم . وقيل : كانوا يقرضون الدنانير والدراهم . والمراد بالمدينة مدينة ثمود ؛ فانظر رحمةَ الله بعباده حيثُ لا يريد مضرّةَ أحدٍ منهم ؛ يبعث الله إليهم صالحاً يَنْهاهم عن الفساد ، فجرى لهم ما قدمناه .

(ويَوْمَ (٢) يُنْفَخُ فى الصُّور فَفزِع مَنْ فى السموات . . .) : قد قدمنا أنّ إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع وهو فى الحياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر . ونفخة الصعق . ونفخة القيام من القبور .

وانظر كيف عَبّر هنا بينفخ وفزع ، وهو أمْرٌ لم يقع بَعْدُ إشعاراً بصحة وقُوعه . وخُصّت هذه السورة بالفزع موافقةً لقوله تعالى : « وهُمْ (٣) مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنُون » . وخُصّت سورة الزمر بالصعق موافقةً لما قبله ، لان معناه : مات وقد تقدم قوله : إنكَ ميّت وإنهم ميّتُون .

(وهم (٤) لا يَشْعُرون) ؛ أى قوم فرعون لا يشعرون بأنّ إهلاكهم

---

(١) النمل : ٤٨ (٢) النمل : ٨٧ (٣) النمل ٨٩ (٤) القصص : ١١،٩

يكون على يد موسى ، أولا يشعرون أنّ الذى دلّت على إرضاعه أخته .

(وَكَزه[1]) ؛ أى ضربه بأطراف الأصابع . وقيل بجمع الـكف فقتله ، ولم يرد أن يقتله ، لـكن وافقت وَكْزته الأجل .

فإن قلت : لم يعمل عملا يوجب له الاستغفار منه ، لأن المقتول كافر .

فالجواب أنّ الله لم يأذن له فى قتْله ، ألا تراه يقول يوم القيامة : قتلت نفسا لم آذن بقتلها .

(ولقد[2] وَصَّلْنَا لهم القولَ لعلهم يَتَذَكَّرون) : الضمير لقريش . وقيل لليهود . والأول أظهر ، لأن الـكلام من أوله معهم . والعمومُ أحسن لهم ولغيرهم ممّن يأتى بعدهم ، يعنى بلّغْنا لهم القرآن ؛ وبيّنّا لهم الحلال والحرام ، ووعظناهم بحكاية مَنْ تقدم من الأمم ، لعلهم يتذكرون . وهذا مِثْلُ قوله : «[3] وَذَكِّرْ فإنّ الذِّكْرَى تنفَعُ المؤمنين» . فـكيف يكون للعاصى حجة مع هذه المواعظ والحر من العبيد تـكفيه المَلامة .

(وأكْثَرُ[4] جَمْعاً) : معطوف على الهلاك . يعنى مَنْ يرى إهلاك من كان أشدّ منه قوة وأكثر [٢٩٢ ب] جمعا للمال كيف يغترّ بالدنيا وهـذا حالها ! نشاهد إهـــلاك قوم بعد قوم ، ولا نَرْعَوِى عن قبيح ، ولا نَزْدَجر من رذيلة .

(ولا[4] يُسْأَلُ عن ذُنوبهم المجرمون) : يحتمل أن يكونَ متصلا بما قبله ، والضمير فى ذنوبهم يعود على الأمم المتقدمة ، والمجرمون من بعدهم ؛ أى

---

(١) القصص : ١٥ : فوكزه .

(٢) القصص : ٥١ (٣) الذاريات : ٥٥ (٤) القصص : ٧٨

لا يسألُ المجرمون عن ذنوب مَنْ تقدمهم مِنَ الأمم الهالكة ؛ لأن كل أحد إنما يسألُ عن ذنوبه خاصة .

ويحتمل أن يكون إخبارا عن حال المجرمين فى الآخرة ، وأنهم لايسألون فيها عن ذنوبهم ، لأنهم يدخلون النار من غير حساب .

ورُدَّ بقوله تعالى : « فوَرَبِّكَ[1] لنسألنهم أجمعين » . أجاب بعضُهم عن هذا بأن السؤال المنفى على وَجْه الاستخبار وطلب التعريف ، لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوَجْه ، لكن يسألون على وَجْه التوبيخ ، وحيثما ورد فى القرآن إثبات القول فى الآخرة فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ ، وحيثما ورد نَفْيه فهو على وَجْه الاستخبار والتعريف ، ومنه قوله[2] : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ » .

(وادْعُ[3] إلى رَبّك) : يحتمل أن يكون من الدُّعاء بمعنى الرغبة، أو من دعوة الناس إلى الإيمان بالله ، فالمفعول محذوف على هذا ، تقديره ادْعُ الناسَ . فانظر كيف أمر اللهُ رسولَه بدعاء الناس إليه ، وخصص الهداية لإجابته ، فالدعوةُ عامةٌ ، والهدى خاص . وقد دعا الله عباده فى الدنيا بقوله[4] : « واللهُ يَدْعو إلى دَارِ السلام » . «يدعوكم[5] ليَغفِرَ لكم من ذنوبكم» . وفى الآخرة بقوله[6] : « يوم يَدْعُوكم فتستجيبون بحَمْدِه » . «يوم[7] نَدْعُو كُلَّ أناسٍ بإمامِهم » . فما هذا التقاعس بعد هذا الدعاء إلا من العمى ، وأعظم من العمى ، وأعظم من المخالفة والاستجابة غَفْلَتُنا عن الاستغفار ، والضحك والاغترار والتهاون والاستكبار ، قال تعالى[8] : « وكُنْتُم منهم تَضْحكُون » .

---

(١) الحجر ٩٢ (٢) الرحمن : ٣٩ (٣) القصص : ٨٧ (٤) يونس : ٢٥
(٥) إبراهيم : ١٠ (٦) الإسراء : ٥٢ (٧) الاسراء : ٧١
(٨) المؤمنون : ١١٠

« وتحسبونه[1] هيناً وهو عند الله عظيم » . « وغرتكم[2] الأمانيّ حتى جاء أمرُ الله وغرّكم بالله الغرور » . وقد أخبر الله عن نوح أنه قال[3] : « وإني كلما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشَوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً » .

وهذه كلها موجودة فينا ، وما خفي عن الخلق أكثر ، اللهم لا تؤاخذنا بذنوبنا .

([4]وما أوتيتُم من شيء فمتاعُ الحياةِ الدنيا وزينتُها) : هذا الضمير لكفار قريش ، لأنهم كانوا يفخرون بالأموال والأولاد على الضعفاء من المؤمنين ، ويسخرون منهم لقلة ما أعطوا من الدنيا ، فأخبرهم اللهُ أنّ ما أعطوا منها إنما هو متاعٌ قليل وزينة وتفاخر يشتغل بها كالصبي تعطيه أمُّه خشاشة تشغله عنها ، ولو علم الله فيهم خيرا لتنبّهوا لما لها ، لكن الله طمس بصائرهم ، وأكبّوا عليها ؛ وليس العجب منهم ، وإنما العَجَبُ منكم ، حَضّ الله رسوله على الفرار منها ، والإعراض عنها ، فلم تزيدوا إلا طغيانا وكفرا ، ولو لم يقع الحضّ على الفرار منها لكان الواجب عدم الالتفات إليها لما نرى من سرعة تقلبها ؛ يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة : "طلبتُ من خَلْقي الطاعةَ لي ، والزهادة في أعدائي ، فلم يفعلوا ؛ ثم طلبت منهم إعانةَ الزهاد من أهل طاعتي فلم يفعلوا ، فقلت لهم : ارضوا عنهم فلم يفعلوا ، فقلت لهم : لا تمنعوهم منها إذاً ، فمنعوهم . فقلت لهم : لا تدعوهم إلى ما لا يُرضيني ، ولا تعادوهم عليها ، إن لم يتابعوكم ،

---

(١) النور : ١٥ (٢) الحديد : ١٤

(٣) نوح : ٧ (٤) القصص : ٦٠

فعملوا وصاروا عندهم أنتن من جيفة حمار ، فكيف أقدس أمة هذه أعمالهم !
اللهم اعف عنا بفضلك .

فإن قلت : ما وجه زيادة الزينة فى هذه الآية على آية الشورى[١] ؟

والجواب لتقدم ذكرها فى قوله تعالى[٢] : «فخرج على قومه فى زينته» ، فالتحمت الآية بتلك القصة ، ولم يرد فى سورة الشورى من أولها إلى آخرها ذكر حال دنيوى لأحد ، بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها ، وأنه مقدور غير مبسوط ، وتلك حال الأكثر . وقيل فى الجواب غير هذا حذفناه لطوله .

(ويوم[٣] يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) : قد قدمنا أن هذا النداء من الله تعالى قديم متعلق بالذات القديمة ، وإنما يسمعهم الله ذلك الخطاب من غير واسطة مبالغة فى توبيخهم وتعذيبهم ؛ ولذلك أدخل فيه همزة الاستفهام [٢٩٣ ا] ونسب الشركاء تعالى إلى نفسه على زعمهم . والمجيبون بقولهم[٤] : « قال الذين حق عليهم القول » هو كل مقول داع إلى الكفر من الجن والإنس ، والنداء إنما وقع للتابعين والمتبوعين ، لكن لما كان السؤال مسكتا لهم مبهتا فكأنه لا تعلق لجمهور الكفرة إلا بالمغوين لهم والرءوس والأعيان منهم ؛ فلذلك سارعوا إلى الجواب طمعا فى التبرى من متبعيهم ، وفى هذا الموطن صدر منهم الإقرار بربوبيته تعالى ، إذ هو موطن ظهور الحق وانكشافه .

---

(١) فى الشورى ، آية ٣٦ : فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا .

(٢) القصص : ٧٩ (٣) القصص : ٦٢ (٤) القصص : ٦٣

فإن قلت : قد قلتم إنَّ دعاء الشركاءِ على جهة التعجيز ، والمشركون يعلمون أنَّ الشركاء لا يُجيبون ، لأن الموطن ظهورُ الحق وانكشافُ الأمورِ فلم دَعَوا شركاءهم ؟

والجواب : ليظهر عَجْزُهم عن إجابة الدعوة على رءوسِ الأشهاد ، وتقوم عليهم بذلك الحجةُ ، فسبحانه ما أعظمه من لطيف يحبُّ المعاذير وإظهار الحق ، ينطق الجمادات والجوارح على المخلوقات حتى لا يجد الإنسان فرارا من قضائه وقيام الحجة عليه .

فإن قلت : كيف الجمع بين قولهم[1] : « أغوَيْنَاهم » ، وبين قولهم[1] : « تبرَّأْنا إليك » ؛ فإنهم اعترفوا بإغوائهم ، وتبرءوا مع ذلك منهم ؟

والجواب أنَّ إغواءهم لهم هو أمرُهم لهم بالشرك . والمعنى إنا حملناهم على الشرك كما حملنا أنفسنا عليه ، ولكن لم يكونوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون الأصنام وغيرها ، فتبرَّأنا إليك من عبادتهم لنا ؛ فتحصَّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغوَوا الضعفاء وتبرءُوا من أن يكونوا هم آلهتهم ، فلا تناقض فى الكلام .

(ووَصَّيْنَا[2] الإنسانَ بوالديه حُسْنا ، وإنْ جاهداك لِتُشْرِكَ بى) : اختلف فى سبب نزول هذه الآية على أقوال ؛ والظاهر منها عمومها فيمن كان بمكة من المؤمنين يشقَى بجهاد أبويه فى شأن الإسلام أو الهجرة ، فكان القصد بهذه الآية النهى عن طاعة الأبوين فى مِثْلِ هذا لمعظم الأمر ، وكثرة الخطر فيه ، مع الله تعالى ، ثم إنه لما كان برُّ الوالدين وطاعتهما من الأمر الذى

---

(١) القصص : ٦٣ (٢) العنكبوت : ٨

قررته الشريعة ، وأكدت فيه ، وكان من القوى عندهم الملتزم قدّم الله تعالى النهى عن طاعتهما فى قوله تعالى : « ووصينا » على معنى إنا لا نخلّ ببر الوالدين ، لكنا لا نسلط على طاعة الله تعالى ، لاسيما فى معنى الإيمان والكفر . وحُسْناً : يحتمل أن ينتصبَ على المفعول ، وفى ذلك تجوّز ، ويسهّله كونه عامًّا لمعان ، كما تقول : وصيتك خيرا ، ووصيتك شرّا ؛ عَبّر بذلك عن جملة ما قلت له ، ويحسن ذلك دون حرف الجر فى قوله : بوالديه ؛ لأن المعنى : ووصينا الإنسان بالحسنى فى فِعله مع والديه . والجمهور على ضَمّ الحاء وسكون السين . وقرىء إحسانا ، ويحتمل أنْ يكونَ مصدرا من معنى وصَّيْنا ، أى وصينا وصية حسنة ، وَعبّر عن أمر الوالدين بالجهاد مبالغةً ؛ فمن أمره أحَدُ أبويه بفعل شىء فيه رضا الله ، فيقدم أمرهما إذا لم يخل بشىء من طاعة الله ، وإن أَخَلّ فأمْرُ الله مقدّم ؛ إذ لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق .

وإنما قال فى هذه السورة : [1] « لتشركَ » ، لأنه وافق ما قبله لفظا ، وهو قوله [2] : « ومَنْ جاهد فإنما يُجاهِد لنفسه » . وفى لقمان [3] محمول على المعنى ؛ لأنّ التقدير وإنْ حملاك على أنْ تشرك .

وقيل : إن هذه الآية مبنية على الإيجاز ؛ فناسب ذلك الاكتفاء باللام ، وآية لقمان مبنية على الإطالة ، فناسب ذلك التعدية بعلى ؛ وإنما أمره بالرفق فى آية لقمان بقوله : « [3] وصاحِبْهما فى الدنيا مَعْرُوفا » ؛ لأنّ مبنى الآية على الأمر بما يفعل بهما ومعهما من غير تقدّم مطلب لهما ، ووَجْه ختم هذه الآية بالرجوع إلى الله تحذير مِن طاعتهما فى الشرك ، وإبلاغٌ فى النهى عن الصغو إليهما فى ذلك إلى الغاية لئلا يظَنّ أن ذلك كآية الإكراه كما تقدم ، ولما لم يقع فى آية

---

(١) العنكبوت : ٨ (٢) العنكبوت : ٦ (٣) لقمان : ١٥

الأحقاف[1] ذكر الشرك وكانت فيمن كان على الإيمان ، وقد علم المؤمن رجوعه إلى ربّه ، لم يَرِدْ فيها ذكر ذلك .

(وما[2] يَجْحَدُ بآياتِنا إلا الكافرون) : أى الجاحدون من كلّ أمة قد أمن سلفها فى القديم والحادث، وأسند الجَحْد [٢٩٣ ب] فى هذه إلى الكافرين وفيما بعدها إلى الظالمين[3] ، فقيل : ليعُمَّ لفظُهما كلَّ مكذب بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن عظم الإشارة بهما إلى كفّار قريش ،لأنهم الأهم .

فإن قلت : الظلم يصح إطلاقُه على ما دون الكفر ، فلو ورد وَسْمُهم أولا بالظلم ، ثم ثانيا بالكفر لكان أنسب ؟

والجواب : أنّ الظلم وإن كان يطلق على الكفر وعلى مادُونَه ؛ قال تعالى : «والكافِرونَ[4] همُ الظّالمون» فإنه إذا ذُكر بعد الكفر وُصف به مَنْ قد وصف بالكفر أفْهَم زيادة تَرَتُّب على الكفر؛ قال تعالى : « إن[5] الذين كفروا وَظَلَموا لم يكن الله لِيَغْفِر لهم ... » الآية . وعلى هذا ورد فى القرآن ، فقد وضح ماوردت عليه هاتان الآيتان[6] ، وليس من المشكل فى شيء .

(ولئن[7] سألتَهُمْ مَنْ خلق السموات والأرض) : الضمير فى الموضعين لأهل مكة والسؤال لإقامة الحجة على الكفار، لأنهم أقرُّوا بأنه سبحانه هو الخالق لهذه المخلوقات العظيمة كما قدمناه فى غير ما موضع، ولذلك أنكر الله عليهم جَحْدعبادته

---

(١) الأحقاف : ١٧ (٢) العنكبوت : ٤٧ (٣) العنكبوت : ٤٩

(٤) البقرة : ٢٥٤ (٥) النساء : ١٦٨

(٦) فى ا : ماوردتا . هاتين الآيتين ـ تحريف . (٧) العنكبوت : ٦١

بقوله : « فأنى يؤفكون[1] » ؛ أى يُصْرَفون عن توحيده ومعرفته . ووَجْه تعقيب هذه الآية بالإفك، والثانية[2] بعدها بعدم العقل،وآية لقمان[3] بكثرة الجهل وقلة العلم ؛ لأن المراد منها الاستدلالُ بهذا الخلق العظيم وما هو عليه من جليل التناسب ، وإتقان الصنعة وإحكامها من غير تفاوت ولا فطور .

(والذين[4] جاهَدُوا فينا) : يعنى جهاد الأنفس فى الصبر على إذاية الكفار ، واحتمال الخروج عن الأوطان ، وغير ذلك . وقيل : يعنى القتال ؛ وذلك ضعيف ؛ لأن القتال لم يكن مأمورا به حين نزول الآية .

(وإنّ[4] الله لَمَع المُحْسنين) ؛ أى بنصره ومعونته ، وانظر كيف أكّده بأن واللام ليعلمك أنه سبحانه لا يسلمه لمن أراده بسوء ، وكيف لا وقد أكرمه الله بالمحبة بقوله : إن الله يحب المحسنين ، والأمن : « ما[5] عَلَى المحسنين مِنْ سبيل » وهو محسن . والرحمة : إن[6] رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين » .

فإن قلت : ما معنى الإحسان ؟

فالجواب إنّ هذا المقام لم يحصل إلا لأرباب العقول . وفى الحديث : إن كتب الإحسان على كل شيء ، والإحسان ثالث المقامات . وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله: أن تعبد الله كأنكَ تَراه ، فإن لم تكن تَراه فإنه يراك . فياليت شعرى ، هل بقى منهم فى هذا الرَّبْع أنيس به أو ملجأ يستند إليه ! ما أرى النفوس إلا قد ماتت بحبِّ الدنيا ؛ ويالَيتنا نِلْناها ! والقلبُ مات مِنْ حبِّ

---

(١) العنكبوت : ٦١ (٢) العنكبوت : ٦٣ (٣) لقمان : ١٥
(٤) العنكبوت : ٦٩ (٥) التوبة : ٩١ (٦) الأعراف : ٥٦

المولى ، فمتى يحيا أهلُ الإحسان أحيا الله قلوبَهم بحبه ، وأماتوا نفوسهم من حبّ ضده ، ونحن على الضد . قيل لحاتم الأصم : ما علامةُ حياة القلب ؟ قال : وجدان اللذة من الطاعة ، ووجدان الألم من المعصية ؛ فَزِنْ بهذا الميزان نفسكَ وقلبك يتضح لك ما ذكرت . قال حاتم الأصم : نفس المؤمن ضيعته ، وقلبه أرضه ، والإخلاص ماؤه ، والحكمة بذره ، والشهوات حشيشته التي تغيره ، والعبودية غلّته ، والدنيا سفَرهُ ، والأيام منازِله ، والقيامة سوقه ؛ والملك مشتراه ، والجنةُ ثمنه ؛ فنحن بِعْنا ونقضنا ، ومَنْ نكث فإنّما ينكثُ على نفسه . ومَنْ أوْفَى بما عاهدَ عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما . أما علمْتَ أنَّ من أحبَّ شيئا طلبه ، ومن طلبه وجده ، ومن خاف من شيء هرب منه ، ومن أراد سفرا اهتمَّ له ، ومَنْ أحبَّ اللحوقَ بقوم اقتدى بفعالهم ، وسلك سبيلَهم ؛ ومَنْ فَضل قوما بالعلم يحق أن يَفضُلهم بالعمل ، ونحن لا عِلْمَ ولا عمل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! أشمَتْنا أهلَ الآخرة من أحبابنا ، وأرضينا الشيطانَ عدوّنا ، فمن رأى مصرعي فليبك معي .

(وهْنًا[1] عَلَى وَهْنٍ) : يعني كلما عظم خَلق الإنسان في بطن أمه زادها ضَعْفا على ضَعْفها .

(ولا[2] يَسْتَخِفَنَّكَ) : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره الله بعدم الاضطراب لكلام الكفار ، وقولهم القبيح .

(وإذْ[3] أخَذْنَا مِن النَّبِيِّين ميثاقَهم) : أي أخذْنا عليهم الميثاقَ بتبليغ الرسالة إلى الخلق وتعليم الشرائع . وقيل أخذ الميثاق يوم : « ألَسْتُ بربكم » .

---

(١) لقمان : ١٤ (٢) الروم : ٦٠ (٣) الأحزاب : ٧

والأول أرجح ، لأنه هو المختص بالأنبياء .

(وَقُلْنَ[1] قولاً مَعْروفاً) : الخطاب [٢٩٤ ا] لأمهاتنا وأزواج سيدنا صلى الله عليه وسلم ؛ نهاهنَّ اللهُ عن الكلام اللَّيِّن الذي يُعجب الرجال ويُميلهم إلى النساء ، أو الذي ليس فيه شيء مما نهى عنه ، ويعم جميع الأمة لأن اللهَ أمر بالاقتداء بهنَّ .

([2]وَطَراً) : حاجة ، يعني لمَّا لم يبق لزيد حاجة في زينب زوَّجنا كها . وقد قدمنا قِصَّتها في حرف الزاي .

(ولا[3] بِالّذِي بَيْنَ يَدَيْه) : يعني الكتب المتقدمة ، كالتوراة والإنجيل ، وإنما قال هذه المقالة حين وقع الاحتجاجُ بما في التوراة من ذِكْرِ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يلتفت لمن قال بين يديه يوم القيامة ، لأن الذي بين يدي الشيء هو ما يتقدمُ عليه .

(وجَعَلْنا[4] ذُرِّيَّتَه هم الباقِين) : أهل الأرض كلهم من ذرية نوح ، لأن الله أمات مَنْ نجا معه في السفينة ، وتناسلت الخلق من سام وحام ويافث .

(وتَرَكْنا[5] عليه في الآخِرِين) : معناه أبقينا له ثناءً جميلا في الناس ، فيقال له آدم الأصغر . وقد قدمنا أنّ اللهَ أمره بالدعوة إلى التوحيد ، وأرسله إلى الناس كافّة ، وعُمر مالم يعمر غيره ، وقرنه اللهُ بالذكر مع نبينا في قوله : « ومنك ومن نوح » .

(ولا[6] تُبْطِلُوا أعمالَكم) : أي بالكفر بعد الإيمان ، وقيل بالرياء

---

(١) الأحزاب : ٣٢ (٢) الأحزاب : ٣٧ (٣) سبأ : ٣١
(٤) الصافات : ٧٧ (٥) الصافات : ٧٨، ١٠٨ (٦) محمد : ٣٣

والعُجب . وقيل : لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها . وبهذه الآية استدل الفقهاءُ على وجوب إتمام النافلة ؛ وهو بعيد . وأبعد منه مَنْ قال لا تبطلوا حسناتكم بفعل السيئات ؛ وهذا مذهبٌ معتزليّ ؛ لأن السيئات لا تبطل الحسنات . والأول أظهر ؛ لقوله قبل ذلك في الكفار والمنافقين: « وسيُحْبِطُ[1] أعمالَهم » ، فكأنه قال : يأيها المؤمنون لاتبطلوا أعمالكم مثلَ هؤلاء الذين أحبط اللهُ أعمالَهم بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله ، ومشاقّتهم للرسول .

(وأُخْرَى[2] لم تَقْدِرُوا عليها قد أحاط اللهُ بها) ، يعني فتح مكة . وقيل بلاد فارس والروم . وقيل مغانم هوازن في حُنَيْن . والمعنى لم تقدروا أنتم عليها قد أحاط اللهُ بها ووهبها لكم وذكّرهم بالنعم ليشكروا عليها . وإعراب أخرى معطوف على « عجّل[3] لكم هذه » أو مفعول بفعل مضمر تقديره أعطاكم أخرى ، أو مبتدأ .

(وبالأسحارِهم يَسْتَغْفِرُونَ[4]) : قد قدمنا أن الاستغفار يُطلق على الصلاة ، والمراد هنا الاستغفارُ ؛ وهو طَلَبُ المغفرة للذنوب . وقد ذكرْنا مرارا أنّ الله يقول في هذا الوقت : هل من مستَغْفِرٍ ؟ هل مِنْ داعٍ ؟ هل من تائب ؟ ولَمّا أكرم اللهُ خمسة من الأنبياء بخمسٍ : ليلة نُودِي موسى من الشجرة ، وليلة النجاة للوط ، « نجيناهم[5] بِسَحَرٍ » ، وليلة المغفرة ليعقوب ، « سوف[6] أستغفِرُ لكم رَبّي » . وليلة الرؤية للخليل : « فلما جَنّ[7] عليه الليلُ » ، وليلة المؤانسة والمحبة : ليلة الإسراء : « سبحان[8] الذي أسْرَى بعَبْدِهِ » .

---

(١) محمد : ٣٢ (٢) محمد : ٢١ (٣) محمد (٢٠) : فعجل لكم هذه ...

(٤) الذاريات : ١٨ (٥) القمر : ٣٤ (٦) يوسف : ٩٨

(٧) الأنعام : ٧٦ (٨) الإسراء : ١

أكرمك الله يا محمدىّ بسحرٍ كلَّ ليلة تُناجى فيها ربَّك ، فقُمْ على قدمِ الاعتذار كاشفَ رأسِ الافتقار ، مخاطبا بلسان المقرّ والاضطرار ، ملقيا عن ظهرك حملَ السيئات والأوزار ، مقنّعا بقناع الرجاء والندم والاستغفار : إن لم تغفر لى فمَنْ يغفر لى ، إن لم تَتُبْ علىّ فمن يتوب على ؟ إن لم ترحمنى فمن يرحمنى إذا غضبتَ علىّ ؟ ومَنْ يأوينى إذا أعرضتَ عنى ؟ أنتَ العزيزُ ، وأنا الذليلُ ، أنتَ الغنيُّ وأنا الفقير ، أنتَ القويُّ وأنا الضعيف ، وعزّتك ما يزيد فى خزائنك ما منعتنى ، ولا ينقص منها ما أعطيتنى ، إن تعفُ عنى فأنتَ أهلٌ لذلك ، وإن تعاقبنى فيما قدمَتْ يداىَ ، وما أنت بظلام للعبيد . فيا أكرم مَنْ أقرّ له بذنب ، ويا أعزّ مَنْ خَضِع له بذل ، بكرمك أقررتُ لكَ بذنوبى ، بعزّتك خضعتُ لك بذُلّى ، فلك المنّة علىّ يامَنْ ملّ له شكرى فلم يحرمنى ، ويامَنْ قل له صَبْرى فلم يخذلنى ، ويامن تقويت بنعمته على المعاصى فلم يعاقبنى ، ويامَنْ رآنى على الخطايا فلم يفضحنى ، أقِلْ عثرتى بجاهِ نبيك الكريم عليك صلى الله عليه وسلم .

(وقِيلِه[1] يارَبِّ إنّ هؤلاء قومٌ لا يُؤْمنون) : هذا الضمير عائد عليه صلى الله عليه وسلم . وقرىء [٢٩٤ ب] بالخفض والنصب فى السبع . فأما الخفضُ فهو معطوف على لفظ « الساعةِ »[2] . ويحتمل أن يكون معطوفا على قوله : « بالحق[3] » . وأما النصب فهو معطوف على : « سِرَّهم[4] ونجْوَاهم » . وقيل هو معطوف على موضع الساعة ، لأنها مفعول أُضيف إلى المصدر وقيل معطوف على مفعول : « يكتبون[4] » وهو محذوف تقديرُه يكتبون أقوالهم ،

---

(١) الزخرف : ٨٨ (٢) الزخرف : ٨٥ (٣) الزخرف : ٨٦

(٤) الزخرف : ٨٠

وقيله . وقرىء في غير السبع بالرفع على أنه مبتدأ وخبره مابعده . وضعّف الزمخشري[1] ذلك كلّه ، وقال : إنه من باب القسم ؛ فالنصبُ والخفض على إضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأضربنّ زيدا ، أو الرفع كقولهم : أيمن الله ، وامرُكَ ، وجواب القسم قوله : « إنّ[2] هؤلاء قومٌ لا يؤمنون » ، كأنه قال : اقسم بقيله يارب إنّ هؤلاء قوم لايؤمنون .

(وفي[3] السماءِ رِزْقُكم وما توعَدُون) أي من الوعد أو الوعيد ، أو الجنة أو النار ، أو الخير أو الشر . قال ابن عباس : لا أعلم في السماء رِزْقاً غير المطر ، وهو كذلك ، لأن المطر أصلٌ للرزق ، والماء الذي في الأرض منه ، فلو انقطع المطر انقطع الرزقُ .

(وفي أموالهم) : معطوف على قوله : « في جنات[4] » ، أو على[5] « آتاهُمْ ربّهم » ، أو تكون الواو للحال .

(وأنّ[6] سَعْيَهُ سوف يُرَى) — بالبناء للمفعول ، فعلى هذا يراه الخلقُ يوم القيامة ، أو يراه صاحبُه الذي فعله ؛ وهو الأصحّ ، لأن الله يضع ستره عليه حين قراءته ، لقوله بعد ذلك : « ثم[7] يُجْزاهُ الجزاءَ الأوفى » .

(وَرْدَةً[8] كالدِّهَانِ) ذكر الجواليقي أنها[9] غير عربية . ومعناه أحمر كالوردة ، وقيل هو من الفرس الورد .

(ولمَن[10] خافَ مقامَ رَبِّه جنتَانِ) ؛ أي القيام بين يديه للحساب .

---

(١) الكشاف : ٢ — ٣٠٨ (٢) الزخرف : ٨٨ (٣) الذاريات : ٢٢
(٤) الذاريات : ١٥ (٥) الذاريات : ١٦ (٦) النجم : ٤٠
(٧) النجم : ٤١ (٨) الرحمن : ٣٧
(٩) لم أقف عليه في المعرب ، والذي فيه (٣٤٤) : الورد يقال ليس بعربي في الأصل
(١٠) الرحمن : ٤٦

ومنه : « يَوْمَ(١) يقومُ الناسُ لربِّ العالمين » . وقيل قيامُ اللهِ بأعماله ، ومنه : « (٢) أَفَمَنْ هو قائمٌ على كل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ » . وأبهم المقام ، كقولك : خفتُ جانبَ فلان . واختلف هل الجنّتان لكل خائف على انفراد ، أو لصنف الخائفين ، وذلك مبنيٌّ على قوله : لِمَنْ خاف ؛ هل يُراد به واحدٌ أو جماعة ؟ وقال الزمخشري : إنما قال جنتان لأنه خطاب الثقلَيْن ، فكأنه قال جنة للانس وجنّة للجن ، والأظهر هنا قول الصوفية : إنها جنّة معجلة وهي التلذّذ بمناجاتهم مع مولاهم ، وهي ألذُّ عندهم من كل نعيم ، وجنة مؤجّلة وهي المعلومة .

فإن قلت : ما معنى الحديث : إذا مات المؤمن أُعطى نصف الجنة ؟ وهل هو موافق للآية ؟

والجواب معناه نصف جنّته المدّخرة له ، فيفتح له في قبره مِنْ ريحها ونسيمها ، والتلذّذ برؤيتها . وقد وافق الآية ، ولا مضادة بينهما ، وقد وصف الله الجِنَان في الواقعة ، والرحمن ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وهل أتى على الإنسان ، وبيّن ذلك سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم أوضح بيان . قال ابن عباس : ترجمان القرآن الجنات سبع : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عـــدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفِرْدوس ، وجنة النعيم .

وفي بعض الروايات ثمان . وذكر دار القرار .

وقيل الجنان أربع ، لأنه ذكر أوّلاً جنتان ، ثم قال بعد : « ومِنْ(٣)

---

(١) المطففين : ٦ (٢) الرعد : ٣٣

(٣) الرحمن : ٦٢

دُونِهما جَنَّتانِ » . ولم يذكر جنةً خامسة .

فإن قلت : قد قال تعالى : « عندها[1] جَنَّةُ المأْوَى » .

والجواب : أنَّ جنةَ المأوى اسم لجميع الجنان ، يدلُّ عليه قوله تعالى : « فلهم[2] جَنَّاتُ المأْوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » .

والجنة اسم الجنس ، فمرة يقال جنة ، ومرة يقال جنات ، فكذلك جنات عدن ، وجنة عدن .

(وقعت الواقِعَة[3]) : اسم من أسماء القيامة ، وقد قدمنا جملة أساميها ، وهي الواقعة ، الصيحة ، وهي النفخة في الصور ، وقيل الواقعة صخرة بيت المقدس تقعُ يومَ القيامة ، وهذا بعيد .

(وما نحن[4] بمَسْبُوقِين . على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكم) : المسبوق على الشيء هو المغلوب عليه بحيث لا يقدر عليه . ونبدِّل أمثالكم معناه نهلككم ونستبدل قوما غيركم . وقيل نمسخكم قردة وخنازير .

(ونُنْشِئَكُم[5]) : معناه نبعثكم بعد هلاككم . « في ما لا[5] تعلمون » ، أي في خِلْقة لا تعلمونها على وَجْهٍ لا تصلُ عقولكم إلى فَهْمه . ومعنى الآية إن الله قادر على بَعْثهم بعد هلاكهم ؛ ففيها تهديد واحتجاج على البعث .

(وكلاًّ[6] وَعَدَ اللهُ الحُسْنى) : أي كل واحد من الطائفتين [١٢٩٥] : الذين أنفقُوا وقاتلوا قَبْل الفتح وبعده .

---

(١) النجم : ١٥ (٢) السجدة : ١٩ (٣) الواقعة : ١

(٤) الواقعة : ٦٠، ٦١ (٥) الواقعة : ٦١ (٦) الحديد : ١٠

(وغَرَّتْكم[١] الأمانِيُّ) : الإشارةُ إلى الكفار والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يتمنَّوْنَ وفاةَ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أو هزيمتهم ، إلى غير ذلك من الأمانيِّ الكاذبة .

(وَلاَ[٢] يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قَبْلُ . . .) الآيه : معطوفة على «[٢]أن تخشع» . ويحتمل أن يكون نهياً . والمرادُ بها تحذيرُ المؤمنين من أن يكونوا كالمتقدمين من اليهود والنصارى فى طول أملهم وقسوة قلوبهم . وقد وقعنا فيما حذِّرنا منه ، فلا يخفاك ذلك ، وإن طول الأمل يُقَسِّي القلب ، ويُبعد عن الآخرة ، ويكثر الحرص ، ويقلُّ القناعة ، وهذه موجودة فينا ظاهراً وباطنا . قال صلى الله عليه وسلم : "لتتبعنَّ سُنَنَ مَنْ قبلكم شِبْرا بِشِبْرٍ وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لا تبعتموم" . وهل هذا كلّه إلا مِنْ خلطتهم والتقرب منهم ، لأن المرء على دِين خَليله . وانظر حكاية المحمدى فى زمان معاوية لما أن ألقتِ الريح مركبهم فى جزيرة من جزائر . . .[٣] نزلوا فى البر ، فأتى ملكهم وعليه كساء ملبَّدورجلاهُ حافيتان[٤] عاري الرأس ، فنزل معهم ، وقال : مالكم أيها العرب تطئُون القمح والشعير تحت أقدامكم ، وتحلفون سيوفكم بالذهب والفضة ، وتَزَيَّوْا بزى اليهود والنصارى فى أوانى الذهب والفضة ؟ فقال أحدهم : هذا كله من مخالطتهم . فقال : اذهبوا عنى لئلا يصيبنى ما أصابكم ، وزوَّدهم وأمرهم بالانصراف . فقال له أحدهم : أنتَ ملك هذه الجزيرة ، وأنت على هذه الهيئة ؟ فقال : يحقُّ لمن رفعه الله بالنعمة أن يَزْدَاد بها تواضُعا ، وإنى قد ملكنى اللهُ أهْلَ هذه الجزيرة فيحقُّ لى ألاّ أتكبّرعليهم ، ثم انصرف عنهم وتركهم .

---

(١) الحديد : ١٤ (٢) الحديد : ١٦ (٣) بياض فى الأصلين .

(٤) فى الأصلين : ورجليه حافيتين .

(وإذا[1] جاءُوكَ حَيَّوكَ بما لم يُحَيِّكَ به الله) : ضمير الجمع يعود على اليهود والنصارى ، لأنهم كانوا يحيّونه بقولهم : السامُ عليك يامحمد . فيرد عليهم بعليكم .

(ويقولون[1] فى أنفسهم لولا يُعَذِّبنا الله بما نقول) : يعنى قولهم : لو كان نبيا لعذَّبَنَا الله بإذايته ، فقال الله : « حَسْبُهم[1] جهنّم يَصْلَوْنها ، فبِئسَ المصير » .

(ولا[2] نُطِيع فيكم أحدًا أبدا) ؛ أى لانسمع فيكم قول قائل ، ولانطيع من يَأمرنا بخذلانكم ، ثم كذَّبهم الله فى هذه المواعد التى وعدوا بها .

فإن قلت : كيف قال : « ولَئِنْ[3] نَصَرُوهم لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ » — بعد قوله : « لا[3] يَنْصُرونَهمْ » ؟

والجواب : يعنى على الفرض والتقدير ؛ أى لو فرضنا أن ينصروهم لوَلّوا الأدبار .

(وأحْصُوا[4] العِدّةَ) : أمر بذلك لما يَنْبَنِى عليها من الأحكام فى الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك .

(وأَشْهِدُوا[5] ذَوَىْ عَدْلٍ منكم) : هذا خطابٌ للأزواج ، والإشهادُ المأمور به هو على الرجعةِ عند الجمهور وقد اختلف فيه : هل هو واجب أو مستحبٌ على قولين فى المذهب . وقال ابن عباس : هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة ؛ وذلك أظهر ؛ لأن الإشهادَ يرفع الإشكال والنزاع ، ولا فَرْقَ فى هذا بين

---

(١) المجادلة : ٨ (٢) الحشر : ١١ (٣) الحشر : ١٢

(٤) الطلاق : ١ (٥) الطلاق : ٢

الرَّجْعَة والطلاق . ويفهم من الآية أنه لا يشهد إلا من المسلمين والرجال . وقيل من الأحرار ، فيؤخذ من ذلك ردُّ شهادة العبيد .

(وأقيموا الشهادةَ[1] لِلّه) : يحتمل أن يريدَ به القيام بها ، فإذا استُشْهِد وجب عليه أنْ يَشْهد ، وهو فَرْض كفايةٍ ، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس. ويحتمل أن يريد إقامتها بالحق دون مَيْل ولا غَرَض ، وبهذا فسره الزمخشري، وهو أظهر ؛ لقوله : « لله » ، فهو كقوله : « كونوا[2] قَوّامِين بالقِسْط شهَداء لله » .

واختلف في أخذ الأجرة عليها وعلى كتب الوثائق . والمشهور عدم الجواز، أما من انتصب لها وترك التسبّب المعتاد لأجلها فجائز له أَخْذ الأجرة عليها ، وإلا لم يجد الإنسانُ مَنْ يشهد له بيسير ، وأخذها ممن يحسن كتب الوثيقة كتابا وعبارة على كتبه وشهادته لا يختلف فيه ويكون له أَخْذ الأجرة بما اتّفقا عليه مِن قبل .

وروى أن بعض الشيوخ أهدى له صِهْرُه أبو زوجته الفقيه أبو على بن القداح لبنا [٢٩٥ ب] فشَرِبه ، ثم اجتمع به بعد ساعة من شربه فتحدَّثَا ، فأخبره صِهْرُه أنّ ذلك اللبن أهداه له فلان بعضُ الشهود الذين يأخذون الأجر في شهادتهم ، فقام وقاء ذلك اللبن ، هكذا كانت حالهم رضي الله عنهم ، ونحن على الضدّ منهم ، فأين حالنا من حالهم ، نأخذ على كتب الوثائق مالا يجوز ، وندّعي أنه أجرة على الكتب ، وهل هذا إلا مِن تحليل ما حرّم الله ؛ ورضي الله عن الشيخ الأجلّ أبي القاسم حيث قال : لأن تغزو على بلاد المسلمين ، وتأخذ متاعهم ورقابهم وتبيعه خير من أخذ الأجرة على كتب الشهادة . وصدق

---

(١) الطلاق : ٢ (٢) النساء : ١٣٥

لأن الغازى يعتقد التحريم فتجد قَلْبَه منكسرا ، والله عند المنكسرة قلوبهم ، والكاتب يدّعى أنه حقه ، فصاحبُ المكس أفضل منه لما ذكرناه ، فبالله أيها الأخ تعال نَنْدب على أنفسنا فيما وقع منا لعلنا تهبُّ علينا نفحات القبول ، واللهُ المعين على ما نقول .

(وَيُدْعَوْنَ[1] إلى السُّجُودِ) : قد قدمنا تفسيره .

(واهِيَةٌ[2]) ؛ أى مسترخية ساقطة القوة ، ومنه قولهم : دار واهية ؛ أى ضعيفة الجُدْران .

(وَتِين[3]) : عِرْق متعلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .

(ويبلا[4]) : مفعول به ، وناصِبُهُ « تتقون[5] » ؛ أى كيف تتقون يوم القيامة وأهواله إنْ كفرتُم . وقيل هو مفعول به على أن يكون كفرتم بمعنى جحدتم . وقيل هو ظرف ؛ أى كيف لكم بالتقوى يوم القيامة . ويحتمل أن يكون العاملُ فيه محذوفا تقديره : اذكروا . وقوله : « السماء[6] منفطر به » ؛ أى اليوم الذى تنفطر السماءُ بشدة هَوْلِه ، ويحتمل أنْ يعودَ على الله ؛ أى تنفطر بأمره وقُدْرته . والأول أظهر . والسماءُ مؤنثة ، وجاء « منفطر » بالتذكير ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى أو على الإضافة .

(وَزَر[7]) : ملجأ ، بالنبطية .

(وهّاجاً[8]) : وقادا شديد الإضاءة . وقيل الحار الذى يضطرم من شدّة لهبه .

---

(١) القلم : ٤٢ (٢) الحاقة : ١٦ (٣) الحاقة : ٤٦
(٤) المزمل : ١٦ (٥) المزمل : ١٧ (٦) المزمل : ١٨
(٧) القيامة : ١١ (٨) النبأ : ١٣

(واجفة[1]) : شديدة الاضطراب . والوَجيف والوَجيب بمعنى واحد . وارتفع « قلوب[1] » بالابتداء وواجفة خبره . وقال الزمخشري : واجفة صفة والخبر « أبصارها خاشعة » .

(وأَذِنَتْ[2] لربها وحُقَّتْ) : هذه الآية مُخبرة أنَّ السموات في انقيادها لله حين يريدُ انشقاقها تفعلُ فعلَ المطْوَاع الذي إذا ورد عليه الأمرُ من جهة المطاع أنصتَ له وأذعن ولم يمتنع ؛ كقوله : « أتينا[3] طائعين » ؛ فجميعُ المخلوقات منقادةٌ لخالقها إلا نحن ؛ قال تعالى : أوحيت إلى البحر أن انفلق لموسى . فبات يضطرب من خَوْف تلك الليلة ، وأنتم خاطبْتُكم بكلامى وأمرْتُكم بأوامرى فلم تمتثلوا ، قلوبُكم كالحجارة أو أشدّ قسوة .

فإن قلت : ما فائدة تكرير هذه الآية في هذه السورة ؟

فالجواب : إن كلَّ واحد من الإخبارَيْن معقباته غير ما أخبر به الآخر ؛ فالأول إخبار عن السماء في طاعتها وانقيادها ، والآخر إخبار عن الأرض بمثل ذلك ، وإن كلَّ واحدة منهما سمعَتْ وانقادت فانفطرت السماءُ وتشققت ، وانتثرت نجومها ، وانقادت وأُزيلت الجبالُ عن الأرض فامتدَّتْ وألقَتْ ما تحمله من الأموات ، وغير ذلك مما استودعته من المعادن والكنوز ، وتخلَّتْ عنها سامعةً مطيعة ، وإن كان الإخبار الأول عن السماء والآخر عن الأرض فلا تكرار .

(والليلِ[4] وما وَسَق) : أقسم اللهُ بالليل وما جمع فيه لأنه يضمُّ الأشياء ويسترها بظلامه . ومنه الوَسْق[5] .

---

(١) النازعات : ٨ (٢) الانشقاق : ٥ (٣) فصلت : ١١

(٤) الانشقاق : ١٧ (٥) الوسق : حمل البعير .

(والقمر[1] إذا اتَّسَقَ) ؛ أي امتلأ نوره ، مشتق من الوَسْق .

(ويَتَجَنَّبُها[2] الأشقَى . الذى يَصْلَى النارَ الكُبْرَى) : الضمير عائد على الذكرى : يعنى أنّ من تنفعه الذكرى وتؤثّر فيه لا تحرقه النار الكبرى ، وسماها بذلك بالنظر إلى نارِ الدنيا وقيل بالنظر إلى غيرها من نار جهنم ؛ فإنها تتفاضَلُ بالنظر إلى مَنْ فيها ، وكلاَ القولين صحيح ، إلا أن الأوّل أظهر لحديث : نارُكم هذه التى تُوقَد جزءٌ من سبعين جزءا من نار جهنم . ونزلت الآية فى الوليد ابن المغيرة ، أو عُتبة بن ربيعة ، وضمير المفعول للذكرى .

(والفَجْرِ[3] . وليالٍ عَشْر) : أقسم اللهُ بهذه المخلوقات ، وقد أكثر علماؤنا رضى الله عنهم الأقوالَ فيها ؛ فقيل : إن الفجر الصبح [٢٩٦ ا] ، وقيل بانفجار الماء من أصابع نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل بانفجار الصخرة ، وإخراج الناقةِ لقوم صالح ، وقيل بانفجار دموع العاصين ، وقيل بانفجار الموتى من القبور ، وقيل بانفجار الملائكة من السماء فى قوله[4] : « يَوْمَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغَمَامِ » وقيل بانفجار المعرفة من قلوب المطيعين ، لقوله[5] : « أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلامِ » ، وانفجار المعصية من قلوب العاصين ، لقوله تعالى : « يجْعَلْ[6] صَدْرَه ضَيِّقا حَرَجا كأنما يصّعّدُ فى السماء » . وكذلك الليالى العشر ، قيل : هى الليالى العشر من أول ذى الحجة ، وقيل أوائل المحرم ، وقيل أوائل رمضان ، وقيل العشر المذكورة فى قوله تعالى : « وأتممناها[7] بعَشْر » . وقيل بالعشر الآيات المذكورة فى قوله تعالى : « فأْتُوا[8] بِعَشْرِ سُوَرٍ

---

(١) الانشقاق : ١٨ (٢) الأعلى : ١١ ، ١٢ (٣) الفجر : ١ ، ٢
(٤) الفرقان : ٢٥ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنعام : ١٢٥
(٧) الأعراف : ١٤٢ (٨) هود : ١٣

مثله مُقْتَرِبات » . وهذ... بعد لعدم دخول اللبْنى فيها .

(تواصَوْا[1] بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمَة) ؛ أى وصى بعضُهم بعضا بالصبر على قضاء الله ورحمة المساكين وغيرهم من المخلوقات . وفى هذه الآية إشارةٌ إلى صبر المسلمين على إذايةِ الكفار ؛ وعلى هذا فهى منسوخة بآية السيف . والظاهرُ أنها عامةٌ بالتحذير من الانزعاج والصبر على مَنْ أوذى من المسلمين ، ورحمتهم بالدعاء لهم بالهداية والتوفيق .

(والشمس[2] وضُحاهَا) : بالفتح والمد[3] ارتفاع الضوء وكماله إلى الزوال ، وقيل الضحى النهار كله ، والأول هو المعروف فى اللغة .

(والقمر[4] إذا تلاهَا) ؛ أى تبعها ، والضمير للشمس ، واتباعه لها بكثرة ضَوْئِه ، لأنه أضوأ الكواكب بعد الشمس ولا سيما ليلة البدر ، أو يتبعها فى طلوعه ؛ لأنه يطلع بعد غروبها ، وذلك فى النصف الأول من الشهر ، أو يتبعها فى أخذه من نورها ؛ لقوله تعالى[5] : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمَحَوْنَا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهار مُبْصِرَة » . وقد صح أن جبريل مسحها فأذهب بَعْضَ ضوئِها ، وبهذا احتجت الشمس بتفضيلها على القمر .

(والنهارِ[6] إذا جلاَّها) ؛ أى كشفها وأظهرها ، وضميرُ المفعول للشمس ، وضمير الفاعل للنهار ؛ لأن الشمس تنجلى بالنهار ، فكأنه هو جلاَّها . وقيل ضميرُ الفاعل لله . وقيل : الضمير المفعول للظلمة أو للأرض أو للدنيا ، وهذا كله بعيد ، لأنه لم يتقدم مايعودُ الضمير إليه .

---

(١) البلد : ١٧ (٢) الشمس : ١ (٣) أى الضحاء .

(٤) الشمس : ٢ (٥) الإسراء : ١٢ (٦) الشمس : ٣

فإن قلت : النصب فى إذا مُعضل ، لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها فتخير فى العطف على عاملين ، وفى نحو مررت أمس بزيد واليوم عمرو . وإما أن تجعلهن للقسم ، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه ؟

والجواب فيه : إنَّ واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطراحا كلّيا ، فكان لها شأن حيث أبرز معها الفعل ، وأضمر ، فكانت الواو قائمة مقام الفعل ، والباء سادّة مسدّهما جميعا ، والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو ، فحقيقته : أن تكون عوامل على الفعل والجار جميعا ، كما تقول : ضرب زيد عمرا وبكر خالدا ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقامَ ضرب الذى هو عاملها .

(والتين[1] والزيتون . وطُورِ سِينِين) : هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة . وقال الزمخشرى : يجوز أن يعرب إعرابَ الجمع المذكر بالواو والياء ، وأن يلزم الياء ويحرك النون بحركات الإعراب ، وهذه أقسام ؛ أقسم اللهُ بالتين والزيتون وبجبل الطور الذى كلّم عليه موسى . والبلد الأمين ؛ من الأمانة أو الأمن ، لقوله[2] : « اجعَلْ هذا بلدا آمِنًا » . وقد استجاب الله دُعاءَه فجعله آمِنًا من كل شىء ، لقوله تعالى[3] : « أولم يروا أنّا جعلنا حَرَمًا آمِنًا ويُتخطَّفُ الناسُ مِن حولهم » .

(واسجُدْ واقْتَرِبْ[4]) : أى تقرّبْ إلى الله بالسجود ، وهذه الآية موضعُ سجدةٍ عندنا خلافا لمالك .

(والعادياتِ[5] ضَبْحًا) : اختلف فى العاديات والمُوريات والمغيرات ؛

---

(١) التين : ١ ، ٢ (٢) البقرة : ١٢٦ (٣) العنكبوت : ٦٧
(٤) العلق : ١٩ (٥) العاديات : ١

هل يرادُ بها الخيل ؟ وعلى هذا فهل هى خيل المُجاهدين أقسم اللهُ بها ، أو الخيل على الإطلاق . وعلى القول بأنها الإبل [٢٩٦ ب] اختلف هل هى إبل غَزْوة بدر ، أو إبل المجاهدين مطلقا ، أو إبل الحاج ، أو الإبل على الإطلاق . ومعنى العاديات التى تعدو فى مَشْيِها .

والضَّبْح : هو تصويت جَهير عند العَدْوِ الشديد ليس بصَهيل ، وهو مصدر منصوب على تقدير : يضبحن ضَبْحاً ، أو هو مصدر فى موضع الحال ، تقديره العاديات فى حال ضَبْحها . والمُورِيات من قولك : أوريت النارَ ، إذا أوقدتها . وقد قدمنا أن القدح صكُّ الحجارة فيخرج منها شعلة نار ، وذلك عند ضَرْب الأرض بأرجل الخيل أو الإبل . وإعراب قَدْحا كإعراب ضبحا . والمغيرات من قولك : أغارت الخيل إذا خرجت للاغارة على أعدائها .

و «صُبْحاً[1]» : ظرف زمان ، لأن عادةَ أهل الغارة فى الأكثر أنْ يخرجوا فى الصباح .

(وَسطْنَ[2] به جَمْعاً) ، أى توسطن . واختلف هل المراد بالجمع جَمْعُ الناس ، أو المزدلفة ، لأن اسمها جَمْع . والضمير المجرور للوقت ، أو للمكان ، أو للعدو ، أو للنقع . وقد قدمنا معناه فى حرف النون .

(وإنه[3] على ذلك لَشَهيد) : معطوف على الإنسان ، يعنى هو شهيد على نفسه بكنوده . وقيل : هو الله تعالى ، على معنى التهديد .

والأولُ أرجح ، لأنَّ الضمير الذى بعده للانسان باتفاق ، فيجرى الكلام على نَسَقٍ واحد .

---

(١) العاديات : ٣ (٢) العاديات : ٥ (٣) العاديات : ٧

(وإنه[1] لحُبِّ الخَيْرِ لشَديد) : المعنى إنّ الانسان شديدُ الحبّ للمال ، فهو ذَمٌّ لحبّه والحضّ عليه . وقيل الشديد البخيل . والمعنى على هذا إنه لبخيل لأجل حبّ المال . والأول أظهر .

(وحُصِّلَ[2] ما في الصدور) ؛ أي جمع في الصحف وأظهر محصلاً ، أو ميّز خَيْرُهُ من شرِّه .

(وآمَنَهُمْ[3] من خَوْف) ؛ أي من خوف أصحاب الفيل ، أو آمنهم في بلدهم ، أو في أسفارهم ؛ لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين لا يتعرّضُ لهم أحد بسوءٍ لبركة البيت ، ويطلب منهم الدعاء لمجاورتهم له ، وكان غيرهم تُؤخذ أموالهم وأنفسهم .

وقيل آمَنَهُمُ من الجُذَام والطاعون والدجال . قال الزمخشري[4] : التنكير في جوع وخوفٍ لشدتهما ، ولا ترى مجنوما بمكة .

(وُسْعَها[5]) ، بضم الواو : طاقتها ، وهذا إخبار من الله أنه لا يكلِّفُ النفسَ إلا طاقتها ؛ ورفع تكليف ما لا يطاق جائز عقلا عند الأشعرية محال عقلا عند المعتزلة ، واتفقوا على أنه لم يقعْ في الشريعة .

« والمُوسِع[6] » : الغني ؛ أي واسع الحال ، وهو ضد المقتر ، « وإنّا[7] لَمُوسِعون » : قيل أغنياء ، وقيل قادرون .

(وَارَى) يُوارى ؛ أي ستر. ومنه : «[8] يُوَارِي سَوْءَةَ أخيه » .

---

(١) العاديات : ٨ (٢) العاديات : ١٠ (٣) قريش : ٤

(٤) الكشاف : ٢ ـ ٥٦٢ (٥) البقرة ٢٣٣ ، ٢٨٦

(٦) في سورة البقرة (٢٣٦) : على الموسع قدره . (٧) الذاريات : ٤٧

(٨) المائدة : ٣١

و « ما[1] وُرِيَ عنهما من سَوْءَاتِهِما » وتوارَى ، أى استتر واستخفى .

(وَعَى) العلم يعنى حفظه ومنه : « وتَعِيَها[2] أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » . قال صلى الله عليه وسلم لما نزلت : اللهم اجعلها أُذُنَ علىٍّ ، فاستجاب الله له ، وجعله البابَ لمدينة العلم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "أنا مدينةُ العلم وعلىٌّ بابها". هذا ما خُصَّ به من الفضائل ، وقد شهد الله فى كتابه بإبراهيم فى قوله : « وإبراهيم[3] الذى وَفَّى » ، وقال فيه : « يوفون[4] بالنَّذْرِ » وبالخوف بالملائكة : « يخافون[5] ربَّهم من فوقهم » .

وقال فيه : « ويخافون[6] يوماً كان شَرُّه مستطيرا » . وبالصبر بأيوب : « إنَّا[7] وجدناه صابرا » وقال : « وجَزاهم[8] بما صَبَروا جنَّةً وحَريرا » . وذكر الله أنه يطعم ولا يطعم ، وقال فيه : « ويطعمون[9] الطعامَ على حُبِّه » . ولما نزلت : « يأيها[10] الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسولَ فقدِّموا بين يدى نجواكم صدقة » قال على : كانت لى عشرة دراهم فتصدقت بها ، وسألت النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن عشر كلمات ، ولم يعمل بهذه الآية غيرى ، ورفق الله بالأمة . قلت : يارسول الله ، كيف أدعو ؟ قال : بالصدق والوفاء . قلت : ما أسأل الله ؟ قال : العافية فى الدارين . قلت : ما أصنع لنجاتى ؟ قال : كُلْ حلالا وقُلْ صدقا . قلت : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . قلت : فما أمر الله ورسوله ؟ قال : الحق . قلت : فما الحقّ ؟ قال : الإسلام والقرآن وولاية من انتهى إليك . قلت : فأين الراحة ؟ قال : فى الجنة . قلت : فما السرور ؟ قال :

---

(١) الأعراف : ٢٠ (٢) الحاقة : ١٢ (٣) النجم : ٣٧
(٤) الانسان : ٧ (٥) النحل : ٥٠ (٦) الانسان : ٧ (٧) ص : ٤٤
(٨) الانسان : ١٢ (٩) الانسان : ٨ (١٠) المجادلة : ١٢

الرؤية . قلت : فما العبودية ؟ قال : إظهار الوفاء . قلت : فما الوفاء ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وأما [١٢٩٧] أوعى بالألف يُوعى فجَمْعُ المال فى وعاء ، ومنه : «وجمع[١] فأوْعَى» .

(وجْدِكُم[٢]) ، بضم الواو وفتحها : سعيكم ، والضمُّ أكثر وأشهر ، وبكسر الواو لكنه قليل ، ومعناه أسكنوا المرأة مسكنا تقدرون عليه . وإعرابه عطف بيان ، لقوله : «حيث[٢] سكنتم» وقمت بالواو والألف بمعنى جمعت لوقتٍ ، وهو يوم القيامة .

(وَجْه) : قد قدمنا تقسيم الوجه على أوجه ، ووجه الله طالب رضاه ، وقدمنا أنه من المتشابه ، ويراد به الجهة ، ومنه : وجهة[٣] تَرضاها ، ولم تحذف الواو لأنه ظرف مكان وقيل إنه مصدر ثبتت فيه الواو على غير قياس .

(وِرْدا[٤]) : مصـــدر : عطاشا ، لأن مَنْ يرد الماء لا يرده إلا لعطش .

(وِزْر) ، بكسر الواو وإسكان الزاى له معنيان : الذنب ، ومنه : «لاتَزِرُ[٥] وازِرَة وِزر أخرى» . والحمل الأصل ، ومنه : «أوْزَارًا[٦] مِنْ زينَةِ القَوْمِ» ، أى أحمالا .

(وِلْدَانٌ مُخَلَّدون[٧]) : الولدان صغار الخدم . وقد قدمنا أن «المخلدون» الذين لايموتون أو المقلَّدون بالمخلدات ، وهى ضربٌ من الأقراط . وقد

---

(١) المعارج : ١٨ (٢) الطلاق : ٦

(٣) فى سورة البقرة (١٤٤) : قبلة ترضاها . (٤) مريم : ٨٦

(٥) الأنعام ١٦٤ ، وغيرها . (٦) طه : ٨٧ (٧) الواقعة : ١٧

ورد في الحديث : إن الولدان يطوفون على أهل الجنة بكأس من مَعين ، وهو الإناء الواسع الفم الذي ليس له مقبض سواء كان فيه خمر أم لا .

(الواو) : جارة وناصبة وغير عاملة :

فالجارةُ واو القسم ، نحو : « والله[1] ربِّنا ما كنّا مُشرِكين » .

والناصبة واو « مع » فتنصب المفعول معه في رأى قوم ، نحو : « فأجمِعُوا[2] أمرَكُم وشركاءَكم » . ولا ثاني له في القرآن . والمضارعَ في جواب النفي أو الطلب عند الكوفيين ، نحو : « ولمّا[3] يَعلمِ الله الذين جاهدُوا منكم ويَعلَمَ الصابرين » . « ياليتنا[4] نُرَدُّ ولا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين » .

وواو الصرف عندهم ، ومعناها أنّ الفعل كان يقتضي إعرابا فصرفته عنه إلى النصب ، نحو : « أتجعلُ[5] فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدماءَ » ـ في قراءة غير النصب .

وغير العاملة أنواع : واو العطف ، وهي لمطلق الجمع ، فتعطف الشيء على مصاحبه ، نحو : فأنجيناه[6] وأصحابَ السفينةِ » ، وعلى سابقـــة ، نحو : « أرسلنا[7] نوحاً وإبراهيم » . ولاحقه ، نحو : « يُوحِي إليكَ وإلى الذينَ من قبلِك » .

وتفارقُ سائرَ حروف العطف في اقترانها بإما ، نحو[9] : « إمّا شاكرا وإمّا كَفُورا » . وبلا بعد نفي ، نحو[10] : « وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتي تقرِّبُكم عندنا زُلفى » .

---

(١) الأنعام : ٢٣ (٢) يونس : ٧١ (٣) آل عمران : ١٤٢
(٤) الأنعام : ٢٧ (٥) البقرة : ٣٠ (٦) العنكبوت : ١٥
(٧) الحديد : ٢٦ (٨) الشورى ٣ (٩) الانسان : ٣
(١٠) سبأ : ٣٧

و «لكن»، نحو[1] : «ولَـكِنْ رسولَ الله وخاتَم النبيين» . وتعطف العقد على النيِّف . والخاص على العام ، وعكسه ؛ نحو :«وملائكَتِه[2] ورُسلِه وجبريل» .
«ربِّ[3] اغفِرلي ولوَالِدَيّ ولمَنْ دخل بَيْتِي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات» .

والشيء على مرادفه ؛ نحو : «صلواتٌ[4] مِنْ ربهم ورحْمة» . «إنما[5] أشكو بَثّي وحُزْني إلى الله» . والمجرور على الجوار ؛ نحو[6] : «برُءوسكم وأرجلكم» .

وقيل : وترد بمعنى أو ، وحمل عليه مالك[7] : «إنّما الصدقَاتُ للفقراء والمساكين . . .» الآية . وللتعليل ، وحمل عليه الخوارزمي[8] الواو الداخلة على الأفعال المنصوبة .

ثانيها : واو الاستئناف ؛ نحو : «ثم[9] قضَى أجلاً وأجلٌ مسمًّى عنده» .
«ونقِرُّ[10] في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسمًّى» . «واتَّقوا[11] الله ويعَلِّمُكم الله» «مَنْ[12] يضْلِلِ الله فلا هادِيَ له ويذَرُهم» — بالرفع ؛ إذ لو كانت عاطفة لنصب ونقر . ولجزم مابعده ونصب «أجل» .

ثالثها : واو الحال الداخلة على الجملة الاسمية ، نحو : «ونحن[13] نسبِّحُ بحمْدِك» . «يغْشَى[14] طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنْفسهم» .
«لئن[15] أكَلَهُ الذئب ونحن عصْبة» .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ (٢) البقرة : ٩٨ (٣) نوح : ٢٨
(٤) البقرة : ١٥٧ (٥) يوسف : ٨٦ (٦) المائدة : ٦
(٧) التوبة : ٦٠ (٨) في الاتقان (٢٥٧) : الخارزمي . (٩) الأنعام : ٢
(١٠) الحج : ٥ (١١) البقرة : ٢٨٢ (١٢) الأعراف : ١٨٦ .
(١٣) البقرة : ٣٠ (١٤) آل عمران : ١٥٤ (١٥) يوسف : ١٤

وزعم الزمخشري أنها تدخل على الجملة الواقعة صفة ، لتأكيد ثبوت الصفة للموصوف ، ولصوقها به ، كما تدخل على الحالية ، وجعل من ذلك : «ويقولون[1] سبعة وثامنهم كلبهم » .

رابعها : واو الثمانية، ذكرها جماعة كالحريري وابن خالويه والثعلبي، وزعموا أن العرب إذا عدُّوا يدخلون الواو بعد السبعة إيذانا بأنها عددٌ تام ، وأنّ ما بعده مستأنف ، وجعلوا من ذلك قوله : « سيقولون[1] ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم ، رجْماً بالغيب ، ويقولون [٢٩٧ب] سبعة وثامنهم كلبهم » . وقوله : «التائبونَ العابِدون[2] ... » إلى قوله : «والناهون عن المنكر » ؛ لأنه الوصف الثامن . وقوله[3] : « مسلمات ... » إلى قوله : « وأبكاراً » . والصواب عدم ثبوتها ، وأنها في الجميع للعطف .

خامسها : الزائدة ، وخرج عليه واحدةٌ في قوله[4] : « وتَلَّهُ لِلجَبين . وناديْناه » .

سادسها : واو ضمير المذكور في اسم أو فعل ؛ نحو : « المؤمنون » . « وإذا[5] سمِعوا اللَّغْوَ أعرضوا عَنْه » . « قل[6] لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصَّلاةَ » .

سابعها : واو علامة المذكرين في لغة طيّ ، وخُرِّج عليه : « وأسَرُّوا[7] النجْوَى الذين ظَلَموا » . « ثم[8] عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم » .

ثامنها : الواو المبدلة من همزة الاستفهام المضموم ما قبلها ، كقراءة

---

(١) الكهف : ٢٢ (٢) التوبة : ١١٢ (٣) التحريم : ٥
(٤) الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤ (٥) القصص : ٥٥ (٦) إبراهيم : ٣١
(٧) الأنبياء : ٣ (٨) المائدة : ٧١

قتبل : « و[illegible] نشُور وأَمِنتم » . « قال[2] فرعون وآمنتم به » .

(وَيْكَأَنَّ) : قال الكسائى : كلمة تندمٍ وتعجُّب ، وأصله وَيْلك ، فالكاف ضمير مجرور . وقال الأخفش : وَىْ اسم فعل بمعنى أعجَب ، والكاف حرف خطاب ، وأنَّ على إضمار اللام : والمعنى أعجب لأن الله . وقال الخليل : وَىْ وحدها ، وكأنَّ كلمة مستقلة للتحقيق لا التشبيه . وقال ابن الأنبارى : يحتمل وَيْكأنّه ثلاثة أوجه : أن تكون ويك حرفا ، وأنه حرف . والمعنى ألم تر . وأنْ تكونَ كذلك ، والمعنى ويلك . وأن تكون وى حرفا للتعجب ، وكأنه حرف ، ووُصِلا خطًّا لكثرة الاستعمال ، كما وصل يبنؤمَّ .

(وَيْل) : قال الأصمعى : ويل تقبيح . قال تعالى :

« ولكم[3] الْوَيلُ مما تَصِفُون » . وقد توضع موضع التحسر والتفجيع ، نحو « ياويلتنا[4] » . « ياوَيْلَتى[5] أعجزْتُ » . أخرج الحربى فى فوائده من طريق إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : وَيحك ، فجزِعْتُ منها ، فقال لى : ياحُمَيْراء ، إنّ « ويحك » أو « وَيْسك » ، رحمة ، فلا تجزعى منها ، ولكن اجزعى من « الويل » .

---

(١) الملك : ١٥ (٢) الأعراف : ١٢٣
(٣) الأنبياء : ١٨ (٤) الكهف : ٤٩
(٥) المائدة : ٣١

حرف اللام ألف

(لأعْنَتَكُمْ[1]) : لضيّق عليكم بالمنع من مخالطتهم . ابن عباس : لأهلككم بما سبق من أكلكم لأموال اليتامى .

(لا تَنْكِحُوا[2]) ؛ أي لا تتزوجوا . والنكاحُ مشترك بين العقد والوطء لأمة ، أي أمة لله ، حرة كانت أو مملوكة . وقيل أمة مملوكة مؤمنة خير من حرة مشركة .

(لأوْضَعُوا[3] خِلالَكُمْ) ؛ أي أسرعوا السير . والإيضاعُ : سرعة السير . والمعنى أنهم يسرعون بالفساد والنميمة بينكم .

(لأحْتَنِكَنَّ[4]) : معناه لأميلنهم ولأقودنَّهم . وقيل : لأستأصلنهم . يقال احتنكَ الجراد ، إذا أكله كله .

(لاهِيَةً[5] قلوبُهم) : الضمير للكفار ، يعني أن قلوبهم غافلةٌ مشغولة عن الحق وتذكُّره ، لأن القلب إذا اشتغل بشيء لم يكن لشيء آخر فيه محل ؛ لقوله تعالى[6] : « ما جعل الله لرجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفه » .

(لا يَسْبِقُونَه[7] بالقَوْلِ) : الضمير للملائكة ؛ يعني أنهم لايتكلمون بشيء حتى يكلمهم الله تأدُّبا معه ، وخوفا من سَطْوته ، ولا يشفعون لأحد من عبادِ الله حتى يستأذِنُوا ؛ فإن أذن لهم شفعوا وإلاّ سكتوا .

---

(١) البقرة : ٢٢٠ (٢) النساء : ٢٢ (٣) التوبة : ٤٧

(٤) الإسراء : ٦٢ (٥) الأنبياء : ٣ (٦) الأحزاب : ٤

(٧) الأنبياء : ٢٧

(لَازِبٍ[1]) ولازم : بمعنى واحد ، وهو الممتزج المتماسك الذي يلزم بعضُه بعضا ، وأمر الله بهذه الآية سؤال المشركين عن خَلْق الله الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب : « أَهُمْ[1] أشدُّ خَلْقًا أم من خلقنا » ، ومِنْ لازم جوابهم بأنهم أشدُّ خلقا منهم تقومُ عليهم به الحجة في إنكارهم البعث في الآخرة ، كأنه سبحانه يقول : هذه المخلوقات أشدُّ خلقاً منكم ، فكما قدرنا على خلقكم كذلك نَقْدِرُ على إعادتكم بعد فَنَائكم ؛ لأنكم أضعف خَلْقه ، وكيف لا وأنتم من طين لازب !

(لا[2] هُمْ عَنها يُنزَفُون) : عن هنا سببية ، كقوله : فعله عن أمرك . والنزف : السكر ، يعني أنّ شاربَ خمر الآخرة لا يسكر منها ، لأنها حُلْوة طيبة ، بخلاف خمر الدنيا .

والعجب مِمَّنْ يكون في عقله ويذهبه بشربها ، وأقل ما فيه من الوعيد الحديث : مَنْ شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة .

فإن قلت : هل هذا الوعيد يتناولُ مَنْ تاب مِنْ شُرْبها أم لا ؟

والجواب : أنّ هذا فيمن لم يَتُب ، وأما التائب فيبدِّل الله سيئاته حسنات ، كما قدمنا في غير ما موضع .

(لا تَسْمَعُ[3] فيها لَاغِيَةً) : هو من لَغْو الكلام ، ومعناه الفحش وما يكره ، فيحتمل أنْ يريد كلمة لاغية ، أو جماعة لاغية .

---

(١) الصافات : ١١ (٢) الصافات : ٤٧
(٣) الغاشية : ١١

(لإيلاف[1] قريش) لإيلافِ : آلفت إيلافا . وقيل هذه اللام موصولة بما قبلها . المعنى : « فجعلهم[2] كعصف مأكول » لإيلاف قريش ، وكانت لهم رحلتان فى كل عام [١٢٩٨] : رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى الشام . وقيل : كانت الرحلتان جميعا إلى الشام . وقيل : كانوا يرحلون فى الصيف إلى الطائف حيث الماءُ والظلّ فيقيمون بها ، ويرحلون فى الشتاء إلى مكة لسُكناهم بها . واختلف فى تعلق قوله « لإيلاف قريش » على أقوال : قيل إنه متعلق بقوله[3] : « فَلْيَعْبُدُوا » ؛ والمعنى فليعبدوا الله من أجل إيلافهم الرحلتين ؛ فإن ذلك نعمة من الله عليهم . وقيل : إنه يتعلق بمحذوف تقديره : اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل : إنه يتعلق بسورة الفيل ، والمعنى إن الله أهلك أصحابَ الفيل لإيلاف قريش ؛ فهو يتعلق بقوله : « فجعلهم »[2] كما قدمنا . ويؤيِّد هذا أنّ السورتين فى مصحف أُبَىّ بن كعب سورة واحدة لافصلَ بينهما ، وقد قرأهما فى ركعة واحدة من المغرب ، وذكر الله الإيلاف أولا مطلقا ، ثم أبدَل منه الإيلافَ المقيدَ بالرحلتين تعظيما للأمر ؛ ونصب « رحلة » لأنه مفعول بإيلافهم ، وقال : « رحلةَ » وأراد رحلتين ، فهو كقول الشاعر : كلوا فى بعض بطنكم تعفوا » .

وقد قدمنا من هذا الحرف أشياء عند حرف اللام ، والحرف الذى قبل هذا فلا فائدة فى الإعادة .

---

(١) قريش : ١ (٢) الفيل : ٥ (٣) قريش : ٣

حرف الياء

(يحيى) بن زكرياء عليهما السلام ، وُلد قبل عيسى بستة أشهر ، ونُبيء صغيرا ، وهو اسم أعجمى ، وقيل عربى . قال الواحـــدى : وعلى القولين لاينصرف . قال الكرمانى : وعلى الثانى أنه سمى به لأنه أحياه الله بالإيمان ؛ وقيل لأنه حيى به رحم أمه ، وقيل لأنه استشهد ، والشهداء أحياء ، وسببه أنّ ملك زمانه كان له زوجة ولها بنت من غيره ، فأرادت المرأةُ تزويجها منه غيرةً وخوفا من تزويج غيرها ، فزينتها وعرضتها عليه ، وقالت له : أتريد أحسن منها ؟ فقال لها : لا أحبّ غيرها . فاتخذت وليمةً ، ودعت إليها يحيى ، وعرضت عليه الأمر ، فقال : معاذ الله من ذلك ، فسقتْ زوجها الخمر ، وقالت : أما علمت أنّ يحيى يأبى من زواجك لهذه الشابة ، فدعا به وقتله بين يديها ، فبكت الملائكةُ فى السموات ، وقالت : إلهى ، بأىّ ذنب قتلوا يحيى ؟ فقال تعالى : لم يذنب ، ولم يُهمّ بذنب ، ولكن أحبّنى فأحببتُه ، ولابد فى الحب من القتل ، وسلّط الله على قاتله بخت نصر فقتـــله ، وأخرب ملكه ، وسبا حريمه ، وملك رعيته .

فاسْمعْ يامدّعِى الحب ، أما علمتَ أن المحبة أولها فكرية وآخرها بَليّة ، وإذا كان الحبُّ بين الخلق يذهب النفوس فكيف بمحبة الله ! ولذلك قال تعالى : « والذين[1] آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ » . ولذلك قال الجُنيد : كم تقتل من الأحباب ؟ وكم تريق من دَم الأصحاب ؟ فسمع هاتفا يقول : أقتل النفس ،

---

(١) البقرة : ١٦٥

وأعطى دِيَتها . فقال : يارب ، ما دِيتها ؟ فقال : دِية مقتول الخَلْق الدنيا ودية مقتولِ الحق رُؤية الجبّار .

(يوسف) بن يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن ، أُلقى فى الجب وهو ابنُ ثنتى عشرة سنة ، ولقى أباه بعد الثمانين ، وتوفى وله مائة وعشرون سنة . وفى الصحيح أنه أُعطِىَ شَطْرَ الحسن ؛ قال بعضهم : وهو من المرسلين ، لقول موسى : «ولقد[1] جاءكم يوسف من قَبْلُ بالبينات» . وقيل : ليس هو يوسف ابن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب .

ويشبه هذا ما فى العجائب للكرمانى فى قوله[2] «ويَرِثُ مِنْ آلِ يعقوب» إن الجمهور على أنه يعقوب بن ماثان ، وإن امرأةَ زكرياء كانت أُخْتَ مريم بنت عمران ؛ قال: والقول بأنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم غريب. وما ذكره أنه غريب هو المشهور ، والغريب الأول ؛ ونظيره فى الغرابة قول نوْف البِكالىّ إن موسى المذكور فى سورة الكهف فى قصة الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل بل موسى بن مَنَشا بن يوسف . وقيل ابن إفرائيم بن يوسف ، وقد كذّبه ابن عباس فى ذلك. وأشدُّ من ذلك غرابة ما حكاه النقاش والماوردى أن يوسف المذكور فى سورة غافر من الجن ، بعثَهُ الله رَسُولاً إليهم ، وما حكاه ابن عسكر إن عمران المذكور فى آل عمران هو والدُ موسى لا والد مريم . وفى يوسف من اللغات تثليث السين مع الياء والهمزة [وبتركه][3]، [٢٩٨ب] والصواب أنه أعجمى لا اشتقاق له .

فإن قلت : أين يوسف من فرعون فى مخاطبة موسى له ؟

---

(١) غافر : ٣٤ (٢) مريم : ٦

(٣) تهذيب الأسماء واللغات : ١ ـ ١٦٧

والجواب : ما قدمناه لك من أنّ ملك مصر يسمى فرعون ، وإنكارهم لبعث الرسالة لايدلُّ على أنهم مؤمنون برسالة يوسف ، وإنما مُرادُهم أن يأتى أحد يدَّعى الرسالة بعد يوسف ؛ قاله ابن عطية . وقال الزمخشرى : إنما هو تكذيب لرسالةِ مَنْ بعده مضموم إلى تكذيب رسالته .

(يونس) بن مَتَّى ، بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور . ووقع فى تفسير عبد الرزاق أنه اسم أمّه . قال ابن حجر : وهو مردود بما فى حديث ابن عباس فى الصحيح ، ونسبه إلى أبيه ؛ قال : فهذا أصحُّ . قال : ولم أقِفْ فى شيء من الأخبار على اتصال نسبه ، وقد قيل : إنه كان فى زمان ملوك الطوائف من الفرس ، فبعثه الله إلى أحدهم فأعرضوا عنه ، ووعدهم بالعذاب ، فخاف منهم وهرب فالتقمه الحوتُ كما قدمنا أنه مكث فى جوفه أربعين يوما . وقيل الْتَقَمَهُ ضحى ولفظه عشيّة . وفى يونس ست لغات : تثليث النون مع الياء[1] والهمزة ، والقراءة المشهورة بضم الياء مع النون . قال أبو حيان : وقرأ طلحة ابن مصرّف بكسر يونِس ويوسِف ، أراد أن يجعلهما عربيين مشتقين من أنِس وأسِف وهو شاذ .

(يسومُونَكم[2] سُوءَ العذابِ يذَبِّحون أبناءكم . . .) الآية : قد قدمنا أنّ الخطاب لبنى إسرائيل قبل هذا الحرف .

فإن قلت : أى فائدة لخطاب المعاصرين بهذا ؟ وتعبيره فى سورة الأعراف[3] بالقَتْل ؟

والجواب : لأنهم من ذُرّيّتهم وعلى دينهم ومتّبعون لهم ، وهم راضون

---

(١) فى الاتقان : مع الواو . (٢) البقرة : ٤٩

(٣) الأعراف (١٤١) : يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ...

بذلك ؛ فعدّد عليهم بما مَنّ على آبائهم وهم عالمون بذلك . وورد فى آية البقرة مضعّفا ؛ لأن المقصود فيها كما قدمنا تعديدُ وجوهِ الإنعام عليهم ، وبيانُ المنّة ، ومقابلتهم لهذه النعمة بالكُفْر من الأمر الشنيع ، ألاَ ترى أنه لما ذكر دعوة الناسِ عموما ، وذكر مبدأهم دعا بنى إسرائيل خصوصا . وأيضا لما كان الذبح منبىء عن القَتْل وصِفَته ، ولا يُفهم من القتل غير إعدام الحياة بتناولٍ من غير المقتول فى الغالب عَبّر هنا بما يوفى المقصود من الإخبار بالقتل وصِفته ، مع إحراز الإيجاز ؛ إذ لو ذكر القتل وأتبع بالصفة لما كان إيجازا ، فعدل إلى ما يحصلُ منه المقصودُ مع إيجاز ، فقال يُذَبّحون . وعَبّر فى سورة الأعراف بالقتل ؛ لأنه أوجز من لَفظِ يذبحون ، لأجل التضعيف ؛ إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه . وقد حصلت صفةُ الفعل فى سورة البقرة .

(يَهْبِطُ[1] مِنْ خشيةِ الله) : صفة للحجر ، وذلك أنّ الله تعالى جعل خَوْفَه فى المتحرك والساكن ، فكلّ حجر يرمى من علو إلى سفل فمِنْ خشية الله ، ومنهم من[2] يتفجّرُ منه الأنهار ؛ كما قال تعالى ، هذا مع أنهم غَيْر مخاطبين ولا مكلفين ؛ وأنتَ يامحمدىّ مكلّف مخاطب ، وقد قسا قَلْبك ؛ فهل هذا إلا من مخالفة أمرِ ربك ؛ تلين الأحجارُ ، ولا تلين القلوبُ ! وأعظم من ذلك عدمُ الانكسار والخشوع ! لو تُليت هذه الآيات على الجماد لمادَ ، كما قال تعالى : «لو[3] أنزلْنا هذا القرآنَ على جبَل لرأيْتَه خاشعاً مُتَصدِّعاً مِن خشيةِ الله» . فلا حيلةَ لنا يارب إلا إلقاء نفوسنا بين يديك ، والتفويض لما أردْتَ بنا ، وإلاّ

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) فى البقرة (٧٤) : وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار .
(٣) الحشر : ٢١

الصبر لنا على عذابك ، وكيف يصبر الجسم الضعيف على العذاب المقيم ، فصبِّرْنا إنْ قضيتَ علينا ، واجعلنا كالإسرائيلي الذي عبدك سبعمائة سنة ، فأوحيت إلى نبيء ذلك الزمان : قلْ لعَبْدى فلان تعبَّدْ ماشئْتَ ، فأنتَ من أهل النار . فلما بلغه وَحْيُك قال : مرحبا بحُكْم ربى ! ثم قال : إلهى ، عَبَدْتك، وأنا لا أظنُّ أنى لا أَزِنُ عندك قليلا ولا كثيرا ، فإذا أنا أَصْلح لنارك ، وعِزَّتك مازادنى هذا إلا حُبًّا وتلهّفًا فيك ؛ فأوحى الله إلى دانيال عليه السلام : قل لعَبْدى المستحق لِوَلَائِي بالصبر والرضا : رضيت عنى بأصعب حكم وقضاء ، وعِزّتى وجلالى لو ملأتْ ذنوبك الأرضَ والسماء لغفرتُهـا لك ، ولا أبالى . وأنت تعلم غربتى وذِلّتى وشدةَ محنتى بذنوب اقترفتها وعظائم ارتكبتها ، وأنتَ تعلمُ أنه ليس لى مَنْ ينقذنى عند الموقف بين يديك غير رحمتك الواسعة التى أخبرْتَنا بها [١٢٩٩] ، فقيِّضْ لى مَنْ يشفع عندك ، أقسم عليك بجاه نبيِّك الكريم ، واسمك العظيم ، وعِدْتنا على لسان نبيك أنه أعدّ شفاعته لكبائر أمته ، وأْذَنْ له فينا ، ولا تخيِّبنا من فضلك العظيم وإحسانك العميم ، وأسألك أنْ تصلّيَ على نبيك الكريم ، وترْضَى عن أصحابه وذى الفضل والتكريم .

(يَسْتَفْتِحون[١]) : يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم ؛ فالسّينُ على هذا للطلب ، يعنى أنهم كانوا يقولون : اللهم انصرنا بالنبيّ المبعوث فى آخر الزمان؛ ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظلّ زمانُ نبيٍّ يخرج نقاتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم . وقيل يستفتحون أى يعرفون الناس بالنبى صلى الله

---

(١) البقرة : ٨٩

عليه وسلم ، فالسينُ على هذا للمبالغة ، كالسين فى استعجب واستسخر ، وعلى كلِّ قولٍ فبغضهم واجب وقتلهم جائز لجحدهم ما عرفوا فى كتبهم ؛ ولذلك قال الله فيهم : « فلَعْنَةُ[1] الله على الكافرين » .

(يتمنَّوه[2] أبداً) : الضمير يعود على الموت ، وذلك أنَّ الله أمرهم أن يتمنَّوا الموتَ إن كانوا صادقين فى قولهم على وَجْه التعجيز والتبكيت ؛ لأنَّ مَنْ علم أنه من أهل الجنة اشتاق إليها ، ولو تمنَّوه لماتوا من ساعتهم ؛ ولمَّا علموا ذلك لم يتمنوه لذنوبهم ، لأنهم أرادوا الحياةَ الدنيوية .

فإن قلت : لم عَبّر فى آية البقرة بلن بخلاف الجمعة[3] ؟

والجواب : أنه لما كان الشَّرط فيها[4] مستقبلا ، وهو قوله تعالى :

« وإنْ[4] كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً . . . » الآية — جاء جوابه بلن التى تخلِّص الفعل للاستقبال . ولما كان الشرط فى الجمعة حالا ، وهو قوله[5] : « إنْ زَعمتم أنكم أولياء لله » جاء جوابه بلا التى تدخل على الحال، وقد تدخل على المستقبل .

فإن قلت : ما النافية أخصّ بالحال فهى أنسب ؟

قلت : قد يفهم من «ما» نَفْى مجرد الحال دون ما يتصل به، فقد يقول القائل: ما يقوم زيد — يريد ما يقوم اليوم ، ولا يريد أنه مايقوم غداً ، وما صالحة لهذا المعنى ، وهم إنما أرادوا أنهم أولياء مستمرون على ذلك ، وأنَّ تلكَ صِفَتهم على

---

(١) البقرة : ٨٩ (٢) البقرة : ٩٥

(٣) الجمعة (٧) : ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم .

(٤) أى فى البقرة : ٩٤ (٥) الجمعة : ٦

الحال وما يليه إلى آخر حياتهم ؛ إذ ذاك هو الموجب أن تكون لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس كما زعموا ، فلما كان زعمهم هذا ناسبه نفى دعواهم وتكذيب زعمهم بحرف نص فى نفى ذلك ، وأنه لا يقع منهم التمنى فى حالهم ولا فيما بعده أبدا .

فإن قلت : إن قوله : « أبدا » قد أحرز هذا ؟

قلت : تأكيد ذلك أبلغ ، فنفى بلا وأكد بالتوكيد . فجاء على أهل البلاغة .

(يَتْلُونَ[1] الكِتابَ) ؛ أى يقرءونه ، والضمير عائد على اليهود والنصارى ، وهذا تقبيح لقولهم وذمّهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولِمَا جاءَ به ، مع تلاوتهم كتابهم .

(يَلْعَنُهم[2] اللاعِنون) : قد قدمنا أنهم جميع مَنْ تقع منه اللعنة ، وإذا تلاعَنَ اثنان ، وكان أحدهما غير مستحق للعن رجعت اللعنة على المستحق لها ، فإن لم يستحقها أحد منهما رجعت على اليهود .

(يَنْعِقُ[3]) ؛ أى يصيح بالغنم فلا تدرى ما يقول لها إلا أنها تنزجر بالصوت ، وشبّه الله الكفار بالبهائم فى قلة فَهْمِهم وعدم استجابتهم لمن يدعوهم ، أو يكون تشبيها للكفار فى دعائهم وعبادتهم لأصنامهم بمن يَنْعِق بما لا يسمع ؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئا ؛ وفيه تفصيل قدمنا ذكره .

(يَطْهُرْنَ[4]) : من الدم ، ويتطهَّرْن بالماء ، وقرى حتى يطهرن

---

(١) البقرة : ١١٣ (٢) البقرة : ١٥٩
(٣) البقرة : ١٧١ (٤) البقرة : ٢٢٢

بالتشديد ، وهو حجة لمالك .

(يَتَسَنَّهْ[1]) ومعناه يتغير ، واللفظ يحتمل أن يكون مشتقا من السنة ، لأن لامها هاء فتكون الهاء فى « تسنه » أصلية ؛ أى لم تغيره السنون . ويحتمل أن يكون مشتقاً من قولك : تسنّن الشىءُ إذا فسد ، ومنه الحمأُ المسنون ، ثم قُلبت النون حرفَ علة ، كقولهم : قصّيت أظفارى ، ثم حذف حرفُ العلة للجزم ؛ والهاء على هذا هاءُ السكت .

وقيل إن طعامه كان تينا وعنبا ، وإن شرابه كان عصيرا ولبنا ، فأراه اللهُ أعجوبة فى بقائه هذه المدة الطويلة على حالته .

(يَؤُودُهُ[2]) : يثقله ؛ من قولهم : ما آدك فهو لى آئد ؛ أى ما أثقلك فهو لى مُثقل .

(يمحق[3] الله الربا) ؛ أى يذهبه فى الدنيا بضياعه ، وفى الآخرة بالعقوبة. وقد قدمنا أنّ عقوبته فى الآخرة بقيامه من القبر كالمجنون يعرفه أهلُ المحشر بتلك العلامة ؛ وأىُّ عقوبة أكبر من هذا. وحكى القاضى عياض فى مداركه : أنّ تركَ رُبع دانق مما حرم الله أفضلُ من سبعين ألف حجة ، وأفضل من سبعين ألف غزوة ، وسبعين ألف بدنة مقلّدة أهديت إلى بيتِ اللهِ الحرام ؛ قال : فبلغ ذلك عبد الجبار ، فقال : نعم ، وأفضل مِنْ ملء الأرض إلى عنان السماء ذهبا وفضة اكتسبَتْ من حلال وأنفقت فى سبيل الله ، تَرْكُ ربع دانق مما حرم أفضل من ذلك كله .

---

(١) البقرة : ٢٥٩ (٢) البقرة : ٢٥٥

(٣) البقرة : ٢٧٦

(يَلْوُونَ[1] أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ) : الضمير عائد على أهل الكتاب ، يعني يحرّفون لفظه أو معناه .

(يَضُرُّكُم[2]) : من الضير ، بمعنى الضرر .

(يَكْبِتَهُم[3]) : يغيظهم ويُخزيهم . وقيل يصرعهم لوجوههم .

(يمين) : له أربعة معان : اليد اليمنى ، والجهة اليمنى ، وبمعنى القوة ، وبمعنى الحلف . وأيمن الإنسان جهة يمينه .

(يسير) : له معنيان : قليل ، ومنه كيل يسير . وهين ، ومنه : « وذلك[4] على الله يسير » . واليسر ضد العسر .

(يأس[5]) من الأمر ييأس ، أي انقطع رجاؤه ، ومنه : « لا تيأسوا[6] مِنْ روح الله » ، واسم الفاعل يؤوس . وأما : « أفلم[7] ييأس الذين آمنوا » فمعناه أفلم يعلم ، وهي لغة هوازن ، وقرىء : أفلم يتبين .

(يستبشرون[8]) : يفرحون : والضمير عائد على قوم لوط لمّا سمعوا بذكر الأضياف أسرعوا إليه فرحين بغيتهم وحكاية لوط عليه السلام ، وكرره[8] في آل عمران ، لِذكر له من النعمة والفضل .

(يميز[9] الخبيثَ مِنَ الطيّب) : أي ما كان الله ليدعَ المؤمنين مختلطين بالمنافقين ، ولكنه ميّز هؤلاء من هؤلاء بما ظهر في غزوة أحد من الأقوال والأفعال التي تدلّ على الإيمان أو على النفاق ، « [9]وما كان الله ليُطلعكم » على

---

(١) آل عمران : ٧٨ (٢) آل عمران : ١٢٠

(٣) آل عمران : ١٢٧ (٤) التغابن : ٧ (٥) المائدة : ٣ (٦) يوسف : ٨٧

(٧) الرعد : ٣١ (٨) آل عمران : ١٧ ، ١٧١ (٩) آل عمران : ١٧٩

ما في القلوب من الإيمان أو النفاق ، أو يُطلعكم على ألّا تغلبون أو تُغلبون .

(يَفْقَهُونَ[1]) : يفهمون ، ولذا سمى الفقيه فقيها . وفي الحديث : ما أعطى المرءُ أفضل من حُسْنِ سَمْتٍ وفقهٍ في الدين . وانظر كيف عبّر عنهم تارة بالفهم ، وتارة بالعقل ، وتارة بالهداية ، وعن الكفار بضدّها ؛ وكلّها ألفاظٌ بمعنى واحد .

(يَشْتَرُونَ[2] الضَّلَالَةَ) : عبارة عن إيثارهم الكفرَ على الإيمان ، فالشراءُ مجاز ، كقوله تعالى : « اشْتَرَوا[3] الضلالةَ بالهُدَى » . وفي تكرار قوله : « وكَفَى[4] بالله وَليا ، وكفى بالله نصيرا » — مبالغة .

(يَشْرُونَ[5]) : يبيعون ، ومنه : « ومِنَ[6] الناسِ مَنْ يَشرِي نَفْسَه » .

(يَسْتَنْبِطُونَه[7] منهم) : أي من المسلمين . والمعنى لو ترك هؤلاء القوم الكلامَ بذلك الأَمْرِ الذي بلغهم وردُّوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر منهم ؛ فمنهم على هذا لابتداء الغاية ، وهو يتعلق بالفعل ؛ والضمير المجرور يعود على الرسول وأولى الأمر . وقيل : إن الذين يستنبطونه هم أولو الأمر ؛ كما جاء في الحديث عن عمر رضى الله عنه - أنه سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه فدخل عليه ، فقال : أطَلَّقْتَ نساءَك ؟ قال : لا ، فقام

---

(١) النساء : ٨٧ وغيرها (٢) النساء : ٤٤ (٣) البقرة : ١٦

(٤) النساء : ٤٥ (٥) النساء : ٧٤ (٦) البقرة : ٢٠٧

(٧) النساء : ٨٣

على باب المسجد ، فقال : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يُطَلِّق نساءه ، فأنزل اللهُ هذه القصة ؛ قال : وأنا الذي استنبطته ، فعلى هذا الذين يستنبطونه هم أولو الأمر . والضمير المجرور عائد عليهم ، ومنهم لبيان الجنس ، واستنباطُهم على هـــذا هو سؤالهم عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بالنظر والبَحْث ، واستنباطه على التأويل الأول هو سؤال الذين أذاعوه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأولي الأمر .

(يَأْلَمُونَ[1]) ؛ أي يصيبهم ألَمٌ مِنْ قتالكم ، ومعناها التحريض على قتالهم ، لأنهم يتألمون من مُلاقاتكم ، ومع ذلك فإنكم تَرْجُون إذا قاتلتموهم النصر في الدنيا والأَجْرَ في الآخرة ؛ وهذا كقوله تعالى : « قُلْ[2] هل تَرَبَّصُون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نَتَرَبَّصُ بكم أنْ يُصيبكم الله بعذابٍ من من عنده أو بأيدينا » .

(يَتِيهُونَ[3] في الأرض) ؛ [٢٠٠ ا] أي في أرض التّيه ، وقد قدمنا أنها بين مصر والشام ، وكانوا يسيرون النهارَ والليل ، ويجدون أنفسهم في الموضع الذي ارتحلوا منه مساءً وصباحا عقوبةً لهم على ما صدر منهم .

(يَسْتَفْتُونَكَ[4]) ؛ أي يسألونكَ عن الحكم الشرعي على وَجْه النظر . والمستفتي هو المستخبِرُ عن الحكم الشرعي على غير وَجه النظر ، فكلُّ مستفتٍ مستخبر ، وليس كل مستَخْبِر مستفتيا ؛ لأن السائل على وَجْه النظر مستخبر ، وليس بمستفتٍ في عُرف الفقهاء .

(يَعْصِمُكَ[5] من الناس) ؛ أي يحفظك ؛ وفي هذا وعْدٌ وضمان لعصمةِ

---

(١) النساء : ١٠٤ (٢) التوبة : ٥٢ (٣) المائدة : ٢٦
(٤) النساء : ١٢٧ (٥) المائدة : ٦٧

رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان يحترس من أعدائه، فلما نزلَتْ أخرج رَأْسَه من البيت الذي كان فيه، وقال: اذهبوا فقد عصمني الله، فكلُّ ما أصيب به قبل نزول الآية، وأما بعد نزولها فلا؛ فالعصمةُ للأنبياء، والحفظ للأولياء.

(يَأَهْلَ[1] الكتابِ لستُمْ على شيء): من فَضْلِ هذه الأمة المحمدية أنَّ اللهَ خاطبهم بالإيمان، وخاطب أهلَ الكتاب بكتابهم؛ ففي الأولى جَمَعَ اللهُ أوصافَ المؤمنين ونعوتَهم ومعانيهم في هذا النداء، لأنه لم تَبْقَ حسنةٌ إلا دخلت تحته، وفي الثاني إهانة وتوبيخ؛ ألا ترى أنه قال لهم: «[1] لستم على شيء»؛ أي على دين يعتدُّ به حتى تقيموا التوراةَ والإنجيل، ومن إقامتها الإيمانُ بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: «وما[2] أُنزِلَ إليكم» قال ابن عباس: يعني القرآن، ونزلت الآية بسبب رافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، وسلام بن مشكم، وغيرهم من اليهود؛ جاءوا إلى رسولِ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إنا نتبع التوراةَ ولا نتبع غيرها، ولا نؤمن بك ولا نتبعك.

(يَنْعِهِ[3])؛ أي يَنْضَج ويَطيب، والمعنى انظروا إلى ثمره أول مايخرج ضعيفا لا مَنفَعة فيه، ثم ينقل من حال إلى حال حتى يَيْنع.

(يَقْتَرِفُونَ[4]): يكتسبون.

(يَصَّعَّدُ[5] في السماء): أصله يتصعَّد، ومعناه أن مَنْ يريد الله ضلالة كأنما يحاول الصعود في السماء، وذلك غير ممكن، فكذلك يصعب عليه

---

(١) المائدة: ٦٨ (٢) المائدة: ٦٨ أيضا. (٣) الأنعام: ٩٩

(٤) الأنعام: ١٢٠ (٥) الأنعام: ١٢٥

الإيمان . وقرىء بالتخفيف . وأما : « إِلَيْهِ[1] يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » — فمعناه لا إله إلا الله ، واللفظُ يعمّ كلَّ ذكر ودعاء وتعليم علم ؛ فإنّ الله يقبله ويثيب عليه بفضله وكرمه ، وهذا معنى قوله : « والعَمَلُ[1] الصالح يَرْفَعُهُ » .

وقيل : إن ضمير الفاعل للكَلِم الطيب ، وضمير المفعول للعمل الصالح . والمعنى على هذا أنه لا يقبل العملَ إلا مِنْ موحّد . وقيل : إن ضمير الفاعل للعمل الصالح وضمير المفعول للكلم الطيب . والمعنى على هذا إنّ العمل الصالح هو الذى يقبلُ الكلام الطيب ، فلا يقبل الكلام إلا مَنْ له عمل صالح . روى هذا المعنى عن ابن عباس ، واستبعده ابنُ عطية ولم يصحّ عنه ، لأن اعتقادَ أهلِ السنة أنّ اللهَ يتقبّلُ مِنْ كل مسلم ؛ قال : وقد يستقيم بأن يتأول أن يزيد فى رفعه وحسن رفعه .

فإن قلت : آية قوله تعالى : « إنما[2] يتقبَّلُ اللهُ من المتقين » — تدل على قول ابن عباس .

والجواب : أنّ معنى المتقين يعنى الذين اتقوا الشركَ ؛ لأن التقوى على درجات ، كما قدمناه مرارا . فلا نُطيل بذكره . وقد قال[3] : « مَنْ يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يره ، ومَنْ يعمل مثقالَ ذَرَّة شرًّا يره » ، فلا السيئة تُبْطِل الحسنة ، ولا العكس ، على هذا يكونُ اعتقادُك لا على غيره .

(يَخُوضُونَ[4] فى آياتنا) : الضمير للكفار ، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن طعنوا فيه واستهزءُوا به ، فأمر اللهُ نبيّه بالإعراض عنهم حتى يحكمَ اللهُ فيهم بعدْله .

---

(١) فاطر : ١٠ (٢) المائدة : ٢٧ (٣) الزلزلة : ٧ ، ٨
(٤) الأنعام : ٦٨

(يَغْنَوْا[1] فيها) : يقيموا فيها ، أو ينزلوا مستغنين . والمغانى : المنازل ، واحدها مَغْنَى .

(يَذَرَكَ[2] وَآلِهَتَكَ) : معطوف على « ليفسدوا[2] » ، أو منصوب بإضمار أن بعد الواو . وقيل كان فرعون جعل للناس أصناما يعبدونها ، وجعل نفسه الإله الأكبر ، ولذلك قال : « أنا ربكم الأعلى » ، فآلهتك على هذا هى تلك الأصنام . وقرأ علىّ بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس : إلَاهتك ؛ أى عبادتك ، والتذلل لك .

(يُسْتَضْعَفُونَ[3]) : هم بنو إسرائيل استضعفوهم[4] قوم فرعون ، فجعلوهم خدما يمتهنونهم فى الخدمة ويُتعبونهم فى المناولة .

(يَعْرِشُونَ[3]) ؛ أى يبنون . وقيل الكروم وشبهها .

(يَعْدُونَ[5] فى السَّبْتِ) ، يعنى يتجاوزون حدّ الله فيهم [٣٠٠ ب] باصطيادهم الحوتَ .

(يَسْبِتُونَ[5]) ، يدَعُون العمل فيه . وبضم الياء يدخلون فى السبت .

(يَلْهَثْ[6]) : اللهث : تنفس بسرعة ، وتحريك أعضاء الفم ، وخروج اللسان ؛ وأكثر ما يعترى ذلك الحيوانات مع الحرّ والتعب ، وهو حالة دائمة للكلب ، ومَثّل[7] الله الذى انسلخ[7] من آياته بالكلب ؛ لأنه لا يعرفُ

---

(١) الأعراف : ٩٢ (٢) الأعراف : ١٢٧ (٣) الأعراف : ١٣٧

(٤) هذا بالأصلين . (٥) الأعراف : ١٦٣ (٦) الأعراف : ١٧٦

(٧) فى الأعراف : ١٧٥

قَدْرَ اللؤلؤ والياقوت ، بل يعرف الجِيَف والقذرات المُنْتِنة ، وبلعام لم يعرف قَدْرَ ما أعطاه الله ، فسُلب ؛ وفى هذا من الإشارة لك ياعمدى مايُذْهِل العقول فى كونك أكرمك الله بآياته ، وفضَّلك على كثير من مخلوقاته ، فأعرضتَ عنها ، واشتغلت بالجيفة المنتنة التى قال فيها الصادقُ المصدوق : الدنيا جيفة وطُلَّابها كلاب ؛ وإن أعرضت عنها فى بعض أوقاتك فما أسرع نَـكْث العهد فى رجوعك إليها ، أما سمعتَ قول الصادق المصدوق : نحن أمةٌ ليس لنا مثل السوء العائد فى هيبته كالكلب يعود فى قيئه . فافهم إن كنت ذا فَهْم . والسلام .

ووَجْهُ تشبيه ذلك الرجل به أنه إنْ وعظْتَه فهو ضالّ ، وإن لم تَعظْه فهو ضالّ ، فضلالَتُهُ على كل حال ، كما أنّ لهث الكلب على كل حال .

وقيل : إن ذلك الرجل خرج لسانُه على صدره ، فصار مِثْلَ الكلب فى صورته ولهثه حقيقة ؛ وهذه حالُنا لولا أن مَنَّ الله علينا بنبى عظيم يشفع فينا لكنا أعظم من هذا ، وكيف لا وفِعْلُنا أعظم ، وجرائمنا أجسم ، لكن سيئات المحبوب حسنات ، اللهم كما سترتها علينا بجاهه عندك استُرْها علينا فى الآخرة .

(يمشون[1] بها) : أخبر اللهُ بهذه الآية عن اعتراف المشركين أنّ أصنامَهم لا تمشى ولا تَبْطش ولا تسمع ولا تُبْصر ؛ فقال لهم : كيف تعبدونها ، وبيّن بها كفرهم وإعراضهم عن عبادة المتصف بالسمع والبصر والقدرة والإرادة ، فتعالى الله الملك الحقُّ لا إله إلا هو .

---

(١) الأعراف : ١٩٥

(يَتَولَّى[1] الصَّالِحِين) فى أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم ، ومَنْ كان لله كان الله له ، ومَنْ راقب يراقب ، ومَنْ غفل غفل عنه . أنْتَ تريد وهو يريد ؛ فإنْ تركتَ مرادَك لمراده أنالَكَ ماتريد ، كيف تطلب خرق العوائد وأنتَ لم تخرق من نفسك العوائد .

(يَنزغنَّكَ[2] من الشيطان نَزْغٌ) : قد قدمنا أنَّ الخطاب بهذا لأمته ، إذ الإجماعُ على عصمته ، ونَزْغ الشيطان : وَسْوسته ، والأمر بالمعاصى ، وتحريك الغضب ؛ وفى هذا من التعليم لأمته بوجوده صلى الله عليه وسلم ما يعجزُ اللسانُ عن شكره ، وكيف لاوقد بَيَّن لنا صلى الله عليه وسلم كيفيةَ الفعل إذا أعترَانا هذا اللعين بقوله : إن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فليضطجع ، ويستعيذ بالله من شره . وفى حديث آخر لما رأى رجلا اشتدَّ غضبُه ، فقال صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجدُ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وقد وَفَّق اللهُ بعضَ هذه الأمة لكظم الغيظ ، وعفوهم عمن ظلمهم ، لو ذكرنا ذلك لطال ذكرهم ، كالذى كان يناول طعاما لسيده فعثر ووقعت الصحفة من يده ، فقتل ابنَ سيده ، فدهش ، فقال له السيد : لا رَوْع عليك ! فقال الغلام : « والكاظمين[3] الغيظَ » . قال : قد كظمْتُه . فقال الغلام : « والعافين[3] عن الناس » . فقال : قد عفوت . قال الغلام : « والله[3] يحبُّ المُحْسنين » فقال : قد أحسنتُ إليك . اذهب فقد زوَّجتك ابنتى .

وآخر دخل على فرسه الذى كان يركبه ؛ فوجده على ثلاث قوائم ؛ فقال : مَنْ فعل هذا ؟ فقال له الغلام : أنا . قال : ما الذى حملكَ على ذلك ؟ قال :

---

(١) الأعراف : ١٩٦ (٢) الأعراف : ٢٠٠ (٣) آل عمران : ١٣٤

أردتَ أن أعتِقك . فقال : لأعتِقنَّ الذى أمركَ بذلك . اذهب فأنتَ حُرٌّ لوجه الله .

هكذا فلتكن حالُك إن أردتَ اللحوقَ بهم ، وإلا ظنَّ مباينةَ حالك لحالهم ، هؤلاء يملأ اللهُ قبورهم نورا ، كما ملأها فى الدنيا إيمانا ؛ وأما نحن فلا ندرى ما نصير إليه لما نحن فيه من غلبة النفس والهوى والشيطان .

(يَمُدُّونَهم[1] فى الغَىِّ ثم لا يُقصِرُون) : قرىء بضم الياء وفتحها ، ومعناها لا يقصر الشيطان على إمداد إخوانهم من الكفار ، أو لا يقصر الكفار عن غَيِّهم .

(يَسألُونَكَ[2] عن الأنفال) : يعنى أن الصحابة يوم بَدْرٍ كانوا على ثلاث فرق : فرقة مع النبى صلى الله عليه وسلم تحرسُه وتؤنسه ، وفرقة تبعَتْ المشركين تقاتلهم ، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدوّ وعسكره لما انهزموا ، فلما انجلت [٣٠١ ا] الحَرْبُ ونَصرَ اللهُ نبيه رأت كلُّ فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها ، واختلفوا فيما بينهم ، فنزلت الآية : إن الأنفال ، وهى الغنيمة ، لله ورسوله . وقيل الأنفال هنا ما ينفله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادة على حظه ، فأعطاهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم ماغنموا وقسمها بينهم ، وفى بعض الغزوات قال لهم : لى منكم الخُمس ، وهو مردود عليكم لزُهْدِه صلى الله عليه وسلم وإيثاره الصحابة عليه . وقد اختلف الفقهاء : هل يكون هذا النفل الذى يُعطيه الإمام من الخمس ، وهو قول مالك ، أو من الأربعة أخماس ، أو من رأس الغنيمة قبل إخراج الخمس .

---

(١) الأعراف : ٢٠٢ (٢) الأنفال : ١

(يَحُولُ[1] بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه) : قيل يُميته . وقيل يصرفُ قلبَه حيث شاء ، فينقلب من الإيمان إلى الكفر ، وشبه ذلك ، ولذلك كان المعصوم صلى الله عليه وسلم يقول فى كل صباح ومساء : اللهم يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يتقلَّب ويدعو لأمته ويسأله ثباتَهم . وفى الحديث : القلبُ بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء ، يعنى أصابع القدرة والإرادة لا أصابع الجارحة . وقيل لبعضهم : بِمَ عرفْتَ ربَّك ؟ قال : بنقض العزائم ، عزمت فنقض عزمى ، وهممت فنقض همى ، فعلمت أنّ لى ربا يدَبِّر أمرى .

(يُرِيدُونَ[2] أنْ يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بأفواههم ويَأْبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمّ نورَه) : نورُ الله هُداه الصادر عن القرآن والشرع المنبث فى قلوب الناس ، فمن حيث سمّاه نُورا سمّى محاولة إفساده والصدّ فى وجهه إطفاء . وقالت فرقة : النور القرآن . وقوله : « بأفواههم » عبارة عن قلةِ حيلتهم وضَعْفها ، أخبر عنهم أنهم يحاولون مقاومةَ أمر جسيم بعمل ضعيف ، فكان الإطفاء بنفخ الأفواه .

ويحتمل أن يُراد بأقوال لا برهان عليها ، فهى لا تتجاوز الأفواه إلى فَهْم سامع . وقوله : « ويأبى » إيجاب يقعُ بعده أحيانا « إلاّ » ، وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفى ؛ لأن التقدير ولا يريد الله إلا أنْ يُتِمّ نورَه . وقال الفراء : هو إيجاب فيه ضرب من النفى . وردّ الزجاج على هذه العبارة ، وبيانُه ما قلناه .

---

(١) الأنفال : ٢٤ (٢) التوبة : ٣٢

فإن قلت : ما حكمة زيادة آية براءة [1] على آية الصف [2] ، واختلاف العبارتين ؟

والجواب : ناسب زيادة براءة ما ورد من الطول المحكي فيها من قول الطائفتين من اليهود والنصارى : « وقالت[1] اليهودُ عُزَيرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله » . وأما آيةُ الصف فقابل بها قول عيسى عليه السلام : «[2] يابنى إسرائيل إنى رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً » ، ثم قال تعالى : « فلما[2] جاءهم بالبيِّناتِ قالوا هذا سِحْرٌ مبين » ، وليس هذا فى الطول وعِدّة الكلم كالمحكيّ فى سورة براءة ؛ ألا ترى أنّ الواقع فى براءة ست كلمات ، وفى الصف ثلاث كلمات ، والقائل طائفةٌ واحدة . وهذا مراعى .

(يعلَمُ[3] إنهم لكاذبون) : ضمير الجماعة يعود على المنافقين الذين يحلفون : « لو[3] استَطَعْنا لخرَجْنا معكم » ، فأخبر الله رسولَه بكذبهم ، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ، ولكن تركوه كفرا ونفاقا ؛ وهذا كلّه فى الجملة لا بتعيّن شخص ، ولو عُيِّن لقُتِل بالشرع . وانظر كيف عبَّر هنا بالعلم بخلاف الآية بعدها . وفى الحشر والمنافقين لأنّ الاستطاعةَ وعدمها حكمٌ لا يطّلع عليه فى الغالب ، بل ينفرد كلٌّ بحاله فى ذلك ، إلا أنْ يعلم ذلك بقرينة ، فقول المنافقين فى إخبار الله تعالى عنهم : « لو[3] استَطَعْنا لخرَجْنا معكم » غير مشاهد من ظاهرهم ، فقد كان يمكن صدقهم أو صدق بعضهم لولا أنّه سبحانه أعلم بحالهم ، فناسب التعين بالعلم .

(يَرْكُمَهُ[4] جميعا) ؛ أى يضمّه ويجعل بعضه فوق بعض .

---

(١) التوبة : ٣٠ (٢) الصف : ٦ (٣) التوبة : ٤٢
(٤) الأنفال : ٣٧

(يوم[١] يُحْمَى عليها) : الضمير يعود على ما يعود عليه ضمير « ينفقونها[٢] » ، والعاملُ في الظرف « أليم[٣] » ، أو محذوف . فانظر ما أوعد الله للمُمسك ماله ولا ينفقه . وقد أخبرنا اللهُ بعذابه في آياتٍ من كتابه ؛ كقوله تعالى[٤] : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » . « وأمَّا[٥] مَنْ أُوتى كتابه بشماله . . . » إلى قوله : [٣٠١ ب] « ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكين » . « ما[٦] سَلَكَكُم في سَقَر ؟ قالوا لم نَكُ من المصلِّين . ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين » . « كلا[٧] إنها لَظى . نَزّاعةً للشَّوَى . . . » إلى قوله : « جمع فأوعى » . وأكرم الله المُنفق بخمس كرامات : جعل الصدقة تقعُ في يده قبل وقوعها في يد السَّائل ، فيربيها له كما يربِّي أحدكم فِلْوَه[٨] أو فَصيله ، وتكون وقايته من المكاره ، كما صحَّ أن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء ، يعني في الدنيا والآخرة ، لقوله عليه السلام : داوُوا مرضاكم بالصدقة . وتحرس المال ، للحديث : حَصِّنُوا أموالكم بالزكاة ، وتطهِّره لقوله سبحانه[٩] : خُذْ من أموالِهم صدقةً تطهِّرُهم وتزكِّيهم » . هذا مع ما فيها من الخلف والبركة ، والكلام عليها طويل جدا .

(يُحِلُّونَه[١٠] عاماً ويُحَرِّمُونه عاماً) ؛ أي تارة يحلُّون وتارة يحرمون ، ولم يُرِدِ العامَ حقيقة ؛ إذ كانت أحوالُهم مختلفة .

---

(١) التوبة : ٣٥

(٢) في الآية ٣٤ : ولا ينفقونها في سبيل الله .

(٣) التوبة : ٣٤ (٤) الهمزة : ١ (٥) الحاقة : ٢٥ ـ ٣٤

(٦) المدثر : ٤٢ ـ ٤٤ (٧) المعارج : ١٥ ـ ١٨ (٨) الفلو : المهر، والأنثى فلوة.

(٩) التوبة : ١٠٣ (١٠) التوبة : ٣٧

(يُهْلِكون(١) أنفسهم) : الضمير يعود على المنافقين ، لأنهم كانوا يستعذرون بالأعذار الكاذبة والأيمان الباطلة .

(يَفْرَقون(٢)) : من الفَرَق وهو الخوف .

(يَجِدُون(٣) ملْجَأً) ؛ أي يلجئون إلى موضع من المواضع التي تمنعهم من رؤية رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

(يَكْنِزُون(٤) الذهَبَ والفِضّةَ) : ورد في الحديث : "كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز ، وما لم تؤدّ زكاته فهو كنز". وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد : كلّ ما فضَلَ عن حاجةِ الإنسان فهو كنز . وقوله هذا أفضى به إلى الخروج من الشام ومن المدينة حتى لحق بالرَّبذة ، فمات بها ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : "من أراد أن ينظر إلى زُهد عيسى فلينظر إلى أبي ذَر رضي الله عنه".

(يضَاهِئُون(٥) قَوْلَ الذين كفَرُوا من قَبْل) ؛ أي يشابهون ، فإنْ كان الضمير لليهود والنصارى فالإشارة بقوله : « الذين كفروا من قبْل » للمشركين من العرب ؛ إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وهم أول كافر . وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم : المتقدمون .

(يَلْمِزك(٦) في الصّدقاتِ) ؛ أي يَعيبك على قسمتها ، وذلك أنّ المنافقين كانو يقولون : يعطِي مَنْ أحبّ من أصحابه ، ويمنعنا . وقيل هي في الذي قال : اعدل يا محمد ؛ فإنكَ لم تعدل .

---

(١) التوبة : ٤٢ (٢) التوبة : ٥٦ (٣) التوبة : ٥٧
(٤) التوبة : ٣٤ (٥) التوبة : ٣٠ (٦) التوبة : ٥٨

(يُؤْمِنُ[1] بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) ، هذا من أوصافه صلى الله عليه وسلم ، يقال : أمنت لك إذا صدقتك ، ولذلك تعدّى هذا الفعل باللام ، وتعدّى يؤمن بالله بالباء .

([2]يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ) : الضمير فى عليهم وتُنَبِّئُهُم وقلوبهم عائد على المنافقين ، يعنى أنهم كانوا يخافون أن ينزل فى شأنهم سورة على النبى صلى الله عليه وسلم تُخْبِره بما فى ضمائرهم من النقص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، وذلك على جهة الاستهزاء والسخرية . وقال الزمخشرى: إن الضمائر فى عليهم وتنبئهم للمؤمنين ، وفى قلوبهم للمنافقين ؛ والأول أظهر .

([3]فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ) : فتح الله فى هذه الآية بابَ التوبة للمنافقين ، فتاب منهم الجُلَاس ، وحَسُنَ إسلامه بفَضْل الله عليه .

([4] يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) : الضمير للمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يستخفّون بالمسلمين الذين يتصدّقون بما يجدون ويقولون : إن الله غنىّ عن صدقةِ هذا .

([5] يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ) : يعنى أنهم كانوا يؤذون رسولَ الله صلى عليه وسلم بقولهم : إنه يسمعُ فيهم أصحابَه إذا أخبروه بعدواتهم لهم . فردّ الله بقوله : « [5] قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ » ، لأنه يصفح عنكم ولا يؤاخذكم بأقوالكم ، ولو لم يسمع فيكم لاستأصلكم . وقد كان بعضُ الصحابة يستأذن

---

(١) التوبة : ٦١ (٢) التوبة : ٦٤ (٣) التوبة : ٧٤

(٤) التوبة : ٧٩ (٥) التوبة : ٦١

فى قَتْل بعضهم ، فيقول : أو يتحدث أنّ محمداً يقتلُ أصحابه .

((١) يَقْبِضُونَ أيديهم) : كناية عن بُخْلهم وعدم إنفاقهم ، فى طاعةِ الله ورسوله .

((٢) يُفْتَنُون فى كلِّ عام مرة أو مرتين) ؛ أى يُمْتَحنون بالأمراض والجوع . وقيل بالأمر بالجهاد . واختار ابنُ عطية أن يكون المعنى : يفضحون بما يكشف من سَرَائِرِهم .

((٣) يرَاكُمْ مِنْ أحَدٍ) : كان سبب خوفهم أنْ ينقل عنهم كذبُهم، فكان ينظر بعضُهم إلى بعض ، ويقول : إياكم أن يُنْقَل عنكم [١٣٠٢] هذا الاستخفافُ . وقيل : كان ينظر بعضهم إلى بعض على وجه التعجّب ومِمّا ينزل فى القرآن مِنْ كشْف أسرارهم .

((٤) وَيَهْدِى مَنْ يشاء) : قد قدمنا أنّ الله تعالى عَمَّ الدعوة وخَصَّ الهداية ، إذ ما كلُّ مدعوٍّ داخلٌ ، ولا كلّ مُضِلٍ مقيم ، واحد قاعد عند الباب ينتظر الدخول ولم يدخل ، وآخر وجد الباب مفتوحاً فدخل .

((٥) يَبْدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيده) : فى هذه الآية احتجاجٌ على الكفار بأنّ شركاءهم لا يقدرون على بدء الخَلْق ولا عَوْده .

فإن قلت : كيف يحتجّ عليهم بإعادة الخَلْق وهم غير معترفين به ؟

فالجواب أنهم معترفون أنّ شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة ، ففى ذلك إبطال لهم ولربوبيتهم ، فوضعت الإعادة عليه موضع

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) التوبة : ١٢٦ (٣) التوبة : ١٢٧

(٤) إبراهيم : ٤ ، والنحل : ٩٣ (٥) يونس : ٤

المتفق عليه لوضوح بُرْهانها .

([1]يَهِدِّى) ، بتشديد الدال : معناه لا يهتدى فى نفسه ، فكيف يهدى غيره . وقرىء بالتخفيف بمعنى يهدى غيره . والقراءةُ الأولى أبلغ فى الاحتجاج .

([2] يأتِهم تأويلُه) : الوعيد الذى فى القرآن لهم .

([3] يلبثوا إلا ساعةً من النهار) : تقليل لمدة بقائهم فى الدنيا أو فى القبور .

([3] يتعارَفُون بينهم) : يعنى يوم الحشر ، فهو على هذا حالٌ من الضمير فى يلبثوا .

([4]يستَنْبِئُونك) ؛ أى يسألونك عن الوعيد والدين والشرع : أحقٌّ هو ؟ فأمره الله بأن يقول : « [4] إى وربّى إنه لحقّ وما أنتم بمُعجِزين » .

([5]يَرْهَقُ) : يغشى .

([6]يوم القيامة :) ظرف منصوب بالظرف . والمعنى أى شىء يظنون أن يفعل بهم فى ذلك اليوم .

([7]يَعزُبُ عن ربّك مِنْ مثقالِ ذَرّةٍ فى الأرض ولا فى السماء) ؛ أى لا يَغيب عن علم الله مثقال ذرة . وقد قدمنا أن الذّرة صغار النمل أو بيضها .

---

(١) يونس : ٣٥ (٢) يونس : ٣٩ (٣) يونس : ٤٥

(٤) يونس : ٥٣ (٥) يونس : ٢٦ (٦) يونس : ٦٠

(٧) يونس : ٦١

فإن قلت : ما فائدة تقديم الأرض على السماء فى آية يونس بخلاف سبأ[1] ؟

والجواب لأن الشهادة على أهل الأرض ، وقُدمت السماء فى سبأ لأنّ حقّها التقديم ، لأنها مصعد الأمر ، ومحلّ العلو ، ومسكن الملائكة ، وهى مشاهدة لهم ، ومستقبل الداعين ، ومنها ينزل الأمر ، ورزق العباد ، وفيها الخزَنَة من الملائكة ، وإليها يُصعد بأرواح المؤمنين ، وتعرج الملائكة السياحون فى الأرض المسئولون عَنْ أعمال العباد ؛ فكان العلمُ بما فيها أجلى وأظهر ، وكان العلم بما فى الأرض أخفى ، وهذا بالنظر إلينا ، وبحسب متعارَفِ أحوالنا ، وإلا فعلم بارئنا سبحانه بما فى الأرض وما فى السماء على حدّ سواء ، كما أن علمه بالسر والجهر مستوٍ : « سواءٌ[2] منكم مَنْ أَسَرَّ القولَ ومَنْ جَهَرَ به » .

([3] يُمَتِّعْكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمّى ، ويُؤْتِ كلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَه) ؛ أى ينفعكم فى الدنيا بالأرزاق والنعم والخيرات . وقيل : هو طيب عيش المؤمن برجائه فى الله ورضاه بقضائه ؛ لأن الكافر يتمتعُ فى الدنيا بالأرزاق ؛ والضمير فى « فَضْلَه » يحتمل أن يعود على الله تعالى أو على ذِى فَضل .

([4] يَثْنُونَ صدُورَهم ليستخفوا منه ألا حين . . .) الضمير للكفار ؛ وذلك أنهم كانوا إذا لقيهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يردون إليه ظهورهم لئلا يَرَوْنَه من شدة البغض والعداوة . والضمير فى « منه » على هذا يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن ذلك عبارة على ما تنطوى عليه

---

(١) سبأ : ٣ (٢) الرعد : ١٠ (٣) هود : ٣ (٤) هود : ٥

صدورهم من البُغْض والغل . وقيل : هو عبارة عن إعراضهم ؛ لأن من أعرض عن شيء أثنى عليه الخوف . والضمير فى « منه » على هذا يعود على الله تعالى ؛ أى يريدون أن يستخفوا على الله ، فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ما فى قلوبهم .

([1] يستَغْشُونَ ثيابَهم) ؛ أى يجعلونها أغشيةً وأغطية ، كراهةً لاستماع القرآن . والعاملُ فى « حين » « يَعْلَمَ ما يُسِرُّونَ وما يعلنون[1] » . وقيل : المعنى يريدون أن يستخفوا حين يستغشون ثيابهم ، فيوقف عليه على « هذا » ، ويكون « يعلم » استئنافا .

(يكونوا[2] مُعْجزين) ؛ أى مُفْلتين .

([2] يضاعف لهم العَذابُ) : إخبار عن تشديد عذابهم ، وليس بصفة لأولياء .

([3] يَئُوس) : فعول ، من يئستُ ، وأخبر الله فى هذه الآية أن الإنسان يَقْنَط عند الشدائد ، ويفخر ويتكبَّر عند النعم .

([4] يُجادِلنا فى قَوْمِ لوط) : معنى جدال إبراهيم مع الملائكة فى رَفْع العذاب عن قوم لوط ، لأن الله [٣٠٢] وصفه بالحلم والرحمة

([5] يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هذا) : الضمير للجدال . أمره الله أن يسكتَ عنهم ، لأن القضاء نفذ بعذابهم .

([6] يَقْدُمُ قومَه يَوْمَ القيامة) : الضمير لفرعون ، يعنى أنه يتقدمهم إلى النار ، وقد قدمنا أنّ كل طائفة تتبعُ ما كانت تعبد ، ويعقد لكل صاحب

---

(١) هود : ٥ (٢) هود : ٢٠ (٣) هود : ٩
(٤) هود : ٧٤ (٥) هود : ٧٦ (٦) هود : ٩٨

خصلة لواء فيتبعونه[1] مَنْ كان يفعل فعله في الدنيا .

([2]يَوْمٌ مجموعٌ له الناسُ ؛ وذلك يومٌ مشهود) ؛ أى يحضره الأولون والآخرون ، ويحصون الحسنات والثواب والعقاب ، وإنما عَبّر باسم المفعول دون الفعل ليدلّ على ثبوت الجمع ذلك اليوم ، لأنّ لفظَ مجموع من لفظ يجمع .

([3]يوم يأتِ) : العامل فى الظرف « لا تَـكلّم » أو مضمر ، وفاعل يأتِ ضمير يعود على يوم مشهود . وقال الزمخشرى : يعود على الله تعالى كقوله : « أو يأتى ربُّك » . ويعضده عَوْد الضمير عليه فى قوله : « [3]بإذنه » .

([4]يا أبتِ) أى يا أبى ، والتاء للمبالغة . وقيل للتأنيث . وكُسرت دلالة على ياء المتكلم ، والتاء عوض من ياء المتكلم . ودَعَا يوسف أباه باسم الأبوة ولم يَدْعُه باسمه ؛ لأن مَنْ دعا أباه باسمه غلط ، فكيف بمن جفاه ، وقد أمرك الله أنْ تعاملَ أباك بمعاملتك مع الرسول ؛ قال تعالى : « [5]لا تجعلوا دعاءَ الرسولِ بينكم كدعاءِ بعضِكم بعضاً . . . » الآية . وقال : ([6]لا ترفعوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبي » ؛ وهو كان أباك فى الدين ، وكذلك عدلك مع أبى النسب ، كما علمك المعاملة مع أبى الدين . ويوسف قال : يا أبت — اقتدى فيه بجدّه إبراهيم ؛ لأنه دعا أباه الكافر باسم الأبوة ، والله تعالى أعطاك أبوين مؤمنين ، أنت أولى بتحليتهما ؛ فإن الله تعالى أعطى خليله وحبيبه أبوين كافرين ، وكان يتحلاّهما وأنتَ يا عَبْدَ الله تلحق بأبويك وتدخل معهما الفردوس الأعلى ؛ قال تعالى :

---

(١) هذا بالأصول . (٢) هود : ١٠٣ (٣) هود : ١٠٥
(٤) يوسف : ٤ (٥) النور : ٦٣ (٦) الحجرات : ٢

« (١)ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم » .

((٢)يَخْلُ لكم وَجْه أبيكم) : إخوة يوسف طلبوا ألاّ يشاركهم أحد في محبّته لهم وإقباله عليهم ، فلما رأوه مال إلى يوسف دونهم وصلتهم الغيرة ، والحبيب يغير على حبيبه ، وأنتَ يا عبد الله إن طلبت الخَلْوَة مع غير مولاك تضيق عليك المسالك ؛ لأنه سبحانه غيور لا يطلع على عبده ، فيجد فيه غيرة . قال تعالى : إن طلبتني أخْدمتك المسكونات ، وإن طلبت غيرى أعوزتها عليك ، ولا يكون لكَ إلا ما أريد .

((٣) يلتقطْهُ بَعْض السَّيارة) : السيارة جمع . وهم القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة وغيرها ، ومنه قولهم : لقيته التقاطا ، ووردت الماء التقاطا : إذا لم ترده .

((٤) يَعْصِرون) ؛ أي يعصرون الزيتون والعنب والسمسم وغير ذلك مما يعصر .

((٥) يا بَنِيّ لا تدخُلوا من بابٍ واحدٍ) : خاف يعقوب على أولاده من العين إن دخلوا مجتمعين ؛ إذ كانوا أهل جمَال وهَيْبة ، ويؤخذ من هذا الحذر ، والحذَر لا يُغنى من القدر ، ولكن الله أمر بالتحرز مما يخاف منه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : المؤمن كَيِّس حذر . وفي رواية : الحزْم سوءُ الظن .

((٦) يدَبِّر الأمْــــرَ يفَصِّلُ الآياتِ) : يعني أمر الملكوت وآيات كتبه .

---

(١) الرعد : ٢٣ (٢) يوسف : ٩ (٣) يوسف : ١٠
(٤) يوسف : ٤٩ (٥) يوسف : ٦٧ (٦) الرعد : ٢

([1]يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ) ؛ أي يلبسه فيصير له كالغشاء ، فيصير أسود مظلما ، كما كان أبيض مشرقا .

والأول فاعل في المعنى ، وهو على إضمار فعل ؛ أي ويغشي النهار الليل . ويحتمل أنْ يراد في الآية الزمان الذي بين الفجر وطلوع الشمس على القول بأنه من النهار ؛ فهو إشارةٌ إلى أن الليل يخالط النهار في ذلك الزمان ، ولذلك اختلفوا هل من الليل أو من النهار أو قسم ثالث قائم بنفسه ؟ فقيل الكلام في ذلك الزمان باعتبار الشرع ، وفي الآية باعتبار اللغة .

([2]يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمده والملائكةُ من خيفته ، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ) : قد قدمنا تسبيحَ الرعد وأنه يسبح الرعد من خيفته بحمده ، والملائكة بحمده من خيفته ، والصواعق النازلة من السماء عذابا لله شعلة يصيب بها من يشاء من عباده وخَلْقه .

([3]يُريكم البَرْقَ خَوْفا وطَمعاً) : نسب الرؤية للبرق والإنشاء للسحاب ، لأن الأشياء المرئية أسهلها على البصر السواد والخضرة ، وأصعبُها البياض الساطع ، فنحن نعجز عن مداوَمَةِ [١٣٠٣] النظر إليه . وانظر قوله : « [4]يكادُ سَنَا بَرْقِهِ يذهَبُ بالأبصار » . وأما السحاب فجِرْم يقبل حدّا ، فالمنة التي فيه هي إبرازهُ من العدم إلى الوجود . وخوفا وطمعا حالان ، ويحتمل أن يكونا مفعولا من أجلهما ؛ إذْ ليسا عنده فعلين لفاعل الفعل المعلَّل في إن الله لم يخلق الشر ولا أراده ، ونحن نجيز ذلك ، ونقول : أراده

---

(١) الرعد : ٣ (٢) الرعد : ١٣ (٣) الرعد : ١٢
(٤) النور : ٤٣

وخلق فى قلوب بعضها الخوفَ منه ، وفى قلوب آخرين الطمعَ فيه ، والفرقُ بين إرادة الخوف وبين الخوف أنكَ تريد من زيد أن يخاف منك ولا تقدر على إيقاع ذلك به . الزمخشرى يخاف المطر مَنْ يضره كالمسافر ، ومن فى جرينه التمر والزبيب ، ومَن له بيت يقطر عليه ، ومن البلاد من يتضررُ أهلها بالمطر كأهل مصر ، فإنه يفسد عليهم أبنيتهم ونزولُ المطر فيها قليل جدا .

([1] يَضرِبُ الله الأمثالَ . للذين استجابُوا لربِّهم الحُسنَى) : انظر هل تارك الصلاة مستجيب لنُطقِه بالشهادتين والظاهرُ أنه مستجيب بالشهادتين فقط لا مطلقا .

([2] يَستَحِبُّون الحياةَ الدنيا) : أى يختارونها على الآخرة . والضمير عائد على الكفار ، ومَنْ تشبَّه بهم فى أفعالهم يخاف عليه من اللحوق بهم فى حُبِّه للدنيا وتفضيلها على الآخرة .

([3] يتَجرَّعُه ولا يَكادُ يُسيغُه) : الضمير يعود على مَنْ أُدخل النار ، يعنى أنه يتكلف جرعه ، ويصعبُ عليه إساغته ، يعنى بَلْعه ، ونَفْى « كاد » يقتضى وقوعَ الإساغة بعد جهد .

([4] يَقنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبّه إلا الضالُّون) : قرىء بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان . وفى هذه الآيةِ دليل على تحريم القُنوط ، ووصف القانط فى هذه الآية بالضلال ، وفى سورة يوسف بالكفر ، وكلاهما بمعنى واحد ؛ لأن سببه تكذيبُ الربوبية ، وجهل بصفات الله وقدرته ، وماذا يزيد فى ملكه أو ينقص تعذيب الخلق كلّهم أو رحمتهم .

---

(١) الرعد : ١٧ ، ١٨ (٢) إبراهيم : ٣ (٣) إبراهيم : ١٧
(٤) الحجر : ٥٦

([1]يَتَفَيَّأُ ظِلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله) : المقصود بهذه الآية الاعتبارُ والنظر ، ولذلك ابتدأها بقوله تعالى : « أو لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ الله من شيء » . والرؤية بصرية بسبب تعدِّيها بإلى ، كما قال تعالى : « [2]أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقت » ، والإنـكارُ ليس هو انفس الرؤية ، بل للازمها . وانظر هل وقع التوقيف بمجموع تفيئو الظلال وكونها سجّد الله ، أو بكونها سجّد الله فقط ؟ وهل قوله : يتفيأ ظلاله حال أو صفة ، ونظيره قولك : ألم آتِكَ بزيد العالم راكبا ، وقوله : ألم آتك بزيد عالما راكبا . والصوابُ الأول ، لأنّ نفيها أمر حسيّ مشاهد ، وكونها سجدا لله لايُدْرَك بالمشاهدة ، بل بالدليل العقلي . وعلى هذا التأويل تـكون الآية حجة لمن يقول : إنّ العرض لا وجودَ له . والمشهورُ عند المتـكلمين أنه أمر وجودي ، حكى القولين المقترح .

ووجهُ الدليل أنّ الآية دلّت على أنّ كل شيء مخلوق لله تعالى ؛ وأن ظله متفيأ ساجد لله تعالى ، والتفيؤ من صفات الأجرام والذوات ، والعَرض ليس بذات ، فليس بمخلوق لله تعالى ، وهذا كفر ؛ وإذا جعلنا يتفيأ صفة لشيء يكون المعنى إن كلّ شيء موصوفٌ بالتفيؤ ، فهو مخلوق لله ، فأنـكر عليهم عدمَ الاعتبار به حالَ سجوده ، وقوله يتفيأ ، أى يرجع إلى اليمين ؛ أى يريد يمين الناظر إليه لأن الناظر إلى الظل أو النهار ينظرُ إلى جهة القبلة ، حيث محلّ طلوع الشمس ، فيـكون الظلّ حينئذ عن يمينه ، فلذلك بدأ باليمين ، فالظلُّ يرجع عن جهة اليمين إلى جهة الشمال ؛ لأن «عن» تقتضي المجـــــاوزة ، فالمراد مجاوزَتُه جهةَ اليمين إلى جهة الشمال ، والعكس .

فإن قلت : لم أفرد اليمين وجمع الشمال ؟

---

(١) النحل : ٤٨ (٢) الغاشية : ١٧

فالجواب : بوجهين: الأول أنّ الظلّ حالة كونه عن يمين الناظر ، وذلك أول النهار ، يأخذ فى النقص ، فكانت له جهة واحدة نقص عنها ، وفى آخر النهار يأخذ فى الزيادة إلى الشمال والجهة التى طال ظله إليها لم تكن له قبل ذلك ، وكلما زاد بعد إلى جهة يسار الناظر ، فكأنّ تلك الزيادة بتكثّرها واختلافها شمائل ، بخلاف أول النهار فإنه لم يزدْ ، بل نقص عن حدّه الذى كان ، فصار كأنه بعض [٣٠٣ ب] اليمين ، فضلا عن أن يكون أيمان .

الوجه الثانى أنّ اليمين مأخوذ من اليمن ؛ وذلك راجع إلى طريق الحق ؛ والشمال راجع إلى طرق الباطل بدليل قوله تعالى: «(١) أصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين». «(٢) وأصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمال» . وطريقُ الحقّ واحدةٌ وطرقُ الباطل متعددة ، والآية دالةٌ على كمال التوحيد لله عزّ وجل ؛ لأن مذهبنا أنّ الأعراضَ لاتبقى زمانين ، فما مِنْ جوهر إلا وهو مفتقرٌ فى كلّ زمن إلى أعراض يستمد منها ، ولابدّ لذلك مِنْ فاعل ، ولا يصح تعدُّد ذلك الفاعل لما تقرّرَ فى دلالة التمانع .

فإن قلتَ : هلا قيل : أو لم يَرَوْا إلى ماخلق من شىء فقط ، ويكفى هذا فى الاعتبار ؛ فإنّ العبرةَ بالتفكر بالنظر إلى انقداح الشجرة التى فى رؤية العين : عود يابس ؛ وبروزُ الثمر منها والورق أقوى مِنَ العبرة بالنظر إلى ظلالها .

والجواب : أنّ الظلال إنما تنشأ عن ملاقاة نور جرم الشمس جرم الشجر الكثيف المظلم .

---

(١) الواقعة : ٢٧ (٢) الواقعة : ٤١

ومذهبنا أنَّ الأجسامَ متساويةٌ فى الحد والحقيقة ، فلا فَرْقَ بين الشمس والشجرة، فحجبت الشجرة بكثافتها وظلمتها نورَ الشمس، وما ذاكَ إلا لتخصيصٍ أوْجبه الله تعالى . ولا بدَّ لذلك من مخصِّص ، ويستحيل تعدُّده ، فدلَّ ذلك على أنه واحد .

قال الزمخشري : والسجودُ هنا الانقياد ، وجعله مُتَنَاوِلاً للعاقل وغيره، لأنه قال : أى يرجع الظلال من جانب إلى جانبٍ منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخَّرَها له من التفيؤ[1] ، والأجرامُ فى نفسها صاغرةٌ منقادة لأفعالِ الله فيها، وهذا مما يردُّ به على من قال : إن صيغة أفعل للقَدْرِ المشترك بين الوجوب والندب . ويقول : إن القَدْرَ المشترك لا وجودَ له فى كلام العرب ، مع أن الزمخشري أثبته هنا ، واستعار هنا الأيمان والشمائل لأنهما فى الحقيقة للانسان .

([2]يدُسُّه فى التُّراب) : المعنى يريد وينظر هل يمسكُ الأنثى التى بُشِّر بها على هوانٍ وذُلٍ ، أو يدفنها فى التراب حيَّةً ، وهى الموءودة المذكورة فى: « [3]إذا الشَّمْسُ كُوِّرَت » .

([4]يَجْحَدونَ) : يعنى أن هؤلاء الكفار يُنْكرون نِعَم اللهِ عليهم فى جَعْلهم أزواجا من أنفسهم زيادة فى لذَّاتهم ، وجعل للأنثى ما للذكر من الشهوة ، ليكمُلَ مرادُهم ، ورزقهم من الطيبات ، فهل يُنْكِرُ هذا إلا مَنْ طُبِع على قلبه ، لأنه يشاهدها .

---

(١) الكشاف : ١ ـ ٥٢٦

(٢) النحل : ٥٩ (٣) التكوير : ١ (٤) النحل : ٧١

فإن قلت : لِمَ جمعت حواء فى قوله تعالى : « (١)والله جعل لكم مِنْ أنفسكم أزواجاً » ؟

والجواب اعتبارا بنسلها ، وأطلق عليهم أزواجاً مجازا ، استعمالا للفظ فى حقيقته ومجازه .

((٢)يَكْبُرُ فى صدُورِكم) : يعنى السموات والأرض والجبال ، وقيل : بل أحال فكرتهم على ما هو كبير عندهم ؛ أى لو كنتم حجارةً أو حديداً أو شيئا أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة لقَدَرْنَا على بعثكم .

((٣)يَوْمَ يَدْعُوكم فتَسْتجيبُون بحَمْدِه) : الدعاء هنا عبارة عن النَّفْخ فى الصور للبعث ، والاستجابة عبارة عن قيامهم من القبور طائعين منقادين . وبحمده فى موضع الحال ؛ أى حامدين له . وقيل معنى بحمده أى بأمره .

((٤)يَنْقَضّ) : وزنه ينفعل . وقيل يفعل بالتشديد كيَحْمَرّ . ومعناه يسقط ، وإسناد الإرادة إلى الجدار مجاز . ومثلُ ذلك كثير فى كلام العرب ، وحقيقته أنه قارب أنْ ينقضّ .

((٥)يَظْهَرُوه) : الضمير يعود على السد ، ومعناه يعلوه .

((٦)يَفْرُط) : يُعجّل بالشر .

((٧)يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهم أنها تَسْعَى) : استدلّ بعضهم بهذه الآية على أنَّ السِّحْرَ تَخْيِيل لا حقيقة . وقال بعضهم : إن حِيَل السحرة فى سَعْيِ

---

(١) النحل : ٧٢ (٢) الإسراء : ٥١ (٣) الإسراء : ٥٢

(٤) الكهف : ٧٧ (٥) الكهف : ٩٧ (٦) طه : ٤٥

(٧) طه : ٦٦

الحبال والعصيّ هي أنها حشَوْها بالزئبق ، وأوقدوا تحتها نارا ، وغطّوا النارَ لئلا يراهاَ الناس ، ثم وضعوا عليها الحبال والعصيّ . وقيل جعلوها معرضة للشمس ، فلما أحس الزئبق بحرّ النار أو الشمس سالَ وهو في حَشْو الحبال والعصي فحملها ، فيُخيّل للناس أنّها تمشي . فألقى موسى عصاه فصارت ثعبانا ابتلعت ذلك كلَّه .

(١) يَبَسا) : أي يابسا ، وهو مصدر وُصِفَ به ، وإنما كان يابسا ليستطيعوا المرور عليه ويسرعوا(٢) فيه ، فيذهب روعهم مِنْ لحوقِ فرعون لهم . وأعظمُ من ذلك أنَّ الله فتح لهم في البحر طاقاتٍ ليرى مَنْ في هذا الطريق من في هذا ، فيتأنسُونَ [١٣٠٤] لأنها كانت اثنى عشر طريقا ، فسبحان مَنْ لا يُعْجزه شيء .

((٣) يتخافَتُون بَيْنَهم إن لبِثْتم إلاّ عَشْرا) : يعني عشر ليال . والضميرُ يعود على أهل القيامة فيُسِرُّ بعضهم إلى بعض ويقول : هل لبثتم إلا يوما . وقيل : يعني المُكْثَ في القبور . والذي قال : إن لبِثْتُم إلا يوما أعلمهم بقلّةِ المُكْثِ فيها . وفي الحقيقة فالدنيا والمُكْث في القبور كلَمْحِ البصر أو هو أقرب ، ولذلك يقول تعالى في آية أخرى : « (٤) كأنهم يَوْمَ يَرَوْنَ ما يوعَدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار » . فإنّا لله وإنا إليه راجعون على غَفْلتنا على ما يُراد بنا . الدنيا كلُّها ساعة ، وليس لك منها إلا النَّفَس الذي أنتَ فيه ، إذ كم مَنْ تنفَّس نَفَسا ففجأه الموت قبل النفس الآخر . وسيظهر لك تحقيقُ ذلك إذا انجَلَى الغبار .

---

(١) طه : ٧٧ (٢) في الأصلين : ويسرعون . (٣) طه : ١٠٣
(٤) الأحقاف : ٣٥

(١) (يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً) : أى يجعل الجبالَ كالغبار ثم يفرقها .

(٢) (يَمّ) : قد قدمنا أنَّ المرادَ به البَحْر بالسريانية . وقال ابن الجوزى بالعبرانية . وقال شيذلة بالقِبطية .

(٣) (يَرْكُضون) : الضمير يعود على الكفار ، والمعنى أنهم يوم القيامة يَرْكضون على أرجلهم تشبيها لهم بمَنْ يركض الدابّة .

فإن قلت : قد قدمتم أنهم يحشَرون على وجوههم ؟

فالجواب أنَّ الملائكة تسوقُهم بعصىً من نار ، فإذا رأوهم قاموا على أقدامهم يركضون فراراً منهم ، فتقول لهم الملائكة على وَجْه التهكم : لا تركضوا اليوم .

(٤) (يَدْمَغُه) : أى يَقْمَعه ويُبْطله . وأصله من إصابة الدماغ بالضرب ، وهو مقتل .

(٥) (يُنْشِرُون) : يعنى أنَّ الآلهة التى اتخذها المشركون لا يقدرون أنْ يَنْشُروا الموتى من الأرض ، فكيف تدعونها بالآلهة . والإله مَنْ له القدرةُ على الإحياء والإماتة .

(٦) (يَغوصونَ) : يعنى أن الشياطين كانت تدخل فى الماء لاستخراج الجَوْهر من البحار .

(٧) (يَنْسِلون) : أى يسرعون . ويقال مر الذئب ينسل ويعسل .

---

(١) طه : ١٠٥ (٢) طه : ٣٩ (٣) الأنبياء : ١٢ (٤) الأنبياء : ١٨
(٥) الأنبياء : ٢١ (٦) الأنبياء : ٨٢ (٧) الأنبياء : ٩٦

والضمير ليأجوج ومأجوج؛ أي يخرجون في كل طريق لكثرتهم . وقيل لجميع الناس .

([1]يُصْهَرُ بِهِ مافي بُطُونِهِم والجلودُ) ؛ أي يُذَاب ؛ وذلك أنّ الحميمَ إذا صُبَّ على رءوسهم وصَلَ حَرُّه إلى بطونهم ، فأذاب ما فيها . وقيل : معنى يُصْهَر ينضج بلسان أهل المغرب ، حكاه شيذلة .

([2]يَوْمٍ عَقِيمٍ) : يعني يوم بَدْر، لأنهم كانوا يظنون استئصالَ المسلمين؛ لأنّ الله قلّلهم في أعين الكفار . وقد حضر فيها صناديدُ المشركين وشُجْعانهم فأمكن الله منهم المسلمين ، وكان يوما عظيما ؛ لأنها كانت أول غزوة أرعب الله بها الكفار وأرغمهم .

([3]يكادون يَسْطُون) : من السطوة ، وهي سرعة البَطْش .

والضمير يعود على الذين كفروا . ويُعْرَف ذلك في وجوههم بعبوسها وإعراضها .

([4]يَجْأَرُون) ؛ أي يستغيثون ويصيحون . والضمير راجع على المأخوذين بالعذاب ، فإن أراد بهم قتالَ المتحرفين يوم بَدْر فالضميرُ في يجأرون لسائر قريش ؛ أي ناحوا على القتلى . وإن أراد بالعذاب شدائد الدنيا أو عذاب الآخرة فالضميرُ لجميعهم .

([5]يَأْتَلِ) ؛ أي يحلف ، فهو من قولك : آليتُ إذا حلفتُ . وقيل

---

(١) الحج : ٢٠

(٢) الحج : ٥٥ — (٣) الحج : ٧٢

(٤) المؤمنون : ٦٤ — (٥) النور : ٢٢

معناه: يقصر، فهو من قولك: ألوت، أى قصرت، ومنه: «[1] لا يَألُونكم خَبالاً».

ونزلت الآية بسبب مِسْطح، فإن أبا بكر كان يُنْفِق عليه، فلما وقع فى عائشة حلف ألاّ يُنفِقَ عليه، فعاتبه الله على عدم النفقة، وأمره بردّها. وهذه أرْجَى آية فى كتاب الله؛ لأن الله عاتب حبيبه على عدوّه، وأمره بالعفو عنه.

([2] يكاد زَيْتها يضيء ولو لم تَمْسَسْه نارٌ) : مبالغة فى وصف صفائه وحسنه.

([2] يهدى الله لنُورِه مَنْ يَشَاء) ، أى يوفّق الله مَنْ يشاء لإصابة الحق.

فهنيئا لكَ يا محمدى على هدايتك وتوفيقك. وكيف لا وقد سمّى الله الإيمانَ فى كتابه بنحو الثلاثين اسما؟ وهل ذلك إلا لعظمه؛ قال تعالى: «[3] اهْدِنا الصراط المستقيم». «[4] ذلك الدِّين القَيِّم». «[5] إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيّب». الكلمة الطيبة: مثل كلمةٍ طيبة، «قولا سديداً». «العُرْوة الوثقى». وكلمة الله [٣٠٤ ب] هى العليا. وجعلها كلمة باقية فى عَقبه، وألزمهم كلمةَ التَّقْوى، وقال صوابا «[6] إنّ الدِّين عند الله الإسلام». «[7] إن الله يأمُر بالعدل والإحسان». «[8] ولكن البِرّ من اتّقَى». «[9] من جاء بالحسنةِ». «[10] هل جَزَاءُ الإحسانِ إلا الإحسان». «[11] قُلْ أمر رَبّى بالقِسط». «[12] هو الذى أرسل رسولَه بالهدى، ودِينِ الحق».

---

(١) آل عمران: ١١٨ (٢) النور: ٣٥ (٣) الفاتحة: ٦ (٤) التوبة: ٣٦
(٥) فاطر: ١٠ (٦) آل عمران: ١٩ (٧) النحل: ٩٠ (٨) البقرة: ١٨٩
(٩) الأنعام: ١٦٠ (١٠) الرحمن: ٦٠ (١١) الأعراف: ٢٩
(١٢) التوبة: ٣٣

« (١) فِطرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناسَ عليها » . « (٢) صبغة الله » . « (٣) ملة أبيكم إبراهيم » . شهد الله .

((٤) يخافون أنْ يَحِيفَ اللهُ عليهم) : ضمير الفاعل يعود على الذين فى قلوبهم مرض . وضمير المفرد يعود على الله ؛ وإنما أسنده إلى الرسول ، لأنه يحكم بأمره وشرعه .

((٥) يَتَسَلَّلُون) : يخرجون من الجماعة واحداً واحداً ، كقولك : سللت كذا من كذا إذا أخرجته منه .

((٦) يقول : أأنتم أضلَلْتم عبادِى هؤلاء أمْ هُمْ ضَلُّوا السبيلَ) : القائل لذلك هو الله عز وجل ، والمخاطب المعبودون مع الله على العموم ، وقيل الأصنام خاصة .

والأول أرجح لقوله (٧) : « ثم يقولُ للملائكة أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون . وقوله : « (٨) أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُونى وأمى إلهين من دون الله » . و « أم » هنا معادلة لما قبلها . والمعنى أن الله تعالى يقول المعبودين : أأنتم أضللتموهم أم هم ضلّوا السبيل مِنْ تِلْقاء أنفسهم باختيارهم ، ولم تضلوهم أنتم ؟ ولأجل ذلك بيّن هذا المعنى بقوله : « هم » ليتحقق إسناد الضلال إليهم ، وإنما سألهم الله تعالى هذا السؤال مع عِلْمِه بالأمور ليوبّخ الكفارَ الذين عبدوهم .

---

(١) الروم : ٣٠ (٢) البقرة : ١٣٨ (٣) الحج : ٧٨

(٤) النور : ٥٠ (٥) النور : ٦٣

(٦) الفرقان : ١٧ ، والآية : فيقول . . . (٧) سبأ : ٤٠

(٨) المائدة : ١١٦

([١] يكون لِزَاماً) ، أي يكون العذاب ثابتا ، وإنما أضمره وهو اسمُ كان ، لأنه جزاءُ التكذيب المتقدم . واختلف هل يكون العذاب هنا القتل يوم بدر ، أو عذاب الآخرة ؟

([٢] يَضِيقُ صَدْرِي) : بالرفع عطفا على أخاف ، أو استئناف . وقرىء بالنصب عطفا على يكذبون .

([٣] يوم لا يَنفَعُ) وما بعده منقطع عن كلام إبراهيم ، وهو من كلام الله تعالى . ويحتمل أن يكون من كلام إبراهيم .

([٤] يَنبغي لهم وما يَستَطِيعون) ، أي لا يستطيعون من الكهانة ، لأنهم منعوا من استراقِ السمع مُذْ بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ولا يقدرون عليه ، فكيف يقولون إن هذا القرآن كهانة تَنَزَّلَتْ به الشياطين . ولفظة « ينبغي » تارة تستعمل بمعنى لا يمكن ، وبمعنى لا يليق .

([٥] يَهِيمون) : استعارة وتمثيل . والمعنى إن الشعراء يذهبون في كل وادٍ من الكلام الحقّ والباطل ، ويفرطون في التجوّز حتى يخرجوا إلى الكذب .

([٦] يَستَصرِخه) ، أي يستغيث بموسى ، وذلك أنه لقيه قاتلُ القبطي بالأمس يقاتلُ رجلا آخر من القبط ، فاستغاث بموسى لينصره كما نصره بالأمس ، فَعَظُم ذلك على موسى ، وقال له : « [٦] إنك لَغَوِيٌّ مُبين » .

(يَتَرَقَّبُ) في الموضعين[٧] ، أي يتجسس هل يطلبه أحد ، لأنه شاع

---

(١) الفرقان: ٧٧ (٢) الشعراء: ١٣ (٣) الشعراء: ٨٨ (٤) الشعراء: ٢١١
(٥) الشعراء: ٢٢٥ (٦) القصص: ١٨ (٧) القصص: ١٨، ٢١

كبره من الإسرائيلي الذي قال له : أتريد أنْ تَقْتُلَني كما قتلتَ نفسا بالأمس ، فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي انطلق إلى فرعون فأخبره بذلك ، فأمر فرعون بقَتْل موسى ، ولهذا قيل : عـــدوٌ عاقل خير من صديق جاهل ، والإشارة فيه أن موسى عليه السلام كان كريما ، والإسرائيلي لئيما ، فلم ينظر موسى إلى لؤمه ، ولكن عامَلَه بكرمه .

وأنتَ يامحمديّ كيف يعاملك ربُّك ، وقد أقررْتَ له بالوحدانية ولنبيِّه بالرسالة ، وقد أعطاك واصْطَفاك من غير سؤال منك ، أحبَّك وأقرضك ، وأسبغ عليك نِعَمَه ظاهرةً وباطنة ، وأعذر إليك بقوله : « (١) ولو بسط الله الرزقَ لعباده لبَغَوْا فى الأرض » ، ووَعدكَ بإجابتك . فَمَنْ أولى منك بالكرامة ؟

فإنْ قلت : كيف يستغيثُ الإسرائيلي بموسى وقد أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدوٌ لهما ، ثم قال له : أتريد أن تقتلني ؟

والجواب : يحتمل أن الإسرائيلي لما رأى موسى يَبْطش بالقبطي وهو غضبان كغضَبه بالأمس خاف أن يكونَ أراده ، ولم يُرِده موسى . أو لما رأى عَجْزَ موسى عن استصراخه لما صدر منه بالأمس من القتل فضحه الإسرائيلي .

((٢) يأتَمِرُون بكَ ليقتلوك) : لما أمر فرعون بقَتْل موسى أخبره مَنْ حضر عند فرعون ، أو أخبره من سمع الخبر ، وقال له : سمعتهم يتآمرون [١٣٠٥] بك لما قتلت القِبطي . وخصت آيةُ القصص بتقديم الرجل فى قوله

---

(١) الشورى : ٢٧ (٢) القصص : ٢٠

تعالى : « وجاء رجل » ؛ لأن قبله : فوجد فيها رجلين يَقْتَتِلان . وخصت سورة يس بالتأخير ؛ لأنه كان يعبد الله فى جبل ، فلما سمع خَبَرَ الرجل سَعَى مستعجلا .

وقد قدمنا أنّ السعى من أوصاف الإسراع فى قوله تعالى : « [١] يأتينَكَ سَعْيًا » . فانظره هناك .

([٢] يُصْدِرَ الرِّعَاء) ، بضم الياء وكسر الدال فعل متعدّ ، والمفعول محذوف تقديره يصدر الرعاء مواشِيَهم . وقرىء بفتح الياء وضمّ الدال ؛ أى ينصرفون عن الماء .

([٣] يومئذ يفرح المؤمنون . بنَصْرِ الله) : روى أنّ غلب الروم لفارس وقع يوم بَدْر . وقيل يوم الحُدَيبية ؛ ففرح المسلمون بنَصْر الله لهم على قريش. وقيل : فرح المؤمنون بنصر الله لهم على الفرس ؛ لأن الروم أهْلُ كتاب ، فهم أقرب إلى الإسلام ، وكذلك فرح الكفّار من قريش بنَصْر الفرس على الروم ؛ لأن الفرس ليسوا بأهل كتابٍ ، فهم أقْرَبُ إلى كفار قريش . وروى أنه لما فرح الكفّار بذلك خرج إليهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : إن نبيّنا صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا عن الله أنهم سيغلبون ، وراهنهم عشر قِلَاص إلى ثلاث سنين ، وذلك قبل أن يُحَرَّم القمار ، فقال صلى الله عليه وسلم : "زِدهم فى الرهن واستَزِدْهم فى الأجَل" ، فجعل القلاص مائة والأجَل تسعة أعوام ، وجعل معه أُبَيّ بن خلف مثل ذلك فلما وقع الأمر على ما أخبر الله به أخذ أبو بكر القلاص من ذُرية أبيّ بن خلف ؛ إذ كان قد مات ، وجاء

---

(١) البقرة : ٢٦٠ (٢) القصص : ٢٣

(٣) الروم : ٤ ، ٥

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتصدّق بها .

([1] يَرْبو) : يزيد . وقدمنا أن عقوبة الربا مَحْق المال ، ومحاربة الله ، والكفر ، والخلود فى النار . وقيل : إن شُرب الخمر ، وأكل الربا ، وأموال اليتامى ، وتَرْك الصلاة ، والزنى يُخَاف على صاحبها من سوء الخاتمة . وهذا كلّه موجود فى كتاب الله . اللهم إنى أعوذُ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رَبِّ أن يحضرون .

([2] يومئذٍ يصّدّعُون) : من الصدع ، وهو الفرقة ؛ أى يتفرقون : فريقٌ فى الجنة وفريق فى السَّعِير .

([3] يَمْهَدون) : يوطئون ، وهو استعارةٌ من تمهيد الفِرَاش ونحوه . والمعنى أنهم يفعلون ما ينتفعون به فى الآخرة .

([4] يخرج من خِلالَه) : أى يخرج المطر من شقوق السحاب الذى بَيْنَ بعضه وبعض ، لأنه متخلّل الأجزاء .

([5] يؤفكون) : أى مثل هذا الصرف، كانوا يُصرفون فى الدنيا عن الحق ، والتحقيق حتى يروا الأشياء على غير ما هى عليه .

([6] يوم البَعْث) : تقرير لهم ، وهو فى المعنى جوابُ الشرط مقدر ، تقديره إنْ كنتم تنكرون البَعْثَ فهذا يومُ البعث .

([7] يستخِفَّنك) : من الخفة : أى لا تضطرب لكلامهم ، واصبر ، ما وعدك الله به من النصر فمن قريب يكون .

---

(١) الروم : ٣٩ (٢) الروم : ٤٣ (٣) الروم : ٤٤ (٤) الروم : ٤٨
(٥) الروم : ٥٥ (٦) الروم : ٥٦ (٧) الروم : ٦٠

([1] يستَعْتَبون) : من العُتْبى ، بمعنى الرضا ؛ أى لا يرضون ، وليس استفعل هذا الطلب ، ويفهم من هذا أن المؤمن يستعتب ، أى يطلب منه العُتْبى ، وقد قدمنا أنّ الله قال : لولا أنى أحبُّ العتابَ ماحاسبْتُ أمتك . وقال بعضهم :

تَبادَلْنَ العتابَ على ارتيابٍ وصَفْوُ الوُدِّ يُعْرَفُ بالعتابِ

([2] يُدَبِّرُ الأمْرَ) ؛ أى واحد الأمور . وقيل : المأمور به من الطاعات ، والأول أصح .

([3] يَعْرُجُ إليه فى يومٍ كان مقدارُه ألفَ سنةٍ مما تَعُدُّون) : قال ابن عباس : المعنى ينفذُ الله قضاءَه من السماء إلى الأرض ، ثم يَعْرُج إليه خبرُ ذلك فى يوم من أيام الدنيا مقدارُه ، لو سِير فيه السيرُ المعروف من البشر ، ألفُ سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة ، فألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء . وقيل : إنّ الله يُلقى إلى الملائكة أمورَ ألفِ سنة من أعوام البشر ، وهو يَوْمٌ من أيام الله ، فإذا فرغَتْ ألقى إليهم مِثْلَها ، فالمعنى إنّ الأمور تنفذ عنده لهذه المدة ، ثم تصير إليه آخراً ؛ لأن عاقبة الأمورِ إليه ، فالعروج على هذا عبارة عن مصير الأمورِ إليه .

([4] يتوَفّاكم مَلَكُ الموتِ الذى وُكِّلَ بكم) : قد قدمنا أنّ اسمه عزرايل ، وبين يديه ملائكة ، مِنْ تَوَفِّى العدد واستيفائه . والتوفى من الله الإذن فى قَبْض الأرواح ، ومن الملائكة نَزْع الروح ، ومن ملك الموت

---

(١) الروم : ٥٧ (٢) يونس : ٣ ، ٣١ ، والرعد : ٢ ، والسجدة : ٥

(٣) السجدة : ٥ (٤) السجدة : ١١

[٣٠٥ ب] القبض ، ومن الرسل معاونة ملك الموت ، وبهذا يتضح لك الجمعُ بين الآيات[1] الثلاث .

([2]يثْرِبَ) : مدينة الرسولِ صلى الله عليه وسلم ؛ وسُمّيت به حكاية عن المنافقين . وكان اسمها في الجاهلية ، فقيل لأنها اسم أرضٍ هي في ناحيتها .

وقيل سُمّيت بِيَثْرِب[3] بن مهلائيل من بني إرم بن سام بن نوح ، لأنه أول مَنْ نزلها . وقد صح النَّهْيُ عن تسميتها به ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره الاسْمَ الخبيث ، وهو يُشعر بالتثريب ، وهو الفساد ؛ أو التثريب ، وهو التوبيخ . ومنه : « [4]لا تَثْرِيبَ عليكمُ اليَوْمَ يَغفِرُ الله لكم » . وقوله : « اليوم » راجع إلى ما قبله ، فيوقف عليه . وهو يتعلق بالتثريب أو بالمقدر و « عليكم » من معنى الاستقرار . وقيل : إنه يتعلق بيَغْفِرُ ؛ وذلك بعيد ، لأنه تحكُّم على الله ؛ وإنما يغفر دعاء ، فكأنه أسقط حقَّ نفسه بقوله : « لا تثريب عليكم اليوم » ، ثم دعا إلى الله أنْ يغفر لهم حقَّه .

([5]يَقْنُتْ) : بالياء حملا على لفظ من . وقرىء بالتاء حملا على المعنى ، وكذلك « [5]تعمل » . والقنوت هنا بمعنى الطاعة .

([5]يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهم في النار) : العامل في « يوم » قوله : « [6]يقولون » أو « [7]لا يجدون » ، أو محذوف .

---

(١) في النساء (٦١) : حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا . وفي النساء (٩٧) : إن الذين توفاهم الملائكة . والثالثة في هذه الآية .

(٢) الأحزاب : ١٣ (٣) في معجم البلدان : يثرب بن قانية بن مهلائيل .

(٤) يوسف : ٩٢ (٥) الأحزاب : ٣١ (٦) الأحزاب : ٦٦

(٧) الأحزاب : ٦٥

وتقليبُ وجوههم تصريفُها في جهاتِ النار كما تدورُ البضعة في القلب إذا غلَتْ من جهة إلى جهة ، أو تغيرها عن أحوالها .

([١] يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقتم كلَّ مُمَزَّق) : معنى مُزِّقتم أي بَليتم في القبور وتقطعت أوصالكم ، « وكلّ ممزّق » مصدر . « والخلق الجديد[١] » : هو الحشر في يوم القيامة والعامل في « إذا » معنى إنكم لفي خَلْقٍ جديد معمول يُنبئكم ، وكسرت إن للام التي في خبرها ؛ ومعنى الآية إن ذلك الرجل يخبركم أنكم تُبْعَثون بعد أنْ بَليتم في الأرض ، ومرادهم استبعاد الحشر .

([٢] يَرَوْا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهم من السماء والأرض) : الضمير للكفار المنكرين للبعث ، وجعل السماء والأرض بين أيديهم وخلفهم ، لأنهما محيطتان بهم . والمعنى ألم يَرَوْا إلى السماء والأرض فيعلموا أنّ الذي خلقهما قادر على بَعْثِ الناس بعد موتهم . ويحتمل أن يكون المعنى تهديدا لهم ، لأنه فسره بقوله : « [٣] إن نَشَأْ نَخْسِفْ بهم الأرض ، أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء » .

([٤] ياجِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ وأَلَنَّا لَه الحَديد) : الضمير لداود ، تقديره : قلنا يا جبال . والجملة تفسير للفضل . ومعنى أوّبي سبّحي . وأصله من التأويب بمعنى السَّير بالنهار ، وقيل كان ينوح فتسعده الجبال بصداها والطير بالرفع عطف على لفظ ياجبال ، وبالنصب عطف على موضع ياجبال . وقيل : هو مفعول معه . وقيل عطف على « [٤] فضلا » .

([٥] يَبْسطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِر . . .) الآية : أخبار تتضمن الردّ

---

(١) سبأ : ٧ (٢) سبأ : ٩ (٣) سبأ : ٩ (٤) سبأ : ١٠
(٥) سبأ : ٣٦

على قولهم(١) : « نحن أكثر أموالا وأولاداً » ؛ لأنّ بَسْطَ الرزق وقَبْضه في الدنيا متعلق بمشيئة الله ، فقد يوسِّع الله على الكافر والعاصي ، ويضيِّقُ على المؤمن والمطيع ، وبالعكس .

وقد حكى أن مدينة ببلاد السودان إذا ملكها المسلمون صار أرضها ترابا ، وإذا ملكها الكفار صار أرضها تِبْراً ، فأسلمها المسلمون للكفار على إعطاء الجزية ، وهذا ليس بعجَب ؛ إذ لو كانت الدنيا تزِنُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى كافرٌ جَرْعــــة ماء . والمقصودُ منها التقوّت لما يوصل إلى الآخرة .

وحكى وهب بن منبه أنّ ملكين التقيا في السماء الرابعة يهبطان إلى الأرض ، فقال أحدهما للآخر : إن الله أمرنى أنْ أوصل الحوتَ الفلانيّ ليهوديّ الفلانيّ لأنه اشتهاه . فقال الآخر : وإن العابد الفلانى يصوم وأراد إفطاره على الخبز والزيتون ، وأمرنى أن أُهْبِطه له . فانظر هذا ؛ فإنّ تيسير الشهوات ليس من أسباب السعادة ، وإن الله ليذود وليّه عن الدنيا ويحميه عنها لئلا يشتغل بها ، « (٢)ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمّةً واحدة ... » الآية . ونحن قد بُسط [٢٩٦ م] لنا فيها ، وتمتّعنا بها ، فانظر عاقبتَنا بِمَ تكون !

فإن قلت : مافائدة تكرار هذه الآية ، وإبراز «من عباده» في الثانية من سورة سبأ(٣) ؟

والجواب : أنّ الله كرّرها لاختلافِ المقاصدِ ، والردّ على الكفّار في أقوالهم ، وترغيب المؤمنين في الإعراض عنها والرجوع إلى مَنْ بيده مقاليدُها .

---

(١) سبأ : ٣٥ (٢) الزخرف : ٣٣ (٣) سبأ : ٣٩

وأبرزَ الضمير فى ثانية سبأ ترغيبا لعباده فى إنفاقها والخروج منها ، وسلّاهم بوعده بالخلف ، وأنهم إن خرجوا عنها يخلفه لهم ؛ ووَعْدُه حقٌّ ؛ ولهذا أشار عليه السلام بقوله : ما نقص مالٌ من صدقة .

فإن قلت : قد وجدناه ينقص فى العَدد ؟

والجواب أنه ليس بنقص ؛ لأنه لا يأتى عليه إلا أيام قلائل فيعود أكثر مما كان ، وهذا مشاهدٌ . وقد يكون الخلف من حيث لا يظنّ . وقد يكون بالثوابِ المدّخر أو بتكفير السيئات ، كما قال تعالى : « [١] إن تبدُوا الصدقاتِ . . . » الآية . أو بالطهارة ، كما قال[٢] : « خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً تُطَهِّرهم » ؛ والإضعاف ؛ قال تعالى : « [٣] الذين يُنْفِقُون أموالَهم فى سبيلِ الله » . والقبول : « [٤] هو يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده ويأخذ الصدقات » .

وقد جعل اللهُ جميعَ الطاعات على ثلاثة أقسام : جعل على اللسان التوحيد والذّكر والاستغفار والدعاء ، وثوابُها عشر أمثالها . وعلى المال الصدقة والزكاة والنفقة ، وثوابُها واحد لسبعمائة . وعلى القلب الصبر والقناعة والشكر والرضا ، وثوابُها بغير حساب .

([٥] يَقْذِفُ بالحق) : القذف : الرَّمْى ، ويستعارُ للالقاء ؛ فالمعنى يلقى الحقَّ إلى أنبيائه ، أو يرمى الباطلَ بالحق فيذهب ، ولذلك قال : « [٦] وما يُبْدِىءُ الباطلُ وما يُعيد » ؛ فنفْىُ الإبداء والإعادة عبارة عن أنه لا يفعل

---

(١) البقرة : ٢٧١ (٢) التوبة : ١٠٣ (٣) البقرة : ٢٦٢
(٤) التوبة : ١٠٤ (٥) سبأ : ٤٨ (٦) سبأ : ٤٩

شيئا ولا يكون له ظهور ، أو عبارة عن ذهابه .

(⁽¹⁾ يَقْذِفُونَ بالغيبِ مِنْ مكانٍ بَعيدٍ) : معطوف على «⁽¹⁾ كفروا به». والمعنى أنهم يرمون بظنونهم فى الأمور المغيبة ، فيقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار . ويقولون فى الرسول عليه الصلاة والسلام : شاعر أو ساحر ، والمكان البعيد هنا عبارة عن بُطْلان ظنونهم وبُعْد أقوالهم عن الحق .

(⁽²⁾ يَزِيدُ فى الخلْقِ ما يشاءُ): قيل حسن الصوت . وقيل حسن الوجه. وقيل حسن الخط . والأظهر أنه يرجع إلى أجنحة الملائكة ، أو يكون على الإطلاق فى كل زيادة فى المخلوقين .

(يسر) ، بفتح الياء والسين : الرجل الذى يشتغل بالميسر ، وجمعه أيسار ، وهو القِمار فى النَّرْدِ والشطرنج وغير ذلك . وهو مأخوذ من يسر لى كذا إذا وجب . وقد قدمنا أن مَيْسر العرب عشرة أقداح ، وهى الأزلام لكل واحد نصيب معلوم من ناقة يُجَزِّئُونها عشرة أجزاء ، ثم يدخلون الأزلام فى خريطة ويضعونها على يدى عدل ، ثم يدخل يده فيها ، فيخرج باسم كل رجل قدحا ، فمن خرج له قدح له نصيب أخذ ذلكَ النصيب ، ومَن خرج له قدح لا نصيبَ له غرم ثمنَ الناقةِ كلِّها .

(⁽³⁾ يَحِيقُ) : يحيط .

(يس) : من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، ومعناه يا إنسان ، بلسان الحبشة ، قاله ابن عباس . وقال سعيد بن جُبير : يارجل ، بلغة الحبشة .

(⁽⁴⁾ يَخِصِّمُونَ): أصلُه يختصمون ثم أدغم ؛ ومعناه يتكلمون فى أمورهم.

---

(1) سبأ : ٥٣ (2) فاطر : ١ (3) فاطر : ٤٣ (4) يس : ٤٩

وقرىء بفتح الخاء وكسرها واختلاس حركتها .

([1] يَحِقَّ القَوْلُ على الكافرين) ؛ أى يجبُ عليهم العذاب .

([2] يَسْتَسْخِرُون) : معناه يسخرون ، فيكون فعل واستفعل بمعنى واحد . وقيل معناه يستدعى بعضُهم بعضا لأنْ يسخر . وقيل : يبالغون فى السُّخْرِية .

([3] يَقْطِين) : كل شجر لا يقوم على ساق كالقرع والبطيخ ونحوها . والمعنى أنّ الله أنبتَ على يونس لما خرج من بَطْن الحوت القرع يظله من حَرّ الشمس . وقد كان رقّ جلدُه ، وكانت الذباب تؤذيه . والسرُّ فيه أن ورقَه كبير ، ومسّه فيه لين ، والذباب لا يقربه ؛ ولذلك قال النقاش : إن من رش بمائه البيت لم يقربه الذباب .

فهذه شجرةٌ منعَتْ يونس من الإذاية ، أفلا تمنعُ يا محمدى شجرةُ الإيمان من إذاية الشيطان ، وينجيك بركتها من الدخول [٣٠٦ ب] فى النيران ؟ وفى الخبر : لما صحّ يونس ، ورجع إلى قومه ، وجد الشجرة قد جفّتْ فاغتمّ لذلك ، فأوحى الله إليه : اغتممْتَ على شجرة يبست ولم تغتمّ على هلاك مائة ألف أو يزيدون ! فلذلك أمر الله نبيّه بالصبر على أمته ، والدعاء لهم ، فقال : اللهم اغفرلى فإنهم لا يعلمون . هؤلاء دعالهم، واعتذر عنهم ، وقد عصوه ، وكسروا رباعيته ، وشجُّوا وجهه ، كيف لا يغتم للمصلّى عليه وذاكره فى كل ساعةٍ بالسلام عليه .

وقد أمره الله بألاّ يكون كصاحب الحوت فى الفرار من قومه ، يعنى تفارق أمتك حين ينزل العذابُ عليهم ، فقال : رب عامِلْهم بخلاف ما تعامل به

---

(١) يس : ٧٠ (٢) الصافات : ١٤ (٣) الصافات : ١٤٦

الأمم ، فأنزل الله تعالى : « (١) قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذابا من فوقكم أو مِنْ تحت أرْجُلكم » بالخسف والمسخ ، والريح والصواعق ، فقال : اللهم إنى أعوذُ بوجهك من ذلك ، فرفع اللهُ عنهم العـــذابَ وهم كفّار ومنافقون ؛ أفلا يرفعه عنك يامحمدىّ وأنتَ مؤمن به ومصدِّق له ! اللهم بحرمته لدَيْكَ لا تحرمنا رؤيته فى الدنيا والآخرة .

((٢) يَزِفُّونَ) ؛ أى يسرعون . وقرىء بضم الياء ونصب الزاى ، أى يصيرون إلى الزفيف .

((٣) يستَمِعُونَ القولَ فيتّبِعُونَ أحْسنَه) : يعنى يستمعون القولَ على العموم فيتبعون بأعمالهم أحسنَه ، من العفو الذى هو أحسنُ من الانتصار ، وشِبْهُ ذلك . وقيل : هو الذى يسمع حديثا فيه حسَنٌ وقبيح ، فيحدّث بالحسن ويكفّ عما سواه .

وهذا قولُ ابن عباس ، وهو الأظهر . وقال ابن عطية : هو عامّ فى جميع الأقوال . والقَصدُ الثناء على هؤلاء ببصَرٍ ونظر سديد يفرِّقُون به بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، فيتبعون الأحسن من ذلك .

((٤) ينابيع) : جمع ينبوع ، وهو العين .

((٤) يَهِيجُ) : ييبس ، لقوله (٤) : « فتراهُ مُصفَرًّا » .

((٥) يُرِيكم آياتِه) : يعنى العلامات الدالّة على مخلوقاته ومعجزات رسُله .

---

(١) الأنعام : ٦٥ (٢) الصافات : ٩٤ (٣) الزمر : ١٨
(٤) الزمر : ٢١ (٥) غافر : ١٣

([1] يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ويُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .)
الآية : من أعظم آيات الرجاء ؛ لسؤال الملائكة لهم بالرحمة والجنّة .

فإن قلت : حَمَلَةُ العرش والملائكة كلهم مؤمنون به سبحانه ، فما فائدة الإخبار بقوله : « يؤمنون به » ؟

والجواب : إظهاراً لفضيلة الإيمان وشرفه ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياءَ فى غير ما موضع من كتابِهِ بالصلاح ؛ كقوله : « [2] وَنَبِيًّا من الصالحين » . ومعلوم أن الأنبياء من أهل الإيمان والصلاح ، وكما أعقب أعمالَ الخير بقوله : « ثم كان مِنَ الذين آمَنُوا » ، فأبانَ بذلك فَضْلَ الإيمان . وقد ذكر [3] الزمخشرى أن فيه فائدةً أخرى ؛ وهى أنّ معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال كسائر الخلق لا بالرؤية ، وهذه نزعة منه إلى مذهب المعتزلة فى استحالة رُؤْيَة الله تعالى .

وتأمَّلْ يامحمدىَّ إلى عظيم التناسب المرعىّ بين قوله : « يؤمنون به » ، « ويستغفرون للذين آمَنُوا » تجد فيه تنبيها على أنّ الاشتراكَ فى الإيمان يجبُ أن يكون ادْعى شىء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة ، وإن تفاوتت الأجناسُ ، وتباعدت الأماكن ؛ فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماوىّ وأرضىّ قطّ ، ولما جمع الإيمان جاء معه التجانس الحقيق ، والتناسب الكلّى ، حتى استغفر مَنْ حَوْلَ العرش لمَنْ فى الأرض مع عظم أجرامهم وقُوَّتهم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : أُذِنَ لى أن أحدّث عن ملك من حَمَلة العرش بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة سنة .

---

(١) غافر : ٧ (٢) آل عمران : ٣٩
(٣) الكشاف : ٢ ـ ٣٠٩

فانظر ياعمدى ما أعظم قيمتك ؛ الأنبياء والملائكة يستغفرون ، ونبيك أمر إخوانك بالاستغفار لك ؛ قال : من استغفر لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات كلَّ يوم خمسا وعشرين مرةً أو سبعا وعشرين — أحد العددين — كان من الذين يُستجاب دعاؤهم ، ويرزق بهم أهلُ الأرض . ودعاء الأبدال[1] أنْ تقول بعد كلِّ صلاة : اللهم أصلح أمّةَ محمد ، اللهم ارحم أمةَ محمد ، اللهم فرِّج عن أمة محمد ، اللهم اغفر لأمّة محمد ، ولجميع مَنْ آمن بك .

ولما دحا الله مبسوطَ بساطِ الأرض ، ومهَّدَ مِهادَها لترتيب [١٣٠٧] المكونات فَخَرتْ عليها السمواتُ ، فنكست رأس الانكسار ، ومدّت يدَ الاستعطاف إلى عين الجود ، فجادلها بقَطْعِ حجة مَنْ جادلها :

([2] ياسماء) : إنْ كنت فخرتِ بالشمس لظهور الموجودات ، فأين مثل شريعةِ نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى ظهور الغيْب : شَمْسُ السماءِ لها أفول ، وشمسُ شريعةِ محمدٍ ليس لها أفول .

وإن افتخرت بحسن القمر ونوره فأينك من حسن سُنَتِه المشرق ونوره إذا كُسِفت شمسك ، وخسف قمرك ؛ فالشفاعة من أهل الأرض ، والشافعُ أفضلُ من المشفوع فيه .

وإن افتخرتِ بالنجوم للاهتداءِ فنجومُ الصحابة معلومة للاقتداءِ على مقعد صدق ، إن كان من النجوم رجوم للشياطين ؛ فعُمر فقأ عين الرئيس إبليس ، وشهب إيمانه توفيه فترميه فلا يسلك عمر فَجّا إلَّا هرب منه إبليس .

---

(١) الأبدال : قوم بهم يقيم الله الأرض ، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس : (القاموس — بدل) .

(٢) هود : ٤٤

وإن فخرتِ باللوح المحفوظ فلَوْح الغيب يكتب بيد الخالق ، كتب فى قلوبهم الإيمان .

وإن فخرت بسعة الكرسىّ فأين هو من سعةِ : وسعنى قلبُ عبدى المؤمن .

وإن فخرتِ بنفخ إسرافيل للأرواح لإحياء الأجساد فأين أنتِ من نفخةٍ حَيِيت بها القلوبُ إلى يوم التَّناد .

وإنْ فخرتِ بعلو مَنْ فى العلو من الأملاك فقصيدةُ الاقتصاد أشهر من « قِفَا نَبْكِ » . هذا عزرائيل كان إمام المقربين فتنفَّس بنفس فسق كأس أسف . هاروت وماروت ، استمير لهما شهوة الشهرة فجرى ما جرى ، وعند جهينة الخـــبر اليقين ! فكيف بمن عجنت بها طينة تركيبه ، وعقل عقْله بعقال الهدى !

وإن فخرت بالصافّين المسبحين ، فكم على أرض الدُّجا من أمة قائمة ؟ كم فى رواشن[1] الأسحار من عمّار المستغفرين .

وإن فخرت بشفقة ميكائيل وحبائِه ، فكم حيٍ أحيساه بشفقة أبى بكر وأحبائه .

وإن فخرت بقوّةِ جبريل وإقدامه فأينك من قوة عُمر وإقدامه يوم قال : والله لا يُعْبَد الله سرًّا بعد اليوم ، فسرى نحو الكعبة ، فسرى عن الإسلام غُمة الغم .

وإن فخرتِ بنزول القَطْرِ لإحياء مَوَات النبات ، فأين أنتِ من سوا كب

---

(١) الروشن : الكوة (القاموس) .

المبرات لإحياء القلوب الموات ، فكم صدرٍ شُرح للاسلام ؛ فهو أوسع من سِدْرَة المنتهى .

وإن افتخرتِ بأنّ الجنة فيك فقد اشتاقت إلى تسليم سلمان إذا تمهد ملك الجنة للساكن ، فالملائكةُ خدّام يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم ليحظَوْا بحظ الردّ ، إنما علا قَدر المُقربين لما أطلق لهم من ديوان الخاص والعام ، ويستغفرون للذين آمَنُوا .

وإنْ فخرْتِ بالعرش والطائفين ، فأين أنتِ من البيت والطائفين ما فى زاوية العرشِ حَجَر سوّد بالسودد أدرج فى درجة درج الميثاق . يوم السبت لما أهبط آدم بمنشور الولاية إلى الأرض مُهِّدت له دار المملكة قبل الوصولِ ، وزينت حرمةُ الحرم للحرمة والإحرام باب الاستغاثة ، وعرفات باب دخول المسائل لنيل الوسائل ، فلما بُنى البيتُ أُذِن الله لخليله عليه السلام بالأذان على صَوْمعة أبى قُبيس بتأذين ، وأذّن قال : يارب ، وأين يبلغُ أذانى ؟ قيل : يا إبراهيم منك الأذان وعلينا البلاغ .

فلما دنا النداءُ من باطن الحجر أرقم من وقع له يوم : « ألستُ بربكم » بفيض المبلّغ ، فتزاحموا على باب الإجابة ، شعارُهم لبّيْكَ اللهم لبّيك !

فإن قلت : كيف يصح أن يقال : وسع كل شىء ؟

فالجواب إن الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شىء فى المعنى ، والأصل وسع كلّ شىء رحمتُك وعلمك ، ولكن أزيلَ الكلامُ عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز ، لا إغراق فى وصفه بالرحمة والعلم ، كأنّ ذاته رحمة وعلم ويسعان كل شىء ؛ وهذا

نحو قولهم : تفقأت شحما ، وتصببت عَرَقا .

فإن قلت : قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أنْ يكونَ مابعد الفاء مشتملا على حديثهما جميعا ، وما ذكر إلا الغفران وَحْده ؟

والجواب : فاغفر للذين علمْتَ منهم التوبة ، واتباعَ سبيلك .

فإن قلت : ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون مَوعودون بالمغفرة ، والله لا يُخْلِفُ الميعاد ؟

قلت : هذا بمنزلة الشفاعة ، وفائدتُه زيادةُ الكرامةِ والثواب .

فإن قلت : هل قيدت هذه الآية الآية المطلقة في حم عسق ، وهي قوله : « [1] ويستَغْفِرُون لِمَنْ في الأرض » ، لأنه معلوم أنّ الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم لا يستغفرون لكافر ؟

والجواب : يحتمل أن يكون استغفارهم لهم بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك ، كما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ، واستغفار نبينا للمنافقين . ولما تقدم هذه الآية : « [2] غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ » ناسب استغفارَ الملائكة للمؤمنين منهم ، يَشْهدُ لهذا قوله بعده : « [3] فاغفرْ للذين تابُوا » ، ولما تقدم آية الشورى : « [4] تكادُ السمواتُ يتَفَطَّرْنَ من فوقِهِنّ » ناسب استغفارَ الملائكة لمن في الأرض لإبقاء الستر ؛ إذ لايفوتونه . وقد يُؤْمن مَنْ سبقت له السعادة منهم .

([5] يُرِيكم آياتِه) : هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ،

---

(١) الشورى : ٥ (٢) غافر : ٣ (٣) غافر : ٧ (٤) الشورى : ٥
(٥) غافر : ١٣

والذلك وبّخهم بقوله : « (١) فأىَّ آياتِ اللهِ تُنْكرون » .

((٢) تكاد السموات يَتَفطّرْنَ من فَوْقِهن) ؛ أى ينشقّقْن من خوف الله وتعظيم جلاله . وقيل من قول الكفار : « (٣) اتَّخذَ الله ولداً » ؛ فهى كالآية التى فى (٤) مريم .

قال ابن عطية : وما وقع المفسرين من ذكر الثقل هنا مردود ، لأنَّ الله تعالى لا يوصَف به .

فإن قلت : لو أراد تشقّق السماء من قولِ الكفار لقال مِنْ فوقهم ، وما وجْه اتصال التسبيح والاستغفار من الملائكة بهذه الآية ؟

والجواب : إن المعنى تشقّق السموات من أعلاهن ، وذلك مبالغة فى التهويل . وقيل الضمير للأرضين ، وهذا بعيد . وقيل الضمير للكفار ، كأنه قال من فوق الجماعات الكافرة التى من أجل أقوالها تكاد السموات تتفطرْن . وهذا أيضا بعيد .

ووَجْه تسبيح الملائكة تعظيم لله تعالى من تشقق السموات من عظمته وجلاله ، أو مِنْ كفر بنى آدم فينزهون الله من ذلك .

((٥) يوم الجَمْعِ) : قد قدمنا أنّ هذا من أسماء يوم القيامة ، لأنه يوم يجمعون(٦) فيه الأولون والآخرون فى صَعِيدٍ واحد .

((٧) يَذْرَؤُكم فيه) ؛ أى يخلقكم نسلا بعد نَسل ، وقَرْنا بعد قرن .

---

(١) غافر : ٨١ (٢) الشورى : ٥ (٣) البقرة : ١١٦
(٤) مريم : ٨١ (٥) الشورى : ٧ (٦) هذا بالأصول .
(٧) الشورى : ١١

وضمير المجرور يعود على الجعل الذى تضمّنه قوله : « [1] جعل لكم » ، وهذا كما تقول : كلمت زيدا كلاما أكرمتهُ فيه . وقيل الضمير للتزويج الذى دلّ عليه قوله : « [1] أزواجا » . وقال الزمخشرى [2] : تقديره يَذْرَؤكم فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، غلب فيه العقلاء على غيرهم .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل يذرؤكم به ؟

فالجواب أنّ هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتكثير [2] .

([3] يحَاجُّونَ فى الله) : أى يجادلون المؤمنين فى دين الله ، يعنى كفّارَ قريش . وقيل اليهود .

([4] يستعجِلُ بها) : أى يطلبون تعجيلها استهزاءً بها ، وتعجيزا للمؤمنين .

([5] يمَارُونَ) : يجادلون ويخالفون .

([6] يرزُقُ مَنْ يشاء) : أى الرزق المضمون الزائد لكل حيوان ، فإنّ الرزقَ الذى تقوم به الحياة على العموم لكل حيوان طولَ عمره ، والزائد خاصٌّ بمن شاء الله .

([7] يَختِمْ على قَلْبِك) : فى المقصد بهذا قولان : أحدهما أنه ردٌّ على الكفّار فى قولهم : « [6] افترى عَلَى الله كَذِبا » ، أى لو افتريت على الله كذبا ، يَختم على قلبك ، لكنّك لم تفتر عليه كذبا فقد هداك وسدّدك .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) الكشاف : ٢ ـ ٣٣٩ (٣) الشورى : ١٦
(٤) الشورى : ١٨ (٥) الشورى : ١٨ (٦) الشورى : ١٩ (٧) الشورى : ٢٤

والآخر أنَّ المرادَ إنْ يَشأ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار واحتمالِ أذاهم .

([١] يَمْحُ اللهُ الباطل) : هذا فعل مستأنَف غير معطوف على ما قبله ؛ لأن الذي قبله مجزوم ، وهذا[٢] مرفوع فيوقف على ما قبله ، ويبتدأ به ؛ وفي المراد به وجهان : أحدهما أنه مِنْ تمام ما قبله ؛ أي لو افتريت على الله كذبا بالختم على قلبك ومَحْو الباطل الذي كنْتَ تفتريه لو افتريته . والآخر أنه وَعْدٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمحو الله الباطلَ وهو الكفر ، ويحقّ الحق وهو الإسلام .

([٣] يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده) :أي من عباده . وقبولُ التوبة من الكفر مقطوع بها ، ومِن مظالم العباد فهي متوقِّفة حتى يردَّها لأهلها أو يستحلّ منها ، ومن المعاصي التي بين العبد وبين الله يُرْجَى أنها مقبولة لهذه الآية . وقيل هي في المشيئة ، وهو أكرمُ أنْ يقول له العبد : رجعت ، فلا يقول له : قبلت . وقد قدمنا مِراراً شرطَ التوبة وصحةَ قبولها .

وفي بعض كتُبِ الله المنزلة : وعزّتي وجلالي ، وارتفاعي [٣٠٨ م] في علوّ مكاني ، لأقطعنّ أمَل كلِّ مُؤَمّل أمّل غيري باليأس ، ولألبسنّه أثوابَ المذلّة بين الناس ، ولأقصيَنّه من قُرْبي ، ولأباعِدَنّه من حوضي ، أيؤمّل غيري في الشدائد ، والشدائدُ بيدي ؟ وأنا الحيُّ ويرجو سوائي ، ويطرق بالفكر باب

---

(١) الشورى : ٢٤

(٢) هذا بالأصول . وفي القرطبي (١٦ — ٥) : قال الكسائي : أي : والله يمحو الباطل فحذف منه الواو في المصحف ، وهو في موضع رفع ، كما حذفت من قوله : سندع الزبانية . ويدع الانسان .

(٣) الشورى : ٢٥

الخير ومفاتيحُ الأبواب بيدي ، وبابي مفتوح لمَنْ دَعاني ؛ من الذي دعاني فلم أجبه ؟ مَنِ الذي استغفرني فلم أغفر له ؟ من الذي رجع إليّ فلم أقبله ؟ مَن الذي دعاني لنوائبه فقطعتُ به دونها ؟ مَنِ الذي رجاني لعظيم جرمه فأقطع رجاءه ؟ من الذي قرع بابي ولم أفتح له ؟ جعلتُ آمالَ عبادي متصلة بي فقطعوها ، وجعلت أرجاءهم مذخورةً عندي فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سمائي ممَّنْ لا يملُّون من ذكري ، وأمرتُهم ألاَّ يُغلِقوا الأبوابَ بيني وبين عبادي فلم يثق الآدميون بقولي ! ألا يعلم من طرقتْه نائبةٌ من نوائبي أنه لا يملكُ كشفَها إلا من بعد إذني ! مالي أرى عَبْدي مُعرِضاً عني أعطيه بجودِ فلم يسألني ، ثم انتزعتُه منه فلم يسألني ردَّه ! أفتراني أبتدئُ بالعطية قبل المسألة ، ثم أُسأل فلا أجيب ! ياسائلا غيري ، أبخيل أنا فيبخِّلني عَبدي ! أليست الدنيا والآخرة لي ؟ أليس الكرم والجود لي ؟ أليس الرحمة والفضل لي ؟ أنا محلُّ الآمال ، من يُقطعها دوني ؟ وما عسى أن يؤمِّل المؤملون لو جمعتُ أهلَ سمائي وأرضي ، ثم أعطيتُ كلَّ واحد منهم ما أمل الجميع ما نقص مِنْ ملكي ، وكيف ينقص ملك أنا فيه ! فيابؤسَ للقانطين مِنْ رحمتي ، ويابؤس لمَنْ عصاني ، وتوثَّب على محارمي ، ولم يستحِ مني ! اللهم إني لم أستحِ منك ، وبارزتُ بالعظائم ، لكن رجائي فيك قويٌّ ، وتوسلتُ إليك بجاهِ النبيِّ الأميِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

([١] يعفُو عن السيئات) : العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا . وأما العفو دون توْبة فهو على أربعة أقسام : الأول : العَفْوُ عن الكفر ، فلا يكون أصلا ، وعن مظالم العباد فلا يكون إلا لبعض خواصِّ عباده ، وعن الصغائرُ إذا اجتنبت الكبائر ، فهو حاصلٌ بحسب وَعْده الصادق . وعن الكبائرِ

---

(١) الشورى : ٢٥

فأهْلُ السنّة أنه فى المشيئة ، وأهل البدعة على عدم غُفْرانها ؛ وقد أخطئوا لنَصِّ الآية والحديث .

([١]يَسْتَجِيبُ الذين آمَنُوا) : قيل يجيب . و « [١]الذين آمنوا » مفعول ، والفاعل ضمير يعود على الله ؛ أى يجيبهم فيما يطلبون منه . وقال الزمخشرى : أصله يستجيب للذين آمنوا ، فحذفت اللام .

وقيل إن معناه يجيب . والذين آمنوا فاعل ، أى يستجيب المؤمنون لربهم باتِّباع دينه . وقيل إن معناه يطلب المؤمنون الإجابةَ من ربهم ، واستفعل على هذا على بابه من الطلب .

والأول أرجح ؛ لدلالة قوله : « [١]ويَزِيدُهم مِنْ فَضْلِه » ؛ أى يزيدهم مالم يطلبوا زيادة على الاستجابة فيما طلبوا ، وهذه الزيادةَ صَحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنها الشفاعةُ والرضوان .

([٢]يُنَزِّلُ الغَيْثَ من بَعْدِ ما قَنَطوا) : قيل لعمر رضى الله عنه : اشتدَّ القَحْط ، وقنط الناس ، فقال : الآن يُمْطرون . وأخذ ذلك من هذه الآية . ومنه الحديث : اشتدِّى أزْمَةُ تنفرجى . وقال تعالى : « [٤]إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً » . وكان صلى الله عليه وسلم إذا كان وقت الشدائد والمخاوف رُئى عليه أثر السرور ، وإذا كان وقت السرور رُئى عليه أثرُ الخوف ، لعلمه بربه .

يَنْشُرُ رحمته ، يعنى المطر ؛ فهو تكرار للمعنى الأول بلفظ آخر . وقيل يعنى الشمس . وقيل بالعموم ؛ وهو أظهر ، إذ رحمته سبحانه تعمّ جميع الموجودات .

([٥]يَعْلَمَ الذين يُجَادلون فى آياتنا) ؛ أى يعلمون أنهم لامهرب لهم من

---

(١) الشورى : ٢٦ (٢) الشورى : ٢٦ (٣) الشورى : ٢٨

(٤) الشرح : ٥ (٥) الشورى : ٣٥

الله . وقرىء يعلم بالرفع على الاستئناف ، وبالنصب ، واختلف فى إعرابه على قولين : أحدهما أنه نصب بإضمار أنْ بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء، لأنه غير واجب . وأنكر الزمخشرى[1] ذلك ، وقال : إنه شاذّ ، فلا ينبغى أن يُحْمل القرآن عليه . والثانى قول الزمخشرى[1] : إنه معطوف على تعليل محذوف [٣٠٨ ب] لينتقم منه ؛ ويعلم ؛ قال : ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف كثير فى القرآن ، ومنه قوله : « [2]ولِنَجْعَلَه آيةً للناس » .

([3]يابُشْراى) : نادى البشرى ، كقوله : ياحسرتى ، وأضافها إلى نفسه . وقرىء يا بشرى ، بحذف ياء المتكلم . والمعنى كذلك . وقيل على هذه القراءة نادى رجل منهم اسمه بشرى ، وهذا بعيد ؛ لأنه لما أدْلَى الدَّلْوَ فى الجبّ تعلّق به يوسف ، فحينئذ قال : يابشراى ، هذا غلام .

([4]يُرْسِلَ) : قرىء بالرفع على تقدير : أو هو يرسل ، وبالنصب عطفا على « [4]وحيا » ؛ لأن تقديره أن يوحى ؛ فعطفت أن على أن المقدرة .

([5]يُنَشَّأ فى الحِلْيَة) ؛ أى يكبر ويَنْبت فى استعمال الحلى من الذهب والفضة ، والمراد بهم النساء . وقرىء يَنْشأ بضم الياء وتشديد الشين ، بمعنى يُرَبّى فيها . والمقصد الرد على الذين قالوا : الملائكة بناتُ الله ، كأنه قال: أجعلتم لله من ينشأ فى الحلية ؛ وذلك صفة النّقْصِ ، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى وهى أنّ الأنثى[6] إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أنْ تبين حجّتَها لنَقْص عقلها ، وقلما تَجِد امرأةً لا تفسد الكلام وتخلط المعانى ، فكيف يُنْسب

(١) الكشاف : ٢ ـ ٣٤٢ (٢) مريم : ٢١ (٣) يوسف : ١٩
(٤) الشورى : ٥١ (٥) الزخرف : ١٨
(٦) فى الآية نفسها : وهو فى الخصام غير مبين .

لكاملٍ من اتصف بنقصٍ . وأغربُ من ذلك أنهم يجعلون لأنفسهم الذكور، «[1] ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يَشْتَهُون». وإعراب «من ينشأ» مفعول بفعل مضمر، تقديره : أجعلتم لله مَنْ ينشأ فى الحلية ، أو مبتدأ وخبره محذوف، تقديره : أو من ينشأ فى الحلية خَصَصْتُم به الله .

([2] يَسْتَغِيثَانِ اللهَ ، وَيْلَكَ آمِنْ) : ضمير التثنية يعود على الوالدين الذين يستغيثان بالله مِن كراهتهما لما يقول ابْنهما من الكفر، فيقولان له : وَيْلكَ آمِنْ ، ثم يأمرانه بالإيمان فيقول : «[3] ماهذا إلا أساطِيرُ الأولين»؛ أى قد سطّره الأوّلون فى كتبهم ، وذلك تكذيبٌ بالبَعْث والشريعة .

واختلف فيمن نزلت هذه الآية ؛ فقيل فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق حين كُفْره ، كان أبوه وأمّه يدعُوانِه إلى الإيمان فيأبى ، ويقول لهما : أُفٍّ لكما . وأنكرته عائشةُ رضى الله عنها ، وقالت : والله ما نزل فى آلِ أبى بكر شىء من القرآن إلا براءتى . وكان عبد الرحمن بن أبى بكر من خِيار المسلمين ، وكان له فى الجهاد غناء عظيم .

وقال السدّى : ما رأيت أعبد منه . والصحيحُ أنها على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفْر والعقوق لوالديه ، ويدل على أنها نزلت على العموم قوله : «[4] أولئكَ الذين حَقّ عليهم القَوْلُ فى أُمَمٍ» ، بصيغة الجمع ، ولو أراد واحداً بعينه لقال ذلك الذى حقّ عليه القول .

([5] يتدبَّرُون القرآنَ) ؛ أى يتفكرون فى معانيه ، لتظهرَ أدِلّته

---

(١) فى النحل : ٥٧ (٢) الأحقاف : ١٧ (٣) الأحقاف : ١٧

(٤) الأحقاف : ١٨ (٥) محمد : ٢٤

وبراهينه ، وفيها حضٌّ على التدبر والتفكّر فيه . وقد كان صلى الله عليه وسلم يقرؤه بخشوع من غير هَذْرَمة .

([1] يَبْخَلُ) : البخل هو الغمّ بالإعطاء والفرح بتركه ، وأما البخيل فهو الذى يغتمّ بالإعطاء ويذمّ عليه ، ويفرح بتركه ؛ وهذا من صفات البخل كما قدمنا : [2] « وأُحْضِرت الأنفُس الشُّحَّ » .

([3] يَتِرَكُمْ أعمالكم) ؛ أى ينقصكم ، يقال وترت الرجل ترةً ، إذا نقصته شيئا . وكيف ينقص السيد عبده ، هذا فى مخلوق فكيف بالغنى على الإطلاق ، ولما نزلت : « [4] فمَنْ يعمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيرا يرَه . ومَنْ يعمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يرَه » — شقّ ذلك على الصحابة . وقالوا : يارسولَ الله ، إذا جازانا الله بأعمالنا هلكنا ، فأنزل الله المضاعفة لأعمالهم ، والمضاعفة فى الحسنة لا حَصْرَ لها ولا مضاعفة للسيئة .

([5] يُطِيعكم فى كثير من الأمرِ لَعَنِتُّم) : إنما لم يقلْ أطاعكم ، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرارَ طاعتِهِ عليه السلام لهم . والحقّ خلاف ذلك ؛ وإنما الواجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ، وذلك أنّ رأيه عليه الصلاة والسلام خير وأصوب مِن رأى غيره ، ولو أطاع الناسَ فى آرائهم لهلكوا ؛ فالواجب على الناس الانقياد إليه والطاعة لأمره .

([6] يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيْرًا منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أنْ يَكُنَّ خيرا منهنّ) : نهى الله فى هذه الآية عن الاستهزاء بالناس واحتقارهم .

---

(١) محمد : ٣٨ (٢) النساء : ١٢٨ (٣) محمد : ٣٥ (٤) الزلزلة : ٧ ، ٨
(٥) الحجرات : ٧ (٦) الحجرات : ١١

ولما كان « القوم » لا يقع إلا على الذكران [١٣٠٩] عطف النساء عليهم ، فالسخرية بالنساء من أعظم العيوب عند علام الغيوب . ولعلّ المسخور منه خيرٌ من الساخر عند الله ، والأعمال بالخواتيم ، ولا تقعُ هذه الخصلة الذميمة إلا من جاهل بنفسه راضٍ عنها ، فيتكبّر ويعجب ، ولو رأى نفسه أقلّ خَلْقِ الله لم يسخر ممّنْ هو عند الله أعلى منه ، ولذلك قيل : مَنْ ظنّ أنه خير من الكلب فالكلب خير منه . فالعاقل يرى الصغير أفضلَ منه ، ويقول : أنا عصيت الله ، وهذا لم يعصه ، والكبير يقول : هذا عبَد الله أكثر مني ، فهو أفضل ؛ لأن مَنْ زادك في العبادة فَضَلك ، والذي هو مثله يقول : لم يَعْصِ الله ، ولعل له خَبِيّة من عَمَلٍ صالح لم أطلع عليها ، وأنا ليس لي شيء ، وبالجملة فلم يصدر هذا إلا مِنْ مُعْجَبٍ بعمله ، متكبّر ، وكم أهلكا[1] من عالم وعابد وزاهد .

([2] يغتَبْ بعضكم بعضاً) : الغيبة : ما يكره الإنسان ذِكْرَه من خَلْقه أو خُلُقه أو دِينه أو أفعاله أو غير ذلك . وفي الحديث : قيل : يارسول الله ؛ وإن كان حقّاً ؟ قال : إذا قلتَ غيْرَ الحق فذلكَ البهتان .

وقد رخّص في التجريح في الشهادة والرواية وفي النكاح وشِبْهه ، وفي التحذير من أهل الضلال ؛ ولا غيبةَ في فاسقٍ أو مجاهرٍ بالكبائر ، وسامعها شريكه مالم ينكرها بلسانه ، ومع خوفه فبقلبه ، وعليه قطعها بكلامٍ ، وإلا ينصرف ؛ فإنْ عجز لزمه شغل قلبه ولسانه عنها .

روى : مَنْ أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره أذلّه الله على رءوس الخلائق .

---

(١) أي الكبر والعجب . (٢) الحجرات : ١٢

وروى : من حَمَى مؤمناً مِن منافق يغتابه بعث الله له ملكاً يحمي لحمَه يوم القيامة مِنْ نار جهنم ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادُّها ، كما سعد بها قائلها .

وبواعثُ الغيبة التشكى ، وموافقة ونحوها للذاكرها ، أو رفعة لنفسه أو حسد أو لعب ، ومتى رأى عيْباً حرم التصديق ما احتمل تأويلا ، ومتى تحقق نصح حتما ، وسكت ستْراً للنهى عن التلفظ به ، فاعلا أو مفعولا حيث قال : « بعضكم بعْضاً » .

وتشبيه المغتاب بآكل الميتة[1] وهو منفّرٌ طبعاً وشرعا ، والإتيانُ بهمزة الإنكار ، ثم بلفظ المحبة ، ثم بقوله : « أحدكم » كأنه يقول : هل يوجد فى العالم أحدٌ يحب أكْلَ الميتة ، ثم المبالغة بلحم الأخ ، ثم بأكله . وجه المناسبة إدارة حنكه ، فالغيبةُ كالأكل ، ثم بقوله : ميتاً ؛ فإنه أبلغ فى النفرة ، ثم التأكيد بقوله : فكرِهتموه ، ثم التعريف بأن من التقوى تركَ ذلك ، ثم التحريض على التوبة بقوله : « [2] واتقوا الله إنَّ الله توّابٌ رحيم » .

قال أبو على الفارسى : كراهة هذا اللحم يدعو إليها الطبع ، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحقُّ أن يجاب ؛ لأنه بصير عالم ، والطبع أعمى جاهل .

وصَحّ إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، ونواهيها مشهورة جدًّا ، فما ظنكَ بكلمة لا تسلم منها بتوبة المظلمة حتى تبرأ ؛ فهى أشدُّ على النفس من الربا والزنى ، وتنقل حسناتك لغيرك ، وتعذَّب بذنوبه التى تحملتها بغيبته ، وعرّضتك لسخطِ الله ومقْته ، وكان تعالى فيها خصيمك .

---

(١) فى الآية نفسها (١٢) : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ...

(٢) الحجرات : ١٢

ويقال ليتك استحييت من الله كاستحيائك من مخلوق لا تغتابه بحضرته، فإنا لله وإنا إليه راجعون من خصلة نحن فيها ليلا ونهارا ولا ازدجار منها ، ولا توبة ، ونتهاون بها ، ونعظم الربا ، مع أنها أعظم كما تقدم ويظهر لك بالحديث : الربا اثنان وسبعون بابا أدناها مثل أن يطأ الرجل أمه . وفي حديث آخر : إن من أربى الربا استطالة المسلم في عرض أخيه بغير حق . فانظر بُعْد ما بينهما يَبُخْ لك عظيم ما ارتكبناه ، إلا أن يعفو الله بإرضاء خصمائنا وإلا هلكنا . «[1] ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» . وكان الواجبُ علينا ألا نخاطب ربنا بهذا الخطاب إلا بعد التوبة النصوح ، وحُسن الارتجاع ؛ لكنا نرجو من كرم الكريم العفوَ عن اللئيم بجاه نبيه الكريم .

([2] يرتابوا) : يشكوا .

([3] يمنّون عليك أن أسلموا) : نزلت في بني أسد من خزيمة ، وهي قبيلة كانت تجاورُ المدينة ، وكانوا مسلمين ظاهرا ويحبون المغانم وعرَضَ الدنيا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا آمنا بك وصدقناك ، ولم نحارِبْك كما فعلتْ هوازنُ وغطفان وغيرهم . فَرَدَّ الله عليهم بقوله : «[3] بل الله يمنُّ عليكم» : يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم ، أو بمعنى يذكر إنعامه . وهذا أحسن ؛ لأنه في مقابلة : يمنّون عليك .

([4] يَلِتْكم) : ويألتكم بهمزة قبل اللام — قراءتان ، بمعنى ينقصكم . والخطابُ لمن أطاع الله ورسوله .

---

(١) الأعراف : ٢٣ (٢) الحجرات : ١٥ (٣) الحجرات : ١٧

(٤) الحجرات : ١٤

فإن قلت : هذا الخطابُ وقع فى بنى أسد ، فكيف يعطيهم أجُورَ أعمالهم؟ وقال : إنهم لم يؤمنوا ، ولا تقبل الأعمال إلا من مؤمن ؟

والجواب : إن طاعةَ الله ورسوله تجمَعُ صِدْقَ الإيمان وصلاح الأعمال ؛ فالمعنى إن رجعتُم عما أنتُم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم ، وعملتم أعمالا صالحة ، فإنَّ الله لا ينقصكم منها شيئا .

([1] يوم يُنادِ المُنَادى من مكانٍ قريب) : المنادى هنا إسرافيل الذى ينفخُ فى الصور . وقيل : إنما وصفه بالقُرْب ، لأنه يسمعُ جميعَ الخلق . وقيل : المكان صخرة بيت المقدس ، وإنما وصفها بالقُرْب لقربها من مكة . وقيل لقُرْبها من السماء ، لأنها أقربُ الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا ؛ وهذا ضعيف .

([2] يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعا) : العامل فى هذا الظرف معنى قوله : « [2] حَشْرٌ علينا يسير » . وهو بَدَلٌ مما قبله .

([3] يُسْرًا) : صفة لمصدر محذوف ، ومعناه أنّ السفن تجرى فى البحر بسهولة .

([4] يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ) : أى يصرف . والضمير فى « عنه » يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو للقرآن ، أو للاسلام . والمعنى يُصرف عن الإيمان به مَنْ صُرِف ؛ أى مَن سبَقَ فى عِلْم الله أنه مصروف . وقيل : إن الضمير لما «[5] توعدون» ، أو للدين[6] المذكور . والمعنى يصرف

---

(١) ق : ٤١ (٢) ق : ٤٤
(٣) الذاريات : ٣ (٤) الذاريات : ٩ (٥) الذاريات : ٥
(٦) الذاريات (٦) : وإن الدين لواقع .

عن الإيمان به من صُرِف . وقيل : إنّ الضمير للقول المختلف[1] .

والمعنى يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام مَنْ قَضَى الله بسعادته ؛ وهذا القولُ حسن، إلا أنّ عُرْفَ الاستعمال في أفك يؤفك إنما هو في الصَّرْف مِنْ خيرٍ إلى شر ، ومن شر إلى خير . وقيل : إن الضمير للقول المختلف ، وتكون « عن » سببية . والمعنى يصرَف عن ذلك القول مَنْ صرِف عن الإيمان.

([2] يسألونَ أيّانَ يَوْمَ الدين . يَوْمَ هُمْ على النارِ يفتَنُون) : يحرقون ويعذّبون . ومنه قيل للحَرّة فَتِين ، كأن الشمسَ أحرقَتْ حجارتَها . ويحتمل أن يكون « يوم هم » معربا ، والعامل فيه مضمر ، تقديره يقع ذلك «يوْمَ هم» على النار يُفتنون ؛ وأن يكون مبنيا لإضافته إلى متى[3] ؛ وعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب بالفعل المضمر حسبما ذكرنا ؛ أو في موضع رفع ؛ والتقدير هم يوم هم على النار يفتنون .

([4] يهجَعُون) : في معنى هذه الآية قولان : أحدها — وهو الصحيح : كانوا ينامون قليلا من الليل ، ويقطعون أكثَرَ الليلِ بالسهر في الصلاة والتضرّع والدعاء . والآخر أنهم كانوا لا ينامون بالليل لا قليلا ولا كثيرا ، ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين ؛ فأما على القول الأول ففي الإعراب أربعة أوجه :

الأول أن يكون « قليلا » خبر كانوا ، و « ما يَهجَعون » فاعل بقليل ؛

---

(١) الذاريات (٨) : إنكم لفي قول مختلف . (٢) الذاريات ١٢ ، ١٣

(٣) الذي في الآية : « أيان » . (٤) الذاريات : ١٧

لأن «قليلا» صفة مشبّهة باسم الفاعل، وتكون «ما» مصدرية ؛ والتقدير كانوا قليلا هجوعهم من الليل .

والثانى مثل هذا إلا أنّ ما موصولة ، والتقدير كانوا قليلا الذين يهجعون فيه من الليل .

والثالث أن تكون ما زائدة وقليلا ظَرْف،والعامل فيه يَهْجَعون ؛ والتقدير كانوا يهجعون وقتاً قليلا من الليل .

والرابع مثل هذا إلا أن « قليلا » صفة لمصدر محذوف ؛ والتقدير كانوا يهجعون هجوعا قليلا .

وأما على القول الثانى فنى الإعراب وجهان :

أحدها أنْ تكونَ « ما » نافية ، وقليلا ظرف ، والعامل فيه يَهْجَعون ؛ والتقدير : كانوا مايهجعون قليلا من الليل .

والآخر أن تكونَ ما نافية وقليلا خبر كان ؛ والمعنى كانوا قليلا فى الناس ، ثم ابتدأ بقوله : من الليل ما يَهجَعون ؛ وكلا الوجهين باطل عند أهل العربية ، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ؛ فظهر ضعف هذا المعنى ببطلانِ إعرابه .

([1] يَوْمَهم الذى فيه يصْعَقُون) : يعنى يوم القيامة ، وذلك لشدة هَوْله [١٣١٠] .

([2] يلتقيان): ضمير التثنية يعود على البَحْرَين المذكورين فى قوله: و [3] هذا

---

(١) الطور : ٤٥ (٢) الرحمن : ١٩ (٣) فاطر : ١٢

عَذْبٌ فُرَاتٌ » ، «وهذا مِلحٌ أجاج » ؛ أي يلتقي ماءُ هذا وماء هذا ، وإذا نزل المطر في البحر على القول بأنّ البحر العذب هو المطر ، وأما على القول بأنّ البحر العذب هو الأنهار والعيون ، فالتقاؤهما بانصباب الأنهـــار في البحر ، وأما قول القائل بأن البحرين بحر فارس والروم وبحر القلزم واليمن فضعيف .

([١] يَسأَلُهُ مَنْ في السموات والأرض) ؛ أي يسألونه حوائجهم ، فمنهم من يسأله بلسان المقال ، ومنهم من يسأله بلسان الحال ؛ لأنّ جميعهم مفتقر لفضله ونواله وإمداده . وقد قدمنا أنّ المراتبَ السبع من جماد ونامٍ وحيوان ، وناطق وممتحن ومؤمن ومحب ، جميعُهم متضرعون مقبلين أو مدبرين . فسبحان من وسع سَمْعُهُ أصواتَهم وحركاتهم وسكناتهم .

([٢] يُعْرَفُ المُجْرِمُون بِسِيمَاهم) . يعني بعلامتهم ، وهي سوادُ الوجوه وغير ذلك ، وقد قال في آية أخرى : « [٣] هذه جَهَنَّمُ التي يكذِّبُ بهـــا المجرمون . يطوفون بينها وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . يعني أنّ الكفارَ يتقلّبُون من الزمهرير إلى الحر ، ومن الحرّ إلى الزمهرير ، رجاء الاستراحة مما هم فيه ؛ فلا يجدون إلا أشدّ من منازلهم ، فهم في عذابِ جهنم مخلّدون : « [٤] لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون » .

([٥] يَطْمِثْهُنَّ) : المعنى أنهن أبكار لم يطمثْهُنَّ ... بخروج الدم . وقيل : الطمث الجماع ، سواء كان لبكر أو غيرها ، أو نفى أنْ يطمثهن إنس أو جانّ مبالغة ، وقَصْدًا للعموم ، فكأنه قال لم يطمثْهُنَّ شيء . وقيل : أراد لم يطمث نساءَ الإنس إنس ، ولا نساء الجن جن .

---

(١) الرحمن : ٢٩ (٢) الرحمن ٤١
(٣) الرحمن ٤٣ ، ٤٤ (٤) الزخرف : ٧٥ (٥) الرحمن : ٥٦ ، ٧٤

وهذا على القول بأنّ الجن يدخلون الجنة ، ويتلذّذون فيها بما يتلذّذُ البشر . وقد قدمنا أنهم فى رَبَض الجنة لا يسكنون مع الإنسان ، وأن رؤيةَ الله خاصةٌ بالإنس على المشهور . وقد صحّ أنّ الله تعالى إذا خلق الجاريةَ من الحُور العين خلق عليها خيمة من الدُّرّ ستراً لها وغيرة على مَنْ خلقها له ألاّ يراها غيره .

فما لكَ يامحمدى لا تغير أنتَ عليه إنْ كنت تحبُّه ، ولا أرى لكَ ذلك ؛ لأنك تقول رضيت بالله ربًّا ولم تَرض بقضائه .

وتقول : تحبه ، وأنتَ تحب غيره وتقول وجّهتُ وجْهِيَ له ، وقد وجّهتَهُ لدنيا وأهلٍ ومالٍ وولدٍ . أما علمتَ أن حقيقةَ العبودية الإقرار لمعبودها ، لا رَاعَى الله من لا يراعى القسم . ربُّك يعاملك بكل ما تريد ولا تفعل له مايريد ، كلُّ ذلك لكَ لاله ؛ إذ هو غنى عن العالمين .

((1) ياقوت) : هو حجر عزيز يضيء أعلاه كالقمر ، وهو قليلُ الوجود ، وهو أنواع . وذكر الجواليقى[2] والثعالبى أنه فارسى ، وشبّهَ الله نساءَ الجنة بالياقوت ، وأين الياقوتُ منهن ؟ ولكن خاطب عبادَه بما يفهمونه . وقد قدمنا أنّ أحوالَ الدنيا إنما هى أنموذج على مافى الآخرة لامِثْلها .

((3) يُصِرُّونَ) ؛ أى يدومون من غير إقلاع . قال ابنُ الجوزى : معناه يضجّون بالحبشية .

((4) يُنَزِّلُ على عَبْدِه آياتٍ بَيِّنات) : المراد به سيدنا ونبينا ومولانا

---

(١) الرحمن : ٥٨ (٢) المعرب : ٣٥٦ (٣) الواقعة : ٤٦

(٤) الحديد : ٩

محمد صلى الله عليه وسلم للتشريف والتكريم . وقد قدمنا أنّ هذه الإضافة خاصة به، كقوله تعالى: «[1] وأنه لما قام عَبْدُ الله». «[2] سبحان الذي أسْرَى بعبده». فما أشرفها من إضافة ! وما ألذّه من خطاب !

([3] يَسْعَى بين أيديهم وبأيْمَانهم): الضمير للمؤمنين ، يعني أنهم يكون لهم نور يوم القيامة أمامهم ومِنْ خلفهم على قَدْر إيمانهم ؛ منهم مَنْ يكون نوره كالنخلة السَّحُوق ، ومنهم ما قرب من قدميه ، ومنهم مَنْ يضيء مرة وينطفئ أخرى كالشمعة . والكافرون والمنافقون لا نُورَ لهم ، فيرون[4] المؤمنون لأنوار محدقة فيقولون : «[5] انظُرونا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكم . قيل ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نورا . . . » الآية . وقيل : إن هذا النور استعارة يرادُ به الهُدَى والرضوان .

والأول أصح ، لوروده في الصحيح .

([6] ألم يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ الله) : أنى الأمْرُ إذا حان وقتُه ، « وذِكْر الله » يحتمل أن يريد به القرآن ، أو الذّكر ، أو التذكير ، أو المواعظ . وهذه آيةُ موعظةٍ وتذكير ؛ قال ابن عباس : عُوتِب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من [٣١٠ ب] نزول القرآن ، وسمع الفُضَيل بن عياض هذه الآية فكانت سببَ رجوعِه .

وحكى أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضرب به فنطق بهذه الآية فكسره ابنُ المبارك وتاب .

---

(١) الجن : ١٩ (٢) الإسراء : ١

(٣) التحريم : ٨ (٤) هذا بالأصلين ، وهو استعمال يكثر منه السيوطي !

(٥) الحديد : ١٣ (٦) الحديد : ١٦

وحكى أنه كان فى غار السودان عابد فأتى بعض الشباب بعود وكوز من الخمر ، فجلس بأعلى الغار من غير عِلْم بالعابد ، فلما شرع فى ضَرْبِ العود والسكر قرأ العابد : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ... » الآية ، فسمعه الشابُّ ، فقال: بلى ، آنَ ، وكسر العود والكوز ، وخرج فارًّا بنفسه ، فتبعه العابد ، فعرضت له بِرْكَة السودان فمشى على الماء . قال العابد : فتبعتُه فغرقت . ولم أقدر على اتباعه ، فرفعت رأسي ، وقلت : آلهى لىعلى بابك أربعون سنة ، ولم أَنَلْ مانال هذا فى ساعة ، فسمعت هاتفا يقول : ذلك فَضْل أُوتيه من أشاء .

وأنت ياحمدى تتلوها كلَّ ساعة ولا ترجع إلى ربك ! أهكذا شأنُ مَنْ يريد الرجوعَ إلى الله ! كلاَّ والله ، ليس ثَمَّ رجوع ولا ندم ، وإنما هو انهماك فى المعاصى وقلةُ الخضوع ، إلهى لا التوبة تدوم لى ، ولا المعصية تنصرف عنى ، ولا أدرى بِمَ يختم لى، غير أنّ سابقة الحسنى أوجبت لى حسْنَ الظنِّ ، وقد قلتَ : أنا عند حُسن ظنّ عَبْدِى بى فليظنْ بى ماشاء ، فهَبْ لى توبةً منك باقية، واصرف أزمةَ الشهوات عنى ، وامح زينتها من قلبى بزينة الإيمان بجاه سيد الثقلين عليه أفضل صلاةٍ وأزكى تسليم ، ما اختلف المَلَوَان .

(⁽¹⁾ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قَبْل فطال عليهم الأمد) : عطف : « ولا يكونوا » على « أنْ تخشع⁽¹⁾ » . ويحتمل أن يكون نهيًا ، والمراد التحذير من أن يكون المؤمنون كأهلِ الكتب المتقدمة ، وهم اليهود والنصارى . فى حِرْصهم على الدنيا وصرف هممهم إليها ، فكم خوَّفنا سبحانه ونهانا قولا وفعلا ، أدّب الملائكة بإبليس : بعد عبادة ثمانين ألف سنة ترك

---

(١) الحديد : ١٦

سجدةً طُرِد . أبونا آدم عليه السلام بأكلة لم يُؤْذَن له فيها ، أُهْبِط إلى الأرض وبكى مائتي سنة ، وأتعب ذريته . نوح عليه السلام بكلمة «إني أعِظك» لم يرفع رأسه حياءً أربعين سنة ، فاحذرَ مِنْ مَيْلٍ إلى دُنْيا تعدك بمال ، فإنه مهلك ، كبلعام سلب ولم يقبل أبدا ، وكان يعلم الاسْمَ الأعظم .

وبرصيص العابد بعد عبادةِ مائةِ سنة قرنه الله مع إبليس فى قوله تعالى مثله: «[1] كمَثَلِ الشيطانِ إذْ قال للانسانِ اكفرْ ، فلما كفر قال إنى برىءٌ منكَ » . وتأمّل الحدودَ المرتبة على الذنوب مِن حدِّ قطع عضو فى خمسة دراهم . ولو لم يكن من التخويف إلا قوله تعالى : « [2] إن عذابَ رَبِّهم غيْرُ مأمون» ، وإذا سأل الصادقين عن صدقهم فكيف بمن عصى ؟

قال بعضهم : الصدق على ثلاث مقامات : صدق فى العزم ، وصدق فى اللسان ، وصدق فى الأعمال ؛ فصدق العزم تجديد الإرادة ، وصدق اللسان محاسبة النفس قَبْلَ إطلاق القول ، وصدق الأعمال ركوبُ الجهد بترك العادة النفسية .

فآفَةُ صدقِ العزم العجز ، وآفة صدق اللسان المعارضة ، قال تعالى فى بعض كتبه : إذا استوَتْ أقدامُ الأنبياء فى الآخرة فى صفّها أسأل الصادقين عن صدقهم ، فتحتاج إذ ذاك الأنبياءُ إلى عفوى ، وأقدم حبيبى أمامَهم بخطوة الصدق الذى أتى به بارزا على جميع الأنبياء ، وهو مقامُ الوسيلة الذى وعدته بفَيْلِه ، ولا سؤالَ أعظم من سؤال الصادقين عن صدقهم ، لأنى أطالبهم

---

(١) الحشر : ١٦ (٢) المعارج : ٢٨

بصدق الصدق ، وقد عجز المخلوقون أجمعُ عن الصدق ، فكيف يجيبون عن صِدْقِ الصدق .

اللهم لا حيلةَ لنا في الوصول إلى منزلِ الصدق عندك إلا باطِّراح أنفسنا قولاً وفعلا ، لأنكَ أنتَ أنت ونحن نحن ، ولا بدّ لنا منك ، فارحم ذلَّنا بين يديك يا أرحمَ الراحمين .

([١] يظاهِرُون منكم مِنْ نسَائِهِمْ) : بالتشديد والتخفيف بحذف الألف وإثباتها مع التخفيف ، ومعناها واحد ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنتِ عليّ كظهرِ أمّي ، ويجري مجرى ذلك [١٣١١] عند مالك تشبيه الزوجة بكل امرأة محرّمةٍ على التأبيد ، كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع ، والمحرمات بالصهر ، سواء ذكر لفظَ الظَّهْرِ أو لم يذكره ، كقوله : أنتِ عليّ كأمي ، أو كبطن أمي ، أو يدها أو رجلها ؛ خلافا للشافعي ؛ فإنَّ ذلك كلَّه ليس عنده بظِهار ، لأنه وقف عند لفظ الآية . وقاس مالك عليه ، لأنه رأى أن القصد تشبيه حلالٍ بحرام .

([٢] يَتَمَاسَّا) : المراد بالمسيس هنا الوطء ، وما دونه من اللمس ، والتقبيل ؛ فلا يجوزُ للمظاهر أنْ يفعلَ شيئا من ذلك حتى يكفِّر .

وقال الحسن والثوري : أراد الوطء خاصة ، فأباحوا ما دونه قبل الكفّارة . وذكر الله قوله : « قبل أن يتماسَّا » في التحرير والصوم ، ولم يذكره في الإطعام .

واختلف العلماء في ذلك ، فحمل مالك والشافعي الإطعام على ما قبله ،

---

(١) المجادلة : ٢ (٢) المجادلة : ٣ ، ٤

ورأى أنه لا يكونُ إلا قبل المسيس ، وجعل ذلك من المطلق الذى يُحمَل على المقيّد . وقال أبو حنيفة : يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطَأَ قبل الكفّارة ، لأنّ الله لم ينصّ فى الإطعام أنه قبل المَسِيس .

([1]يُخْرِبُونَ بُيُوتَهم بأيديهم وأيْدِى المؤْمنين) : أمّا إخرابُ المؤمنين فهو هَدْمُ أسوارِ الحصون ليدخلوها ؛ وأسند ذلك إلى الكفار فى قوله : « يُخْرِبون » ؛ لأنه كان بسبب كفرهم وغَـدْرِهم ؛ وأما إخرابُ الكفار لبيوتهم فلثلاثةِ مقاصد : أحدها حاجتُهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواهَ الأزقّة ويحصّنوا ما أخْرَبه المسلمون من الأسوار . والآخر ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسّوارى وغير ذلك . والثالث ألاّ تبقى مبا كنهم مبنيّة للمسلمين ؛ فهدَمُوها شُحًّا عليها .

([2]يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَنْ يشاء) : بالقتل والفىء والأَسْرِ وغيرها .

([3]يَثْقَفُوكم) : يظفروا بكم .

([4]يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذين قاتَلُوكم فى الدِّين) : هم كفار قريش ، والآية فى النهى عن الإحسان إليهم والتحبُّب إليهم . وأما مَنْ لم يقاتل فقد قدمنا فى حرف اللام أنّ الله رَخَّص للمسلمين فى صلتهم . وقد صحّ أن أسماء بنت أبى بكر قالت : يارسولَ الله ، إنّ أمّى قدمَتْ علىّ وهى مشركة أفأصِلُها ؟ قال : صِلِى أمّك .

([5]يَئِسُوا من الآخِرَة) ، أى من خيرها والسعادة فيها .

---

(١) الحشر : ٢ (٢) الحشر : ٦ (٣) الممتحنة : ٢ (٤) الممتحنة : ٩
(٥) الممتحنة : ١٣

(١) «يابنى إسرائيل إنى رسولُ الله إليكم مصدّقاً» : هذا القولُ من عيسى عليه السلام تعريضٌ لهم واستدعاءٌ لهم أن يتدينُوا بدينه ، وأن يُصدقُوا بما صدّقَ به . « ومصدّقا » حال مؤكدة ، « ومبشرا » عطف عليه .

والمعنى أُرسلتُ إليكم فى حال تصديق بما تقدمنى من التوراةِ ، وفى حال تبشيرى برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وإن دينى التصديق بكتاب الله وأنبيائه جميعا ممّنْ تقدّم أو تأخّر .

فإن قلت : لمَ لمْ يقل : « ياقوم » ، كقول موسى عليه السلام: «(٢) ياقوم لم تؤذُونَنى » ؟

والجواب أنّ عيسى عليه السلام لا نسبَ له فيهم ، فيكونوا قومه ، إذ لم يكن له فيهم أب .

فإن قلت : لم جاء قولُ عيسى عليه السلام فيما يرجع إلى التوراة بلفظ التصديق ، وفيما يرجع إلى النبى عليه السلام بلفظ البشارة ، ولِمَ قال : «مصدقا» بالتوراة ولم يقل بموسى ؟

قلت : المراد أنْ يخبر عليه السلام بأنه مصدّق بمَنْ تقدم وتأخر من رُسله وكتبه ، فجاء لفظُ التصديق بالتوراةِ على الأمر المقصود ، والتصديق بالتوراة يستلزمُ التصديقَ بمَنْ جاء بها ، وكأنه نزّهَ الرسولَ الذى جاء بها عن أن يُستَرابَ برسالته حتى يحتاج إلى مَنْ يصدقه ممن هو مثله .

ولما كان مجىء محمد صلى الله عليه وسلم أمرا منتظرا حَسُنَ التبشير به ،

---

(١) الصف : ٦ (٢) الصف : ٥

والبشارةُ به تتضمَّن تصديقَه سيما وقد سمَّاه رسولا وعرفه بأحمد ، الاسم المسمَّى به فى السماء عند الملأ الأعلى ، وهو أفخم للمسمى ، وأبلغ فى تفخيمه .

وهنا نكتة لطيفة ؛ وهى أنَّ المبشَّر به يشعر بأن البشارة به تقتضى بأنه يأتى بأمور فيها البشرى لمَنْ جاءهم بها وقبلوها منه . قال [٣١١ ب] ابن عطية : وهو فى هذه الآية الكلمة لا الشخص ، وليست على حدِّ قولك : جاءنا أحمد ؛ لأنك هاهنا أوقعتَ الاسمَ على مسمَّاه ، والآية إنما أراد فيها باسمه هذه الكلمة . ووقع للفخر فى سورة الحمد مناسبة اشتقاق اسمه أحمد ومحمد من الحمد ، لأنه أول ماخلق الله العقل ، فكان أول ما نطق به الحمد ، وكان آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، فناسب الخَتْم أن يكونَ من نوع المبدأ ، فاشتقَّ له من الحمد اسمان : محمد ، وأحمد ، فأهلُ السماءِ هو أحمدهم ، وأهل الأرض هو محمدهم .

فإن قلت : لم أخَّرَه صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الخلق ؟

والجواب لخصائصه وخصائص أمته ؛ منها أن مَنْ تقدم ظهرت فيهم الصناعة المحتاج إليها ، فظهرت الحراثةُ من آدم ، والخياطة من إدريس ، والنجارة من نوح ، والقيانة من داود ، والخرازة من الياس ، وغير ذلك من الصنائع التى احتيج إليها ، فجاءت إليهم مهذَّبة ، ومنها لئلا يطلع على مساويهم أحدٌ من الأمم . ومنها لئلا يطول مكثهم فى التراب . ومنها ليكونوا شهداءَ على مَنْ تقدَّم ، وغير ذلك من الخصائص التى نالوها بسببه صلى الله عليه وسلم ويطول ذكرها .

فإن قلت : هل لتسميته فى الأحزاب حكمةٌ ، لأنها مخالفة لتسمية عيسى ؟

فالجواب : أنهم كانوا لا يعرفون فى الكتب الماضية إلا هذا الاسم ،

وسِرّ تسميه به أنه أشار إليهم فيها بأنه أحدهم ، وهذا الاسم لمْ تغيره ألسنةُ العامة ، لأنهم يقولون محمّد بفتح أوله أو بضم أوله ، ويستعظمون ذِكْره على وجه المواطأة فيه ، وقد جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم للتغيير نسبة ؛ إذ قال : إنّ الله صرف عنى إيذاء قريش وسبّهم ، يسبّون ويذمّون مذمّماً ، وأنا محمد ، ولما اتصف نبينا ومولانا محمد صلى الله عليـه وسلم بكونه أباً للمؤمنين فى سورة الأحزاب ، لأنهم كانوا لا ينادونه إلا بهذا الاسم تجد المؤمن إذا دهمـه أمرٌ أو حدث له حادث لايفزع إلا لهذا الاسم الشريف ، إذلا أحسن للانسان من أبيه عنـد الفَزع . وبهذا يندفع ما نحا إليـه النووى فى الأذكار حيث يزعم أنه لا يذكر اسمه عند المشرة فا فوقها ، ولعلّ السرّ فى هذه الآية هو من ناحية نَفْىِ أبوّة الأشباح ، وصحة كونه أبا للأرواح مع كونها مقتضية للرسالة ، وختم النبوءة . وفى شرح البخارى لابن بطال أنّ الأبوة أشهر من الأمومة ، بدليل : ادْعُوهُمْ لآبائِهِم ؛ والحديث : ينصب للغادر لواءٌ يوم القيامة ثم يقال : هذا لواء فلان ابن فلان ، وإنما فرع من قال بالنسبة للأم ، لأنه رأى الستر يوم القيامة أدْخَل فى باب الإغضاء ؛ وفيما قاله نظر ؛ إذ الأبوة نسبة ظنّية والأخرى يقينية .

وفى حديث القاضى المعافى : إنما الإشـكال فى دعوى ولد الزنى يوم القيامة لأبيه ، مع أنه ليس بأبٍ شرعى .

وأجاب باحتمال دَعْوَى المجاز كأبى الأرامل ، أو أنّ أحوال الآخرة على خلاف أحوال الدنيا يُدْعَى إلى الإسلام الداعى إليه نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

([1] يَغْفِرْ لَكُمْ) : جزم في جواب « [2] تؤمنون » ، لأنه بمعنى الأمر؛ فقد قرأ ابن مسعود : آمِنُوا وجاهِدُوا — على الأمر . وقال الفراء : هو جواب « [3] هل أدُلُّكم » ؛ لأنه يقتضى التحضيض .

([4] يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحِكْمَةَ) : مَنَّ الله على عباده ببَعْثِ رسولٍ منهم وإليهم يعلِّمُهم بيانَ الشرائع والفهم ؛ ويزكّيهم : يطهرهم ، ونسب التعليم إليه ، لأنه يعلم ما في الكتب وطرق النظر بما يلقيه جبريل إليه ، فأعرضوا عنه ، وقالوا : هل بعث اللهُ ملكا .

وقد قدمنا سِرَّ بَعْثِ الرسل من البشر ؛ إذ البشريةُ لا تطيق مباشرةَ الروحانية . [٣١٢ ا] ألاَ ترى جبريل ؛ كان يخرجه صلى الله عليه وسلم من البشرية حين يُلقى إليه الوَحْى .

فإن قلت : ما فائدة تقديم العلم في البقرة ، وتأخيره في الصف وآل عمران ؟

والجواب : لأنه لما كانت دعوةُ إبراهيم عليه السلام قبل وجودِ الضلال في الذرّية المدعوّ لها ، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورَفْع ضلالهم المتوقّع لوقوعه بما يتحوته من التعليم وما يُتلى عليهم من الآيات؛ لأن ذلك هو السبب في حصولِ التزكية والسلامة من الضلال إذا وُفِّقوا للانقياد له ؛ ألا ترى ارتباطَ التزكية بأعمال الطاعات ؛ قال تعالى : « [5] خُذْ مِنْ أموالِهم صدَقةً تطهِّرُهم وتُزَكِّيهم

---

(١) الصف : ١٢ (٢) الصف : ١١ (٣) الصف : ١٠ (٤) الجمعة : ٢
(٥) التوبة : ١٠٣

بها » ؛ وإنما كان تزكيةً لهم لانقيادهم بالطاعة فيما يطلبهم به من ذلك ويأخذه منهم ، فتأخر ذِكْرُ التزكية المسببة عما به تحصل ، وذلك بعد هدايتهم للإيمان ؛ فجاء على الترتيب من بناء المسبَّب على سببه .

ولمّا كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذِكْرُ الامتنانِ عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان وُجِد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخّر ذِكْرَ تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ؛ ليكونَ تلوَ ذِكْرِ الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامْتَنَّ عليهم ، وهو ثاني المسببين ؛ فكان الكلامُ في قوةِ أن لو قيل : ويعلمهم ما به زوالُ ضلالِهم .

وأخّر في هاتين الآيتين ذِكْرَ السبب ليوصل بذكر مسببه الأكيد هنا الذي قد كان وقع وهو نفيُ ضلالهم وإنقاذهم من تمام محنته ، ولو أخّر ذِكْرَ التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا ، فاختلافُ الترتيب إنما هو بحسب اختلافِ القصدين ودافع ما ذكره أورد على ما يجبُ .

([1]يَلْحَقُوا بهم) : معطوف على آخرين ؛ أي لم يلحقوا بهم . واختلف مَنْ هم الآخرون[2] ؟ والصحيح الذي ورد في الصحاح أنهم أهلُ فارس ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سُئل عنهم ، فأخذ بيدِ سلمان ، وقال : لو كان العلم بالثريا لناله رجالٌ من هؤلاء ، يعني فارس . وقيل : هم الروم ، و « [2] منهم » على هذين القولين يريد في البشرية وفي الدين لا في النسب . وقيل : هم أهلُ اليمن وقيل هم التابعون وقيل هم سائر المسلمين .

([3] يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عليهم هم العَدُوّ) . عبارة عن شدة خوفهم

---

(١) الجمعة : ٣ (٢) في الآية نفسها : وآخرين منهم لما يلحقوا بهم .

(٣) المنافقون : ٤

من المسلمين ، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحا ظنوا أنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتلهم ؛ وفى هذا دليل على أنه كان يعلمهم .

((١) يستغفر لكم رسولُ الله لوَّوا رءوسَهم) : الضمير يعود على المنافقين ، يعنى أنهم يميلونها إعراضا واستكبارا .

وسببُ نزولِ هذه السورةِ ماجرى فى غزوة بنى المُصطلق بين جَهجاه ابن سعيد أجير عمر بن الخطاب وبين سنان الجُهَنى حليف لعبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين على الماء الذى وقع الزحام فيه ، فلطم جَهْجَاه سنانا فغضب سنان ، ودعا بالأنصار ، ودعا الجَهْجَاه بالمهاجرين ، فقال عبد الله بن أُبىّ : والله ما مثلنا ومثل المهاجرين إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كلبك يأكلك . ثم قال : « (٢) لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ » ، يعنى بالأعزّ نفسه وأتباعه ، ويعنى بالأذلِّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لقومه : إنما يقيم هؤلاء بالمدينة بسبب مَعُونتكم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتُم عنهم ذلك لفرّوا عن مدينتكم ؛ فسمعه زيد بن أرقم ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبدَ الله بن أبىّ ، فحلف لرسول الله أنه ما قال شيئا من ذلك وكذب زيدا ، فنزلت السورة عند ذلك ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لزيد ، وقال له : صدقك الله يازيد ، فخزى عبد الله بن أبىّ ومقَتَهُ الناس ، فقيل له امضِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فإنه رحيم بالأمة ، فلوَى رأسه استكبارا ، وقال : أمرتمونى بالإسلام فأسلمتُ ، وبأداء الزكاة فعلت ، ولم يبق لكم إلا أنْ تأمرونى بالسجود لمحمد ؛ فماش [٣١٢ ب]

---

(١) المنافقون : ٥ (٢) المنافقون : ٨

قتيلا ومات ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لا حيلة فى القدر : جمع الحبس والتعذيبُ بين بلال وعمار على نبذ الدين، فزوّر على عمار على خط قلبه ، فلم يعرف التزوير ، وأصر بلال على دعوى الإبلاس فسلموه إلى صبيانهم فى حديدة يصهرونه فى حرّ مكة ، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صَخْرةً ، ولسانُ محبته يقول :

بعينك مايلقى الفؤاد وما لقى　　　وللشوقِ مالم يبْقَ منى ومابقى

وجىء بأبى جَندَل يجرُّ قيودَه ، فردّه صلى الله عليه وسلم إليهم ودموعه تسيل على صدره ، وأنشد أبياتا آخرها :

وعلى ما صفحوا أو نقموا　　　لأرَى ياطيبة منك يدا

وكذلك أبو سهيل وغيره حبسوهم عنه صلى الله عليه وسلم ، فجرى القَدَرِ بالتيام ، والإيمان به ، وهؤلاء لم تسبق لهم سابقة سَبْق .

من أنتَ يابلال حتى عرج بك على براق العناية إلى حضرة القرب للقرب، وخلف عن نَيْل المطالب أبو طالب ، جئتَ ياسلمان من فارس حتى نظمتك يدُ العناية فى سِلْك سلمان منا أهْل البيت . ياصهيب ، ما الذى سمعتَ من الأخبار حتى تنملت ، ولبستَ سربالَ الهموم حتى صبغْتَ . يا ابْنَ أدهم ، مَنْ أنت حتى طرّزْتَ حلَل المنابر برقوم مدحتك . ياعتبة ، مَنْ أنتَ حتى تزيّنَتْ مجالس الأذكار بحديثك . يارابعة ، مَنْ أنتِ حتى لبيت المنادى ، وحللْتِ من القرب فى النادى ، وقيل لك : من أحبك قبلت مَنْ أتى إليك ، اللهم إنك نبّهتَ قلوبا نائمة ، وأيقظت أسماعا ساهية ، وأقمتَ بالمواعظ إلى بابك قلوبا ناسية حتى سمعوا الإشارةَ ، فأسرعوا وصفَتْ قلوبهم لمحبتك فيهم ؛

فإنهم لم يحبوك حتى أحببتهم، ولم يقربوا منك حتى أوصلتهم، ارحمنا بذكرهم، وتقبلنا كما قبلتهم؛ فإنه لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا تحرم مَنْ نظر فى كتابى هذا وقال: اللهم ارْحَمْ المحرومَ برحمتك، وإن كان غيرَ مستأهلٍ القبول، فضلك الكريم لا يرد الطفيليَّ والمتملق.

فإن قلت: ما فائدة الجمع فى قوله: «[1] وإذا قيل لهم تعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لكُمْ رسولُ الله» مع أن الخطاب لواحد؟

والجواب: إن الإسناد للتحقير وإبقاء الستر على العُصَاة حيث لم يعيّن القائل. وقد كان له أتباع من المنافقين يوافقونه على ما قال، فالخطابُ لهم.

([2]يأتِينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَة): ضمير الإناث يرجعُ إلى المطلقات. والمعنى أن الله نهى عن أن يُخرِج الرجلُ المطلقةَ من المسكن الذى طلقها فيه، ونهاها هى أنْ تخرجَ باختيارها إلا أن تأتِىَ بفاحشة.

واختلف فى هذه الفاحشة التى أباحَتْ خروجَ المعتدَّة على خمسة أقوال:

الأول أنها الزنى، فتخرج لإقامة الحدّ، قاله الليث بن سعد، والشعبى.

والثانى أنه سوء الكلام مع الأصهار، فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويلزمها الإقامة فى مسكن تتخذه حفظاً للنسب، قاله ابن عباس. ويؤيّده قراءة أبىّ بن كعب: إلا أنْ يفحشن عليكم.

والثالث أنه جميعُ المعاصى من القَذْف والزنى والسرقة وغير ذلك، فمهما

---

(١) المنافقون: ٥ (٢) الطلاق: ١

فعلتْ شيئا من ذلك سقط حقُّها فى السكنى ؛ قاله ابن عباس أيضا ، وإليه مال الطبرى .

والرابع أنه الخروج من بيتها خروجَ انتقالٍ ، فمهما فعلَتْ ذلك سقط حقُّها فى السكنى ؛ قال ابن الفرس : وإلى هذا ذهب مالك فى المرأة إذا نشزَتْ فى العدّة .

الخامس أنه النشوز قبل الطلاق ، فإذا طلَّقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى ؛ قاله قتادة .

([1]يُحْدِثُ بعدَ ذلكَ أمْرا) : المرادُ به الرجعة عند الجمهور ؛ أى أَحْصُوا العدّة وامتثلوا ما أمرتم به لعلّ الله يُحْدِثُ الرجعةَ [٢١٣ ا] لنسائكم .

وقيل المعنى : لعل الله يحدِثُ أمرا من نسخ هذه الأحكام ؛ وهذا بعيد . وقيل : إنّ سببَ الرجعة المذكورة فى الآية تطليقُ النبى صلى الله عليه وسلم لحفصة بنت عمر ، فأمره الله بمراجعتها .

([2]يتنزّلُ الأمْرُ بينهنّ) ؛ أى بين السماء والأرض . وقد قدمنا آنِفاً أنْ المراد بالأمر الوحى أو إحكام الله وتدبيره لخلقه .

([3]يَفعلُون ما يُؤمَرُون) : الضمير يعود على الملائكة الغلاظ ، لقساوة قلوبهم على مَنْ عصاه ، ويتقربون بتعنيف بنى آدم وتعذيبهم كما هو مشاهدٌ فى حَرَس ملوكِ الدنيا كلما ازدادوا عُنْفا وغلظة على المأمور به ازدادوا محبةً عند الأمير .

---

(١) الطلاق : ١

(٢) الطلاق : ١٢ (٣) التحريم : ٦

فإن قلت : قوله «(١) لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم» يُغْنى عن قوله : «ويَفعَلون ما يؤمَرون» ؟

والجواب أنه أكَّده بذلك ، ليزداد خوفُ المخاطب . أو معنى يفعلون ما يؤمرون بنشاط وجدّ فيما أمروا به من عذاب الناس . اللهم أجِرْنا من عذابك .

((٢) يوم لا يُخْزِى الله النبىَّ) : العامل فى يوم يحتمل أنْ يكونَ ماقبله أو ما بعده أو محذوفا ، تقديره اذكر ، والوقف والابتداء يختلف على ذلك .

((٣) يَسْطرونَ) : الضمير للملائكة على قول من قال : القلم هو الذى يُكتب به فى اللوح المحفوظ . وعلى مَنْ قال إنه القلم المعروف عند الناس يكون الضمير لبنى آدم .

((٤) يُبْدِلَنا خيرا منها) : الضمير لأهل الجنة التى رأوها كالصَّريم(٥) ، وقصتهم معروفة . فطلب المؤمنون منهم البدَل فى الدنيا أو فى الآخرة ، وهكذا المؤمن يرجعُ إلى الله فى نوائبه ولا يضجر مما يناله .

((٦) يبصَّرونهم . . .) الآية : يعود ضمير «بنيه» فيها إلى الحميم ، لأنها فى معنى الجمع . والمعنى أن كل حميم يبصر حميمه يوم القيامة ، فيراه ولكنه لا يسأله ، لأنه مشغول بنفسه ، وأىّ شغل وهو يودّ حينئذ أن يفدى نفسه ببنيه الذين هم أحبُّ إليه من نفسه، ولا يجد ذلك، ولذلك عطفه بثم، «(٧) ينجيه»

---

(١) التحريم : ٦ (٢) التحريم : ٨ (٣) القلم : ١

(٤) القلم : ٣٢ (٥) فى الآية ٢٠ من السورة نفسها : فأصبحت كالصريم .

(٦) المعارج : ١١ (٧) المعارج : ١٤

لبعد النجاة وامتناعها . والفاعل الذي يقتضيه : « لو يَفْتَدِي » ، وهذا الفعل معطوف على لو يفتدي ، ولذلك زجره عن ذلك بقوله : « [1] كلاّ » .

([2] يَوْمَهم الذي يوعَدون) : قد قدمنا مرارا أنه يوم القيامة ، بدليل أنه أبدل منه : « [3] يوم يَخْرجونَ من الأجداث » ، وهي القبور .

([4] يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويؤَخّرْكُمْ إلى أجَل مسمّى) : هذا من قول نوح ، وعَدَهم أن يغفر لهم ما قبل إسلامهم لا بَعده ، لأن ذلك في مشيئة الله، فمِنْ هنا للتبعيض، وقيل لبيان الجنس،وقيل لابتداء الغاية ؛ وهذان ضعيفان، والأول أولى ؛ لأن التبعيضَ فيها متّجه . وتعلّق المعتزلة بهذا ؛ فقالوا بالأجَلين. وردّ تعلقهم ؛ لأن المعنى أنّ نوحا عليه السلام لم يعلم هل هم ممّنْ يؤخر أو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجلٍ قد جاء ، لكن سبق في الأزَل أنهم إما ممن قضِي له بالإيمان والتأخير أو ممن قضِي له وعليه بالكفر والمعاجلة ، فكان الاحتمال يقتضيه ظاهر الآية إنما هو يبرزه الغَيْب من حالهم ؛ إذ يمكن أن يبرز إما الإيمان والتأخير وإما الكفر والمعاجلة ، وأمّا ما عند الله فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدّر محتوم ، وأجلهم كذلك معلوم مقدّر محتوم .

فإن قلت : ما المانع من كون « من » للغاية ، أعني الابتداء والانتهاء ؛ كقولك : أخذت المالَ من الصندوق ؟

والجواب لا يصح هنا ، لأنّ الصندوق غير مأخوذ ، بل مأخوذ منه ، فيلزم هنا أن تكونَ الذنوب غير مغفورة، ونقل عن أبي الربيع أنه إشارةٌ إلى أنّ

---

(١) المعارج : ١٥ (٢) المعارج : ٤٢ (٣) المعارج : ٤٣ (٤) نوح : ٤

الإسلامَ يحبط ماقبله . وردّ بأنه يلزم صدق الذنوب على الماضي والمستقبل ، لأن الخطابَ للكفار ، فيلزم المجاز ؛ لأن الآتي لم يعملوه ، فكيف يصدق عليه أنه ذنوب قبل الفعل . ونقل عن ابن عصفور أنه قال : يغفر لكم جملةً من ذنوبكم. ورد بأن تلك الجملة بعض الذنوب ، فلا حاجةَ إلى تقديرها ، ولفظة من النائبة مناب بعض يغنى عنها .

فتأمل يامحمدىّ هذه العناية الربّانية بكَ حيث خاطب هذه الأمّة ؛ قال فى حقهم : يَغْفِرْ لكم ذنوبكم ، وحيث خاطب الأمم [٣١٣ ب] المتقــــدمة أنبياؤهم خاطبوهم بالبعض ، اتعلم الفَرْقَ بين خطاب المولى الكريم من خطاب عبيده .

((١) يقول : سَفِيهُنَا على الله شَطَطاً) : هــذا من كلام الجنّ ، والمراد بالسفيه أبوهم إبليس . وقيل هو اسمُ جنسٍ لكلّ سفيهٍ منهم ، وهو المختارُ عند ابْن عطية .

((٢) يَعُوذُونَ برجالٍ مِنَ الجِنّ) : الضمير يعود على العرب ، لأنهم كانوا إذا حلّ أحدهم بوادٍ صاح بأعَلَى صوته : ياعزيز هذا الوادى ؛ إنى أعوذُ بك من السفهاء الذين فى طاعتك ، ويعتقد أن ذلك الجنى الذى بالوادى يحميه ، وهــذا جهلٌ منهم وإنكار للربوبية ، ولذلك قال الله : « (٢) فزادوهم رهَقاً » .

((٣) يَدْعُوه) : الضمير لعبد الله(٤) المتقدم . وقد قدمنا مرارا أنّ اللهَ

---

(١) الجن : ٤ (٢) الجن : ٦ (٣) الجن : ١٩

(٤) فى الآية نفسها .

سمّاه هذا لإضافته للتشريف والتكريم . وقال الزمخشرى : إنما لم يقل الرسول أو النبى لأن هذا وقع فى كلام رسولِ الله عن نفسه ، لأنه مما أوحى إليه ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم نَفْسَه على ما يقتضيه التواضُع والتذلل ؛ وهذا بعيد مع أنه إنما يتمكن على قراءة أنه لما قام بفتح الهمزة فيكون عطفا على أوحِى إلىّ أنه استمع . وأمّا على القراءة بالكسر على الاستئناف فيكون إخبارا من الله ، ومن جملة كلام الجن ، فيبطل ماقاله .

([1] يكونون عليه لِبَداً) : يحتمل أن يكون الضمير للكفار من الناس ، أى كادوا يجتمعون على الردّ إليه وإبطال أمْرِه ، أو يكون للجن الذين استمعوا ، أى كادوا يجتمعون عليه لاستماعِ القرآن للتبرُّك به .

([2] يجعلُ له ربّى أمَداً) ؛ أى لا أدرى أقريب ما توعدون مِن قتلكم يوم بَدْر أو موتكم بعد ، ولذلك قال : « [3] عالم الغيب » ، يعنى هذا أمر مغيب .

([4] يوم ترْجُفُ): العامل فى يوم معنى الكلام المتقدم ، وهو « [5] إنّ لدينا أنكالاً » .

([6] يجعلُ الوِلْدَان شِيباً) : يعنى أن الأطفال يشيبون يوم القيامة من شدّة الهول ، فقيل إن ذلك حقيقة ، وقيل إنه عبارة عن هَوْلِ ذلك اليوم ، وأخذ من الآية أنّ الهمّ يُسرع الشيب ، وهذا مشاهَد فى كثير من الأشخاص فى كل عصر . وقد رأينا مَنْ شاب من هَمٍّ ساعة ، ورأينا حكايات شتّى أنهم

---

(١) الجن : ١٩ (٢) الجن : ٢٥ (٣) الجن : ٢٦

(٤) المزمل : ١٤ (٥) المزمل : ١٢ (٦) المزمل : ١٧

شابوا من ذلك ، فإذا كان هذا فى الدنيا المنقرضة همومها ، لاخيرها يدومُ ولا شرها يبقى ، فمالك بيومٍ تذهلُ فيه كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت ، ويفرُّ المرءُ من أخيه ! اللهم لا محيص من هَوْله إلاّ بك ، ولا مفرّ منه إلا بعفوك ، فاجعله لنا يوم رحمةٍ لا يوم نِقْمة ، إليك المُشتكى ، وبكَ المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك .

([1] يَطْمَعُ أنْ أزِيد) : أى يطمع فى الزيادة على ما أعطاه الله ، ويظنّ أنّ حرْصَه واجتهاده يوصلُّه لمراده ، وهذا غايةُ الجهل ، ولذلك قال مهدّداً له : « [2] كلا إنه كان لآياتنا عَنيداً » .

« [3] يقول الذين فى قلوبهم مَرَضٌ والكافرون) : المراد بالأولين المنافقون ، لأنه وصفهم بمرض قلوبهم .

فإن قلت : ذلك فى البقرة ، وهذه الآية مكية ، فكيف يصحُّ اطلاقُها عليهم وليسوا بها ؟

والجواب : أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا ، ففيه إخبار بالغيب ، أو يريد مَنْ كان بمكة من أهل الشك .

([4] يَفْجُرَ أمَامَه) ، أى يفعل أفعالَ الفجور . وفى معنى « أمامه » ثلاثة أقوال : أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان ، أى يفجر بقيةَ عمره . الثانى أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته ؛ يقال : مشى فلان قُدّامه إذا لم يرجع عن شيء يريده ، والضمير على هذين القولين يعودُ على الإنسان . الثالث أن

---

(١) المدثر : ١٥ (٢) المدثر : ١٦ (٣) المدثر (٣١) : وليقول ...
(٤) القيامة : ٥

الضمير يعود على يوم القيامة . والمعنى يريد الإنسانُ أن يَفْجُرَ قبل يوم القيامة .

(١) (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامةِ) : أي يسأل الإنسان على وجه الاستخفاف والاستهزاء متى يوم القيامة . وهذا لِجَهْلِه إما على أنّ من مات فقد قامت قيامتُه وهو يشاهد الموت بَغْتة ، فكيف يستبعدها وليس الخبر كالمعاينة ، لكن الجاهل أعمى ، ولا يقال لهذا جاهل بل أحمق .

(٢) (يُنَبَّأُ الإنسان يومَئِذٍ بما قدّم وأخّر) : أي بجميع أعماله المقدمة فى عمره ، وما أخر منها بعد مماته هل سن سُنّةً حسنة أو سيئة أو صلة أوصى بها تضره أو تنفعه ، أو ما قدم من المعاصى وأخّر من الطاعات ؛ أو ما قدم لنفسه من ماله [١٢١٤] وما أخّره منه . أو ما قدم فى أول عمره وما أخّر فى آخره ويحتمل أنه ينبأ عن مجموعها . وفى الحديث : يدنو أحدكم من ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فيقول عبدى خلقتكَ بتدبيرى ، وصوّرتك بحكمتى ، وأتممت عليك نعمتى ، فلِمَ عصيتنى ؟ فأىُّ جوابٍ لك أيها العبد ؟ وفى حديث آخر : لا تزول قَدَمَا عَبْد حتى يسأل عن خمس : عمره فيم أفناه ، وشبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن علمه ما عمل فيه ، أتدرون مَنِ المُفْلس ؟ قالوا : لا ، يارسولَ الله . قال المفلس من يأتى يوم القيامة وله أمثال الجبال من الحسنات ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، وأكل مالَ هذا ، فهذا يأخذ من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته طرحت عليه سيئاتهم ، ثم طرح فى النار . اللهم ارحمنا إذا صِرْنَا إليك ، والطف بنا يومَ الوقوفِ بين

---

(١) القيامة : ٦ (٢) القيامة : ١٣

يديك ، أقسمتُ عليك بأكرم الخلق عليك وأرفعهم مكانة لديك محمد صلى الله عليه وسلم .

([1] يومئذٍ المَساق) : مصدر من السوق ، كقوله تعالى : « إلى اللهِ المَصير » .

([2] يَتَمَطّى) : الضمير يعود على أبى جهل ، وذلكَ أنه كان يتبختر فى مشيته ويتعجبُ من نسمته ، ويرى أنه أفضل قومه ، فردّ الله عليه بقوله : « [3] ألم يكُ نُطفةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى ... » الآية ؛ أى مَنْ كانت هذه حاله كيف يتبختر ، وكانت هذه المشية معروفة فى بنى مخزوم ، وختم هذه الآية بقدرته تعالى على إحياء الموتى ، لأن مِنْ لازم خَلْقِ الإنسان وتطويره على هذه الهيئة الشاهدة القدرةَ على إحياء الموتى من باب أولى .

(يَتِيماً) : قد قدمنا أنَّ اليتيمَ مَنْ فقد أباه من الآدميين ، ومِنَ الحيوان مَنْ فقد أمه ، وسَلّى اللهُ نبيه بقوله تعالى : « [4] ألم يَجِدْكَ يتيماً فآوى ... » إلى آخرها . وذلك أنه قال ليلةَ الإسراء : يارب ، اصطفيتَ آدم ، وسلمت على نوح ، ورفعتَ إدريس ، وكلمتَ موسى ، فقال له : « [4] ألم يَجِدْكَ يتيماً فآوى ... » إلى آخر ألم نشرح .

وهذا الاستفهام على ذكر المنة والتسلية بما أعطاه الله وفضله على سائر الرسل ، هذا ما أعطاه الله فى الدنيا والآخرة وأعظمها قوله : « [5] ولسوف يُعطيكَ رَبُّكَ فترضى » ؛ فنى إبهام هذا العطاء ما لا يُوصف .

---

(١) القيامة : ٣٠ (٢) القيامة : ٣٣ (٣) القيامة : ٣٧

(٤) الضحى : ٦ (٥) الضحى : ٥

(^(١)^ يَوْماً عَبُوساً) : قد قدمنا أنه عبوس على الكافر ، لأنه يعبس يومئذ حتى يسيلَ الدم من عينيه ، مثل القطران ، وأما المؤمنُ فيسرّ بما يَلْقَى من الرحمة الخاصة به ، جعلنا الله منهم .

(^(٢)^ ياليتني كُنتُ تُرَاباً) : هذا من قول الكافر لما يرى مِنَ اقتصاص البهائم بعضها من بعض ، ثم ترجع ترابا فيقوله ليسلم من العذاب كما سلمَتِ الحيوانات ، وأنّى له ذلك ! وقيل المرادُ به إبليس ، لأنه احتقر الترابَ في قوله : « ^(٣)^خَلَقْتَنِي من نارٍ وخلقْتَهُ من طين » ، فيتمنى حينئذ أن يكونَ مثل آدم وأولاده لما رأى ما أنعم الله على المؤمنين منهم .

(يوم تَرْجُفُ^(٤)^ الراجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرادِفَةُ) : العامل في « يوم » محذوف ، وهو الجوابُ المقدر ، تقديره لتبعثن يوم تَرْجُف الراجفة . . . وإن جعلنا يوم ترجف الجواب فالعاملُ في يوم معنى قوله : « ^(٥)^ قلوبٌ يومئذ وَاجِفة » ؛ أي شديدة الاضطراب كما قدمنا في حرف الواو ، ويكون تتبعها الرادفة في موضع الحال .

ويحتمل أن يكون العاملُ فيه تتبعها ، وقد قدمنا أن هذين الاسمين من أسماء القيامة ، فقيل الراجفة النفخة الأولى في الصُّور ، والرادفة الثانية لأنها تتبعها، وبينهما أربعون عاما . وقد قدمنا في حرف التاء أنّ الراجفةَ الأرض ، والرادفة السماء ؛ لأنها تنشقّ يومئذ . وقيل الراجفة الموت ، والرادفة القيامة . وقد قدمنا أنّ النَّفْخَ على ستة أوجه : لآدم ، «^(٦)^فإذا سَوَّيْتُه ونفخْتُ فيه مِنْ رُوحِي» .

(١) الإنسان : ١٠ (٢) النبأ : ٤٠ (٣) الأعراف : ١٢
(٤) النازعات : ٦ (٥) النازعات : ٨ (٦) الحجر : ٢٩

ولذى القرنين : « (١)قال انفُخوا » . ولمريم : « (٢) فنفخنا فيها من رُوحنا» .
ولعيسى عليه السلام : « (٣) فأنفخ فيه » . وفى هاتين النفختين : « يقولون :
أئنّا(٤) لمَردُودونَ فى الحافِرَة » .

هذه حكايةُ قول الكفار فى الدنيا ، ومعناه على الجملة إنكارُ البعث ،
فالهمزةُ فى قولهم أئِنّا لمردودون للانكار ، ولذلك اتفق القُرّاءُ على قراءته
بهمزتين إلا أنّ منهم من سهّل الثانية ، ومنهم من حققهما . واختلفوا فى
«(٥) أإذا كُنّا [٣١٤ ب] عظاماً » ؛ فمنهم من قرأه بهمزة واحدة ، لأنه
ليس موضع استفهام ولا إنكار ، ومنهم من قرأه بهمزتين تأكيدا
للانكار المتقدم .

((٦) يَقْضِ ما أمَرَه) : مجزوم بلما ، ومعناه أنه لا يقضى الإنسان على تطاوُل
عمره ما أمره الله ، إذ لا بُدَّ للعبد من تفريط ، وإذا كانت الأنبياءُ والرسل
والملائكة المقرّبون يقولون يوم القيامة : سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك ،
فكيف يقضى العاصى لربه حقّه ؟ أو كيف تقضى العبودية حقّ الربوبية !

((٧) يَوْمَ يقومُ الناس لرب العالمين) : الظرف منصوب بقوله :
« مبعوثون » . وقيل بفعل مضمر ، أو بدل من « يوم عظيم » .

وقيامُ الناسِ يوم القيامة على حسب اختلافهم ؛ فمنهم من يقوم خمسين
ألف سنة وأقل من ذلك على حسب أعمالهم ، ومنهم من يقوم من قبورهم إلى
قصورهم ، ومنهم على قَدْر صلاة مكتوبة .

---

(١) الكهف : ٩٦ (٢) الأنبياء : ٩١ (٣) آل عمران : ٤٩
(٤) النازعات : ١٠ (٥) الإسراء : ٤٩ ، ٩٨ (٦) عبس : ٢٣
(٧) المطففين : ٦

(١) (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون): يعني الملائكة لقربهم من الله.

(٢) (يَشْرَبُ بِهَا): يعني يشربها، فالباء زائدة. ويحتمل أن تكونَ بمعنى يشرب منها، أو كقولك: شربت الماءَ بالعسل.

(٣) (يَحُور): أي يرجع بلغة الحبشة؛ قاله ابن عباس.

(٤) (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ): الضمير للماء. وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون للانسان، وهذا بعيد جداً.

(٥) (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِر): يعني تنكشف سرائر العبد التي كانت في قلبه من عقائد ونيّات، وتالله لا يجد فيها في هذا الزمان إلا ضغائن وحقائد وخبث طويّات. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن السرائر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة.

وهذه معظمها؛ ولذلك خصّها بالذكر، والعامل في «يوم» قوله «رَجْعه»، أي يرجعه «يوم تبلى السرائر». واعترض بالفصل بينهما. وأجيب بقوةِ المصدر في العمل. وقيل: العامل قادر. واعترض: بتخصيص القدرة بذلك اليوم، وهذا لا يلزم؛ لأن القدرة وإن كانت مطلقةً فقد أخبر الله أن البعث إنما يقعُ في ذلك اليوم.

(٦) (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى): يعني كيف تنفعه حينئذ الذكرى، وقد انقطعت علائقه. والإنسان جنس يشمل جميعه، وتذكره إنما هو بندمه على تفريطه، ويومئذ بدل من دُكّت، ويتذكر هو العامل، وهو جواب دُكت.

---

(١) المطففين: ٢١ (٢) المطففين: ٢٨ (٣) الانشقاق: ١٤
(٤) الطارق: ٧ (٥) الطارق: ٩ (٦) الفجر: ٢٣

(⁽¹⁾ يقولُ ياليتني قدَّمْتُ لحياتِي) : أي قدمتُ عملا صالحا وقتَ حياتي، فاللامُ على هذا كقولك : كتبت لعشر من الشهر .

وقيل الحياة في الآخرة . والمعنى : ياليتني قدمتُ عملاً صالحا للآخرة .

وكيف ينفعُه هذا القول وقد أخبر الله بعذابه ووثاقه ؟

(⁽²⁾ يا أيَّتُها النفْسُ المطمئنةُ) : قد قدمنا أنَّ النفوس ثلاثة : لوّامة ، وأمّارة ، ومطمئنة ، وهي المرادة هنا بالخطاب ، لأنها الموقِنة بحيث لا يتطرق إليها شكٌّ في الإيمان . وقيل المطمئنة التي لا تخاف حينئذ . ويؤيِّدُ هذا قراءة أبيّ ابن كعب : يأيتها النفس الآمنة المطمئنة .

(⁽³⁾ يقولُ أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً) : بضم اللام وكسرها ، بمعنى الكثرة . والقائل لهذا عند قوم الوليد بن المغيرة ، لأنه أنفق أموالا في إفساد أمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

(⁽⁴⁾ يتزَكَّى) : من أداء الزكاة ، أو من الزكاء ، أي يصير زاكيا عند الله ، أو يتطهر من ذنوبه . وهذا الفعلُ بدل من « ⁽⁴⁾ يؤتي ماله » ، أو حال من الضمير . والمراد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولو لم يكن له من الفضيلة إلا نزول هذه السورة فيه لكان فيها كفاية ، فكيف وقد شبّهه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بآصف لما أتى ببركة من مكة إلى المدينة . وسمي صدّيقا لأنه صدّق النبي صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس ، وعتيقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت عتيق من النار .

---

(١) الفجر : ٢٤ (٢) الفجر : ٢٧

(٣) البلد : ٦ (٤) الليل : ١٨

ولما نزلت : « (١) ولسوف يَرْضَى » — قال : يارسول الله ،لا يرضيني أنّ أحداً مِنْ أُمّتك يدخل النار . فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال : إن الله يقول لك: إن شئت وقفت فى يوم القيامة تشفع فيمن أحببت وإن شئت مضيت .

وقد ألفت تأليفا سميته الوثيق فى نصرة الصديق . وبالجملة فالصحابة كلهم عدول لا يجحد عدالتهم إلا منافق مبتدع ، وكيف لا والله يقول : « (٢) محمدٌ رسولُ الله والذين مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكفار ... » الآية ، فرضى الله [٣١٤ أ] عنهم وعمّن رضى عنهم وأحبّهم .

((٣) يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) : الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم . ولما نزلت قال : لا أرضى أنْ يَبْقَى أحدٌ من أمّتى فى النار . فقال الله له : لابد من نفاذ الوعيد على طائفة . فطلب فيهم الشفاعة . والصحيح أنّ هذا وعدٌ يعمُّ كلّ ما أعطاه الله فى الدنيا من النصر ، والفتوح ، وكثرة المسلمين ، وغير ذلك ؛ وفى الآخرة من الوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود الذى لا ينالُه أحد .

فإن قلت : مافائدة الامتنان عليه باليتم ؟

والجواب : لئلا يكون عليه حقٌّ لمخلوق ، ولما مات أبوه تركه فى بَطْنِ مولاتنا آمنة ، ثم ماتت وهو ابنُ خمسة أعوام . وقيل ثمانية ، فكفله جدُّه عبد المطلب ، ثم مات وتركه ابنَ اثنتى عشرة سنة ، فكفله عمُّه أبو طالب ، ورام المعاندون قتله وخوده فلم يقدروا عليه لحفظ الله له صبيًا وكَهْلا ، فلهذا عدّد نِعَمَه عليه سبحانه كما قدمنا .

---

(١) الليل : ٢١ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) الضحى : ٥

([1]يتلو صُحُفاً مطهَّرة) : الضمير لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه يتلو القرآن فى صحُف مطهرة . وقد قدمنا معناها .

([2] يومئذ تُحدِّثُ أخبارَها) : هذه عبارة عما يحدث الله فيها من الأهوال ، فهو مجازٌ وحديث بلسان الحال . وقيل : هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظَهرها ، فهو حقيقة . وتحدّث يتعدَّى إلى مفعولين ، حذف الأول منها . والتقدير تحدث الخلْقَ أخبارها . وانتزع بعض المحدثين من قوله : تحدث أخبارها أن قول المحدث : حدثنا ، وأخبرنا سواء . وهذه الجملة فى جواب : « إذا زلزلت الأرض » ، وتحدث هو العامل فى إذا ، ويومئذ بدل من إذا ، ويجوز أن يكونَ العامل فى إذا مضمر وتحدث عامل فى يومئذ .

([3] يَوْمئذ يَصْدر الناس أشتاتا ليُرَوْا أعمالَهم) : أى مختلفين فى أحوالهم ، وصدر الناس هو انصرافهم من موضع وردهم . قيل الورد هو الدفن فى القبور والصدر هو القيام للبعث وقيل الورد القيام للمحشر ، والصدر الانصراف إلى الجنة أو النار ، وهذا أظهر . وفيه يَعْظم التفاوت بين أحوال الناس ، فيظهر كونهم أشتاتا .

([4]يوم يكون الناس) : العامل فى الظرف محذوف دلَّ عليه القارعة . تقديره فى يوم .

(يحسب أنَّ ماله أخلده[5]) ؛ أى يظنُّ بفَرْطِ جَهْله واغتراره أنَّ مالَه يخلده فى الدنيا . وقيل : يظن أنَّ ماله يوصِّله إلى دار الخلد .

واختلف على من يعود الضمير من الكفار على أقوال .

---

(١) البينة : ٢ (٢) الزلزلة : ٤ (٣) الزلزلة : ٦
(٤) القارعة : ٤ (٥) الهمزة : ٣

([1] يدعّ اليتيم) : أى يدفعُه بعُنْف ، وهذا يحتمل أن يكونَ عن إطعامه والإحسان إليه ، وعن ماله وحقوقه ، وهذا أشدّ .

([2] يحُضُّ على طعامِ المسكين) : هذه الجملةُ فى جواب أرأيت [3] ؛ لأنّ معناها أخبرنى ، فكأنه سؤالٌ وجواب .

والمعنى انظر الذى يكذب بالدين تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة ، وإنما ذلك لأنّ الدين يحمل صاحبه على الحسنات ، وترك السيئات ، فمقصود الكلام ذَمُّ الفاعل لذلك . قال الجنيد : عرضت نفسى ليلة على هذه السورة ، فلم أجد فيها ذلك ، ثم عرضت عليها « قد أفلحَ المؤمنون » إلى قوله : أولئكَ فى جنات مكرمون ، فقلت : سبحانك لامن هؤلاء ولا من هؤلاء ، فسمعتُ هاتفا يقول : من الذين خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئاً عسى الله أنْ يتوبَ عليهم . هذا الجنيد فكيف حالك ياخويْد .

([4] يُرَاءُونَ) الناس ، فكانت صلاتهم للناس لا لله ، فلذلك ذمّهم الله فى الدنيا وعذّبهم فى الآخرة ، وفى هذا تحذير ان اتّصفَ بصفتهم ، فالأحمقُ مَنْ يعمل لرضا الناس ، وهو لا يُدرك ، وأجهلُ الناس مَنْ طلب مالا يُدرك ، وعن قريب يظهر له غِشه . وهذا يختلف باختلاف المقاصد ، لأن مَنْ عمل لإظهار الله جميله وستره قبيحه ، أو لأنه يفعل به ذلك فى الآخرة ، أو لقُدْوتهم به أدلّة مثل أجورهم أو فرح بثنائهم لحبهم الطاعة والمطيع وسلامتهم من أضدادها ، أو ليعرف حبّ ربه تعالى إذا أحبه حبّبَهُ إلى عباده ، أو لئلا يشغله ذمهم ونحوه فحسن .

---

(١) الماعون : ٢ (٢) الماعون : ٣ (٣) الماعون : ١ (٤) الماعون : ٦

(⁽¹⁾ يَمْنَعُونَ المَاعُونَ) : قد قدمنا فى حرف الميم أن هذا وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس ، ومَنْ لا ينفع الناس لاينفعه الله ، وأنفعُ الناس عند الله أنفعُهم للناس [٣١٥ ب] إلا إن أوجب الله طردم وبعدم وهجرانهم ، فالبغضُ فى الله أوجب ، ولذلك اختلف الفقهاء فى التصدق على تارك الصلاة ؛ قال بعضهم : الحمد لله الذى قال : « عن صَلاَتِهم » ، ولم يقل فى صلاتهم .

(⁽²⁾ يأيُّها الكافِرُون . لا أعْبُد ما تَعْبُدُون) : سببُ نزولِ هذه السورة أنّ قوما من قريش منهم الوليدُ بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاصى ابن وائل ، وأبو جهل ونظراؤم — قالوا : يامحمد ، اتّبِع ديننا ونتّبِع دينك ، اعبُدْ آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة . فقال : معاذ الله أن نشرك بالله شيئا .

ونزلت السورة فى معنى البراءة من آلهتهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : مَنْ قرأها فقد برىء من الشرك . وفى هذا المعنى الذى عرضت عليه قريش نزل قوله : «⁽³⁾أفغير الله تأمُرونّى أعْبُدُ أيها الجاهلون» ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت السّورة بسببها .

فإن قلت : لم كرر قوله تعالى : « ⁽⁴⁾ ولا أنا عابِدٌ ما عبدْتُم » ؟

فالجواب فى تكرار هذه الآيات أقوال جمّة ومعانٍ كثيرة ، وتلخيصها أنّ الله تعالى نفى عن نبيه عبادةَ الأصنام فى الماضى والحال والاستقبال ، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأزمنة الثلاثة أيضا ، فاقتضى

---

(١) الماعون : ٧ (٢) الكافرون : ١، ٢
(٣) الزمر : ٦٤ (٤) الكافرون : ٤

القياس تكرار هذه اللفظة ستّ مرات ، فذكر لفظ الحال ؛ لأن الحال هو الزمان الموجود ، واسم الفاعل واقعٌ موقعَ الحال وهو صالح للأزمنة الثلاثة ، واقتصر من الماضي على المسند إليهم ، فقال : ولا أنا عابد ما عَبَدْتُم ، وكان اسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيين . واقتصر من المستقبل على المسند إليه ، فقال : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل .

(⁽¹⁾ يُشْعِرُكُمْ) ؛ أي يُدريكم ، وهو من الشعور بالشيء .

(⁽²⁾ يُلْحِدُونَ في أسمائه) : أي يجورون في أسمائه ويشتقّون اللات من الإله ، والعزّى من العزيز ، وقيل تُسميته بما لا يليق به ، ولما قال أبو جهل ما قال نزلت الآية .

(⁽³⁾ يوم حُنين) : عطف على « ⁽³⁾ مواطن » ، أو منصوب بفعل مضمر . وهذا أحسنُ لوجهين : أحدهما أن قوله : « ⁽³⁾ إذ أعجبتكم كَثْرَتُكم » : مختص بحُنين ، ولا يصح في غيره من المواطن ، فيضعف عطف أحدهما على الآخر ، إلا إن أريد بالمواطن الأوقات . وحُنين اسم علم لموضع عُرِف باسم رجل اسمه حُنين ، وانصرف لأنه مذكر ، وهي قرية قرب الطائف .

(⁽⁴⁾ يُحَادِدِ الله ورسولَه) ؛ أي يخالفهما ويعاديهما . وقيل : اشتقاقه من الحد ، كقولك : يكون الله ورسوله في حدّ ، وهو في حدّ .

(⁽⁵⁾ يُغَاثُ الناسُ) : يحتمل أن يكون من الغيث ، أي يمطرون ،

---

(١) الأنعام ١٠٩ (٢) الأعراف : ١٨٠ (٣) التوبة : ٢٥

(٤) التوبة : ٦٣ (٥) يوسف : ١٩

أو من الغوث ؛ أي يفرج الله عنهم .

([١] يُحَاوِرُهُ) ؛ أي يراجعه في الكلام .

([٢] يُقَلِّبُ كَفَّيْه) : يصفق بالواحدة على الأخرى كما يفعل المتندم المتأسف على مافاته .

([٣] يُغَادِر) : يخلف ويترك .

([٤] يُضَيِّفُوهما) : ينزلوهما منزلة الأضياف في إطعامهما والإحسان إليهما .

([٥] يُعَقِّبْ) : يرجع على عقبه في خوف . وقيل يلتفت .

([٦] يوزَعون) : يكفّون ويحبسون . وجاء في التفسير يحبس أولهم على آخرهم حتى يدخلوا النار . ومنه قول الحسن رضي الله عنه لما تولّى القضاء وكَثُرَ الناس عليه : لابدّ للناس من وزَعة ، أي من شرطة يكفّون الناسَ عند القاضي .

([٧] يُؤْتون ما آتَوْا) : من الزكاة والصدقة . وقيل إنه عامّ في جميع أعمال البر ؛ أي يفعلون وهم يخافون ألاّ تقبل منهم .

وقد روت عائشة هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنها قرأت يأتون ما أتوا بالقصر ، فيحتمل أنْ يكون الحديث تفسيرا لهذه القراءة ،

---

(١) الكهف : ٣٤ (٢) الكهف : ٤٢ (٣) الكهف : ٤٩
(٤) الكهف : ٧٧ (٥) النمل : ١٠ (٦) النمل : ١٧
(٧) المؤمنون : ٦٠ (٨) الحديث بتمامه في القرطبي : ١٢ ـ ١٣٢

وقيل : إنه عام فى الحسنات والسيئات ؛ أى يعملونها وهم خائفون من الرجوع إلى الله .

فإن قلت : ما فائدة حذف الضمير فى هـذه الآية المثبت فى الآيتين قبلها ؟

فالجواب : أنه أكد فى الأولين بالضمير ، وفى هذه بقوله : وقلوبهم وَجِلَة ؛ أى خائفة .

(¹ يكوِّر اللّيلَ على النهار) ؛ أى يلف هذا على هذا ، كـكور العمامة ، وهو هنا استعارةٌ على ماقال ابن عطية بعيد من هذا على هذا ، فـكأنَّ الذى يطول من النهار أو الليل يصير منه جزءٌ على الآخر فيستره ، وكأن الذى يقصر يدخل فى الذى يطول [١٣١٦] فيَستتِر فيه. ويحتمل أن يكون المعنى أنَّ كلَّ واحد منهما يغيِّب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبَّه فى ستره له بثوبٍ يلف على آخر .

(² يوبِقْهنَّ بِمَا كسبوا) : ضمير التأنيث يعود على السفن ، يعنى يهلـكها بما يكسب أهلها . وهذا عطف على « ³ يسْكِنِ الريحَ » ، ومعناه لو شاء اللهُ أغرق السفن من شدة الرياح العاصفة ، أو يسكنها فيظلَلْنَ رَوَاكد على ظهره لا يتحركْنَ بالجرى .

(⁴ ليُزْلِقونَك بأبصارِهِم) ؛ أى يزيلونك بعيونهم ، لأنهم غاروا من فصاحته ؛ فقال له قائل منهم : ما أفصحك ! وقصد أخْذَه بالعين ؛ لأنه أعيامم

---

(١) الزمر : ٥ (٢) الشورى : ٣٤ (٣) الشورى : ٣٣

(٤) القلم : ٥١

أمره ، فلم يَبْقَ لهم من الحِيَل إلا هذا ، فأنزل الله عليه هذه الآية ، وحفظه منهم ؛ فلذلك لا تجد أنفع رُقْية منها لمن أصابه العين ، وقرئت لَيُزْلِقونك بضم الياء ؛ أي يستأصلونك من قولهم : أزلق رأسه إذا حلقه .

([1]يُوفِضُونَ) : يسرعون الخروجَ من القبور إلى المحشر ، كما يسرعون المَشْى إلى أصنامهم في الدنيا ، لكنه خلاف إسراعهم إليها ؛ لأن الدنيا دارُ مُهْلة وتَنَعُّم ، وهناك كما وصف الله حالَهم « خاشعةً أبصارهم ترهقهم[2] ذِلَّةٌ » ووجوههم مغبرة ترهقها قَتَرة .

([3] يُوعُونَ) ؛ أي يجمعون في صدورهم من الكُفْر والتكذيب ، أو هو سبحانه عالم بما يجمعون في صحائفهم من الأعمال ، يقال : أوعيت المالَ وغيره إذا جمعته .

ولنختم معاني هذه الحروف بذكر دخول من أورثه الله هذا الكتاب العظيم من الظالم والمقتصد والسابق ، وأن الله وعدهم بجنة عَدْن يدخلونها ، والضمير راجع إلى الثلاثة ؛ قال تعالى : « [4] ثم أورَثْنا الكتابَ الذين اصطفَيْنا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذْنِ الله ذلك هو الفضلُ الكبير . جنّاتُ عَدْنٍ يدخلونها » .

قالت عائشة رضى الله عنها : لو علموا ما تحت ولو الجماعة لماتوا فَرَحاً . وقال صلى الله عليه وسلم : سابقنا سابق ، ومقتصدنا لاحق ، وظالمُنا مغفور له .

---

(١) المعارج : ٤٣ (٢) القلم : ٤٣ (٣) الانشقاق : ٢٣

(٤) فاطر : ٣٢، ٣٣

فإن قلت : ما فائدة تقديم الظالم ؟ وهلاَّ جاءت الآيةُ مثل الحديث ؟

فالجواب : عادةُ المخلوق يقدِّمُ الأفضل ، فخاطبهم صلى الله عليه وسلم على عوائدهم ، ألا ترى قوله : زُرْغِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا . وقال الله : « [1] واعْبُدْ رَبَّكَ حتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ » . ويقولون : لا تعير قبلى . وقول الله : « [2] فاعْتَرَفُوا بذَنبهم » : ويقولون : أَحْسِنْ إلى مَنْ أحسن إليك .

ولما كان السابق قريبا ، والظالم بعيد ، والقريب يحتمل مالا يحتمل البعيد ، والظالم منكسر الرأس من حياء جُرْمه ومعصيته ، فلما نكس رأسه رفعه الله كما أنَّ الجوديَّ وطور زيتا لما لم يرفعا رءوسهما أكرمهما الله كما قدمنا ، والظالم ضعيف ، والسابق قويّ ، والعادة فى القافلة تقديم الضعيف والرجالة ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم كان يقدم الضعفة إلى منى قَبل الفجر ، فقدم الظالم لئلا يفتضح ولا يُعاب ، وأيضاً الظالم غير مدع والسابق مدع ، ولو قدم السابق وأخر الظالم لبان منه العَدْلُ ، والظالم رفع قصته إلى الله فوقع له توقع الرحمة فى قوله تعالى : « [3] قل ياعبادى الذين أسرفُوا على أنفُسِهم » ، والمقتصد توقع التوبة فى قوله تعالى : « [4] آخَرون اعترَفُوا بذُنُوبهم خَلطوا عَمَلاً صالحاً وآخَرَ سيئا » . والسابق توقع الرضوان ، قال تعالى : « [5] والسابقون الأولُون من المهاجرين والأنصار » .

فالمقاماتُ على ثلاثة أسماء : الله الرحمن الرحيم . فانظر كيف اصطفاهم كما قال فى إبراهيم : « [6] ولقد اصْطَفَيْناهُ فى الدُّنيا وإنه فى الآخرةِ لَمِنَ الصَّالِحين » .

---

(١) الحجر : ٩٩ (٢) الملك : ١١ (٣) الزمر : ٥٣

(٤) التوبة : ١٠٢ (٥) التوبة : ١٠٠ (٦) البقرة : ١٣٠

فإن قلت : ما الفرق بين الاصطفاء والإفضال ؟ ولِمَ لَمْ يقل فضلنا ؟

والجواب : أن الاصطفاء كلّى بجميع الأشياء ، والإفضال بعض لبعض دون بعض ، والاصطفاء أخروى ؛ « (١) الله يَصْطَفِي من الملائكة رُسُلاً ، ومِنَ الناسِ » [٣١٦ ب] والإفضال دنيوى ، « (٢) والله فَضَّلَ بَعْضَكُم على بَعْضٍ في الرِّزْق » ، والإفضال عام ، « (٣) وأنى فَضَّلْتُكُم على العالَمين » ؛ أى على عالَمى زمانهم ، والاصطفاء خاصٌّ ، والخاص مقدَّم على العام .

فإن قلت : ما الحكمةُ فى أنّ الله أعطى القرآن بلفظ الميراث ؟

والجواب : لأنه ليس شىء أطيب وألذّ وأجلّ من الميراث ، فذِكْرُه بلفظ الميراث أحلى وأطيب وأشهى . وأيضا لميراث لا يُنْزَع من يَدِ الوارث بخلافِ العطايا والهبات ، فذكره بلفظ الميراث ليعلم أنه لا يريد أن ينزعه عنك . وأيضا الميراث يعمُّ الأولاد عصاة أو مطيعين ، كذلك القرآن . وإذا أكرم الله المؤمن على الجنة باثنتى عشرة كرامة فكيف عن اصطفاه بهذا القرآن ؟ قال تعالى : « (٤) الذين آمَنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ » ؛ وإنّ الله لهَادِى الذين آمنوا . يثبّتُ الله الذين آمنوا . "وبَشّرِ الذين آمَنوا". وبشّر المؤمنين . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات . يومئذ لا تنفعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن ورَضِىَ له قولا . وكذلك ننجى المؤمنين "ربنا آمنّا فاكتُبنَا مع الشاهدين". وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات . "للذين أحسنوا الحُسنَى وزيادة". "يأيها (٥) الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يُصْلِح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم .

---

(١) الحج : ٧٥ (٢) النحل : ٧١ (٣) البقرة : ٤٧ ، ١٢٢

(٤) الأنعام : ٨٢ (٥) الأحزاب : ٧٠

فإن قلت : قد ذكرت لنا فضيلةَ الثلاثة فميِّزْ لنا مَنْ هم ؟

والجواب : قد قدمنا مَنْ هم ، وكثرت أقاويلُ الناسِ فيهم حتى أنهاه بعضهم إلى عشرين قولا ، وتلخيصهم أن السابق الذى يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ، والمقتصد الذى يدخلها بفضل الله . والظالم الذى يدخلها بشفاعةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل السابق المحافظ على الجماعة . والمقتصد الحافظ للوقت ، والظالم الغافل عنهما جميعا .

وقيل الظالم الذى خلط عملاً صالحا وآخر سيئا . والمقتصد الذى لم يخلط . والسابق الذى لم تقع منه هفوة .

وقيل الظالم أهل الكبائر . والمقتصد أهل الصغائر . والسابق المجتنب لهما جميعاً .

فإن قلت : لم وقعت الإشارة[1] « ذلك هو الفَضل الكبير » ؟

فالجواب أنه قد كثرت الأقاويل أيضا فى ذلك ؛ فقيل إشارة إلى الإرْث والاصطفاء أو الظالم ، أو إلى إذْنه ، أو إلى دخول الجنة أو إلى الله ، أى ذلك الذى فعل هذا هو الفَضْلُ الكبير . . .

اللهم بَلِّغنا هذا الفَضْلَ ، ولا تعاملنا بالعدل ، وقد ابتدأنا بالفضل ، وفضلك مبنىٌّ على الابتداء كما بدأكم تعودون .

(يا) : حرف لنداءِ البعيد حقيقة أو حكما ، وهى أكثر حروفه استعمالا ،

---

(١) فاطر : ٣٢

ولهذا لا يقدر عند الحذف سواها نحو : «رَبِّ اغْفِرْ لِي» . «يوسف أعرض عن هذا» . ولا ينادى اسم الله ، وأيتها ، إلا بها . قال الزمخشري : وتفيد التأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الذي تتلوه معنيّ به جدًّا . وترد للتنبيه ، فتدخل على الفعل والحرف ، نحو : «[1] ألا يا اسْجُدُوا ». «[2] ياليت قَوْمي يعلمون بما غَفَرَ لي رَبِّي » .

وقد ختمتُ الكلام على هذه الحروف ومعاني أدواتها على وَجْه مُوجز مفيد محصّل للمقصود منه ، يكظم غيْظَ حبيب النجار ، وحَطّه عن قومه ، والترأف بهم في حياته بالتشمّر في هدايتهم والتلطف معهم في دعائهم إلى الإيمان ، وفي موته بعدم الدعاء لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرةٌ عبدةُ أصنام ، بل تمنى لهم علمهم بأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة ، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزا وسعادة ، راجيا من الله أنْ يعاملني بما عامل به قومه مع كفرهم وطغيانهم ، وهو عبد مثلهم ، فكيف بأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

فأسألك اللهم أن تحنّن عليّ قلوبا تفكرت في هذه الفوائد التي جعلتَ لهم قلوبا يفقهون بها ، وأعينا يبصرون بها ، فيذكروني إذا وصلوا إلى حضرتك بذكرى عندك ، لأنك عالم أني لستُ بأهلٍ أن أكون دليلا إليكَ ، لكني أدلُّ المنقطعين عليك ، فاهْدِ الدليلَ ، ولا تردّ المدلول ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك .

---

(١) النمل : ٢٥ ، وانظر المغني : ٢ — ٤٠ (٢) يس : ٢٦ ، ٢٧

فصل

فى أقوال كلية محتوية على ألفاظ قرآنية

قال ابن فارس فى كتاب الأفراد : كلُّ مافى القرآن من ذِكْرِ الأسف فمعناه الحزن إلا : « (١) فلمّا آسَفُونا » ، فمعناه أغضبونا .

وكلُّ مافيه مِنْ ذكر « البروج » فهى الكواكبُ إلا : « (٢) ولَوْ [١٣١٧] كُنْتُم فى بُروجٍ مشيّدةٍ » ، فهى القصورُ الطوالُ الحصينة .

وكلُّ ما فيه من ذكر البَرّ والبحر فالمرادُ بالبحر الماء ، وبالبر التراب اليابس ، إلا قوله : « (٣) ظهر الفَسادُ فى البَرِّ والبَحْرِ » ، فالمرادُ به البرية والعمران .

وكلُّ ما فيه من « بَخْس » فهو النقص إلا : « (٤) بثمن بَخْس » ؛ أى حرام .

وكلُّ مافيه من « البَعل » ، فهو الزوج إلا : « (٥) أتَدْعُونَ بَعلاً » ؛ فهو الصنم .

وكلّ ما فيه من « البكم » فالخرس عن الكلام بالإيمان إلا : « (٦) عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً » — فى الإسراء . « (٧) وأحَدُهُما أبْكَم » — فى النحل ، فالمرادُ عدمُ القدرةِ على الكلام مطلقا .

وكلُّ ما فيه « جِثيا » فمعناه جميعا ، إلا : « (٨) وتَرَى كُلَّ أُمّةٍ جاثِيةً » فمعناه تجثو على رُكبها .

---

(١) الزخرف : ٥٥ (٢) النساء : ٧٨ (٣) الروم : ٤١ (٤) يوسف : ٢٠

(٥) الصافات : ١٢٥ (٦) الإسراء : ٩٧ (٧) النحل : ٧٦ (٨) الجاثية : ٢٨

وكلُّ مافيه من « حُسْبان » فمن العددِ ، إلا : « [1] حُسْباناً من السَّماء » ـ في الكهف ، فهو العذابُ .

وكلُّ مافيه من « حسرة » فالندامةُ إلا : « [2] ليَجْعَلَ اللهُ ذلكَ حسْرَةً في قُلوبِهم » ، فمعناه الحزن .

وكلُّ ما فيه من « الدحض » فالباطل ، إلاّ : « [3] فكان من المُدْحَضين » ، فمعناه من المغلوبين .

وكلُّ ما فيه من رجز فالعذاب ، إلا : « [4] وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » ، فالمرادُ به الصنم .

وكلُّ ما فيه من « رَيْب » فالشكّ ، إلا : « [5] رَيْبَ المَنُون » ، يعني حوادثَ الدهر .

وكلُّ ما فيه من « الرجم » فالقتل ، إلا : « [6] لرَجَمْنَاكَ » : لشتمناك ، و « [7] رَجْماً بالغيب » ، أي ظناً .

وكلُّ مافيه من « الزور » فالكذب مع الشِّرْك ، إلا : « [8] مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً » ، فإنه كذب غير شرك .

وكلُّ مافيه من « زكاة » فالمالُ ، إلاّ : « [9] وحنَاناً مِنْ لَدُنّا وزَكاةً » ، أي طهرة .

وكلُّ مافيه من « الزيغ » فالميلُ ، إلا : « [10] وإذْ زاغَتِ الأبصار » ؛ أي شخصت .

---

(١) الكهف : ٤٠ (٢) آل عمران : ١٥٦ (٣) الصافات : ١٤١

(٤) المدثر : ٥ (٥) الطور : ٣٠ (٦) هود : ٩١ (٧) الكهف : ٢٢

(٨) المجادلة : ٢ (٩) مريم : ١٣ (١٠) الأحزاب : ١٠

وكلّ مافيه من سخر فالاستهزاء ، إلا : « [1] سُخْرِيًّا » فى الزخرف فهو من التسخير والاستخدام .

وكلّ « سكينة » فيه طمأنينة[2] ، إلا التى فى قصة لوط فهو شىء كرأس المرة له جناحان .

وكلُّ سعيرٍ فيه فهو النار والوقود ، إلا « [3] فى ضَلَالٍ وسُعُرٍ » ، فهو العناء .

وكلُّ « شيطان » فيه فإبليس ، أى الشيطان وجنوده ، إلا : « [4] وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِم » .

وكلُّ شهيدٍ فيه غير القتل فمَنْ يشهد فى أمور الناس ، إلا : «[5] وادْعُوا شهَدَاءَكُم » ، فهو شركاءكم .

وكل ما فيه من « أصحابِ النار » فأهلها ، إلا : « [6] وما جعَلْنَا أصحاب النارِ إلاّ مَلاَئكةً » ، فالمرادُ خزَنَتُها .

وكلُّ صلاة فيه عبادة ورحمة إلا : « [7] وصَلَوَاتٌ ومساجِد » ، فهى الأماكن .

وكل « صمم » فيه ففى سماع الإيمان والقرآن خاصة ، إلا الذى فى الإسراء[8] .

---

(١) الزخرف : ٣٢

(٢) فى سورة البقرة : ٢٤٨ : أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم . . .

(٣) القمر : ٤٧ (٤) البقرة : ١٤ (٥) البقرة : ٢٣

(٦) المدثر : ٣١ (٧) الحج : ٤٠

(٨) فى الاسراء : ٩٧ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما .

وكلُّ عـــذاب فيه فالتعذيب إلا : « (١) ولْيَشْهَدْ عذابَهما » ، فهو الضَّرْب .

وكلُّ قُنوت فيه طاعة ، إلا : « (٢) كلٌّ لَهُ قانِتُون » ، فمعناه مُقِرون .

وكلُّ « كنز » فيه مال إلا الذى فى سورة الكهف(٣) ، فهو صحيفة علم .

وَكُلُّ « مصباح » فيه كوكب إلا الذى فى النور فالسراج(٤) .

وكلُّ نكاح فيه تزوُّج إلا : « (٥) حتى إذا بلغُوا النِّكاح » فهو الحلم .

وكلُّ نبأ فيه خبر ، إلا : « (٦) فعَمِيَتْ عليهم الأنباء » ، فهى الحجج .

وكلُّ «ورد» فيه دخول إلا : « (٧) ولَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ » ، يعنى هجم عليه ولم يدخله .

وكل مافيه من : « لا يُكَلِّفُ الله نَفْسا » فالمراد منه العمل ، إلا التى فى الطلاق(٨) فالمرادُ منه النفقة .

وكل إياس فيه قنوط إلا الذى فى(٩) الرعد فمن العلم .

---

(١) النور : ٢ (٢) البقرة : ١١٦ ، الروم : ٢٦
(٣) الكهف : ٨٢ : فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ..
(٤) النور : ٣٥ : كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة .
(٥) النساء : ٦ (٦) القصص : ٦٦ (٧) القصص : ٢٣
(٨) فى الطلاق : ٧ : لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها .
(٩) فى الرعد : ٣١ : أفلم ييأس الذين آمنوا .

وكل « صبر » فيه محمود ، إلا : « [1] لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عليها » . « واصْبِرُوا[2] عَلَى آلِهَتِكُمْ » . هذا آخِرُ ماذكره ابن فارس .

وقال السجستاني : ليس في كلامِ العرب كلمة أولها ياء مكسورة إلا قولهم يِسار ويَسار ـ بالفتح والكسر : اليد . والله أعلم .

وقال بعضهم : كلّ صوم فيه فمن العبادة ، إلا : « [3] نَذَرْتُ للرحمن صَوْما » ؛ أي صَمْتاً .

وكلّ ما فيه من « الظلمات والنور » فالمرادُ الكفر والإيمان إلا التي في أول الأنعام[4] فالمرادُ ظلمة الليل ونور النهار .

وكلّ « إنفاق » فيه فهو الصدقةُ إلا : « [5] فَآتُوا الذين ذهبَتْ أزواجُهم مثلَ ما أنفَقُوا » ، فالمراد به المَهر .

وقال الداني : كلّ ما فيه من « الحضور » فهو بالضاد من المشاهدة إلا موضعا واحدا فإنه بالظاء من الاحتظار، وهو المنع ؛ وهو قوله : « [6] كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ » .

وقال ابن خالويه : ليس في القرآن « بعد » بمعنى قَبْل إلا حرفا واحدا : « [7] ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ . وقال غيره[8] : قد وجدنا حرفا آخر ، وهو قوله : « والأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا[9] » . قال أبو موسى

---

(١) الفرقان : ٤٢ (٢) ص : ٦ (٣) مريم : ٢٦
(٤) في الأنعام (١) : وجعل الظلمات والنور .
(٥) الممتحنة : ١١ (٦) القمر : ٣١ (٧) الأنبياء : ١٠٥
(٨) في الإتقان ٢ ـ ١٣٠ : قال مغلطاي في كتاب الميسر .
(٩) النازعات : ٣٠

فى كتاب المغيث : معناه هنا « قبل » ، لأنه تعالى خلق الأرض فى يومين ثم استوى إلى السماء ، فعلى هذا خلق الأرضَ قبل خَلْق السماء .

قلت : قد تعرض النبىُّ صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون لشىء من هذا [٢١٧ ب] النوع ، فأخرج الإمامُ أحمد فى مسنده ، وابنُ أبى حاتم وغيرهما من طريق درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلُّ حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة". هذا إسناد جيد ، وابن حبّان يصحّحه .

وأخرج ابنُ أبى حاتم ، من طريق عكرمة ؛ عن ابن عباس ، قال : كلُّ شىء فى القرآن « أليم » فهو الموجع .

وأخرج من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ؛ قال : كلُّ شىء فى القرآن « قتل » فهو لعن .

وأخرج من طريق الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قال : كلُّ شىء فى كتاب الله من الرجز ، يعنى به العذاب .

وقال الفِرْيابى : حدثنا قيس عن عمّار الدُّهْنى ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ؛ قال : كلُّ تسبيح فى القرآن صلاة ؛ وكل سلطان فى القرآن حجة .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كل شىء فى القرآن « الدين » فالحساب .

وأخرج ابنُ الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء من طريق السُّدّى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس ، قال : كل ريب شك إلا مكانا واحدا فى

الطور : « [1] رَيْبَ المَنُون » ، يعني حوادثَ الأمور .

وأخرج ابنُ أبي حاتم ، عن أبي بن كعب ، قال : كلُّ شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة ، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب .

وأخرج عن الضحاك قال : كلّ « كأس » في القرآن إنما عنى به الخمر .

وأخرج عنه ، قال : كل شيء في القرآن « فاطر » فهو خالق .

وأخرج عن سعيد بن جُبير ، قال : كل شيء في القرآن « إفك » فهو كذب .

وأخرج عن أبي العالية ، قال : كلُّ آية في القرآن في الأمر بالمعروف فهو الإسلام ، والنهي عن المنكر فهو عبادة الأوثان .

وأخرج عن أبي العالية أيضا ، قال : كل آية في القرآن يذكر فيها حفظ الفرج فهو من الزنى ، إلا قوله تعالى : « [2] قلْ للمُؤْمِنِين يَغضُّوا مِنْ أبْصارِهِم ويَحْفَظوا فروجَهم » ، فالمرادُ ألاّ يراها أحد .

وأخرج عن مجاهد ، قال : كل شيء في القرآن : إن الإنسان كفور إنما يعني به الكفار .

وأخرج عن عمر بن عبد العزيز ، قال : كل شيء في القرآن « خلود » فإنه لا توبة له .

وأخرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : كلُّ شيء في القرآن « يقدر » فمعناه يقلّ .

وأخرج عنه ، قال : « التزكى » في القرآن كلّه الإسلام .

---

(١) الطور : ٣٠ (٢) النور : ٣٠

وأخرج عن أبي مالك ، قال : « وراء » في القرآن كلّه أمام ، غير حرفين : « [1]فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ » ، يعني سوى ذلك . « [2]وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ » ، يعني سوى ذلكم .

وأخرج عن أبي بكر بن عياش ، قال : ما كان « كِسَفًا » فهو عذاب ، وما كان كِسْفًا فهو قطع السحاب .

وأخرج عن مجاهد ، قال : « المباشرة » في كلّ كتابِ الله الجماع .

وأخرج عن ابن زيد ، قال : كل ما في القرآن « فاسق » فهو كاذب ، إلا قليلا .

وأخرج ابن المنذر عن السدّي ؛ قال : ما كان في القرآن « حنيفا مسلما » ، وما كان في القرآن حنفاء مسلمين : حجاجا .

وأخرج عن سعيد بن جُبير ، قال : « العفو » في القرآن على ثلاثة أنحاء : نَحْوٌ تجاوزٌ عن الذنب ، ونحو في القصد في النفقة : « [3]وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » . ونحوٌ في الإحسان فيما بين الناس : « [4]إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » .

وفي صحيح البخاري ، قال سفيان بن عُيينة : ما سمّى الله المطر في القرآن إلا عذابا ، وتسمّيه العرب الغيث .

قلت : استثنى من ذلك : « [5]إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » ، فإن

---

(١) المؤمنون : ٧ (٢) النساء : ٢٤ (٣) البقرة : ٢١٩

(٤) البقرة : ٢٣٧ (٥) النساء : ١٠٢

المرادَ به الغيث مطلقا . وقال أبو عبيدة : إذا كان من العذاب فهو أمطرت ، وإذا كان من الرحمة فهو مطرت .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ؛ قال : قال لى ابنُ عباس : احفظ عنى : كل شىء فى القرآن : « (١) وما لَهُم فى الأرضِ مِنْ وَلىٍّ ولا نَصير » فهو للمشركين . فأما المؤمنون فما أكثر أنصارهم وشفعاءهم .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن مجاهد ؛ قال : « كلّ طعام » فى القرآن فهو نصف صاع .

وأخرج ابنُ أبى حاتم عن وهب بن مُنَبه ؛ قال : كل شىء فى القرآن « قليل » ، « وإلا قليل » فهو دون العشرة .

وأخرج عن مسروق ؛ قال : ما كان فى القرآن : « على صلاتهم يحافظون » . « حافظوا على الصلوات » فهو على مواقيتها .

وأخرج عن سفيان بن عُيينة ؛ قال : كل شىء فى القرآن : « وما يُدْرِيك » فلم يخبر به . وما أدراك فقد أخبر به .

وأخرج عنه ، قال : كلّ « مكرٍ » فى القرآن فهو عمل .

وأخرج عن مجاهد ؛ قال : ما كان فى القرآن قتل ولُعن ، فإنما عنى به الكافر .

وقال الراغب فى مفرداته : قيل كل شىء ذكره الله فى كتابه « وما أدراك » فسره . وكل شىء ذكره بقوله : وما يدريك تركه .

وقد ذكر : « (٢) وَمَا أَدْرَاكَ ما سِجّين » . « وما أدراكَ ما (٣) عِلّيُّون »

---

(١) التوبة : ٧٤ (٢) المطففين : ٨ (٣) المطففين : ١٩

ثم فسر الكتاب لا السجين ، ولا العليون . وفى ذلك نكتة[1] لطيفة [١٣١٨] .

قال بعضهم : ليس فى القرآن على كثرة منصوباته مفعول معه .

والصواب أن فيه عدة مواضع أعرب كل منها مفعولا معه :

أحدها : «[2] فأجمعوا أمرَكم وشركاءكم» ؛ أى أجمعوا أنتم مع شركائكم أمركم .

الثانى : «[3] قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً» . قال الكرمانى فى غرائب التفسير : هو مفعول معه ؛ أى مع أهليكم .

الثالث : «[4] لم يكنِ الذين كفرُوا من أهلِ الكتاب والمشركين» . قال الكرمانى : يحتمل أن يكون قوله : «والمشركين» مفعولا معه من الذين ، أو من الواو فى كفروا .

فائدة

فيما قرىء بثلاثة أوجه : الإعراب أو البناء أو نحو ذلك

وقد رأيت تأليفا لطيفا لأحمد بن يوسف بن مالك الرعينى ، سماه تحفة الأقران فيما قرىء بالثلاثة[5] من حروف القرآن :

«[6] الحمدُ لله» : قرىء بالرفع على الابتداء ، والنصب على المصدر ، والكسر على اتباع الدال للام فى حركتها .

«[7] ربِّ العالمين» : قرىء بالجر على أنه نعت ، وبالرفع على القطع بإضمار مبتدأ ، وبالنصب عليه بإضمار فعل ، أو على النداء .

---

(١) مفردات الراغب : ٢٢٥ ، ولم يذكر هذه النكتة .

(٢) يونس : ٧١ (٣) التحريم : ٦

(٤) البينة : ١ (٥) فى الإتقان (٢ ـ ٢٢٢) : بالتثليث (٦) الفاتحة : ١

(٧) الفاتحة : ٢

« (١) الرحمن الرحيم » قرىء بالثلاثة .

« (٢) اثنتا عَشْرَةَ عَيناً » : قرىء بسكون الشين ، وهى لغة الحجاز ، وكسرها وهى لغة تميم (٣) ، وفتحها وهى لغة هوازن .

« (٤) بين المرء » : قرىء بتثليث الميم ، لغات فيه .

« (٥) فبهتَ الذى كفر) : قراءة الجماعة بالبناء للمفعول ، وقرىء بالبناء للفاعل بوزن : ضَرَب ، وحَسُن ، وعَلِم .

« (٦) ذُرِّيَّة بعضها من بَعْض » : قرىء بتثليث الذال .

« (٧) واتقوا الله الذى تَساءَلونَ بِهِ والأرْحام » : قرىء بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة ، وبالخفض عطفا على ضمير به ، وبالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف ؛ أى والأرحام مما يجب أنْ تتقوه ، وأن تحتاطوا لأنفسكم فيه .

« (٨) لا يَستَوِى القاعِدُونَ مِنَ المُؤمنين غَيْرُ أولِى الضَّرَرِ » : قرىء بالرفع صفة للقاعدون ، وبالجر صفة للمؤمنين ، وبالنصب على الاستثناء .

« (٩) امْسَحُوا بِرءُوسِكم وأرْجُلَكم » : قرىء بالنصب عطفا على الأيدى ، وبالجر على الجوار أو غيره ، وبالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف دَلّ عليه ما قبله .

« (١٠) فجزاء مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم » : قرىء بجر « مثل » بإضافة « جزاء » إليه ، وبرفعه وتنوين « مثل » صفة له ، وبنصبه مفعول لجزاء .

---

(١) الفاتحة : ٣ (٢) البقرة : ٦٠

(٣) فى الاتقان : بسكون الشين ، وهى لغة تميم ، وكسرها وهى لغة الحجاز . والمثبت فى القرطبى أيضا : ١ — ٤٢٠ (٤) البقرة : ١٠٢ (٥) البقرة : ٢٥٨

(٦) آل عمران : ٣٤ (٧) النساء : ١

(٨) النساء : ٩٥ (٩) المائدة : ٦ (١٠) المائدة : ٩٥

(⁽¹⁾ واللهِ رَبِّنا) : قرىء بجر « ربنا » نعتاً أو بدلا ، وبنصبه على النداء ، أو بإضمار أمدح ، وبرفعه ورفع لفظ الجلالة مبتدأ وخبر .

(⁽²⁾ ويذَرَكَ وآلِهتَك) : قُرىء برفع « يذرك » ، ونصبه ، وجزمه المخفّة .

(⁽³⁾ فأجْمِعُوا أمْرَكُم وشُرَكاءَكُم) : قرىء بنصب « شركاءكم » مفعولا معه ، أو معطوفا ، أو بتقدير : وادعوا ؛ وبرفعه عطفا على ضمير « فأجْمِعوا » ، أو مبتدأ خبره محذوف ، وبجره عطفا على « كم » في « أمركم » .

(⁽⁴⁾ وكأيِّنْ مِنْ آيةٍ في السمواتِ والأرْضِ يَمُرُّونَ عليها) : قرىء بجر « الأرض » عطفا على ما قبله ، وبنصبها من باب الاشتغال ، وبرفعها على الابتداء ، والخَبَرُ ما بعدها .

(⁽⁵⁾ موْعِدكَ بِمَلْكِنا) : قرىء بتثليث الميم .

(⁽⁶⁾ وحرامٌ على قرية أهلَكْناها » : قرىء بلفظ الماضي بفتح الراء وكسرها⁽⁷⁾ ، وبلفظ الوصف بكسر الراء وسكونها مع فتح الحاء ، وبسكونها مع كسر الحاء وحرام بالفتح وألف ، هذه سبع قراءات .

(⁽⁸⁾ كوكبٌ دُرِّيٌّ) : قرى بتثليث الدال .

(يس) : القراءة المشهورة بسكون النون . وقرىء شاذًّا بالفتح للتخفيف ، والكسر لالتقاء الساكنين ، وبالضم على النداء .

(⁽⁹⁾ ولاتَ حينَ مَناصٍ) : قرىء بنصب حين ورفعه وجره .

---

(١) الأنعام : ٢٣ (٢) الأعراف : ١٢٧ (٣) يونس : ٧١

(٤) يوسف : ١٠٥ (٥) طه : ٨٧ (٦) الأنبياء : ٩٥

(٧) في الاتقان : وضمها . وفي القرطبي : قرىء بضم الراء وكسرها ، وبفتحها .

(٧) النور : ٣٥ (٩) ص : ٣

« [1] سَوَاءً للسائلين) : قرىء بالنصب على الحال ، وشاذًّا بالرفع ؛ أى هو ، وبالجر حملاً على الأيام .

([2] وقيله يارب) : قرىء بالنصب على المصدر ، وبالجر ، تقدم توجيهه ، وشاذًّا بالرفع عطفا على : « [3] عِلْمُ الساعةِ » .

(ق) : القراءة بالسكون . وقرىء شاذًّا بالفتح والكسر لما مرَّ .

([4] الحُبُكِ) : فيه سبع قراءات : ضم الحاء والباء ، وكسرها ، وفتحهما ، وضم الحاء وسكون الباء وضمها ، وفتح الباء وكسرها ، وسكون الباء وكسرها ، وضم الباء .

([5] والحبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحان) : قرىء برفع الثلاثة ونصبها وجرها .

([6] وحُورٌ عِين . [7] كأمثال اللؤلؤ) : قرىء برفعهما وجرها ، وبنصبهما بفعل مضمر ؛ أى يُزَوَّجُون .

فصل

فى قواعد مُهِمَّة يحتاج المفسّر إلى معرفتها

أولها : قاعدة [٣١٨ ب] فى الضمائر :

ألّف ابن الأنبارى فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين ، وأصلُ وضع الضمائرِ للاختصار ، ولهذا قام قوله : ([8] أَعَدَّ اللهُ لهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيما) مقام خمسة وعشرين كلمة ، لو أتى بها مظهرة . وكذلك قوله : ([9] وقُل للمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهنّ) : قال مكى : ليس فى كتاب الله آية اشتملت على ضمائر أكثر منها ، فإنّ فيها خمسة وعشرين ضميرا ؛ ومِنْ ثَمّ

---

(١) فصلت : ١٠ (٢) الزخرف : ٨٨ (٣) الزخرف : ٨٥
(٤) الذاريات : ٧ (٥) الرحمن : ١٢ (٦) الواقعة : ٢٢
(٧) الواقعة : ٢٣ (٨) الأحزاب : ٣٥ (٩) النور : ٣١

لا يعدل إلى المنفصل إلاّ بعد تعذر المتصل، بأن يقعَ في الابتداء ؛ نحو : « [1] إياكَ نعبد » ، أو بعد « إلا » : نحو : « [2] أمر ألاّ تعبُدُوا إلاّ إيّاه » .

مرجع الضمير

لا بد له من مرجع يعودُ إليه ملفوظا به سابقا مطابقا ؛ نحو : « [3] ونادَى نوح ابنَه » . « [4] وعَصَى آدم رَبّه » . « [5] إذا أخْرجَ يدَهُ لم يَكَدْ يرَاها » . أو متضمنا له ؛ نحو : « [6] اعدِلُوا هو أقرب للتّقْوى » فإنه عائد على العَدْل المتضمَّن له « اعدلوا » . « وإذا حضرَ [7] القسمةَ أولُو القُربَى واليتامَى والمساكينُ فارْزُقوهم منه » ؛ أي المقسوم ، لدلالة القسمةِ عليه ؛ أو دَالاّ عليه بالالتزام ، نحو : « [8] إنّا أنزلناه في لَيلَةِ القَدْر » ؛ أي القرآن ؛ لأن الإنزالُ يدلّ عليه التزاما . « [9] فمن عُفِيَ له من أخيه شيء [9] فاتِّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . فعَفى يستلزم عافيا أُعيد عليه الهاء من « إليه » . أو متأخر لفظاً ورتبةً مطابقا ، نحو : « [10] فأوْجَس في نفسه خِيفةً موسى » . « ولا [11] يُسْألُ عن ذنوبهم المجرمون » . [12] « فيومئذٍ لا يُسأل عن ذَنْبِه إنسٌ ولاجانّ » . أو رتبة أيضا في باب ضمير الشأن والقصة ، ونعم ، وبئس ، والتنازع ، أو متأخرا دَالا بالالتزام ؛ نحو : « [13] فلولا إذا بلغَتِ الحُلْقوم » . « [14] كلا إذا بَلغَتِ التّرَاقِ » : أضمر الروح أوالنفس ، لدلالة الحلقوم والتراق عليها . « [15] حتى توارَتْ بالحجاب » ، أي الشمس لدلالة الحجاب عليها .

وقد يدلُّ عليه السياق فيضمر ثقة بفَهْم السامع ؛ [16] نحو : « كل مَنْ

---

(١) الفاتحة : ٥ — (٢) يوسف : ٤٠ — (٣) هود : ٤٢ — (٤) طه : ١٢١
(٥) النور : ٤٠ — (٦) المائدة : ٨ — (٧) النساء : ٨ — (٨) القدر : ١
(٩) البقرة : ١٧٨ — (١٠) طه : ٦٧ — (١١) القصص : ٧٨ — (١٢) الرحمن : ٣٩
(١٣) الواقعة : ٨٣ — (١٤) القيامة : ٢٦ — (١٥) ص : ٣٢ — (١٦) الرحمن : ٢٦

عليها فانٍ » . « [١] ماترك على ظَهْرِها » ؛ أى الدنيا . « [٢] ولا بَوَيْهِ » ؛ أى الميت ، ولم يتقدم له ذِكر .

وقد يعود على لفظِ المذكور دونَ معناه ، نحو : « [٣] وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ إلا فى كتاب » ؛ أى معمّر آخر .

وقد يعود على بعض ماتقدم ؛ نحو : « [٣] يوصيكم الله فى أولادكم . . . » إلى قوله : « [٢] فإن كُنَّ نساءً » . « [٤] وبُعُولَتهن أحق بردّهن » بعد قوله : « والمطلقات » ، فإنه خاصٌّ بالرجعيات ، والعـــائد عليه عامٌّ فيهن وفى غيرهن .

وقد يعود على المعنى ، كقوله فى آية الـكَلاَلَة : « [٥] فإنْ كانتا اثنتين » ، ولم يتقدم لفظ مثنى يعود عليه . قال الأخفش : لأن الـكَلاَلَةَ تقَعُ على الواحد والاثنين والجمع ، فثنّى الضمير الراجعَ إليها حَمْلا على المعنى ، كما يعود الضمير جَمْعا على « من » حملاً على معناها .

وقد يعود على لفظ شىء ، والمراد به الجنس من ذلك الشىء . قال الزمخشرى كقوله : « [٦] إنْ يكن غنياً أو فقيراً فالله أَوْلَى » ؛ أى بجِنْس الفقير والغنى ، لدلالة غنيا أو فقيرا على الجنسين ، ولو رجع إلى المتكلم به لوحّده .

وقد يذكر شيئان ويعاد الضمير إلى أحدهما ، والغالب كونه الثانى ؛ نحو : « [٧] واستَعِينوا بالصَّبْرِ والصلاة وإنها لَـكَبِيرة إلا على الْخَاشِعِين » ؛ فأعيد الضمير للصلاة ، وقيل للاستعانة المفهومة من « استعينوا » . و « [٨] جعل الشمسَ

---

(١) فاطر : ٤٥ (٢) النساء : ١١ (٣) فاطر : ١١ (٤) البقرة : ٢٢٨

(٥) النساء : ١٧٦ (٦) النساء : ١٣٥ (٧) البقرة : ٤٥ (٨) يونس : ٥

ضياءً والقمرَ نوراً وقدّرَهُ منازلَ » ؛ أي القمر ؛ لأنه الذي يعلم به الشهور .

« [١]والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه » ؛ أي يرضوهما ، فأفرد ؛ لأن داعِيَ الرسول هو داعِي العباد ، والمخاطب لهم شفاها ، ويلزم من رضاه رضا ربّه تعالى .

وقد يثنّى الضمير ويعود على أحد المذكورين ، نحو : « [٢]يَخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمرْجَان » ؛ وإنما يخرج من أحدهما .

وقد يجيء الضمير متصلا بشيء ، وهو لغيره ؛ نحو : « [٣]ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلالَةٍ من طين » ، يعني آدم ، ثم قال : « [٤]ثم جعلناهُ نُطْفَةً » ، فهذا[٥] لولده ؛ لأن آدمَ لم يخلق من نُطفة .

قلت : هذا هو باب الاستخدام ، وقد قدّمناه ، ومنه : «[٦]لا تَسألوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكم » ، ثم قال : « [٧]قد سألها » ؛ أي أشياء أخر مفهومة من لفظ أشياء السابقة .

وقد يعود الضمير على مُلاَبِس ماهو له ؛ نحو : «[٨] إلاّ عَشِيَّةً أو ضُحَاها» ؛ أي ضحى يومها لاضحى العشيّة نفسها ، لأنه لاضُحى لها .

وقد يعود على غير مشاهَدٍ محسوس . والأصلُ خلافه ؛ نحو : « [٩]إذا قَضَى أمراً فإنّما يَقُولُ له كُن فيكون » ، فضمير له عائد على الأمر ، وهو إذ ذاك غيرُ موجود ؛ لأنه لمّا كان سابقا في عِلْمِ الله كونه ، كان بمنزلة المشاهد الموجود .

---

(١) التوبة : ٦٢ (٢) الرحمن : ٢٢ (٣) المؤمنون : ١٢

(٤) المؤمنون : ١٣ (٥) في الاتقان : فهذه . (٦) المائدة : ١٠١

(٧) المائدة : ١٠٢ (٨) النازعات : ٤٦ (٩) البقرة : ١١٧

قاعدة

[فى عود الضمير]

الأصلُ عَوْده على أقرب مذكور ، ومِنْ ثَمَّ أَخّرَ المفعول الأول فى فى قوله : « [1]وكذلكَ جعلْنَا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطِينَ الإنسِ والجنِّ يُوحِى بعضُهم إلى بَعْض » ، ليعودَ الضمير عليه لقرْبه ، إلا أنْ يكونَ مضافاً ومضافاً إليه ، فالأصلُ عَوْدُه للمضاف ، لأنه المحدّث عنه ؛ نحو : « [2]وإنْ تَعدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها » .

وقد يعودُ على المضاف إليه ؛ نحو : « [3]إلى إلهِ موسى وإنى لأظنه كاذباً » .

واختلف فى : « [4]أو لَحْمَ خِنْزِيرٍ فإنّه رِجْسٌ » ؛ فمنهم مَنْ أعاده على المضاف ، ومنهم مَنْ أعاده إلى المضاف إليه .

قاعدة

الأصلُ توافقُ الضمائر فى المرجع حذَراً من التشتّت ؛ ولهذا لما جوّزَ بعضُهم فى : « [5]أنِ اقْذِفِيه فى التابُوتِ فاقْذِفيه فى اليَمِّ » ، أنّ الضمير فى الثانى للتابوت وفى الأول لموسى عابه الزمخشرى[6] ؛ وجعله تنافراً مُخْرِجاً للقرآن عن إعجازه ، فقال : والضمائر كلها راجعة إلى موسى ، ورجوعُ بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة لما تؤدى إليه من تنافرِ النظْمِ الذى هو أمّ إعجاز القرآن ، ومراعاتُه أهم ما يجب على المفسر .

وقال[7] فى : « [8]لِتُؤْمِنوا بالله ورسولِه وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه

---

(١) الأنعام : ١١٢ (٢) إبراهيم : ٣٤ (٣) غافر : ٣٧

(٤) الأنعام : ١٤٥ (٥) طه : ٣٩ (٦) الكشاف : ٢ ـ ٢٤

(٧) الكشاف : ٢ ـ ٣٢٣ (٨) الفتح : ٩

بُكْرَةً وأصيلا » : الضمائر لله ، والمراد بتعزيره تعزير دينه ورسوله ، ومَنْ فرّق الضمائر فقد أبعد .

وقد يخرج عن هذا الأصل ؛ كما في قوله : « [1]ولا تَسْتَفْتِ فيهم منهم أحدًا » ، فإنّ ضمير « فيهم » لأصحاب الكهف ، « ومنهم » لليهود ؛ قاله ثعلب والمبرد . ومثله : « [2]ولما جاءَتْ رُسلنا لوطاً سِيءَ بهم وضاقَ بهم ذَرْعاً » : قال ابن عباس : ساء ظنّاً بقومه وضاق ذَرْعا بأضيافه . وقوله : « [3] إلاّ تَنْصروه . . . » الآية فيها اثنا عشر ضميرا كلها للنبي صلى الله عليه وسلم إلا ضمير : « عليه » فلصاحبه ، كما نقله السهيلي عن الأكثرين ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم تنزل عليه السكينة ، وضمير « جعل » له تعالى .

وقد يخالَف بين الضمائر حذَرا من التنافر ، نحو : «[4]منها أربعةٌ حُرُم » ؛ الضمير للاثنى عشر ، ثم قال : « فلا [5] تظلموا فيهنّ أنفُسَكم » : أتى بصيغة ضمير الجمع مخالفا لعوْدِه على الأربعة .

ضمير الفصل

ضمير بصيغة المرفوع مطابق لما قبله ، تكلّما وخطابا وغيبةً ، إفرادا وغيره ، وإنما يَقع بعد مبتدأ أو ما أصلُه المبتدأ وقَبْلَ خبرٍ كذلك ، اسما ؛ نحو : « [5]وأولئكَ هم المفْلحون » . « [6]وإنّا لَنَحْن الصّافون » . «[7] كنْتَ أنتَ الرقيبَ عليهم » . « [8] تَجِدوه عِنْدَ الله هو خَيْراً » . « إنْ تَرَنِ [9] أنا

(١) الكهف : ٢٢ (٢) هود : ٧٧ (٣) التوبة : ٤٠
(٤) التوبة : ٣٦ (٥) البقرة : ٥ (٦) الصافات : ١٦٥
(٧) المائدة : ١١٧ (٨) المزمل : ٢٠ (٩) الكهف : ٣٩

أنا أقلَّ منكَ مالاً » . « (١) هؤلاءِ بناتى هُنَّ أطهَرُ لكم » .

وجوَّز الأخفش وقوعَه بين الحال وصاحبها ، وخرَّج عليه قراءة : « هنَّ أطهَرَ لكم » ـ بالنصب . وجوَّز الجرجانى وقوعَه قبل مضارع ؛ وجعل منه : « (٢) إنّه هو يبْدِىء ويعيد » . وجعل منه أبو البقاء : « (٣) ومَكرُ أولئكَ هو يَبور » .

ولا محلَّ لضمير الفصل من الإعراب .

وله ثلاثة فوائد : الإعلام بأنَّ ما بعده خبر لا تابع . والتأكيد ؛ ولهذا سماه الكوفيون دعامة ، لأنه يدعَم به الكلام ؛ أى يقَوِّى ويؤكد ، وبَنَى عليه بعضهم أنه لا يجمع بينه وبينه ، فلا يقال زيد نفسه هو الفاضل . والاختصاص .

وذكر الزمخشرى[٤] الثلاثة فى : (٥) « وأولئك المفلحون » ، فقال : فائدته الدلالة على أنَّ ما بعده خبر لا صِفَة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دونَ غيره .

ضمير الشأن والقصة

ويسمى ضمير المجهول ؛ قال فى المغنى[٦] : خالف القياس من خمسة أوجه : أحدها عَوْده على ما بعده لزوما ؛ إذ لا يجوز للجملة المفسّرة له أن تتقدّم عليه ، ولا شىء منها .

والثانى أنَّ مفسّره لا يكون إلا جملة . والثالث أنه لا يتبع بتابع ،

---

(١) هود : ٧٨ (٢) البروج : ١٣ (٣) فاطر : ١٠

(٤) الكشاف : ١ ـ ١٩ (٥) البقرة : ٥ (٦) المغنى : ٢ ـ ١٠٠

فلا يؤكد ، ولا يُعطف عليه ، ولا يُبـــدَل منه . والرابع أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو ناسخ . والخامس أنه ملازِمٌ للإفراد ؛ ومن أمثلته : « [1] قلْ هو اللهُ أحَد » . « [2] فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبصارُ الذين كفروا » . « [3] فإنّها [٣١٩ ب] لا تَعمَى الأبصارُ » . وفائدته الدلالةُ على تعظيمِ المُخبر عنه وتفخيمه ، بأن يذكر أولا مُبْهما ثم يُفسر .

تنبيه

قال ابن هشام[4] : متى أمكن الحَمْلُ على غير ضمير الشأن فلا ينبغي أنْ يُحْمَل عليه ، ومِنْ ثَمّ ضعف قول الزمخشرى [5] فى : « [6] إنّهُ يَرَاكُم هُوَ وقَبيلُهُ » : إن اسم « إن » ضمير الشأن ، والأوْلى كونه ضمير الشيطان ، ويؤيده قراءة : « وقَبيلَه » بالنصب ، وضمير الشأن لايعطف عليه .

قاعدة

جمع العاقلات لا يعودُ عليه الضمير غالبا إلا بصيغة الجَمْع ، سواء كان للقلّة أو للكثرة ، نحو : « [7] والوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ » . « [8] وللمطلّقَاتُ يَتَرَبّصْنَ » ، وورد الإفراد فى قـــوله : « [9] وأزْوَاجٌ مُطَهَّرة » ، ولم يقل مطهرات .

وأما غَيْرُ العاقل فالغالب فى جمع الكثرة الإفراد ، وفى القلّة الجمع . وقد

---

(١) الإخلاص : ١ (٢) الأنبياء : ٩٧ (٣) الحج : ٤٦ (٤) المغنى : ٢ـ١٠٠
(٥) الكشاف : ١ـ٣٢٤ (٦) الأعراف : ٢٧ (٧) البقرة : ٢٣٣
(٨) البقرة : ٢٢٨ (٩) آل عمران : ١٥

أجتمعا فى قوله : « (١) إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عند الله اثْنَا عشَر شَهْراً فى كتاب الله » . . . إلى أن قال : « منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ، فأعاد « منها » بصيغة الإفراد على الشهور وهى للكثرة ، ثم قال : « (١) فلا تَظْلموا فِيهِنَّ أنفُسَكُم » فأعاده جمعا على « أربعة حُرُم » وهى للقلّة .

وذكر الفراء لهذه القاعدة سرًّا لطيفا ، وهو أنّ المميّز مع جمع الكثرة — وهو مازاد على العشرة — لما كان واحدا وحّد الضمير ، ومع القلّة ، وهو العشرة وما دونها ، لمّا كان جمعا جمع الضمير .

قاعدة

إذا اجتمع فى الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بدىء باللفظ ثمّ بالمعنى ، هذا هو الجادّة فى القرآن ؛ قال تعالى : « (٢) ومِنَ الناسِ مَنْ يَقول » ، ثم قال : « (٢) وما هم بمؤمنين » . أفرد أولا باعتبار اللفظ ، ثم جمع باعتبار المعنى . وكذا : « (٣) ومِنهم مَنْ يَستَمِع إليكَ ، وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة » . « (٤) ومنهم مَنْ يَقُول ائْذَنْ لى ولا تَفْتِنِّى ألا فى الفتنة سقَطُوا » . قال الشيخ علم الدين العراقى : ولم يجىء فى القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا فى موضع واحد ، وهو قوله تعالى : « (٥) وقالوا ما فى بطونِ هذه الأنعام خالصة لذُكورِنا » ، فأنّث خالصة حملاً على معنى ما ثم راعى اللفظ فذكّر فقال : « ومحرم » .

قال ابن الحاجب فى أماليه : إذا حمل على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى ، وإذا حمل على المعنى ضعف الحَمْل بعده على اللفظ ؛ لأن المعنى أقوى ، فلا يبعد الرجوع إليه بعد اعتبار اللفظ ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القوىّ الرجوع إلى الأضعف .

---

(١) التوبة : ٣٦ (٢) البقرة : ٨ (٣) الأنعام : ٢٥

(٤) التوبة : ٤٩ (٥) الأنعام : ١٣٩

وقال ابن جنّى فى المحتسب : لا تجوز مراجعةُ اللفظ بعد انصرافه عنه إلى المعنى ، وأورد عليه قوله تعالى: « [1] ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا.. » إلى قوله : « [2] حتى إذا جاءنا » ، فقد راجع اللفظَ بعد الانصراف عنه إلى المعنى .

وقال محمود بن حمزة فى كتاب العجائب : ذهب بعض النحويين إلى أنه لا يجوز الحَمْلُ على اللفظ بعد الحَمْلِ على المعنى ، وقد جاء فى القرآن بخلاف ذلك ، وهو قوله : « [3] خالدِين فيها أبَدًا، قد أحسنَ اللهُ له رِزْقًا » .

وقال ابن خالويه فى كتاب « ليس » : القاعدة فى « من » ونحوه الرجوع من اللفظ إلى المعنى ، ومن الواحد إلى الجمع ، ومن المذكر إلى المؤنث ؛ نحو : « [4] ومَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله ورَسُولِه وتَعْمَلْ صالِحًا » . و « مَنْ [5] أسْلَمَ وجْهَه لِله وهو محسن .. » إلى قوله : «ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» ، أجمع على هذا النحويون .

قال : وليس فى كلام العرب ولا فى شىء من العربية الرجوع من المعنى إلى اللفظ ، إلا فى حرف واحد استخرجه ابن مجاهد ؛ وهو قوله تعالى : « [6] ومَنْ يؤْمِنْ بالله ويَعْمَلْ صالحا يدْخِلْه جناتٍ . . . » الآية : وَحَّد فى « يؤمن » و « يعمل » و « يدخله » ، وجمع فى قوله : « [6] خالدين » ، ثم وحّد فى قوله : « [6] أحسن الله له رِزْقا » ، فرجع بعد الجمع إلى التوحيد .

---

(١) الزخرف : ٣٦ (٢) الزخرف : ٣٨ (٣) الطلاق : ١١
(٤) الأحزاب : ٣١ (٥) البقرة : ١١٢ (٦) الطلاق : ١١

قاعـدة

التذكير والتأنيث

التأنيث ضربان : حقيقي وغيره ، فالحقيقيُّ لا تُحذَفُ تاء التأنيث من فعله غالبا إلا إنْ وقع فَصْلٌ ، وكلما كثُرَ الفصل حسُنَ الحذف ، والإثبات مع الحقيقي أولى ، مالم يكن جمعا . وأما غير الحقيقي فالحذفُ فيه مع الفَصل أحسن ؛ نحو : «[1] فمَنْ جاءَه موعظة مِنْ ربِّهِ » . «[2] قد كانَ لكمْ آية » ، فإن كثر الفَصل ازداد حسنا ؛ نحو: «[3] وأخذ الذين ظَلَموا الصَّيْحةُ » والإثبات أيضاً حسن ، نحو : «وأخذت[4] الذين ظَلَموا الصَّيْحة ...» ؛ فجمع بينهما في سورةِ هود .

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحَذْفِ ؛ واستدلّ عليه بأنّ الله قدّمه على الإثبات حيث جمع بينهما .

ويجوز الحذف أيضا مع عدم الفَصْل حيث الإسناد إلى ظاهره ؛ فإن كان إلى ضميره امتنع . وحيث وقع ضميرٌ أو إشارة بين مبتدأ وخبر أحدهما مذكَّر والآخر مؤنث ، جاز في الضمير والإشارة التذكير والتأنيث ؛ كقوله تعالى : «[5] هذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » ، فذكَّر والخبر مؤنث لتقدم [١٣٢٠] السد وهو مذكَّر . وقوله تعالى : «[6] فذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ » : ذكَّر والمشار إليه اليد والعصا ، وهما مؤنّثان لتذكير الخبر [وهو برهانان[7]].

---

(١) البقرة : ٢٧٥ (٢) آل عمران : ١٣ (٣) هود : ٦٧

(٤) هود : ٩٤ (٥) الكهف : ٩٨ (٦) القصص : ٣٢

(٧) من الاتقان .

وكلُّ أسماء الأجناس يجوز فيها التذكيرُ والتأنيث حَمْلاً على الجماعة ؛ كقوله : « [1] أعجازُ نَخْلٍ خاوية » . و « أعجـــاز نَخْلٍ [2] مُنْقَعِر » ، « [3] إنّ البَقَرَ تشابَهَ علينا » . وقرىء : تشابهت . « [4] السماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » . « [5] إذا السماءُ انفطرَتْ » . وجعل منه بعضُهم : « [6] جاءَتْها ريحٌ عاصِفٌ » . « [7] ولسليمان الرِّيحَ عاصفةً » .

وقد سُئل : ما الفرقُ بين قوله : « [8] فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى الله ومنهم مَنْ حقَّت عليه الضَّلالَةُ » . وقوله : « [9] فَرِيقـاً هَدَى وفريقـاً حَقَّ عليهم عليهم الضلالَةُ » ؟

وأجيب بأنّ ذلك لوجهين : لفظي ، وهو كثرةُ حروف الفاصل في الثاني ، والحذف مع كثرة الحواجز أكثر .

ومعنويّ ، وهو أن « مَنْ » في قوله : « مَنْ حقَّتْ » راجعة إلى الجماعة ، وهي مؤنثة لفظا ، بدليل : « [8] ولقد بعَثْنا » في كلّ أمةٍ رسولا ، ثم قال : « [8] ومنهم من حقَّتْ عليه الضَّلالة » : أي من تلك الأمم ، ولو قال : ضلّت لتعيَّنت التاء ، والكلامان واحد ؛ وإذا كان معناها واحدا كان إثباتُ التاءِ أحسن مِنْ تركها ، لأنها ثابتة فيما هو من معناه .

وأما : « فريقا هَدَى . . . » الآية فالفريقُ مذكّر ، ولو قال : فريقا ضلّوا لكان بغير تاء ، وقوله : « حَقَّ عليهم الضلالةُ » في معناه ، فجاء بغير تاء ؛ وهذا

---

(١) الحاقة : ٧ (٢) القمر : ٢٠ (٣) البقرة : ٧٠

(٤) المزمل : ١٨ (٥) الانفطار : ١ (٦) يونس : ٢٢

(٧) الأنبياء : ٨١ (٨) النحل : ٣٦ (٩) الأعراف : ٣٠

أسلوب لطيف من أساليب العرب أن يَدَعُوا حُكْمَ اللفظِ الواجب فى قياس لغتهم إذا كان فى مرتبةِ كلمةٍ لا يجب لها ذلك الحكم .

قاعدة

فى التعريف والتنكير

اعلم أنّ لكل منهما مقاما لا يليقُ بالآخر . أما التنكير فله أسباب :

أحدها — إرادةُ الوحدة ، نحو : «[1] وجاء رَجُل مِنْ أقصى المدينة يَسْعَى» ؛ أى رجل واحد . و «[2] ضرب الله مثلا رجُلا فيه شركاءُ متشاكسون ورَجلا سلَماً لرَجُل» .

الثانى — إرادة النوع ؛ نحو : «[3] هذا ذِكْر» ؛ أى نوع من الذكر ، «[4] وعلى أبصارهم غشاوة» ؛ أى نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس ، بحيث غطّى ما لا يُغَطّيه شىء من الغشاوات . «[5] ولتجدنّهم أحرصَ الناسِ على حياةٍ» ؛ أى نوع منها ، وهو الازْدياد فى المستقبل ؛ لأنّ الحِرْصَ لا يكون على الماضى ولا على الحاضر . ويحتمل الوحدة والنوعية معا قوله تعالى[6] : «والله خلَقَ كُلّ دابّة مِنْ ماءٍ» ؛ أى كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، وكلّ فردٍ من أفراد الدواب من فرد من أفراد النّطف .

الثالث — التعظيم ، بمعنى أنه أعظم من أنْ يعيّنَ ويُعرف ، نحو : «[7] فأذَنُوا بِحَرْبٍ من الله» «[8] ولهم عذاب أليم» . «[9] وسَلامٌ عليه يومَ وُلِدَ» .

---

(١) القصص : ٢٠ (٢) الزمر : ٢٩ (٣) ص : ٤٩
(٤) البقرة : ٧ (٥) البقرة : ٩٦ (٦) النور : ٤٥
(٧) البقرة : ٢٧٩ (٨) البقرة : ١٠ (٩) مريم : ١٥

« [1] سلامٌ على إبراهيم » . « [2] أنَّ لهُمْ جنّاتٍ » .

الرابع — التكثير ؛ نحو : « [3] أئنَّ لنا لأجراً » ؛ أي وافرا جزيلا .
ويحتمل التعظيم والتكثير معا : « [4] وإنْ يكذّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسُل من قبلكَ » ؛ أي رسل عظام ذوو عدَد كثير .

الخامس — التحقير ، بمعنى انحطاط شأنه إلى حدٍّ لا يمكن أن يعرف ؛ نحو : « [5] إنْ نظنُّ إلاّ ظنّاً » ، أي ظنّا حقيرا لا يُعبأ به ، وإلا اتبعوه ؛ لأن ذلك دَيْدَنهم ، بدليل : « [6] إنْ يتّبعونَ إلا الظنَّ » . « [7] مِنْ أيِّ شيءٍ خلقه » ؛ أي من شيء حقير مهين ، ثم بيّنه بقوله : « [8] مِنْ نُطفةٍ خلقه » .

السادس — التقليل ؛ نحو « [9] ورِضْوانٌ من الله أكبر » ؛ أي رضوان قليل منه أكبر من الجنّات ؛ لأنه رأس كل سعادة :

قليلٌ [10] منك يكفيني ولكن ... قليلك لا يُقالُ له قليل

وجعل منه الزمخشري [11] : « [12] سبحان الذي أسرَى بعَبْدِه ليلا » ؛ أي بعض ليل .

وأورِد عليه أنَّ التقليل ردّ الجنس إلى فردٍ من أفراده ، لا تنقيص فرد إلى جزء من أجزائه . وأجاب في عروس الأفراح بأنا لا نُسلّم أن الليلَ حقيقة في جميع الليلة ، بل كل جزء من أجزائها يسمّى ليلا .

---

(١) الصافات : ١٠٩ (٢) البقرة : ٢٥ (٣) الشعراء : ٤١ (٤) فاطر : ٤
(٥) الجاثية : ٣٢ (٦) الأنعام : ١١٦ (٧) عبس : ١٨ (٨) عبس : ١٩
(٩) التوبة : ٧٢ (١٠) الإتقان : ٢ ـ ٢٩٢ (١١) الكشاف : ١ ـ ٥٤٠
(١٢) الإسراء : ١

وعدّ السكاكى من الأسباب ألا يعرف من حقيقته إلا ذلك ، وجعل منه أنْ تقصدَ التجاهُلَ وأنكَ لاتعرف شخصه ؛ كقوله : هل لكم فى حيوان على صورة إنسان يعمل كذا ؟ وعليه من تجاهل الكفار : « [1] هَلْ نَدُلُّكُمْ على رجل يُنَبِّئُكم إذَا مُزِّقْتم » ؛ كأنهم لا يعرفونه .

وعدّ غيره منها قَصْد العموم بأن كانت فى سياق النفى ؛ نحو : « [2] لارَيْبَ فيه » . « [3] فلا رَفَثَ » . . . الآية أو الشرط ؛ نحو : « [4] وإنْ أحد مِنَ المشركين استجارَكَ » ، والامتنان ، نحو : « [5] وأنْزَلْنَا مِنَ السماءِ ماءً طَهُوراً » .

وأمّا التّعريف فله أسباب ، فبالإضمار ؛ لأنّ المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة .

وبالعَلَمية لإحضاره بعينه فى ذِهن السامع ابتداءً باسم مختصّ به ؛ نحو : « [6] قل هو [٢٣٠ ب] الله أحد » . « [7] محمد رسولُ الله » . أو لتعظيم أو إهانة حيث علمه يقتضى ذلك ، فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه إسرائيل لما فيه من المدح والتعظيم ، ولكونه صفوة الله ، أو سرىّ الله ، كما قدمنا فى حرف الألف .

ومن الإهانة قوله : « [8] تبَّتْ يَدَا أبى لَهَب » ، وفيه أيضا نكتة أخرى ؛ وهى الكناية به عن كونه جهنميا .

وبالإشارة لتمييزه أكملَ تمييزٍ بإحضارِه فى ذهن السامع حسًّا ، نحو :

---

(١) سبأ : ٧ (٢) البقرة : ٢ (٣) البقرة : ١٩٧ (٤) التوبة : ٦
(٥) الفرقان : ٤٨ (٦) الاخلاص : ١ (٧) الفتح : ٢٩ (٨) تبت : ١

«(١) هذا خَلْقُ اللهِ فأرونِي ماذا خلقَ الذين مِنْ دُونه» .

وللتعريض بغباوة السامع ، حتى إنه لايتميز له الشيء إلا بإشارة الحسّ ، وهذه الآية تصلح لذلك .

ولبيان حاله في القرب والبعد ، فيؤتَى بالأول بنحو هذا ، وفي الثاني بنحو ذلك وأولئك . ولقصد تحقيره بالقُرب : «(٢) أهَذا الذي يَذْكُرُ آلِهتَكم» . «(٣) أهذا الذي بعثَ اللهُ رسولا» . «(٤) ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً» ، وكقوله تعالى : «(٥) وما هَذهِ الحياةُ الدُّنيا إلا لَهْوٌ ولَعِب» .

ولقصد تعظيمه بالبُعد ؛ نحو : «(٦) ذلكَ الكتابُ لارَيْبَ فيه» ، ذهابا إلى بُعْدِ دَرجته .

وللتنبيه بعد ذِكْر المشارِ إليه بأوصافٍ قبله على أنه جدير بما يرد بعده من أجلها ، نحو : «(٧) أولئكَ على هُدًى من ربهم ؛ وأولئكَ هم المفلحون» .

وبالموصولة لكراهةِ ذِكْره بخاصّ اسمه ، إمّا سَتْراً عليه ، أو إهانة ، أو لغير ذلك ، فيُؤْتَى بالذي ونحوها موصولة بما صدر منه من فعل أو قول ؛ نحو : «(٨) والذي قال لِوَالدَيْهِ أفٍّ لكما» . «(٩) وراوَدَتْه التي هو في بيتها» .

وقد تكون لإرادةِ العموم ، نحو : «(١٠) إنّ الذينَ يستكبرون عن عبادتي . . . » الآية .

---

(١) لقمان : ١١ (٢) الأنبياء : ٣٦ (٣) الفرقان : ٤١ (٤) البقرة : ٢٦
(٥) العنكبوت : ٦٤ (٦) البقرة ٢ (٧) البقرة : ٥ (٨) الأحقاف : ١٧
(٩) يوسف : ٢٣ (١٠) غافر : ٦٠

وللاختصار ، نحو : « [1] لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا » ، أى قولهم إنه آدر ، إذ لو عدّد أسماء القائلين لطال ، وليس للعموم ، لأن بنى إسرائيل كلّهم لم يقولوا فى حقه ذلك .

وبالألف واللام إشارة إلى معهود خارجىّ أو ذهنى أو حضورىّ .

وللاستغراق حقيقة أو مجازا ، أو لتعريف الماهية . وقد مرّت أمثلتها فى حروف المعجم .

وبالإضافة لكونها أخصر طريق .

ولتعظيم المضاف ، نحو : « [2] إنّ عبادى ليس لكَ عليهم سُلطان » . « [3] ولا يرضَى لعبادِه الكفرَ » ، أى الأصفياء فى الآيتين ، كما قال ابن عباس وغيره .

ولقصد العموم نحو : « [4] فليحذر الذين يُخالفون عن أمره » ، أى كل أمر الله .

فائدة

سئلتُ عن الحكمة فى تنكير « أحد » وتعريف الصمد فى قوله تعالى : « [5] قل هو الله أحَد . الله الصَّمَد » . وألّفت فى جوابه تأليفا مودَعا فى الفتاوى ، وحاصله أن فى ذلك أجوبة :

أحدها ـ أنه نكّر للتعظيم ، والإشارة إلى أنّ مدلوله ـ وهو الذات المقدسة ـ غير ممكن تعريفها والإحاطة بها .

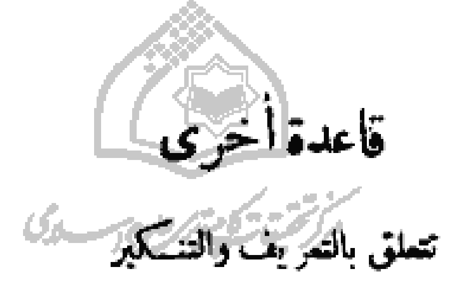
---

(١) الأحزاب : ٦٩ (٢) الحجر : ٤٢

(٣) الزمر : ٧ (٤) النور : ٦٣ (٥) الإخلاص : ١ ، ٢

الثانى — أنه لا يجوز إدخال « أل » ، كغير وكل وبعض ، وهو فاسد ، فقد قرىء : قل هو الله الواحد الصمد . حكى هذه القراءة أبو حاتم فى كتاب الزينة عن جعفر بن محمد .

الثالث . مما خطر لى أن « هو مبتدأ والله خبر ، وكلاهما معرفة ، فاقتضى الحصر ، فعُرِّفَ الجزآن فى : الله الصمد ، لإفادة الحصر ليطابقَ الجملة الأولى ، واستغنى عن تعريف أحد لإفادة الحصر دونه ، فأتى به على أصله من التنكير ، على أنه خبر ثان . وإن جعل الاسمُ الكريم مبتدأ و « أحد » خبر ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم ، فأتى بالجملة الثانية على نحو الأولى . بتعريف الجزأين للحصر تفخيما وتعظيما .



قاعدة أخرى

تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذُكِرَ الاسمُ مرتين فله أربعة أحوال : لأنه إمّا أنْ يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثانى معرفة ، أو بالعكس ؛ فإنْ كانا معرفتين فالثانى هو الأولُ غالبا ، دلالة على المعهود الذى هو الأصلُ فى اللام أو الإضافة ؛ نحو : « [1] اهْدِنا الصِّرَاطَ المستقيم . صِرَاطَ الذين أنعمتَ عليهم » « [2] فاعْبدوا الله مُخْلِصا له الدين . ألا لله الدِّينُ الخالِصُ » .

« [3] وجعَلُوا بينه وبين الجِنّةِ نَسَباً . ولقد علمت الجِنّةُ إنهم لمحضَرُون » .

« [4] وقِهِمُ السيئاتِ ومن تَقِ السيئاتِ » . « [5] لعلى أبلغُ الأسبابَ .

---

(١) الفاتحة : ٦ ، ٧   (٢) الزمر : ٢ ، ٣   (٣) الصافات : ١٥٨

(٤) غافر : ٩   (٥) غافر : ٣٦ ، ٣٧

أسبابَ السموات». وإن كانا نكرتين فالثانى غيرُ الأولِ غالبا، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناء على كونه معهودا سابقاً، نحو: «(١) الذى خلقكمْ من ضَعْف، ثم جعل من بَعدِ ضَعْف قوةً ثم جعل مِنْ بعد قُوَّةٍ ضَعْفا وشَيْبَةً يخلق ما يشاء»، فإن المرادَ بالضعف الأول النطفة، وبالثانى الطفولية، [٣٢١ ا]، وبالثالث الشيخوخية.

وقال ابنُ الحاجب — فى قوله تعالى: «(٢) غدُوها شَهرٌ ورَوَاحُها شَهرٌ» الفائدة فى إعادةِ لفظِ الشهر الإعلام بمقدار زَمَنِ الغدوّ وزمن الرواح، والألفاظ التى تأتى مبيّنة للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار، ولو أضمِر فالضميرُ إنما يكونُ لما تقدّم باعتبار خصوصيته، فإذا لم يكن له وجب العدولُ عن الضمر إلى الظاهر. وقد اجتمع القسمان فى قوله تعالى: «(٣) فإنّ معَ العُسْرِ يُسْراً، إنّ مع العُسْرِ يُسْراً»؛ فالعُسْرُ الثانى هو الأول، واليُسر الثانى غير الأول؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الآية: لن يغلب عُسْر يُسرَين.

وإن كان الأول نكرة والثانى معرفة فالثانى هو الأولُ حملا على المهد؛ نحو: «(٤) أرسَلْنا إلى فرعونَ رسولاً. فعصى فرعونُ الرسولَ». «(٥) فيها مِصباحٌ، المِصبَاحُ فى زُجاجةٍ، الزُّجاجة» «إلى(٦) صِرَاطٍ مستقيم. صِرَاطِ الله». «(٧) مِنْ سَبِيل. إنّما السبيلُ».

وإن كان الأول معرفة والثانى نكرة فلا يُطلَق القول، بل يتوقف على القرائن؛ فتارة تقوم قرينة على التغاير؛ نحو: «(٨) ويَوْمَ تقوم الساعة

---

(١) الروم: ٥٤ (٢) سبأ: ١٢ (٣) الشرح: ٥، ٦
(٤) المزمل: ١٥، ١٦ (٥) النور: ٣٥ (٦) الشورى: ٥٢، ٥٣
(٧) الشورى: ٤١، ٤٢ (٨) الروم: ٥٥

يُقسمُ المجرمون مَا لبثُوا غَيْرَ ساعةٍ ». « [1]يسألكَ أهلُ الكتابِ أنْ تُنزِّلَ عليهم كتاباً من السماء » . « [2]ولقد آتينَا مُوسى الهُدَى وَأَورثْنَا بنى إسرائيلَ الكتابَ . هُدى » . قال الزمخشرى[3] : المراد بالهدى جميع ما آتاه الله من الدين والمعجزات والشرائع ، وهدى الإرشاد .

وتارة تقوم قرينةٌ على الاتحاد : نحو : « ولقد[4] ضَرَبْنَا للنَّاسِ فى هذا القرآنِ من كلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكَّرُون . قرآناً عربيًّا » .

تنبيه

قال الشيخ بهاء الدين فى عروس الأفراح وغيره : الظاهر أنَّ هـذه القاعدة غَيْرُ محرَّرة ، فإنها منتقَضةٌ بآياتٍ كثيرة ، منها فى القسْمِ الأول : « [5]هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ » ، فإنهما معرفتان . والثانى غير الأول ، فإنَّ الأولَ العمل والثانى الثواب . « [6]أنَّ النفسَ بالنفس » ، أى القاتلة بالمقتولة . وكذا سائر الآيات : « [7]الحرُّ بالحرِّ ... » الآية . « [8] هل أتى على الإنسان حينٌ من الدَّهر ... » ، ثم قال : « إنَّا خلقنَا الإنسانَ من نُطْفَة » ؛ فإن الأول آدم ، والثانى ولده . « [9]وكذلكَ أنزلْنا إليك الكتاب فالذين آتيْنَاهم الكتابَ يُؤْمِنُون به » . فإنَّ الأولَ القرآن ، والثانى التوراة والإنجيل .

ومنها فى القسم الثانى : « [10]وهوَ الّذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ إله »

---

(١) النساء : ١٥٣ (٢) غافر : ٥٣ ، ٥٤ (٣) الكشاف : ٢ـ ٣١٩
(٤) الزمر : ٢٧ ، ٢٨ (٥) الرحمن : ٦٠ (٦) المائدة : ٤٥
(٧) البقرة : ١٧٨ (٨) الإنسان : ١ ، ٢ (٩) العنكبوت : ٤٧
(١٠) الزخرف : ٨٤

« [1]يسألونكَ عن الشَّهْرِ الحرام قِتالٍ فيه قُلْ قِتالٌ فيه كبير » ، فإنَّ الثانى فيهما هو الأول وهما نكرتان .

ومنها فى القسم الثالث : « [2]أن يُصْلِحا بينهما صُلْحا والصُّلْحُ خير » . « ويُؤْتِ [3] كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَه » . « [4]ويَزِدْكُمْ قوة إلى قُوَّتِكم » . « [5]ليزْدَادُوا إيمانا مع إيمانهم » . « زِدْنَاهم[6] عذابًا فَوْقَ العذابِ » . « [7] وما يَتَّبِعُ أكثرُهم إلا ظَنًّا ، إنَّ الظنَّ لا يُغْنى من الحق شيئًا » . فإن الثانى فيهما غير الأول .

وأقول لا انتقاضَ بشىء من ذلك عند التأمل ؛ فإنَّ اللام فى الإحسان للجنس فيما يظهر ، وحينئذ يكون فى المعنى كالنكرة ، وكذا آية النفس والحر، بخلاف آية العسر ، فإنَّ « أل » فيها إما للعهد أو للاستغراق كما يفيد الحديث ، وكذا آية الظن لا نسلم أنَّ الثانى فيها غير الأول ، بل هو عينه قطعا ؛ إذ ليس كلُّ ظن مذموما ، كيف وأحكام الشريعة ظنِّية ؛ وكذا آية الصلح لامانع من أن يكونَ المرادُ منها الصلح المذكور ، وهو الذى بين الزَّوجين . واستحباب الصلح فى سائر الأمور ، ويكون مأخوذا من السنَّة أو من الآية بطريق القياس ، بل لا يجوز القولُ بعموم الآية ، وأنَّ كلَّ صلح خير ، لأنَّ ما أحلَّ حراما من الصلح ، أو حرَّم حلالا فهو ممنوع ، وكذا آية القتالِ ليس الثانى فيها عَيْنَ الأول بلا شك ، لأن المراد بالأول المسئول عن القتال الذى وقع فى سَرِيَّة ابن الحضرمى سنة اثنتين من الهجرة ، لأنه سببُ نزول الآية . والمراد بالثانى جنسُ القتال لا ذاك بعينه .

---

(١) البقرة : ٢١٧ (٢) النساء : ١٢٨ (٣) هود : ٣ (٤) هود : ٥٢
(٥) الفتح : ٤ (٦) النحل : ٨٨ (٧) يونس : ٣٦

وأما آية : « (١) وهو الذى فى السماء إله وفى الأرضِ إله » فقد أجاب عنها الطيبى بأنها من باب التكرير لإفادة أمْر زائد ، بدليل تكرير ذكر الرب فيما قبله من قوله : « (٢) سبحانَ رَبِّ السموات والأرْضِ رَبِّ العَرْشِ » . ووجهُ الإطناب فى تنزيه سبحانه عن نِسبةِ الولد إليه . وشرطُ القاعدة ألاّ يقصد التكرير .

وقد ذكر الشيخ بهاء الدين فى آخر كلامه : أن المراد بذكر الاسم مرتين كونه مذكورا فى كلامٍ واحد أو كلامين بينهما تواصل بأن يكون أحدُهما معطوفا على الآخر ، أولَهُ به تعلُّق ظاهر وتناسب واضح ، وأن يكون من متكلم واحد ، ودفع بذلك إيراد آية القتال ؛ لأن الأول فيها محكىّ عن قول السائل ، والثانى محكىّ من كلام النبى صلى الله عليه وسلم .

قاعـــدة

فى الإفراد والجمع

من ذلك السماء والأرض : حيث وقع فى القرآن ذِكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمَعْ بخلاف السموات ، لثقل جمعها وهو أرَضون ؛ ولهذا لما أُريد ذِكْر جميع الأرض قال : « ومِنَ الأرْضِ (٣) مِثْلَهنَّ » . وأما السماء فذُكِرت تارةً بصيغة الجمع ، وتارةً بصيغة الإفراد لنُكتة تليقُ بذلك المحلّ ، كما [٣٢١ ب] أوضحتُه فى أسرار التنزيل . والحاصل أنه حيث أُريد العدد أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة ؛ نحو : « (٤) سَبّحَ لله مافى السموات » ؛ أى جميع

---

(١) الزخرف : ٨٤ (٢) الزخرف : ٨٢ (٣) الطلاق : ١٢

(٤) الصف : ١

سكانها على كثرتهم ، « (١) تُسَبِّحُ له السمواتُ » ؛ أى كلّ واحـــدة على اختلاف عددها . « قل (٢) لا يَعلَمُ مَنْ فى السمواتِ والأرضِ الغَيْبَ إلاّ الله » ؛ إذ المراد نَفْىُ علمِ الغيب عن كلّ مَنْ هو فى واحدة ، واحدة من السموات .

وحيث أُريد الجهة أتى بصيغة الإفراد ، نحو : « (٣) وفى السماءِ رِزْقُكم » . « أأمِنْتُم (٤) مَنْ فى السماءِ أنْ يَخْسِفَ بكم الأرض » ؛ أى من فوقكم .

ومن ذلك الريح حيث ذُكرت مجموعة ومفردة ، فحيث ذُكِرت فى سياقِ الرحمة جُمِعت ، أو فى سياق العذاب أُفردت .

وأخرج ابنُ أبى حاتم وغيره عن أُبَىّ بن كعب ، قال : كلُّ شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكلّ شىء فيه من الريح فهو عذاب .

ولهذا ورد فى الحديث : "اللهم اجعلها رِياحاً ولا تجعلها رِيحاً" . وذكر فى حكمةِ ذلك أنّ رِياحَ الرحمة مختلفة الصفات والمهبّات والمنافع ، وإذا هاجَتْ منها رِيح أُثير لها من مقابلها ما يكسر سَوْرتها ، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفة تنفعُ الحيوان والنبات ، فكانت فى الرحمة رياحا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وَجْهٍ واحد ، ولا معارض لها ولا دافع .

وقد خرَج عن هذه القاعدة قوله تعالى فى سورة يونس : « (٥) وجَرَيْنَ بهم بِرِيح طَيِّبَة » ؛ وذلك لوجهين : لفظى ، وهو المقابلة بقوله : « (٥) جاءَتْها ريحٌ عاصف » . ورُبَّ شىء يجوزُ فى المقابلة ، ولا يجوز استقلالا ؛ نحو : « (٦) ومَكَرُوا ومَكَرَ الله » .

---

(١) الإسراء : ٤٤ (٢) النمل : ٦٥ (٣) الذاريات : ٢٢
(٤) الملك : ١٦ (٥) يونس : ٢٢ (٦) آل عمران : ٥٤

ومعنوى ؛ وهو أنّ تمامَ الرحمةِ هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ؛ فإنّ السفينةَ لا تسير إلا بريح واحدة من وجهٍ واحد ، فإذا اختلفت عليها الرياح كان سببَ الهلاك ، والمطلوب هنا ريح واحدة ، ولهذا أكّد هذا المعنى بوصفها بالطيب ؛ وعلى ذلك أيضا جرى قوله : « [1]إن يَشأْ يُسْكِنِ الريحَ فيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِه » . وقال ابن المنير : إنه على القاعدة لأنَّ سكونَ الريح عذابٌ وشدةٌ على أصحاب السفن .

ومن ذلك إفراد النور وجَمْعُ الظلمات ، وإفراد سبيل الحق وجمع سبيل الباطل ، في قوله : « [2]ولا تتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفرَّقَ بكم عن سبيله » ؛ لأنّ طريق الحقّ واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، والظلمات بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ؛ بل هما هما ؛ ولهذا وحّد وَلِيّ المؤمنين ، وجمع أولياءَ الكفار لتعدّدهم في قوله : « اللهُ وَلِيُّ[3] الذين آمَنُوا يُخْرِجُهم من الظلماتِ إلى النّور ، والذين كفروا أولياؤُهم ... » الآية .

ومن ذلك إفراد النار حيث وقعت والجنة حيث وقعت مجموعةً ومفردة ؛ لأن الجنان مختلفة الأنواع ، فحَسُنَ جمعها ، والنار مادة واحدة ، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب ، فناسب جَمْعَ الأولى وإفراد الثانية على حدّ الرياح والريح .

ومن ذلك إفراد السمع وجمع البَصر ؛ لأنّ السمعَ غلب عليه المصدرية ، فأفرد ، بخلاف البصَر ، فإنه اشتهر في الجارحة ، ولأن متعلّق السمع الأصوات ، وهي حقيقة واحدة ، ومتعلق البصر الألوان والأكوان وهي حقائق مختلفة ، فأشار في كل منهما إلى متعلقه .

---

(١) الشورى : ٣٣ (٢) الأنعام : ١٥٣ (٣) البقرة : ٢٥٧

ومن ذلك إفرادُ الصديق وجمع الشافعين فى قوله : «[1] فمالنا مِنْ شافعين . ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . وحكمتُهُ كثرةُ الشفعاءِ فى العادة وقلّةُ الصديق .

قال الزمخشري[2] : ألاَ ترى أنَّ الرجل إذا امتُحن بإرهاقِ ظالمٍ نهضت جماعةٌ وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة . وأما الصديق فأعزّ من بَيْضِ الأَنُوق .

ومن ذلك الألباب لم يقع إلا مجموعا ، لأن مفرده ثقيل لفظا .

ومن ذلك مجيء المشرق والمغرب بالإفراد وبالتثنية وبالجمع ؛ فحيث أُفردا ، فاعتباراً للجهة ، وحيث ثُنِّيا فاعتباراً لمشرق الصيف والشتاء ومغربهما ، وحيث جُمعا فاعتبارا لتعدُّد المطالع فى كل فصل من فصول السنة .

وأما وَجْهُ اختصاصِ كلّ موضع بما وقع فيه ، ففى سورة الرحمن ورد[3] بالتثنية ؛ لأنّ سياقَ السورة سياق المزدوجين ، فإنه سبحانه ذَكَر أولا نَوْعَى الإيجاد وهما الخلق والتعليم ، ثم ذكر سراجى العالم : الشمس والقمر ، ثم نَوْعى النبات : ما كان على ساق ومالا ساق له ، وهما النجم والشَّجَر ، ثم نوعى السماء والأرض ، [١٣٢٢] ثم نوعى العدل والظلم ، ثم نَوْعى الخارج من الأرض وهما الحبوب والرياحين ، ثم نوعى المكلّفين وهما الإنس والجان ، ثم نوعى البحر : العذب والملح ، فلهذا حَسُن تثنيةُ المشرق والمغرب فى هذه السورة وجمعا فى قوله : «[4] فلا أُقسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمغارب . إنّا لقادِرُون » . وفى سورة الصافات[5] الدلالة على سعة القدرة والعظمة .

---

(١) الشعراء : ١٠٠، ١٠١ (٢) الكشاف : ٢ — ١٢٧

(٣) فى الاتقان : وقع . (٤) المعارج : ٤٠

(٥) الصافات : رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق .

فائدة

حيث ورد البارّ مجموعا فى صفة الآدميين قيل : أبرار ، وفى صفة الملائكة قيل بَرَرَة ؛ ذكره الراغب ، ووجّهه بأن الثانى أبلغ ؛ لأنه جَمْع بارّ ، وهو أبلغُ من « بر » مفرد الأول .

وحيث ورد الأخ مجموعا فى النَّسَب قيل إخوة ، وفى الصداقة قيل إخوان ؛ قاله ابن فارس وغيره . وأورِد عليه فى الصداقة : « [1] إنما المؤمنون إخوة » ، وفى النسب : « [2] أو إخوانِهِنّ أوْ بَنى إخوَانِهِنّ أوْ بنى أخَواتِهِنّ » .

فائدة

ألّف أبو الحسن الأخفش كتابا فى الإفراد والجمع فى القرآن ذكر فيه جميع ما وقع فى القرآن مفرداً ، ومفرد ما وقع فيه جمعا ، وأكثره من الواضحات ؛ وهذه أمثلة مِنْ خَفِىّ ذلك :

المَنُّ جمع لا واحد له . والسَّلْوَى لم يُسمع له بواحد . النصارى قيل جمع نصرانى ، وقيل نصير كنديم ، وقَبِيل . العُوَان جمعه عُون . الهُدَى لا واحدَ له . الإعصار جمعه أعاصير . الأنصار واحده نَصير ، كشريف وأشراف . الأزلام واحدها زلَم ، ويقال زُلَم ، بالضم . مِدْرار جمعه مَدَارير . أساطير واحدها أسطورة ، وقيل أسطار جمع سَطْر . الصُّور قيل جمع صورة ، وقيل واحد الأصوار . فُرَادى جمع أفراد ، جمع فرد . وقِنْوان جمع قِنْو . وصِنْوان جمع صِنْو ، وليس فى القرآن جمع ومثنى بصيغة واحدة إلا هذان ولفظ ثالث

(1) الحجرات : ١٠ (2) النور : ٣١

لم يقع فى القرآن ، قاله ابن خالويه فى كتاب ليس : الحوايا جمع حاوية ، وقيل حاوياء . نشر جمع نَشُور . عِضين وعِزين جمع عِضه وعِزه . المثانى جمع مثنى . تارة جمعها تارات ، وتِير . أيقاظ جمع يَقِظ . الأرائك جمع أريكة . سرى جمعه سِريان ، كخصى وخصيان . آناء الليل جمع إنا ، بالقصر كمى . وقيل إنى كفرد ، وقيل إنوة كفِرْقة . الصَّيَاصى جمع صِيصية . منسأة جمع مناسى. الحرور جمعه حُرور بالضم . غَرَابيب جمعه غِربيب . أتراب جمع ترب . الآلاء : جمع إلَى كمى ، وقيل ألَى كقفا . وقيل إلْى كفِرْد ، وقيل ألو . التراقى جمع تَرْقُوة بفتح أوله . الأمشاج جمع مَشِج . ألفافا جمع لِفّ — بالكسر . العِشار جمع عُشر . الخُنّس جمع خانسة ، وكذا الكُنّس . الزبانية جمع زبنية . وقيل زابن . وقيل زبانى . أشتاتا جمع شت وشتيت . أبابيل لا واحد له ، وقيل واحده إبَّوْل مثل عِجَّول . وقيل إبيل مثل إكليل .

فائدة

ليس فى القرآن من الألفاظ المعدولة إلا ألفاظ العدد : مثنى ، وثلاث ورُباع ، ومن غيرها طُوى فيما ذكره الأخفش فى الكتاب المذكور . ومن الصفات أخر ، قال تعالى : «[1] وأُخَرُ مُتَشابِهات» . قال الراغب[2] وغيره : هى معدولة عن تقدير مافيه الألف واللام ؛ وليس له نظير فى كلامهم ؛ فإن « أفعل » إما أن يذكر معه « من » لفظا أو تقديراً ، فلا يُثَنَّى ولا يجمع ، ولا يؤنث ، أو يحذف منه « من » فتدخل عليه الألف واللام [ويثنى ويجمع ، وهذه اللفظة

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) المفردات : ١-١٣

من بين أخواتها جُوِّز فيها ذلك من غير الألف واللام[1]] .

وقال الكرماني في الآية المذكورة : لا يمنع كونها معدولة من الألف واللام كونها وصفا لنكرة ؛ لأن ذلك مقدر من وجه، غير مقدر من وجه .

قاعدة

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضي مقابلة كلّ فرد من هذا بكل فرد من هذا ، كقوله : « [2] واستغشوا ثيابهم » ، أي استغشى كلٌّ منهم ثوبه . « [3] حُرِّمت عليكم أمهاتكم » ؛ أي على كل من المخاطبين أمّه . « [4] يُوصيكم الله في أولادكم » ؛ أي كل في أولاده . « [5] والوالدات يُرضعن أولادهنّ » ؛ أي كلّ واحدة ترضع ولدها .

وتارة يقتضي ثبوتَ الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه ؛ نحو : « [6] فاجلدوهم ثمانين جلدة » . وجعل منه الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « [7] وبَشّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات » .

وتارة يحتمل الأمرين ، فيحتاج إلى دليل يعيّن أحدهما .

وأما مقابلة الجمع بالمفرد فالغالبُ ألا يقتضي تعميم المفرد ، وقد يقتضيه كما في قوله : « [8] وعلى الذين يُطيقونه فِدْية طعامُ مسكين » المعنى على كلّ واحد لكل يوم طعام مسكين . « [9] والذين يرمُون [٣٣٢ ب] المُحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعةِ شُهداءَ فاجلِدوهم ثمانين جلدةً » ؛ لأنه على كل واحد منهم ذلك .

---

(١) من الاتقان ، والمفردات . (٢) نوح : ٧ (٣) النساء : ٢٣
(٤) النساء : ١١ (٥) البقرة : ٢٣٣ (٦) النور : ٤
(٧) البقرة : ٢٥ (٨) البقرة : ١٨٤ (٩) النور : ٤

قاعدة

ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه

من ذلك الخوف والخشية ؛ لا يكادُ اللغوى يفرِّقُ بينهما ، ولا شكَّ أنَّ الخشيةَ أعلَى منه ، وهى أشدُّ الخوف ، فإنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ؛ أى يابسة ، وهو فَوات بالكلية . والخوف من قولهم ناقة خَوْفاء ؛ أى بها داء وهو نَقْص ، وليست بفوات ؛ ولذلك خصت الخشيةُ بالله فى قوله : « [1] يَخْشَوْنَ رَبَّهم ويَخَافُونَ سوءَ الحسَابِ » .

وفُرِق بينهما أيضا بأنَّ الخشية تكون من عظم المختشى ، وإن كان الخاشى قويًّا ، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا . ويدلُّ لذلك أنَّ الخاء والشين والياء فى تقاليبها تدُلُّ على العظمة ، نحو : شيخ للسيد الكبير . وخيش لما غَلُظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبا فى حقِّ الله ؛ « [2] مِنْ خَشْيةِ اللهِ » . « [3] إنما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماء » . وأما « [4] يخافُون ربَّهم مِنْ فَوْقِهم » — ففيه نكتة لطيفة ، لأنه وصف الملائكة ، ولما ذكر قوتهم وشدة خلقهم عبَّر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظا شدادا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ؛ ثم أردفهُ بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين . ولما كان ضَعْف البشر معلوما لم يحتج إلى التنبيه عليه .

ومن ذلك الشح والبخل . والشحُّ هو أشدُّ البخل . قال الراغب : الشح : بخل مع حِرْص . وفرَّقَ العسكرىُّ بين البخل والضنِّ بأن الضن أصله أن يكون بالعَوَارى ، والبُخْل بالهبات ، ولهذا يقال : هو ضنين بعلمه ، ولا يقال بخيل ؛

---

(١) الرعد : ٢١ (٢) البقرة : ٧٤ (٣) فاطر : ٢٨
(٤) النحل : ٥٠

لأنَّ العلم بالعارية أشبه بالهبة ؛ لأن الواهب إذا وهب شيئا خرج عن مِلكه ، بخلاف العارية ، ولهذا قال تعالى : « [1] وما هو على الغَيْبِ بضنين » ، ولم يَقُل ببخيل .

ومن ذلك السبيل والطريق ، والأولُ أغلب وقوعاً في الخير ، ولا يكاد اسمُ الطريق يُرادُ به الخير إلا مقترنا بوصفٍ أو إضافة تخلّصُه لذلك ، كقوله تعالى [2] : « يَهْدِي إلى الحق وإلى طريقٍ مُستقيم » . وقال الراغب : السبيل الطريق التي فيها سهولة، فهو أخص .

ومن ذلك جاء وأتى ؛ فالأول يقال في الجواهر والأعيان . والثاني في المعاني والأزمان ؛ ولهذا ورد في قوله : « [3] ولمن جاءَ به حِملُ بَعير » . « [4] وجاءوا على قَميصه بدَمٍ كَذِب » . « [5] وجِيء يومئذ بجهنّم » . وأتى في : « [6] أتى أمرُ الله » . « [7] أتاها أمرُنا » ؛ وأما « [8] وجاء ربك » ؛ أي أمره ، فإن المراد به أهوالُ القيامة المشاهدة . وكذا « فإذا [9] جاءَ أجلُهم » ، لأن الأجل كالمشاهد ، ولهذا عُبِّر عنه بالحضور في قوله : حضره الموت ؛ ولهذا فرّق بينهما في قوله : « [10] جئناكَ بما كانوا فيه يَمترُونَ . وأتيناكَ بالحق » ؛ لأنَّ الأول العذاب، وهو مشاهد مرئيّ بخلاف الحق . وقال الراغب : الإتيان مجيء بسهولة ؛ فهو أخصُّ من مطلق المجيء . ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه أتاويّ ، وأتيّ .

---

(١) التكوير : ٢٤ (٢) الأحقاف : ٣٠ (٣) يوسف : ٧٢
(٤) يوسف : ١٨ (٥) الفجر : ٢٣ (٦) النحل : ١
(٧) يونس : ٢٤ (٨) الفجر : ٢٢ (٩) الأعراف : ٣٤
(١٠) الحجر : ٦٣، ٦٤

ومن ذلك مدّ وأمدّ ، قال الراغب : أكثر ماجاء الإمداد فى المحبوب ؛ نحو : « [1]وأمْدَدْنَاهم بفاكهة » . والمدّ فى المكروه ؛ نحو : « [2]ونَمُدُّ لهُ مِنَ العذَابِ مَدًّا » .

ومن ذلك سقى وأسقى ، فالأول لما لا كُلفَةَ فيه ، ولهذا ذكر فى شراب الجنة ؛ نحو : « [3]وسقَاهُمْ رَبُّهم شَرَاباً طَهُوراً » . والثانى لما فيه كلفة ، ولهذا ذُكر فى الدنيا ، نحو : « [4]لأَسْقَيْنَاهم ماء غَدَقاً » . وقال الراغب : الإسقاء أبلغ من السقى ؛ لأنّ الإسقاء أنْ يجعل له ما يستقى منه ، ويشرب . والسقى أن يعطيه ما يشرب .

ومن ذلك عمل وفعل ، فالأول لما كان مع امتداد زمان ، نحو : « [5]يَعْمَلُون له ما يشاء » . « [6]مما عمِلَتْ أيدينا » ؛ لأنّ خلق الأنعام والثمارِ والزروع بامتداد . والثانى بخلافه ، نحو : « [7]كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل » . « [8]كيف فعَلَ ربُّك بعاد » . « [9]فعلْنَا بهم » ؛ لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء . « [10]ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُون » ؛ أى فى طرفة عين . ولهذا عبر بالأول فى قوله : « [11]وعَمِلوا الصالحاتِ » حيثُ كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة . وبالثانى فى قوله : « [12]وافْعَلُوا الخيرَ » حيث كان بمعنى سارعوا ، كما قال : « [13]فاستَبِقوا الخيراتِ » . وقوله :

---

(١) الطور : ٢٢ (٢) مريم : ٧٩ (٣) الانسان : ٢١
(٤) الجن : ١٦ (٥) سبأ : ١٣ (٦) يس : ٧١
(٧) الفيل : ١ (٨) الفجر : ٦ (٩) إبراهيم : ٤٥
(١٠) النحل : ٥٠ (١١) البقرة : ٢٥ (١٢) الحج : ٧٧
(١٣) البقرة : ١٤٨

« [1] والذين هم للزكاة فاعلون » حيث كان القصد يأتون بها على سرعة من غير توانٍ .

ومن ذلك القعود والجلوس ، فالأول لما فيه لبث ، بخلاف الثانى ؛ ولهذا يقال قواعد البيت [٣٢٣ ا] ، ولا يقال جوالسه للزومها ولبثها ، ويقال جليس الملك ولا يقال قعيده ؛ لأن مجالس الملوك يستحب فيها التخفيف ؛ ولهذا استعمل الأول فى قوله : « [2] مَقْعَدِ صِدْقٍ » للإشارة إلى أنه لا زوال له ، بخلاف : « [3] تَفَسَّحُوا فى المجالِس » ؛ لأنه يجلس فيه زمانا يسيرا .

ومن ذلك التمام والكمال ، وقد اجتمعا فى قوله : « [4] أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتِى » ؛ فقيل الإتمام لإزالة نقصان الأصل ، والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل ؛ ولهذا كان قوله تعالى : « [5] تلك عَشَرَةٌ كامِلَة » أحسن من « تامة » ؛ لأن التمام من العدد قد عُلِم ؛ وإنما نفى احتمال نقص فى صفاتها . وقيل : تمّ يشعر بحصول نقص قبله ، وكمل لا يشعر بذلك . وقال العسكرى : الكمال اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به . والتمامُ اسم للجزء الذى يتم به الموصوف ، ولهذا يقالُ للقافية تمام البيت ، ولا يقال كماله . ويقولون البيت بكماله أى باجتماعه .

ومن ذلك الإعطاء والإيتاء ، قال الخويى : لا يكاد اللغويون يفرّقون بينهما ، وظهر لى بينهما فرق ينبىء عن بلاغة كتاب الله ؛ وهو أنّ الإيتاء أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع ، تقول : أعطانى فعطوتُ ،

---

(١) المؤمنون : ٤ (٢) القمر : ٥٥ (٣) المجادلة : ١١

(٤) المائدة : ٣ (٥) البقرة : ١٩٦

ولا يقال في الإيتاء: أتاني فأتيت؛ وإنما يقال آتاني فأخذت. والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له، لأنك تقول: قطعته فانقطع، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفا على قبول في المحل، لولاه ما ثبت المفعول. ولهذا يصح قطعته فما انقطع. ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك؛ فلا يجوز ضربته فانضرب، أو فما انضرب، ولا قتلته فانقتل ولا فما انقتل؛ لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء أقوى من الإعطاء.

قال: وقد تفكرت في مواضع من القرآن فوجدت ذلك مراعى؛ قال تعالى: «(1) تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ»؛ لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا من له قوة، وكذا قوله: «(2) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ»، «(3) آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي»؛ لعظم القرآن وشأنه: وقال: «(4) إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ»؛ لأنه مورود في الموقف مُرتحل عنه قريبا إلى منازل العزّ في الجنة، فعبّر فيه بالإعطاء؛ لأنه يترك من قرب، وينتقل إلى ما هو أعظم منه. وكذا، «(5) يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، لما فيه من تكرر الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كلّ الرضا، وهو مفسر أيضا بالشفاعة، وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه. وكذا «أعطى كلّ شيء خلقه»، لتكرّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، حتى يعطوا الجزية، لأنها موقوفة على قبول منّا، وإنما يعطونها عن كُرْه.

---

(1) آل عمران: ٢٦ (2) البقرة: ٢٦٩ (3) الحجر: ٨٧
(4) الكوثر: ١ (5) الضحى: ٥ (6) طه: ٥٠

فائدة

قال الراغب : خص دفع الصدقة في القرآن بالإيتاء ، نحو : « [١] أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة» «وأقامَ» [٢] الصلاةَ وآتى الزكاة» : قال : وكل موضع ذكر في وصف الكتاب «آتينا» فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه « أوتوا ، لأن أوتوا قد يقال إذا أوتيَ من لم يكن منه قبول، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قبول .

ومن ذلك السَّنَةَ والعام ؛ قال الراغب : الغالب استعمال السَّنَة في الحَوْلِ الذي فيه الشدَّة والجَدْب ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة . والعام ما فيه الرخاء والخصب ؛ وبهذا تظهر النكتة في قوله : « [٣]ألفَ سَنَة إلا خمسين عاماً » حيث عبر عن المستثنى بالعام ، وعن المستثنى منه بالسنة .

قاعدة

في السؤال والجواب

الأصل في الجواب أن يكونَ مطابقا للسؤال إذا كان السؤال متوجِّها .

وقد يعدَل في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان مِنْ حقِّ السؤال أن يكونَ كذلك، ويسميه السكاكي الأسلوب الحكيم . وقد يجيء الجواب أعمّ من السؤال للحاجة إليه في السؤال . وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك .

مثال ما عدل عنه قوله تعالى : « [٤] يَسألونَكَ عن الأهِلَّة قلْ هي مَوَاقِيت للناس والحَجِّ » . سألوا عن الهلال لِمَ يَبْدو رقيقا مثل الخيط ، ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان

---

(١) البقرة : ٢٧٧ — (٢) البقرة : ١٧٧

(٣) العنكبوت : ١٤ — (٤) البقرة : ١٨٩

حكمةِ ذلك تنبيها [٣٢٣ ب] على أن الأهمّ السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه .
كذا قال السكاكى ومَنْ أتى بعده ، واسترسل التفتازانى فى الكلام إلى أن
قال : ليسوا ممّن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة .

وأقول : ليت شعرى من أينَ لهم أنّ السؤال وقع عن غير ما حصل
الجوابُ به ! وما المانعُ من أن يكون إنما وقع عن حكمةِ ذلك ليعلموها ،
فإنَّ نظمَ الآية محتمل لذلك ، كما أنه محتمل لما قالوه . والجواب ببيانِ الحكمة
دليلٌ على ترجيح الاحتمال الذى قدّمناه ، وقرينةٌ ترْشِدُ إلى ذلك ؛ إذ الأصلُ
فى الجواب المطابقة للسؤال ، والخروج عن الأصلِ يحتاج إلى دليل ، ولم يرد
بإسنادٍ لاصحيح ولا غيره أنّ السؤال وقع عماذكروه ؛ بل ورد ما يؤيد ماقلناه،
فأخرج ابن جرير ، عن أبى العالية ، قال : بلغنا أنهم قالوا : يارسولَ الله ، لِمَ
خلقتِ الأهلّة ؟ فأنزل الله : « يسألونك عن الأهلّة » ، فهذا صريح فى أنهم
سألوه عن حكمة ذلك لاعنْ كيفيته من جهة الهيئة ، ولا يظنّ ذو دين بالصحابة
الذين هم أدقّ فهما ، وأغزر علما ، أنهم ليسوا ممن يطّلع على دقائق الهيئة
بسهولة ، وقد اطلع عليها آحاد العجم الذين أطبق الناس على أنهم أبلد أذهانا
من العرب بكثير . هذا لو كان للهيئة أصل معتبر ، فكيف وأكثرها فاسد
لا دليل عليه .

وقد صنفْت كتابا فى نقض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذى صعد إلى السماء ورآها عيانا ، وعلم ما حوته من عجائب
الملكوت بالمشاهدة ، وأتاه الوَحْى مِنْ خالقها ، ولو كان السؤال وقع عمّا
ذكروه لم يمتنع أنْ يجابوا عنه بلفظ يصل إلى أفهامهم ، كما وقع ذلك لما سألوا
عن المجرة وغيرها من الملكوتيات .

ثم المثـــال الصحيح لهذا القسم جواب موسى لفرعون حيث قال :

« [1]وما ربُّ العالمين . قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما » ؛ لأنه[2] سؤال عن الماهية أو الجنس . ولما كان هذا السؤال فى حقِّ البارى تعالى خطأ ، لأنه لا جنس له ، فيذكر ولا تدرك ذاته ، عدل إلى الجواب بالصواب ببيان الوصف المرشد إلى معرفته ؛ ولهذا تعجَّبَ فرعون من عدم مطابقته للسؤال ، فقال « [3] ألاَ تستمعُون » : أى جوابه الذى لم يطابق السؤال ، فأجاب موسى : « [4] ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين » المتضمِّن إبطال ما يعتقدونه من ربوبية فرعون نصًّا ، وإن كان دخل فى الأول ضمنا إغلاظا ؛ زاد فرعون فى الاستهزاء به ، فلما رآهم موسى لم يتفطنوا أغلظَ فى الثالث بقوله : « [5] إنْ كنتم تعقلون » .

ومثال الزيادة فى الجواب قوله تعالى : « [6] قُلِ اللهُ يُنَجِّيكم منها ومن كل كرب » فى جواب « [7] مَنْ يُنَجِّيكم من ظُلُمات البرِّ والبَحْر » . وقول موسى : « [8] هى عَصَايَ أتوكَّأُ عليها وأهشُّ بها على غنمى » فى جواب : « [9] وما تلكَ بيمينكَ ياموسى » . زاد فى الجواب استلذاذا بخطاب الله .

وقول قوم إبراهيم : « [10] نَعْبُدُ أصناماً فنظَلُّ لها عاكفين » فى جواب : « [11] ما تَعْبُدون » ؟ زاد فى الجواب إظهارا للابتهاج بعبادتها والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل .

ومثال النقص منه قوله تعالى « [12] قلْ ما يَكونُ لى أنْ أُبدِّله فى جواب : « [13] ائْتِ بقرآن غَيْرِ هذا أو بدِّله » ، أجاب عن التبديل دونَ الاختراع .

---

(١) الشعراء : ٢٣ ، ٢٤
(٢) فى الإتقان : لأن « ما » سؤال .
(٣) الشعراء : ٢٥
(٤) الشعراء : ٢٦
(٥) الشعراء : ٢٨
(٦) الأنعام : ٦٤
(٧) الأنعام : ٦٣
(٨) طه : ١٨
(٩) طه : ١٧
(١٠) الشعراء : ٧١
(١١) الشعراء : ٧٠
(١٢) يونس : ١٥

قال الزمخشري[١] : لأن التبديلَ في إمكان البشر دون الاختراع ، فطوَى ذِكرَه للتنبيه على أنه سؤال محال . وقال غيره : التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

تنبيــــه

قد يُعدَل عن الجواب أصلا إذا كان السائل قَصْده التعنيت ؛ نحو : « [٢]ويسألونك عن الروح » ـ قال صاحب الإيضاح : إنما سأل اليهود تعجيزا أو تغليطا إذْ كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان ، والقرآن ، وعيسى وجبريل ، وملك آخر ، وصنف من الملائكة ، فقصد اليهودُ أنْ يسألوه ، فبأيّ مسمّى أجابهم قالوا : ليس هو ، فجاءهم الجواب مجملا ، وكان هذا الإجمال كَيْداً يردُّ به كيدهم .

قاعــــدة

قيل أصل الجواب أنْ يُعادَ فيه نَفسُ السؤال ، ليكون وفقَه ؛ نحو : « [٣]أإنَّكَ لأنْتَ يوسف ؟ قال أنا يوسف » ؛ فأنا في جوابه هو « أنت » في سؤالهم ، وكذا « [٤]أأقرَرْتُم وأخذتُم على ذلكم إصْرِي ، قالوا أقرَرْنا » ؛ فهذا أصله ؛ ثم إنهم أتوا عِوَض ذلك بحروف الجواب اختصاراً وترك التكرار .

وقد يحذف السؤال ثقةً بفهم السامع بتقديره ؛ نحو : « [٥]قُلْ هَلْ

---

(١) الكشاف : ١ ـ ٤١٧ (٢) الإسراء : ٨٥

(٣) يوسف : ٩٠ (٤) آل عمران : ٨١ (٥) يونس : ٣٤

[٣٢٤ ا] مِنْ شُرَكائِكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يَبدَأُ الخلق ثم يعيده » . فإنه لا يستقيم أن يكونَ السؤال والجواب من واحد ، فتعيّن أن يكون « قل الله » جوابَ سؤال ، فكأنهم سألوا لمّا سمعوا ذلك : مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟

قاعـــدة

الأصل فى الجواب أن يكون مشاكِلا للسؤال ؛ فإن كان جملة اسمية فينبغى أن يكون الجواب كذلك ، ويجىء كذلك فى الجوابِ المقدَّر ، إلا ابن مالك قال : قولك زيد — فى جواب مَنْ قرأ : إنه من باب حَذْف الفعل ، على جَعْل الجواب جملة فعلية . قال : وإنما قدرته كذلك لا مبتدأ مع احتماله ، جَرْياً على عادتهم فى الأجوبة إذا قصدوا تمامها ، قال تعالى «[1] مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهى رَمِيم . قُلْ يُحيِيها الذى أنشأها » . «[2] ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَ السموات والأرضَ ليقولنّ خَلَقهنّ العزيز العليم » . «[3] يسألونك ماذا أُحلّ لهم ؟ قل أُحِلّ لكم الطيبات » . فلما أتى بالجملة الفعلية مع فواتِ مشاكلة السؤال عُلِم أنّ تقدير الفعل أولى .

قال ابن الزَّمْلَكَانى فى البرهان : أطلق النحويون القولَ بأن زيدا فى جواب مَنْ قام ؟ فاعل على تقدير قام زيد ، والذى توجبه صناعة علم البيان أنه مبتدأ ، لوجهين :

أحدهما — أنه يطابق الجملةَ المسئول بها فى الاسمية ، كما وقع التطابق فى قوله : «[4] وقيل للذين اتّقوا ماذا أنزَلَ ربكم قالوا خَيْراً » فى الفعلية ، وإنما لم يَقَع

---

(١) يس : ٧٨، ٧٩ (٢) الزخرف : ٩ (٣) المائدة : ٤

(٤) النحل : ٣٠

التطابقُ فى قوله : « [1] ماذا أنزلَ ربُّكم ؟ قالوا أساطيرُ الأولين » ؛ لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين بالإنزال وهم من الإذعان به على مفاوز .

الثانى — أن اللَّبْس لم يقع عند السائل إلا فيمن فعل الفعل ، فوجب أن يتقدم الفاعل فى المعنى ، لأنه متعلق غرَضِ السائل . وأما الفعلُ فمعلوم عنده ، ولا حاجة به إلى السؤال عنه ، فحرِىٌّ أنْ يقعَ فى الأواخر التى هى محل التكملات والفَضَلات .

وأشكل على هذا : « [2] بلْ فعلَه كبيرهم هذا » — فى جواب « أأنتَ [3] فعلْتَ هذا » ؟ فإن السؤال وقع عن الفاعل لا عن الفعل ، فإنهم لم يستفهموه عن الكسر ، بل عن الكاسر ، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل .

وأجيب بأن الجوابَ مقدرٌ دلَّ عليه السياق ، إذ « بل » لا يصلح أن يصدر بها الكلام ، والتقدير : ما فعلته ، بل فعله .

قال الشيخ عبد القاهر : وحيث كان السؤال ملفوظا به فالأكثرُ تركُ الفعلِ فى الجواب والاقتصارُ على الاسمِ وحده ، وحيث كان مضمرا فالأكثر التصريح به لضعف الدلالة عليه . ومن غير الأكثر : « [4] يسبَّحُ له فيها بالغدوّ والآصالِ . رجال » — فى قراءة البناء للمفعول .

قاعـــدة

أخرج البزار عن ابن عباس ، قال : ما رأيتُ قوما خيرا من أصحابِ محمد ، ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة ، كلُّها فى القرآن .

---

(١) النحل : ٢٤ (٢) الأنبياء : ٦٣ (٣) الأنبياء : ٦٢

(٤) النور : ٣٦ ، ٣٧ ، وقراءة حفص : يسبح — بكسر الباء .

وأورده الإمام الرازي بلفظ أربعة عشر حرفا . وقال: منها ثمانية في البقرة: « [1] وإذا سألكَ عِبادي عَني » . « [2] يسألونكَ عن الأهلّة » . « [3] يسألونكَ ماذا ينفِقُون، قل ما أنفقتُم » . « [4] يســألونك عن الشهرِ الحرام » . « [5] يسألونكَ عن الخَمْر والميْسر » . « [6] ويسألونك عن اليتامى » . « [7] ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العَفْو » . « [8] ويسألونك عن المحيض » . قال : والتاسع : « [9] يسألونك ماذا أحلّ لهم » في المائدة . والعاشر : « [10] يسألونك عن الأنفال والحادي عشر: « [11] ويسألونك عن الساعة أيان مُرساها » والثاني عشر : « [12] ويسألونك عن الجبال » . والثالث عشر : « [13] ويسألونك عن الرُّوح » . والرابع عشر : « [14] ويسألونك عن ذي القرْنَيْنِ » .

قلت : السائلُ عن الروح » وذى القرنين مشركو مكةَ أو اليهود ، كما في أسباب النزول لا الصحابة ، فالخالص اثنا عشر كما صحت به الرواية .

فائـــدة

قال الراغب : السؤال إذا كان للتعريف تعدّى إلى المفعول الثاني ؛ تارةً بنفسه ، وتارة بمن ، وهو أكثر ، نحو « [15] ويسألونكَ عن الروح » وإذا كان لاستدعاء مالٍ فإنه يعدّى بنفسه أو بمن ، وبنفسه أكثر ؛ نحو:

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) البقرة : ١٨٩ (٣) البقرة : ٢١٥
(٤) البقرة: ٢١٧ (٥) البقرة : ٢١٩ (٦) البقرة : ٢٢٠
(٧) البقرة : ٢١٩ (٨) البقرة : ٢٢٢ (٩) المائدة : ٤
(١٠) الأنفال : ١ (١١) النازعات: ٤٢ (١٢) طه : ١٠٥
(١٣) الإسراء : ٨٥ (١٤) الكهف : ٨٣ (١٥) الإسراء : ٨٥

« [1]وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » . « [2]واسألوا ما أنفقتم » . «[3] واسألوا الله من فضله » .

قاعـــدة

فى الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسمُ يدلُّ على الثبوت والاستمرار، والفعلُ يدلُّ على التجدد والحدوث ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر ؛ فمن ذلك : قوله : « [4]وكلبُهم باسطٌ ذراعَيه بالوَصيد » ، لو قيل « يبسط » لم يؤد الغرض ، لأنه يؤذن بمزاولة الكلب البَسْط ، وأنه يتجدد له شيئا بعد شيء ، فباسط أشعر بثبوت الصفة . وقوله : « [5]هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله يرزُقكم » ، لو قيل : رازقكم لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئا بعد شيء ؛ ولهذا جاء الفعل[6] فى صورة المضارع ، مع أنَّ العامل الذى يفيده ماضٍ ؛ نحو : « [7]وجاءُوا أباهم عشاءً يَبْكون » ، إذ المراد أنْ يفيد صورة ما هم عليه [٢٣٤ ب] وقتَ المجيء ، وأنهم آخذون فى البكاء يجدّدونه شيئا بعد شيء ، وهو المسمّى حكاية الحال الماضية ، وهذا هو سر الإعراضِ عن اسم الفاعل والمفعول ؛ ولهذا أيضا عبَّر بالذين ينفقون ، ولم يقل المنفقون ، كما قيل المؤمنون والمتّقون ؛ لأنَّ النفقةَ أمر فِعْلىّ شأنه الانقطاع والتجدد ، بخلاف الإيمان، فإن له حقيقةً تقوم بالقلب يدومُ مقتضاها . وكذلك التقوى والإسلام ، والصبر والشكر ، والهدى والضلال ، والعمى

---

(١) الأحزاب : ٥٣ (٢) الممتحنة : ١٠
(٣) النساء : ٣٢ (٤) الكهف : ١٨ (٥) فاطر : ٣
(٦) فى الاتقان (٢ ـ ٣١٧) : جاءت الحال . (٧) يوسف : ١٦

والبصر ، كأنها لها مسمَّياتٌ حقيقية أو مجازية تستمرُ ، وآثار تتجدد وتنقطع ؛ فجاءت بالاستعمالين .

وقال تعالى فى آية الأنعام : « (١) يخرجُ الحىَّ من الميِّت ومخرجُ الميتِ من الحىِّ » . قال الإمام فخر الدين : لما كان الاعتناء بإخراج الحىّ من الميت أشدّ أتى فيه بالمضارع ليدلّ على التجدد ، كما فى قوله : « (٢) الله يَسْتَهْزِىءُ بهم » .

تنبيهات

الأول : المراد بالتجدد فى الماضى الحصول ، وفى المضارع أنّ من شأنه أنْ يتكرر ويقع مرةً بعد أخرى ، صرح بذلك جماعة منهم الزمخشرى (٣) فى قوله : « (٤) الله يستهزىء بهم » .

قال الشيخ بهاء الدين السبكى : وبهذا يتَّضح الجواب عما يذكر من نحو : علم الله كذا ؛ فإنّ علم الله لا يتجدد ، وكذا سائر الصفات الدائمة التى يستعمل فيها الفعل .

وجوابُه أنّ معنى علم الله كذا وقع عِلْمُه فى الزمن الماضى ، ولا يلزم أنه لم يكُنْ قَبْل ذلك ؛ فإن العلم فى زمنٍ ماض أعمّ من المستمر على الدوام قبل ذلك الزمن وبعده وغيره ؛ ولهذا قال تعالى - حكاية عن إبراهيم : « (٤) الذى خلقنى فهو يَهْدِين . والذى هو يطْعِمنى ويسقِين ... » الآيات ؛ فأتى بالماضى فى

---

(١) الأنعام : ٩٥ (٢) البقرة : ١٥ (٣) الكشاف ١ : ٢٨

(٤) الشعراء : ٧٨ ، ٧٩

الخلق ، لأنه مفروغ منه ، وبالمضارع في الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء ، لأنها متكررةٌ متجدّدة تقعُ مرةً بعد أخرى .

الثاني : مضمر الفعل فيما ذُكر كظهره ، ولهذا قالوا : إنَّ سلام الخليل أبلغُ من سلام الملائكة حيث : « [1] قالوا سلاماً . قال سلامٌ » ؛ فإن نصب سلاماً إنما يكون على إرادة الفعل ؛ أي سلمنا سلاماً . وهذه العبارةُ مؤذنة بحدوث التسليم منهم ؛ إذ الفعلُ متأخرٌ عن وجود الفاعل ، بخلاف سلام إبراهيم ، فإنه مرتفع بالابتداء ؛ فاقتضى الثبوتَ على الإطلاق ، وهو أولى مما يعرض له الثبوت ، فكأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيّوه به .

الثالث : ما ذكرناه من دلالة الاسم على الثبوت والفعل على التجدد والحدوث هو المشهورُ عند أهل البيان ، وقد أنكره أبو المطرف بن عميرة في كتاب التمويهات على التبيان لابن الزملكاني ، وقال : إنه غريب لا مستند له ؛ فإنّ الاسمَ إنما يدل على معناه فقط ، أما كونُه يثبت المعنى للشيء فلا ؛ ثم أورد قوله تعالى : « [2] ثمّ إنّكم بعدَ ذلك لميّتون . ثم إنكم يومَ القيامة تُبعثون » . وقوله : « [3] إنّ الّذينَ هم منْ خَشيَةِ رَبِّهم مُشفِقون . والذين هم بآياتِ رَبِّهم يُؤْمنون » .

وقال ابن المنير : طريقةُ العربية تلوين الكلام ، ومجيء الفعلية تارة والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذكروه ، وقد رأينا الجملةَ الفعلية تصدر من الأقوياء الخلص اعتمادا على أن المقصود حاصل بدون التأكيد ، نحو :

---

(١) هود : ٦٩ (٢) المؤمنون : ١٥ ، ١٦ (٣) المؤمنون : ٥٧ ، ٥٨

«[1] رَبَّنا آمَنَّا» ولا شيء بعد «[2] آمَنَ الرسولُ». وقد جاء التأكيد في كلام المنافقين، فقالوا: «[3] إنَّما نحنُ مُصلِحون».

قاعدة

في المصدر

قال ابن عطية: سبيلُ الواجباتِ الإتيانُ بالمصدر مرفوعا؛ كقوله: «[4] فإمساكٌ بمعروف أو تَسْريح بإحْسان». «[5] فاتِّباعٌ بالمعروف وأداء إليه بإحسان». وسبيلُ المندوبات الإتيانُ به منصوبا؛ كقوله: «[6] فَضَرْبَ الرِّقابِ»؛ ولهذا اختلفوا: هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة في قوله تعالى: «[7] وصيَّةً لأزواجِهم» ـ بالرفع والنصب؟

قال أبو حيان: والأصلُ في هذه التفرقة قوله تعالى: «[8] قالوا سلاماً قال سلام»؛ فإنَّ الأول مندوب، والثاني واجب؛ والنكتةُ في ذلك أنَّ الجملة الاسمية أوكد وأثبت من الفعلية.

قاعدة

في العطف

هو ثلاثة أقسام: عطف على اللفظ، وهو الأصل؛ وشرطُه إمكانُ توجّه العاملِ إلى المعطوف.

---

(١) آل عمران: ٥٣ (٢) البقرة: ٢٨٥ (٣) البقرة: ١١
(٤) البقرة: ٢٢٩ (٥) البقرة: ١٧٨ (٦) محمد: ٤
(٧) البقرة: ٢٤٠ (٨) هود: ٦٩

وعطف على المحل ، وله شروط ثلاثة :

أحدها إمكانُ ظهورِ ذلك المحلّ في الفصيح ؛ فلا يجوز مررتُ بزيد وعمراً ، لأنه لا يجوز مررت زيدا .

الثاني — أن يكونَ الموضع بحقّ الأصالة ، فلا يجوز : هذا الضارب زيدا وأخيه ؛ لأن الأصل المستوفى لشروط العمل ، والأصل إعماله لا إضافته .

الثالث — وجود المحرز ، أي الطالب لذلك المحل ، فلا يجوز إن زيدا وعمرا قاعدان ؛ لأن الطالب لرفع عمرو هو الابتداء ، وقد زال بدخول « إن » .

وخالف في هذا الشرط الكسائي مستدلا بقوله تعالى : «[1]إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصّابئُون . . . » الآية . وأجيب بأن خبر « إن » فيها محذوف ، أي مأجورون ، أو آمنون ، ولا تختص مراعاةُ الموضع بأن يكون عامل[2] اللفظ زائدا . وقد أجاز الفارسي في قوله : «[3]وأتبِعوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامة » أن يكون يوم القيامة عطفا على محل هذه .

وعطف التوهم ؛ نحو : ليس زيد قائماً ولا قاعدٍ — بالخفض ، على توهُّم دخول الباء في الخبر . وشرطُ جوازِه صحةُ دخولِ ذلك العامل المتوهم ، وشرط حُسنِه كثرةُ دخوله هناك . وقد وقع هذا العطف في المجرور في قول زهير[4] :

بدَا لِيَ أني لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئا إذا كان جائيا

وفي المجزوم في قراءة غير أبي عمرو : «[5]لولا أخّرْتني إلى أجلٍ قريب فأصّدّقَ وأكنْ » : خرجه الخليلُ وسيبويه على أنه عطف على التوهم ، لأن

---

(١) المائدة : ٦٩ (٢) في الأتقان : العامل في اللفظ .
(٣) هود : ٦٠ (٤) ديوانه : ٢٨٧ (٥) المنافقون : ١٠

معنى « لولا أخرتني فأصدّق » ومعنى أخرني أصّدّق واحد . وقراءة قنبل : « [1]إنه مَنْ يتَّقِ ويصبر » خرجه الفارسي عليه ؛ لأن من الموصولة فيها معنى الشرط . وفى المنصوب فى قراءة حمزة وابن عامر : « [2]ومِنْ وَرَاءِ إسحاقَ يعقُوبَ » . وقال بعضهم فى قوله تعالى : « [3]وحِفْظاً مِنْ كلِّ شيطانٍ » : إنه عطف على معنى « [4]إنا زَيَّنَّا السماء الدنيا » ، وهو إنا خلقنا الكواكبَ فى السماء الدنيا زينة للسماء .

وقال بعضهم فى قراءة : « [5]وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فيدهنوا » إنه على معنى ودُّوا أنْ تدهن .

وقيل فى قراءة حفص : « [6]لعلّي أبلغُ الأسبابَ . أسبابَ السمواتِ فأطلعَ » ــ بالنصب : إنه عطفٌ على معنى لعلِّي أن أبلغ ؛ لأن خبر لعل يقترن بأن كثيرا . وقيل فى قوله تعالى : « [7]ومِنْ آياتِهِ أنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وليُذِيقَكُمْ » : إنه على تقدير ليبشركم وليذيقكم .

تنبيه

ظن ابنُ مالك أن المراد التوهم الغلط ، وليس كذلك ، كما نبّه عليه أبو حيان وابن هشام ، بل هو مقصود[8] صواب ، والمراد منه عطف على المعنى ، أى جوّز العربىُّ فى ذهنه ملاحظةَ ذلك المعنى فى المعطوف عليه ، لا أنه غلط فى

---

(١) يوسف : ٩٠
(٢) هود : ٧١
(٣) الصافات : ٧
(٤) الصافات : ٦
(٥) القلم : ٩
(٦) غافر : ٣٦، ٣٧
(٧) الروم : ٤٦
(٨) فى الاتقان : مقصد .

ذلك ؛ ولهذا كان الأدب أنْ يقال فى مثل ذلك فى القرآن : إنه عطف على المعنى .

مسألة

اختلف فى جواز عطفِ الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه البيانيُّون وابنُ مالك وابنُ عصفور ، ونقله عن الأكثرين ، وأجازه الصفّار وجماعةٌ مستدلين بقوله تعالى : « [1] وبَشِّرِ الذين آمَنُوا » فى سورة البقرة . « [2] وبَشِّرِ المُؤْمنين » فى سورة الصف . وقال الزمخشرى [3] فى الأولى : ليس المعتمد بالعطف الأمر حتى يطلب له مشاكل ، بل المرادُ عطف جملة ثوابِ المؤمنين على جملة ثواب الكافرين . وفى الثانية : أن العطف على تؤمنون ؛ لأنه بمعنى آمنوا . ورُدَّ بأن الخطاب به للمؤمنين ، وبـ « بَشِّر » للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبأنَّ الظاهر فى « يؤمنون » أنه تفسير للتجارة لا طلب .

وقال السكاكى : الأمران معطوفان على « قل » مقدرة قبل يأيها ، وحَذْف القولِ كثير .

مسألة

اختلف فى جواز عطف الاسمية على الفعلية وعكسه ، فالجمهور على الجواز ، وبعضُهم على المنع ؛ ولقد لهج به الرازى فى تفسيره كثيرا ، وردَّ به على الحنفية القائلين بتحريم أكل متروك التسمية أخذاً من قوله تعالى : « [4] ولا تأكلوا مِمّا لم يذْكَر اسْمُ الله عليه وإنه لفِسْقٌ » . فقال : هى حجةٌ للجواز لا للحرْمة ؛

---

(١) البقرة : ٢٥ (٢) الصف : ١٣ (٣) الكشاف : ١ ـ ٤٢

(٤) الأنعام : ١٢١

وذلك أن الواو ليست عاطفة لتخالف الجملتين بالاسمية والفعلية ، ولا للاستئناف ؛ لأن أصلَ الواوِ أن تربط ما بعدها بما قبلها، فبقى أن تكونَ للحال ، فتكون جملةُ الحال مقيدة للنهى . والمعنى : لا تأكلوا منه فى حال كونه فسقا . ومفهومه جوازُ الأكلِ إذا لم يكن فسقا ، والفسقُ قد فسّره الله تعالى بقوله : «[1]أو فِسقاً أُهِلَّ لغير الله به » . فالمعنى لا تأكلوا منه إذا سُمِّىَ عليه غَيْرُ الله . ومفهومه : فكلوا منه إذا لم يسمّ عليه غَيْرُ الله تعالى . قال ابن هشام : ولو أبطل العطف بتخالف الجملتين بالإنشاء والخبر لكان صوابا .

مسألة

اختلف فى جواز العطف على معمولى عاملين : فالمشهور عن سيبويه المنع ، وبه قال المبرد وابن السراج وابن هشام . وجوّزه الأخفش والكسائى والزجاج . وخرج عليه قوله تعالى : «[2]إن فى السموات والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين. وفى خَلْقِكم وما يَبُثُّ من دابّةٍ آيات لقوم يوقنون ... » إلى قوله : « وتصريفِ الرياح [٣٢٥ ب] آيات لقومٍ يَعْقِلون » - فيمن نصب آياتٍ الأخيرة .

مسألة

اختلف فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ؛ فالجمهورُ من البصريين على المَنْع ، وبعضهم والكوفيون على الجواز ؛ وخرج عليه قراءة حمزة : «[3] واتَّقُوا الله الذى تَسَّاءلون به والأرحامِ » . وقال أبو حيان فى

---

(١) الأنعام: ١٤٥ (٢) الجاثية . ٣ - ٥ (٣) النساء . ١

قوله : «(١) وصَدٌّ عَنْ سبيلِ الله وكُفْرٌ به والمسجدِ الحرام» : إنّ المسجد معطوف على ضمير به ، وإن لم يُعَد الجار . قال : والذي نختاره جوازُ ذلك ، لوروده فى كلام العرب كثيرا نظما ونثرا ، قال : ولسنا متعبّدين باتباع جمهور البصريين ؛ بل نتبع الدليل . والله الموفق .

فصـــــل

فى أحاديث نبويّة

تفسّرُ آيات قرآنية منقولة محذوفة الأسانيد من صحيح البخارى راجياً من الله حُسْن الخاتمة للناقل والقارىء :

((٢) غَيْرِ المَغْضُوبِ عليهم) : اليهود

((٢) ولا الضالّين) : النصارى .

((٣) أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) : من الحيض والغائط والنُّخامة والبصاق .

((٤) عَدْل) : فدية .

((٥) سُجَّدًا) : على وجوههم ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا حبة فى شعرة .

((٦) وَيْلٌ) : وادٍ فى جهنم يهوى به الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قَعْرَه .

((٧) يتلُونَه حَقَّ تِلاوَتِه) : يتّبعونه حقّ اتباعه .

((٨) لاينالُ عَهْدِي الظَّالمين) : لاطاعةَ إلا فى المعروف ، وليس لظالم عليك عهد أنْ تطيعه فى معصية الله .

---

(١) البقرة : ٢١٧ (٢) الفاتحة : ٧ (٣) البقرة : ٢٥
(٤) البقرة : ٤٨ (٥) البقرة : ٥٨ ، ٥٩ (٦) البقرة : ٧٩ وغيرها
(٧) البقرة : ١٢١ (٨) البقرة : ١٢٤

(⁽¹⁾فاذْكُرونى أَذْكُرْكُمْ) : اذكرونى يامعشر العبـــــاد بطاعتى أذكركم بمغفرتى .

(⁽²⁾الذين إذا أصابتهم مُصِيبـةٌ) : ما أصـاب المؤمن مما يكره فهو مصيبة .

(⁽³⁾يلعَنُهم اللاعِنون) : يُضرب الـكافر ضربة بين عينيه فيسمعه كلُّ دابة إلا الثقلين ، فتلعنه كلّ دابة سمعتْ صوته ؛ فذلك قوله : « ⁽³⁾أولئكَ يلعَنُهم الله ويلعَنُهم اللاّعنون » : يعنى دوابَّ الأرض .

(⁽⁴⁾الحجُّ أشهُرٌ معلومات) : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

(⁽⁴⁾ فلا رَفَثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ فى الحجِّ) : الرفَثُ :التعرض للنساء بالجماع ، والفسوق المعاصى ، والجدل : جدال الرجل صاحبه .

(⁽⁵⁾ لايُؤَاخِذُكُمُ الله باللَّغوِ فى أيمانِـكم) : هو كلام الرجل فى بيته كلا والله ، وبلى والله .

(⁽⁶⁾ الطَّلاقُ مرّتان) والثالثة تسريح بإحسان .

(⁽⁷⁾ الذى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّـكاحِ) : الزوج .

(⁽⁸⁾ الصَّلاةِ الوُسْطَى) : صلاة العصر .

(⁽⁹⁾ سَكِينة) : ريح خَجُوج .

(⁽¹⁰⁾يُؤْتِى الحكْمَةَ) ؛ أى القرآن والعمل به ، لأنه قد قرأه البَرُّ والفاجر .

---

(١) البقرة : ١٥٢ (٢) البقرة: ١٥٦ (٣) البقرة : ١٥٩
(٤) البقرة : ١٩٧ (٥) البقرة : ٢٢٥ (٦) البقرة : ٢٢٩
(٧) البقرة : ٢٣٧ (٨) البقرة : ٢٣٨ (٩) البقرة : ٢٤٨
(١٠) البقرة : ٢٦٩

([١] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) : هم الخوارج . وهم الذين تسودّ وجوههم

([١] الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) : من برّت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعفّ بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم .

([٢] الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) : القنطار ألف أوقية .

([٣] وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) : أما من في السموات فالملائكة ، وأما من في الأرض فمن وُلد على الإسلام ، وأما كَرْهًا فمن أُتي به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يُقَادُون إلى الجنة وهم كارهون .

([٤] مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) : الزاد والراحلة .

([٤] وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) : مَنْ تركه لا يخاف عقوبته ولا يرجو ثوابه .

([٥] اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا يُنسى .

([٦] وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) : الخير اتباع القرآن وسنّتي .

([٧] مُسَوِّمِينَ) : معلمين ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ، ويوم أحد عمائم حمر .

([٨] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) : مَنْ آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته ، مُثّل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يقول : أنا مالك ، أنا كنزك .

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) آل عمران : ١٤ (٣) آل عمران : ٨٣

(٤) آل عمران : ٩٧ (٥) آل عمران : ١٠٢ (٦) آل عمران : ١٠٤

(٧) آل عمران : ١٢٥ (٨) آل عمران : ١٨٠

(١) (ألاّ تعولوا) : ألاّ تجوروا .

(٢) (بدّلناهم جلوداً غيرها) : تبدل في ساعة مائة مرة .

(٣) (فجزاؤه جهنّم) : إن جازاه .

(٤) (فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) : الشفاعة فيمن وجبت له النار ممّن خرج (٥) إليهم المعروف في الدنيا .

(٦) (الكلالة) : ما خلا الولد والوالد .

(٧) (ملوكاً) : كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً .

(٨) (فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم) : أبو موسى الأشعري منهم .

(٩) (أو كسوتهم) : عباءة لكل مسكين .

(١٠) (لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم) : إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوًى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة [٢٣٩ ا] نفسك ، ودع العوام . وفي حديث آخر : لا يضركم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم .

(١١) (يتوفّاكم بالليل) : مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ، فإن

---

(١) النساء : ٣ (٢) النساء : ٥٦ (٣) النساء : ٩٣

(٤) النساء : ١٧٣ (٥) في الأصل : صنع . (٦) النساء : ١٧٦

(٧) المائدة : ٢٠ (٨) المائدة : ٥٤ (٩) المائدة : ٨٩

(١٠) المائدة : ١٠٥ (١١) الأنعام : ٦٠

أذن الله بقبض روحه قبضه وإلا ردّه إليه ، فذلك قوله تعالى : « يتوفّاكم بالليل » .

([1] ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ) : ليس الذي تعنون من الظلم ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : « [2] إنّ الشركَ لظلمٌ عظيم » ، إنما هو الشرك .

([3] لاتُدْرِكُهُ الأبصارُ) : لو أنّ الجنّ والإنسَ والملائكة والشياطين منذ خُلقوا إلى أنْ فنوا صُفّوا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدا .

([4] فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَه للاسلام) : قالوا كيف يشرح صَدْرَه يارسولَ الله ؟ قال : نور يقذف به فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : الإنابةُ إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قَبْل لقاء الموت .

([5] وآتُوا حَقَّه يَوْمَ حَصادِه) : ما سقط من السنبل .

([6] لا نُكلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها) : من أوفى على نفسه [7] في الكيل والميزان ، والله يعلم صحةَ نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ ، وذلك تأويل وسعها .

([8] يَوْمَ يأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لايَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها) : طلوع الشمس من مغربها .

([9] إنّ الذين فرّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعاً) : هم أصحابُ البِدَع وأصحاب الأهواء .

---

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) لقمان : ١٣ (٣) الأنعام ١٠٣

(٤) الأنعام : ١٢٥ (٥) الأنعام : ١٤١ (٦) الأنعام : ١٥٢

(٧) في الإتقان : على يده . (٨) الأنعام : ١٥٨ (٩) الأنعام : ١٥٩

((١) خُذُوا زِينَتَكُمْ عندكلِّ مَسْجِد) : صلوا فى نعالكم .

((٢) لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماء) : إذا قُبضت روح العبدِ الكافر يُصعد بها إلى السماء فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ، فيقول الله : اكتبوا كتابه فى سِجِّين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، اقرءوا إنْ شئتم : « (٣) ومَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفُهُ الطيْرُ أو تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحِيق » .

((٤) ونَادَى أصحابُ الأعرافِ) : هم من استوت حسناته وسيئاته . وفى حديث آخر : هم ناس قُتلوا فى سبيل الله . وفى حديث آخر : أنهم مؤمنو الجنّ .

((٥) الطُّوفَانَ) : الموت .

((٦) تجلّى رَبُّه لِلجَبَلِ جعله دَكّا) : أشار صلّى الله عليه وسلم بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبَل وخرَّ موسى صَعِقاً فمن نورها جعله دَكّاً .

((٧) وكتبنا له فى الألواح) : كانت من سِدْرَة المنتهى ، طولُ كلِّ لوح اثنا عشر ذراعا .

((٨) وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بنى آدمَ من ظُهورهم ذُرِّيَّتهم) : إن الله أخذ الميثاقَ من ظَهْر آدم يوم عرفة ، فأخرج من صُلْبه كلَّ ذرية ذرّاها فنثرها بين يديه ثم كلّمهم ، فقال : ألَسْتُ بربكم ؟ قالوا : بلى . وفى رواية : أخذ من

---

(١) الأعراف : ٣١ (٢) الأعراف : ٤٠ (٣) الحج : ٣١
(٤) الأعراف : ٤٨ (٥) الأعراف : ١٣٣ (٦) الأعراف : ١٤٣
(٧) الأعراف : ١٤٥ (٨) الأعراف : ١٧٢

ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . قالت الملائكة : شهدنا .

([1] فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء) : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال لها : سميه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره .

([2] خذ العفو) : هو أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك .

([3] تخافون أن يتخطفكم الناس) : هم أهل فارس .

([4] وهم يستغفرون) : أنزل الله على أمانين لأمتي : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

([5] وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) : ألا إن القوة الرمي .

([5] وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) : هم الجن .

([6] يوم الحج الأكبر) : يوم النحر ، وقيل : يوم عرفة .

([7] إنما يعمر مساجد الله) : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان .

([8] ومساكن طيبة في جنات عدن) : قال : قصر من لؤلؤ ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء،

---

(١) الأعراف : ١٩٠ (٢) الأعراف : ١٩٩ (٣) الأنفال : ٢٦
(٤) الأنفال : ٣٣ (٥) الأنفال : ٦٠ (٦) التوبة : ٣
(٧) التوبة : ١٨ (٨) التوبة : ٧٢

فى كل بيت سرير ، على كلّ سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووَصِيفة ، ويعطى المؤمن فى كل غداة من القوة ما يأتى على ذلك كله أجمع .

([1] أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيَانَه على تَقْوَى مِنَ اللهِ) : هو مسجدى .

([2] يحبون أنْ يتطهَّرُوا) : هو الاستنجاء بالماء .

([3] السائحون) : هم الصائمون .

([4] لِلَّذِينَ أحسنُوا الحُسْنَى وزِيادة) : الحسنى الجنة ، والزيادة : النَّظَرُ إلى ربهم .

([5] قل بفَضْلِ الله) : القرآن ، (وبرحمته) : أن جعلكم من أهله .

([6] ألاَ إنَّ أولياءَ الله لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون) : إن من عباد الله ناسا يَغبطهم [٣٢٦ ب] الأنبياء والشهداء . قيل : مَنْ هم يارسول الله ؟ قال : قوم تحابُّوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، لا يفزعون إذا فزع الناسُ ، ولا يحزنون إذا حزنوا .

([7] لهم البُشْرَى فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرة) : هى الرؤيا الصالحة يراها الرجلُ الصالح أو تُرى له ، فهى بشراهُ فى الحياة الدنيا ، وبُشْراه فى الآخرة الجنة .

([8] إلاَّ قَوْمَ يونس لما آمَنُوا) : لما دعوا .

---

(١) التوبة : ١٠٩ (٢) التوبة : ١٠٨ (٣) التوبة : ١١٢
(٤) يونس : ٢٦ (٥) يونس : ٥٨ (٦) يونس : ٦٢
(٧) يونس ٦٤ (٨) يونس : ٩٨

(١) (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) : أحسنكم عقلا ، وأحسنكم عقلا أورعكم عن محارم الله . وأعملكم بطاعة الله لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أحسن إدراكا من حسنة حديثة لسيئة قديمة ، إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات .

((٢) وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظُلْمٍ وأهْلُها مُصْلِحون) ؛ أى يُنصف بعضهم بعضا .

((٣) إنى رأيتُ أحدَ عشر كوكبا) : خرثان ، وطارق ، والذيال ، وذو الكنفان ، وذو القرع ، ووثاب ، وعمودان ، وقابس ، والفروح ، والصبح ، والفيلق ، والضياء ، والضوء ، والنور ، يعنى أباه وأمه رآها فى أفق السماء ساجدة له ، فلما قصّ رؤياه على أبيه قال : أرى أمرا مشتتا يجمعه الله .

((٤) أنى لم أخُنْهُ بالغَيبِ) : لما قالها يوسف قال له جبريل : اذكر همّك . قال : « (٥) وما أبرِّىء نفسى » .

((٦) ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ فى الأُكُل) : الدقل ، والفارسى ، والحلو والحامض .

((٧) ويُسَبِّح الرَّعْد) : هو ملك من ملائكة الله موكّل بالسحاب يسوقه حيث أمره الله ، وهذا الصوت الذى يسمع صوتُه . وفى رواية : الرعد زجر السحاب ، والبرقُ طرف ملك يقال له روفيل . وفى حديث آخر : إن ملكا موكّلٌ بالسحاب يلمّ القاصية ويلحم الرابية ، فى يده مخراق ، فإذا رفع برقَتْ ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت .

---

(١) هود : ٧ (٢) هود : ١١٧ (٣) يوسف : ٤ (٤) يوسف : ٥٢
(٥) يوسف : ٥٣ (٦) الرعد : ٤ (٧) الرعد : ١٣

([1]طُوبَى لهم) : هى شجرة فى الجنة ، مسيرة مائة عام .

([2]يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ) من المحو، ويزيد فيه. وفى رواية : كلُّ ذلك فى ليلة القدر ؛ يرفع ويجبر ، ويرزق غير الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ، فإن ذلك لا يبدَّل . وفى رواية عن على : إنه سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال : لأقِرنَّ عينكَ بتفسيرها ، ولأقِرّنَّ عين أمتى من بعدى بتفسيرها : الصدقة على وجهها ، وبرّ الوالدين ، واصْطناع المعروف يحوِّل الشقاء سعادة ، ويزيد فى العمر .

([3]لئِنْ شَكرْتُمْ لأزِيدَنَّكم) : من أعطى الشكر لم يحرم الزيادة .

([4]ويُسْقَى مِنْ ماء صَدِيد. يتجرَّعُهُ) : يقربه الله منه فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوَى وَجْهَهُ ، ووقع فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، يقول الله : « [5]وسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعاءهم » . وقال : « [6]وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماء كالمُهْلِ يَشْوِى الوُجوه » .

([7] سواء علينا أجَزِعْنَا أم صَبرْنَا مالنا مِنْ مَحِيص) : يقول أهلُ النار : هلُمّوا فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة عام ، فما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : هلمُّوا فلنجزع فيبكون خمسمائة عام ؛ فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : « سواء علينا أجزِعْنا أم صَبَرْنا مالنا مِنْ مَحِيص » .

([8]مَثَلاً كلمةً طيبة كشجرةٍ طَيِّبة) : هى النخلة . « [9]ومَثَلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » : هى الحنظل .

---

(١) الرعد : ٢٩ (٢) الرعد : ٣٩ (٣) إبراهيم : ٧
(٤) إبراهيم : ١٦ ، ١٧ (٥) محمد : ١٥ (٦) الكهف : ٢٩
(٧) إبراهيم : ٢١ (٨) إبراهيم : ٢٤ (٩) إبراهيم : ٢٦

(١) يثبتُ الله الذين آمنُوا بالقولِ الثابت) : إذا سُئل المسلم فى القبر ويشهد أنْ لا إله الا الله وأنّ محمدا رسول الله ، فذلك هو التثبيت .

(٢) يومَ تبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ) يكون الناس يومئذ على الصراط.
وفى رواية : أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفكْ فيها دمٌ حرام ، ولم يُعمل فيها خطيئة .

(٣) رُبَما يودُّ الذين كفرُوا لو كانُوا مُسلِمين) : يخرج الله ناسا من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم لما أدخلهم النار مع المشركين ؛ قال لهم المشركون : تدعون أنكم أولياءُ الله فى الدنيا ، فما بالكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك أذن الله فى الشفاعة لهم فتشفعُ الملائكةُ والنبيون والمؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنّا مثلهم ، فتدركنا الشفاعة ، فنخرج معهم ، فذلك قول الله : « رُبما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » .

(٤) لكل باب منهم جُزءٌ مقسوم) : جزء أشركوا فى الله [١٣٢٧]، وجزء شكّوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله .

(٥) كما أنزلنا على المُقتَسِمين) : اليهود والنصارى .

(٦) الذين جعلوا القرآنَ عضين) : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

(٧) فوربِّك لنسألنّهم أجمعين) : عن قول لا إله إلا الله .

---

(١) إبراهيم : ٢٧ (٢) إبراهيم : ٤٨ (٣) الحجر : ٢ (٤) الحجر : ٤٤
(٥) الحجر : ٩٠ (٦) الحجر : ٩١ (٧) الحجر : ٩٢

([1]زِدْنَاهُمْ عذَاباً فَوْقَ العذابِ) :عقارب مثل النخل الطوال ينهشونهم في جهنم .

([2]جعلنا الليلَ والنهار آيتين) : كانا شمسين .

([2]فمحَوْنَا آيَةَ الليلِ) : فالسواد الذى رأيت هو المحْوُ .

([3]ولقد كرَّمْنا بنى آدم) : بالأكل بالأصابع .

([4]يوم نَدْعُو كلَّ أُناسٍ بإمامِهِم) : يُدْعَى كلُّ قوم بأصنام لهم ، وكتاب ربهم .

([5]أَقِمِ الصلاةَ لِدُلوكِ الشَّمْسِ) : هو زوالها .

([5]إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كان مشهودا) : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

([6]عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً محمودا) : هو المقام المحمود أشفع فيه لأمتى . وفى لفظ : هى الشفاعة .

([7]ونحشُرهم يومَ القيامة على وجوههم) : قيل : يارسول الله ، كيف يحشرون على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادرٌ أن يُمشيهم على وجوههم .

([8]سُرَادِقُها) : لسرادق النار أربعة أجدر ، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة .

---

(١) النحل : ٨٨ (٢) الاسراء : ١٢ (٣) الاسراء : ٧٠ (٤) الاسراء : ٧١
(٥) الاسراء : ٧٨ (٦) الاسراء : ٧٩ (٧) الاسراء : ٩٧
(٨) الكهف : ٢٩

((١) يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) : كَعَكَر الزيت ، فإذا قرّبه إليه سقطت فروةُ وجهِه فيه .

((٢) الباقِيَاتُ الصالحات) : التهليل والتكبير ، والتسبيح والحمد لله ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله . وفي لفظ آخر : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر هي الباقياتُ الصالحات .

((٣) فظَنُّوا أنهم مُوَاقِعوها) فينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا ، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة .

((٤) وكان تحته كَنْزٌ) : هو لوح من ذهب مصمت عجبت لمن أيقن بالقَدر كيف ينصب ، وعجبت لمن ذكر النار كيف يضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

((٥) جناتُ الفردوس نُزُلا) : إذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تُفجَّرُ أنهار الجنة .

((٦) تحتَكِ سريًّا) : نهرا ، أخرجه الله لتشربَ منه .

((٧) يا أختَ هارون) : كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم .

((٨) وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ) :هو يوم يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهل النار النار ، ويجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال :

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الكهف : ٤٦ (٣) الكهف : ٥٣
(٤) الكهف ٨٢ : (٥) الكهف :١٠٧ (٦) مريم : ٢٤
(٧) مريم : ٢٨ (٨) مريم : ٣٩

يأهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبّون وينظرون ، فيقولون : نعم ، هذا الموت ، فيؤمَر به فيذبح ويقال : يأهل الجنة ، خلود لا موتَ ، ويأهل النار ، خلود لا موت ، ثم أشار بيده ، وقال : أهل الدنيا فى غفلة ، غَىّ[1] وأثام : نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديدُ أهلِ النار .

([2] وإنْ منكُمْ إلاّ وارِدُها) : لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن بَرْداً وسلاما ، كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ، ثم يُنَجّى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جِثِيًّا .

([3] ولا يُفلحُ الساحِرُ حيث أتى) : إذا وجدْتم الساحر فاقتلوه ، ولا يُؤمَنُ حيث وُجد .

([4] مَعيشةً ضَنْكا) : عذاب القبر .

([5] وجعلنا من الماءِ كلَّ شىءٍ حَىّ) : كل شىء خلق من الماء .

([6] ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم) : احتكار الطعام بمكة إلحاد .

([7] البيت العَتيق) : إنما سمّى البيت العتيق ، لأنه لم يظهر عليه جبّار .

([8] واجتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور) : عدلت شهادة الزورِ بالإشراك .

([9] والذين يُؤْتون ما آتَوْا وقلوبُهم وَجِلةٌ) : هو الذى يصلّى ويصوم ويتصدق ويخاف الله .

---

(١) مريم (٥٩) : فسوف يلقون غيا . (٢) مريم : ٧١

(٣) طه : ٦٩ (٤) طه : ١٢٤ (٥) الأنبياء : ٣٠

(٦) الحج : ٢٥ (٧) الحج : ٢٩ (٨) الحج : ٣٠ (٩) المؤمنون : ٦٠

([١] وهم فيها كالحون) : تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته .

([٢] حتى تستأنسوا) : يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنح فيؤذن أهل البيت .

([٣] وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين) : والذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط .

([٤] أيما الأجلين قضيت) : قضى أوفاهما وأبرهما ، وتزوج الصغرى من البنتين .

([٥] وتأتون فى ناديكم المنكر) : كانوا يخوفون [٦] أهل الطريق ، ويستخرجون منهم ، فهو المنكر الذى كانوا يأتون .

([٧] ومن الناس من يشترى لهو الحديث) : لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن [٢٢٧ ب] ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن ، وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت : « ومن الناس ... » الآية .

([٨] أحسن كل شىء خلقه) : أما إن است القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها .

([٩] تتجافى جنوبهم عن المضاجع) : قيام العبد من الليل .

([١٠] وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) ، قال : جعل موسى هدى لبنى إسرائيل .

---

(١) المؤمنون : ١٠٤ (٢) النور : ٢٧ (٣) الفرقان : ١٣ (٤) القصص : ٢٨

(٥) العنكبوت : ٢٩ (٦) فى الإتقان : كانوا يحذفون ... ويسخرون ...

(٧) لقمان : ٦ (٨) السجدة : ٧ (٩) السجدة : ١٦ (١٠) السجدة : ٢٣

((١) فلا تكنْ في مِرْيةٍ مِنْ لقائه) : من لقاء موسى ربه .

((٢) فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَه) : طلحة ممن قضى نَحْبه .

((٣) إنما يُرِيدُ الله لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيت) : دعا فاطمة وعليّا وحسنا وحُسينا ، فجلّلهم بكسائه ، وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذْهِبْ عنهم الرجْسَ وطهِّرهم تطهيرا .

((٤) لقد كان لسبأ) : هو رجل ولد عشرة ، فسكن اليمن منهم ستّة ، وبالشام منهم أربعة .

((٥) ثم أوْرَثْنا الكتابَ الذين اصطفَيْنا مِنْ عِبادنا . . .) الآية . أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا . وأما الذين ظلموا أنفُسهم فأولئك الذين يُحْبَسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، وهم الذين يقولون الحمدُ لله الذى أذْهَب عنا الحزنَ . . . الآية .

((٦) أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذَكَّرُ فيه مَنْ تذَكَّرَ) : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ، وهو العمر الذى قال الله : « أو لم نعمركم ما يتذكَّرُ فيه مَنْ تذكر » .

((٧) والشمسُ تجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لها) : مستقرُّها تحت العرش . وفى لفظ آخر : إنها تسجد تحت العرش .

---

(١) السجدة : ٢٣ (٢) الأحزاب : ٢٣ (٣) الأحزاب : ٣٣
(٤) سبأ : ١٥ (٥) فاطر : ٣٢ (٦) فاطر : ٣٧
(٧) يس : ٣٨

([1] حُورٌ عِين) : العِين : الضخام العيون ، شُفر الحوراء ، مثل جناح النسر ، وهو بالفاء مضاف إلى الحوراء ، وهو هدب العين ، وإنما ضبطته وإن كان واضحا لأنى رأيتُ بعضَ المهماين من أهل عصرنا صحّفه بالقاف ، وقال: الحوراء مثل جناح النّسر مبتدأ وخبر ، يعنى فى الخفة والسرعة ، وهذا كذبٌ وجَهل وإلحاد فى الدين وجرأة على الله ورسوله .

([2] كأنهن بَيْضٌ مَكْنُون) : رقتهن كرقة الجلدة التى داخل البيضة التى تلى القِشر .

([3] وجعلنا ذرّيّتَه هم الباقين) : حام ، وسام ، ويافث . وأخرج من طريق آخر ؛ قال : سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم .

([4] وأرسلناهُ إلى مائة ألفٍ أو يَزِيدُونَ) : قال : يزيدون عشرين ألفا .

([5] وإنا لَنَحْنُ الصافّون) : أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ ، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد لله .

([6] له مَقَالِيدُ السموات والأرض) : تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيى ويميت... الحديث غريب ، وفيه نكارة شديدة .

([7] فصَعِقَ مَنْ فى السموات ومَن فى الأرض إلا مَنْ شاءَ الله) : هم الشهداءُ .

---

(١) الواقعة : ٢٢ ، وفى الصافات (٤٨) : قاصرات الطرف عين ...
(٢) الصافات : ٤٩ (٣) الصافات : ٧٧ (٤) الصافات : ١٤٧
(٥) الصافات : ١٦٥ (٦) الزمر : ٦٣ (٧) الزمر : ٦٨

([1]إنَّ الَّذِين يستَكْبِرُون عن عِبادتى) ؛ أى دعائى .

([2] إنَّ الذين قالُوا ربُّنا الله ثم استقاموا) : قد قالها ناس من الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فهو من استقام عليها .

([3] ما أصابكُم مِن مُصِيبة) ؛ أى من مرض ، أو عقوبة ، أو بلاء فى الدنيا فبما كسبَتْ أيديكم ، والله أحلم مِنْ أن يثنّى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله أكرمُ من أن يعودَ بعد عفوه .

([4] ما ضَرَبُوه لكَ إلا جَدَلاً) : ما ضلَّ قوم بعد هُدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل .

([5] وتِلْكَ الجنةُ التى أورِثْتُموها بما كُنْتُم تَعْمَلون) : كلّ أهل النار يرى منزله فى الجنة حسرةً ، فيقول : لو أن الله هدانى لكنتُ من المتقين ، وكلّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : «[6] وما كُنّا لنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانا الله » ، فيكون له شكر . وما مِنْ أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فالكافرُ يرِثُ المؤمنُ منزله من النار[7] ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة[8] .

([9] فارْتَقِبْ يوْمَ تأتى السماءُ بدُخانٍ مُبِين) : إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه . والثانية الدابة . والثالثة الدجّال .

---

(١) غافر : ٦٠ (٢) فصلت : ٣٠ (٣) الشورى : ٣٠
(٤) الزخرف : ٥٨ (٥) الزخرف : ٧٢ (٦) الأعراف : ٤٣
(٧) فى ا : الجنة . (٨) فى ا : النار . (٩) الدخان : ١٠ .

((١)فما بكت عليهم السماء والأرض) : ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل فيه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه . وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملا صالحا تبكى عليهم ولم يصعد لهم [١٣٢٨] إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فتفقدهم فتبكى عليهم . وفى رواية : مامات مؤمن فى غربة(٢) غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض .

((٣)أو أثارة من علم) : الخط .

((٤)وألزمهم كلمة التقوى) : لا إله إلا الله .

((٥)ولا يغتب بعضكم بعضا) : إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته .

((٦) هل من مزيد) : لا يزال يلقى فى النار ، وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها ، فتقول : قط قط .

((٧) والذاريات ذروا) : هى الرياح .

((٨)فالجاريات يسرا) : هى السفن .

((٩) فالمقسمات أمرا) : هى الملائكة .

((١٠)واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) : إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وإن المشركين وأولادهم فى النار .

---

(١) الدخان : ٢٩ (٢) ق ا : قرية . (٣) الأحقاف : ٤
(٤) الفتح : ٢٦ (٥) الحجرات : ١٢ (٦) ق : ٣٠
(٧) الذاريات : ١ (٨) الذاريات : ٣ (٩) الذاريات : ٤
(١٠) الطور : ٢١

([1] وإبراهيمَ الذي وفّى) : وفى عَمَلَ يومِه بأربع ركعات من أول النهـــار . وفى رواية : كان يقولُ كلما أصبح وأمسى : فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصبحون . . . حتى ختم الآية .

([2] وأنَّ إلى ربِّكَ المُنتهى) : تفكروا فى مخلوقاتِ الله ، ولا تفكروا فى ذاتِ الله .

([3] كلَّ يومٍ هُوَ فى شأن) : من شأنه أنْ يغفرَ ذَنْبا ، ويكشف كَرْبا ، ويرفع قوما ، ويضَع آخرين .

([4] ومِنْ دُونِهما جَنّتان) : جنتان من فضةٍ آنيتهما وما فيهما . وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما .

([5] هَلْ جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ) : هل تدرون ما قال ربُّكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : يقول هل جزاءُ مَنْ أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة .

([6] فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ) : خضد الله شوكه ، فجعل مكانَ كلِّ شوكة ثمرة .

([7] وظِلٍّ مَمْدُود) : إن فى الجنة شجرةً يسير الراكبُ فى ظلّها مائةَ عام لا يقطعها : اقرءُوا إن شئتم : « وظِلٍّ ممدود » .

---

(١) النجم : ٣٧ (٢) النجم : ٤٢ (٣) الرحمن : ٢٩

(٤) الرحمن : ٦٢ (٥) الرحمن : ٦٠ (٦) الواقعة : ٢٨

(٧) الواقعة : ٣٠

([1]وفُرُشٍ مَرْفُوعَة) : ارتفاعُها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام .

([2]إنّا أنشأناهُنّ إنشاءً) : كنّ في الدنيا عجائز عُمشاً رُمصاً .

([3]أبكاراً . عُرُباً أترابا) : قالت أم سلمة : يارسول الله ، أخبرني عن قولِ الله : حور عين ؟ قال : حور عين بيض ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر . قلت : أخبرني عن قوله : « [4]كأمثالِ اللؤلؤ المكنون » ؟ قال : صفاؤهنّ كصفاءِ الدُّرّ الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي . قلت : أخبرني عن قوله : « [5]فيهنّ خيراتٌ حِسانٌ » ، قال : خَيرات الأخلاق، حِسان الوجوه . قلت : أخبرني عن قوله : « كأنهنّ بَيضٌ مكنون » ؟ قال : رِقتهنّ كرقّة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشرة قلت : أخبرني عن قوله : « [6]عُرُباً أترابا » ؟ قال : هن اللواتي قُبِضْنَ في الدنيا عجائز رُمصا شُمطا ، خلقهنّ الله بعد الكبر فجعلهنّ عذارى عرُبا متعشقات محببات . أترابا على ميلادٍ واحد كلامهنّ عربي .

([7]ثُلّةٌ مِنَ الأولين . وثُلّةٌ مِنَ الآخرين) : هما جميعا من أمتي .

([8]ولا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوف) : هو النوح .

([9]ن والقَلَم) : لوح من نور ، وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة . وفي لفظ آخر : أول ما خلق الله القلم والحوتَ قال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : كلّ شيء كائن إلى يوم القيامة .

---

(١) الواقعة : ٣٤ (٢) الواقعة : ٣٥ (٣) الواقعة : ٣٦ ، ٣٧
(٤) الواقعة : ٢٣ (٥) الرحمن : ٧٠ (٦) الواقعة : ٣٧
(٧) الواقعة : ٣٩ ، ٤٠ (٨) الممتحنة : ١٢ (٩) القلم : ١

([1] عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) : تبكي السماء من عبد أصحّ الله جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضما ، فكان للناس ظلوما ؛ فذلك العتلّ الزنيم .

([2] يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) : عن نور عظيم ، يخرّون له سجّدا .

([3] كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) : والذي نفسي بيده ليخفّف عن عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا .

([4] فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) : قال : مائة آية .

([5] سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) : هو جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا ، ثم يَهوِي به كذلك .

([6] هو أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) : قال ربكم : أنا أهلٌ أن أتقى ، فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلها كان أهلا أنْ أغفرَ له .

([7] لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) : الحُقُب بضع وثمانون سنة ، كلّ سنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدّون .

([8] إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) : تكويرها وانكدارها في جهنم .

([9] وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) : القرناء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله .

---

(١) القلم : ١٣ — (٢) القلم : ٤٢ — (٣) المعارج : ٤

(٤) المزمل : ٢٠ — (٥) المدثر : ١٧ — (٦) المدثر : ٥٦

(٧) النبأ : ٢٣ — (٨) التكوير : ١ — (٩) التكوير : ٧

(⁽¹⁾في أيِّ صُورةٍ ماشاء ركَّبكَ) : قال صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة: ماوُلِدَ لك ؟ قال : ما عسى أن يولَد لي، إمّا غلام أو جارية . قال : فمَنْ يشبه ؟ قال : ماعسى أن يشبه إمّا أباه أو أمه . فقال صلى الله عليه وسلم : مَهْ ،لاتقولنّ هذا ، إن النطفة إذا استقرّتْ في الرحم أحضرها الله كلَّ نسبٍ بينها وبين آدم ؛ أما قرأت : (في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركّبك) [٣٢٨ ب] . قال: سلككَ .

(⁽²⁾ الأبرار) : إنما سماهم الأبرار ، لأنهم برّوا الآباء والأبناء .

(⁽³⁾ يوم يَقُومُ الناسُ لربِّ العالمين) : حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه .

(⁽⁴⁾ كلا ، بَلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسِبُون) : إنّ العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه . فذلك الران الذي ذكره الله في القرآن .

(⁽⁵⁾فسوف يحاسَبُ حِسابًا يسيرا) : قالت عائشة : قلت : يارسول الله، ما الحسابُ اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه مَنْ نوقش الحساب يومئذ هلك .

(⁽⁶⁾ واليوم الموْعُود) : يوم القيامة .

(⁽⁷⁾ وشاهد) يوم الجمعة . (⁽⁷⁾ ومشهود) : يوم عرفة .

(⁽⁸⁾في لوح محفوظ) : إن الله خلق لَوْحًا محفوظا من دُرّة بيضا صفحاتها

---

(١) الانفطار ٨ (٢) الانفطار :١٣ (٣) المطففين : ٦
(٤) المطففين : ١٤ (٥) الانشقاق : ٨ (٦) البروج : ٢
(٧) البروج: ٣ (٨) البروج : ٢٢

من ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء .

(1) (قد أفلح من تزكى) : من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله .

(2) (وذكر اسم ربه فصلى) : هى الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها ، والاهتمام بها .

(3) (وليال عشر) : عشر الأضحى ، و (الوتر) يوم عرفة .

(4) (والشفع) : يوم النحر . وفى رواية : الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر .

(5) (فك رقبة) : هو الإعانة فى عتقها ، وعتقها أن تنفرد فى عتقها .

(6) (قد أفلح من زكاها) : أفلحت نفس زكاها الله .

(7) (ورفعنا لك ذكرك) : أتانى جبريل ، فقال : إن ربك يقول : أتدرى كيف رفع ذكرك ؟ قلت : الله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معى .

(8) (يومئذ تحدث أخبارها) : قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها بأن تقول : عمل كذا وكذا فى يوم كذا وكذا .

(9) (إن الإنسان لربه لكنود) : الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده .

---

(1) الأعلى : 14 — (2) الأعلى : 15 — (3) الفجر : 2

(4) الفجر : 3 — (5) البلد : 13 — (6) الشمس : 9

(7) الشرح : 4 — (8) الزلزلة : 4 — (9) العاديات : 6

(١) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يومئذ عن النعيم) : الأمن والصحة والماء البارد .

(٢) مُؤْصَدَة) : مطبقة .

(٣) عَنْ صلاتهم ساهُون) : الذين يؤخرونها عن وقتها .

(٤) الكوثر) : نهر أعطانيه ربى فى الجنة ، له طرق لا تحصى .

(٥) إذا جاء نَصْرُ الله والفتح) : لما نزلت قال صلى الله عليه وسلم : نُعيت إلىّ نفسى .

(٦) الصَّمَد) : الذى لا جَوْفَ له .

(٧) الفَلَق): جُبٌّ فى جهنم مغطى .

(٨) ومن شَرِّ غاسقٍ إذا وَقَب) : النجم الغاسق . وفى رواية عائشة قالت : أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدى فأرانى القمر حين طلع ، وقال: تعوّذِى بالله من شر هذا ، هذا الغاسق إذا وَقَب .

(٩) الوسواس الخنّاس) : إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخنّاس .

* * *

فهذا ما حضرنى من التفاسير المرفوعة المصرح برفعها صحيحها وحسنها ، ولم أعوّل على الموضوعات والأباطيل ، واختصرت فيها وفى كلّ هذا الكتاب التحريض عليه ، ولعل عبدة الناس تهوى إليه ؛ إذ العمرُ قصير ، وفى العمل تقصير ، وأسأل من الناقد أن يكونَ غير بصير ؛ لأنه إن بصرَ رأى من المعايب

(١) التكاثر : ٨ (٢) الهمزة : ٨ (٣) الماعون : ٥
(٤) الكوثر : ١ (٥) النصر: ١ (٦) الإخلاص : ٢
(٧) الفلق : ١ (٨) الفلق : ٣ (٩) الناس : ٤

مالا يخطر ببال ، كما قال صلى الله عليه وسلم : أنا من غير الدجال أخوفُ عليكم من الدجال . فقيل : وما هو يارسول الله ؟ قال : العلماء السوء . وهذا لأنّ الدّجال غايتهُ الإضلال ، ونحن نصرفُ الناس عن الدنيا بألسنتنا ومقالنا ، وندعوهم إليها بأفعالنا وأعمالنا ، ولسانُ الحال أنطقُ من لسان المقال ، وطباعُ النظر إلى المساعدة فى الأعمال أميلُ منها إلى المتابعة فى الأقوال ، فما أفسَدْنا بأعمالنا أكثر مما أصلحنا بأقوالنا ، إذ لا يستجرىء الجاهل إلا باستجرائنا ، ولو اشتغلت بإصلاح نفسى كان أولى بها وأعظم من هذا ، إنه يخيل لنا أنا خير من كثيرٍ من عباد الله ، وهذا هو أعظم من كل ضلال .

فإن قلت : قد أخرج البزار عن عائشة ، قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُفَسِّر شيئا من القرآن إلا آيا بعد تعليمه إياهن من جبريل .

والجواب : إنّ الصحيح عند ابن تيمية وغيره أنه صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه جميعَ تفسير القرآن أو غالبه .

ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجة ، عن عمر ـ أنه قال: مِنْ آخر ما أنزل الله آية الربا ، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض قبل أنْ يفسرها دَلّ فحوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كلّ ما أنزل ، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية لسرعة مَوْته بعد [١٣٢٩] نزولها ، وإلا لم يكن للتخصيص بها وَجْه .

وقد أوّل ابن جرير وغيره حديث عائشة أنه إشارات إلى آياتٍ مشكلات أشكلن عليه ، فسأل الله عِلْمهن ، فأنزله الله على لسان جبريل .

فإن قلت : قد صح أنّ آخر آية نزلت : « (١) يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكلالة » . وآخر سورة نزلت : براءة . وفي رواية : آخر آية نزلت : « (٢) واتقوا يوما تُرجَعُون فيه إلى الله » . وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية سبع ليال . وفي رواية سعيد بن المسيب أنّ أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدَّيْن ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها في قصة واحدة ، فكيف يجمع بين هذه الأحاديث ؟

والجواب : أن إخبار بعضهم بآية الربا بأنها ختام الآيات المنزلة في الربا ، إذ هي معطوفة عليها والآخرية في آخر النساء مقيّدة بما يتعلق بالمواريث بخلاف آية البقرة ، ويحتمل عكسه . والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول .

قال البيهقي : يُجمَعُ بين هذه الاختلافات إن صحّت الرواية أن كل واحد أجاب بما عنده .

وقال القاضي أبو بكر في الانتصار : هذه الأقوالُ ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلّ قاله عن الاجتهاد وغلبة الظن . ويحتمل أنّ كلا منهم أخبر عن آخر ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه . ويحتمل أيضا أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسولُ صلى الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها فيأمر برسمِ ما نزل معها بعد رسمِ تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب .

---

(١) النساء : ١٧٦ (٢) البقرة : ٢٨١

ومن غريب ماورد في ذلك ما أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلى هذه الآية : (⁽¹⁾فمَنْ كان يَرْجُو لِقاءَ ربه . . .) الآية ، وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير : هذا أثر مشكل ، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيّر حكمها ، بل هي مثبتة محكمة .

ولنختم هذا الكتاب بما ختم اللهُ كتابَه آمِراً لنبيه بالاستعاذة من شَرِّ الحاسد الذى غلب عليه الجهلُ وطمّه ، وأعماه حبُّ الرياسة وصَمّهُ فحمله على الاعتراض عليّ ، وينسب ما يرى فيه من التكرار والنقص إليّ . ولعمرى لو علم ما أنا فيه من شغل البال ، وتغيّر البلبال لالتمس لى عُذْرا ، وصفح عما يرى فيه من التقصير ستْرا . لكن الواجب على مَنْ كان في زمانٍ يتلاعب به الجهال والصبيان ، والكامل عندهم مذموم داخل في كِفّةِ النقصان ، أن يلزمَ فيه السكوت ، ويصير حِلْساً من أحلاس البيوت ، ويردّ العلم إلى العمل ، ولا يتقاعس في القعود مع أهلِ الكسل ، لكن أرغب ممن مَنْ عليّ بتلخيص هذا التفسير مع بعض زيادات شريفة ، ونوادر لطيفة ، أن يجعله نافعا ، ولا يذهب ضيعا⁽²⁾ لَبْعا ، وأن يعصمنا والناظرَ فيه ، ومَنْ دعا لنا من شرور أنفسنا ، ومِنْ سيئات أعمالنا بجاهِ سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مادامت أشهرا وجُمعا .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) ذهب به ضيعا لبعا ، أي باطلا (القاموس) .

[[1] تم الكتاب المبارك الميمون المسمى بمعترك الأقران ، في إعجاز القرآن للإمام الحافظ السيوطي نفعنا الله به وبعلومه وسائر العلماء بجاه الفضل على أهل الأرض والسماء سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، على يد كاتبه لنفسه ثم لمن شاء المولى بعده . الحاج أحمد بن محمد المستغانمي منشأ ، الجزائري وطنا ، أصلح الله أحواله ، وسدد أقواله وأفعاله وعقبه إلى يوم القيامة بجاه المدفون في تهامة ، لثمانية وعشرين يوما مضت من شهر الله المعظم ذي القعدة عام ١١٠٦ هـ . والحمد لله رب العالمين عرفنا الله خيره ، ووقانا شره .

اللهم اغفر لكاتبه ولوالديه وأشياخه وأزواجه وذرياته وأحبابه والناظرين فيه ، وكل مَنْ دعا لنا بالرحمة ولجميع المسلمين . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون] .

---

(١) آخر ما في نسخة (م) ، وهي التي أشرنا إليها برقم ٢٠٣٤٧ بعلوم الكتب ، وسبق في التقديم وصفها .

فهرس القسم الثالث *

(*) هذا فهرس القسم الثالث اقتصرنا فيه على الموضوعات العامة ، أما الفهارس الفنية المتنوعة فستأتى بعد فى هذا القسم الذى سيتم به الكتاب إن شاء الله .



تم القسم الثالث ، وبه يكمل الكتاب ، وبعده الفهارس العامة

فهارس الكتاب



١ ــ فهرس الموضوعات

الجزء الأول

الجزء الثاني

صفحة

صفحة

٢ – فهرس معجم الألفاظ القرآنية(*)

صفحة

حرف الهمزة

صفحة

(*) أشرت فى المقـــدمة إلى أن المؤلف لم يوفق فى ترتيب الألفاظ التى جعلها تحت عنوان « ألفاظه المشتركة » وبينت الدليل على ذلك ، فــكان لابد من هذا الفهرس ليدل على الألفاظ فى أماكنها ، ويسهل البحث عنها .

حرف الباء

حرف الثاء

حرف الذال المعجمة

حرف الزاى

حرف الشين المعجمة

حرف الطاء

حرف الغين المعجمة

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء



٣ - فهرس الشعر

حرف الهمزة

حرف البـاء

حرف الجيم

حرف الدال

حرف الراء

٤ – فهرس أهم مراجع المؤلف *

الإبانة لمكى

الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى

إحكام الرأى فى أحكام الآى لابن الصائغ الحنبلى

أحكام القرآن لابن العربى

إحياء علوم الدين للغزالى

اختصار المستدرك للذهبى

الآداب لجعفر بن شمس الخلافة

الأذكار للنووى

الإرشاد فى القراءات العشر ، لأبى بكر الواسطى

أسباب النزول للواحدى

أسرار التنزيل للبارزى

أسرار التنزيل للسيوطى

الأسماء والصفات للبيهقى

الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد السلام

إعجاز القرآن للقاضى أبو بكر الباقلانى

إعجاز القرآن للخطابى

إعجاز القرآن للزملكانى

الإعجاز لابن سراقة

إعجاز القرآن للفخر الرازى

الإغريض فى الفرق بين الكناية والتعريض للسبكى

(*) ينص المؤلف على مرجعه الذى نقل عنه ، فآثرت أن أصنع هذا الفهرس ، ليكون مكتبة إسلامية لغوية تبين لنا الجهد الذى بذله المؤلف فى تأليفه ، والطريق الذى سار فيه فى بحثه ، مما يدل على اطلاعه وسعة أفقه وطريقته فى التأليف .

الاقتناص فى الفرق بين الحصر والاختصاص لابن السبكى
الأقصى القريب للتنوخى
أمالى الرافعى للإمام الرافعى
الإمام فى أدلة الأحكام للشيخ عز الدين بن عبد السلام
أمثال القرآن للماوردى
الانتصار للقاضى أبى بكر الباقلانى
الإيضاح للقزوينى
بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصرى
البديع لابن المعتز
البديع لابن منقذ
البرهان فى علوم القرآن للزركشى
البرهان فى مشكلات القرآن لشيذلة
البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن لأبى جعفر بن الزبير
بستان العارفين لأبى الليث السمرقندى
البسيط والوجيز لابن برهان الشافعى
التاريخ الكبير للبخارى
تاريخ ابن عساكر
تاريخ المظفرى
التبيان (إملاء مامن به الرحمن) للعكبرى
التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم
التبيان فى المعانى والبيان للطيبى
تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصرى
التذكرة لأبى حيان
التعريف والإعلام لما أبهم فى القرآن من الأسماء
والأعلام للسهيلى
تفسير الأصبهانى
تفسير الحوفى

تفسير أبو حيان

تفسير الحوفى

تفسير الرمانى

تفسير الطبرى

تفسير عبد بن حميد

تفسير عبد الرزاق الصنعانى

تفسير ابن عطية

تفسير ابن أبى الفضل المرسى

تفسير الكواشى

تفسير الماوردى

التلخيص للقزوينى

التمهيد لابن عبد البر

تهذيب الأسماء واللغات للنووى

التوبة لابن أبى الدنيا

التوشيح لخطاب

التيسير لأبى عمرو الدانى

الثمانية لابن جبير المكى

جامع الخلى فى أصول الدين والرد على الملحدين لأبى إسحاق الاسفرايني

جدل القرآن لنجم الدين الطوفى

جمال القراء السخاوى

الجمان فى تشبيهات القرآن لأبى القاسم عبد الله بن الحسين

جواهر القرآن للغزالى

حواشى الكشاف للرازى

الخاطريات لابن جنى

الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح لابن أبى الاصبع

درة التنزيل وغرة التأويل لأبى عبد الله الرازى

صحيح مسلم = الجامع الصحيح
ضمائر القرآن للكرمانى
عروس الافراح للشيخ بهاء الدين بن السبكى
العقد الفريد لابن عبد ربه
عمدة الحكام فيما لا ينفذ من الأحكام للطرطوسى
الغرائب والعجائب للكرمانى
غرر البيان لمبهمات القرآن لابن عسكر
الفروق للقرافى
فضائل القرآن لابن الضريس
فضائل القرآن لأبى عبيد
فقه اللغة للثعالبى
الفلك الدائر لابن أبى الحديد
فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن لابن الجوزى
فوائد أبى بكر بن العربى فى رحلته
قانون التأويل لابن العربى
القواصم لابن العربى
الكامل للمبرد
الكشاف للزمخشرى
كشف المعانى عن متشابه المثانى للقاضى بدر الدين بن جماعة
« ليس فى كلام العرب » لابن خالويه
متشابه القرآن للكرمانى
المثل السائر لابن الأثير
مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن للسيوطى
المحتسب لابن جنى
المختار من الطيوريات للسلفى
المخصص لابن سيده
مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع للسيوطى

المرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز لأبى شامة
مسائل نافع بن الأزرق
المستدرك للحاكم
مسند أحمد
المصاحف لابن أشته
المصباح لبدر الدين بن مالك
معانى القرآن للفراء
المعجم الكبير للطبرانى
المعرب للجواليقى
المعيار للزنجانى
المغنى لابن هشام
مفتاح العلوم للسكاكى
مفردات القرآن للراغب الأصفهانى
المقتنص فى فوائد تكرير القصص
المقدمة فى سر الألفاظ المقدمة لابن الصائغ
ملاك التأويل فى متشابه التنزيل لأبى جعفر بن الزبير
منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى
المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب للسيوطى
الناسخ والمنسوخ لابن بركات السعيدى
الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس
الناسخ والمنسوخ لابن الحصار
الناسخ والمنسوخ للسجستانى
الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد
الناسخ والمنسوخ لابن العربى
الناسخ والمنسوخ لمكى
النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى
نظم الدرر فى تناسب الآى والسور، لبرهان الدين البقاعى

النفيس لابن الجوزى
نقـــد الشعر لقدامة
نهاية الإيجاز فى علم البيان للرازى
النوادر لأبى زيد
هداية المرتاب فى المتشابه للسخاوى
الوقف والابتداء لابن الأنبارى
الياقوتة لأبى حفص عمر بن أحمد النسفى
اليواقيت لأبى عمر الزاهد



٥ ـ فهرس مراجع التحقيق

الإبانة عن معانى القراءات لمكى بن أبى طالب تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي (نهضة مصر)

الإتقان السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (مطبعة المشهد الحسيني ١٩٦٧ م)

أحكام القرآن لابن العربى تحقيق على محمد البجاوى (مطبعة عيسى الحلبي ١٩٦٩ م)

أساس البلاغة للزمخشرى (طبعة دار الكتب)

الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبد السلام هارون (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ م)

الإصابة لابن حجر تحقيق على محمد البجاوى (مطبعة نهضة مصر ١٩٧٢ م)

إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر (دار المعارف ١٩٥٤ م)

إعجاز القرآن للخطابى (دار المعارف)

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (دار الكتب)

الإكمال لابن ما كولا نسخة الخطية المحققة عن نسخة (دار الكتب رقم ٨)

التبيان (إملاء مامن به الرحمن) لأبى البقاء العكبرى (مطبعة صبيح)

إنباه الرواة للقفطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار الكتب ١٩٥٠ م)

البداية والنهاية لابن كثير (مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ)

بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصرى تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف (نهضة مصر ١٩٥٧ م)

البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٧ م)

بصائر ذوى التمييز للفيروزأبادى تحقيق محمد على النجار (القاهرة ١٩٦٥ م)

بغية الوعاة للسيوطى (مصر ١٣٢٨ هـ)

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر (مكتبة عيسى الحلبي ١٩٥٤ م)

تاج العروس للزبيدى (القاهرة ١٣٠٦ هـ)

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

تاريخ الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف)

تحرير التحبير لابن أبي الاصبع المصرى تحقيق الدكتور حفني محمد شرف

(القاهرة ١٣٨٣ ﻫ)

تذكرة الحفاظ للذهبي (حيدر آباد سنة ١٣٣٣ ﻫ)

تفسير الطبرى

تفسير القرطبي (دار الكتب المصرية)

تفسير ابن كثير (مطبعة عيسى الحلبي)

التقريب لابن حجر تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف (المكتبة العلمية بالمدينة المنورة)

تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضى

تحقيق محمد عبد الغنى حسن (مطبعة عيسى الحلبي ١٩٥٥)

تهذيب التهذيب لابن حجر (مطبعة حيدر آباد ١٣٢٥ ﻫ)

التوضيح لابن ناصر الدين (مخطوطة دار الكتب)

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (حيدر آباد سنة ١٣٥٠ ﻫ)

ديوان البحترى (مطبعة الجوائب ١٣٠٠ ﻫ)

ديوان المتنبي بشرح العكبرى (مطبعة مصطفى الحلبي)

رسالة في إعجاز القرآن للرماني (دار المعارف)

سر الفصاحة للخفاجي (المطبعة الرحمانية ١٠٣٢ م)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (القدسى ١٣٥١ ﻫ)

شرح شواهد الشافية لعبد القادر البغدادى (مطبعة حجازى بالقاهرة)

الشعر والشعراء لابن قتيبة (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦٤ ﻫ)

الصاحبي لابن فارس (المكتبة السلفية ١٣٢٨ ﻫ)

الصحاح للجوهرى (دار الكتاب العربى ١٣٧٦ ﻫ)

صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٧٤ ﻫ)

عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي (مصر ١٣١٨ ﻫ)

طبقات الشافعية لابن السبكي (مطبعة عيسى الحلبي)

الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (نهضة مصر)

فضائل القرآن لابن كثير (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٧١ ﻫ)

القاموس المحيط للفيروز ابادى (المطبعة المصرية ١٣٥٣ ﻫ)

الكشاف للزمخشرى (المطبعة البهية ١٣٤٣ هـ)
الكتاب لسيبويه (بولاق ١٣١٦ هـ)
كشف الظنون لحاجى خليفة (استامبول ١٣٦٠ هـ)
اللباب فى الأنساب لابن الأثير (القدسى ١٣٥٧ هـ)
لسان العرب لابن منظور (بولاق ١٣٠٠ هـ)
المثل السائر لابن الأثير (نهضة مصر)
المحبر لابن حبيب تحقيق الدكتورة ايلزه (حيدر آباد ١٣٦١ هـ)
المحتسب لابن جنى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)
المستدرك لابن نقطة (مخطوطة دار الكتب ١٣٨٦ هـ)
المشتبه للذهبى تحقيق على محمد البجاوى (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٢ م)
معجم البلدان لياقوت (مطبعة السعادة)
مراصد الاطلاع لابن عبد الحق تحقيق على محمد البجاوى (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤م)
المعرب للجواليقى تحقيق أحمد شاكر (دار الكتب ١٣٦١ هـ)
المغنى لابن هشام (مطبعة السعادة)
مفردات القرآن للراغب الأصبهانى (مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٦١)
مقدمتان فى علوم القرآن تحقيق المستشرق أرثر جفرى
(مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٤م)
الموشح للمرزبانى تحقيق على محمد البجاوى (نهضة مصر)
نسب قريش للمصعب الزبيرى تحقيق بروفنسال (دار المعارف ١٩٥٣ م)
النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (المكتبة التجارية)
نقد الشعر لقدامة (المطبعة المليجية ١٣٥٢ هـ)
النهاية لابن الأثير المطبعة العثمانية ١٣١١ هـ)
وفيات الأعيان لابن خلكان (مصر ١٢٩٩ هـ)

التصويب*

الصواب	السطر	الجزء والصفحة	الصواب	السطر	الجزء والصفحة
فادَّارَأتم	٢	١ — ١٧٣	بن	٣	٣ — ٢٧٧
وكَمَن	١٠	١ — ١٨٤	يشاربه	٢	٣ — ٣١١
المَيْتَةُ	٦	١ — ٢٢٠	وَسَطًا	١١	٣ — ٣١٢
افْعَلْ	١٧	١ — ٢٦١	وَقْرًا	١	٣ — ٣٣١
مُقَدَّرٌ	١٧	١ — ٣٦٨	وارِدَهم	٦	٣ — ٣٦٢
عبد الله	١٦	١ — ٤٩٢	أشَرِ	٦	٣ — ٣٦٥
لَمَّا	٩	١ — ٥٥٠	ورضي له	٧	٣ — ٣٩٩
رب	٢	٢ — ١١٢	فَلْيَأنَفْه	١٣	٣ — ٤٠٥
مُطلِعْ	٧	٢ — ١٢٣	وسَطَنَ	١٣	٣ — ٤٤٢
سورة	١١	٢ — ٢٣١	ولاقودَتَهم	٩	٣ — ٤٥٠
لِلْمُتَقوين	٨	٢ — ٤٤٢	إنْ كانت	١٠	٣ — ٤٥٨
طَلْنا	١٢	٢ — ٤٦٢	جوابه	١١	٣ — ٤٥٨
وقيل	٩	٢ — ٥٣٢	بِمَا	٩	٣ — ٤٧٥
صُرْهن	٩	٢ — ٦١٢	تَبَادلن	٥	٣ — ٤٩٦
أبو عبيد	١٦	٢ — ٦١٦	بقِ	٦	٣ — ٥٣٦
لِلْمُجْترِمين	٥	٣ — ٢٦	مُحَدَّث	٣	٣ — ٥٥١
أحوالهم	١٩	٣ — ١٠٠	ذِكر	٣	٣ — ٥٦٢
اتقِيَا	١٠	٣ — ١١٧	وكَلَّ	٦	٣ — ٥٦٥
الفَرْش	٩، ١١	٣ — ١٦٤	الصيحةُ	٧	٣ — ٥٨٤
ويقوم	١٢	٣ — ٢٠٩	٥ إلى	إلى ٥	٣ — ٥٩٢

* وقعت في الطبع أخطاء مطبعية نورد أهمها هنا :



خاتمة

تمت فهارس الكتاب بحمد الله وتوفيقه ، ونشكره على هدايته ، ونرجو أن يكون النفع به بقدر ما بذلنا من جهد ، وما قصدنا إليه من خير ؟

علي محمد البجاوي

مصر الجديدة في ذي الحجة سنة ١٣٩٢ هـ (يناير ١٩٧٣ م) .



رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/١٧٨٤